

جون لويس بيركهارت

رحلات إلى شبه الجزيرة العربية



رحلات إلى شبه الجزيرة العربية

يتضمن
وصفاً لمناطق في الحجاز



مركز تحقيقات كامبيوتري علوم إسلامي

بقلم
جون لويس بيركهارت

هنري كولبرن، نيو بيرلينغتون ستريت
سنة ١٨٢٩

جمعدي اموال

درکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ش-اموال ٩٧ ٩٦ ٩٥ ٩٤ ٩٣ ٩٢ ٩١ ٩٠ ٨٩ ٨٨ ٨٧ ٨٦ ٨٥ ٨٤ ٨٣ ٨٢ ٨١ ٨٠ ٧٩ ٧٨ ٧٧ ٧٦ ٧٥ ٧٤ ٧٣ ٧٢ ٧١ ٧٠ ٦٩ ٦٨ ٦٧ ٦٦ ٦٥ ٦٤ ٦٣ ٦٢ ٦١ ٦٠ ٥٩ ٥٨ ٥٧ ٥٦ ٥٥ ٥٤ ٥٣ ٥٢ ٥١ ٥٠ ٤٩ ٤٨ ٤٧ ٤٦ ٤٥ ٤٤ ٤٣ ٤٢ ٤١ ٤٠ ٣٩ ٣٨ ٣٧ ٣٦ ٣٥ ٣٤ ٣٣ ٣٢ ٣١ ٣٠ ٢٩ ٢٨ ٢٧ ٢٦ ٢٥ ٢٤ ٢٣ ٢٢ ٢١ ٢٠ ١٩ ١٨ ١٧ ١٦ ١٥ ١٤ ١٣ ١٢ ١١ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١ ٠



Arab Diffusion Company

رحلات إلى شبه الجزيرة العربية

يتضمن
وصفاً لمناطق في الحجاز

بقلم
جون لويس بيركهارت
ترجمة هتاف عبدالله

كتابخانه
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی
شمار ثبت: ۳۳۰۳۴
تاریخ ثبت:



ص.ب 113/5752

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com

www.alintishar.com

بيروت-لبنان

هاتف: ٩٦١-١٦٥٩١٤٨ فاكس: ٩٦١-١٦٥٩١٥٠

الطبعة الأولى ٢٠٠٥

المحتويات

٧	تمهيد المحرر
١٣	مقدمة الكاتب
١٤	رحلات في منطقة الحجاز العربية مدينة جدة
٥٣	الطريق من جدة إلى الطائف
٦٥	الإقامة في الطائف
٨٩	وصف مكة (المكرمة)
٩٦	إحياء مكة (المكرمة)
١١٥	وصف بيت الله أو المسجد الكبير في مكة
١٣٨	بعض الملاحظات التاريخية المتعلقة بالكعبة ومسجد مكة
١٤٥	وصف عدة أماكن مقدمة أخرى
١٥٣	ملاحظات حول سكان مكة وجدة
١٨٥	حكومة مكة
٢٠١	المناخ والأمراض في مكة وجده
٢٠٦	الحج
٢٤٣	الرحلة من مكة إلى المدينة
٢٦٤	المدينة
٢٦٨	وصف المدينة
٣٠١	وصف لبعض أماكن الزيارة

٣٠٨	حول سكان المدينة
٣٢٥	حول حكومة المدينة
٣٣٠	مناخ المدينة وأمراضها
٣٣٢	الرحلة من المدينة إلى ينبع
٣٤١	ينبع
٣٥٣	من ينبع إلى القاهرة

الملاحق

٣٦٩	ملحق رقم ١: محطات قافلة الحج
٣٧١	ملحق رقم ٢: حول البلاد التي يسافر عبرها الحجاج
٣٧٤	ملحق رقم ٣: الطريق من الطائف إلى صنعاء
٣٧٥	ملحق رقم ٤: ملاحظات تتعلق بالبلاد الواقعة جنوب مكة
٣٨١	ملحق رقم ٥: قافلة الحج من القاهرة إلى مكة
٣٨٣	ملحق رقم ٦: ملاحظات جغرافية حول البلاد شمال المدينة
٣٩٤	ملحق رقم ٧: ملحق لوصف بيت الله أو مسجد مكة
٣٩٥	ملحق رقم ٨: ملاحظات لغوية
٣٩٧	ملحق رقم ٩: ملاحظات طبوغرافية
٣٩٩	ملحق رقم ١٠: ملاحظات إضافية

تمهيد المحزر

لقد ولّت بضغ سنوات الآن منذ تقديم جزأين منفصلين من أعمال بيركهارت (أسفاره في النوبة وسوريا) إلى الجمهور ولقي الجزءان استحساناً كبيراً؛ وكان وراء نجاحها جدارتها الهامة فضلاً عن شهرة محررها عالماً وجامعاً للمكتب القديمة النادرة، ورخالةً وعالمياً بالجغرافيا. يجب ألا يستتج من التأخير في نشر هذا الكتاب بأن محتوياته أقل شأنًا من تلك الأجزاء التي لبثت أهميتها وفائدتها للعديد من القراء. ولطالما وجدت النية في إصدار هذا الكتاب وأعمال أخرى للكاتب نفسه، تبعاً ويقول الكولونيل ليك (Leake) في تمهيد الكتاب عن الأسفار في سوريا، وما تزال هناك مخطوطات تكفي لملء كتابين: سبحتوي الأول على رحلاته في شبه الجزيرة العربية، والتي حُصرت في منطقة الحجاز أو أرض المسلمين المقدسة، وهو الجزء الذي يصب على المسيحيين إيجاده والحصول عليه؛ وسبحتوي الكتاب الرابع على ملاحظات وافرة عن عرب الصحراء وبشكل أخص الوهابيين.

فيما يتعلق بالجزء الذي بين يدي القارئ الآن، يعتبر الكولونيل Leake، في موضع آخر، عن إعجابه الشديد. ويقول «لقد قدّم بيركهارت إلى «الجمعية» أدق وأشمل تقرير وصل إلى أوروبا عن الحجاز، بما في ذلك مدينتا مكة والمدينة. فإن معرفته باللغة العربية وبعادات المسلمين، قد مكنته من انتحال صفة المسلم وشخصيته بنجاح لا نظير له، بحيث أقام في مكة خلال موسم الحج كله، وأدى الشعائر الواجبة في هذه المناسبة، دون أن يُثير أي شكوك، مهما كانت بسيطة، حول شخصيته الحقيقية». (راجع كتابه «الرحلات إلى بلاد النوبة» قصة حياته المرفقة بالكتاب، ص 181، الطبعة 1819).

ولو أن عملاً لرحالة أقل شأنًا بكثير من صاحبنا لقي كل هذا الإطراء لكان حريقاً بأن ينال اهتمامنا وهذا يظهر في استحقاق آخر، حيث إن محرر كتابات بيركهارت السابقة، هو الذي قام بتصحيحها جزئياً وتحضيرها للنشر. إلا أن بعض الاهتمامات الأدبية قد حالت دون إشراف الكولونيل Leake على سير العمل بهذا الكتاب وصولاً إلى المطبعة. غير أن انحراف الخالي قد بنى خطته من غير تغيير تقريماً، وخاصة في انطباعات الكاتب وأحاسيسه في المناسبات كلها بشكل وفي ودقيق وكذلك في المحافظة على لغته الأصلية دون الاهتمام بأسلوب الكتابة الأنيق أو الحرص على انشاء الصعيرات، وذلك كلما لم تدع الحاجة

إلى بعض التعديلات غير الضرورية لخلق الانسجام مع نظام لغتنا وتراكيبها النحوية، فيما يتعلق ببعض العبارات الأجنبية التي تسللت إلى كتاباته الإنكليزية^(١).

قد تبدو الخريطة المرفقة بهذا الكتاب غير ضرورية، وإذ إن مواقع جدة ومكة والمدنية والطائف وتبع، وهي الأماكن الرئيسية التي زارها بيركهارت في الحجاز، قد تمت الإشارة إليها بدقة في الخرائط البارعة التي تحدّد رحلاته إلى بلاد النوبة وسوريا. لكن، بما أن القارئ لهذا الكتاب ليس من المفترض منطقياً أن تكون تلك النسخ في حوزته للرجوع إليها مباشرة، فقد قمنا بوضع خريطة هنا، قام السيد Sydney Hall في أثناء وضعها وتحديد خطوطها، بالاهتمام بالافتراضات كلها التي قدّمها المحرر الذي أوصى بلفظ أسماء الأماكن حسب طريقة بيركهارت وأسلوبه، مهما اختلفت عن تلك الشائعة بيننا^(٢).

وحسب نصيحة المحرر، تم كذلك إدراج عدة أماكن واقعة خلف حدود الحجاز الشرفية في هذه الخريطة، حيث إن بيركهارت قد أعطى بعض الجهات التي تُذكر فيها تلك الأماكن، بالرغم من أنه لم يقيم شخصياً بزيارتها.

ومن الواضح أن تلك الأماكن لا تدخل ضمن المنطقة التي تُسمى بالحجاز؛ لكننا لا نستطيع تحديد المسافة التي تمتد فيها تلك المنطقة شرقاً، وتستوفنا الصعوبات نفسها فيما يتعلق باتجاهات مختلفة. وقد قام المحرر بالإطلاع على أعمال العديد من الكتاب، الأوروبيين منهم والمستشرقين، وذلك للتأكد من الحدود التي تفصل الحجاز عن باقي المناطق في شبه الجزيرة. غير أن نتيجة بحثه لم تكن مرضية؛ إذ إن بعض الكتاب قد أدرجوا مدناً ومحطات ومقاطعات ضمن أراضي البلاد المجاورة، وهي نفسها التي يضعها كتاب آخرون بالمستوى نفسه، في الحجاز.

قد يكون هذا الالتباس ناشئاً من البيانات المختلفة عن عدد المقاطعات وامتدادها وأسمائها الواقعة في المنطقة نفسها. ويقسم الكتاب الأوروبيون هذه المساحة إلى ثلاث مناطق رئيسية هي الجزيرة الصخرية، والجزيرة الصحراوية، والجزيرة السعيدة. بينما يقوم علماء الجغرافيا الشرقيون بتجزئتها إلى مقاطعتين أو خمس أو ست أو سبع أو أكثر بأسماء لا تتوافق أبداً في المعنى مع الألقاب المذكورة أعلاه والتي استعملناها من اليونانيين والرومان.

لذلك، فإن مهمة تحديد تخوم كل مقاطعة في تلك المنطقة بدقة هي من الصعوبة بمكان أو هي مهمة لا تكاد تكون ممكنة وهذا ما يعترف به الجغرافي البار دافيل (D'Anville)؛ إلا أنه يميل إلى الخلط بين المنطقة

(١) لقد كان من المناسب أن نضع الكلمات العربية التي تتبع مباشرة بعض الكلمات في الكتاب الأصلي، أو تلك التي تظهر بين الأسطر أو في الهامش مع بعضها في نهاية الكتاب، في ملحق يتضمن الصفحات التي وردت فيها تلك العبارات، وذلك لأسباب تتعلق بالطباعة بهدف تسهيل نشر هذا الكتاب وتسهيله.

(٢) بالتالي، قد تكون مدينة Mekka قد تمّ لفظها Mecca في خريطة هذا الكتاب؛ والحجاز Hejaz وجدة Jidda وتجد Nejed، حيث إنه بلفظها هكذا ستعطي اللفظ نفسه إذا ما كتبت Hedjaz وNedjed Djidda؛ وتكون بالوقت نفسه قريبة من طريقة الكتابة العربية الأصلية، حيث إن حرف (j) الإنكليزي (كما في كلمات James وJar، الخ) تُكتب دون مساعدة حرف (d)؛ على الرغم من أن زيادة هذا الحرف الأخير إلى حرف (j) قد يحول دون أن يلفظ الفرنسي هذا الحرف كما يلفظ كلمات jamaïs وjour، الخ.

التي تحوي على مكة وجدة وثبع (وهي مناطق نعلم جيداً أنها، دون أي لبس، تقع في الحجاز)،
وArabia Felix^(١). أما D'Herbelôt فهو يقول مرة إن الحجاز هي Arabia Petraea^(٢)، ومرة أخرى يعرفها
Arabia Deserta^(٣).

من بين الكتاب الشرقيين، بعضهم يقسم شبه الجزيرة إلى جزأين: اليمن والحجاز؛ وبعضهم الآخر
يقسمها إلى خمس مقاطعات كبيرة، اليمن والحجاز ونجد وتهامة واليمامة. وقد أدخلت البحرين كذلك؛
كما أن العروض تسمى كمقاطعة عربية، لكن يبدو أنها واليمامة المقاطعة نفسها. أما حضرموت وبلاد
المهرة والشعر وعمان وأجزاء أخرى صغيرة فقد اعتبرها كذلك بعضهم مقاطعات مستقلة، بينما يمزجها
العديد مع المناطق الكبيرة كاليمن والحجاز. وتنسب غالباً إلى الحجاز نجد وتهامة واليمامة.

فيما يتعلق بحدود تلك المقاطعات، برز حرج بالغ بسبب الإفادات المتناقضة التي قدمها العديد من
الجغرافيين الشرقيين البارزين كالإدريسي وأبو الفداء والمدايني وابن حوقل وابن الوردي والبكري وغيرهم.
أما السيد رومل، وهو معلق بارع على كتاب جزيرة العرب لأبي الفداء، فعالباً ما يضطر إلى الاعتراف
بالصعوبة في تحديد المكان الذي تبدأ فيه مقاطعة والمكان الذي تنتهي فيه أخرى بطريقة دقيقة. أما بالنسبة
إلى حدود الحجاز خاصة، يلزم أبو الفداء الصمت؛ لكن يبدو أن رأيه لا يتوافق في الأمور كلها مع
إفادات جغرافيين^(٤) معروفين آخرين حسبما استطاع السيد رومل تجميعه من شذرات متفرقة عن الأماكن
الداخلية ضمن تلك المقاطعة والأراضي المجاورة.

- (١) دانفيل، جغرافيا قديمة.
- (٢) أنظر وراجع المكتبة الشرقية في «Hegiaz أو Higiaz» - «اسم مقاطعة في شبه الجزيرة العربية، التي نسميها حجازية»
(«Nom d'une Province de l'Arabie que nous appelons Pierreuse?»)، ورينشاردون كذلك، في قاموسه
العربي والفارسي بشرح كلمة حجاز - مكة والبلاد المجاورة Arabia Petraea وDemetrias Alexandrides الذي
ترجم نسبة من جغرافيا أبو الفداء إلى اليونانية، يستبدل الحجاز دائماً بـ Apeubia Tetppais.
- (٣) مقاطعات تهامة واليمامة كأنها في قلب البلاد، والحجاز أصبحت أكثر شهرة بسبب مكة والمدينة، وبشكل مع الاثنين
الذين ذكرناهما، ما نسب ل'Arabie Deserte - المكتبة الشرقية في «عرب».
- (٤) راجع: «Christophori Rommel Abulfeda Arabiae Descriptio, commentario perpetuo illustrata». Gottingae, 1802.
«Ambitum et fines hujus provinciae Abulfeda designare supersedet. Al Mada'eni haec profert:
'Hegiaz est provincia complectens illum tractum montium qui inde ab Yaman expansus usque ad
Sham (Syrian) protenditur. In eo tractu sitae sunt Madhina et Amman'. Cum hoc dissidere
Abulfeda non dubium est. - Ibn al Arabi: 'Quod est inter Tebamah et Nagd, illud est Hhegiaz.' -
Fusius Ibn Haukal: 'Quod protenditur a limite Serrain urbis sitae ad mare Kolzum adusque viciniam
Madian, et inde reflectendo per limitem tendentem in ortum urbis Hhegr, ad montem Tai
Transeundo juxta tergum yamamah ad mare persicum, hoc totum ad Hhegiaz pertinet.' Et alio loco:
'Hhegiaz ea est provincia, quae Maccah et Madinah et Yamamah cum earundem territorii
comprehendit'. - Ibn al Vardi Hhegiaz appellat provinciam secus Sinum Arabicum et a regione
Habysiniac sitam - Bakui eam inter Yaman et Syriam posuisse satis habet, simul longitudinem ejus
mensis itimere emetina.» - (pp. 57-58).

ولعل سائلاً يسأل لماذا لم يقم رُحالتنا الباحث بالاطلاع بدقة على مساحة الحجاز وحدودها في أحد المواطنين اللامعين. والمقطع التالي (الذي كبه بيركهارت في نهاية هذا الكتاب، والذي شكل ربما جزءاً من الملحق) قد يشكل جواباً عن هذا السؤال. وهو يُظهر أيضاً أن السكّان الحاليين لا يتفقون في تسمية الحجاز. ويقول «هذه التسمية لا يستعملها بدو شبه الجزيرة في الاستعمال المعتاد للكلمة. فهم يدعون الحجاز، حصرياً، البلاد الجبلية وتضم عدة أودية خصبة إلى الجنوب من الطائف حتى مناطق سكنى عرب عسير حيث بدأت تُزرع أشجار القهوة بكثافة. هذا هو الاستعمال العام للكلمة بين كل بدو تلك البلاد؛ ويستخدمها أبناء المدن في مكة وجدة كذلك بهذا المفهوم بين بعضهم بعضاً. لكنهم، حين يتحدّثون مع الغرباء ويتبنون مفاهيمهم بلياقة، يطلقون اسم الحجاز على البلاد بين الطائف ومكة والمدينة ويتبع وجدة. ويُطلق البدو تسمية «الغور» (El Ghor) أو الأرض الجنوبية على المقاطعة كلها إلى الغرب من الجبال، من مكة صعوداً حتى بدر ويتبع؛ في حين أن الجبال تلك نفسها، إلى الشمال من الطائف تُسمى حجاز الشام، أو الحجاز الشمالية»^(١).

بالرجوع إلى الصفحات رقم ٣٩٦ و ٣٩٧ (في الكتاب الأصلي)، نجد ملاحظة تتعلق بالاستعمالات المختلفة لتلك التسمية (الحجاز) بين أولئك الذين يسكنون على الساحل والبدو الذين يقطنون داخل البلاد؛ وسيظهر أن الشكوك تقوم حتى حول ما إذا كانت المدينة المقدسة (المدينة) تنتمي إلى نجد وليس إلى الحجاز.

ويمثل هذه التقديرات الغامضة المبهمة، سبباً لأي محاولة لتحديد حدود أي بلد من البلدان بدقة، محاولة عبثية بغير جدوى: غير أن المنطقة وحدودها على البحر الأحمر والتي يدعوها أبنائها بلا شك «الحجاز» مرسومة على خريطتنا وعلى أي خريطة أخرى صدرت هنا، بتلك التسمية نفسها، بحيث تُكتب أول أحرفها حيث يفترض الناشر أن Arabia Petraea تنتهي حدودها، وأحرفها الأخيرة حيث يفصل الحجاز عن نهامة»^(٢).

ولأولئك الذين يسعون وراء المعلومات الدقيقة فيما يتعلق بالأماكن غير المعروفة جيداً، فإن ما يركي هذا الكتاب هو اسم كاتبه والبلد الذي يصفه. يقول السير ويليام جونز: «إن عادات عرب الحجاز استمرت من زمن سليمان وحتى العصر الحالي»^(٣). ويقول غيرون: «إن مفاهيمنا عن مكة يجب

(١) قد يؤكد هذا اشتقاق كلمة حجاز (التي ذكرها Golius) من احتجرت، لكن آخرين يأخذونها من الكلمة العربية يحجز لأن الحجاز يقسم نجداً عن نهامة، أو لأنه يربط اليمن بسوريا اللتين تقع بينهما. بما أن أسفر ملاحظة يركيها بيركهارت يجب اعتبارها ذات أهمية، فإننا سنخرج هنا بضعة أسطر تلي مباشرة المقطع المذكور أعلاه من كتابه: «إني أحصي عدد السكان في المنطقة التي تُسمى عادة الحجاز، وتشمل كل الأراضي التابعة لشريف مكة، مع سكان المدينة والمدن الواقعة هناك، وكل القبائل البدوية، بنحو مئتين وخمسين ألف نسمة؛ وهو رقم يمثل الحد الأعلى وليس الأدنى والجزء الأكبر منه هم البدو الذين يسكنون الجبال وخاصة قبائل بني حرب القوية».

(٢) بيركهارت (الأسفار السورية، ص ٥١١) يستشهد بالمؤرخ المصري المقرئ الذي يقول، في الفصل عن أئمة (العقب) ومن هنا يبدأ الحجاز. في السابق كان موضع الحدود اليونانية.

(٣) مقالة عن العرب، أبحاث آسيوية، المجلد II.

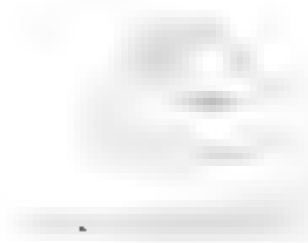
استخلاصها من العرب حيث يُمنع على أي من غير المسلمين الدخول إلى المدينة، ويلزم رحلتنا الصمت؛ كما أن تلميحات Thevenot القصيرة نستقيها من لسان مرتد إفريقي مشوه.

غير أن قارئ هذا التمهيد يجب ألا يمتنع عن قراءة ومتابعة تقارير بيركهات الأصلية والمهمة عن الأماكن التي زارها والشعائر الغريبة التي شهدا وعن الشعب الذي عاش بينه بشخصية رجل مسلم. ونحن نقدم في الصفحة التالية بعض للملاحظات القصيرة المكتوبة على أوراق منفصلة، والتي أرادها الكاتب بلا شك مقدمة لهذا العمل، لأن الرحلات في شبه الجزيرة العربية يجب أن تبدو كما أرادها الكاتب وهذا ما أولاه الناشر عنايته واهتمامه.

وليام أوسلي

لندن، كانون الثاني/ يناير ١٨٢٩





مقدمة الكاتب

غالباً ما استشهدتُ، في صفحات هذا الكتاب، ببعض المؤرخين العرب الذين أملاك أعمالهم.
ريتملكني الندم الآن لأن تلك المخطوطات لم تكرر بحورني في حجار. حيث إنني ابتعتُ الكتابين الأولين
من القاهرة، بعد عودتي من شبه الجزيرة العربية
تلك الأعمال هي:

- ١ - تاريخ مكة بعنوان «أخبار مكة»، وهو كتاب صرح به أبو الوليد الأروقي الذي اشتهر سنة
٢٢٣ للهجرة، وقد سطر حوليات مدينته التي نشأ فيها حتى ذلك التاريخ. هذا الكتاب من
الأهمية بمكان بسبب ملاحظاته لطوبوغرافية وإطلاع كاتبه العميق على وضع شبه الجزيرة قبل
الإسلام أو (الدين الحمدي)^(١). وتبدو مخطوطه، من الخط الذي كتبت فيه أن عمرها ست مئة
أو ربما سبع مئة سنة.
- ٢ - تاريخ مكة بعنوان «العقد الثمين»، وهو في ثلاثة أجزاء بقلم تقي الدين الفاسي، الذي كان
هو نفسه فاضي مكة. وتمتد تغطية الكتاب إلى سنة ٨٢٩ للهجرة، في الجزء الأول، أما
الجزءان الآخران فيحتويان على سيرة «آية لأبناء مكة اللامعين».
- ٣ - تاريخ مسجد مكة، الذي امتزج فيه تاريخ المدينة. وهو بعنوان «الإعلام في أعلام بلد الله
الحرام»، في جزء واحد ضخم، بقلم قطب الدين المكي، الذي شغل منصب عالٍ في مكة،
ويغطي فترة تمتد إلى سنة ٩٩٠ للهجرة.
- ٤ - تاريخ الحجار، وخاصة تاريخ مكة، بقلم عبد الملك العصامي. أملاك من هذا العمل الجزء الثاني
فقط، وهو مخطوطة كبيرة تحتوي على تقارير تاريخية من أيام بني أمية، إلى سنة ١٠٩٧
للهجرة. وبم أتمكّن من التأكد من عنوان هذا الكتاب الذي يرخز بالمعلومات القرينة والقيمة
والكاتب العصامي كان من أبناء مكة

(١) وإن الدين عند الله الإسلام وليس «الدين الحمدي»

- ٥ - تاريخ المعبد والمدينة، بعنوان. اوفاء الوفاء في دار انصطفى، بقلم نور الدين عني بن أحمد التمهودي^(١)، وهو من جزء واحد. ريفطى لفترة لثي تمتد حتى عام ٩١١ للهجرة

(١) يشير بيركهوت إلى هذا الكتاب الأصلي في الصفحة ٢٢٣ (من كتاب) بالأحرف (V.S.) أو (أ) ر ، انظر مسهودي

رحلات في منطقة الحجاز العربية

مدينة جدة

لقد أحاط بوصولي إلى الحجاز بعض الظروف غير السارة، بعد دخولي إلى مدينة جدة في صباح الخامس عشر من شهر تموز/ يوليو، سنة ١٨١٤، فصدتُ منزل رجل أحمل له معي خطاب التماس نقدي، سنته عد معاذرتي القاهرة في شهر كانون الثاني/ يناير، سنة ١٨١٣، ولم أكن حبيها قد عزمْتُ أمري تماماً على تمديد فترة أسفاري في شبه الجزيرة العربية. وكان استقبال الرجل لي فاتراً جداً إذ إن الخطاب كان من القدم بمكان حتى يحظى بالاهتمام وبما لا شك فيه أن مظهري المهمل الرث كان يحمل أي شخص على الحذر والاحتراز من التورط مع مراسليه، وذلك بإعطائي مبلغاً كبيراً من المال على حسابهم. فضلاً عن ذلك، فإن السدات وخطابات التماس النقدي عاباً ما يكون موضع استحفاف في التعامل لتبادل بين التجار الشرقيين وهكذا، فقد جوبهت برقص تام. غير أنه رفض مصحوب بعرض وهو إقامتي في منزل الرجل ذلك. وقد قبضت العرض لليومين الأولين ظاناً بأنني قد أجمع، غير معرفة شخصية أكثر حميمية، في إقناعه بأنني لستُ أحد النعمانيين أو الدجاجين، إلا أنني انتفضتُ، بعد أن ألقىته صلباً وعبيداً^(٥)، إلى واحد من أشهر الرجال في القاهرة وهو عربي الجيلياني، أعنى التاجر في جدة إلا أنني كنت أعلم أنه لن يُحديسي معاً، فلم أقدم له الخطاب ذلك^(١). لذلك، عقدتُ لية أخيراً على مقابلة باشا محمد علي شخصياً. كان الباشا قد وصل إلى الحجاز مع نهاية

(٥) سقطت صحتان من الترجمة

(١) أصبحت فيما بعد على معرفة وعيد، يجيلاني في مكة؛ وما رأته من أقصي يأتي من أكر محطاً في التقدير الذي شهدته له به لاستعداده الدائم لمساعدة الغرباء

فصل الربيع من سنة ١٨١٣، وهو يقيم الآن في مدينة الطائف حيث أنشئ مركز جيش الرئيسي الذي يولي به مهاجمة معانق بوهايين وحصرهم وكنت قد رأيت الباشا مرات عديدة، في القاهرة قبل رحيلي إلى شمام مصر وأطمعته بشكك عام على شدة شعفي باسم (كما أسماه هو نفسه بعد ذلك مارحاً في الطائف). تجدر بي الملاحظة هنا أن التحار في شمال مصر هم فقراء بشكل عام ولا يقد أي منهم أحكام سيد أو صك بالدفع مباشرة، لذلك، فقد رأيت من الضروري، خلال فترة إقامتي هنا، ولكي أحصل على مؤونة من المال، أن أطلب من مراسلي في القاهرة أن يدفع السبع الذي أردته من حرية الشاء، لأحصل على أمر منه لاسه إبراهيم باشا، حاكم شمال مصر آنذاك، بأن يدفع بي المبلغ. وبما أنني كنت قد حصلت على بعض المال من الشاء، حضر لي، لكي لا أتهم بالوقحة، أن أسمى لتحديد مصفي في الحجارة فضلاً عن ذلك، فقد علمت أنه عثر رسمياً عن إعجابه بشخصي وعمساعي. لذلك، عندما هدأت حدة المعالي، كتب لطيبه، وهو أرمي يُدعى بوساري (Bosari)، كنت أيضاً قد عرفت في القاهرة حيث سمعت ما سمعته عن سيره الحسنة وكان حينها مع سيده في مدينة الطائف

وقد رحوته في كتابي أن يعرض لباشا وصعي سمي، ويُعلمه بأن خطاب لأثمان سقدي الذي أحمله لم يتب الأحد به في حدة وأن يسأله إذا ما كان يقبل سداً على مراسلي في القاهرة ويأمر أمين حريته في حدة يدفع المبلغ.

على الرغم من أن مدينة الطائف تعد عن حدة مسافة خمسة أيام فقط، فإن طبيعة البلاد جعلت المسافرين نادراً ما يعامرون بعبور الجبال بين مكة والطائف، وتعاذر لقوافل التي تنقل رسائل الناس في البلاد على فترات مساعدة من ثمانية أو عشرة أيام فقط، لذلك لم أكن أنوقع جواباً عن كتابي في أقل من عشرين يوماً

خلال هذه فترة، أمضيت أوقات فراغي في حدة في سوين يوميات رحلاني في البلاد نوبة. لأن أن أخرج في ذلك الموسم كان من الشدة بمكان، خاصة في حاتي الصحية الضعيفة، بحثت بي لم تجد الراحة والسكينة إلا في الظلال الدودة في مدخل الحد حيث قمت، باستثناء بعض ساعات الصباح الأولى، وكنت أمضي القسم لأكثر من النهار ممدد على مقعد حجري وكان مراسل بوساري (Bosari) في حدة، ندي بعثت من خلاله كتابي إلى مدينة الطائف، قد ذكر سمي أمام يحيى أفندي وهو طبيب طوسون باشا، بن محمد علي وحاكم حدة الحالي الذي كان في شمام مصر ندي وجودي هناك، غير أنني لم أحفظ برؤيته وكان الطبيب هذا قد سمع في أثناء وجوده في القاهرة سمي يُذكر كمسافر أو بخالفة، عندما فهم لأن أبي أتت من البلاد السوداء (إفريقه) فسا به الفصول رؤيتي وأبدي رغبته بصديق بوساري

(Bosari) عي أن يقدم لي له. وقد استقبلي بلباقة ودعاني بشكل متكرر إلى منزله، وخلال شروحات إضافية قدمتها له بات على اطلاع ومعرفة شخصية بمطالبي وبالخطوات التي قمتُ بها لتحقيقها. وقد صادف في ذلك الوقت أنه يحضر للقيام برحلة إلى «المدينة» مع طوسون باشا وكان يُرجع حوائج غير اللازمة كلها إلى القاهرة، وكان يتوق إلى أن يرسل معها إلى عائلته مذكراته في السنة الفائتة. المائة ثلاثة آلاف درهم، وكان من اللطيف أنه عرض عليّ المال كمسند مسحوب على القاهرة، يُدفع وجهاً لوجه، وهي ميزة يعرف هو تماماً بأن تجار جدة لا يتعهدون بها من يأخذ مسداتهم ولا يُعتبر عرض كهذا بأن يقل أي التزامات عبر مدن أوروبا التجارية وإنما في الشرق ضمن الظروف التي وُضعت فيها، وهذا شيء مميز.

وأضاف يحيى أفندي أن أحد أصدقائه قد أتني على شخصيتي حين كان في القاهرة ولذلك، فإنه لا يستطيع أن يتناهى الشك ربو قليلاً حول قدرتي على إيفاء الديون جميعها وكوني جديراً بالاحترام وقد كنت رأيه عند قراءته لخطاب الائتمان النقدي الذي أحضرته معي. وبما أن نتيجة الطلب الذي أرسلته إلى الباشا في الطائف لم تكن أكيدة فقد قلتُ بسرور وامتنان اقتراح يحيى، ونسَلَمْتُ المال فوراً وشُحِبَت (العوائن) وبعد أيام قليلة، رحل صديقي الكريم إلى «المدينة» بصحبة طوسون باشا حيث كان لي متعة لقائه مرة ثانية في بداية السنة اللاحقة.

لقد أصبح بحورتي الآن مبلغ من المال يكفي لإزالة كل خوف من الفقر وما يجزّه من معاناة قبل وصول مؤونة جديدة من مصر، مهما تكن نتيجة الطلب الذي أرسلته إلى الباشا. لكن، ما إن رحل يحيى أفندي حتى تسممتُ جواراً إيجابياً نوعاً ما على الرسالة التي بعثتها إلى الطائف. لقد كان بوساري (Bosari) على ما يبدو غير عازم إلى حد ما على استحصال طلبي إلى الباشا، بعد ذلك يعود إلى خوفه من أن يُصبح هو نفسه يروح تحت وطأة المعاناة نفسها.

من ناحية ثانية، فقد سمع الباشا بوجودي في جدة عبر شخص آخر من حاشيته كسْتُ قد رأيته هناك وقد وصل إلى الطائف. وحين سمع الباشا بأنني أتقل شاب باليه رثة، بعث فوراً برسول مع جملتين إلى جاني الصرائب في جدة، سيد عبي أوجقلي الذي كان يدير شخصياً الأعمال كلها في المدينة، يأمره بأن يرؤدي ثياب وحشية تحتوي على خمس مائة درهم مالا للسعر، كل هذا مصحوباً بطلب بدعوي فيه للذهب فوراً إلى الطائف مع الرسول نفسه الذي أحضر الرسالة. وقد فُرض على سيد علي أوجقلي، في مبعث لرسالة، بأمر الرسول أن يأخذني إلى الطائف من لطريق العلوية التي تترك مكة إلى الجنوب، حيث إن لطريق السفلية المعتادة تمر في وسط المدينة تلك.

إن دعوة باث تركي تُعتبر كأمر مُلغف؛ لذلك، ومهما تكن معارضي أو رعني عن الذهاب إلى الطائف في ذلك الوقت، فإني لم أكن، في ظل الظروف الراهنة، قادر على تجنب الإعداد برغبات أباشا رغم كرهه السري لتلقي هدية منه بدل القرص، إلا أنني لا أستطيع الحماقة في قبول الثياب والمال من غير الإساءة إلى كرامه وعرة فائد وإثارة امتعاضه وسخطه، الآن وقد باب استمالة رحمة وفصائله هدي الرئيسي^(١) ولقد أدركت أيضاً معنى حاشية الرسالة مع أن سيد علي لم ينتبه له لكي، في هذه النقطة أقع نفسي بأي، إذ لباشا وشعبه.

عما أن الدعوة كانت مُلحكة، عاشرتُ حدة عند مساء في اليوم نفسه الذي وصل فيه الرسول، بعد تناول طعام العشاء مع سيد علي بصحة عدد كبير من الاحتاج من مختلف أقطار العالم حيث إن صيام رمضان كان قد بدأ آنذاك، وحلار هذا لشهر، يُندي الجميع خل ما في استطاعتهم من حسن الصياغة والبشاشة خاصة عند العشاء بعد عيب الشمس ولما كنت لا أبقى كثير بواب أباشا فقد رأيت من الضروري أن تكون محفظتي ممتلئة بالمال عند ذهبي إلى طائف لذلك، فقد حوَّثُ الثلاثة آلاف درهم كلها التي حصتُ عندها من يحيى أهدي إلى ذهب ووصعتها في حرامي فادسي يملك مال ليس لديه ما يحشاه بين العثمانيين سوى حسارة ذلك المال، إلا أنني ربما أحتاج إليه، ما يدفع رشوة وما لتسهيل رحيلي من الطائف، لكنني كنتُ مع ذلك مخطئاً لحسن الحظ في توقعاتي، ~~في توقعاتي~~ العثمانيين.

يحدر بي إضافة بعض الملاحظات عن مدينة جدة وسكانها فقد شُيّدت مدينة على رص مرتفعة قليلاً يصل البحر إلى الجزء الأدنى منها وتمتد على طول اشاطئ كما يباهر الألف الخمسمائة خطوة بينما لا يبعدى عرصها نصف تلك المساحة، في أعرض الأماكن وقد أحاطها من جهة اليابسة جدار لا بأس بحدته ولكنه غير متين، ولم يحصر على بانه سوى بصع مسوات وقد بناه السكان أنفسهم غير اتحاد جهودهم، لاعتمادهم بأنهم لا يملكون حماته من الوهابيين بوجود خائض القديم وكان قد دُمّر تقريباً بعد أن شُيّده قاصره العوري (Kansoue Ei)

(١) بعض الأشخاص ما يصرون بالحصون على الهدايا من الباشا، شري لكي انظر إلى ذلك بشكل مختلف. فأن أقدم أن الدفع ذهبي تركي في تقديم الهدايا، هو إما بالحصون على ضعف القيمة في المقابل، (وهو ما لا يتحقق على حاشي)، أو لإشباع أنه وكبرائه الخاص عبر إظهاره لحاشيته بأنه يتنازل ليكون سجيناً جاءه شخص يعتبره أدنى منه بكثير في منزله أو نفسه بعد شهدت أحيان مخبراً الوهابية. وهذا عند تقديم مثل هذه الهدايا، ويعبر أحيان عن مشاعرهم بالمولود، وانفروا، لقد رمى بظلمة إلى ذلك أنكتب: «ولعل القبيل من الأروبير يوغوسي في هذا الصدد يكن معرفتي تسمح لي بتكوين هذا الرأي» والنصيحة الوحيدة التي أستطيع تقديمها لمسافرين الذين لا يريدون الخطأ من قدرهم في نظر البلاء الأتراك، هي أن يكونوا دائماً حاضرين، في ظروف مماثلة لإعادة معروف مرحوم بصحفي فينبه أما جيد نعمن بي، هم أحظ إلا ناهراً بمرص أو مناسبات لأقيم فيها فلهذا خلال أسفاري؛ وهذه كانت المرة الوحيدة التي أُجبرت على قبولها أبداً.

(Ghoury)، سلطان مصر، سنة ٩١٧ لهجرة^(١). أما بنية الحائط الخانية فإنها تُعتبر حاجراً كافياً للعرب الذين لا يمتثلون أي مدفعية وقد تم تدعيم الحائط بعد كل أربعين أو خمسين خطوة بواسطة أبراج مراقبة محفورة بعض لسديقات الصدنة. وقد حُفر حندق صديق على طول امتداده لدعم وزيادة وسائل الدفاع. وهكذا، تتمتع جدة بشهرة هي شبه الجزيرة العربية بأنها قلعة حصينة مينة. ويقف الحائط القديم على الشاطئ نحو جهة المدينة لكنه في حالة متداعية. ويقع قصر الحاكم عند لطف الشمال، قرب النقطة التي يتلاقى فيها الحائط الجديد مع البحر، وعند الطرف الجنوبي قنعة صغيرة محفورة بشمالي أو عشر بندقات. فضلاً عن ذلك، هناك بطارية مدفعية لحراسة مدخل المدينة وحمايته من جهة البحر والسيطرة على الميناء بأسره. وهذا أيضاً صلب مدفع قديم صرح عليه «كُتَّة» ترون حسمائة بارود، وهي من لشهرة تمكان في منطقة البحر الأحمر كلها بحيث إن شهرتها هذه فقط تُعدّ حمايه مدينه حدة.

يتم الوصول بحراً إلى المدينة عبر رصيعين، عليهما تُرل قورب صغيرة حمولة السفن الكبيرة التي يُحتم عليها أن ترسو في رصيع قرب شاطئ بعد عه نحو ميين. ولا تلبو قرياً من الشاطئ إلا المراكب المسماة «سعي» (وهي المراكب الأصغر حجماً التي تُبحر في البحر الأحمر). وتُفعل أرصفة ابناء كل مساء عند العروب، فتُسمع بالتالي أي انصالات ليلية بين المدينة والسفن بمجملها.

إن لمدينة حدة، من جهة البر، بوابتين وهما باب مكة في الحسب الشرقي وباب «المدينة» في الجانب الشمالي. وقد أُغلق مؤحراً بوابة صغيرة في الحائط الجنوبي. كما أن المنطقة المحاطة بالحائط الجديد (ويلع محيطها نحو ثلاثة آلاف خطوة) وبابها لا تُكثر فيها الأبنية. هناك أرض خالية مسيحة تمتد على طول الحائط من الداخل، وهناك كذلك مساحة كبيرة من الأرض غير المستعملة قرب باب «المدينة»، وفي الطرف الجنوبي. بعد عور تلك المساحة قدوماً من لوابه، تدحل صواحي المدينة وهي لا تشمل سوى أكواح مصسوعة من القصب والقش (بات لستار فضلاً عن الأجمة، وتحيط الصواحي بالمدينة الداخلية المؤلفة من أبنية حجرية. ويسكن ليدو غالباً في تلك الأكواح أو العلاحون الفقراء والعمال الذين يعيشون ها على الطريقة البدوية. كما نجد أحياء مماثلة لهذا النمط من الناس في كل مدينة في شبه الجزيرة العربية.

لقد قُسمت مدينة حدة من الداخل إلى مناطق مختلفة، فأهل سواكن الذين يرتادون هذا المكان يقطعون قرب باب «المدينة»، وتُدعى أحياءهم حارة السواكني وهم يعيشون ها في بضعة منازل فقيره كمهم غالباً ما يسكنون في أكواح كثيراً ما تلوذ بها الطبقة الدنيا من الناس.

(١) انظر قطب الدين، تاريخ مكة

كما تقطع غيات الهوى وأولئك انلاقي يسر الشراب المسكر ويدعى «بوسة». أما أحياء لبس من دوي الشأن فتقع قرب البحر حيث تمتد شارع طويل بمودة الشاطئ وقد عصر بالدكاكين واتسع بعدد غير قليل من الخانات التي يرتادها التجار باستمرار بصورة خاصة ومدينة حدة متقنة البناء، بل إنها تفوق في ذلك أي مدينة تركية بالحجم نفسه قد ررتها حتى الآن. كما أن طرقاتها مسيحة ومهواة مع أنها غير معتدة، والمارة عالية وقد بُنيت بأكملها من حجر الندي نحضر من شاطئ البحر وهو من حجر المرجان والأحجار البحرية الأخرى. ولكل مرور تقريباً طابقان مع نوافذ صغيرة عديدة ومصايح حشنة وبعضها بها نوافذ مقوسة تُبدي عرصاً رائعاً لأعمال البحارين. وهناك بشكل عام، ردهة مسيحة عن المدخل لاستقبال الغرباء وهي، خلال فترة النهار الحارة، أبرد من أي جزء آخر من المنزل ذلك أنهم يحرسون على إبقاء أرضها مبللة تقريباً باستمرار كما أن نوريح يعرف في تلك أسوار بمائل تقريباً لتوزيعها في مزارع مصر وسوريا، إنما مع فرق واحد وهو أن جده تفتقر إلى ذلك العدد من الشقق الوسعة المصحة كما في تلك البلاد، حيث إن قبة من أسوار فقط، على أقل مزارع سكان البلاد، بها طابقان، يسما تسمير يعرف في لسان الأرضي بارتفاعها وبذلك فإن البقعة الوحيدة الباردة في مزارع عديدة في الحجاز هي اردهة أو ردهة الدخول وهناك عند الطهيرة، يمكن رؤية سيد أسر، مع كل مرافقيه وخدمته وعبيده الذكور، ينصع يأخذ قبولته^(١).

وي أن صدعة البناء بهظة الكلفة في هذه البلاد، فقبيلة هي المزارع التي اهتمت بمظهرها الخارجي إذا ما استشينا أشبهت الخشبي للوفرة المقوسة التي غالباً ما طُليت بأشد الألوان بهرجة في الخارج كما من الداخل وفي مزارع عدة، تشع الروحة الشرعية قسماً منها. وتقعط الجاريات الخشبيت في شقق منعصنة خاصة وهكذا تُدمر عمية توفير وسائل الراحة ملائمة في المبنى أكثر من الحجم أو المظهر الخارجي الجمالي، ومع ذلك، فإن كثيراً من المنازل العادية في مصر لها غرف مسيحة جميلة

لا تُرعى في جده وحدة الشكل الهندسي، فمعرض المنزل بُنيت بأحجار صغيرة وأخرى بأحجار مربعة كبيرة، ويظهر النوح لأملس من الخارج ويُملأ من الداخل بالطين. وأحياناً يكون الحائط مسياً بالكامل من الأحجار وأحياناً أخرى يكون في حائط طبقه رقيقة من الأواح خشبية موصوغة على مسافة ثلاث أقدام بين الطبقة والأخرى ويعتقد العرب أن هذه الأواح

(١) على الرغم من أن السمات الباردة تأتي فقط من الشمال، فإن العرب لا يدعوا أنهم يستفيدون منها في منازلهم كالمصريين الذين صمموا غرفهم الرئيسية عامة بحيث تكون مكشوفة باتجاه الشمال. كما أن المزارع الكيفية المبنية على التواضع في أسوار في مصر والتي تنشر باراً هوائياً عبر كل الشقق السفلية، هي معروفة في الحجاز.

نريد من قوه ومثابه الحائط. وعندما يكون الحائط مكسواً بالحصى، يُترك الخشب بلونه الطبيعي فيغطي المبني مظهراً بهيجاً كما لو أن المبني قد رُئى بشرائط عديدة، غير أن لون الحائط الأبيض الباهر في وصح النهار يؤدي العين بشدة. ومعظم البوابات رأس حادّ ولعضها رأس مستدير، وهذه الأخيرة تراها ولو قليلاً على بوابات المنازل الخاصة في كل جزء من مصر. ولا يرى بنية قديمة التريخ في جدة حيث إن طبيعة الحجر مرخامي الخاصة يجعله يتلف إذا ما تعرّض لمطر ولجو الرطب المسبب في هذه المنطقة^(١). وإلى جانب عدد كبير من المساجد الصغيرة، نجد مسجدين كبيرين وقد شيّد أحدهما الشريف سرور (Serour)، سلف الحاكم الأخير الشريف غالب (Ghaleb).

أما مسكن الحاكم حيث يقطن الشريف نفسه أحياناً كثيرة، فهو مبني متواضع كذلك الذي يسكن فيه جاني الصرايب. وفي المدينة بعض الخانات العامة المتقنة البناء وفيها كافة وسائل الراحة، يسكن فيها التجار الأجانب خلال إقامتهم القصيرة هنا وفي هذه الخانات ساحات عريضة ومفتوحة مع ممرات مقطرة تؤمن الظل البارد في القسم الأكبر من النهار. وباستثناء فترة الرياح الموسمية، حين يكون جده مكثط بالانس إلى حد بعيد، يسهل تأمين المساكن الخاصة في الأحياء النائية عن المدينة. وتعود أفضل المنازل الخاصة في جدة إلى المؤسسة التجارية الكبيرة التي يملكها جبلاي الذي يشغل مع عائلته مساحة صغيرة حنف الشارع الرئيسي وتتألف هذه المساحة من ثلاثة أبنية كبيرة هي الأكثر ملاءمة والأعنى كلفة بين المنازل الخاصة في الحجاز كلها ولكل منزل متوسط الحجم حرر ماء حاص. لكن، وما أن المطر لا يهطل بشكل منظم وكاف أو غزير يبعث تلك الخراب على سطوح المنزل (كما في سوريا)، تُرؤد تلك الخرابات بالماء من الأحواص التي تتكون خارج المدينة في مواسم انطر وتعتبر مياه تلك الخرابات غير ملائمة للاستهلاك في جدة وتُجر الكمية الكبرى من مياه لشرب من بعض الآبار التي تبعد ميلاً ونصف الميل في الجهة الجنوبية في لوانع، تتوفر المياه في كل مكان على عمق خمس عشرة قدماً لكنها عامة رديئة الطعم وتُشرب بصعوبة في بعض الأمكنة وليس هناك سوى بئرين للمياه التي تستطيع سميئها عدية. لكن حتى تلك المياه تُعتبر ثقيلة^(٢)، وإذا ما وُصِفَتْ مدة أربع وعشرين ساعة في إناء فيها تصبغ ملأى بالخشواب. وما أن للماء الصالح في تلك

(١) بشكل عام، يمكن أن يقال عن جدة أنها مدينة حديثة حيث إن أهميتها كمسوق لسلع الهدية يكن يرجعها فقط إلى

القرن الخامس عشر، على الرغم من أنها قد عُرفت في قديم الزمان من تاريخ شبه الجزيرة بأنها مرفأ مكة

(٢) ثقيـة وخميـط، صفتان تُطعمان على مياه، وهما سائندان في معظم بعث الشرق حيث إن أهل البلاد إلى جانب العرباء،

بسبب الكمية الكبيرة التي يستهلكونها، يصحون أكثر حساب وشفاية في تدفوقهم فيما يتعلق بها أكثر من الشعوب التي

تعيش في مناخنا الشمالي

البشر قليلة وبادرة، يصعب تمييزها دائماً غير مساعدة أصدقاء أقوياء. في الواقع، ليس هناك أكثر من مائتين إلى ثلاثمائة شخص هم لهادرون على الخصوص عليها، بينما يُصنّف باقي السكان إلى الاكتفاء باليه التي يؤتمن باقي الأبار ويمكن أن يجري لصعب الصحي بسكن بشكل أساسي إلى ذلك السبب. وما أن حدة تحمل اسم فعة ركه، يمكن أن يفرض أن تلك الأبار كانت محمية بقعة، إلا أن الأثران قد أهمنوا اتحاد هذه التديير الوقائي. وفي شهر كانون الأول/ ديسمبر، سنة ١٨١٤، عندما فهم الشعب أن الوهايين كانوا يتقدمون من ناحية مدينة الصعدة، قام حاكم حدة بعينه بمرء بعض الصهريج التي تحصن حكومة ومدرها بيه من الأبار وقام بحصان عليها لمدة أيام مما يؤمن الاستهلاك الضروري لحيه لسكن كهم كما أن عدة أبار هي ملك خاص يؤمن لملكه مردوداً هاماً.

مدينة حدة خالية من الحدائق أو الخضرة من أي نوع باستثناء بضع رحلات محدودة أحد المساجد وحتى خارج مدينة، فابلاذ بأكمها صحراء حرداء معطاة على الشاطئ، بتره مالحه وبالرمال في مناطق أكثر ارتفاعاً حيث يجد بعض لشجيرات وبعض الأفاق يمكن زيادة عدد الأبار حول المدينة بشكل كبير وكذلك مياه الري، إلا أن سكان حدة يعتبرون أن إقامتهم ليست إلا مؤقتة، وكسكن منطقة الحجار كهم فهم يخصصون اهتمامهم بالكامل في التجارة وكسب الثروات وهم بالنالي أقل اهتماماً بما مع ومهن الريف من أي عرق آخر من المسلمين الذين عرفتهم على الإطلاق.

هناك العديد من الأكواخ خلف باب مكة وغريباً من المدينة، وتقر في وسطها طريق مكة. ويمكن تلك الأكواخ سائقو جمال الذين يتقدمون بين تلك المدينة وحدة، والبدو المقراء الذين يكسبون رزقهم من قطع الأخشاب من مسافة نائية في اجبال، والحجاج الزوج الذين يعتمدون الوسائل نفسها ليعملوا أنفسهم خلال إقامتهم في حدة. وهنا تُقام سوق حمله للمشية والأخشاب والفحم والدكهة والخضراوات كما تُباع القهوة في عدد من السقائف في هذا المكان، تزداد إليها وقت قصير في ساعة مبكرة الصبغة الدنيا من التجار الذين يلجأون إلى هذا مكان للاطلاع على المعومات من مكة حين يصل ساعي البريد كل صباح بعد شروق الشمس. وتقع المقبرة الرئيسية على بُعد ميل من تلك الأكواخ من الناحية الشرقية من المدينة وهي تحتوي على قبور العديد من المشايخ، غير أن هناك بعض المقابر الصغيرة داخل سور المدينة وقد عُرض صريح حواء، أم اشتر، على نحو ميلين شمال المدينة؛ وقد يعني أنه، عبارة عن ساء حجري حش يلع صوله أربع أقدام وارتفاعه ثلاث أقدام وكذلك عرضه، فهو يُشبه بأساسي صريح لوح الذي شوهد في وادي البقاع في سوريا.

خلال فترة هيمنة الوهابيين، كانت مدينة جدة في حالة تدهور، وقد تحول العديد من الأبنية إلى أنقاض، ولم يبق أحد يقيم أحد بيضاء سرل جديد، وكانت التجارة تمر في فترة ركود وكساد نتيجة توقف الحج من تركيا وغياب البنية لدى التجار في إحصار بضائعهم إلى هنا للبيع لكن، ومد سترحاع المدينتين المقدستين وإعادة فتح باب الحج، فضلاً عن وصول الجود اليومي وعدد من الحجار والتابعين للحج، فقد استعادت المدينة حالتها السابقة وهي الآن في ازدهار يصاهي ازدهارها السابق. ويقدر عدد سكانها عموماً بحوالي عشر إلى خمسة عشر ألفاً، لكن تدفق العرباء يريد بشدة في الأشهر التي تسبق الحج وفي أشهر الصيف التي تتوافق مع الرياح الموسمية، مما يزيد العدد المذكور بمعدل النصف تقريباً.

إن سكان جدة هم في الأغلبية الساحقة تقريباً من العرباء، كسكان مكة والمدينة، إذ إن المتحدرين من العرب القدماء الذين سكنوا المدينة في وقت من الأوقات قد هلكوا على أيدي الحكام، أو هاجروا إلى بلدان أخرى. سكان البلاد لأصليون هم فقط بعض عائلات الأشراف وهم متعلمون وملتحقون بالمساجد أو المحاكم وكل من تنفي من سكان جدة هم من الأحابس أو من مسهم وإن من أتى منهم من «حصر موت» و«اليم» هم الأكثر عدداً، فهناك جاليات من كل مدينة ومقاطعة في تلك البلدان قد استقرت في جدة، وهم يحافظون على إبقاء تجارة نشطة مع بلادهم لأصلية. كما أن هناك ما يريد على مائة عائلة هندية (خاصة من سورات وبعضهم من بومباي) قد استقروا هنا، ذلك فضلاً عن بعض الملاويين، وهم سكان شبه جزيرة الملايو، كذلك سكان مسقط (Maskat) والذين استقروا هنا من مصر وسوريا والبرابرة وتركيا الأوروبية وبلاد الأنصون، يمكن التعرف منهم من خلال ملامح سلالاتهم التي امتزجت كلها في جماعة عامة واحدة، وتماكي في عيشها وأريائها الطريقة العربية دائها ويقيم اليهود وحدهم عرقاً متميزاً في العادات والزي واللواطف وليس هناك مسيحيون يقيمون في جدة، باستثناء بعض اليونانيين من جر الأرحيين اليهودي الذين يأتون بصناعات إلى هذ السوق من مصر. وفي من الأشراف كانوا يتعرضون أكثر للمصائب والتحرش ويكرهون على ارتداء ثوب خاص ويكرهون من الاقتراب من بوة مكة. لكن، وبعد أن أصبح الأتراك أسيد الحجار وحكامه، ألغوا هذه القيود، ويتمتع المسيحي الآن بحرية كاملة هنا، وإذا ما توفي فهو لا يُدفن على الشاطئ (لأن الأرض هناك مقدسة وطاهرة وتحص لمدينة المقدسة)، لكنه يُدفن في واحدة من الجرد الصغيرة في حبيج جدة.

وكان اليهود في السابق هم سيطرة هذه المدينة إلا أنهم أُخرجوا منها منذ ثلاثين أو أربعين عاماً على يد «سرور» (serour) سلف «عاب» (Ghaeb) إذ إن بعضهم تسبب بالإزعاج نتيجة

سلوكهم غير السري وقد انكمضوا كلهم إلى اليمن أو إلى صنعاء. ويزور بعض البابائير اليهود جلة في سفن هدية لكتبهم يعودون معهم، ولم يستقر أحد منهم هنا.

إن مريح لأعناق في جده هو ساحة الخج اندي يزور خلاله البحر الأثرياء منطقة الخجا ومعهم كميات كبيرة من البضائع ومنهم من لا يتمكن من تصفية حساباته على الفور فيستظر حتى السنة التالية، وخلال هذه الفترة، يتعايش هؤلاء التجار، حسب تقاليد اسلافهم، مع بعض الحاربات الخيشيات، ثم لا يلتصقون أن يتزوجوا منهم وبعد أن يحدوا أنفسهم في نهاية مع عائلات، يستحثهم ذلك على الاستقرار في البلاد. وهكذا، مع كل موسم حج، تضاف أعداد جديدة إلى السكان، يس في حدة فحسب بل في مكة كذلك، وهو بالفعل أمر ضروري، حيث إن سنة الوفيات في المدينتين تتعدى سنة ولادات بأشواط يتعاطى سكان حدة كتبهم تقريباً التجارة ولا يسعون وراء الصناعات أو الحرف بل وراء كل ما يُعتبر ضروره مباشرة. ويعمل كلهم في صناعه البحر أو لتجار البحر، أو يربطون لتجارة مع شبه الجزيرة العربية ولا يستمد حده ثروها من كونها مرفأ مكة فحسب بل يمكن اعتبارها مرفأ مصر والهند وشبه الجزيرة لعربية أيضاً، فصادرات تلك البلاد كلها وانتهجه إلى مصر، ثم أولاً عبر أيدي تجار حدة بذلك، فإنها تُعتبر ربما أعنى من أي مدينة تصاهيب حجماً من المدن الخاصة لسيادة وحكم لأتراك. ولذلك، فإن اسمها العربي، الذي يعني «نويًا» قد جاء مناسباً لها تماماً.

من المعروف أن أكبر وأعظم تجار في المنطقة هما «حيلاي» و«سقاط»، ولأثنان متحدثان من أصل مغربي^(١)، وقد كان أحدهما أول من استقر في المنطقة، وهم يمتلكان من مئة وخمسين إلى مئتي ألف جنيه سترليني. وهناك العديد من اليهود الذين اكتسبوا رؤوس أموال شبيهة تقريباً، وهناك ما يقرب من لاشي عشر مرفأً من يمتلك أصحابها من زبائن إلى خمسين ألف جنيه اسرلسي وتُدريس ه تجاره اجنه بسهولة وروح أكبر بكثير وبأقل جداء وعش من أي مكان آخر رأيت في الشرق. ويعود السبب الرئيسي لذلك إلى أن مصفقات كتبها تقريباً تتم بالدفع عوري ولا يتم التعامل بالدين أبداً أو نادراً جداً، ولا يحذر الاستنتاج من ذلك بأن للمح إلى أي شيء إيجابي فيما يتعلق بشخصية التجار أو صناعهم. فهم مشهورون بدمهم القاسية بقدر ما هم معروفون بنزواتهم. غير أن طبيعة المهنة والعرف المتشجع يجعلان من لعمل هنا أقل إزعاجاً وصعوبة ومحاذرة من أي بلد آخر في الشرق.

يمكن أن نقسم التجارة في جده إلى فرعين أساسيين تجارة القهوة والتجارة للهدية، وهما

(١) مغربي، «سكان المغرب»، هو الاسم الذي يطلقه العرب الشرقيون عليهم على أبناء بلاد البرابرة.

متصلتاد بتجارة مصر وتصل السمن المحمّلة بالقهوة من اليمن على مدار السنة دون أن تُحدّ بموسم معين تُسحر تلك السمن باستمرار خلال الرحلة بمحادثة الشاطئ وتستعيد بالتالي من السمن الآتي من اليابسة خلال الفصل الذي تسود فيه الرياح الشمالية، التي تجعل من الرحلة صعبة وسط القضاة. تورّع تلك السمن حمولتها مقابل الدولار الأميركي وهي تقريباً العملة الوحيدة التي يأخذها تجار اليمن في المقابل.

إن نخارة القهوة عُرضة لتقلبات كبيرة، ويمكن عسارها صرباً من ضروب الحظ الذي لا يتورّط به سوى أصحاب رؤوس الأموال لكبيرة الذين يحتملون الخسائر الكبيرة أحياناً. وتعتبر سعر القهوة في جدة مع وصول كل سفينة من السويس، وقد عُدل سعرها بانصائح الآيه من لقاهرة. كما أن سعر القهوة في السويس هو عرضة لتقلبات كذلك وهذا يتوقف على الصب على البحر ليمسي (المحوي) في تركيا وحين وصلت إلى جدة، كان سعر البحر غير المطحون (الحب) خمسة وثلاثين دولاراً ثلثة كين، وبعد ثلاثة أسابيع هبطت الأسعار لتصل إلى أربعة وعشرين دولاراً وذلك نتيجة السمن بين أميركا وإكسيرا وبشوء التوقعات باستيراد البحر من عرب الهند مجدداً بكميات كبيرة في Smyrna والقسطنطينية ومن جراء طبيعة هذه التجارة التي تطوي عني مخاطرة، هناك العديد من التجار الذين لا يتورطون فيها إلا كوكلاء، وهناك آخرون يرسلون القهوة على حسابهم إلى مصر حيث يتم الجزء الرئيسي من التجارة على أيدي تجار المحاجر المقيمين هناك. وخلال السنوات بست الأخيرة، عانت تجارة القهوة بين شبه الجزيرة العربية ومطقة البحر الأبيض المتوسط بشكل هام بسبب استيراد القهوة من غرب الهند إلى مراهيء تركيا، التي كانت سابقاً تُرود حصراً بالبحر اليمني (المحوي) الذي حل محله بشكل كامل تقريباً في تركيا الأوروبية وآسيا الصغرى وسوريا البحر الآتي من غرب الهند. مع ذلك، فقد مع الباشا في مصر بشكل صادم استيراد البحر من عرب الهند إلى البلاد التي تقع تحت سيطرته إلى اليوم.

إن الاتجار بالبضائع الهندية أكثر أمناً وأقلّ خطورة، كما أنه مريح بالدرجة نفسها ووصل الأساطيل الآتية بشكل خاص من «كالكوته» و«سورات» وبومبي إلى جدة في بداية شهر أيار/ مايو، عندما يجدون أن التحار قد تحسّروا لوصولهم وحممو كمية كافية من الدولارات والشكوكين (نقد ذهبي تركي قديم) بالعدد الذي سمحت به الظروف، بحيث يعقدون صفقات الحملة عند أول وصول السمن. كما يتم كذلك إرسال مبلغ كبيرة إلى هت من تجار القاهرة لشراء سلع لحسابهم، إلا أن حمولة السفن تُشتري بحزنها الأكبر من تجار جدة الذين يرسلونها بدورهم إلى القاهرة لشباع هناك مصدحتهم. وتعود الأساطيل الهندية في شهر حزيران/ يونيو، أو

ثمور، يونيو، وذلك عندما ترتفع مباشرة أسعار كل سلعة أحصروها بأنفسهم^(١) ويحدث عادة أنه في اليوم نفسه الذي تُبحر به حرمهم، يمكن الحصول على ربح بمسبة عشرة في المئة من السعر الأولي غير أن التجار لا يبيعون في ذلك الوقت إلا إذا ما كانوا في حاجة ماسة وسريعة إلى المال، وإنما يبقون سلعهم في مسودعات لأربعة أو خمسة أشهر، تتابع خلالها الأسعار في الارتفاع حتى إذا ما احتاروا لانتظار حتى شهر كانون الثاني/ يناير أو شباط/ فبراير الآتي، فبإمكانهم تحقيق ربح تبلغ نسبته من ثلاثين إلى أربعين في المئة دون أي مخاطرة وإذا نقلوا فسماء من بصاعتهم إلى مكة لبيعوها في الحج، تكون كذلك ربحهم كبيرة جداً. في الواقع، إن طبيعة تلك التجارة هي التي تجعل من حدة مدينة مكنته جداً خلال وجود الأساطيل يأتي الناس إلى هنا من كل مرفأ في لبحر الأحمر لعقد الصفقات التجارية بالدرجة الأولى، ويجمع تجار مكة ويشتع وحده سويلاً كل دولار في حورتهم ليمقرها في هذه الصفقات^(٢). والسبب الآخر الذي يجعل من لتجارة بين الهند وحدة تجارة أكثر ربحاً وأقل خطورة هو وصول سفن التجارة مرة واحدة في أسبوع ليس إلا، وفي فترة محددة وتقاؤها لعدة أسابيع، فلا شيء بالتالي يفسد السوق حيث إن سعر سلع يُحدد نسبة إلى الطلب المعروف وكمية الاستيراد ولم يحدث أبداً أن هبط ذلك السعر حتى عوده الأسطول التالي أما في تجارة القهوة، فكانت الحال معكوسة.

في مصر وسوريا، يتطلب تقدم صفقة بين تاجر من مقدارها ألف دولار ميركي عملاً لعدة أيام وجهود ثلاثة أو أربعة من السماسرة. أما في حدة تتم عمليات البيع والشراء بكامل حمولة السفن خلال نصف ساعة، ويُدفع المال في اليوم الثاني ويُشحن القسم الأكبر من البضاعة المشتراة إلى السويس وتُدفع في القاهرة حيث تُحد طريقها إلى منطقة بحر الأبيض المتوسط وبسم الدفع إما بالبضائع التي يحري ترويحها في الحجر أو بالدولار أو بالسكوكين الذي يحصل الأسطول الهندي على كمية كبيرة منه سرياً مما يسبب قصص الفصح في مصر وتأخذ سعر القهوة القادمة من اليمن بعض السلع من الصناعة المصرية في المال، كالبلايات (وهي أقمشة فضية محططة بالأررق) والقمصان الكتانية والسجرات الزجاجية، غير أن مبيعاتهم الرئيسية تتم مقابل دفعات نقدية

(١) يناير السعر لقدمه من بلاد البهال حده في حزيران/يونيو وعند القدومه من يوساي وسوراث معادله في شهر محو/ يونيو أو بداية شهر آب أغسطس ونصل السعر من مسقط والبصرة والسفن المحملة بالحب من الهوراميق، في يوف مصر

(٢) بعد فترة من إبحار السفينة الهندية من جدة، كنت حاضراً حين طلب تاجر دو روة و حرم كبيرين استئانة منه دولار من شخص كنت على معرفة به فائلاً إنه وسم كل فوس من أمواله في السلع الهندية التي لم يكن بعد راعا في بيعها، فسم بعد بملك في هذه الأثناء أي مان بصروفه البرمي، كان هذا يحصل بكونهم كذا ذهب

لو أن السويس تشارك في التجارة المباشرة مع الهند، لكان الوضع الخالي ازدهر في جدة قد تقلص جداً دون أدنى شك، ولما تفتت للمدينة سوى مكانتها التي تؤمها لها موقعها ومركزها، كمرفأ منطقة الحجاز عوصاً عما هي عليه اليوم أي مرفأ مصر. وكان من الطبيعي أن يسعى شرفاء مكة الذين كانوا يتحكمون بالجمارك بكل ما أتوا من وسائل، جعل حدة مركزاً للتجارة الهندية، إذ كانت الرسوم الجمركية المصدر الأساسي لتأمين مدحولهم. على أي حال، فالسويس ليست مكاناً تتوافر فيه دائماً رؤوس الأموال الجاهرة لعقد الصفقات وحسب القاهرة عاجزة، مباشرة على الأقل، عن التعاطي في هذه التجارة بشكل مثير لو انتقلت إلى السويس؛ لأنه وحسب الأعراف والتقاليد القديمة التي نادر ما يحالفها الشرفيون، فالمل الجاهر غير معروف تقريباً في معاملات التجارة في هذه المدينة، ونتيجة لذلك، لا ثبات السلع الهندية هناك أبداً إلا بدين طويل الأمد. وما لا شك فيه أنه كان يوسع المال أن يجد طريقه إلى السويس في الوقت المناسب كما يحصل الآن في جدة، إلا أن طبيعة القناة التجارية تجعل أسطول السفن القادم مباشرة من الهند إلى السويس لا يستطيع بسهولة إنزال حمولته بريح أو خلال بوقت المناسب. كما أن هناك سبباً آخر قد ساهم في تفصيل مرفأ حدة وهو أن السفن الهندية، مع أن معظمها يبحر تحت العلم الإنكليزي، إلا أن بحارتها^(١) هم كلياً من شعب البلاد وهم للعرب وأبناء المشرق. وقد اعتمدوا طريقة الإبحار في محاذاة الساحل وهي الطريق نفسها المتبعة في كل مكان من البحر الأحمر، وهم لا يعامرون أبداً في عرض البحر مما يقردهم حتماً إلى المرور من حدة وتثني وهما مرفأ «الشريف» الذي يستطيع بسهولة إبحارهم على الرسو في مرافقه ودفع الرسوم كما هو معروف عنه، فقد فعل هذا مع عدة سفن قهوة متجهة مباشرة من اليمن إلى السويس.

غير أن هذه الأسباب لم يعد من أثر لها حيث إن محمد علي، باشا مصر الذي يمتلك المرافئ ومراكز الرسوم الجمركية في منطقة الحجاز بإمكانه نقل الرسوم الجمركية من جدة إلى السويس فيفتح بهذا صفة مباشرة مع الهند. لكن العوائق الرئيسية لتعبير كهذا، وقد ظهرت بشكل جلي هنا، هي العيرة والمراغم الرائعة المصنوعة لتجار حدة، فضلاً عن جهل الباشا بمصالحه الشخصية الحقيقية، يُضاف إليها ربما الخوف من إثارة استياء مديكه. ومع ذلك فقد كان يمكن تعبير هذا النظام، وقد قدمت المثل على ذلك المؤسسة التجارية الإنكليزية في الإسكندرية التي

(١) لم يكن أي سفن إنكليزي قد أتى إلى جدة منذ خمس سنوات، حين وصل الرسول الكابتن برغ، من بومباي عام ١٨١٤ محملاً بالأرز، ولا يدير السفن الإنكليزية، كما أن القليل جداً من التجار الإنكليزيين المقيمين في الهند قد مارسوا التجارة في البحر الأحمر، التي تتم حصرياً تقريباً برؤوس أموال التجار المسلمين من جدة ومسقط وبومباي وسورات وكالكوتا، واندرا ما زور الأمر يكون أي مرفأ آخر على هذا البحر غير مرفأ مكة.

أبرمت، بالاتفاق مع مرسلينها في مدينة بومباي، معاهدة مع الباشا للسماح بسفن الإنكليزية بالبحر مباشرة إلى السويس ولتأمين الحماية لبضائع عبر الصحراء إلى القاهرة، وذلك سنة ١٨١٢، عندما لم تكن منطقة الحجر بعد تحت سيطرة الباشا. إلا أن اندلاع الحرب الوهابية وانتشار السمر لعادية في البحر الأحمر، قد منع التحار من تطبيق المعاهدة تلك والاستفادة منها حتى سنة ١٨١٥ حين أرسلت سفينة صحمة من بومباي إلى السويس. إلا أن الباشا، الذي كان في مكة حين بلغت تلك السفينة جدة، وعبر حرق ماسر لعهدته، قام بإيقاف السفينة ومعها من مواصلة إبحارها إلى السويس وأحبر قبطانها على بيع احمونه بالחסرة، في الوقت الذي كان فيه اطاعون منتشرون في المدينة، وعرض عليه الرسوم الجمركية نفسها التي تُعرض على سفن البلاد، وذلك في انتهاك للعقد المبرم بين بريطانيا العظمى والباب العالي. كان يمكن معالجة هذه القضية التي أدت امتصاصاً شديداً بين الأوروبيين في مصر، وبسهولة تامة. عبر اعتماد المعاهدة بالمثل مع سمر الباشا التجارية التي تنص إلى ماطلة، وكان بإمكان تلك الطريقة أن تلقى درساً في احترام النعم الإنكليزي حيثما التقه غير أن، لصباط الإنكليز، اصطفاً ربح من مفهوم غير صحيح لسلطته وأهميته، ومن الرغبة في الحفظ على علاقة طيبة وودية معه. وبدل أن يُصهروا أي امتياز، فصلوا الخصوع للإساءة بصمت، وقد فاتهم أنه لا يمكن لهور بعصف وأبيد حاكم مركي عن صريق الاسترضاء بل باتحاد موقف الحدي. وكنتيحة لذلك كله فقد أجزر التجار على عقد اتفاقية ثنية مع باشا والتي أقرت بشكل رسمي. وكان مطلبه لأو أن على السعر أن تدفع في السويس الرسوم الجمركية المشتركة بين ذلك امرفاً ومرفاً جدة والتي كانت تعادل نحو اثني عشر في المئة. إلا أنه وعد أخيراً بنسبة تسعة في المئة على الواردات كلها إلى السويس من الهند والتي كانت تعادل ستة في المئة، أي أكثر من المصرية المعادة التي يدفعها التجار لأوروبيون في مرفىء السيد الأعظم. كان من المقترص أن يؤدي هذا التدبير إلى إطلاق تجارة باشطة كم أن الباشا نفسه كان مبالاً إلى المصرية التجارية لحسابه الخاص، وكانت أول معامرة قام بها حين أرسل إلى بومباي في ربيع سنة ١٨١٦، ليأتوا له بعيل مكسو بعطاء مركش بطريقة عبة وأبقة أراد أن يقدمه هدية إلى عاهله في القسطنطينية. لكن، ورغم ذلك، أحشى ما أحشه من ألا يحترم الاتفاقية الثنية كما فعل في الأرمي، إذ إن طمعه لا يعرف حدوداً إذا لم يتم صبطه بطريقة فقالة. كما أنه يستطيع في أي وقت من الأوقات انتزاع صرائب ورسوم إضافية طالما أن الأرباح التي تؤمنها هذه الطريق التجارية الجديدة قادرة على تحملها، وذلك عبر تهديد أس الصريق من السويس إلى القاهرة ثم أن السور في الصحراء المجاورة هم تحت سيطرته وحاصرين لأوامره كيباً.

لقد كان حاكم جدة السابق، الشريف غالب، يتعاطى بشكل باشط في التجارة الهندية.

وكان يملئ سفينتين حمولة كل منهما أربعمائة طن كان يوظفها في تلك التجارة، فضلاً عن عدة زوارق صغيرة يستخدمها في تجارة القهوة إلى اليمن وكان بالفعل مُضارباً ذكياً في كل مروع تجارة البحر الأحمر.

كما كان يصطهد تجار جدة يفرض رسوم باهضة عليهم فضلاً عن منافسته القوية لهم. لكن لم يُعرف عنه أبداً أنه كان يمارس الابتزاز عليهم، وكان إذا ما اقترض مالا فإنه يرجعه في الوقت المتعاقد عليه ولا يذهب إلى حد فرض مساهمات استثنائية على الأفراد، مع أنه مارس ذلك مع المجتمع ككل عبر زيادة الضرائب بطريقة تمسفية. لقد كان الأمن الدائع الصيت الذي تمتنع به المشتكات في ظل ولايته هو الذي يُغري التجار ويدفعهم إلى زيارة مرافأ جدة، حتى عندما غالب محنة صعبة وعسيرة على أهدي الوهابيين. لكن سلوكه من هذه الناحية لم يكن بسبب حبه وشغفه بالعدالة، إذ إنه كان يحكم بكل استبداد وطغيان، ولكنه كان يعرف تماماً أنه إذا ما دُعر التجار وفزوا بعيداً ستستحيل مدينته إلى مدينة مافهة غير ذات شأن. وقيل انتهاء حكمه، رفع الضريبة على القهوة من دولارين ونصف لنقطار الواحد (مائة كيلوغرام) إلى خمسة دولارات أو إلى ما يعادل خمسة عشر في المئة. وكانت الضريبة على السلع الهندية من ستة إلى عشرة في المئة، وذلك حسب نوعيتها. وكان عايب، إذا عجز عن بيع القهوة أو السلع الهندية فوراً، التي استوردها لحسابه، يعمد إلى توزيع حمولة سمنه على تجار البندة بسعر السوق الحالي وبكميات تُقدَّر حسب منكية كل تاجر بعد أن يُجبر على لشراء بالمال الجاهر. ولم يكن غالب من هذه الناحية وحيداً، فالباشا الحالي في مصر كثيراً ما كان يورّع قهوته على التجار، لكن مع فارق واحد، وهو أن السعر الذي كان يفرضه الباشا يكون دائماً فوق سعر السوق الحقيقي.

تدار الأعمال في جدة دائماً من خلال السماسرة وهم في غالبيتهم همود ذوو أملاك بسيطة وسمعة سيئة. وعدد السفن التي تحضّ جنة كبير جد مع الأخذ في احسبان كل السعر الصغيرة الموطّعة في تجارة البحر الأحمر، وهو مئتان وخمسون سفينة يمكن إحصاؤها ونحصر إما تجار المدينة وإما مالكي السفن الذين يديرونها ويعتبرون المرافأ موطنهم الأساسي. إن الأسماء المختلفة للسفن كسمي وموم ومركب (Merkeeb) وسمبوك والدو تدل على حجمها، والأخيرة فقط هي الكبرى حجماً وتبحر إلى الهند. ويدير السفن بشكل أساسي أشخاص من اليمن ومن الساحل الصومالي (في الجهة المقابلة لعدن، بين الحبشة ورأس Guardafui)، بالإضافة إلى العبيد الذين تجند منهم ثلاثة أو أربعة في كل سفينة بشكل عام ويتقاضى الطاقم مبلغاً معيناً للرحلة، وكل بحار هو في الوقت نفسه تاجر صغير يعمل لحسابه الخاص. وهذا سبب إضافي لمحيء الأجانب إلى جدة خلال موسم التجارة حيث إن الأفراد الذين يملكون أصغر رأس مال بإمكانهم شراء البضائع بمقادير قليلة مباشرة من طاقم تلك السفن. ولا تتم صناعة السفن من

أي نوع في جدة الآن حيث إن احتشبت الضروري لذلك بات نادراً حدة، حتى إنه بات من الصعب إيجاد الوسائل اللازمة لترميم سفينة ما وإصلاحها وتعاين بيع من المشككة نفسها، أما السويس والحديدة والمخا وهي المرافئ الوحيدة في البحر الأحمر حيث يتم بدء السفن. ويتم نقل خشب البناء المستعمل في السويس إلى ها عبر البر من القاهرة، وهو يأتي في لأصل من ساحل آسيا لصمري^(١) أما احتشبت المستعمل في الحديدة والمخا فيأتي جزء منه من اليمن وجزء آخر من الساحل الإفريقي ويتم شراء سفن عدة في بومباي ومسقط، أما سكة التي تُسَي في السويس فهي الأكثر شيوعاً في البحر شسان اليس. وكان هناك طلب كبير على السفن في حدة خلال لسنوات الثلاث المصرية بعد أن قام لباد بالاشتلاء على عدد كبير من السفن وبإيجار مالكيها على نقل المؤونة والدخيرة والأمتعة من مصر إلى الحجاز مقدين أحجار صثيله جداً وحلال إقامي في حدة، نادراً ما كان يمر يوم دون وصول السفن خاصة من يثبع وقصير وكان هناك في المرفأ أربعون أو خمسون سفينة بشكل دائم. وكان هناك أيضاً ضابط مُلقب بأمر البحر يتصرف كسيد المرفأ فيأخذ من كل سفينة مبلغاً معيناً لكي يسمح لها بالمرور في المرفأ وكان بهذا المنصب مرة رفيعة ومهمة جداً في زمن الشريف لكنه الآن لم يعد ذا شأن أبداً. وقد فوجئت نوعاً ما حين علمت أنه في مرفأ يثبع إلى هذه الحدة كمرفأ حدة، لم يكن هناك أي سفينة لمتعة ولتسلية من أي نوع في المرفأ ولا حتى أي مراكيتين عموميتين لكي علمت أن السبب في ذلك يعود إلى حذر صباط مركز الرسوم الجمركية وحرصهم الشديد حيث كانوا يمنعون كل ممارسة من هذا النوع وكانوا يصرون على أن تعود فوراً السفن إلى سفنها بعد غيات الشمس. ولا تُمارس في حدة أي تجارة برية سوى مع «المدينة» ومكة حيث تنطلق قافلة إلى «المدينة» مرة كل أربعين أو خمسين يوماً محملة بالسلع الهندية والأدوية خاصة، ويُصاف إليها دائماً حشد من الحجاج الذين يربعون في زيارة قبر نسي محمد(ص) وهذه القوافل عادة عن ستين إلى مائة حمل يقودها البدو من قبيلة حرب. غير أن العلاقات بين حدة و«المدينة» تتم عادة عبر صريق يثبع المتوسطة حيث تُرسل البضاعة عبر البحر وإلى جانب القوافل المذكورة ناء، تنطلق قوافل أخرى إلى مكة كل مساء تقريباً ومرتين في الأسبوع على الأقل، محملة بالسلع والمؤونة وخلال الأشهر الأربعة التي تسبق الحج، حين تأتي كل سفينة بالحجاج إلى حدة، تنصور هذه العملية، فتطلق القوافل حبيها بانتظام من بوابة مكة كل مساء بعد مغيب الشمس. وتحتاج الجمال المحملة بيلتين لإتمام الرحلة ويستريح في منتصف الطريق في

(١) إن الأشعة المستعملة في أنحاء البحر الأحمر كلها هي من صناعة مصرية وإيجال من شجر البلح إن السهم القادم من الهند الشرقية به حديد مصوغه من شجر جور الهند، ويُؤتى بكمية منها للبيع كذلك

بهذا خلال النهار، لكن فصلاً عن ذلك، تطلق قوافل صغيرة من الخمير بحمولة حميفة كل مساء، وتقوم برحلة بسوم خمس عشرة أو ست عشرة ساعة في ليلة واحدة فتصل بانتظام إلى مكة في الصباح لداكر^(١) وعبر قوافل الخمير تلك تُنقل الرسائل بين المدينتين وهي رمز السلم، تلقي أحياناً بقوافل على ساحل البحر متجهة إلى اليمن وتهامة والمُحَوَا (Mokhowa)، حيث يتم استيراد الحصى (انظر الملحق حول جغرافيا الحجاز).

قد يُلقى التعداد الثاني للمتاجر المختلفة في الشارع التجاري الرئيسي في جدة بعض الضوء على التجارة في هذه المدينة وكذلك على نمط حياة سكانها.

إن المتاجر هنا (كما هي في كل أنحاء تركيا) ترتفع عدة أقدام عن الأرض، ويرر أمامها، باتجاه الشارع، مقعد حجري يجلس عليه الزبائن، وهو محمي من الشمس بواسطة مظلة تصنع عادة من حصير مشدود إلى أعمدة عالية وبلغ عرص وجهات العديد من المتاجر ست أقدام أو سبعة أما العمق فهو عامة من عشر أقدام إلى اثني عشرة قدماً مع غرفة صغيرة خاصة أو مخزن في الخلف وهناك سبعة وعشرون مقهى وتُشرب القهوة بفرط في الأحجار ومن الشائع جداً أن يشرب الناس من عشرين إلى ثلاثين فنجاناً في يوم واحد، أما العمال الفقراء فلا يشربون أقل من ثلاثة أو أربعة فناجين.

وهي عدد قليل من المقاهي يمكن تناول «القهوة» وهي مشروب يُصنع من قشرة حب القهوة، وهو لا يقن في نكهته غالباً عن المشروب المصنوع من حب نفسه ويقصد أحد المقاهي أولئك الذين يدخنون أحشيش، أو مُستحضر من زهرة القنب الممزوجة مع التبغ ينتج عنه نوع من التحدير. لكن أحشيش لا يزال يُستهمل بدرجة أكبر في مصر، خاصة بين الملاحين^(٢).

(١) حين تكثر الجمال، تبلغ أجرة الواحد من حصة إلى مكة من عشرين إلى خمس وعشرين ليلة وفي وقت قلتها، أو مع اقتراب الحج، يبلغ من ستين إلى سبعين ليلة خلال إقامتي، كانت أجرة حمار من جدة إلى مكة عشرين ليلة، تُعتبر هذه الأسعار باهظة في أي جزء آخر من الشرق حيث إن أجرة جمل من القاهرة إلى السويس تبلغ خمس عشرة بيرة فقط، وهي ضعف للسائق بين جدة ومكة.

(٢) من زهرة القنب هذه يستعملون بهذا الغرض الأوراق الصغيرة حول البذرة (تُدعى شرانق) ويصنع عامة الناس كمية صغيرة منها فوق السبع الذي يملأون به العيون أما الطبقات العليا فيأكلونها في معجون يُصنع بالطريقة التالية تُغلى كمية من الأوراق مع الزبدة لساعات عديدة ثم تُعصر فيخرج العصير المستخرج مع العسل وعقاقير أخرى حنوة الصم، وتباع عناء في مصر، حيث هناك مناجر خاصة بذلك إن معجون الحشيش يُطبخ عليها نسبة أكثر بقاء وهي (Bast) البسط، ويقال لمن يبيعها سحني وفي أحد المهرجانات التي أقيمت بمناسبة روج (من أحد القبلاء الرئيسيين في القاهرة، ثم استمر أص) مختلف الحرف في المدينة في موكب استمراصي ورغم أن هذا البسطي ممنوع قانوناً إلا أن أصحاب المهمة كانوا الأكثر ظهوراً وبهجة في الموكب.

ويُدعى المعبود المراسي في تلك المقامي كلها، وهو على ثلاثة أنواع مختلفة:
أولاً، هناك القدرة، وهو الأكبر ويرتكر على منصبت ثلاثي لقوائم، وهو مشعور دائماً بدفه
ولتقان، ونجده في المنازل الخاصة.

ثانياً، الشيشة، وتُدعى في سوريا «الأرحيلة» وهي أصغر حجماً، لكنها كالأول موصولة إلى
أبواب مُلتفت وتُدعى لية (lieh)، يتم تنشيق الدخان عبره.

ثالثاً، البوري، وهو عبارة عن قشرة حور الهند عبر انصفولة التي تحوي ماء، وتحل قصة
عليظه محل الأبوب هذا النوع هو الرقيق الدائم لتصبقت الديق ولكل اببحارة في البحر
الأحمر الذي يُهرطون في استعماله بعو فائق وبأني التبع استعمال في الصفيين الأولين من
الخليج المراسي، والنوع لأفصل مصدره مدينة شيرر. وهذا نوع من التبغ أقل جودة وتُدعى
«التمت» وبأني من البصرة وبعداد، ورقة لسف هذه لها لون أصفر غامق وطعمها أقوى بكثير من
التبغ بعداد، لهد فهو يُعسل قليلاً ليصبح أقل حدة والتبغ مستخدم في البوري يأتي من اليمن
وهو من فصيلة سوع الآخر نفسه إلا أنه أقل جودة وبوعية وتُعتبر التجارة في هذا النوع مهمة
جداً إذ إن استهلاكه في منطقة الحجار كبير إلى حد بعيد كما تُرس كميات كبيرة منه إلى
مصر عبر البحر والعليون الاعتيادي قليل الاستعمال في الحجار إلا أن الحبوب لأترك والبدو
ويتبع التبغ في مصر أو يأتي من Sennar حيث يُنقل إلى Sowakin. وقليل جداً من التبغ
السوري الجيد التوعية يجد طريقه عبر البحر الأحمر.

تعص المدهي الناس طول النهار، وأمامها تُصبت سبعة يجلس الناس تحتها أيضاً أما
العرف والمقاعد والكراسي الصميرة المنحصة فهي قدرة جد وتتشكر نادقاً كبيراً مع انطافه
والأفاقة التي تراه في المدهي في دمشق فلا تمكن رؤية التجار المحتتم أبداً في المقاهي، إلى
من هم من الطبقة الثالثة والذين يعملون في صناعة البحر يعملون من تلك المقاهي ملاذهم
الدائم وكل شخص يملك منزلاً خاصاً يلتقي فيه مع من له عمل معهم والعربي الذي لا يملك
دعوة صديق على العشاء فإنه يدعوه من المقهى حين يراه مرأاً ليدخل ويشرب فحجاناً من
القهوة، وإذا ما رُفصت دعوته يكون قد أهين إياه بالغة وحين يدخل صديقه بأمر (سادل)
بإحضار فحجان من القهوة ويقوم سادل عند تقديمه بالصرخ عالياً بحيث يسمعه كل من في
المقهى قائلاً «حداا» وبإمكان عربي أن يعيش دائنيه أو أن يُتهم في دمه في معاملاته ومع

يستخدم العديد من أهل النجدة البسط شكل أو آخر، فهي سجع الروح وتنتفي الخيال بالقوة نفسها التي يُحدثها الأوبون
ويخرج بعض الأشخاص كذلك العجينة أو المصعون بدور الـ «التبغ» الذي يأتي من سوريا

ذلك لا يلتقى انتقاداً علياً، إلا أن الخزي والعار سيدحق به إذا ما عُرف أنه حاول غش الناس في مقهى عند دفع حسابه.

وقد قام الجود الأتراك ببدل أقصى جهدهم في ممارسة ذلك لريادة الأردن والاحتقار الذي يطر به العرب تجاههم. ولم أر في مقهى الحجاز أمداً أياً من أولئك الحكوانية الشائعين جداً في مصر، وهم أكثر شيوعاً في سوريا والمشرق^(١) هي اللغة الأكثر استعمالاً في انقاضي كلها عامة، وكذلك لعبة الداما وهي تحتلف بشكل من الأشكال عن اللعبة الأوروبية، إلا أنه لم يصادف أبداً أن رأيت لعبة الشطرنج تستعمل في الحجاز رغم أنني سمعت عن شيوعها خاصة بين الأشراف المولعين بها بشكل خاص.

بالقرب من كل مقهى تقريباً، يأخذ شخص مصته ويسع الماء البارد في جرار صغيرة معطرة.

وهناك واحد وعشرون بائع ربة يبيعون كذلك العسل والزيت والخل بامفرد. وتشكل الربة لمادة الأساسية في المطبخ العربي وهي ذهبية أكثر حتى من الربة الإيطالية. والربة الطارفة، كما يدعوها العرب، مادرة في الحجاز. ولها عادة شائعة بين الطبقات كلها بأن يشربوا كل صباح فنجاناً مليئاً بالربة مدقوقة أو السمن وتُشرب بعدها القهوة^(٢)، إذ يعتبرونها مشطاً قوياً وقد اعتادوا عليها كثيراً منذ نعومة أظفارهم وقد يشعرون بانزعاج كبير إذا ما انقطعوا عن استعمالها. ويكتفي لطيمات العلب بشرب كمه الربة لكن الطبقات الدنيا تُصيف نصف محال بعد، يتشققونه من ثقبهم معتقدين أنهم بذلك يحمون انقضاء القدر من دخول الجسم عبر هذه النقطة. إن هذه العادة عامة وشاملة بين سكان المدينة كما هي بين البدو. وتتبع الطبقات الدنيا كذلك عادة مرك صدورهم وكتفهم ويدبهم ورجلهم بالربة كما يفعل النوج، وذلك لإعش البشرة. وقد توقف ستيراد هذه المادة من الداخل كنياً تقريباً خلال الحرب، وحتى في زمن السمن، مهدا لا يكفي لاستهلاك جدة، لذلك يقوم البعض بإحصارها من السواقي، إلا أن النوع الأفضل ولتوفر بكثرة، يأتي من المصروع ويدعى هنا ربة ذهك. وتصل كل حمولة السمن من هناك، ويُقل القسم الأكبر منها إلى مكة مرة ثنية كما تُستورد الربة من القصير، وهذه تأتي من شمال مصر، وهي مصنوعة من حليب الجاموس. أما سمنة سواقين ودهك فتأتي من حليب النعاح

(١) أنظر رحلات Niebuhr

(٢) غالباً يشرب الشرقيون الماء قبل القهوة لكن ليس بعد ذلك مباشرة أبداً. لقد عُرف مرة في سورية بأنني أجنبي أو أوروبي لأنني طلبت تلك مباشرة بعد شرب القهوة. إذ قال النادل: لا أنت كنت من هذه البلاد لما أولئك طعم القهوة من فمك بعلمه بالماء.

ويرحر احجار بالعسل في كل جزء من جبال. وسوء الأفصل يأتي من الجبال التي يسكنها بدو الواصرة، إلى الجنوب من الطائف ويسود بين لطيفات الديق مظهراً مؤلفاً من مريح من السم والعلل انسكوب فوق كسرات الخمر المسحس اخرج ثوبه من لغرد والعرب يوعون بالعصيلة لا يأكلونها أبداً دون العسل.

إن الريت المستعمل لمصاييح هو ريت السمسم (السيرج، الآتي من مصر) ولا يستعمل العرب لريت في المطبخ سوى نقي السمك أو مع لعصيلة التي تُعطى إلى الفقراء. كما أن (السلطة) التي يحبها جداً الأتراك الشماليون، لا تراها أبداً على حدة عربية

كما نرى أيضاً ثمانية عشرة مئة لهحصراوات أو الفاكهة وقد ارداد عددها الآن بشكل كبير بسبب وجود فرق الجود لأتراك الذين هم من أكثر استهامين للحصراوات، وتأتي الفاكهة كلها من الطائف، خلف مكة، وهي عية بعددائق. فقد وجدت في شهر تموز/ يوليو أفص أنواع العنب لدي ترحر به الخيال خلف مكة، وارمدن بوعية متوسطة، والسفرجل الذي ليس له الطعم الخاف نفسه كما في أوروبا، ويمكن أكله نيئاً، ثم خوخ والسراق والليمون حاد مص بأصغر حجم كما في مصر تماماً، والبرتقال مر والمور... وهي فاكهة لا تنمو في لطائف ولكن يؤتى بها عن طريق «أنديه» من نصر، حصة والجديدة وخلبص، وبدوم هذه الفاكهة حتى شهر شربين الثاني/ نوفمبر، وفي شهر اذار/ مارس يؤتى بطيخ الأحمر من وادي فاطمة، ويقال إن حجمه صغير ولكنه ندي الطعم. ولا يأكل العرب لكثير من الفاكهة باستثناء عنب وهو كما يقولون، يساعد على تكوين الضمراء ويسبب امتلاء البطن بالغازات، وهو أمر عني الأرحح أنهم هم يحفظوه بشأنه. والفاكهة التي تناع في حدة غير صحية جداً وذلك لأنها غلفت وغلبت في الطائف وهي بعد غير ناضجة، فهي مكسب بصوحاً مصططعاً عبر النختر خلال الرحلة ويتشاجر لأتراك ويتعاركون كل صباح أمام المتاجر، يجاهدون للحصول على الفاكهة لأنها بكميات قليلة بحيث أصبحت عريضة جداً وتأتي للحصراوات إلى حدة من وادي دامة وهو يعد ستة أو ثمانية أميال إلى الشمال. كما أنه يرؤد مكة أيضاً والأصناف المعتادة هي الملوحة والدمية والباديخ والخيار واللفت الصغير جداً الذي تؤكل منه الأوراق وتُرْمى جذور باعتبارها غير ناعمة. أما الصل وكرات فهي للحصراوات ابو حيدة التي تُستعمل يومياً وبانتظام في المطبخ العربي، فهي صغيرة الحجم ويأكلها عامة الناس بنية مع خبز

بشكل عام، فإن العرب يستهلكون القليل القليل من لحصراوات، إذ إن أصنافهم أعدت من اللحم والأرز والسفيق والزردة ويُباع كذلك النمر الهندي في متاجر الفاكهة تلك (ويُدعى هنا Homar) ومصدره الهند الشرقية. وهو لا يأتي على شكل أقراص كذلك الذي يأتي من بلاد

الزنج ولكن في شكله الطبيعي رغم أنه كثيراً ما يكون فاسداً وعفناً وحين يُعلى في الماء فهو يشكّل شراباً معشاً، ويقدم للمرضى مطهياً بالعسل البصري مع اللحم.

وهناك ثمانية بائعي تمر من كل ما يأكله ويسهلته العرب، يُعتبر التمر الأكثر تفصيلاً، كما أن لهم عادات وتقاليد عديدة من بينهم يُظهر فيها تفوق التمر على أنواع الطعام الأخرى كلها. وإن استيراد التمر يتم بشكل مواسم حلال السنة كلها. وفي نهاية شهر حزيران/ يونيو، تأتي «عجوة» الحديدة وتُدعى «رطب» وتُدوم لشهرين، يتم بعدها بيع عجوة التمر وتُدعى «عجوة» لما تبقى من السنة. وتُصنع عجوة التمر هذه عبر كبسه عندما يكون ناصحاً كلباً، في سلال واسعة بطريقة قاسية وهوية جداً بحية تحويله إلى قرص أو عجوة قاسية وصلبة، وترب كل سلة عامة نحو مائتي كيل؛ ويصدر الدو العجوة، ويُقطع في السوق ويُباع بالكيلوغرام. وتشكل هذه العجوة حراً من الطعام اليومي لدى كل الطبقات. أما في السمر، فهي تذوب في الماء فتتحول إلى شراب حلو منعش وهناك ما يزيد عن اثني عشر نوعاً من العجوة، ويأتي الصنف الأفضل منه من مطبخه (ترابا) حطب الصائف (يحلبها الآن الوهابيون). أما الصنف الأكثر شيوعاً في الوقت الحاضر في الأسواق فهو ذلك الآتي من وادي فاطمة، والنوع الأجود من حليص والجديدة على الطريق إلى «المدينة». وخلال فترة الرياح الموسمية تُحضر السم من القادمة من الخليج الفارسي العجوة من البصرة للبيع في سلال صغيرة تزن كل منها نحو عشرة كيلوغرامات وهذا النوع هو النوع المفضل على الأنواع الأخرى كلها. أما سم الهند الشرقية، وعند عودتها، فتأخذ كمية كبيرة جداً منه، وهو يُباع بريح عالي جداً بين المسلمين في الهند.

وهناك أربعة من صانعي العطائر المشهورة، وهم يبيعون في الصباح الباكر عطائر مقلية بالبريدة وهي تعتبر بطوراً محبوباً ومرغوباً.

وهناك خمسة بائعي فول. وهم يبيعون للفطور أيضاً في ساعة مبكرة، فولاً مصرياً معلباً في الماء ويؤكل مع الفلفل والسمن. إن الفول البعلّي يُدعى «مُدْمُس» وهو يشكل طبقاً محبوباً عند الشعب المصري وقد أحله العرب منهم.

خمسة بائعي مربيات و(بوسيون) وسكاكر، وأصناف مختلفة من الحلويات التي يعشقها أهل الحجاز أكثر من أي من الشرقيين الذين عرفتهم، فهم يأكلونه بعد طعام العشاء، وعند المساء تُحاط مصفات الحلويات بالعديد من الشرارة. والهنود هم من أفضل صانعي الحلويات، ولم أر هب أي نوع منها لم يسبق لي رؤيته في مصر؛ كالقلاوة والكنافة والعريئة لشائعة هنا كثيراً كما في حلب والقاهرة.

وهناك محزون للكتاب حيث يُباع النجم المشوي. ويسير هذه المتاجر الأتراك، إذ إن الكتاب ليس طبقاً عربياً

وهناك بائعا حساء، وهم يبيعون أيضاً رؤوس الخرفاء وأقدمها المعية ويقصدهم الناس في منتصف النهار أي عند الظهيرة.

وهناك بائع واحد لتسبك المقيي بالرب والدي يورده لحارة الأتراك وليونانيون كلهم. وهناك عشر مصفات أو اثنتا عشرة مصفة يُباع عليها الخبز، والبائعات هنّ عالياً من ساء وللحر نكهة غير محبة إذ إن الجريش (دقيق الدرة أو القمح) سم يتم تطييعه كما يجب كما أن اخميره سيئة ويُباع الرغيف هنا بشمسي باراب، وهو بحجم الرغيف نفسه الذي يُباع في القاهرة يارنين فقط، على الرغم من أن موعيته أسوأ بكثير

وهناك دعة لُس، وهو ماذر جداً في أنحاء الحجار كلها. وقد يبدو عربياً أن يكون هناك درة في الحبيب بين الرعبان في شبه جزيرة العربية، بالرغم من أن جدة ومكة كانتا تعالين من الدرة نفسها لكن، في الواقع، فإن المصطفة المجاورة مباشرة لهاتين المدينتين هي قحلة كياً لا تلائم رعي الخشيش، ويعيش عدد من الناس من إصعاعها من أجل الحصول على الحليب فقط وعدم كثر في حده كان رطل الحبيب، أو الكيلوغرام الواحد منه (لأنه يباع بالوزن) يكلف ليرة ونصف الليرة ولا يمكن الحصول عليه إلا بحزمة أو معروف كما أن ما يدعو أتراك الشمال (Yoghurt) لبنة، ويدعوه السوريون والمصريون لب حامض لا يبدو أنه طلق من أصل عربي. يبدو شبه الجزيرة العربية على الأقل لم يقوموا بتحضيره أبداً.

وهناك متجرون يديرهما أتراك يبيعون فيها الحبة اليونانية واللحم الخفيف والتفاح الخفيف والتين ولزيب والمشمش الخفيف، أو ما يسمى بقر الدين. وسعرها هنا ثلاثة أضعاف السعر في القاهرة وأني الحبة من Candia ويكثر الطلب عليها بين كل الجنود الأتراك. وهناك نوع مماثل من الحبة يُصنع في الحجار وهو يصنع اليابس ولا يدوم طويلاً مع أنه مملح وليس معدياً كثيراً ولا يهتم البدو أنفسهم إلا قليلاً بالحبة، فهم إما يشربون الحبيب أو يحولونه إلى ردة. ولحم الخفيف الذي يباع في تلك المتاجر هو لحم لبقر المملح والذبح الآتي من آسيا الصغرى، وهو معروف في أنحاء تركيا كلها باسم «بسترمه»، وأكثر من يتدب به المسافرون كما بعشقه يشكر خاص الأتراك جنود والحجاج، إلا أنه من الصعب جداً إقناع العرب بدوقه إذ إن العديد منهم يصرون على اعتباره كلحم الخبز لأنهم يرونه مختلفاً في الشكل عن كل نوع آخر من أنواع اللحم التي اعتادوا عليها. وليس من المرجح أن تغيّر نظرتهم إلى جنود الأتراك وما يحملونه من تمسك ضعيف بالدين من تحامل العرب بشأن هذا النوع من اللحوم.

ويأتي الفاكهة المحففة المذكورة كلها أعلاه، باستثناء المشمش، من الأرخبيل. ويُرسَل المشمش من دمشق إلى أنحاء شبه الجزيرة العربية كلها حيث تُعتبر ترفاً، خاصة بين البدو ويتم استحضار لب أو بدر المشمش وتُحول الفاكهة إلى عجينة وتُشتر على أوراقها لتجف تحت الشمس وعند إدايتها في الماء تتحول إلى صلصة لذيذة الطعم. وتعيش فصائل الجبود الأتراك بالكامل تقريباً على البسكويت وهذه الفاكهة في أثناء مسيراتهم عبر الحجاز.

وهناك أحد عشر متحراً تتجار وبائعي الحصة حيث يمكن شراء القمح والشعير والقمح والعدس والذرة^(١) المصرية والأرز المصري والهندي والبسكويت، الخ ويأتي القمح الوحيد الذي يُباع الآن في الحجاز من مصر. وفي زمن السلم، يتم استيراد هام من اليمس إلى مكة وجدة، ومن نجد إلى المدينة إلا أن الاستيراد من مصر هو أهم بكثير حيث يمكن القول حقاً إن الحجاز يعتمد على مصر للحصول على الحبوب. كانت تجارة الحبوب في السابق في أيدي الأفراد، كما دُحس الشريف غالب أيضاً في هذه التجارة لكن، في الوقت الحاضر، استولى محمد علي باشا كلياً على هذه التجارة، فلا يُباع شيء في السويس أو لقصور إلى الأفراد، حيث تُشحن كل حبة لحساب الباشا. وهذه هي الحال كذلك بالنسبة إلى المؤن الأخرى كالأرز والربدة والبسكويت والبصل الذي يتم استيراد كميات كبيرة منه

في الوقت الذي كنت أسكن فيه في الحجاز، لم يكن إنتاج البلاد كافياً فقام الباشا ببيع الحبوب إلى جدة بسعر يتراوح بين مئة وثلاثين إلى مئة وستين ليرة لكل «إردب» وكل نوع آخر من المؤن حسب السبب نفسها. كانت كافة الحبوب تصل إلى اثني عشر بيرة للإردب الواحد في شمالي مصر، يُضاف إليها تكاليف النقل من أجرة إلى القصور ثم أجرة الشحن إلى جدة، لتصبح أخيراً خمساً وعشرين أو ثلاثين بيرة. وكان هذا الربح الهائل وحده يكفي ليتحمل الباشا نفقات إشعاله الحرب على الوهابيين، لكنه لم يأخذ في الحسبان استرقاء الشعب واستمالة وده. غير أن أنصاره قد وحدوا به الأعداء حيث رعموا أن الحفاظ على ارتفاع سعر الحبوب قد صمم لإبقاء بدو الحجاز في صفه لأنهم يعتمدون على مكة وجدة في تأمين مؤنهم فيصبحون بالتالي ملزمين بالدخول في خدمته للحصول على المال وتجنب الموت جوعاً.

يستعمل عامة الناس في الحجاز القليل من القمح، فخيرهم يُعدُّ إما من طحين الذرة أو من طحين الشعير وكلاهما أرخص من القمح بنسبة الثلث، وإما يعيشون كلياً على الأرز والربدة. هذه هي الحال كذلك لدى معظم بدو تهامة على الساحل. ولا يأكل شعب اليمس في جدة إلا

(١) يأتي من سواقي، التي يملأها بدورها من نقا في المناطق الداخلية من البرية، وهناك برع من الذرة ذات الحبات الصغيرة يأتي من اليمن، وتباع هنا أيضاً.

الندرة وأكثر الأرز المستعمل في حده يأتي بشكل «صابورة» (تقل يُستعمل في سفينة ما للحفاظ على الثور) لسفن القادمة من الهند ويأتي الصف لأجود من غوريرات Guzerat ومن كتش Cutch، وهو يشكّل المادة الرئيسية في الطعام بين سكان الحجر الذين يفضّلونه على الأرز المصري لأنه، كما يعتقدون، صحي أكثر من الأخير الذي يستهلكه الأتراك حصرياً وغرباء أجروا من بحيرة الشمال إلى حده الأرز الهندي أعرض وأطول من النوع المعتاد المصري ولونه مائل إلى الأصفر، بينما أن للأخير لون مائل إلى الأحمر قليلاً، لكن النوع الأجود من الصفين يصنع «بياض» كما أن لأرز الهندي ينتج أكثر من مصري عند غليه، لهذا سبب يفضّله العرب إذ إن كمية صغيرة منه بإمكانها أن تغلّط صفاً كاملاً غير أن الأرز المصري معدي أكثر والأرز الهندي أرخص ثمناً وهو يُنقل من حده إلى مكة والطائف والندسة ويبلغ «بجاء»

ويشكّل مريح من الأرز والعدس، بكميات متساوية، سكب فوقه لريده، طبقاً محبباً عند الطبقة الوسطى، بل هو عده طعمهم الوحيد عند العشاء^(١) وقد اكتشفت أن ابداً، في أنحاء الحجر كلها لا يحملون عدسهم مؤناً أخرى غير الأرز والعدس ولريده واستمر. كما أن استيراد الإسكويث من مصر أصبح منذ عهد قريب ذا شأن كبير وذلك بسبب استهلاك جيش التركي الكبير. أما العرب، فهم لا يحبون الإسكويث ونادراً ما يأكلونه حتى على من سفهم حيث يحبرون كمعنتهم (بمعينة غير مُحَمَّرة) كل صباح في تلك الأتار الصغيرة التي يجدها في السفن كلها مهما كان حجمها والتي سحر في اسحر الأحمر

ويبيع تجار الحبوب المنح الذي يُجمع قرب حدة من اسحر، ويحكره الشريف ويحصل سكان مكة المنح الصحري الذي يحصره ابداً من بعض الخيال قرب الطائف

وهاك واحد وثلاثون سحراً لبيع التبغ حيث يُباع التبغ وامتياك المصري والسوري، أو التبغ الخاص بالعليون الفارسي، ورأس العلين فضلاً عن أنابيب الأرحيلة (بريش) وجور لكاكاو وحبوب القهوة والفسرة والصابون واللوز وريش الحجر وأشياء أخرى خاصة بالبقالة والتبغ المصري ممزوج أحياناً مع تنوع سنا Sennar هو الأرخص ثمناً ويكثر الصب عليه جداً في أنحاء الحجر كلها وهذه نوعان منه. الأول ذو ورقة خضراء وإن تلك حافة ويُدعى «الزينة» ويأتي من شمالي مصر، والثاني ذو ورقة بيضاء اللون، والأنواع الجيدة منه تُزرع في طهطا إلى الجنوب من أسبوط وحللا سيطره الوهايز، لم يكن التبغ يُباع علناً، لكن، أي أن كل بدو الحجر شعوفون به إلى حد بعيد، كان الأفراد يبيعونه جلسه في متجره ليس كتبغ أو دحان، بل تحت اسم «مطلبات الرجل». ويتم استيراد الأنابيب الصغيرة للعليون الفارسي من اليمن، وهي

(١) يُعرف هذا التطبيق في سوريا بالحمّرة لأن حبوب العدس في الأرز تشبه وجه شخص مصاب بمرض الحمّري

مشحولة بجمالية رائعة. ويأتي جوز الكاكاو من الهند الشرقية وكذلك من الساحل الإفريقي الجنوبي الشرقي ومن بلاد الصومال. ويمكن الحصول عليه صرجاً وبأسعار متدنية خلال فترة الرياح الموسمية. ويبدو أن شعب مكة وحده مولع بها جداً وتُستعمل الخورات الكبيرة التي سبق أن ذكرناها، للبري أو العبور العرسي الشائع، وتُستعمل الجورات الصغيرة لعلب السعوط أو «النشوق».

يأتي الصابون من السويس حيث يُقبل من سوريا التي تمتد ساحل البحر الأحمر كله به. وتجارة الصابون مهمة جداً، ويسيطر تجار مدينة الخليل على الجزء الأكبر منها، وهم يأتون به إلى جدة حيث يجد دائماً بعضاً من أثاثك الثجار. ويأتي اللوز والريش من جبال الطائف والحجاز ويتم تصدير كميات كبيرة منها حتى إلى الهند الشرقية والبلور ذو نوعية ممتازة أما الريش فصغير وداكن اللون لكنه حلز امذاق جداً ويُحضر منهما شراب مُسكر.

وهناك ثمانية عشر بائع أدوية. وكلهم من أبناء الهند الشرقية وهم غالباً من سورات. وفصلاً عن أنواع الأدوية كافة، فهم يبيعون الشموع والنورق والسكر والعطورات والبحور وتُستعمل هذه الأخير بكثرة بين سكان المدن حيث تُعطّر العائلات المحترمة كدها عرقها المفضلة كل صباح وتُستعمل لهذا الغرض بحور المستكي وحشب النضد المحروق فوق المعجم الباتي. كما تُستعمل عامة في الحجاز للتبيل على أنواعها كافة وخاصة الحار منها في الأحوال والأمكية جميعها. وبأدرة ما تُشرب القهوة في اسارل الخاصة دون مريح من حب الهال أو القرص كما يدخل الفلفل الأحمر الباتي من الهند أو مصر في تكوين أي طبق من الأطباق. ويُعتبر برعم الورد مادة مهمة لتجارة بين بائعي الأدوية في جدة ومكة وهو يأتي من حدائق الطائف. يفعه أهل الحجاز خاصة السيدات منهم، في الماء الذي يستعملونه بعد ذلك للوضوء. ومن أيضاً يبيعون تلك الورد مع الشكر ويعدون منه المرقى. ويأتي الشكر الذي يُباع في متاجر بائعي الأدوية من الهند وهو ذو لون أبيض مائل قليلاً إلى الأصفر. وهو مُكرّر ومُنقى بحاية ويأتي في شكل (بودرة). كما تُستورد كمية صغيرة من السكر مصري لكن الدس ها لا يربعون فيه إذ إنه يفسد بشكل عام كل ما يأتي من الهند لأنه يطرهم رقى وأجود نوعية. وهم في ذلك تماماً كما في منتجات والمصنوعات الإنكليزية التي يفصلها الأوروبيون على منتجاتهم. إن بائعي الأدوية الهنود كلهم رجال درو أملاك هامة، كما أن تجارتهم مربحة جداً ولا يستطيع أي عربي منافستهم في هذا الصغار. إن بائعي الأدوية في مكة والطائف ويُبع «المدينة» كلهم محدثون من أصل هندي، وقد استقروا في هذه البلاد منذ أجيال عديدة ونظمتها بطبيعتها، غير أنهم يواصلون التكم باللع الهندية ويمروا أنفسهم بأرياء بسيطة عن العرب الذين لا يحبونهم عامة ويتهمونهم بالجنش والعش.

وهناك أحد عشر منحراً تُباع فيها سلع صغيرة من صناعة هندية، كالخرف الصيني وأص
العليون والملاعق الخشبية والعقود الراحية والمسكاكين والشحاحات والبرايا والبطاقات، الخ
ويدير هذه المتاجر لهود ومعظمهم من بومباي وقلية جداً هي الأدوية الهندية الأوروبية التي
تجد طريقها إلى هنا باستثناء الإبر ومقاصات والكشيشات والمبارد ويأتي كل شيء آخر من هذا
التنوع تقريباً من الهند كما يلقي الخرف الصيني في الخمار تقديراً عصبياً. ويعرض السكان
الأغنياء محرمات عالية الثمن منها وقد وضعت على رفوف في غرف خصوصهم، وهذا ما
ملاحظته كذلك في سوريا ولقد رأيت في مكة كما في جدة، أطباء على أنوار فطر الواحد
منها قدماي ونصف القدم على الأرض، يحتملها شخصان تحوي على حروف مشوي كامل

إن العقود الراحية مصدرة من جدة كانت في الأساس معدة لسوق السواقي والخيشة،
وهي بجزء منها من صناعة البندقية وجزء آخر من صناعة الخيل. وتضع تلك العقود برأة
بدوية في الخمار على الرعم من أن الأساور المصنوعة من قرون الأسود وعقود الكهرمان
رئحة أكثر يسهل وتباع في هذه المتاجر عقود العميق التي تدعى ريش Reysh^(١)، وتأتي من
بومباي وتستعمل في قبة بريقة. كما يشاهد هنا نوعاً من عقود الحمراء اللون مصنوعة من
لشع، بكلمات كبيرة، وهي تأتي من الهند ومعدة بأكثرها للبلاد الخيشة. وتباع كذلك
أصناف كبيرة من الشحاحات، منها ما هو مصنوع من حجر يسر (yosser)^(٢) وهي لأعلى
نمناً، فاليسر هو نوع من المرحاح يسمى في البحر لأحمر ويوجد النوع لأجود منه بين جدة
والقصية، وله لون سود قديم ويتم تجميعه جيداً. وتباع السبحة التي تحمل كل منها مائة حبة
دولار وحدثني أربعة دولارات وذلك حسب حجمها ويصنعها الخراطون في جدة ويكثر
طلب عليها لتصديرها إلى ماليزيا. وهناك شحاحات أخرى (تأتي من الهند) مصنوعة من
لقلميق Kalambac العطر ومن خشب الصندل. ويكثر الطلب عليها في كل أنحاء مصر
وسوريا وقلما تجد حاجاً يعادر خمار من غير أن يأخذ معه بعضاً من هذه الشحاحات من
الهنديتين المقدستين كهدايا لأصدقائه في الوطن.

وهناك أحد عشر منحراً لنشاي وفيها أنواع مختلفة من الأثواب التي تُباع كل صباح بالمراد
لعلبي وقد اتعت في الجزء الأكبر من هذه الأثواب البري التركي التي تشاهد لتجار من المنطقة
الأولى والثانية مع إضافة بعض التعديلات الوطنية الصغيرة على قصة الثياب تُقصد هذه المتاجر
بشكل خاص خلال موسم الحج وذلك لشراء «الحرام» أو «الإحرام» وهو العباءة أو العطاء الذي

(١) راجع الرحلات في بومباي، للمثال shendy

(٢) ومن يدعى الزقاق الرئيسي في جدة «حوش نسو».

يؤدّي به الحج، وهو عبارة عن قطعي قمش قطبي أو كتاني هندي باعم وطوي. ويأتي بدو الحجار إلى هنا أيضاً لشراء العباءات الهندية الصوفية أو العباءات البدوية لآتية من مصر التي يعتمدون عليها كثيراً للحصول عليها من هنا يبدو أنهم يملكون الطبع الكسول نفسه كمعظم سكان الحجار إذ إنه معروف عن روجات البدو الآخرين أنهم يَصْنَعُونَ عباياتهم الخاصة بأنفسهم. وإلى هنا أيضاً يحضرون السجاد التركي ذا البوابة المتدبة والذي يشكل جزءاً من الأثاث الذي لا يمكن الاستغناء عنه في حيمة شيخ بدوي. ويُنَاج كدلك في هذه المتاجر، بالتجربة، كل ما يُستورد من مصر وكل ما هو ضروري للملبس كالملايات والعباءات والتحف القبطية والكتان صناعة القمصان محططة المصبوغة باللون الأزرق والتي يرتديها الملاحون والحُقَّان باللونين الأحمر والأصفر ويستعملها التجار الأوروبيون غنى والسيدات كلهن، فضلاً عن القبعات الحمر والأثواب الموحية «الصوفية» وشالات الكشمير من الدرجة الثانية، وشالات الموصيين، الخ.

وهناك ستة ماجر كبيرة للسلع والأقمشة الهندية التي تُباع بالقطعة، ويُباع فيها الجوخ العربي وشالات الكشمير، إلخ يدير هذه المتاجر تجار محترمون، ويقوم البائعون لديهم بالبيع بالتجربة كما أن التجار الأساسيين كلهم تقريباً يمارسون السع بالتجربة في منازلهم الخاصة باستثناء التجار اليهود الكبار المستقرين هنا والذين لا يتجرون إلا في الأقمشة والمسوحات الهندية. أما التجار الآخرون في جلة فيعمون في كل فرع من التجارة. وقد رأيت في إحدى المرات شقيق الجليلي يشاجر مع بائع متحول من يبيع حوز سعر مائة أو عباءة تُسَدِّي نحو خمسة عشر شلماً. لكن الحال هي كذلك أيضاً في مصر وسوريا حيث يقوم تجار البلاد الأوروبيون غنى بالبيع بالتجربة كما يَدْحَلُون في كل نوع من العمل إنما من غير أن يحتفظوا بأي مزين من ائباعة والمحاسين، إذ إن أسلوبهم في إدارة أعمالهم يجعل من ذلك أمر غير ضروري. إن التاجر التركي لا يحتفظ أبداً بأكثر من دفتر حسابات واحد يدون عليه مبيعاته ومشترياته بعد نقلها أسبوعياً من دفتر الحبيب الخاص به وليس لديهم نظام ائباعة الواسع الشامل ذلك الذي يضطر التجار الأوروبيون غنى للحفاظ عليه؛ وهم يمارسون الكتابة بدرجة أقل كثيراً من نظرائهم الأوروبيين رغم أنهم أكثر وضوحاً ومباشرة في كتاباتهم عندما يكتبون. وهم يحتفظون في كل مدينة لهم فيها معاملات تجارية، بصديق واحد يُسَوِّون معه الحساب كل سنة. أما التجار الأتراك، باستثناء الذين يعيشون في المرافئ البحرية، فهُمْ لا يراولون إلا فرعاً واحداً من التجارة ولا يُحَرِّون مراسبة إلا مع المدينة التي يحصلون منها على بضاعتهم ومع المدينة التي ينقلون إليها تلك البضاعة هكذا وعلى سبيل المثال، فإن تجار بغداد في حلب، وهم تجار يَنْكُون رأسمالاً بين ثلاثين إلى أربعين ألف حبة، يتسمون السع من أصدقائهم في بغداد،

ثم يرسلونها من حلب إلى القسطنطينية «سأسول» وقد عرفت الكثير منهم من ليس لديهم بعة ولا يقومون بأعمالهم كافة بأنفسهم. وفي القاهرة، يتاجر التجار السوريون بالصنائع الآتية من دمشق وحلب ولا صلة لهم بتجارة العرب وسوريا وجدة.

ومما يسهل لصفحات التجارية أكثر هو أن التجار يستخدمون رؤوس أموالهم الخاصة، حيث لا ينتشر نظام العمولة كما هو الحال في أوروبا. وحين يقوم تاجر بسليم كمية كبيرة من الصنائع إلى منطقة ما، فإنه يرسل معها شريكاً أو ربما قريباً إذا لم يكن له شريك معه في منطقته. أما مشاؤون المصارف و«الكمبيلات» فهي غير معروفة أبداً بين أهل البلاد، يقر عبيهم الكثير من المتاعب أما في تلك المدن التي توجد فيها المصارف الأوروبية، فيمكن إيجاد «الكمبيلات» لكنها غير متداولة بين أهل البلاد، حيث لا يشجع بينهم. لا القفل الشرعي لدى أو الملكية من شخص لآخر.

إن الأسلوب الذي يستوي في اتباعه التجار المسلمون ومسيحيون ونيهود في الشرق من عدم وضع موزنة محددة لموضع الخلف لرأس مالهم. هو سبب آخر يجعل من التفاصيل الدقة في مسك الدفاتر أقل ضرورة والحاجة لها منها في أوروبا. ولأسباب نفسها التي لا بدع السوي إلى إحصاء الخسائر في قبيله أو العدد الدقيق لقطيعه ولا تحمل العسكري بعد الفرقم دقيق رجائه ولا تحسب الحاكم على تحديد عدد سكان مدينته. كذلك، فإن التاجر لا يحاول أبداً أن يتأكد من القدر الدقيق لأملكه، فعلى ما يريد هو مقدرة بسيطة. يسع هذا من الاعتقاد بأن نعمة هو عرض مناه للثروة تعاقب عليه السماء بتحفظها بسرعة.

بأدنى ما يدخل لتاجر الشرقي في مصاريف نصبي على محاطة، لكنه يحصر مبادلاته أو عملياته التجارية في حدود رأس ماله. ولا يُعطى فرض بمقدار كبير إلا بصحوبة أعمال لأفراد هي معروفة للعامة أكثر منها في أوروبا؛ لذلك، فادراً ما تقع الخسائر؛ وقد مات أحد الرجال في وضع حرج، إذ من حذاء مصرية غير ناححة أو شريحة حسائر لا يمكن تعاديلها، يتبع سائمون عن الصعق في طلبهم بهم عادة يحصلون على أموالهم بعد بضع سنوات من المصارف، فيتعدون بهذه الطريقة سمعه التاجر الطيب ويتعادون عواقب الإهمال.

ومن جهة أخرى عادة ما يكون التجار لشرقيون غير مأمورين في مواعيد سدادهم التي غالباً ما يؤخرونها إلى ما بعد الفترات المحددة. ولا يتردد التجار لمخترمون حتى في تأجيل دفع الدين يستحق عليهم لأشهر عدة، ويمكن اعتبار ذلك قاعدة عامة في مصر وسوريا حيث لا يتم دفع السلع بكامله حتى مرور فترة رمنية تقرب من ضعف الوقت المحدد. إلا أن ذلك، كما أكد لي أكثر الناس اطلاعاً بها، لم يصح شئماً إلا خلال سنوات العشرين أو الثلاثين المنصرمة وهو

نتيجة للصعاب العام الذي لحق بالتجارة والنقص في رؤوس الأموال في الشرق. وفي حده، كما سبق أن ذكرت، تتم كل الصعوبات التجارية تقريباً بالدفع النقدي.

وهناك ثلاثة تجار للآية الحاسبية يمكن إيجاد مجموعته موزعة من الآية الحاسبية المصنوعة جيداً في كل مطبخ عربي. وحتى البدو يتكئون على الأقل خلة واحدة واسعة في كل حيمة، وتأتي كلها من مصر وأكثر تلك الآية تميزاً هو الإبريق الذي يتوصلاً منه المسلم ولا يصل أي من الحجاج الأتراك إلى الحجار بغير واحد من تلك الأبريق أو على الأقل. يشتري واحداً من حده كما نجد في السوق بعض الآية الحاسبية لصينية، وقد أتى بها المالبزيون إلى هنا نكسها غير مصوغة. والعرب لا يحبون استعمالها على الرغم من أن الحاس يدو بوعية أجود بكثير من ذلك الآتي من بلاد الأماصول والذي يصل من القاهرة.

وهناك أربعة دكاكين للحلاقين إن الحلاقين هم في الوقت نفسه جزّاحر هذا البلد وأطباؤه فهم يعرفون الحجامة ويركّبون أنواعاً مختلفة من الأدوية لميتة. إن العدد القليل من العرب الذين لديهم حية أطول وأعرر من غيرهم من أهالي البلاد، يحرسون كل الحرص على إبقائها مقصورة بشكل متقن بحيث لا تبرز شعرة عن الأخرى. ويقص الشرب قصيراً دائماً فلا يترك أبداً ليندلى فوق الشفتين. وهم يحتفون في هذا عن أترك الشمال الذين نادراً ما يلمس المقص شاربهم العرير الأشعث ويرتاد دكاكين الحلاقين المتسكّعون من الطبقات الدنيا الذين يأتون إلى هنا لسماع الأخبار وتسلية أنفسهم بالتحدث وقد وجدت في إحدى الدكاكين تلك حافر خواتم من أصل فارسي وكان عمه مردهر، حيث إن الحجاج، بعد أن يتموا ريادة الأماكن المقدسة، يقومون عادة بإضافة نقب حجاج على الاسم في حاتم.

وهناك أربعة حياطين، وآخرون كثيرون يعيشون في أحياء مختلفة من المدينة، وهم في أغلبهم من لأجانب. فحياطين بلاط صوسور باشا كان مسيحياً من النروسة، وكان يتمتع بسلطة على الحياطين الآخرين كلهم في المدينة الذين كانوا يشكون حرارة ليس من تعرضهم للأوامر والإهانات فقط بل أيضاً لبعض المسيحيين هذا.

وهناك خمسة صابغين يعال وليس في الحجار أي صابغ أحدية، فأولئك الذين يتعلون الأحدية يشترونها من التجار الذين يستوردونها من مصر.

إن شكل العال في شبه الجزيرة العربية يختلف من مقاطعة إلى أخرى وإلى تلك الأشكال التي وضعها «سيبهر» بعبلاً، يمكن إضافة أشكال أخرى. وبعضها خاص بطبقات معينة من الناس، إن تاجر مثلاً لا يمكن أن يتعل صندل بخار وهذه هي الحال كذلك في تركيا فيما

يتعلق بالأحذية، للأحذية شكل خاص في كل منطقة ولدى كل طبقة ويأتي الحذاء السميكة المستعمل في صنع الحبال من مصر والخشب.

وهناك ثلاثة متاجر تباع فيها قرب المياه الجبلية لآنية من السواقي ومصر ويتم كذلك تصليحها والقسم الأكبر من الحجار تتوافر فيه القرب من السواقي ويكثر الطلب عليها لأنها حميفة جداً وتُحاط بإتقان كبير وتدوم تلك القرب، عند الاستعمال اليومي نحو ثلاثة أو أربعة أشهر.

وهناك حزازيد، يحفر أنابيب لعلب ويصنع السباحات، الخ.

وهناك ثلاثة بائعي رب، من الربوت الحرة، والعطور والزباد (طبخ يحرق من بعض عدد ستور الزباد) وحشب الآلة والبسمة من مكة وماء لهر من الفيوم في مصر ومادراً ما يمكن شراء الزباد والبسمة مكة في حالتهما لطيفة النقية إلا من مصدرهما ويأتي التجار حبشيون أو الأثيوبيون بالزباد في قرون الأنفار ويبيعونه بربع ليرة بلوحة، وذلك في العام ١٨١٤ وبيع الجسك كذلك في تلك المتاجر حيث يُباع بفصله بدولارين للمقال ويأتي به أصحاب اليهود والفرس

وهناك ساعاتي مركبي واحد. ويستخدم تجار مكة وحدة كلهم الساعات، وهي من صناعة إنكليزية جيدة في أغلبها ونأتي إلى هنا من الهند أو مع الحجاج القادمين من القسطنطينية «ستابور». وكما يحدث عادة، يحتاج الحجاج الأثر إلى المال في الحجارة فيجبرون أحياناً على التحني عن أعراضهم الثمينة، ويأتي الساعة في الدرجة الأولى ثم تبيعها لمسدسات السيوف وأخير لعبيون وسحرة حميلة من لقراق وهكذا تعصر أسواق لمراء العلبي في جدة ومكة بتلك الأغراض

وهناك بائع واحد للعبيون والبيع مركبي والفرسي، ويأتي الأخير من بغداد خاصة ويعرض لأعباء عاده في عرف جنوسهم أنواعاً كاملة من الأراجيل جيدة الصنع ولتي تكلف ما يساوي مائة دولار للقطعة

وهناك سبعة متعاملين بمال أو صرايين وهم يجلسون على مقاعد في الشوارع العامة مع عبة كبيرة أمامهم تحتوي على الماء كان هؤلاء الصرافون في السابق كلهم من اليهود كما هي الحال الآن، لكن مع بعض الاستثناءات في القاهرة ودمشق وحلب لكن، منذ أن قام الشريف سرور بإحراج اليهود من الحجارة، تسبب أمر حدة هذه المهنة بأنفسهم وهي مهنة يملكون إليها بصفتهم الفطرية وعادتهم يكون هناك عند كل مصنف عدة شركاء مما بلغوا خمسة أو ستة. وتتطلب ممارسة هذه المهنة مبلغاً كبيراً من المال، لكنها مربحة جداً. وتفتخر قيمة المال

هنا بسرعة لم أشهد لها في أي جزء آخر من الشرق ويتقلب سعر الدولار والشكوك يومياً تقريباً، والصديقون هم دائماً الوائقون من جني الأرباح. وترتفع قيمة الدولار ارتفاعاً مدحوظاً خلال فترة بقاء أسطول السفن الهندية. وحين كث في جدة ارتفعت هذه القيمة لتبلغ أحد عشر رائتي عشر بيرة. وبعد رحيل السفينة، أي حين يعدم الصب المباشر عنى الدولار، تهبط قيمته بسرعة. كان سعر الدولار في شهر كانون الثاني/ يناير من سنة ١٨١٥، تسع ليرات، كما يتغير سعر العملة الذهبية نسبة بذلك

في السابق، كانت لعملة لقدمية المتداولة في الحجاز هي سكوك السدقية والشكوك الهندي والدولارات الإسبانية والعملة المضروبة في القسطنطينية. أما العملة المصرية فكانت مُبعدة تماماً^(١) لكن، منذ وصول جيوش محمد علي باشا. وصُغت العملة المصرية كلها في التداول قسراً، وتواري العملة المصرية الفضية الآن قيمة الدولار الإسباني. وقد استعمل باشا مصر الذي كان يتمتع بحق ضرب العملة باسم السلطان، هذا الحق مؤخراً إلى حد بعيد. وقام سنة ١٨١٥ بتضمين دار سك العملة إلى جهة أخرى لقاء مبلغ سنوي مقداره سبعة ملايين بيرة، الذي يعادل حسب المعدل الحالي لنصف، نحو مائتي ألف جنيه إسترليني، مُجبر الناس على شراء الدولار مقابل ثمان ليرات من دراهمه رغم أنه، كما هو معروف تماماً، يساوي الآن اثنين وعشرين أو ثلاث وعشرين بيرة.

أما في الحجاز فهو لا يملك الوسائل نفسها التي تمكنه من فرض إجراءاته الاستبدادية التعسفية إلى أقصى حد فيبلغ بالتالي سعر الدولار ثماني ليرات أو تسع عشرة ليرة داخل البلاد حيث يتمركز الجيش التركي غير أن البدو يرفضون أخذ الميراث المصرية حتى بسعر منخفض ولا يقبلون إلا الدولار وهم يصرون على ذلك إصراراً أجبر معه الباشا نفسه على الخصوع لهم مرات عديدة.

أما «البار» (Para)، أو أصغر عملة تركية (تُدعى ها «ديواني») فهي شائعة في أنحاء الحجاز كلها وبكثرة لطلب عليها لأنها تتمتع بقيمة حقيقية وفعالية أكثر من البيرة رغم أنه مثلها، يتم سكها في القاهرة وكل أربعين بيرة تساوي ليرة واحدة، لكن في وقت الحج، حين تكون العملات الصغيرة ضرورية لمقايضات الخداح اليومية الهائلة، لا يعطي الصراف سوى خمس وعشرين بيرة فقط مقابل الليرة كما يرى بعض الرويات الهندية في سوق جدة غير أنها ليست منتشرة ولم أر أي عملة مسكوكة من إمام اليمن.

(١) حسب مؤرخي مكة، يبدو أن الشرء هناك احتكرو امتياز ضرب عملةهم الخاصة، باسم سلطان القسطنطينية «استبول»، حتى القرن السابع عشر لكن ذلك ثم الغني عنه الآن

وهناك، في شارع المتاجر الكبير منه، عشرة أبواب [هندق] واسعة وتكشط دائماً بالعرباء والصائع، وكان أكثرها مكاناً للشريف سابقاً، أما الآن فهي ملك لباشا الذي يحرص على لتجار إحارة سوية وتُدعى هذه الأبنية في سوريا «حال»، وفي الحجاز «حوش»، وهي كلمة تعني في اللهجة المصرية ساحة أو فناء.

ويعيش في «شارع الخدي» لمكان السوق الكبير بعض الحرفيين والحدادين ولتجارين وبعض الدخانيين، الخ، ومعظمهم من أهل مصر.

سيذكر القارئ بما مضى من الصفحات أن حدة تعتمد في سلعتها كثيراً على المستوردات إما من مصر أو الهند الشرقية، وهذه هي الحال لكن عرص وركب يكثف نفها.

إن الحاجة إلى اليد العاملة وارتفاع أجر العمال ولأهم من ذلك انكسار وقلة مثابرة والكثرة المتأصلين في أهالي الحجاز قد منعهم حتى الآن من تأسيس أي نوع من أنواع الصناعة باستثناء الأعراض الضرورية جداً وهم، في هذا الصدد، يشكلون نقيضاً للعرب السوريين والمصريين المثابرين عمومًا والذين قاموا بتأسيس صناعات عدة على الرغم من العوائق التي تصعبها الحكومة أحياناً في طريقهم. وقد جعلتهم هذه الصناعات في بعض أحرء البلاد مستقلين تماماً بعد أن استعصوا عن الإمدادات الخارجية. ويبدو أن لسكان الحجاز صنعتين فقط، التجارة ورعي مذبنة وشغل لحجارة عقل كل مديني بقرية بغير استثناء العلماء وشعبيين. فساس كنهم يستعوز إلى توظيف ما يملكون من رأس مال في بعض العمليات التجارية المربحة والسيدة بحيث يتمكن منعيش دون إجهاد جسدي عما بهم يُعصون ذلك حتى إنهم لا يدعون في تحمل نفهم وشخاصر كلها التي تُلارم تجارتها ومن الصعب حتى إيجاد أشخاص يدرسون العمل العددي الذي يقوم به الحمال مثلاً وغيره، والذين يقومون بأعمال كهذا هم بأعنيهم عرباء من مصر أو سورية أو حجاج رنوح يكسون بهذه الطريقة وسائل حياتهم، وهم يسمون عادة في حدة بشكل مؤقت إن العرق الوحيد الذي عرفته عرقاً مثابراً بين أهل شبه جزيرة العربية هو شعب حصرموت أو كما يدعون «الحصرمة»، حيث يعمل العديد منهم حدماً في بيوت التجار، وبوابين ومراسلين وحمالين، وهم مفصلون على غيرهم لمثابرتهم وبراعتهم. إن كل مدينة في الشرق تقريباً فيها حمالون من عرق معين، فهي حسب هم الأرمن القادمون من حال «سيا» الصغرى، وفي دمشق هم سكان جبل لبنان وفي القاهرة هم سرابرة النوبيون، وفي مكة وجدة هم «الحصارمة»، وهم كما في سوريا، من سكان الجبال ومن المعروف أن الموصفات المشابهة نبتك التي يتطسها هذا العمل تتوافر في مواضع من سكان حال الألب للتوظيفة نفسها في بريس. وهناك تشابه بارر ومثلث آخر يجمع بين سكان تلك البلاد كلها وهو أنهم عدمه

يعودون إلى بلادهم مع أربابهم ومُحْصُونَ نَفَةٍ حَيَاتِهِمْ. وعلى الرغم من نوافر هذا المورد الهام بأيدي العامة، إلا أن هناك انعداماً شبه كامل للخدم الأحرار في الحجاز. وإن أي رجل قد وُلِدَ في واحدة من المدن المقدسة من يقوم أبداً بمهنة خادم منزلي إلا إذا ما دفعه إلى ذلك الخوف من الموت جوعاً، ولا تلتأ أن تتحسّر حاله حتى يتوقف عن هذا العمل ويتحول إلى بائع متحول أو متسوّل. إن عدد المتسوّلين في مكة وحده مرتفع جداً، ويتندر تجار جدة بالقول إن شخصاً من جده لم يعمل أبداً طالما أنه يستطيع تأمين حياته عن طريق التسوّل ويشجّع الحجاج كثيراً التسوّل فهم يمشقون عرص إحسانهم منه أن تلمس أقدامهم الأرض المقدسة في هذا المكان.

فيما يتعلق بشعب جدة وبطيّعتهم، سأجد الفرصة لتقديم بعض الملاحظات في وصف سكان مكة الذين يشبهونهم عامة. وفي الواقع، تلك العائلات المحترمة كلها بيوتاً في أماكن وهم ينتقلون غالباً من مكان إلى آخر.

يحكم جدة باشا ذو ثلاث أشرعة، وهو يأخذ الأسقية على معظم الآخرين لارتباط هذا المكان بالمدينتين المقدستين، لكن نبلاء الأتراك قلما يقدرّون هذا المنصب المحترم، فهم كثيراً ما اعتبروا حدة مكاناً للنفي أكثر منه للترقية، وغالباً ما كان توليه يُسَدُّ إلى رجال الدولة المعضوب عليهم. ولا يصطّب الباشا نفسه واپٍ أو حاكماً لجدة فقط بل لسواقين والحبشة؛ وهو، بدعم وتعريض نفسه، يصعّ مأمورين بلجمارك في سواقين والمصرع، وهما منطقتان كانتا - قبل حكومة محمد علي - تابعين كلياً لشريف.

وند هُشْمِشت الباشاوية كنيّاً في جدة تحت سلطة شريف مكة وباتّ اللقب محرد تميز معوي يتمتع به حاملوه وهم يسكنون في مدينة ريفية في تركيا والقسطنطينية من غير أن يحاولوا أبداً السيطرة على الحكم إلا أنه حصل استثناء سنة ١٨٠٣، عندما ذهب شريف باشا إلى حدة مع أربعين أو خمسمائة جندي، بعد إخلاء مصر كلياً عن يد الفرنسيين؛ لكنه، كأسلافه، بات محرد أداة في أيدي الشريف عاب. وفي سنة ١٨٠٤، انتهت سيرته بالموت المفاجيء وهو مصير حدة باشوات سابقين في جدة ومكة.

وعلى وفق أوامر الانسحاب الذي كانت سادته لاسمية على الحجاز معترفاً بها حتى آخر فتح وهادي، كان من المفروض أن تُقسّم العائدات المحيطة من جدة بالتساوي بين الباشا وشريف مكة، في حين أنه كان للأون حصرياً إمرة المدينة. وعندما بدأ الأتراك بإحصاء آسيا، تلقى الشريف ثلث هذه العائدات فقط، ولم يحصل على النصف حتى سنة ١٠٤٢ للهجرة^(١). غير أن

(١) راجع الأعصبي، تاريخ الحجاز

الشريف قام بالتالي، ليس فقط باعتصاب حكومة حدة، لكنه حصص الضرائب كلها كذلك لاستعماله الشخصي، وبت الباشا معتمداً كلياً على عطائه وسعائه

بعد موت شريف باشا بقليل، أُجبر الشريف غالب على تسليم مكة إلى الوهابيين بعد أن تمت محاصرته في جدة في العام الذي سبق ذلك من قبل «سعود»، ثم أعلن نفسه مُلتزماً بالدين الوهابي وأحد رعايا القائد الوهابي على الرغم من أنه بقي يحتفظ كياً بوضع ليد على جدة وما تتجه من ضرائب كانت تشكل الجزء الأساسي من دخله. ولم يدخل الوهابيون المدينة التي تظاهرت بتأييدها لعقائدهم. وأحبر الجلود الأتراك بالتالي على الاستحباب باتجاه مصر أو مكان آخر. ومنذ تلك الفترة وحتى سنة ١٨١١، أعدت السلطات التركية كلها من الحذر.

في سنة ١٨١٠، بدأ محمد علي باشا حملاته ضد الوهابيين بإرسال فرقة من الجلود بقيادة بحله طوسون بك الذي هُزم في المعركة بين ينبع والمدينة. وتمت الحملة الثانية سنة ١٨١٢، وكانت أكثر نجاحاً، فهي حين استولى طوسون على «المدينة» في شهر أيلول/سبتمبر من السنة نفسها، اتجه مصطفى بك، وهو صهر الباشا، مباشرة إلى حدة ومكة والطائف مع لفرسان بإمرته، وقد استسلمت تلك المدن تقريباً دون سبك الدماء. إن الشريف غالباً الذي قام باتصال سري مع مصر منذ اللحظة التي بدأ يُدرك فيها إمكانية نجاح حملة محمد علي، أعلن عنه صراحة صديقاً للأتراك الذين دخلو حدة كأصدقاء وسرياً بعد ذلك، منح الباب العالي طوسون لقب «باشا» مكافأة له على خدماته. وسبقاً لتفصيل تلك الحرب لاحقاً، بذلك، سأكتفي هنا بأن أذكر أنه، بعد أن دخل العثمانيون أو الأتراك إلى حدة، نشأ خلاف بين الباشا والشريف فيما يتعلق بالضرائب التي كان يجب أن تُقسم بينهما والتي احتفظ بها الباشا كلها نفسه بعد أن أصبح متعوقاً في قوته ومضطرباً، وقام بإرسال الشريف محيماً إلى تركيا ومنذ تلك الحادثة، بقيت المدينة تحت تصرفه إذ إن الشريف الجديد، يحيى كان في خدمة طوسون.

كان يحكم حدة على من الشريف غالب، هو نفسه حين كان يقيم هناك أو يتولى ذلك خلال عيونه صابط يُدعى الورير. كانت شرطة المدينة تحت إمرته، بينما عُهد بجيش الضرائب أو لمحرماء إلى صابط آخر يُدعى «المركمجي»؛ وشملت شرطة انرفا، إلى «أمير البحر» وهو لقب يوارى لقب السيد لمرفا. في وقت لاحق، كان الورير عبداً أسود من عبيد غالب وكان مكروه جداً لعروره وسبوكه الاستبدادي. وبأدراكه كان غالب يقيم في حدة لأن مكائده اتواصلة مع البدو ومحطياته ضد القبائل الوهابية، كل ذلك كان يتطلب وجوده في موقع المركزي في مكة.

لم يغير العثمانيون شكل الحكومة التي كانت في عهد غالب وما حدث أن طوسون باشا

كان نادراً ما يستطيع الإقامة في عاصمته كونه تحت إمرة أبيه الذي كان يتلقى التعليمات كاملة عن حرب الحجاز من الباب العالي، إضافة إلى تنظيم موارد في هذا البلد. وكان استخدام طوسوك في التنقل مع فصائل تحت إمرته أكثر نفعاً، إلى أن عاد إلى القاهرة في شتاء سنة ١٨١٥. ومنذ العام ١٨١٢ كان يقيم في المدينة بشكل دائم قائد عسكري مع فرقة من مائتين إلى ثلاثمائة رجل كان الباشا يحرص على تبديلهم كل ثلاثة أو أربعة أشهر. كما أن جبي الضرائب والتنظيم الكامل للشؤون المدنية والاتصال مع القاهرة ومكة وإرسال الجنود والدعوات والتجارة الحكومية بين مصر وجدة فضلاً عن حزية الباشا، كل ذلك كان في أيدي هذا القائد واسمه سيد علي أرحقلي. وكان والده من آسيا الصغرى وهو ينتمي إلى فيلق الإنكشاريين (أوجق) الذي جاء منه لقب «أرحقلي». ويكرمه تجار جدة لأنهم يتذكرونه وهو يبيع الفستق في الشوارع منذ عشرين عاماً. وقد كان في زمن الشريف غالب موظفاً لديه في أعماله التجارية الخاصة، لأنه يمتلك مواهب عديدة ونشاطاً كبيراً فضلاً عن معرفة واسعة باللغة التركية، كان من الصعب على محمد علي اختبار شخص أكثر كفاءة منه ليشغل المنصب الذي يتولاه الآن. يأتي دخل جدة العام كله تقريباً من الضرائب وتُدعى هنا «القشور». وقد علمت أن هذه يجب أن تكون قانونياً عشرة في المئة على السلع المستوردة كلها؛ لكن، نتيجة سوء استعمال ذلك القانون والذي مورس لوقت طويل، كان يحرص على بعض السلع صرية أعلى من ذلك بكثير في حين أنها أقل بكثير على سلع أخرى. وخلال الفترة الأخيرة من سلطنة الشريف، كانت الضريبة على القهوة تبلغ خمسة دولارات لقطار الواحد أي ما يعادل خمسة عشر إلى عشرين في المئة. وكانت لصرية على التوبل أقل من عشرة في المئة إلى حد ما، وعلى السلع الهدية كانت أكثر بقليل لذلك كان هناك عدم دقة وانتظام في فرض الضرائب. كما يدخل ضمن صلاحيات صابط الجمارك وسلطته الحق في محاسبة أصدقائه دون أن يتعرض لأي مسؤولية.

بعد أن اعتنق الشريف مذهب الوهابيين انخفض دخله بشكل كبير لأن «مسعود»، وهو رعيم الوهابيين وفائدهم، أصبح على أن تفر السلع التي تحصى أتباعه بلا ضريبة. فأصبح بالتالي الجزء الأكبر من تجارة القهوة مُعفى ومُستثنى من الضريبة، وقد سمعتُ من شخص لديه الوسيلة لمعرفة الحقائق وليس لديه الدافع لإحباطها عني، أن معدل الضرائب المحيية في جدة سنة ١٨١٤ كان أربع مائة ألف دولار، أي ما يعادل ثمانية آلاف كيس دراهم أو أربعة ملايين ليرة، التي قد تؤمن استيراداً سنوياً بنحو أربعة ملايين دولار وهو مبلغ أقل من الحقيقة والواقع بالطبع وليس أكثر منها. وتُفرض الضريبة نفسها وبالمعدل نفسه عند بوابتي المدينة، أي باب مكة وباب «المدينة»، على كل المؤن الآتية من داخل البلاد وخاصة الماشية والزبدة والتمور، وهي تصبح

دات أهمية فائقة في زمن السوم، وعندما يكون الاتصال مع الداخل غير مقطوع. وما عد تلك، فإن سكان المدينة لا يدفعون أي نوع من الرسوم أو الضرائب

حلال إقامي، جعل الأتراك من جده المستودع الرئيسي لجشهم. وكان هناك مستودع حطة كبير يعود إلى البشا كان يتنقى تقريباً محزوناً يومياً من مصر، وكانت القوافل تُرس إلى مكة والطائف كل يوم كذلك، فقد ازدهرت تجارة المدينة بسبب احتياحات الجيش وطلقاته والتعبير له وقد تم تنظيم الشرطه في اسطفة بشكل جيد، وقد أعطى البشا الأوامر الصارمه إلى جنوده بمنعهم بموجها من اقيم بأي تجاوره، لأنه كان يعرف تماماً أن العرب ذوي المبادئ السامية لا يحضعون بصمت وسهولة لمعاملة السيئة كاصريين المستعدين. فأيسد يشأ عراك بين عرب وأتراك، كان للعرب عامة الأفضلية. ونم يُبازس في عمل جائز هدفه القمع والظلم على الأفراد تحت أي ادعاء باستثناء احتلال البشا عدد من أفضل لممارس ليحصل منها مسكاً بروجنه إلا أن لتحا كانوا يعانون، كما في زمن الشريف من معدلات الضرائب العشوية ومن ضرورة شراء أنواع السلع كلها من الباشا عدلاً، اندي هذا، وهو في حجار، حريصاً على تجارتهم حرصه على طموحاته العسكرية، لكن، وبعد إلقاء نظرة محرودة على حسنت الحكومتين وسيئتهما، يمكن القول إن سكان جده قد ربحوا بالتأكد مع العثمانيين، ولكن من العرب أن لا يجد أي عربي، عيباً كان أم فقراً، متعلقاً بصدق بأسياده الجدد، وقد عم سدم والأسف بين الناس جميعين لانهاء عهد الشريف ولا بحث أن رد ذلك كله إلى الثقلب معتاد الذي شهده لدى الجماهير وخاصة منهم رعايا الباب العالي أكثر مما شهده في أي دولة أوربية. فالحاكم أو البشا العثماني يتعبر باستمرار حيث يصبح كن حاكم جديد الحاكم لأعني اندي يعطي أساباً وادرة كافية تدفع بهم إلى لشكوى والتدثر والكره وبعض في حين أن تعافهم السريع يعطي الناس الأمل بالتحلص قريباً منهم ومن استبدادهم الخالي ثم يتطعنون بعد ذلك إلى الإمام بسرور لأن الأشهر لأوسى بحاكم جديد تتميز عامة بالرأفة والعدل.

عرب شبه الجزيرة العربية أمة أبيه شجاعة، وهذا يصدق حتى على سكان مدن، وذلك مهم كن نساد الشخصية الحقيقة لسدوي بين هذا العرق اسحط فهم يحتقرون كل أمة لا تتكلم اللغة العربية أو يحتف عنهم في أسلوب عيشها. إلى جانب ذلك، فقد عتدوا بسوات عديدة أن يصبرو إلى الأتراك كشعب أدنى مرتبة كلما دخل إلى الحجار كان يُرهب بسلطة الشريف.

إن الطقوس والشعائر الصارمه في البلاد التركي لم تكن تناسب رعايا محمد محمد علي

ولا مفاهيمهم لراسحة. فالشريف، في أعين سلطته، كان يشبه شيخاً بدوياً كبيراً يرعى بأن يحاطب بطريقة وفحة وأحياناً قاسية. أما لباشا التركي فكان يُحاطب بأكثر أشكال العبودية دلالاً وقد روى لي أحد أكبر تجار الحجار وأن الشريف غالباً كان كلما أراد قرصاً مالياً يرسل في طلب ثلاثة أو أربعة مناء، وكنا يبدأ بمحادثات معقفة معه لبضع ساعات وكنا أحياناً نتشاجر عالياً حيث كنا دائماً نحقق المبلغ الذي أقل بكثير مما طلب في البداية ونحن كنا نذهب في أعمال عادية إليه كنا نكلمه كما أكلت الآب، إلا أن الثالث كان يُقينا واقعياً اسمه بشكل مدل كنكثير من العبيد الحبشيين، وكان يطر إلى بظرة متعالية كما لو كنا كائنات وصيفة حقيرة، ثم حتم قائلاً: إنه يفضل أن يدفع عرامة لشريف على أن يحصل على معروف من الباشا.

إن معرفة القبيلة البسيطة التي يملكها الأتراك للغة العربية ولفضهم السيئ لها حتى وهم يتلون آيات من القرآن، وجهلهم لشبه الجزيرة وخصوصياتها التي يتكلمونها في كل فعل يقومون به، كلها أسباب عديدة لإصافهم لمكروهين ومحتقرين في نظر العرب وبيادهم الأتراك ذلك الشعور بسعة الارتداء والكره معها. فإذا كن من لا يتكلم لغة الجدي التركي أو لا يرتدي رتبه، يعتبرونه «فلاحاً» أو ربيعاً سادجاً وهي عبارة اعتدوا أن يطبقوها على الفلاحين المصريين كوبهم كائنات يعيشون تحت أدنى حالة من العبودية والقمع أما كرههم للعرق العربي فكبير بكثير لأن هذا العرق لا يمكنه لتساؤل مع نصره فاتهم الاستبدادية وتبريرها بلا عفة، كما اعتادوا في مصر، فهم مفتنعون بأن العربي إذا ما ضرب فإنه سيصير مرة أخرى. ويتهم العرب الأتراك خاصة بالعدو والحيمة حين قصروا على الشريف وأرسلوه إلى تركيا بعد أن أعلن مولاته لباشا، وسمحوا للجيوش التركية باحتلال حدة ومكة وهم، كما يؤكدون، ما كانوا ليحرروا تفدماً أبداً في شبه الجزيرة دون مساعدة الشريف، أو أن يحصلوا حتى على موطن، قدم هنا

إن عبارة «حائش» تُطلق على كل تركي عموماً في شبه الجزيرة تُرافقها تلك الثقة المعجورة والتفوق، وهو أمر اشتهر به العرب في هذا الصدد باستحقاق. وقد اكتشفت الطبقات الدنيا من العرب نو كيداً حياً للتهمة التي تطبقها على الأتراك، وذلك في اللقب الذي يُطلق على السيد الأعظم وهو «حاش»، وهي كلمة تعربه قديمة وتسمي الحياة باللمة العربية، فهي صيغة الماضي من فعل يحون. وهم يدعون أن أحد أسلاف السلطان حصل على التسمية الحفيرة بعد أن حال أحد اللاجئيين «السلطان حاش»، وأن حلفاءه احتفظوا بالنقب لجهنهم اللغة العربية

كما صعدت سلطة الأتراك وقوتهم في الحجاز، وهذا ما سيحدث حين لا تعود الموارد مصرية موجهة إلى تلك الوجهة، من حاكم بقدره ورسوخ محمد عبي معها في مصر،

فسوف يثار العرب للخروج والتسليم، وإن يكن خفياً، الذي يُظهرونه الآن على مضجع
لفاتحيهم؛ وبما ينتهي حكم العثمانيين في الحجارة بمشاهد دموية عديدة



الطريق من جدة إلى الطائف (*)

في الرابع والعشرين من شهر آب/أغسطس، سنة ١٨١٤ (الموافق للحدادي عشر من شهر رمضان سنة ١٢٣٠هـ) انطلقت من جدة في ساعة متأخرة من انساء برفقة دليلي وعشرين من سائقي الجمال المنتمين لقبيلة حرب والذين كانوا يحملون المال إلى مكة لحريئة الباشا، وبعد أن عاينوا صواحي المدينة عبر طريق تمر بهضبات صغيرة من الرمل حيث تقع عداها السكان، اجتازوا سهلاً رملياً قاحلاً يرتفع قليلاً نحو الشرق وقد حلا من الأشجار وعُطي بالماء حتى مبيت من المدينة. وبعد ثلاث ساعات من السير دخلنا بلدأً كبير التلال حيث يقع مقهى بالقرب من بئر تُدعى رغامة وتابعا سيرنا في وادٍ مسيح متعرج بين تلك التلال، منها الرمي ومنها الصحري، وبعد مرور خمس ساعات ونصف توقفا لفترة قصيرة عند المقهى والبئر التي تُدعى «سياسية»، وإن مياه هذه الآبار ليست جيدة. من هنا، بلغنا خلال ساعة ونصف (سبع ساعات في الإجمال) محطة مشابهة تُدعى النراية حيث أدركت قافلة حجاج كانوا يقولون السلع والمؤن المعدة للجيش، وكانوا قد تركوا جدة قبلنا بي المساء. ولمقاهي ثنية بائسة والجدران نصف متداعية والأسطح من الأعصاب المقطوعة، لا يقدمون فيها سوى القهوة والماء. يُقال إنه في السابق، كان هناك اثنا عشر مقهى على هذه الطريق حيث كانت تُقدم المربات من كل نوع إلى المسافرين بين جدة والمدينة المقدسة؛ لكن عُلقت هذه المقاهي قد مُحرقت الآن لأن الرحلات أصبحت تقام ليلاً ولأن الجود الأتراك لا يدفعون لقاء شيء إلا بالقصر والإكراه ويُشرف على العدد القليل الباقي بعض العرب من قبيلة عيال (وهي فرع من عرب هذيل)

(*) كنتُ عاخر خلال هذه الرحلة عن تحديد أي اتجاه لأن البوصلة الوحيدة التي كنتُ أملكها والتي ساعدتني خلال رحلتي في بلاد العرب، توقفت عن العمل، ولم تسع بي فوجدتُ استبدالها حتى شهر كانون الأول ديسمبر من هذه السنة حين حصلت على واحدة من مدينة هندية وصلت إلى جدة

والمطرفة وعثلاثتهم من لدو ويعشون بين اللال مع قصصهم. ومن محطه «العراينة» تسع
الوادي، واللال التي سهرج وتباعده على احابيين تريد ارتداعاً بشكن محفوظ. وعند الفجر، بعد
مرور ثمانى ساعات، نبع بحره، وهي عبارة عن مجموعة من عشرين كوحاً تقع على أرض
مبسطة يبلغ طولها أربع ساعات وعرضها ساعتان وتمتد نحو الشرق. وفي بحره، هناك الكثير
من المياه في الآبار، بعضها عذب وبعضها لآحر مسح قليلاً ويأى الأرز في صف من ثمانية أو
عشرة مساح، وفيها أيضاً النخل والربرة والبلح وحب القهوة أو النين وترتفع أعمارها بسنة
ثلاثية في ثلثة من سعر سوق حدة. هذا ما يدعو العرب «سوق»، وتوجد هذه الأمكة لمائله
في كل محطة في هذه السلسلة من الجدل وصولاً إلى لسن. وكب ثمة فرقة حيّاة تركية
متمركزة في بحره الحرسه الطريق وبعد أن ابتعد عن لسهل لساعتين، توقف على بُعد عشرة
ساعات من حده عند نهضة وهي سوق مشابهة للأولى. وبين بحره والهدنة، فوق راية معرونة
في السهل، بقايا حصن قديم

في الخامس والعشرين من شهر آب/أغسطس، توقف قائدنا لشجته من حدة إلى مكة في
بحره والهدنة خلال النهار لترح، مُتعة بدت العادة الشائعة عند العرب في الحجار بين لا
يسفرون إلا ليلاً. وهذه هي العادة المتبعة في الشتاء كما في الصيف، ليس بهدف تعادي الحر
بقدر ما هو مسح الحمار فرصة للأكل، لأن هذه الحيوانات لا تأكل في الليل إن هذه مسيرات
النسبة لا ثلاثم المساعير الباحث الذي يجدر الملاد في وقت لا يتمكن فيه من رؤية أي شيء
كما أن التعب والرغبة في النوم خلال النهار تجعل من كل جهد مصدر إزعاج وصيق

نجلنا عند الهدنة، تحت مصبة مفهى فسح حيث وحدث حشداً يأتلف من مريح من
عرب وأتراك في طريقهم من أو إلى مكة، كلٌ متمد على سعادته صغيرة وقد أحضر بعض
التجار من لطائف لتؤ حمولة من العس؛ وعلى الرغم من شعوري اندائم واستمر باضعف
والوهس حرء اختى، فبي لم أستطع مقاومة الإغراء فأخذت بعضاً منه؛ إذ إن اللال، ما إن
فتحت حتى نقص الجميع عليها وما لبثوا أن التهموا الحمولة بأكملها، لكن أصحابها تقاصرو
المال بعد ذلك في الهدنة يلس سكان حدة «الإحرام» أو ملابس خج عند الحج إلى مكة
وعسى وفق الشرع الإسلامي، فإن على كل شخص ارتداءه مهما كانت مكانته، كي يدخل إلى
الأرض المقدسة في مكة، إما ليحج أو لأي أهداف أخرى، ويُمنع من حله حتى يفرع من ريادة
المسجد «مسجد الحرام» غير أن العديد من ساس جهكوك هذ الشرع، إلا أن الرحل التقى من
أهل مكة لا يذهب أبداً إلى حده من غير أن يأخذ «الإحرام» معه، وعند عودته إلى دياره،
يرتديه في هذا مكان وفي فترة بعد الظهر وضع بعض الجلود الأتراك الذين كانوا هنا هذا الري
متنمين كدلت الشعائر المفروضة وهي عبدة عن وضوء، أو إذا أراد الحاج، اعتسلاً كاملاً،

وحجراً بالية وصلابة من ركنتين وترديد التهليلات الأدبية وتُدعى التلية وبما أن الوقت كان وقت حرب استمر الجنود في حمل أسلحتهم فوق العباءة

في حرة بعد الظهر، قام مدير المقهى بترتيب المؤن التي أحضرتها معي وتلك التي تحضر كثيرين آخرين في المجموعة. وكنت الفوصى نعم انكان فلم يستطع أحد معها اليوم. وبعد وصولنا بقليل، مرّت فصيلة من الجنود وبصوا حيمهم على مسافة أبعد بقليل في السهل. ثم دحنوا إلى المقاهي وأحدوا الماء لعذب كله الذي أحضر من ثمر تبع مسافة نصف ساعة واحتفظوا بها في الهدة في جرار كبيره وهكذا، فإن الأكواح الخاصة ببعض السكان الفقراء مُعرضة دائماً لكل تصادفات المحتملة لحسوث والتي تصاحب مرور هائل الجند المتواصل وهي مصنوعة من الأغصان المقطوعة ولها شكل محروطي مسطح ولا يدخل إليها النور إلا من اسفل ها تعيش العائلة بأجمعها مجتمع في غرفة واحدة والمقاهي العديدة عبارة عن سقائف مسيحة، متركزة على قوائم أو أعمدة وفيها موقد لسائل موضوع في زاوية. وفيها عدد هائل من الجردان الصخمة التي لم أر أجراً منها أبداً.

عادنا الهدة نحو الساعة الخامسة مساءً، وتتواصل الطريق على السهل، والترية رملية وهي مروجية بانطفر في بعض الأحراء، ويمكس رر عنها بسهولة على ما أعتقد وذلك عبر حمر الآبار. وقد رأينا، على مسافة ساعة واحدة من الهدة، إلى يسارنا في السهل، بعض أشجار المحل وكما عسيت، يجري ها جدول صغير كان يروي فيما مضى بعض الخفول. أما الأشجار فهي مُهملة في الوقت الحاضر عادنا لأن السهل وانحرفنا قليلاً باتجاه الحروب من مسيرتنا شرقاً، ودحننا مرة أخرى منطقة كثيرة التلال ووصلنا بعد ساعتين من الهدة إلى مقهى آخر يدعى شميسة وحلعه يقع جل شميسة الذي استخرجوا منه، حسب مؤرخي مكة، الزحام المستعمل في صنع عدة أعمدة في مسجد تلك المدينة المقدسة. وهناك ثمر في الحبل قرب المقهى من شميسة، احتزما وادياً مسيحاً وقد عطّته الرمال العميقة وتمت فيه الأشجار الشائكة. ومررنا، على بعد أربع ساعات من الهدة، بمقهى سيلم أو قهوة سيلم وبئر حيث التقينا بقافلة قادمة من مكة. ولم تترك الحبان المتفاريه حداً في هذا المكان، لأن وادياً صيقاً ومستعصباً يتقاطع بين فسحة وأخرى مع عدة أوديه أخرى ثم ندبنا سيرنا إلى أن وصلنا إلى الحجلية وهو مقهى بعد مسافة سبع ساعات عن الهدة وبالقرب منه ثمر كبيرة تزود سائقي الجمال في قافلة الحج السورية في طريقها من وإلى مكة.

ولأني لم أتمتع بنحصة رقاد منذ أن عادرت حدة، فقد استقيت على الرمال وتمت حتى مطلع البحر، بينما تابع رفاقي طريقهم إلى مكة رسم بين معي إلا دليلي، لكن حووه على

سلامة جماله لم يسمح له بإعماص جميعه، لأن الطريق من جدة إلى مكة كثيراً ما يرتادها أشخاص مشوهون؛ وما أن جميع يسافر ليلاً، يسرق ويُهب التائهون بسهولة ويقترب من الحولية أثر قرية قديمة بُسِت من الحجر كما في الوادي آثار رراعة سابقة قديمة.

في السادس، العشرين من شهر آب/أغسطس، وعلى بُعد نصف ساعة من الحولية، وصبت إلى مررعة نحيل صغيرة يحيطها جدار يرتفع للطريق إلى مكة من هناك يمينا وتدخل المدينة عبر حي يدعى حرول، وكان لدى دليلي وأمر نصبي بأحدي عبر طريق فرعية إلى الطائف تمر في شمالي مكة وتتفرع عند الهدنة، وتقطع الطريق من مكة إلى وادي عاطمة ثم تلتقي الطريق الكبيرة من مكة إلى الطائف، خلف وادي مبي وقبل أن نعدر الهدنة بقليل، قام دليلي، الذي كان يجهل أي شيء يحتص بي سوى أن لديّ عملاً مع ساشا في الطائف وأني أذيت الشعار والطقوس الظاهرية كنها لحاج مسلم وأني كنت سحياً معه قبل رحيلنا، قام بصرح مؤل عليّ لمعرفة السبب الذي أمر لأحده بأحدي من الطريق الشمالية، فأجبه بأن السبب يعود ربي إلى أن هذه الطريق تُقصر من الأخرى، فقال إن ذلك خطأ، لأن طريق مكة قصيرة أيضاً وأكثر أماناً، وسألني إذا لم يكن لدي من مانع أو اعتراض فإنا سوف نتابع طريق عبيها وكان هذا ما تمّيته تماماً رغم أنني حرصت على عدم إبداء أية لهجة بالسبب إلى هذا الموضوع، وهكذا، فقد تبعنا الطريق العادية الكبيرة برفقة المسافرين الآخرين لكن عوصاً عن أحدي عبر الطريق الاعتيادية التي جعلتني أتمر بالمدينة على كامل طولها، فقد قادني دون أن أتنبه لذلك على طريق محتصره، إذ سم يكر لديه فصول يُشبعه فحرمي بالتالي من فرصة رؤية مكة بالكامل في هذه المرة.

من مررعة لنحيل جيف الحولية، وبعد نصف ساعة، بلغنا السهل الذي نحتيم فيه عادة قاعة الحح السورية، وقد أطلق عليه اسم «سبح محمود» من قبر قديس يُدعى بالاسم نفسه وقد بُني في وسطه. وهو مطوّق بجبال منخفضة ويبلغ طوله مئتين إلى ثلاثة أميال، وميل واحد عرصاً ونقصه عن وادي مكة سدسة من لتلال الصيفة وقد شُقت عليها طريق عبر الصحور بجهد وعناء كبيرين وقد صعدنا على هذه الطريق، وعلى قمة انسة برجان لسراقية باهت الشريف عالت على جدي الصري. وحير نزلاً من الجهة لأخرى حيث عُبدت الطريق، نذا أمامنا منظر مدينة مكة. وبعد ساعة ونصف الساعة من الحولية دخلنا الحي الشرقي من المدينة قرب قصر الشريف (أشير إليه برقم ٥٠ على الخريطة) وهناك، عند جرة الأكبر من المدينة إلى يمينا، وقد حجت جرة منها مسطمت الوادي وعملاً مبي بأني سأعود إلى مكة، لم ألتج على دليلي بأن يدعي أنني بطرة شاملة على مدينة حيث إنه سيمطر نهضة العاية إلى الرجوع نحو مبيد في الاتجاه المعاكس. فكبحت بصولي وتبعته وأنا أردد تلك الهتات المتعددة عند الدخول إلى المدينة المقدسة.

لقد سافرت بعد ذلك مرات عديدة بين مكة وجدة في الاتجاهين. ومعدل سرعة سير القافلة هنا بطيء جداً وبادراً ما يتعدى ميلين في الساعة وقد سافرت من مكة إلى جدة على ظهر حمار في ثلاث عشرة ساعة. إن بالإمكان تقدير المسافة تماماً بست عشرة أو سبع عشرة ساعة من السير أو نحو خمسة وخمسين ميلاً، ويميل الاتجاه قليلاً إلى الشمال الشرقي. وعندما استدرنا يساراً مررنا بعد مسافة قصيرة، بشكبات الشريف الكبيرة، ثم ترجأنا في الصحابة المدعوة المواينة عند مرل عربي صادف أن كان دليلي على معرفة شخصية به. وكان الوقت وقت صيام شهر رمضان، إلا أن المسافرين قد أعموا، حسب الشريعة، من الالتزام به. وقد حضرت لنا ربة المنزل، وكان زوجها عائناً، بطوراً دفعنا لها ثمنه وبقياً في المنزل حتى بعد منتصف النهار. ثم ركبا جمالنا واستدرنا عند حديقة الشريف الواقعة في أقصى الطرف الشرقي من الصحابة وأخذنا الطريق العليا إلى وادي مبي. وتؤدي إلى مبي أودية متعرجة عريضة أو أقل عرضاً وقد غطتها الرمال وحلت بأكسها تقريباً من الخصرة، وقامت على الجانبين تلال حرداء كذلك وعلى بُعد نصف ساعة من حديقة الشريف، تتكشف المنطقة قليلاً إلى الشمال. وتترهاك القفاة التي ترود مكة بانياء العدة. ورأينا، على بُعد ميلين، عند طرف الفتحة، جلاً مخروطي الشكل يُدعى جبل النور ويعتبره الحجاج مقدساً كما سيذكر فيما بعد ومررنا بعد ساعة ونصف الساعة بحران كبير إلى يمينا وقد بُني من الحجر ويلاً بناءً في موسم الحج من لقناة التي تمر بالقرب منه. واعتقد أن هذا المكان هو الذي يُدعى «سبيل الست» ويُدعى أحد الأودية جانبية بين مكة ومبي، وادي محصب. ويقول القاسي، مؤرخ مكة، إنه كان هناك سابقاً ستة عشر بئراً بين تلك المدينة ومبي. وبعد مرور ساعتين، بعد أن صعدنا قليلاً على منحدر معتد شقُ عبر الوادي، ويبلغ عرضه أربعين ياردة، دخلنا وادي مبي. وشاهدنا قرب المر حفلاً صغيراً يُروى بواسطة بئر مالحة قليلاً حيث ررع بعض البدو البصل والكراث لسوق مكة. وسأعطي فيما بعد وصفاً مفصلاً أكثر عن وادي مبي حيث يبقى الحجاج ثلاثة أيام بعد عودته من عرفات.

تابع طريقنا بين المنار المهتمة في مبي ومررنا بالأعمدة القصيرة التي يرشفها حاج بالخصي، ثم بقصر الشريف وولجنا البلاد المفتوحة التي تمتد من هناك باتجاه المزدلفة على بُعد ثلاث ساعات وثلاثة أرباع الساعة من مكة. وقد أعطي هذا الاسم مسجداً صغيراً يكاد يكون مهتماً الآن ويقع بالقرب منه بركة أو حزان مياه. تُنقى هنا خطبة من على منبر عالٍ أمام المسجد في حضور الحجاج بعد عودتهم من عرفات ويقول المؤرخ القاسي إن هذا المسجد قد بُني سنة ٧٥٩هـ ويُدعى أحياناً أشعر الحرم. لكن، وحسب الكاتب نفسه، يعود هذا الاسم لثمة صغيرة على طرف وادي المزدلفة والتي تحمل أيضاً تسمية الكاره. وهناك طريقان من

المرددة تؤديان إلى عرفات وتُدعى تلك الواقعة إلى اليسار في موارء السهل أو الوادي «صُب» (Dhob) والأخرى نفود مباشرة عبر الجبال وتلتقي بالأرلى قرب العَمِين. ياشربنا مسيرتنا على الطريق الواسعة في الوادي وبعد أربع ساعات (ربع الساعة) تقترب الجبل من بعضها بعضاً مرة أخرى ويقود عمر صَبْق يدعى المَصْبِق أو El Mazomeyn عبرها مسافة نصف ساعة يتكشف المنظر بعدها على سهل عرفات وبعد مضي أربع ساعات وثلاثة أرباع الساعة نمرُّ في هذ السهل، ببركة تدعى بير باسان وقد بيب من الحجارة ويقع معه «مسجد» صغير في محاذاتها وتتكشف البلاد هنا بشكل واسع إلى الشمال والجنوب، وتُرى حُدود الطائف باتجاه الشرق لأول مرة في كامل شموحها وارتفاعها^(١). وبعد مضي خمس ساعات ينحنا انحنين، وهما هيكلا حجريان يقفان على كفتي الجبنتين من الطريق، ويبعد الواحد عن الآخر من ثماني إلى مائة خطوة، على الحجاج أن يبرؤ، يسهما في طريق الذهاب وحاصة عند عودتهم من عرفات وقد تم بأؤهما من الحجارة الخشنة وكُتب بالحصى الأبيض. والشكل التالي يمثل شكهما



يقول القدسي، به كان هناك ثلاثة منها في السابق وقد بُنيت سنة ٦٠٥ هـ وإن واحد منها قد وقع وبما بقي منها، هناك واحد لا يزال كاملاً والآخر نصف مهتم وبعد خمس ساعات وربع الساعة، مرور إلى عينا بمسجد كبير منعل في حدة تأكل وتذاع ويدعى جامع مرة أو جامع إبراهيم، وقد ساء، كما هو الآن، استطاع كابل بيت، حاكم مصر وأصبح لأن حبر عرفات المتحفص على بعد ميسر إلى يسارنا على طرف السهل وتابعا التقدّم على السهل دون توقف وقد عطّته حسات عاية وأشجار (الأفاقية) العصبية التي تجمع معاً نأتاً أن يأخذ الواحد حتى أصغر غصن منها لأنها أرض مقدسة. وعندما بلغنا حدود سهل الشرقية، وصبنا، بعد خمس ساعات وثلاثة أرباع الساعة، إلى قاة مكة التي تبعد من الأرض الحليّة. وبالقرب منها هناك حراب صغير، وفي المنطقة المحيطة لها مجموعة كُواح عربية مشابهة لتلك التي في الهدّة، وتحمل اسم فهوة عرفات، ويسكنها شكل خاص بو فريش لدين يرعون الخضروات في وادٍ عند من هنا باتجاه الجنوب وقد سترحنا هذ نصف ساعات، ووصلت في الوقت نفسه قاذلة من الطائف مؤلفة من حمير وبعال

(١) عند عودتي من الطائف إلى مكة، حين كتب سيد عيسى محمد، دَوَّنت وصفاً أكثر دقة وبمصيلاً عن الطريق في قدمته ها كني مصدب الأوراق التي كانت تحتوي عليه، والوصف الحاضر قد كتبه يأسالي معتمد على ذكريتي واللا-هذ. القليلة القصيرة التي دَوَّنتها بسرعة على الطريق إلى الطائف

وتصبح الطريق من قهوة عرفات صخرية والجبال قريبة جداً تقطعها أودية تقطع بدورها الطريق في كل اتجاه وتثمرها أشجار الأفاق بوفرة وبعد سبع ساعات ونصف الساعة دحنا محدداً في أرض رملية في وادٍ يدعى وادي نعمان، حيث هناك، باتجاه الجنوب بعض الآبار ولأشجار التي زرعتها قبائل كباكب والريشية العربية. وبعد مصي ثماني ساعات ونصف مررنا مخيم تبع لقيته هذيل السوي، حيث هاجمت الكلاب جماعاً بوحشية بحيث أني وجدت صعوبة وأن علي ظهر الحمار في نفادي أبيهم. وبعد مرور ثماني ساعات وثلاثة أرباع الساعة مررنا بمجموعة أكوج ومفاهي تدعى شداد وهناك آبار فيها مياه عذبة. وبعد تسع ساعات ونصف أضعا طريقنا بآثاع تعرضت وادٍ جاسي، وكانت الليلة غائمة وحالكة الظلمة، وما أنا عجزاً عن الرجوع إلى الطريق الصحيحة، استقيت على الرمال واستغرقنا في يوم عميق حتى مطلع الفجر.

في السابع والعشرين من شهر آب/ أغسطس، وجدنا أنفسنا بالقرب من لطريق، وتقدمنا بشربا الصعود نصف ساعة، على سلسلة الجبال الكبيرة كانت طريقنا، من حده إلى هذا المكان أرضاً مسطحة جداً على الرعم من مرورها عبر التلال والجبال، في أودية تتصاعد شيئاً فشيئاً بحيث لا يلاحظه المسافر، إلا حين يرى البلاد من على قمة الجبال التي تبذت الآن أمام ناظرينا. ويبلغ عنو التلال الأقل ارتفاعاً أكثر من أربعمئة أو خمسمئة قدم. والسلسلة الأقل ارتفاعاً فوق جدة كسبية إلا أنه سرعان ما تبدل صخورها لتصبح صوانية أو نوعاً من العرايت مع تورملين أسود بدل سليكات الألميوم فضلاً عن كتل كبيرة وطاعية من الكوارتز وبعض اميكة (مادة شبه رجيكية). وتستمر هذه الصخور على طول الطريق، مع بعض التسوع الطفيف، حتى المنطقة المجاورة لجبل النور، إلى اشرق من مكة حيث يبدأ انغرايت. وقد عذمت في مكة أنه، إلى الجنوب من الهذة وعلى بعد بضع ساعات، هناك جبل عسي بالرحم جيد النوعية، ساهم في رصف أرضية المسجد الكبير وتتألف الجبال التي تكوّن وادي يسي من هذا انغرايت الأحمر والرمادي، ويستمر على هذا الشكل من ها إلى هذه السلسلة المرتفعة ومتمزج في بعض الأماكن بطبقة من صخور Grunstein. وتتألف الجبال الأكثر انخفاصاً من سلسلة الجبال الشاهقة التي كما نصلها الآن من انغرايت الرمادي، وبحو الوسط وحدتها وقد تنوّت بكل الألوان وامتزجت بطبقة من صخور Trappe و Grunstein والرحام الشماقي Schistus، وهذا الأخير متأكل جداً، فعلى قمة السلسلة، هناك انغرايت الأحمر مرة أخرى وقد تحول سطحه كياً إلى اللون الأسود بعض أشعة الشمس.

وصلنا في طريق وعرة كذلك على الرعم من أن محمد علي باشا كان قد أصلحه مؤخرًا. وكانت المنطقة المحيطة برة جداً وقد عطيت بكتل صخرية مفصلة تد جرفتها إلى الأسفل

سور الشفاء وتُثرث هن وهناك بعض أشجار الأقياق والسبق. وصلنا بعد ساعة إلى بئاء مؤلف من أحجار غير مشته ويُدعى «فر الزهيق»، واعتقد السائد اعتنق به والذي سأذكره الآن قد رواه لي دليلي فهي القرن الماضي، كان بدوي عائداً من الحج وقد التقى به حلف بومات مكة مسافر كان قد أخذ لطريق نفسها. وقد وصلا إلى هذه البقعة معاً، وعددها شعر أحدهما بالمرض الشديد الذي معه من متابعة سيره. وفي اليوم الثاني، انتشر مرض التسطس فجأة على جسده وما كان صاحبه ليتركه على هذه الحال فسي كروحين بأعصر الأفاق، ووجد لصديقه والآحر له واستمر في رعايته متمسكاً بالصدقات له من المسافرين الذين إلى أن تعفى نكر في المقابر أصابه هو امراض نفسه فقام رفيقه برعايته بسوره وهو بعد متمثل للشفاء، بذروحه اللطف نفسها على الرعم من أنه لم يلاق أنجاح داته فتوفي رحل ودعه صديقه في هذه البقعة حيث يمش قبره نصاً تذكرياً لسخاء وكرم البدوي ويطبع في الدهن الرعة إلى عمل الخير نحو رفاق الطريق الطارين.

وبعد مرور ساعة ونصف الساعة، وكما ما برال نصد، بعد بعض الأكواح مبية بين الصحور بالقرب من يسوع غريب، وتُدعى تلك الأكواح «قهوة قرى» بسبب الجبال التي تحمى كنها، سم حس قرى وقد وجدت هذا جدياً مركباً مكلفاً بنقل المؤن لجيش الباشا فوق الجبل. وتمت لفافات هنا بشكل متواصل عما أنها الطريق الأقصر من مكة إلى الطائف تودع حمولات الجمل في هذا المكان ثم تُرس إلى قمة الجبل على ظهر العبا والحميز وهناك منها بحر الماتين هذا، كما أن الجمال مبهمة على الجبل بنقل الحمولات إلى لائف. أما الطريق الراقعة أكثر إلى الشمال التي تؤدي إلى الطائف، والتي سأتكلم عنها لاحقاً، فهي سالكة للجمال على طول الخط، لكنها أطول من هذه الطريق يوم واحد.

إن الأكواح في قرى مبية بين الصحور على منحدر جبل حيث نادراً ما تتوفر مساحة ميسطة من لأرض. والسكان هم من البدو من قبيلة هذيل ولا يمكن الحصول إلا على القهوة والماء في كروحين أو ثلاثة. وقد جلب الحمدي التركي على نفسه مؤحراً استياء الباشا بعد أن سرق جمل سيدة من قبيلة هذيل وقام بيمه وقد ذهبت السيدة لتقدم شكواها أمامه. الباشا في الطائف. وقد عاملني هذا الحمدي بلطف وكياسة بالغة بعدما سمع أنني ذاهب لزيارة الباشا ورحاني أن أتشفع له وأتمس له الرحمة. مع ذلك، هذا ما تجسست القيام به قائلاً له إنني كنت أنا نفسي ذاهباً لأتمس من الباشا ما يهمني.

وبقيتا حتى منتصف النهار في هذه البقعة اللصيفة من الأرض المصلة على منظر جمل للبلاد في لأسفل. وقد أمت لي الظل شجرة بين [سدر] كبيرة قرب اليسوع الذي يجري إلى أسفل

الصحور، وهدأت نسمة معشة لذيذة من وطأة الحرارة المتقدمة التي عانينا منها منذ رحيلنا من جدة. وبعد معادرتنا لقرى كانت الطريق شديدة الانحدار ووعرة رغم إصلاحها مؤحراً، بحيث لا يكاد المسافر الركاب يأمل يملوغ القمة دون أن يترجل عن ظهر جملة. وقد شككت درجات في أماكن فسحة عديدة خففت من درجة صعود المنحدر إلى القمة في عدة معطقات. وبُيت كذلك ستة أماكن لالتقاط الأنفاس على جانب الجبل حيث تستريح القافلات فليس هناك مكان تبلغ مساحته ثمانني أقدام مربعة من الأرض المسبطة. ويتقاطع الينبوع نفسه الذي يأتي من قرب القمة عدة مرات وقد قابلت العديد من بدو قبيلة الهديل بالقرب من الطريق مع عائلاتهم وقطعان أعمامهم. وقد أعطاني أحدهم بعض الخبث ولم يقبل المال في المقابل لأن بيع الخبث يُعتبر فضيحة بين هؤلاء بدو على الرغم من أنهم يستطيعون حيا الأرباح الكبيرة منه هي مكة حيث يُباع الرطل الواحد من الخبث بدينارين. وتحدثت براحة وحرية مع الرجال ومع زوجة أحدهم وقد بدوا أنهم من سلالة الجبيل الشجعان. وعلى الرغم من أنهم فقراء كما يبدو ذلك بحلاء، فإن لهم أحساماً أكثر قوة من بدو الشمال وأرد ذلك بوجه خاص إلى صحة أساح وجودة المياه، وبو هذيل ادأعو نصبت في ناريج شبه الجزيرة العربية القديم، كانوا اسمياً من أنباغ شريف مكة الذي يعيشون على أرضه إلا أنهم كانوا في الواقع مستقلين إلى حد بعيد وغالباً ما كانوا في حالة حرب معه.

ومضت ساعتان كاملتان صعوداً من انقاضي إلى قمة الجبل حيث استمتعا بمطر حلاب للبلاد في الأسفل. وقد استطعنا رؤية وادي مي ولكن ليس مكة. وظهرت سلاسل من التلال التي بدت فوق مساحة مسطحة باتجاه الشمال والجنوب، على امتداد البصر، مع خطوط صيقة من الزمان يسها وقد عابت الخصرة تماماً وقامت إلى مسنا هصة من جبل قرى وتُدعى «نقب الأحمر»، وهي أعلى من انكان لدي كنا نقف فيه بأربعمئة إلى خمسمئة قدم وبدت أنها تعلو كل السسنة المجاورة. وإلى الشمال، بدا الجبل الذي يبعد ثلاثين ميلاً أنه يحف في الارتفاع جداً، لكن باتجاه الجنوب كان ما يزل في لارعد نفسه. وبعد السير لصف ساعه من القمة، وصلنا إلى قرية صغيرة تُدعى «رأس القرى». وبعد أن أُلقيت نفسي مهكاً حائر انقوى، أصررت على النوم هنا، وقد أدعن دليلي لذلك على مصضى لأنه تلقى الأوامر بالشهر بسرعة.

في الثامن والعشرين من شهر آب/أغسطس. تُعد قرية رأس القرى والمطقة المجاورة لها من أجمل البقع في مطقة الحجار، بن أكثر قسة وروعة وبهجة من أي مكان رأيت منذ رحيلي من لبنان، في سوريا. وقمة جبل قرى مسطحة وقد تنأرت عليها كتل من العرايت كبيرة،

وسطحها، كسطح صحور العرنت قرب شلال النيل لدي، قد اسود لونه بفعل أشعة الشمس.

وتدور من تلك الهضبة عدة سواحي صغيرة تروي السهل المعطي بحقول حصراء بأشجار مطلة كبيرة على حاف صحور العرنت وسدين لم يعرفوا إلا رمال لبلاد في الأسفل، اللادعة والكثيرة لموحشة في الحجارة، فإن هذا مشهد يمتد على سهشة ولما حلة قدماً كما هو الهواء الحد القوي الذي يهب هنا فعش النمس وجد هه العديد من أشجار العاكهة الآتية من أوروبا كأشجار النير والشمش والخرج والتفاح وشجر الحمير المصري واللور واللؤمان، وحاصة الكروم التي تنح أفصل نوعية من العنب ولا يوجد هنا بحيل إنما فقط بعض أشجار السق، وتنح الحقول نقمح ولشعر وابصل، لكن هذه المروعات لا تنح هه كالمكة لأن التربة صخرية وكل «سد» كما يدعون الحقول هنا، معنق بحائط منخفض ويملكه بدوي من قبيلة هذيل. وعندما ستولي العثمان حصيفة على الطائف من الشريف، دُمر هذا المكان، وكذلك الحقول والعديد من الجدران التي لم يكن قد أُعيد بناؤها إلى الآن.

بعد أن مررنا بهذه المنطقة المبهجة، بعد مرور نصف ساعة، أي عند بروج الشمس تمام، حين كنت كل أوراق العشب وسدت معطاة بالندى السعش، وكل شجرة وشجيرة تشرب عسراً لديد عطر في الأنف لا تواريه إلا روعة المشهد لطبيعي لعين، توقفت قرب أكبر الجدران والذي يعتدي على صفاه مرحاً أحضر جيباً، لا يستطيع بهر الليل العظم، مع كل حصوته أن يتيه في مصر، رغم أن ذلك الجدول لا يتعدى عرصه الخطوتين وقد أحضر العرب ما بعض اللور ولربيب وقدماهم في المقابل البسكويت، ومع أن عاقد العنب كانت باصحة، إلا أن لم نستطع الحصول على بعض منها لأنها شكل عدم، تشتري وهي بعد على الكرم، من تجار الطائف الذين يصنرون إلى مكة ويعقوب، مراقبة عن كثب من جماعتهم حتى يتم تطافها وقد تمركز هنا جندي تركي يُنادى بلقب الأغا تحت خيمة تُرسس المؤن الآتية من مركز في الأسفل إلى الطائف. كما لاحظت بشيء من الدهشة أنه لم يتم بناء أي مركز للتسبية على هذا المنبسط المرتفع وكان لتجار مكة في السابق مركز أو مقر زعمي في الطائف يحاكي الصحراء ونكته كما يحاكي هذا موقع البهجة ولترو، لكن أياً منهم لم يفكر أبداً في بناء بيت له هه وهذا دليل آخر جديد يشد الرأي الذي صانا احتفظت به وهو أن الشرقيين، وخصوصاً العرب منهم أقل حساسية من الأوروبيين تجاه أعمال الطبيعة كما أن مياه رأس القرى ذائقة النضيت في كل أنحاء لبحار جودتها. وبما كان محمد علي يسكن في مكة وحدة، كان يحصل على مؤونة منتظمة من مياه النيل العذبة الصالحة للشرب، من مصر في

كل سفينة، وبأبي معتاة في أوعية كبيرة لكر، يمروره في هذا المكان وجد أن المياه فيه ستتحق
أن تستبدل بالأخرى وهكذا يأتي إلى هذا يوماً جمل من الطائف يحمل كمية منها

إن مارل قبيلة هذيل، التي تملك هذه المزارع، مسائرة على الحقول في مجموعات من أربعة
إلى خمسة مزارع. وهي صغيرة من الحجر والطين لكنها مبنية بعناية وإتقان يفوق ما يمكن توقعه
الأيدي البدائية لسكانها، ويحتوي كل مرل على ثلاث أو أربع غرف وقد فصلت الواحدة
عن الأخرى بمساحة ضيقة مكشوفة بحيث تشكل كل منها كوخاً صغيراً منفصلاً ولا
يتسرب النسيم إلى هذه المساكن إلا من المدخل، وهي نظيفة ومرتبعة جداً، ويحتوي على أثاث
بدوي وبعض السجاد العاقر وأكياس صوفية وجلدية وبعض السطوانات الخشبية وقصور القهوة
الحجازية وبدنية قليل تولى عناية كبيرة وتحفظ عادة في غطاء جلدي. استلقيت ليلاً على جلد
بقرة كبير مذبوح وكان العطاء مؤثراً من قصب من حيد العجم وقد حبيبت معاً بطريقة مرتبة،
مماثلة لتلك المستعملة في النوبة، وأحيرتني هذه القبيلة أنه قبل محيي الوهايين وإخبارهم على
دفع جريه عن حقوبهم، لم يعرفوا أي صرائف على الأرض، لكن على العكس، فقد كانوا
يتقنون الهدايا من الأشراف سويماً ومن كل المكين لديهم كانوا يبرون من هنا إلى الطائف
وتتد رأس القرى من الشرق إلى الغرب نحو مابين ونصف إلى ثلاثة أميال وهي تقريباً بعرص
ميل واحد. وحسب تصريحات العرفاء هناك مناطق عديدة باتجاه الجنوب حصية كذلك
وجمينة كذلك التي رأيتها في السلسلة التي ذكرناها أعلاه. تحرت تربتها وتررعها القبائل
لبدوية مثل قبيلة هذيل وذلك في أجزاء متعصلة من الجبل.

عادرت هذا الرأس اندي سأظل أذكره طالما استمرت انماصر الطبيعية الرومسية الخلافة
تشدني، وسرنا نحو ساعة واحدة على أرض قاحلة غير مسوية، فيها منحدرات وارتفاعات
حقيقية حتى وصنا إلى منحدر حاد، تطلبت منا برونه نصف ساعة، وإن صعب هذه لمدة
سيكون حتماً ضرورياً لصعوده والصبح مؤلف بأكنه من الحجر الرملي. ويمكن رؤية الطائف
من بُعد من على قمة المنحدر المذكور. ثم دخلنا في وادٍ حصص يُدعى وادي مُحَرَّم، يمتد من
لشمال العربي إلى الجنوب الشرقي على مسافة نصف ساعة من الجبل وهو مثل المنطقة العليا،
مسيء بأشجار العاكة، لكن الحقول النقيطة المروعة بسم رؤيا من الآبار وليس من حدول
جديدة. وهناك قرية تقع على المنحدر قد دمرها الوهايون بأكنها تقريباً. ولها برج صغير شيدته
السكان لحماية منتجات حقولهم من غزو الأعداء.

هنا تبدأ أراضي الطائف ومنطقة القبيلة العربية «ثقيف» التي كانت سابقاً في حرب مع
جيرانها، من قبيلة هذيل. ويُدعى الوادي «مُحَرَّم» من جزاء ما كان يحدث هنا حيث إن

الحجاج والزوار انداهيين إلى مكة من جهة الشرق، كانوا يكسبون أنفسهم بها بالإحرام. وبالقرب من الطريق هذه بركة صغيرة حديدية مهدمة. إن قافلة الحجاج المسلمين وتُدعى «الحج الكسبي» التي تقع طريقها في مزارع تلك الجبال، كانت تحتل دائماً بالشعائر والطقوس هذه ومن ثم تملأ البركة بأداء للوصوء. ويقوم مزارعو وادي مُحَرَّم بجر الماء من آبارهم في دلاء جلديه معلقه في طرف سلسله حديدية مُغرَّرة حول بكرة ويربطون عند الطرف الآخر بقرة تسير مسافة كفية من البحر لسحب الماء ثم يتم جرُّها إلى النورء لكثرة العملية نفسها. ولأبقار التي رأيتها هذه، ككل الأبقار في الحجاز، صغيرة ذات بُنية قوية بدنية وكثيرة لعظْم، ولها عادة خدعات قصيرة من القروء فقط وحيدة على الظهر فوق الكتفين تماماً، وهي ترتفع عن الأرض خمس بوصات ويبلغ طولها ست بوصات. فتشبه في ذلك الأبقار التي رأيتها على صفاة النيل في النوبة. وحسب أهل البلاد، فإن سلسلة الجبال كلها من هنا حتى الريف باتجاه الجنوب حيث بدأ مزارع التي تقطعها أودية مرروعة مشبهة بمصنق الواحد عن الآخر مسافة مهيبة، والمساحة المتوسطة عبارة عن تربة صخرية جرداء بوجه خاص.

من وادي مُحَرَّم، مررنا مجدداً بأرض حبيبة غير مستوية حيث وحدثت صحراً رمياً كذلك صحرا لسيالكس كما يصير أشجار الأفاقية في أودية رملية عديدة متفرعة عن الطريق. وعلى مسافة ساعتين ونصف ساعة من وادي مُحَرَّم بأشرا بالصعود وعلى قمة لينة نزلت لطريق مدينة الطائف وقد امتدت أمسا. ووصد إليها في ثلاث ساعات ونصف من وادي مُحَرَّم بعدما قطعنا السهل الرمي القاحل الذي يفصلهما عن التلال شحيطة وكان معدل سرعة سيرنا من مكة لا يقل عن ثلاثة أميال وربع الميل في الساعة، وذلك حين كنا لا نرى وحداً تماماً على حمات وقادير على زيادة سرعة تقدمها بسهولة وهكذا. بعد أحصيت، من مكة إلى سمح جبل قرى، نحو اثنين وثلاثين ميلاً، إلى قمته عشرة أميال، وسها حتى الطائف، ثلاثين ميلاً، بما يجعلها اثنين وسبعين ميلاً في مجموعها. إن وجهة الطريق من عرفات إلى الطائف كانت نحو اثني عشرة أو خمس عشرة درجة على النوصلة، إلى الجنوب من الطريق التي تؤدي من مكة إلى عرفات، غير أنني لا أستطيع تحديد الوجهة تلك بدقة تامة لأنه لم يكن بحورني أي بوصلة.

الإقامة في الطائف

وصلتُ إلى الطائف نحو منتصف النهار وترجلت عند مرل البوصيري، طبيب الباشا الذي كنتُ قد تعرفت به عن قرب في القاهرة. لأننا كنا في شهر رمضان الذي يتام خلاله كُبراء الأتراك في النهار دائماً، فلم يكن بالإمكان إبلاغ الباشا بوصولي إلى ما بعد غياب الشمس. في هذه الأثناء، وبعدما أستمعني خطاباته الشرقية الاعتيادية التي تؤكد نفايه الكامل لمصالحني وصدق صداقته، سألتني البوصيري عن ماهية تطلعاتي لقسومي إلى الحجاز. فأجبتُه إني آتٍ لزيارة مكة والمدينة ثم العودة إلى القاهرة. أما عن نواياي فيما يتعلق بمصر، فقد بدا مرتاباً ورجاني أن أكون ودوداً وصادقاً معه كما أكون مع صديق لي وأن أقول الحقيقة بعدما اعترف بشكك في أنني كنتُ داهياً إلى الهند الشرقية. وهذا ما أنكرته تماماً. وفي معرض حديثنا، لمخ لي بالبقاء معهم في مراكز القيادة إذا ما كنتُ عازماً فعلاً على العودة إلى مصر، حتى يُباشر الباشا نفسه رحلته إلى القاهرة. ولم يتطرق إلى موضوع المال على الرغم من أن البوصيري كان يجهل بأن احتياجاتي المالية قد شُدت في جدة.

عند مساء، ذهب البوصيري بصورة شخصية وسرية إلى الباشا في مقرّ النساء الخاص حيث لم يكن يستقبل إلا زيارات الأصدقاء أو المعارف الخبيمة جداً. وعاد بعد نصف ساعة ليُعلمني أن الباشا يرغب في رؤيتي في ساعة متأخرة من المساء في قاعه العامة وأضاف بأنه وجد مع الباشا قاصي مكة الذي كان حبيها في الطائف لأسباب صحية. وبأن الباشا، بعد أن أُطلع على رغبتي لي زيارة المدينتين المقدستين، علّق مازحاً: «ليست السّحية»^(١) وحدها التي تثلّت بأن الرجل ما هو مسلم حقيقي»، لكنه ألفت بحر القاصي قائلاً: «أنت أفضل مني حكماً في هذه

() كان لديّ لجة آنذاك، كما كنتُ في القاهرة، حين رأيت الباشا

المسئول، فعلى القاصي بدوره. بما أنه لا يُسمع لأي شخص غير مسد برؤية لنديتين المقدستين، وهو أمر لا أصله بحالي أحمله، وبه لا يعتقد بأني سأعس نفسي موحداً إلا بد كشت مسلماً فعلاً عندما عمت بهده لنفاصين، أحييت البوصيري أنه يستطيع العودة إلى لباشا وحده وأن مشاعري قد جرحت به فيه ككفاية حتى الآن حرة الأوامر التي أعطيت إلى دليلي بعدم اصطحابي عبر مكة، وأني لن أذهب حتماً إلى الدش في مقابلة رسميه عامه إذ سم يعم باستقبالي كتركي

لقد دُعر لبوصيري لدى سماع هذا التصريح وسعى جاهدًا دون حدودٍ لشيء عن هذا الموقف والسوك قائلاً بي إن لديه أوامر لا يستطيع عصبتها بأحدي إلى الباشا. إلا أنني الترمث بعزم وإصرار. ما فنته وعد هو عني مصص إلى محمد عبي الذي ألقاه وحده بعد أن غادره القاصي وعندما سلم لبوصيري رسالتي، اتسم الباشا وأجاب بأنه يُرحب بي سواء أكنثُ تركياً أم لا دهيثُ إلى القصر نحو الساعة لثمة مساء، وهو مسكر بآنس شبه متداع ويحضر الشريف عالس، وقد أرسيت الحمة الجديدة التي نفقيتها في حده بأمر من الدش. وحدثتُ سؤوة جالساً في بهو واسع، مع القاصي من جهة وحسن باشا، قائد جنود الأرباوط من جهة أخرى، وثمانين أو أربعين من صباطه الرئيسيين وقد شكلو نصف دائرة عد الأريكة لتي جلسو عليها، فصلاً عن عدد من شيوخ البدو جالسين القرفصاء، وسط نصف الدائرة. فتوجهت نحو الباشا وألقيتُ عليه التحية بالسلام عليكم وثلثُ بده، فشار إليّ بحسوس بحدث القاصي ثم خاطبني بكبسة فائقة مُستعلماً عن صحتي وعن أخبار أسبكت في بلاد الزنوج التي ررتها، إلا أنه لم يأت على ذكر أي شيء يتعلق بالموضوع البائع الأهمية بالنسبة إليّ

وقد قام بانترجمة لي، أمين أفندي، ترجمانه العربي حيث أنني لم أكن أكنتم اللغة لركيه، كما أن لباشا لا يتكلم العربية بإتقان أبداً وبعد خمس دقائق، قام بمو صلة عمه الذي قاطعته أنا مع أسدو. وعندما فرغ من ذلك وعدر حسن باشا معرفة، أمر الجميع بالانسحاب باستثناء القاصي والبوصيري وأنا. لقد توقعنا الآن أن أحصع للامتحان وكشتُ مستعداً لذلك أشد الاستعداد، لكن كلمة وحده لم تذكر عن شؤوني الشخصية وهذا ما فعله محمد علي في كل محادثتنا اللاحقة التي يذهب فيها إلى أبعد من التسميح بانفسعه بأني كشتُ في طريقي إلى بلاد الهند الشرقية. وما أن بشا وحدها، تطرق لباشا إلى سياسة. فقد كان تلقى لبتو معلومات عن دخول الحلفاء إلى باريس ورحيل بوناپارت إلى ألد، وقد أرسلت به من مصر حرائد عديدة مالية تُعطي تفاصيل تلك الأحداث التي بدا أنه مهتم بها إلى أبعد حد وبوجه خاص لأنه كان قلقاً من الاحتمال في أن تسعى بكسر بعد سقوط بونابرت بريدة قوتها في منطقة البحر المتوسط فتحتاج بالتالي مصر.

بعد أن بقيت ساعتين أو ثلاث ساعات مع الباشا في حديث خاص كنا نتكلم إما باللغة العربية، بواسطة القاصي الهدي كان يتقن تلك اللغة تماماً رغم أنه متحدر من القسطنطينية «استانبول»، وإما باللغة الإيطالية، عبر البوصيري الذي كان أومنياً اكتسب معرفة سطحية بهذه اللغة في القاهرة، فمضت معادراً فقل حينها الباشا إنه يتطرنني مجدداً في الساعة نفسها من يوم غد.

في التاسع والعشرين من شهر آب/أغسطس، قمْتُ بزيارة للقاصي قبل امعرب فوجدته بصحبة مرافقه وسكرتيره وهو رجل متعلم من القسطنطينية. كان القاصي «صادق أهدي» رجلاً ودياً ذا طابع شرقي حقيقي وسلوك فاضل وحنون وحادٍ وكان يمتلك تلك الدماثة كلها في خلق ولتعبير التي يتميز بها أهالي اسابول الكرمني الأصل وبعد أن تبادلنا بعض جمل (الطراء، عثرت به عن دهشتي في أبي أحد الباشا يُعبر عن شكوكه في كوني مسلماً حقيقياً بعد أن أصبحت الآن مُهتدياً إلى هذا الدين منذ سير عديدة. فأجابني بأن محمد علي قد سلم بأنه، أي القاصي، أفضل حكماً في تلك المسائل مُضيفاً بأنه يأمل في أن تُصبح علي معرفة شحصية أكثر حميمة. ثم بدأ بسؤالي عن رحلاتي إلى النوبة. وفي سياق الحديث تطرقنا إلى مراصيع أدبية سألتني عن الكتب العربية التي طالعتهَا وعن كتب تفسير القرآن واشتة، ورمي قد ألقاني على اطلاع بعاويز مثل تلك الأعمال على الأقل، وكان هذا أكثر مما توقَّع حيث إن لم نتمتق أكثر في الموضوع. وفي معرض حديثنا أُعس أدن المعرب انتهاء صيام هذا اليوم، فتناوشت صعام الإفطار مع القاصي ثم أدت صلاة المعرب برفقته حيث حرصتُ على تلاوة أصول سورة استطعت تذكرها في تلك اللحظة دها بعد ذلك إلى الباشا الذي أمضى مجدداً قسماً من البيل في حديث خاص معي تناول حاصة مسائل السياسية دائماً دون التصرف إلى شؤري الشحصية

بعد مقابلة أخرى، كنتُ أذهب كل مساء، أولاً إلى القاصي ومن ثم إلى الباشا، لكن، على الرغم من لاستقبال للطيف في لقصر. تمكنتُ من معرفة أن كل تصرفاتي كانت مراقبة عن كتب. وقد سألتني البوصيري إذا ما كنتُ أحتفظ بدفتر يوميات فأجبتُه بأن الحجار لم يكن مثل مصر، مثلاً بالآثار، ولأنني في تلك الجبال الخرداء لم أر ما يمسحق للملاحظة. لم يُسمح بي بإبقاء وحدي أبداً لملاحظة واحدة. وكانت بي أسباب تدفعني إلى الشك في أن البوصيري، مع كل تأكيداتهِ بالصدقة، لم يكن إلا جاسوساً. إن البقاء في الطائف لمدة غير محددة في الوصع الذي أنا فيه الآن، لم يكن مُحبباً، غير أنني لا أستطيع التكهّن بزايا الباشا فيما يتعلق بي من الواضح أنني كنتُ في بصرهم حاسوساً أرسل إلى هذه البلاد من قبل الحكومة الإنكليزية بهدف التأكد من وضعها الحالي والتبليغ بهذا في بلاد الهند الشرقية، وُعتقد أن هذا هو رأي الباشا

الشخصي، فقد عرفني رجلاً كبيراً، وهي صفة اتخذتها خلال رحلاتي كلما كان يبدو لي الظهور كأوروبي أمراً ضرورياً، (وأرجو أن لا يكون في ذلك ما يسيء لبلادي) إذ لم يكن أحد يتمتع بأمان حميمي في الشرق في ذلك الوقت إلا الفرنسيون والإنكليز لأنهم يتمتعون بحماية جيدة سواء من حكوماتهم في الوطن أم من سمرتهم في القسطنطينية بحيث لا يتم لاستهتار بهم من قبل حكوم محيين أكثر من ذلك، فإن باشا ظلُّ أبي رجل من طبقة معينة لأن كل رجل إنكليزي يسافر في الشرق كان يُنقَّب بأسورد، وكان هو الأشد اقتداءً بذلك بسبب سم الألفة الذي كان التطهر به أمراً ضرورياً بالنسبة لي في بلاط تركي حيث التواضع والدماء في سلوك أمر لا يلائمان ذلك المكان. وبما أنه كان حائفاً من بريدنا العظمى في ذلك الوقت فلم يطلُّ أنه من غير أحكمة معاملتي بطريقة سيئة على الرغم من أنه لم يعلم بأي شيء يساعد على القيم عشائري وكت، على حد علمه، لا أملك سوى الخمسمائة بيرة التي أمر بإعطائي إياها في جدة والتي لم تكن تكفي لدفع مصاريفي لوقت طويل في المحجر ولم يذكر شيئاً، لا هو ولا البوصيري، عن مسألة أحد أسد اسحبوب عني القهرة كما طُبتَّ منه أن يفعل، لكني لم أطلب هذه الخدمة مرة أخرى كوني أحمل مالا كافياً في الوقت الحاضر وكنت أتوقع دفعات جديدة من مصر!

قد كان البقاء في نطاقات وقت طويل، في نوع من السحر، أمراً لا يروق لي، غير أنني لم أكن قادراً على استعجال رحبتي دون التسبب في زياده شكوكه. كان ذلك واضحاً بعد أول مقابلة لي مع باشا والقاضي، كما علمت أن تقارير البوصيري، قد تؤثر حداً في رأي محمد علي وفكره، في ظل هذه الظروف، بأن أفضل وسيلة هي في جعل البوصيري يسألم مني فيقعه بالتالي لا رادياً بتشجيع فكري. لذلك، فقد شرعتُ تُصَرِّفُ في مره بكل الوقاحة التي يتمتع بها عثمانبي. وبما أننا كنا في شهر رمضان، كنت أصوم خلال النهار وفي الليل أطلب عشاء مستقلاً ثم أطلب في فجر اليوم التالي سحوراً واهراً وعياً قبل بدء الصيام. كما حجرتُ نفسي أفضل غرفة كان يحتوي عليها بيته الصغير وجمعتُ حذمه دائمي الحضور أمامي والواقع أن الصيام الشرقية تمنع إظهار أي امتعاض أو أسياء من سوك مماثل، فصلاً من أنني كنتُ رجلاً مهماً وفي زيارة إلى الباشا. وفي معرض حديثي مع البوصيري كنتُ أؤكد له دائماً بأنني أشعر سمي في أفضل حال في النطاقات وبأن مباحها يلائم صحتي تماماً ولم أكن أبدي أي رغبة في الرحيل عن هذا المكان في الوقت الحاضر. إن استضافة شخص يمثل هذه الشخصية لوقت طويل في النطاقات حيث المؤن بكل أنواعها كانت غريبة ونادرة أكثر منها في لندن، كانت مسألة ليست بالهينة. كما أن الضيف الثقيل هو باعث للارعاج أيضاً كان.

وأعتقد أن الخطوة قد مجتحت كيباً، حيث أن البوصيري سعى حاهداً لإقناع الباشا بأنني كنت شخصاً غير مؤيد وذلك لكي يتم صرفي في أقرب وقت ممكن.

لقد مرّت ستة أيام على وجودي في الطائف لكي كنت نادراً ما أخرج إلا إلى القصر في المساء، حتى سألني البوصيري إذا ما كانت أعمالي مع الباشا تستعصي لوقت أطول من متابعة رحلتي وزياره مكة فأخبرته بأنني لم يكن لدي أي أعمال مع الباشا على الرغم من أنني أنيت إلى الطائف على وفق رغبته، وأن وصفي كان مُستساعداً جداً في كوني أملك صديقاً حميماً وكريمياً مثله، أي البوصيري. وفي اليوم الثاني أعاد فتح الموضوع مُتمحداً لي بأن العيش كلياً بين الحدود لا بد أن يكون متعباً دون أي من أسباب الراحة والتسلية فضلاً عن أنني لم أكن أتقن اللغة التركية. وقد وافقته على ذلك إلا أنني عقيت عليه بأنني لم أكن قادراً على اتحاد أي قرار طالما أنني أجهل رعات الباشا وبواياه. وكان هذا ما أوصله إلى النقطة التي كنت أسمى إليها، فقال بما أن القصة كذلك، فإني، إذا رعبت سأتكلّم مع سُموه في الموضوع. وقد فعل ذلك في المساء قبل أن أذهب إلى القصر، وقد أحزني الباشا في سياق حديثه بأنه عزم عن رغبتي في نصية بحر أيام رمضان في مكة (وهو اقتراح أت من البوصيري) فالأفضل لي أن انصم إلى جماعة القاصي الهندية إلى هناك من أجل العيد والتي ستسّر كثيراً برفقتي. وكان هذا بالتحديد ما تمّيته، وقد تحدّد رحيل القاصي بالسابع من أيلول/سبتمبر، فأسأجرت حمارين وهي الطريقة المعتادة لوسائل النقل في هذه البلاد، بهدف اللحاق به.

تأني أنني كنت عرقد العزم على متابعة اسير بعدها إلى المدينة حيث كان عوسون باشا، محل محمد علي، حاكماً، فقد توسّلت البوصيري إلى بأن يطلب من الباشا جواز سفر يسمح لي بالتقل عبر الحجارة كله، مع رسالة توصية إلى ابنه وقد أجبني البوصيري بأن الباشا لا يحب التدخل شخصياً في رحلتي. وبأنني أستطيع التصرف كما يحلو لي وعلى مسؤوليتي الشخصية وبأن معرفتي بالله تجعل من جور السفر أمراً غير ضروري. وكان هذا تماماً كقوله لي: 'افعل ما يحلو لك، وس أعتق مشارحك كما أنني لن أسهلها، وكان هذا في الوقت الراهن أكثر ما كنت أتوقع أو أتمنى.

في السادس من أيلول/سبتمبر، عاشرت الباشا الذي قال لي عند رحيلي بأنه إذا ما حملتني رحلتي إلى الهند، فوسمي أن أؤكد للشعب الإنكليزي هناك بأنه كان مهتماً جداً بمصالح التجارة الهندية وباكراً في اليوم السابع من الشهر، أرسل بي القاصي يقول إنه لن يبدأ الرحلة حتى المساء، وأنه سيسافر خلال الليل ويأمل في لقائي عند جبل القري، في منتصف الطريق إلى مكة. وهكذا، فقد عاشرت الطائف وحدي كما دخلت إليها، بعد إقامة دامت عشرة أيام

وأكد لي البوصيري عند رحلتي إخلاصه وسخ واندغم مصالحي وقد حمدت الله على حسن طالعي عندما عادتُ تحوم المدينة مُهيباً بذلك إقامتي في بلاط تركي كان تجسب الحصر فيه أصعب من تجنسه وأنا بين بدو النوبة المتوحشين.

حلال إقامتي في الصائف، قمتُ خمس أو ست مقبلات مع الباشا، ومُشْطَهر انضيمات التالية من دهر يومياتي، سائح لعامة لما جرى بيده في هذه المناسبات المختلفة

سؤال: شيخ إبراهيم، أرجو أن تكون بصحة جيدة

جواب: أنا في أتم الصحة وتعمري لسعادة شرف رؤيتك مجدداً.

س: لقد سهرت كثيراً منذ أن رأيتك في القاهرة. إلى أين وصفت إلى بلاد الروم؟

عنى هذا السؤال، أُجبتُ بإعطاء تقرير قصير عن إقامتي في النوبة

س: أخبرني، كيف هم الماليك في دنقلة؟

وقد رويت له ما يحده اقرىء في كتاب «رحلتي إلى النوبة»

س: علمتُ بأنك تعامت مع اثنين من بكوات الماليك في إبريم Ibrim، أهذا صحيح؟

إن كلمة «تعامت» (إذا ما فُسر انترجم للكلمة التركية بشكل صحيح) قد أجعلتني كثيراً.

إذ إن لباشا حين كان في مصر، قد سمع أبي، حلال رحلتي بانه دنقلة، قبلتُ اثنين من بكوات الماليك في الدرة Derr. وما أنه يشك في أن لا يكبر عيون سراً لصالح الماليك، فإنه ربما أعتقد أنني كنتُ أحمل رسالة ما إليهم من الحكومة لذلك، فقد أكددتُ به بأن الاحتماع ذلك كان محض مصادفة وبأن الاستقبال غير النسر الذي خبرته في محاص Mahass كان بسبهم، وقد أصعرتُ الخوف من حظيهم التي تستهدف حياتي. وبدا الباشا راضياً من هذا التصير.

س: دعه فقط يسوي المسائل مع ابوهايين وسأنتكس قريباً من تتخلص من الماليك

كم من الجهد بظه ضرورياً لإحصاع البلاد حتى سنار Senaar؟

ج: خمسمائة رجل في فرق جيدة تدريب يمكن أن تصل إلى هذه المقص، لكنها لن

تستطيع الحفاظ على السيطرة على البلاد، كما أن دعائم لا تكاد توري نفقات ذلك.

س: ما الذي يمكن أن تعصيه تلك البلاد؟

ج: الحمل والعبيد، وباتجاه Senaar هناك الذهب الآتي من الحبشة؛ لكن هذا كله ملك

للأفراد، لأن الملوك والقادة في هذه البلاد لا يملكون الثروات

س: كيف هي حالة الطرقات من مصر إلى سنار Senaar؟

قدمت وصفاً للطريق بين أسوان وشندي ومن سواكر إلى المكان نفسه

س: كيف أمضيت وقتك بين الزنوح؟

رويت له بعض القصص المضحكة التي بدت أنها تسلية جداً.

س: والآن، شيخ إبراهيم، إلى أين تعزم الذهاب؟

ج: أربع في تأدية الحج والعودة إلى القاهرة رثم متبعة السفر لزيارة بلاد العرس.

(لم أزال أنه من الحكمة ذكر حظتي في العودة إلى داخل إفريقيا)

من أسأل الله أن يُجهّد الطريق أمامك لكي أعنفد أنه من الجحون والحماقة السفر إلى هذا الحد. دعني أسألك، ما كانت نتائج رحلتك الأخيرة؟

ج: إن حياة الإنسان مقدرة سلفاً وكنا نرضح لغدربا. وفيما يحطسي، فأنا أستمع في استكشاف بلاد جديدة وغير معروفة وأن أصبح مطعماً عن كتب على أعراق الإنسان المختلفة. كما يستميلي القيام بالرحلات بدافع الرضى الشخصي والخاص اندي يؤمته السفر لي ولا أبالي أبداً بالتعب.

س: هل سمعت الأخبار القادمة من أوروبا؟

ج: فقط بعض التقارير المهمة في جدة.

عندها قدّم لي انشا تقريراً عن الأحداث التي انتهت سمي بونابارت إلى جزيرة Elba بعد دخول الحلفاء إلى باريس. وقال إن بونابارت نصرف كرجل جبان وكان تحري به أن يبحث عن الموت بدل أن يعرض نفسه في ففص ليكون مبعث سحرية الكون. فالأوروبيون، كما قال، هم حونة تماماً كالشمسين، فقد تحلى عن بونابارت أصدقائه الحميمون وجسرلاته كلهم الذين يدينون له بثرواتهم كلها

لقد كان توافقاً في أسننه إلى معرفة العلاقات السياسية بين بريطانيا العظمى وروسيا واحتمال نشوب حرب بينهما بسبب السوايا العدائية الروسية تجاه الباب العالي (حول هذه انقطه، كان قد تلقى معلومات غير صحيحة) وقد بدا أن خوفه الوحيد ناجم عن أن الجيش الإنكليزي الذي استُخدم في جنوب فرنسا وفي إسبانيا سيكون الآن حراً لغزو مصر، وقد «اسمكة» الكثير تشلغ الصغيرة ومصر ضرورية لإنكلترا، لتزويد مالطة رجل طارق بالحطه وقد حاولت عبثاً مناقشة هذ الموضوع معه بشكل منطقي ولا حظت أن المترجم لم يقم دائماً بترجمة أحويتي على نحو صحيح خوفاً من مناقشة راء سبده المعروفة لقد كانت هذه الآراء متحذره فعلاً عميقاً وساهمت في تحريرها البعثة العرسية في مصر ومضى قائلاً: «أنا صديق

الإكبر، (هذا الكلام موجه من تركي إلى مسيحي لا يعني إلا أنه يحشاه أو يريد ماله) ولكن لأقل بك الحقيقة، إننا نرى بين الرجال العظماء كثيراً من الإطراءات وقليل جداً من الصدق وإني أمل بأن لا يقوموا بعرو مصر خلال زمتي في الحجر، وإذا ما كنت هناك بمسي فياني سأحظى على الأقل بشرف الدفاع عن الأرضي الخاصة لسيطرتي. كما أنني لست خائفاً من السهام، (قد كثر التأكيد على ذلك غير أنني أشك في صدقه) وسأعرف كيف أهوق حيلة ودهاء في إحقاقه كنه. إن جيشاً قادماً من سوريا لا يستطيع أبداً مهاجمة مصر من البر بمجموعات كبيرة جداً بسبب النقص في الخيال كما يسهل تدمير قبائل متحصنة ما أن تمر عبر الصحراء.

وتد قلت له بحرية إنه يشبه شاباً لديه فتاة جميلة، ورغم أنه أكيد من حبها، فإنه سيظل دائماً يغازل من كل غريب. فأجاب. «لقد أحسست القول، فإن أحب مصر بالأكيد بكل عيرة الحبيب وحبيته، ولو كنت ي عشرة آلاف روح بصحبت بها عن طيب خاطر لامتلاكها»

لقد سألتني عن الوضع الذي وجدت فيه شمال مصر وإذا ما كان نجله يحاكم إبراهيم شاباً محبوباً هناك. فأجبتته بلسان الحقيقة إن كل رعماء لقوى يكرهونه (لأنه أحبرهم على التحلي عن معاملتهم لاستبدادية للفلاحين) إلا أن الفلاحين أنفسهم متعلقون به كثيراً (الواقع هو أنه بدلاً من أن يكونوا مقموعين، كما في لسبق، من مكوت لماليك وـ Kashefs، كذلك من شيوخهم هم، أصبح لهم مستند واحد وهو الباشا نفسه الذي يعرض على حكم المقاطعات نظاماً صارماً)

لقد رعب محمد علي في الحصور على رأيي فيما يخص عدد الفرق الضرورية لدفع عن مصر ضد جيش أحسي فأجبتته أنني أحسن كل شيء عن الحرب، إلا ما كنت قد قرأته في الكتب فأوضح قائلاً «لا، لا، فأنتم المسامون تيقنون أعينكم مفتوحة دائماً وتندققون وراء كل شيء وأصبر في مؤالته حين صبحت متجراً على الرد كنت إن خمسة وعشرين ألفاً من لفرق المشاة قد يستطيع مقاومة أي هجوم. فدل «لدي الآن ثلاث وثلاثون ألفاً» - وهو ادعاء مرئف، لأنني كنت متأكداً من أنه لم يكن لديه في ذلك الوقت أكثر من ستة عشر ألفاً من الرجال متشرين في مصر والحداز.

ثم شرح لي بعد ذلك النظام الجديد في الانضباط والقوانين العسكرية، وقال إن طمع القادة فقط وليس كره عامة الجود هو الذي أعاق تأسيس جيش جيد التنظيم في تركيا وعطل لتعبئة الضرورية لمنع انضباط من عرض أنفسهم على الحرية العامة. وأصاف قائلاً «لكنني سوف أنظم قواي دائماً من الجود الروح» هذا ما حاوله سلفه خورشيد باشا لكن بقليل من النجاح

إن موضوع النظام الجديد قد استؤنف ما أن رجع محمد علي إلى مصر من بعثته، إلا أن تمرد جنوده الذين سلبوا عاصمته، أجبره على التخلي عن المشروع الذي لم يُحسن التخطيط له. وفي اندفاع عن مصر، قال إن عبء بوجه خاص استخدام خيالاته ومدفعيته التي تجرها الخيول حيث تدمر الخيالة مقدماً كل المؤن لدى العدو، كما فعل الروس مؤخرًا، كما أن المدفعية ستصابقهم من كل الجهات دون أن تستقر أبدًا في مكان واحد.

خلال إقامتي في الطائف وصلت عبر الصحراء رسائل من القسطنطينية، عن طريق دمشق وأُحضرت للبasha ترجمة تركية لمعاهدة السلام الموقعة في باريس. وبعدما قرأها عدة مرات أمر كاتبه التركي بشرحها لي باللغة العربية كسنة كلمة. وقد شعنا هذا الأمر لساعات عدة في عرفة خاصة، ثم عدتُ إلى اجتماعه، وكان البasha قد تمني أن أعطيه رأيي في المعاهدة وبالرحوع إلى أطلس تركي منقول عن خرائط أوروبية ومطبوع في القسطنطينية، جعلني أدله على حدود بنجيكا الجديدة وحجز موريشيوس ونوباعو وعمى موقع حوة، إلخ. فيما يتعلق بالمكان الأخير، حدث خطأ عريب، فقد قبل لي بـ حوة قد حصعت لسويديين، وهذا ما لم أستطع تصديقه. وبعد البحث وحدثُ أن المقصود كان جيف وسويسرا وهما مدينة وبلد يؤسفي القول إيهما لا يدخلان في ثقافة نائب الملك التركي الجغرافية إلا أن الخطأ كان ارتكابه سهلاً لأن جيف باللغة التركية تُكتب كحوة واسويد تُلغظ «شويت» Shwiti وقد علّق البasha بأن الطريق طويل قبل أن تُسوّى الخلافات بين العرقاء؛ وقد لاحظتُ بوصوح كيف أنه يتطوع بلهجة إلى شوب حرب بين القوى الأوروبية التي ستريحه من أي خوف على سلامته الخاصة، وتُسبب في الوقت نفسه طلباً كبيراً على الحصنة في الإسكندرية. ومما يحنص بيونابرت، فقد بدا متأكداً بأن الإنكليز سوف يقبضون عليه يوماً ما في ألبا. وأعرض قائلًا «هل قام الإنكليز بالحرب إذاً لأجل لا شيء في هذه السنوات العشرين؟ إنهم لم يحصلوا إلا على مالطة وبعض الجزر الأخرى!» وإن ما حلف في نفسه انطباعاً قوياً بالخشية من وجود بؤس سرية في معاهدة السلام تحوّلهم بالاستيلاء على مصر كما أن العكس العامة العائدة بأنهم أعادوا تثبيت ميران اقوى في أوروبا، وصبروا سلامتهم واستقلالهم، ثم تُقسه وتابع قائلًا «لا يجب أن يتركوا إسماعيل دون أن يدفع بهم لإسبايوس بسحاء، وماذا يتحلون الآن عن صقلية؟» وما لم يستطع فهمه هو أن الإنكليز كانوا موجهين في سياستهم بقوانين الشرف وبحسن ووعي للتخير العام الأوروبي. وصرّح قائلًا بحرارة. «إن ملكاً عصبياً لا يعرف إلا سيفه وكيس لدراهم خاصته، يستل الأول ليملاً الثاني، ونيس هناك كلمة شرف بين العائنين» - وهذا عراف صريح بالمشاعر التي تواجه حتى أكثر الحكام لأتراك مرتبة. وكان لدى محمد علي بعض الأفكار العامة عن البرهان الإنكليزي وكان سم ويسعتون مألوفاً لديه، فقال. «لقد كان جبراً عظيماً».

إلا أنه عُرب عن شكه فما كان يمكن لمفائد الإنكليزي أن بجره لو كان حدوده بسوء جنود الأتراك نفسه وهل كان يوسعه تحقيق ما قد حققه باشا نفسه في فتح مصر والحجر وقد كشف عن قلق كبير حول مصير كورفو Corfu والاستيلاء المستملي عليها، كذلك وصع الحجر السبع من جهة، لقد تبنى أد يشن الروس حرباً على الباب العالي، ويحروا السلطان خارج أوروبا وحشي من جهة ثانية، من أن يقوم بروس بالإمساك تركيا في أوروبا حيث إن الإنكليز من يقفوا مكتوفي الأيدي ومحزود مشاهدين بكنهم سيأحدون حصتهم من الامبراطورية لتركيا وكان مقتنعاً بشدة بأن تلك الحصنة من تكون سوى مقاطعة مصر.

ما رث أحسن رأي باشا الخفيفي فيما يتعلق بصدي في اعتناق الدين الإسلامي وقد عاملني كمسهم بالتأكيد وأقمت نفسي بأن سلوكي الحريء في الضئف قد أقنع حتى أنني كنت أحد المهتمين الحقيقيين إلى الدين الإسلامي أما بالنسبة إلى القصص الذي كان قسطنطينياً ذكياً شامخاً، فإن أعجب الناس كانوا يعتقدون أن باب العالي أرسله لمراقبة سيرة محمد علي وإعطاء المعلومات لذلك إلى السلطان، وقد فوجئت بسلوكه معي المرتبط بنية اتهام الباشا عند عودته إلى القسطنطينة، بحمائه لمسيحي في ريدنه إلى المدينتين المقدستين، وهي جريمة لا تُعتقر إذا ما أتت من باشا وبعد عودته إلى القاهرة (حيث انتفى عي بعكس توجهاته، وقد رتبته مرة واحدة)، قدم محمد علي بانتهاج فرص متكررة لإقناع السيد «صالت» Sai والسيد «لي» Lee، قسلاً حلالاً سلك وقسلاً الشركة الشرقية، قسلاً عن العديد من الرحالة الإنكليز دائمي التفتت للدين مزو، بالقاهرة، بأنه كان يعرف حق المعرفة أنني لم أكن مسماً حين كنت في الحجر، نكن صداقة لدولة الإنكليزية جعلته يُعزل لحققة ويسمح لي بالتطلع على القصص لقد أضم الباشا فكرة أوحها إليه بعض مستشاريه الفرنسيين في القاهرة ومعهدها أنني، وهي رواية مستقبلية عن رحلاتي، ربما أتباهى بجدائه كما فعل علي بك العباسي الذي كان كتابه قد وصل للتو إلى القاهرة وهو يعلن فيه أنه لم يجدع الباشا فحسب بل عشاء القاهرة أيضاً وبالنسبة إلى محمد علي لا يأتيه لاعتباره مسلماً سيئاً بقدر ما يكره اعتباره معقلاً

رغم إراء الباشا هذه التي أسرها لرجلين لإنكليزيين والتي لم يُسبها أي كلام طائش وغير حكيم مني، فقد تابعت حياتي بعد عودتي إلى القاهرة بغير مصايبه أو عاج، كمسهم في أخي التركي ويحدر بي تقديم الشكر له لاستقباله اللطيف في الضائف ولأنه لم يصح العوائق في طريق رحلتي عبر الحجاز

كنت في مكة في شهر كانون الأول/ديسمبر، وفي المدة في شهر نيسان/أبريل التالي، حين كان الباشا في المدينتين، لكنني لم أعتقد أنه من الضروري أو من المستحسن القيام برحلة

رسمية له هي أي من المكاتب حيث كنت غير معروف بناتاً في طريقي وأسلوب في السمر يقصين بأن أعيش معزلاً قدر الإمكان، وباستثناء فترة رياتني القصيرة إلى الطائف حيث رعمشي الظروف على أن أظهر بطريقة بارزة نوعاً ما، فقد كنت معروفاً في الحجار كحاج فقط، رجل من مصر لم يكن أحد على معرفة شخصية به إلا بعض صباه الباشا الذين التفتيتهم في الطائف.

إن معلوماتي التي تتعنى بالطائف غير كاملة ولم أعتمد إلى تدوينها على الورق إلا بعد مغادرة المدينة. ولم أعان أبداً من البقاء وحيداً خلال إقامتي هناك كما أسي لم يكن لي أي معرف يستطيع منهم الحصول على معلومات وافية شافية، وأن الأشخاص الذين ينتمون إلى الطبقات العليا ممن عشت بينهم، كانوا نادراً ما يتحركون خارج منازلهم خلال النهار في شهر الصيام

تقع مدينة الطائف وسط سهل رملي يبلغ محيطه نحو أربع ساعات من المشي، ويكسوه نوع من النبات وتطوقه جبال محفصة تدعى جبال عروان Ghazoan. هذه الجبال هي عبارة عن سلسلة تدعى لسلسلة الجبال الكبيرة، وهي تمتد لأربع أو خمس ساعات بعيداً إلى الشرق ثم تتلاشى في السهل. والمدينة الطائف شكل مربع غير مستطيم ويحيطها خمس وثلاثون دقيقة من المشي السريع، وهي محاطة بحدار وحلق بناهما حديثاً عثمان لمضايقة للجدار ثلاث بوابات وتحيط عدة أبراج لكنه أقل صلابة بكثير من أسوار جدة والمدينة ويتبع التي تبلغ سماكتها في بعض الأماكن ثمانين عشرة بوصة. وفي الجهة الغربية، داخل المدينة، يقف القصر على مرتفع صخري وهو يشكل جزءاً من جدارها، وقد بناه الشريف غالب. لكنه لا يستحق لقب القصر إلا في أنه أكبر من الأبنية الأخرى في المدينة وفي أ جدره الحجرية أكثر صلابة. وعلى الرغم من كونه الآن نصف مهترم، فقد جعل محمد علي منه مركزه الرئيسي إن مارل المدينة في معظمها صغيرة لكنها متقنة البناء وهي من الحجر؛ تقع عرفت الجلوس في الطابق العلوي منها؛ كما أبي على الأثر لم أر أي صالونات في لصائق الأرضي كما هي العادة في تركيا. والشوارع أعرض من تلك التي في معظم المدن الشرقية، ويقع المكان العام الوحيد في مواجهة القصر، وهو مساحة فسيحة ومكشوفة تُستخدم كسوق.

في الوقت الحاضر، يمكن القول بأن مدينة الطائف في حالة شبه مهترمة، لأن عدداً قليلاً فقط من المنازل في حالة جيدة فقد دمر الوهابيون العديد من لأبنية حين استولوا على المدينة سنة ١٨٠٢. وما بها كانت شبه مهجورة منذ تلك الفترة فإن كل شيء يتجه نحو التدهور والسقوط. وقد رأيت مسجدين صغيرين. أفضلها هو لليهود. كما أن صريح لعباس الذي تعلوه

قبة جميلة والذي يروره الحجاج أحياناً، قد دثره الوهديون كلباً وباشطاء أربعة أو خمسة أبنية يقطعها الآن انصااط الرئيسيون بباشا، فإني لم أر أي بناء يعوق الحجاج الأكثر شيوخاً وتروّد مدينة الطائف بالمياه من شرب عرييرين مع إحداها صمن الجدران ورفع الأخرى تماماً مقابل إحدى البوابات وولم يده مداف جيد لكنها ثقيلة وتشتهر لمدينة في شبه الجزيرة العربية كنها يحد ثقتها بحملة الماء، ولكن تلك البساتين تقع على سطح الجبال التي تحيط بالسهل الرملي ولم أر أي حدائق أو حتى شجرة واحدة صمن أسوار المدينة، كما عدت لحصرة تماماً عن اسطقة شحورة مما يجعل من الإقامة هنا معشاً على الكتابة كما في أي مدينة أخرى في شبه الجزيرة. ويبدو أن أقرب الحدائق تقع على لظرف الجنوبي العربي على مسافة سبع نحو نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة كما تقع على هذا الطرف أيضاً صاحبة مهجورة معصية عن المدينة فيها بعض أشجار السحيل بين أنقاضها، وقد هجرت قل احتياح الوهابيين بعثرة طويلة.

لم أقم بريارة أي من حدائق في بعضها مقصورات أو حيم كبيرة حيث يمضي سكان الطائف ساعات المرح والسجدة. أبررها وادي مسي وادي سلامة، وودي شمال وتروي لآبار والحدود التي ترون من خيال تلك الحدائق، كما يجد ها العديد من شجار الماكه مع حقول من القمح والشعير والماكهة التي تدونها في الطائف كانت نعس، بحجم كبير وطعم شديد، والتي والرمال والسرحد كما يجد ها كدس الأنوع لأخرى كنها لتي ذكرتها في حبل بري. كما تشتهر حدائق لطائف كذلك بوفرة وكثرة ورودها التي يتم نقلها، كالنص، إلى أنحاء الجحار كنها وكان يلجأ إلى هذه الحدائق في فصل الصيف أكثر تجار مكة. كما كان الشريف نفسه يمضي أحياناً جزءاً من الفصل الحار ها، وكذا تقع ها كدس منازلهم ومؤسساتهم كنها، لذلك فقد حسرو أملاً كماً مهتة حين يهب الوهابيون الطائف

إن سكان الطائف الأصليون هم عرب من قبيلة ثقيف^(١) أصبحوا مستوطنين حيث يذكرون الحدائق شحادة بمدينة كنها وكدس معظم محارن مؤن داخل جدرانها وقد اسفر ها أيضاً بعض لكيبين إلا أن الأعلى الساحة من لأحاب هم من أصل هندي وهؤلاء لأشخاص ما زالوا يحفظون عني ري السنم الهندي وعادانه عني الرعة من أنهم قد وُعدوا ها في شبه الجزيرة وسنقر في بعض المراحل مد عدة أحيال ن بعضهم تجار لكن الأعلى اساحة منهم هم تجار أدوية وتعتبر تجاربهم من الأهمية مكان في جحار أكثر منها في أي بلاد أخرى، وذلك بسبب ولع طوائف المجتمع كنها بالأدوية والعطورات الح وأعتقد أنه لا يوجد تجار جملة في

(١) من قبائل الطائف أيضاً، قبيلة الحملة وبني محمد والثلث

الطائف وقد أحصيت نحو خمسين متجراً في مجموعها. قل العرو الوهابي، كانت هذه المدينة مدينة تجارية يأتي إليها العرب من البلدان المحيطة على مسافة عدة أيام لشراء الأكبسة، في حين كان يأتي أهل الحبان بقافلات القمح والشعير. وكان المدينة أيضاً مركزاً تجارياً لبيع القهوة، يأتي بها البدو من جبال اليمن على الجمال فيتحشرون بالتالي دفع الرسوم الكبيرة المفروضة في المرافئ على ساحل شبه الجزيرة. كما أن كل شيء في المدينة يشير إلى النؤس والعقر المدقع. إن المستوردات الوحيدة من لداخل في الوقت الحاضر هي التمر الذي يأتي به عرب العتية من مزارع الفاكهة العديدة في منطقته. وتكتنف الشوارع الرئيسية بالمتسولين ويبيعهم عدد كبير من الهنود الذين يتعرضون أحياناً للهلاك من الجوع التام، فحلال إقامتي، كان على الفود دفع ليرتين على الأقل (تعادلان حسب سعر الصرف الحالي، سدس اندولار أو عشرة بنسات) للحصول على الخبز الكافي لسد رمق رجل في اليوم. وكانت قوئل المئون تصل كل أسبوع، غير أن النقص في الجمال لم يكن يسمح باستيراد كافي من الساحل لخفض أسعار الطعام، بالرغم من أن عامة الشعب كانت تفتت بشكل رئيسي من التمر، فلم تكن بالتالي تستهلك ثلثاً من المئون الآتية إلى ها من مكة. لكنني علمتُ من مصدر موثوق في اسلطة أنه كان هناك مؤن في الطائف للجيش التركي لا تكفي إلا لعشرة أيام.

في رمس الشريف، كان يحكم هذه المدينة ضابط يعينه هو يدعى «الحاكم» وكان هو نفسه شريفاً وقد أفتت بانكاد من سيف الوهابيين ثم أعاده محمد عني إلى مركزه، إلا أن هذا المركز أصبح محرد منصب شرفي. وقد استقرت ها العديد من العائلات اشريفة من مكة، ويبدو أن عظم حياتهم ورتبهم وعاداتهم هي تلك نفسها التي في مكة، إلا أنني لم أحصل سوى على القليل من فرص الملاحظة في هذا الموضوع.

في السابع من شهر أيلول/سبتمبر. انطلقت في الصباح الباكر من الطائف إلى مكة متجهاً الطريق نفسها لتي أتيتُ منها وكما سبق أن ذكرت، هاك طريق تقع أكثر إلى الشمال تتجنب عبرها القوافل الصعوبات التي يتصلبها المرور عبر جبل قرى. إن المخططة الأولى من مكة على هذه الطريق هي ريم Zeyme وقبلها بحو عشرة أميال ارتفاعات شديدة الانحدار. وريم هي قصر شبه مهدهم يقع على الطرف الشرقي من وادي ليمون مع يابيع عريضة من المياه الحارئة. إن وادي ليمون هو وادٍ خصب، يمتد لساعات عديدة باتجاه وادي فاطمة وفيه عدة مزارع بحيل. وقد كانت الأرض مزروعة في السابق، إلا أن ذلك قد توقف منذ العرو الوهابي عني ما اعتقد. كما أن حدائق الفاكهة فيه قد دُثرت كذلك. هذه هي آخر مرحلة من طريق قافلة الحج لسورية الآتية من الشرق، أو الطريق التي تقع باتجاه الشرق من سلسلة جبال الحجار الكبرى لممتدة من «المدينة» إلى مكة. وإلى الجنوب الشرقي أو الشرق الجنوبي الشرقي من وادي ليمون،

وإذ حصب بحر يُدعى ودي مصيق حيث استقر بعض الأشراف وحيث كانت بلشريف غالب أراضٍ وأمالك.

من ريمه، في اليوم الثاني، أي من مكة إلى «السير»، وهو جدول أسموه بهذا الاسم ويجري عبر سهل حائل من الأشجار لكن فيه عشاً واهراً عياً وعد سين، تدحرج الطريق في بقعة أرض حالية يمر خلالها مرة صعب وصيق جداً يسع نحو ست ساعات. والخطّة التي تمر بها هذه اليوم هي Akrah وتقع في السهل البدوي ويبعد نحو ثلاث ساعات عن الطائف باتجاه الشمال وتقع على مستوى نفسه من امدية تدث وهكذا يصل المسافر إلى الطائف في اليوم الرابع من انطلاقه من مكة وقد باتت هذه الطريق الآن غير سالكة إلا للمواصل الكسيرة ونجته حد حيث إن عرب قبيلة العتيبة أعدّ ثياب قد قاموا مراراً بعزوت على هذا الموقع وسدوا القوافل الصغيرة

مربياً من الطائف، أدركت ثلاثة حدود أرباوط. وكان كل منهم يركب حماراً مني أد وقد قاموا في الطائف ببيع موالهم حيث حصوا عني ثلاث عشرة ليرة (من عملة القاهرة) مقابل دولار إسباني واحد، الذي كان يُساوي في جدة إحدى عشرة ليرة فقط. وهكذا، فقد صنعوا كيساً مشتركاً وضعوا فيه ألف دولار وسافروا من جدة إلى الطائف، حين كنت الطريق أمة، لأجل سيرتين لثنتين ربحوهما نصف كل دولار وحملوا ما وقد حيط دحل أكيس على حميرهم، وما أنهم سوا، رما ترك بعض المال بين أيديهم من أجل مصاريف السفر، فقد نصموا إلى بعد أن وحدوا كيس سفرى مشاً مخزون جيد من المؤن، وتركوا في أدفع مصاريفها مشتركة على الطريق كلما توقف عند انقاضي. فكهم كانوا رفاقاً حقيقي الطل وضوءاً فلم يذهب المصروف سدى.

وعند المرور بوادي مُحرم، ارتدبت الإحرام عما نني كنت على وشك زيارة مكة ومسحدها لأول مرة ويتألف الإحرام من قصعتي قماش كتي أو صوفي أو قطني، تُلف الأوسى حول الخاصرة وتُرمى الثانية على العنق وتكتفان لكي يُترك جزء من الدراع الأيسر مكشوراً ويحب أن يوضع كل ثوب جاباً قبل ارتداء الإحرام إن أي قطعة سبج نقي. العرض بكر الشرع يقضي ألا يكون فيه أي دررة ولا أي حيط من حرير أو أي ربة كما أن اللون الأبيض هو اللون مفصل على أي لون آخر ويُستعمل عادة القماش الكتاني الأبيض الدغم الهندي لهذا العرض بكر الحجاج الأعزاء يستعملون عوضاً عنه شالات الكشمير الأبيض دون أشراف مريمه برسومات زهرية ويبقى الرأس مكشوراً بالكامل وليس مسموحاً حلق الرأس، على وفق لعادات الشرقية، حتى يُسمح بكر الإحرام حائلاً. كذلك فإن مشط القدم أو سطحها، الأعلى يحب أن يكون مكشوراً. وهكذا، فإن أولئك الذين يتعدون الأحذية، يعمدون إما لقص قطعة

من الجزء الأعلى من الجلد ونزعها، أو يأتون بأحدية مصبوعة لهذا العرض كسك التي يحصرها الحجاج لأتراك معهم عادة من العسكطبية «استاسون». وكسك، كمعظم أهل البلاد، نتعل سندلاً وأنا أرتدي الإحرام

إن التقدم في السن والمرض هما عسرون لإبقاء الرأس معطى، إلا أن هذا التساهل يجب أن يدفع نفسه غير تقديم الصدقات إلى الفقراء. وتصبح أشعة الشمس مرعبة إلى حد بعيد للأشخاص حاسري الرأس؛ لكن، وبالرغم من أن الشرع يحرم حماية الرأس بأي شيء يلامسه مباشرة، فليس هناك ما يحرم استعمال المظلات التي يتجهز بها أغلب الحجاج الشماليين، في حين يقوم أهل البلاد إما بحمل أشعة الشمس بشجاعة، وإما يربطون جرقة على عصا يؤمنون الطل بإدارتها نحو الشمس

إن لإحرام سواء وُضع صيفاً أم شتاء غير مريح بقدر ما هو مضر بالصحة، خاصة بين مسلمي الشمال المعتادين على الألبسة الصوفية السمكة فيحترقون في هذه الفترة على تركها لعدة أيام. إلا أن الحماسة الدينية لدى بعض من يرورون بالحج، متقدة جداً بحيث أنهم يدرون عند أحد الإحرام وهم يفتربون من مكة بالأا يحتموه حتى بعد إتمام حجهم إلى عرلات، وإن وصلوا قبل الحج بعدة أشهر؛ وهكذا، فهم يقولون لأشهر مكسور ليلاً نهاراً بهذه العبارة الرقيقة^(١)، حيث أن الشرع يحرم أي كساء أحر حتى في الليل. وهذا ما لا يلتزم به بشدة إلا قليل من الحجاج.

وعندما كان العرب القدماء يؤدون فرائض الحج إلى أوثانهم في مكة، كانوا يرتدون كذلك الإحرام. إلا أن هذا الحج كان محددًا في فترة معينة من السنة، ربما في الحريف، فعلى الرغم من أن العرب كانوا يعدون وفق الأشهر القمرية، فقد قاموا بإدخال شهر كل ثلاث سنوات، وهكذا، لم يتغير الحج في العصور كما هي الحال الآن. إن ريادة يوم إلى الشهر، والتي ترسخت منذ مائتي عام قبل الإسلام، قد حرمها في القرآن، الذي فرض أن تستمر تأدية الحج له لحي القيوم، والذي كان يتم تكريمًا للأوثان، إنما يجب تحديده على وفق شهر قمرى، فأصبح بالتالي موعده غير منتظم، وفي حلال ثلاثة وثلاثين عاماً يتغير بالتدريج من عمق اشتاء إلى أوج الصيف

إن من يرتدي الإحرام، أو كما يدعونه «محرّم»، ليس محرم على الاصطاع عن تناول أنواع

(١) يروي المؤرخون العرب أن هرون الرشيد وزوجته ربيعة قاما ذات مرة بتأدية الحج سيراً على الأقدام، من بغداد إلى مكة وهما يرتديان لإحرام ليس إلا؛ وأنه كان هناك عند كل محطة ينافذه قصر به شقق معروضة بروعده، وأن العرب كلهم كان يركضون يومياً بالمسجد الذي كانوا يجلسون عليه؟

معبة من الطعام كما كان يفعل العرب القدماء الذين كانوا، خلال الفترة التي يرتدون فيها الإحرام، يمتنعون عن تناول الزبد من بين الأصناف الأخرى. إلا أن على الحرام التصرف بحشمة وعدم التلطف بالشتائم أو الدحون في شجار أو قتل أي حيوان وإن تلك دابة على جسده ولا حتى الاتصال بالجلوس الآخر. أما إحرام النساء فيتألف من عبادة يتفقتها كلياً عيهر مع حمار ملاصق للدرحة يصعب معها رؤية أعينهن، وحسب الشرع، عليهن بتغطية أبديهن وكواحلهن، إلا أن النساء يتجاهلن هذه القاعدة عموماً

وعلى الرغم من أن رفاقي لجود كانوا داهيين مثني إلى مكة، فم يروا من لضرورة أحد الإحرام الذي، كما سبق وذكر، يعرضه الشرع، على مدار السنة، على كل من يسافر باتجاه المدينة المقدسة.

بقينا على قمة جبل قرى المبهجة لساعة واحدة. ثم ربنا اجل مع حلول المساء وقد أجبرنا وابل من المطر على البحث عن مأوى داخل كهف مسيح بحاب انطريو، وهو الكهف الذي يستخدمة الرعيان من قسة هديل في ظروف مشابهة. ووصلنا بعد غياب الشمس إلى انقاضي المذكورة سابقاً، انواقعة على طرف الجبل، حيث نترجل القوم من مكة. وقف هـ بإضرم نار كبيرة واستأجر قديراً فحرية من العرب أعددا هـ بعض الأزر للعشاء إن مسيرة اليوم الطويلة والمطر وردائي الخفيف قد أدب كنها إلى إصباتي بحتى حيفة، لكني حرصت على تدفئة عسي جيداً خلال الليل فأصحت في اليوم التالي بصحة جيدة. وقد ساعد على شعائي كلياً من تأثير مرصي الشديد في حدة عوامل عديدة منها تغيير بهواء خلال رحنتي إلى الطائف والمناخ الأكثر برودة نسبياً في ذلك المكان وخلال الليل، وصل قاصي مكة من الطائف

في الثامن من يلول/سبتمبر، ذهبت عند نزوع الصبح لزيارة القاصي الذي أقيته يدخن العليون ويشرب لقهوة مستعيدة بذلك من الامتياز الممنوح للمسافرين في شهر رمضان بالإعفاء من النعيم. وحسب اتفاقنا في الطائف، كان علي الانضمام إليه هـ في طريقه إلى مكة، لـد، لـم أستطيع تجنب ذلك، إلا أنني كنت غير رغب في مواصلة الرحلة معه لاحتمال أن يأخذني إلى مره في مكة حيث كنت سأوضع مجدداً في وضع مشابه لذلك الذي كان مرعجاً في الطائف غير أنه بد، مستعد، نتحب تكبد عناء صيف ومصاريفه. فحين عثرت له عن حشيتي في ألا يتمكن حماري انهك القوى من محاربة بعـه القوي، أجابني بأنه يأمل في مطلق الأحول في أب يسقي بي مجدداً في مكة ولذلك رحلت مع اخود ترك القاصي ليأخذ قسطاً من الراحة. وأصبحت ساعات الظهيرة في مقهى يُدعى «شدد» حيث كان عدد من البدو يسئون أنفسهم بإطلاق النار على هدف ما. وقد برهوا على براعة وثيقة، فكاد أحيا يصوب درهماً

على مسافة نحو أربعين ياردة ولا يمكن الحصول على أي شيء آخر في المقاهي على هذه الطريق باستثناء القهوة والماء. كما أن القهوة لا تقدم في فاجين معدة، كما هي العادة في معظم أجزاء الشرق، لكن من يطلبها يحصل على إناء فخاري صغير من القهوة الساخنة أمامه تحتوي على عشرة إلى خمسة عشر هجاناً، ويشرب المسافر هذه الكمية أحياناً ثلاث أو أربع مرات يومياً. ويدعى هذا الإناء «مشربة»، (انظر الشكل في الرسم المرفق) وقد عُزِّزت في قم الإناء رزمة صغيرة من الأعشاب المجففة يُصبُّ السائل من خلالها. وقد سبق أن ذكرتُ لاستهلاك المفرط للقهوة في هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية، كما يقال أنها تنتشر أكثر بعد إلى الجنوب ونحو المنطقة المجاورة لبلد القهوة.



على الطريق من «شدادة» التي تقع على طول السهول المسخفضة بين الجبال احادة الرأس، فوجئنا بأعنف وابل من المطر ولرد الذي أجبرنا على التوقف وفي وقت قصير جداً تدفقت المياه من الجبال، وحين نحسر ابرد وتوقف بعد نحو الساعة، وجدنا أن المطر الذي كان مستمراً قد غطى وادي نعمان بالمياه بعمق ثلاث أقدام، بينما قطعت الطريق سيول يملع عرصها ما يقرب الخمس أقدام وذلك باندفاع وعنف جعل من المستحيل لنا قطعها. فبتنا عاجزين في هذه الحالة عن التقدم أو التراجع علماً ما بأن تيارات مشابهة قد تكوّنت حلقاء، لذلك، فقد اتحدنا مركزاً على جانب الحبل حيث كنا في مأمن من أن يجرفها التيار وحيث نستطيع الانتظار بأمان إلى أن يهدأ العاصف. وسرعان ما بدت على طرف الجبال شلالات صغيرة لا تُعدُّ ولا تُحصى وانعمر كل شيء، بينما تواصل المطر يرفقه الرعد والبرق بسرعة العصف نفسه. وقد رأيت القاصي الذي عادر «شدادة» بعدد بقليل، على مسافة ما، وقد قصه عن جماعتنا تيار عميق، بينما أجبرت كذلك العديد من سائيه الراكبات على البقاء بالبقاء بعيداً على مسافة منه. واستقرنا في هذا الوصح المريح نحو ثلاث ساعات حين توقف المطر وحقَّت حدة التيارات سريعاً، إلا أنه كان من الصعب لنا دفع حميرنا لتجاوز السير على الأرض الزلقة التي كانت لا تزل معصورة بالمياه، فكنا أخيراً مُجبرين على الترحُّل عنها ودفعها أمامنا حتى وصلنا إلى مساحة من الأرض أكثر ارتدعاً. وكان القاصي وجماعته كلها مصطربين لفعل الشيء نفسه. وداهد الليل الآن وعشينا السماء العائمة بظلمة حاتكة. لكن، وبعد لسيير المحضوف بالمحاطر ثلاث أو أربع ساعات، حيث كنا نتعثَّر أو نقع تقريباً عند كل خطوة، بلغنا مقهى عرفات مما أراح رفاقي الجود الذين عتبروا عن محاورهم المتعقبة بأكياس أموالهم. ولم

«كن أنا نفسي أقل سروراً حيث أني كنت في حاجة ماسة إلى انار بعد أن سئلت بهذه لطيفة وأنا أرندي فقط كساء الإحرام الرقيق الهزيل».

كنت المفاهي لسوء حظ، قد عثرت بانيه كذلك هم عند مكاناً حافاً بحبس عليه كما تم إصرام انار بصعوبة في إحدى لأكواح العربية الصغيرة والمقاومة للمسح، حيث انسل القاصي وبعض من جماعته وأن قمنا بتحصيل الفهرة وكنت ساوّه يكيين في كوح آخر من شدة البرد ولم يرغب القاصي في تعريضهم لسائح المترتبة على الميت ليلاً في وضع كهذا، فركب مجدداً بعد نصف ساعة ونابح سيره باتجاه مكة ماركاً إياي وجماعتي سنحود على اسر التي استقبلها وسية بعد بعض الوقت لنتراح حولها.

في التاسع من أيلول/سبتمبر، انطلقنا باكراً لحد أن عاصفة الأسر لم تمتد إلى أبعد من سهل عرفات وكثيراً ما تحدث فيضاب وعواصف ماثلة في هذه البلاد حيث تسو العصول أقل انتصاماً منها في أماكن أخرى تقع على الارتفاع نفسه. وقد سمعت أن فصل الماطر في الجبال لشرقيه وفي الطائف هو أكثر ثباتاً منه في المنطقة الجنوبية من مكة وجدة حيث يكون السماء، حتى في منتصف فصل الصيف، عائمة عالياً بالأمطار والعواصف؛ وذلك على الرغم من أنه عبر منتصف كما هو في منطقة لاسنوائية في إفريقية وقد سجل مؤرخو مكة عدة فيضانات مزرعة في تلك المدينة، وحدثت لأكثر فطاعة في السنوات ٨٠ ٢٠٢/١٨٤، ٢٨٠، ٢٩٧، ٥٤٩، ٦٢٠، ٨٠٢، ٨٢٩، لهجرة. وقد عمرت المياه في بعض هذه فيضانات كل مدينة مكة والكعبة حتى ارتفاع الحجر الأسود، وقد دمرت العديد من اسرل في كل هذه الفيضانات ررهقت الأراج ويقدم «الأعصي» تفاصيل فيضاب دمر مكة سنة ١٠٣٩هـ، أو سنة ١٦٢٦ حسب تقويم، حين زفق خمس مئة شخص ودمرت الكعبة في المسجد. كما حدث فيضان مروع آخر سنة ١٦٧٢.

وصت إلى مكة عند منتصف ليل تقريباً وذهب رفاقي بحثاً عن معرفهم بين جنود وبركوبي لأندبر أمري، وأنا لا أعرف أحداً في المدينة، ولم يوص بي أحد إلا القاصي الذي، كما سبق أن ذكرت، أملت في نجته.

إن كل من يدخل مكة، سواء أكان حجاجاً أم لا، مرعم وفق الشرع على ربا المسجد مباشرة^(١)، ودون انقام بأي من الشؤون الديوية قبل انقيام بذلك اجترن سلسلة متناحر ولما ل إلى بويدت المسجد حيث نرلني سائق الحمار وأخذ أجرتة وهما دنا مي ستة من المطوفين أي المرشدين إلى الأماكن المقدسة - وقد عرفوا من الإحرام الذي أرنديه أني أنوي زيارة مكة.

(١) يذكر المؤلف بعض ملاحظات غير الصحيحة عن شعائر الحج، وانظر الصفحة التالية أيضاً

ناحترت واحداً منهم كذليل لي، وبعد أن أودعته متاعني في متحر مجاور، دخلت المسجد من البوابة التي تُدعى باب السلام، وهي البوابة التي يُصحب الواعد الجديد بالدخول منها.

إن الشعائر الواجب تأديتها خلال زيارة المسجد هي التالية:

١ - بعض الشعائر الدينية الواجب تأديتها داخل الحرم.

٢ - السعي بين الصفا والمروة

٣ - تأدية القرعة

وعنى كل مسلم إعادة هذه الشعائر كلما دخل مكة من رحلة تبعد عن مكة أكثر من يومين، ثم عيه القيام بها مجدداً عند الحج إلى عرصات بشكن حاصر. وسأصف هنا تلك الشعائر باختصار شديد، إذ إن تقديم تفاصيل كاملة وشروحات وافيه لشرع لإسلامي في هذا الموضوع سيكون أمراً مصحراً إلى حد بعيد بل إن هناك مجندات صحيحة بالذمة العربية لا تعالج إلا هذا الموضوع وحده.

١ - الشعائر الواجب تأديتها داخل الحرم؛

بعد ادخل ثلثي بعض الأدعية تحت صف الأعمدة عند رؤية الكعبة، ثم نصلي ركعتين، أو أربع سجودات موشته إلى الله شكراً له بسوع البعة المقدسة ونحية لمسجد بصفه، يقترب بعدها حاج من الكعبة عبر إحدى لطرق المعتدة إليها، ماراً بأسطقة المكشوفة التي تقوم عليها الكعبة. وعند العبور تحت القنطرة المعروفة مقابل الكعبة وتُدعى باب السلام، تُتلى بعض الأدعية. وتُتلى أدعية أخرى بصوت محفص يقوم عدداً الرثر بالوقوف مقابل الحجر الأسود في الكعبة ويُصلي ركعتين يتم لي نهايتهما من حجر الأسود باليد اليمنى. أو تصيله، إذا لم يكن هناك حشد كبير من الناس. يبدأ حينها المؤمن بالطواف أو السير في دوران حول الكعبة مُقيماً ذلك الساء باتجاه يده اليسرى من لوجب إعادة هذه لشعيرة سبع مرات، حيث تتم الثلاث الأولى بحطوات سريعة تقليداً للبي - صلى الله عليه وسلم - الذي قام بالركض حول الكعبة ثلاث مرات بأقصى سرعة^(١) لبَقْصُ قَوال أعدائه ودعاءاتهم بأنه مريض مرضاً خطيراً ويجب أن تراقب كل دورة مع أدعية محددة تُتلى بصوت محفص وتناسب مع أجراء الساء المختلفة التي يمر الحاج بحديثها، كما يتم لمس الحجر الأسود أو تقبيله عند انتهاء كل دورة، فضلاً عن حجر آخر زُكر في حائط عند زاوية من الحجر الأسود. وعند انتهاء الدورات لسبع،

(١) في السعي بين الصفا والمروة سيطرة للرجل في جزء من السعي ويسر الركض السريع حول الكعبة كما يزعم المؤمن

يقترّب ابراهيم من حائط كعبة بين حجر الأسود وباب السماء، وتُدعى تلك المساحة «المنترم» هناك، يقوم الحاج بالتصوُّع إلى الله ليُعرّ دُوبه، فأتى يديه مصدودتين وصدره ملتصق بالحائط ثم يعود باتجاه مقام إبراهيم المجاور حيث يُصلي ركعتين تدعى «سنة الطواف»، يذهب بعدها إلى بئر زمزم المخادبة للمقام، وبعد حطية وريّة تكرّماً سيّر، يشرب منها الماء بقدر ما يحلو له أو يقدر ما يستطيع حين يكون الحشد هائلاً لها تنهي الشعائر الواجب إتمامها داخل الحرم.

بإمكاننا أن نصيِّفها بأن «الطواف» هو شعيرة إسلامية لا تؤدي في الحرم المكي بحسب هي صيف سنة ١٨١٣، كُت حاصراً في الاحتمال نسوي لدي يُعنى فيه بقديس بلدة قد هي شمس مصر وتُدعى عبد الرحمن القدوي وكان عدة آلاف من الناس قد احتشدوا على السهل ندي يقع عليه قبر هذا لوبي الذي يبعد ميلاً واحداً عن المدينة وكان كل شخص، حيث يصل، بدور سبع مرات حول المسجد الصغير الذي يحتوي على القبر وكانوا حين يعتمرون وضع الكسوة الجديدة على قبره ثلث أسنة، بأنوب به في مركب ذهبي يتبعه الحشد كنه سبع مرات حول البهاء يتم بعدها وضعه على القبر

٢. السعي بين الصفا والمروة:

إن دليبي ندي كان يتبعني على الأثر خلال نادية الشعائر المذكورة أعلاه وهو يتلو كل الصلوات المطلوبة والتي كُت أردها بعده، أرشدي الآن خارج المسجد عبر بوابة تُدعى باب الصفا تقع ثلاث ماطر صغيرة مفتوحة متصّفة بعضها ببعض بوساطة عارضة في الأعلى، وهي الأسفل ثلاث درجات حجرية عريضة تقود إليها (نظر الرسم أدناه)، على بُعد خمسين ياردة من الطرف الجنوبي الشرقي للمسجد على أرض مرتفعة قليلاً.



هذا هو ما يُدعى بتل الصفا، يقف حاج هنا، على الدرجة العليا، ووجهه باتجاه المسجد لذي حخته عن الرؤية المائل الواقعة بينهم، ويردع يده باتجاه السماء ويتوكله إلى الله بدعاء قصيرة منتمياً عنه على إتمام مسيرة المقدسة أو «السعي» كما تُدعى ثم ينزل لياشر السير على صول شارع مسطّ يبيع طوره نحو ست مائة قدم ويدعوه بؤرحوب العرب «وادي الصفا»، وهو يقود إلى مروة التي تقع على طرف الآخر حيث وُضعت مضبة حجرية ترتفع نحو ست أو ثمانين قدم عن مستوى الشارع، مع عدة درجات عريضة تؤدي إليها. وعلى الزاوية

يسعى بخطى سريعة من الصفا إلى المروة ثم عليه أن يعدو مسافة قصيرة تحددت بأربعة أحجار أو أعمدة وتُدعى «المَلَيَّنَ الأحصُرَيْنِ» بُنيت في حدران المارل على الجابين، ويبدو أن اثنين من تلك الأحجار أحصرا اللون ظهرت عليها العديد من القوش التي يصعب على امرء قراءتها لكونها على علو شاهق في الجدران. كما تُسمى الأدعية بلا توقف وبصوت منخفض خلال هذا السعي. وبإمكان المتوَعِّكين صحياً الركوب أو الجلوس في حَقالة. يصعد الحاج، عند سوغ المروة، الدرجات بيدين مرفوعتين ويُردّد دعاء قصيراً كذلك في الصفا وهو المكان الذي سيعود إليه الآن. إن السير بين المكابين يجب أن يُكرَّر سبع مرّات حيث يُحتسب عند المروة، وبذلك يكون أربع مرّات من الصفا إلى المروة وثلاث مرّات من المروة إلى الصفا.

٣. أداء العمرة:

هناك عدة ذكّير للحقائق في المنطقة المجاورة سمروة، يدخل إلى أحدها لحاج بعد أن يُتمّ «السعي» فيحلّ رأسه وإخلاق يتلو أدعية معينة يُردّدُها خلفه الحاج. أما الأحصاف، وهم أساع أحد المذاهب الإسلامية الأربعة الأساسية، فهم يحلقون فقط ربع الرأس، ويظل ثلاثة الأرباع «باقية» كما هي حتى يعودوا من العمرة^(١) وبعد تأدية شعيرة إخلافة هذه يصحح بإمكان الزائر أن يصحح الإحرام حائساً ويرتدي ربه لعادي، أو يستصيح، إذا ما شاء ذلك، الذهاب مباشرة من هنا إلى العمرة فيبقى بالتالي مرتدياً ثياب الإحرام ويصلي ركعتين فقط عند الانطلاق. غير أن ذلك نادراً ما يحصل حيث أن شعيرتي الطواف والسعي تنهكان القوى بحيث تصبح الراحة أمراً مرغوباً بعد إتمامهما. وهكذا، يرتدي الزائر ثيابه الاعتيادية، لكنه في اليوم الثاني، أو في أي يوم تالي، يرتدي الإحرام مع لشعائر نفسها الواجبة عند ارتدائه أول مرة، وكلّ كان ذلك اليوم قريباً كان ذلك أفضل. ويبدأ حينها لمسير إلى العمرة، وهو مكان يبعد مسافة ساعة ونصف الساعة عن مكة. وهنا يصلي ركعتين في مُصلى صغير ويعود إلى المدينة مترجماً على طول الطريق بالأدعية الدينية التي تُدعى استلبية وتبدأ بالكلمات الدنية «إيّاك اللهم ليثيب». ثم عليه الآن أن يتم مجدداً شعيرتي الطواف والسعي ويحلق رأسه كنيّة^(٢) ويصح الإحرام حائساً محسناً بذلك الشعائر كلها إن تأدية العمرة يعرضها الشرع لأنها ضرورية جداً، إلا أن العديد من الأشخاص يعودون أنفسهم منها على نزعهم من ذلك. لقد ذهبت إلى هناك في اليوم الثالث لوصولي إلى المدينة وكسّ أمشي خلال الليل وهذا أمر درج في لفصل الآخر.

يجب أن تُكرَّر تلك الشعائر كلها في موسم الحج وذلك بعد العودة من وادي منى ثم نعاد

أيضاً عند معادرة مكة كذلك، فإن الطواف أو مشي حور الكعبة، يجب أن يؤدي قدر المستطاع. ويعيش بعض لأحب في مكة ممن لا يحدون حرجاً في الميم بذلك مرتين في اليوم، عند المساء وقبل طلوع النهار

قل عهد محمد صلي الله عليه وسلم حين كانت الوثبة سائده في شبه الجزيرة العربية، كانت الكعبة شيئاً مقدساً وتتم رياتها بتحويل دبي حيث يرور الأشخاص الذين كانوا يؤدّون الطواف بالطريقة نفسها تقريباً كما يفعل أحفادهم في الوقت الحاضر غير أن الباء في ذلك الوقت كان مُردّناً ثلاثمائة وستين وثناً، وكان هناك فرق واحد شاسع في هذه الشعيرة، حيث كان الرجال والنساء في ذلك الوقت مُرعبين على الصهور في حالة غري تام، وذلك لكي تُرمى خطيبتهم مع أثوابهم. وهكذا، فإن الحج لإسلامي وريارة كعبة ليس إلا استمراراً وتشت سُرور أو العادة القديمة^(١). وبطريقة نفسها، كان العرب القدماء يعتبرون الصفا والمروة مكانين مقدسين يحتويان على رسومات للآلهة Motam مطعم و Nehyk نيهك، وهما اعتاد الوثنيون على السير من مكان إلى الآخر بعد عودتهم من حج إلى عرفات وهما أيضاً، إذ ما أما يعرف الإسلام^(٢)، فإن «هاجرة» وهي أم اسماعيل هامت في الصحراء بعد أن أخرجت من مرل إبراهيم كي لا تشهد موت ابها الذي وصحه وهو يكاد يحضر من العطش حين طهر لملأه جبريل وصرب الأرض بقدمه ثم جعل بثر رمرم تنصخر ويُقل إن المشي من مكان إلى آخر فُرض لإحياء لذكرى طواف «هاجرة»، التي هامت من حريها وألها سبع مرات بين الصفا والمروة^(٣).

ويروي الأرقم أن، حين كان الوثنيون يحتفلون شعائر الحج إلى عرفات، كانت القبائل المختلطة المحاصرة كلها تجتمع هناك، في عودتها إلى مكة، في المكان المقدس الذي يُدعى «الصفا» ليمنحوا بسرة عالية ومتقدة، محد أسلافهم ومعاركهم وشُهره أمتهم ثم يصنع شاعر من كل قبيلة، كل واحدة بدورها، ويتوجه إلى الحشد هاتفاً «من قبيلتنا كان البطل معوار الفلاني والحدود الكريم الفلاني، وديب الآ مثلهم باهي بهم» ثم يُعدّد أسماءهم ويكيل لهم المديح ويحتّم بأعية من لشعر سحيمي، ودعوة للقائات التالية الأخرى «فمن كان يفي حقيقة ما قلب أو يدعي نفسه حقاً في مجد يهدد التقدر، وفجر وفصيله مثلنا حش، فليقم وليثبت ذلك هاء» بعدها يصعد شاعر خصم ويحتفل بعبدة مائة مائة قبيلة المناش أو الأرفع شأنًا ومقامًا، ساعياً في الوقت نفسه لتقليل من قيمة ادعاءات خصمه واسحرية مها

(١) كان ذلك عبادة لا عرفاً ولا عادة

(٢) يقصد السبي بن الصفا والمروة

وقد ألقى محمد - صلى الله عليه وسلم - ذلك ليهتدى من حدة العداوة والحسد النجس عن هذا التقليد، أو ربما ليكسر حدة الروح الاستقلالية عند اندو الأشداء فقد ورد في القرآن انقطع لنائي ﴿إِذَا قُضِيَتْ مَسَاجِدُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَدْكُرْكُمْ بَاءَ كُمْ أَوْ أَشْدَّ دِكْرًا﴾

ولعل ذلك قد أزال أسياب العديد من الشجارات، ولكن هذا المشروع لصدم قام في الوقت نفسه بتدمير التأثير الذي كانت تمارسه قصائد أولئك الشعراء القليلين المتناقصين على العصائل الحرية والعبقرية الأدبية الكامنة في مواطنهم^(١).

لقد كانت تأدية العمرة كذلك عادة قديمة وقد حافظ محمد - صلى الله عليه وسلم - على ممارستها، كما يقال أنه كثيراً ما كان يؤدي صلوات المساء في هذه البقعة.

بعد أن أتممت شعيرتي الطواف والسعي لمهكتب، حققت حرراً من رأسي وبقيت حالساً في دكان الحلاق ما أني لا أعرف أي مكان آخر أستريح فيه. وقد بحثت عن مساكن، لكنني علمت أن المدينة كانت قد امتلأت بالخمخاخ والمحرجين عديدين قاموا بحجز الشقق قبل وصولهم لكنني وجدت بعد قليل من الوقت رجلاً عرض علي غرفة جاهرة مبروشة وقد استأجرتها وسكنت مع المالك بما أني لا أملك حادماً وقد أورد هو وعائلته المؤلفة من زوجة وولدين إلى فناء الدار المفتوح بحاجب غرقي. وكان المالك رجلاً فقيراً من المدينة يعمل كمطوف أو دليل. وروى أنه كان ينتمي إلى طبقة أدنى من الطبقة الثانية حتى من المكيين، فقد كلفني خمس عشرة ليرة في اليوم، ووجدت، بعد رحيلنا أن العديد من قطع الثياب خاصني قد شُرقت من كيس سعري. لكن ذلك لم يكن كل شيء، ففي عيد العطر، دعاني إلى عشاء داحر في غرقي برفقة ستة من أصدقائه، وفي صباح اليوم التالي، قدم لي فاتورة تضم كل مصاريف الصياغة تلك^(٢).

إن آلاف المصاييح التي تُصاء خلال شهر رمضان في المسجد الكبير قد جعلت منه ملاذ الليالي لكل الأحباب في مكة، فهنا يتزعمون أو يجلسون للمسامرة إلى ما بعد منتصف الليل. ويقدم ينظر محمداً مشهداً هو - بولا عياب النساء عنه - شبه يتجمع ليالي أوروبي من أي شيء كنت أنصوره عن مكان إسلامي مقدس ولم يشهد الليلة التي تحتم شهر رمضان عروض الانتهاج الرائعة تلك التي تُشاهد في أجزاء أخرى من لشرق وقد حلت كذلك الأيام الثلاثة التالية للاحتفال من لتسبية العامة. وقد وُضعت بعض لأراجيح في الشوارع لتسلية الأطفال، وكان بعض المشعوذين مصريين يعرضون أعمالهم أمام الجماهير المختشدة في

(١) تكثر إشارات المؤلف الكادية - على طريقة استشراقين - عن المسلمين وشعائهم وصفاتهم.

الشوارع، لكن قليلاً ما نحصل أشياء أخرى تدخل على العيد باستثناء ارتداء ملابس مبهجة يعوق فيها عرب شبه الجزيرة إخوانهم السوريين وانصريين.

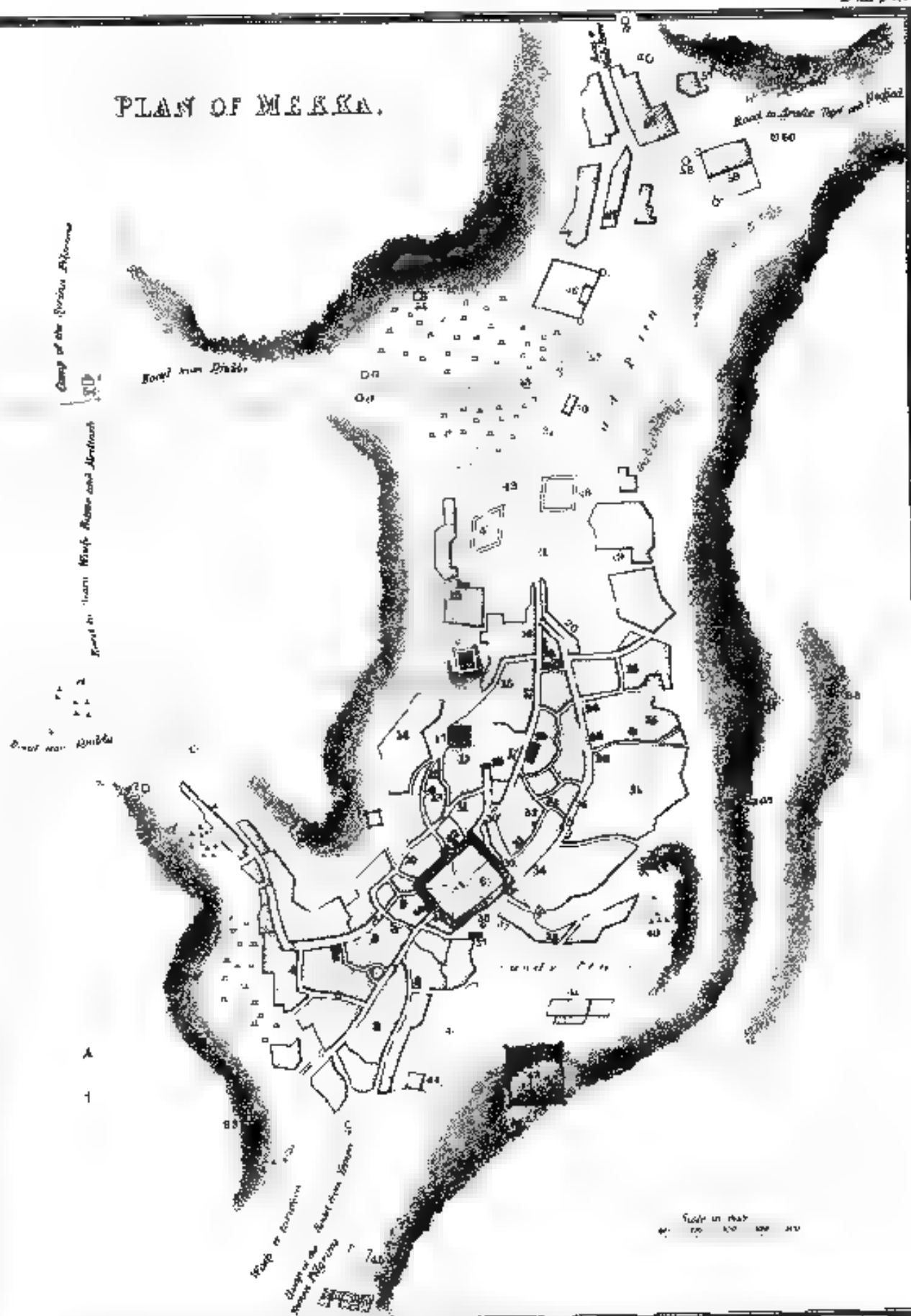
تمت برbare، القاصي وهي زيارة معتادة بمناسبة هذا العيد. وبعد انتهاء اليوم الثالث (الخامس عشر من شهر أيلول/ سبتمبر) انطلقت إلى جدة لإتمام شراء عذّة للسفر بمكر، المحصور عليها هناك بسهولة أكبر منها في مكة وفي طريقي إلى الساحل، كدتُ أصبح سجيناً في البحرة على يد مجموعة من الوهابيين الخارجين عن القانون وقد مددتُ فترة إقامتي في جدة ثلاثة أسابيع إضافية بسبب قديمي المتفرّجين، وهو ذاء واسع الانتشار على هذا الساحل غير الصحي، إذ إن كل لدعة بعوضة تُصبح لجرحاً خطيراً إذا ما أهمل.

عدتُ إلى مكة نحو منتصف شهر تشرين الأول/أكتوبر، وكان يرافقي عبد اشريته كان هذا الصبي في القافلة التي ذهبتُ فيها من بلاد الروح إلى سواقي وقد ذهل جدّ عند رؤي في حانة أرفع مرة وأفضل مما كنتُ فيه حين عرّفي. وأحدثتُ معي حمولة جمل من المؤن أعينها من الطحين واليسكوبيت والريدة، أحضرتها من حدة ثلث الثمن المطلوب في مكة حيث استأخرتُ، مباشرة عند وصولي، سكناً لأنّني في حي من مدينته قليلاً ما يتردد إليه الناس ويُدعى حارة المسفة. وكنتُ أتمتع عمرة هامة من أشجار كبيرة تمت أديم الوفاء، وهي خصرة كانت بالنسبة لي بين الصحور الجرداء استهيه من حرارة الشمس في مكة، أكثر بهجة وعاشاً من أفضل مصر طبيعي في ظل ظروف محتفنة وقد تمتعتُ في هذا المكان بحرية واستقلال أحسّ عليهما لا تتوفر إلا للقاصي وأتباعه الذين لا يشاء أن رحلو وبقي لبشا وحشيتة في الطائف إلى أيام الحج. وقد برّدتُ فقط عني الأحواء الاجتماعية التي تحلوني واحتلّطتُ مع حشد كبير من المحتاج الأحاب قادمين من أصفاء العالم كلها، دون أن أتعزّس للملاحظات وقحة أو تحقيقات مرعجة وكنتُ، إذا ما شئتُ عن أصلي (وهو أمرٌ نادر حدوث في مكان يعجّ دثماً بالعرباء) أرغم أني جندي سابق أحسّ عنه الدهر من حدود الممالك في مصر. وقد كان من السهل عني بحب أولئك الأشخاص الذين هم عني معرفة وطيدة بذلك البلد بما قد يمكنهم من كشف الكدبه لكن لم يكن هناك ما أحشاء حتى من نتائج كدي، لأنّ انحال شخصية مربعة يتكرر باستمرار بين المسافرين الشرقيين كهم خاصة في مكة حيث يتظاهر الجميع بالفقر بعية الهروب من نقلاء الصيوف أو من جرّهم إلى مصاريب كبيرة. ولم أتمتع أبداً خلال رحلاني إلى الشرق كلها بشعور مماثل من براحة ونصائبية كما في مكة. وسأحتفظ دائماً بذكرى مفرحة عن إقامتي هناك، عني الرغم من أن رصعي الصحي لم يسمح لي بالاستفادة من سيرات كده التي قدّمها لي رصعي هناك. وسأبدأ الآن بوصف المدينة وسكانها والحج ومن ثم سأتابع سرد قصة أسفاري

وصف مكة

يُكنى العرب مكة بالعديد من الألقاب الرفعة البرانة. والأكثر شيوعاً هي: «أم القرى»؛ «المشرقة»؛ «البلد الأمين» وقد قام الفيروزأبادي، انكاتب لمشهور لمعجم «انقاموس»، يبحث كامل حول أسماء مكة المختلفة تقع هذه المدينة في وادٍ ضيق ورمل، يتجه بشكل رئيسي من الشمال إلى الجنوب، إلا أنه يميل باتجاه الشمال الغربي قرب الطرف الجنوبي من المدينة. ويتعبر عرصه من عفة إلى سبعمئة خطوة، ويقع الجزء الأساسي من المدينة حيث الوادي أكثر عرضاً. وفي الجزء الأضيّق صفوف منفردة من المدر أو المناجر المنصصة فقط. ويبلغ طول المدينة نفسها نحو ألف وخمسمئة خطوة، من الحي الذي يُدعى الشبيكة إلى طرف «معل»؛ لكن كل متداد الأرض الداحلة ضمن تسمية مكة، من الصحابة المدعوة «جرول» (حيث يقع المدخل من جدة) إلى الصحابة المدعوة «معاودة» (عنى طريق الطائف)، يبعد طولها ثلاثة آلاف وخمسمئة خطوة. ويبلغ ارتفاع الجبل التي تحيط بهذا الوادي (الذي سماه العرب، قبل بناء المدينة، وادي مكة أو بكّة) من اثنتين إلى خمسمئة خطوة، وهي جرداء تماماً وحابة من الأشجار. وتقع السلسلة الرئيسية على الطرف الشرقي من المدينة، ويميل الوادي باعتدال باتجاه الجنوب حيث يقع حي «المسلة» (المكان المحصن). وتصيب مياه الأمطار الآتية من المدينة في الوادي المكشوف نحو جنوب «المسلة» وهو وادي «الطرفين». ويقع الجزء الأكبر من المدينة في الوادي نفسه؛ لكن هناك أيضاً أجزاء منها قد بُنيت على جوانب الجبال، خاصة السلسلة الشرقية حيث تقع المساكن البدائية لقبيلة قريش، وحيث تقع المدينة القديمة.

PLAN OF MEKKA.



شرح مخطط مكة

١ - حي جرول	٢ - حي الباب	٣ - حي شيكة
٤ - الخنجرية (حي)	٥ - حي الحفلة	٦ - منزل الشريف
٧ - حي الدهر سوق الصخرة	٨ - الحي المدعو بالسفلة	٩ - حي باب العمرة
١٠ - حي الشامية	١١ - حي السويقة	١٢ - حي طراوة
١٣ - منزل عائلة جيلاني	١٤ - حي شبه مهدم بمسكنه الفقراء	١٥ - حي ركنه
١٦ - وادي القفا	١٧ - قصر الشريف القرابي	١٨ - حي السليمانية
١٩ - حي شعب عامر	٢٠ - شارع الحدادين	٢١ - حي الملا
٢٢ - مسجد صغير	٢٣ - حي المعانة	٢٤ - حي عره
٢٥ - حي شعب الفرك	٢٦ - حي سوق الليل	٢٧ - حي المدحة
٢٨ - متجران للحفلة	٢٩ - ليرة	٣٠ - الحي
٣١ - حي زقاق الحبر	٣٢ - مولد بنتا فاطمة	٣٣ - قرب الصيبي
٣٤ - حي القشاشيا	٣٥ - حي شعب علي	٣٦ - العبد
٣٧ - منزل الشريف	٣٨ - آثار للمياه المالحة في أجزاء مختلفة من الدهن	٣٩ - حي الجراد
٤٠ - أكواخ بمسكنه عبد الشريف	٤١ - قصر الشريف ويدعى باب السادة	٤٢ - القفا الكبرى
٤٣ - حي مهدم	٤٤ - خان مهدم للحجاج اليمنيين	٤٥ - بركة معين عزان للحجاج اليمنيين
٤٦ - بعض الخلق للزراعة	٤٧ - بركة الشامي	٤٨ - بركة الهري
٤٩ - حفر مروج	٥٠ - منزل بشريف	٥١ - مقام ابن طائب
٥٢ - مركز ماء كبير عليه من مياه القناة	٥٣ - طريق معلقة يؤدي إلى شيخ محسود	٥٤ - شيخ محسود عند موضع تسليم القافلة للمسيرة
٥٥ - قبر شديدة زوجة محمد - مولي لله عليه	٥٦ - قصر كبير للشريف يستعمل كنكنا	٥٧ - ضاحية تدعى دعامه
٥٨ - جبل عام من مياه القناة	٥٩ - منزل صبي للشريف مع حديقة	٦٠ - بحر
٦١ - المسجد الكبير للشيخ بالخرم	٦٢ - منزل القاضي علي بن بالسيح	٦٣ - قبر سيد عجول تاجر كبير، ملحق بالمسجد
٦٤ - مساكن كانت تخص أصلاً مدرسة حكومية، حيث يسكن القضاة القادمون إلى مكة	٦٥ - جبل حدي	٦٦ - الجبل للدهر جبل نعل أو جبل قهقمان
٦٧ - جبل أبو ليس	٦٨ - أعلى قسم جبال مكة وتدعى خدمة	٦٩ - جبل غمر أ - أرواح مراقبة مسندة في أجزاء مختلفة ب - حمامات في أحياء مختلفة ج - مقابر تدعى الأري شيكة والأخرى الملا د - مخيمات صغيرة للبدو هـ - جبل ماء من مياه القناة

بالإمكان تصنيف مكة كمدينة أبقة، فشوارعها عامة أعرض منها في المدن شرقية الأخرى وشارع عالية وقد بُنيت من الحجر، وتصمي عبيد الوفود العديدة التي تطل على الشوارع مطهرًا حيًا وورويًا أكثر منها في مصر وسوريا حيث هناك عدد قليل من الفنادق في المنازل تُصل على الخارج ومكة (كحدة) تحتوي على مارل عديدة ثلاثة طوابق، وابعض منها في مكة قد تمّ سببها بالكس؛ إلا أن لون الحجر رمادي الغائم يُفضّل على الأبيض الساطع الذي يؤدي العين في حدة، وفي معظم المدن في الشرق يساهم صيق شارع في حفاظ على برودة حيث أن مساحة تسمح بمرور جملين محمّلين تكفي في البلاد التي لا تُستعمل فيها المركبات التي تسير على عجلات لكن كان ضروريًا في مكة ترك السيارات فسيحة للرواد الذين يحتشدون ها سويًا كما أن الوفود في مارل المعدة لاستقبال حجاج والمقيمين المؤقتين الآخرين، قد حُطّمت بطريقة تشرف فيها على الشوارع

ولمدينة مفتوحة من كل جانب، لكن الجبال المحيطة، إذ ما تمّ دفاع عنها بشكل ملائم، فإنها بشكل حرجاً صلباً حدة في وجه العدو. كما لمدينة في السابق ثلاثة جدران لحماية أطرها؛ وقد بُنيت واحد منها عبر الوادي عند شارع «المعلاة» وحرر عدد حي «شبكة» وثالث عند الوادي المنح على «المسنة» وقد تمّ ترسيم تلك الجدران سنة ٨١٦ هـ و٨٢٨، وقد بقي آثارها قائمة بعد قرن من الزمن^(١)!

بالمرفق العام الوحيد في قلب المدينة هو المرفق المسج للمسجد الكبير؛ وقد عابت الأشجار والحدائق التي تبهج العين وسرّ الساطرين، ولا يصح لمشهد مفعلاً بحوية وحياة إلا في موسم الحج من خلال العدد الكبير للمتاجر المنيعة بالؤل والتي يجدها في كل حي. ولا تستطيع مكة تنامي بأي صروح عامة باستثناء أربعة أو خمسة منازل كبيرة تحض الشريف ومدرستين وحوت الآن إلى مستودعات للحطة) ومسجد، مع بعض عاني والمدارس المرتبطة به، لهذا ربما هي أكثر نقصاً من أي مدينة شرقية أخرى بالحجم نفسه. ولا نجد هنا الحدائق التي تؤمّن الراحة للمسافرين أو التي تُستعمل لإيداع البضائع والقصور التي تحض الوجهاء ومساجد التي يردان بها كل حي في المدن الأخرى من الشرق. وبالإمكان ربما أن نعزو لنقص في المباني الخلابه إلى السبيل الذي يصمره سكانها للمسجد الحرام، مما يمنعهم من بناء أي صرح يمكن أن يدعي مفاسته.

إن أسلوب بناء هو نفسه معتمد في حدة مع زيادة الفنادق المشرية على الشوارع، منها ما يبرز من الحائط ولها إطار مقوش بإتقان فائق ومنها المصني بطريقة مرحفة وقد عُلقَت أمام

(١) راجع الأزرق والناسي وقطب الدبر

تلك النوافذ ستائر مصنوعة من القصب الرقيق الذي يجمع دحول الدباب والبعوض بينما يسمح بدخول الهواء المنعش ولكل سرل مصطبة (مؤلفة من تركيبة من حجر البكس) مبنية مع انحدار طفيف حتى تنحدر مياه الأمطار عبر مجاري إلى الشارع لأن الأمطار هنا غير منتظمة بدرجة يصبح فيها تجميع تلك المياه في حرات أمراً لا يستحق العناء كما يجري في سوريا وقد حُجبت المصطبات عن الرؤية بحواجر جدارية صغيرة، ففي كل مكان من الشرق يُعتبر ظهور رجل على المصطبة أمراً محزناً ومضراً بالسمعة حيث من المحتمل اتهامه باستراق النظر إلى النساء في المنازل المجاورة المواتي يُخصن معظم وقتهم يعملن على المصطبات في أشغال منزلية مشوعة كتجميع الحطاة وبشر العسيل، الخ. وحدهم الأوروبيون في حلب يتمتعون باستخدام مصطباتهم المبنية عالياً من الحجر بطريقة جميلة، فيخرجون إليها خلال فترات الصيف وحياتاً تناول طعام العشاء والمصاء الليل. لقد تم بناء مارل المكين كلها، باستثناء مارل السكان الأصليين والأكثر عبي، بطريقة تسمح بتأجير غرف منها للزلاء، فقد قُسمت إلى العديد من الشقق المفصلة عن بعضها بعضاً، وكل واحدة مؤلفة من غرفة جنوس ومطبخ صغير.

مد الحجج، الذي بدأ بالاحسار، (حدث ذلك قبل الفتح لوهامي)، وجد العديد من المكين أنفسهم عاجزين عن دفع نفقات الترميم، بعد أن توقفوا عن جني الأرباح عبر تأجير مساكنهم، فألثم الخراب بالعديد من الأبنية في الصواحي، كما تعرض المدينة نفسها، في كل شارع، مارل نتداعى سريعاً لتصبح آنية للسقوط. وقد رأيت واحداً فقط بُني حديثاً، وكان في حي «الشبيكة» ويحضر أحد شرفاء المدينة. وذكر أن كلفته بلغت مائة وخمسين محفظة دراهم؛ وكان من شأن مرل كهذا أن يُبنى في القاهرة بستين محفظة.

إن الشوارع كلها غير معتادة؛ وفي فصل الصيف تصبح لرمال والعيار التي نلقها مرعجة جداً تماماً كالوحش في الموسم ممطرة التي تصبح خلالها الشوارع غير سالكة بعد وابل من المطر. فالمياه داخل المدينة لا تتسرب بل تبقى حتى تجف. بإمكاننا أن نغزو ذلك إلى الأمطار المتلعة والمحزنة التي تنهمر بعف كبير رعم أنها تدوم لمدة أقصر منها في أي بلد استوائي آخر، حتى إذا لا نجد في مكة ياً من لأبنية القديمة. وقد حصص المسجد نفسه للعديد من الترميمات في ظل سلاطين مختلفين، بحيث يكسا تصيغه كبناء عصري حديث كما أنني لا أظن أن أيّاً من البيوت يعود سائده إلى أقدم من أربعة قرون؛ لذلك لا يجب على المسافر أن يبحث في هذا المكان عن مداح مهمة لهندسة أو عن تلك الآثار العائدة للأبنية العربية المسماة كنتك التي نجدها في سوريا ومصر وإسبانيا وبلاد المغرب، حيث إن أصغر المدن الريفية في سوريا ومصر تفوق مكة القديمة والدائعه العبيت في هذا المجال. ويُقال الشيء نفسه عن «المدينة»، كما اعتقد أن مدن اليمن هي أيضاً فقيرة عامة في الآثار الهندسية المعمارية.

تصغر مكة إلى قوانين الشرطة تلك الشائعة في المدن لشرقية. وشوارع مطعمة تمام في الليل، وليس هناك مصابيح مصءة من أي نوع وليس لأحيائها المختلفة أي بوابات كما أنها تختلف في هذا الصدد عن معظم المدن الشرقية التي يتم فيها إغلاق كل حي بعد صلاة العشاء. وهكذا، يمكن عبور المدينة في أي وقت من الليل كما أن الاهتمام والعناية ذاتها لا تولى هنا إلى من لتحار والأرواح فيهم إغلاف الأحياء على حسابهم، كما هي الحال في المدن السورية والمصرية التي يوري مكة مرتبة وأهمية وشأن وتُرْمى أوساح اسرر ومبانيها في الشوارع فتصبح غاراً أو وحلاً حسب الفصل. ويبدو أن العادة نفسها كانت سائدة كدث في الأرمن القديمة، لأنني لم أر في صواحي المدينة أيأ من أكوام السفايات ست التي يجدها عباده قرب المدن التركية الكبرى

فيما يتعلق بالمياه، أهم المورد على الإطلاق والتي تشكل موضوع بحث الأول بين الآسيويين، فإن مدينة مكة لا سرؤد به أفضل بكثير من حدة. وليس هناك سوى عدد قليل من الخردات لتجميع مياه الأمطار كما أن مياه الآبار ماحة قليلاً بحيث إنها تستعمل فقط لأغراض مطححة إلا في موسم الحج حيث تشربها الطبقة لدنيا من الحجاج إن شر مرم الشهيرة، في المسجد الكبير، هي بالفعل بر عريرة كما يكفي لتزويد المدينة بكميتها بالمياه؛ لكنها رغم قداسها، تقينه انظعم ويعيق عميق الهضم. وفوق ذلك، تجمع الطبقات الأكثر فقراً من ملء قرباتهم منها بقدر ما يحلو لهم ويتم إحصر أفضل نوع من المياه في مكة عرقاة من منطقة عروب وهي تبعد مسافة ست أو سبع ساعات وبدل أن تقوم الحكومة الحالية بإشء هكذا مشاريع فإنها تهمل حتى القيم بالتصليحات والتضخيمات الضرورية لهذه نقدة والقة مسية بالكامل من الحجر وقد غطيت تلك الأجرء منها كلها التي تظهر فوق الأرض بطبقة سميكة من الحجر (الاسمب) وقد سمعت أنه لم يتم تطبيقها خلال الخمسين سنة الماضية؛ وسيحه لها، لإهمال تصيغ معظم كمية المياه في مرورها عبر التفتحات والمائد في طريقها إلى المدينة، أو شق طريقها ببطء عبر الترشبات البعيفة. رغم أنها سصب في تدفق قوى عند بداية القدة عند عرفت كما أن الكمية التي يؤمها في الأوقات العادية لا تكاد تكفي لاستعمال السكان، ويصبح المياه بعدة خلال موسم الحج نادرة كيباً، فتباع حبها فربة الماء لصغيرة (بمكان الشخص أن يحصل اثنين منها) بشل و حد وهو سعر مرتفع جداً بين العرب

هناك مكانان داخل مكة حيث تجري القاة فوق لأرض، تُطلق المياه داخل قنوات أو بواوير، وقد تمركز عندها عبد الشريف ليترعو منها صربيه من الأشخاص الذين يطلبون الماء تحيط بتلك البواوير في موسم الحج حشواً بالناس ليلاً نهاراً وتنعرا وتشتاجر للوصول إلى الماء

وخلال الحصار الأخير، قطع الوهابيون مخزون المياه من القناة؛ ولم يتم إصلاح هذا الضرر الذي لحق بهذه المنشأة إلى مدة قريبة.

ويتحدث مؤرخون العرب بالتفصيل عن تاريخ هذه القناة التي كلمت جهوداً عظيمة بانه. كاتب «ريادة»، روجة هارون الرشيد، أول من قام بحر اليبوع الذي يُدعى «عين النعمان» من مصدره في جبل قرى إلى المدينة. وقد تم بعد ذلك جرّ اليبوع المسمى «عين عُرف» من سفح جبل «شامح» إلى شمال جبل قرى الذي يروي الوادي الخصب المسمى «وادي حنين»، يلتقي عين نعمان؛ ثم تم أخيراً إضافة أربعة مصادر أخرى إلى القناة وهي: «البرود» و«رعمران» و«محمون» و«عين مشاش». لكن يبدو أنها أُعيقَت فيما بعد؛ لكن ملك أرييلا Arbaa كوكبوري قام بإصلاحها سنة ٦٤٣هـ، وسنة ٧٦٢هـ بأمر من السلطان السيد خدابنده؛ ومرة ثالثة سنة ٨١١هـ، لكن ليس بالكامل، بأمر من الشريف حسن بن عثمان الذي كان يحكم حينها. وقد صرف سلطان مصر قايتي Kaabey مبعأ كبيراً عليها سنة ٨٧٩هـ، وسنة ٩١٦هـ ساهم في إصلاحها قاصوه العوري أحد آخر ملوك مصر الشركس؛ إلا أن القناة كانت تُعاق أحياناً وكلما حدث ذلك، كان الحجاج والكنيون يتعرضون حرمان عظيم الشأن. سنة ٩٣١هـ، حاول السلطان سليمان إعادة بنائها مجدداً إلا أن التصميم لم يكتمل وأخيراً، قام بحله سليم بن سليمان أو سليم الثاني، بعد سنوات عديدة من العمل وتكاليف باهظة، بشق ممر عبر الصحور خلف عرفات. فشكن مجرى جديداً من راس باقياً وحده الآن وقد نجح في جر المياه إلى المدينة بمرارة سنة ٩٧٩هـ. ويبلغ طول القناة كله مسافة سبع أو ثمان ساعات

هناك يبيع صبيح ينسرب من تحت الصحور وراء قصر الشريف الكبير الذي يُدعى بيت السعد يُقال إنه يؤمن أفضل مياه في هذه البلاد إلا أن الكمية ضئيلة جداً، وقد طوّق هذا اليبوع وتملكته عائلة الشريف بالكامل

يقوم المسؤولون والحجاج العُمر أو العور أحياناً بوسل انارة شراء جرعة من الماء العذب وهم يحيطون خاصة بمنصات المياه التي تراها في كل زاوية وحيث يمكن الحصول على المياه ما يملأ جرّة لقاء بارتين في موسم الحج، زيارة واحدة في الأوقات الأخرى.

سأتابع الآن وصف الأحياء المختلفة في مكة محتفظاً بوصف المسجد الكبير إلى النهاية، سأضيف بعدها بعض الملاحظات فيما يتعلق بالسكك والحكومة

أحياء مكة

يرى المسافر عند مدخل المدينة، من جانب جدة، وعند الالتفاف حول راوية وادي رملي، بُرُحي مراقبة مستديري الشكل قد بنهما الشريف غالب للدفاع عن عاصمته. كما يرى أبراجاً مماثلة عند مدخل المدينة الأخرى وهي فسيحة عاكفة لاحتواء نحو عشرين رجلاً وتُشرف هذه الأبراج على الممر إلى التل فتتربحداً من بعضها بعضاً عند مدخل المدينة. ويبدو أنه كان هناك بركة سم يبق منها سوى العسة، وهي قرية من مبي صغير حيث يجمع صابط الشريف الضرائب على السلع، الحج التي تُنقل إلى المدينة. وها أيضاً يرى صفاً من المتاجر والمساكن القليلة الارتفاع وهي مهدمة وتُعرف باسم «حارة» أو «حي الحرول» ويحتوي على محب إلى اليمن يعيش فيه البدو الذين يديرون نخرة النخل بين مكة وجدة وهم من قائل حرب وانطروفي والهاوي.

حرف حرول، يتغير اسم الشارع ليصبح «حارة الباب» وهو شارع فسيح مع مارل عدة حيدة وهو يؤدي إلى حي الشبيكة الذي يمتد نحو اثنين بشكل رئيسي، وهو يدعى كذلك لأن أتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - قد هوجموا هـ، في حربهم ضد قريش، وصبى عليهم أعدائهم الحنق جداً. وهناك العديد من مارل الجيدة في شبيكة وهو أحد أطف الأحياء في المدينة وأجودها تهوية ويقيم الكثير من أهل جدة هـ كما يملك الشريف غالب مرلاً هـ أيضاً حيث ستمرت بالعيش فيه، بعد حنعه، عائته المؤلفة من عدة أولاد صغار وابنة راشدة وتمتد المقاهي على طول الطريق التي يطن منها البريد كل مساء، على صهور اخمير، حاملاً الرسائل إلى جدة. وهذه هي حنمه نقل لرسائل الوحيدة التي رأيتها في الشرق إلى جانب ذلك البريد الذي أتته لأوروبيون في القاهرة، بين تلك المدينة والإسكندرية، لأن عملية تسليم الرسائل هي أقل انتظاماً منها في مكة حيث يتم في حنه وكما سعي وبكلفة

صغيرة تدعى بارتين لكل رسالة، ويتقاضى الشخص الذي يوزع الرسائل لآتية من جدة أكثر من ذلك لقاء توزيعها.

يعيش في المقاهي المذكورة أنفاً مماسرة القوافل، ومن خلال وساطة هؤلاء يقوم البدو بتأجير جمالهم للقيام بالسفر إلى جدة و«المدينة».

في الجانب الغربي من «شبيكة»، باتجاه الجبل، تقع مقبرة كبيرة تتأثر فيها أكواخ البدو وحيمهم وبعض المساكن البائسة التي تعود إلى الطبقة الدنيا من ساء الهوى وتدعى الخدرية وعلى الرغم من أن العرب يقول إن عدداً كبيراً من أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - وشيعته قد دفنوا ههنا، فقد بات أمراً غير رائع دهر أبيت فيها وتستحدم كل من الطبقتين الأولى والثانية من البكيين الفقيرة الواسعة التي تقع شمال المدينة. وهناك عدد قليل من المتاجر في «شبيكة»، ولا تحتوي على العديد من الرءاء الأجانب خلال موسم الحج حيث يسكنها الأشخاص المسورون الذين يعتبرون تأجير الشقق أمراً شامياً

عد متابعة طريق من «شبيكة»، على طول الشارع العريض، باتجاه الشمال، يصل إلى حمام أقل شأن من أمثاله في المدن الآسيوية الأخرى على الرغم من أنه يتفوق على الثلاثة الأخرى في مكة، وذلك لسيرة المياه؛ وقد بُني سنة ٩٨٠ هـ بأمر من محمد باشا. وزير السليمان سيمان الثاني، ويُعتبر من أفضل الأبنية في المدينة^(١) ويرتاده بشكل أساسي الأجانب، لأن العرب الأصليين لم يعتادوا استعمال الحمام العام ويحتارون إتمام الوضوء المفروض في دينهم في متارلهم الخاصة.

إن الحمام، فضلاً عن عدة شوارع أخرى فرعية تؤدي إلى المسجد، يشكل الحي المدعو «حارة باب العمرة» الذي يسكنه عدد من المرشدين أو اطّوبين كما يعجّ بالحجاج خاصة أولئك القادمين من تركيا والشوارع صيقة وفدرة بشكل مالمع فيه؛ لكن الحجاج يعصّلون ههنا الحي لأنه الأرخص في المنطقة المجاورة للمسجد الذي يتوقون إلى الإقامة بقربه حتى يأكّدوا من عدم تفويت الصلوات؛ أو كما يقولون، فإن المسجد يندّد أحلامهم المرعجة في أثناء نومهم. مشهد الرجال في منتصف الليل يعدون نحو المسجد بلباس النوم، وهما يظفون حول الكعبة ويلشون الحمر الأسود ويتلون أدعية قصيرة ويشربون من ماء زمزم ثم يعودون إلى فراشهم. ويقع مبنى مسيح قرب بوابة المسجد التي تدعى «باب العمرة» والتي يأخذ الحي اسمه منها وكان أصلاً مدرسة حكومية لكن يشعلها الآن حسن باشا، حاكم مكة وهي ربما المدرسة التي ذكرها الفسفي والتي بُنيت قرب باب العمرة سنة ٨١٤ هـ بأمر من «مصور غيث الدين أعظم شاه»

(١) انظر قطب الدين

سيد السعال. وأمّر كذلك حاكم عدن، سنة ٥١٩هـ ببناء مدرسة في الجوار كانت تدعى دار لسلسلة. وهناك أيضاً في هذا الحي إحدى بواقي أو سُبل المياه العذبة الآتية من القناة فضلاً عن عدة آبار للمياه المالحة.

بالمدينة إلى «شبكة» ومن ثم الالتفاف جنوباً في شوارع محتففة مؤلفة من أسنة جيدة لكنها متداعية، نزلاً في محلات حميف إلى شارع يُدعى «سوق صغير» وينتهي عند بوابة المسجد الكبير «باب إبراهيم» كما أن أسوار على جانبي الطريق هذه قليلة الارتفاع وتقطعها لطيفات الدب وهناك صف متواصل من المتاجر التي تُباع فيها أنواع الموز كلها، وخاصة الخبوز والزبد والبلح ويُباع في بعض المتاجر خشب الخروب حسب اللون ويرتاد السوق عادة بدو الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة، الذين يأتون بالفحم لسائلي ويتحد أيضاً بعض الخجاج الروح العقراء الإفريقيون مسكنهم في الأكواخ النبالة والشارل المهدمة في هذا الجزء من المدينة، وقد أسسوا هنا سوقاً عظمى الوفود الذي يجمعونه من الحي المحطة

يُدعى صرف «السوق الصغير» باتجاه جبل، حارة حجة أو حجة بالثنية صادق حيث هناك بعض المنازل المبنية بشكل مقبوض ويقطعها محصنات الذين يحرسون المسجد وروحانهم فهم كلهم متروكون من جور رجبيات هذا هو الجزء الأدنى من المدينة، وكلما عمرت الميصبات الكبيرة الوادي خلال فصل المطر، يجري المياه عبر هذا الشارع في طريقها إلى السهل الخارجي كما أن بعض بقايا القدة ظاهرة للعيان هنا، وهي انقراض التي كانت صناديق حيدة كانت ماعها ترزء المدينة ثم توجّه في هذا الاتجاه إلى الوادي الجنوبي حيث تُستعمل لري بعض الحقول

ويدخل السوق الصغير أحدًا من حارة «مسفة» و«مسفة» هو اسم الحي الذي يقع على الجهتين الشرقية والجنوبية من السوق؛ إلا أن هذا الاسم يُطلق أكثر على وجه الحصر، على المنطقة الأخيرة وقد تمّ بناء «مسفة» حدةً وبشكل مقبوض وهو يحتوي مثل «شبكة» على بعض أسوار الجديدة؛ لكن الجزء الذي يقع باتجاه تلة القلعة الكبرى هو الآن في حالة حراب تامة تقريباً. ويسكنه أسفار العرب والبدو الذين يسافرون في زمن لسم إلى ليس وخصوصاً إلى «مخوع» حيث يستوردون الخبوز، وحب النخل واللحم المجفف وهو أيضاً محل إقامة العديد من اليهود الفقراء الذين يستقروا في مكة؛ يؤجر هؤلاء منازلهم إلى مواطنيهم الذين يروون هذه المدينة وقت الخبز وفي المدارس المتداعية، يتحد الخجاج الروح مسكناً مؤقتاً لهم وقد استقر بعضهم في مكة وتحضر روجاتهم الشراب المسكر لمصوغ من الدرة ويُدعى «درة» الذي أولع به السكان الوصحون وقد اتحدت مسكناً في «مسفة» كما سبق وذكرنا، عند

عودتي من جدة، وكان ذلك في البدء في منزل مستوطن معربي انتقلت منه بعد ذلك إلى منزل تاجر يسمي محاور. وكان الشخص الذي استأجرت منه المنزل من صنعاء في اليمن، ويعمل مطوّفاً أو مرشداً، وكان يشغل الطابق الأول من المنزل وقد انتقل منه خلال إقامتي إلى رابطة في الطابق الأرضي، وكان يشغل الأجزاء الأخرى من المسكن صاحب المثلث المعربي وعائشه وشيخ قرية من مصر كان قد أتى إلى الحج يرفقه عدة فلاحين، ورجل فقير من بلاد الأحواز أو منطقة السلیمانية كما تُدعى عادة الآن، وحاح من الجبل اليونانية وقد وجدت نفسي في منزل التاجر اليمني بين مجموعة من الحجاج المعريين الذين ينتمون إلى شعب البربر أو الشبلحي Shilhy وقد أتوا عبر البحر إلى مصر. وقليلة هي المنازل في هذا الجزء من المدينة التي لا يلتقي فيها مثل هذا المريح العريب من الشعوب.

في الطرف الجنوبي من «مسئلة» هناك حان كبير مهتم وهو، حتى عندما كان جديداً، كان حتماً مسمى وصيغاً، عرصه إسكان قاعة الحجاج التي كانت تصل في السابق عبر البر من البحر، على طول الساحل، وكان ثمة قافلة أخرى تأتي بمحاذاة الجبال.

عند الخروج من المدينة من هذا الجانب، يكتشف برج مراقبة في السهل مشابهاً في بائه للأبراج عند مدخل جروب من هذا جنوباً، يؤدي وادٍ عريض إلى القرية الصغيرة المدعوة «حسبية» وبعد مسافة ساعتين أو ثلاث ساعات، وفيها بعض أشجار الحيل كما كان للشريف غالب هذا حديقة صغيرة ومنزل ريفي وضع فيه قطع حواميس أحصره من مصر، لكنه لم يحقق نجاحاً يذكر. وهناك طريق، من حسبية، يؤدي إلى عروت وتمر من الجنوب والجنوب الشرقي من مكة. وعلى تلك الطريق، على مسافة ساعتين أو ثلاث ساعات، يقع الوادي الخصيب الصغير ومستوطنة «عابديه» العربية ويُدعى الوادي المذكور هنا «الضرفين»؛ وحلف صواحي المدينة الحالية يمكن رؤية أنقاض مساكن سابقة وبها عدة حرائات كبيرة وعميقة ومتقنة البناء حيث يتبشر إعادة بنائها وتأهيلها مجدداً، بقليل من العمل والجهد، لتؤدي عرصها الأساسي وهو تجمع مياه الأمطار. وهناك بركة ححرية كبيرة على بعد ميل ونصف الميل من المدينة تدعى بركة «ماجن»، أعدت لتؤمن المياه للقافة اليمنية فيها قليلاً من الماء لكنها تتدعى بسرعة. يزرع أهل «مسفة» وراء هذه البركة بعض حقول الخبز والخضراوات المختلفة مباشرة بعد سقوط الأمطار بعد أن تكون الأرض قد رويت بحرارة كما هناك عدة أكواخ وحيم بدو قائل «فحاجم» والجهادلة وقد انتشرت فوق هذا الوادي، حيث يكسب السكان رزقهم من تجميع الخشب والأعشاب البرية في الجبال لبيعوها حين تجف في سوق مكة وقد لُفت في رزم، وهي تُستعمل لإطعام الجياد والجمال والحمر، لكنها قليلة وعالية الثمن بحيث إن إطعام الحصان في اليوم يكلف ليرتين أو ثلاثاً. كما يرتي هؤلاء اسدو بعض الخراف؛ إلا أنهم يبيرون

أنفسهم عن طبقات المكين الذين تمتعون عن نقيدهم في التسوُّل على أرفعهم من فقرهم كما يعمل بعضهم كناقلي مياه في المدينة.

قبل العروا بوهاني كان هناك ميسى صغير مع به، شَيْد نكرياً لغمر، أحد حلفاء محمد - صلى الله عليه وسلم - مشيرين، ويُدعى بالتالي «مقدم سيد عمره، على قمة السلسلة بحرية لوادي الطرفين، تماماً مقابل «مسئلة»، وقد دُمِّر بوهانيون كثيراً.

يقع القلعة الكبرى، قريباً منه، على قمة الجبل الموحه، وهي بقاء كبير جداً وصحح تحيط به حدران سبكية وأبراج صلبة وهو يشرف على الجزء الأكبر من المدينة لكن تُشرف عليه عدة قمم أعلى منه وقد سمعت أن هذا الساء يعود ساؤه إلى الشريف سرور، سَفْ غالب؛ بكى أعتقد أنه يعود إلى تاريخ أبعد بكثير وقد ذكره العصمي (Asamy) في تاريخه أحياناً، باكراً في القرن الرابع عشر، لكنه لا يذكر من شَيْده. ولا يحق لأي كان الدحول دون إذن من حاكم مكة، وبكى سم أر من الحكمة - أو مما يستحق لعناء - أن أتقدم مثل هذا الطلب. وقد قام غالب بتقوية هذا المبنى وتدعيمه بشكل هم كما أصلحه بشكل كامل، ونصب عليه مدفعيه ثقيلة. ويُقال إنه جعل محاربه الأساسية مصادرة للقنابل، وهو يحوي على خزانات كبيرة وجامع صغير، وإمكانات احتواء حامية مؤلفة من ألف رجل (هو، بالنسبة إلى العرب نعمة أو حصص مبيع، كدست يعتبره المكتوب، وحتى صد الأوروبيين فهو يؤمن بعض المقاومة. ويتم التقده منه غير ممر ضيق وشديد الانحدار.

تحت تلة لقلعة، على سهل صغير بين الجبل وحبل قيس، يقع قصر الشريف الحاكم ويُدعى «بيت السعد» ويقال أيضاً أن الشريف سرور قد قام بسائه غير أنني أحده مذكوراً عند العصمي (Asamy) في وصف الممتلكات لشحرية، التي حصلت من مائتي عام وحدراته كثيرة لارتفاع والصلابة ويبدو أنها بُيت كتحصينات خارجية للقصر فوقها الذي يربطها به وصية اتصال تحت سطح الأرض، كما يرغم المكيون وهو عبارة عن مبنى صحبه وغير منتظم يشتمل على ساحات فسيحة وعرف مطلقة لم تُسكن منذ أن قام الشريف غالب بالفرار من العدو إلى جدة، فحاول حينها تدبيره بالبار إلا أنه كان صلب الشيء جداً وفام الأترك في ظل محمد علي بتحويله إلى محرو لندرة وقد وجدت في السهل المحادي، الذي كان سابقاً مكاناً للتدريب حدود لشريف، قطيع جمال إلى جنبه حيم سائقوه الذين يقومون برحلة أسبوعية إلى حدة أو الصائف. ويجد أيضاً العديد من الحجاج الفقراء الذين يعبرون عن دفع أجره المسافر، وقد نصبوا حيمهم لبائسة المؤلفة من بضعة أسمال بانيه مشررة على عياد. وكان لجنود مهمكين في تدمير السقوف المتبقية في القصر كنفا طلباً لخطب الوفود.

هذه أكواخ محمضة مبنية من الأحمة في مدخل صيق في الجبل، إلى لشمال من القصر

بمحاده السهل المذكور أعلاه، وقد كانت في السابق مساكن لعبد الشريف غالب الذين كانوا جنوداً في حرسه. وقد لاد الجزء الأكبر منهم بالفرار بعد انقصر على الشريف وتشكل الأكوام الآن تكتات لسحو مائتي جندي عربي، يعملون في خدمته حلقة الشريف يحيى.

بالاعتاف من هذا باتجاه المسجد، وفي الجهة اليمنى، يصل إلى حي صغير يُسمى على محدر لجبل رمية العديد من المنازل شبه المتداعية ويُدعى «حارة الجياد»، يسكن فيه الفقراء والعديد من خدم أسرة الشريف. ويقول العصمي (Asamy) إنه يشتق اسمه من كونه المركز الذي كان يشعله انفرسول الذين يصططحيون «تُبع» منك اليس في حملاته على مكة، وهو حدث مشهور بين الكتاب المسلمين بسبب معجزة إهلاك الجيش، وهو حتماً أحد أقدم الأحياء في المدينة.

قريباً من المسجد، في كل من حواش اندخل إلى السهل المذكور أعلاه، يقع قصر يعود لشريف الجزء الشمالي منه عبارة عن منزلين محميين متصلين ببعضهما وبشعلهما الشريف يحيى، وتُقيم بساؤه في المسمى الجنوبي المقاس الذي شيدته الشريف غالب الذي كان يُحضي معظم رفته في هذا المسكن المفصل بديه حيث يستقبله موقعه المجاور للمسجد وموقعه المركزي والمساحة الواسعة المكشوفة التي تُشرف عليها.

ومتابعة السير في هذا المكان بالاتجاه الشمالي الموازي للمسجد، ندخل الشارع الطويل الذي يُدعى «المسمى»، وقد تم وصف الشوارع الفرعية إلى اليمين، ونحن نقرب من «المسمى» من ناحية حي الصفا الذي يأخذ اسمه من المكان المقدس «الصفا» أما المنازل المحيطة بهذا المكان فهي صاب لائقة وحديثة، حيث يتحد الأعياء مساكنهم في موسم الحج ويقطرون اعا المحصين الذين يعملون في المسجد هنا في مرز كبير، معاً هو والصبية لمحصين الذين ترعرعوا هنا إلى أن وصلوا إلى سن كافية تسمح بالعش في مسكن خاصة.

سنسير الآن إلى المسمى، وهو الشارع الأكثر استقامة وطولاً في مكة وأحد الشوارع المتقنة البناء وقد تنقّى اسمه من شعيرة «المسمى» التي تؤدي فيه والتي سبق أن وصفتها. لهذا السبب، ولأنه يعرض بالتاجر، فإنه الشارع الأكثر صحيحاً وارتيداً في المدينة. كما أن للمناجر امواصفات نفسها كذلك التي عدتها في وصف جدة، فضلاً عن اثني عشر رجلاً ممن يصنعون رجاجات القصدير أو الصفيح من كل القياسات، وهي التي يحمل فيها الحجاج ماء زمزم عند عودتهم إلى الديار. والمتاجر هي عامة محارر في الطابق الأرضي من المنازل وقد أقيم أمامها مقعد حجري يجلس عليه التجار في ظل ظل من الحصى، شُدت إلى أعمدة طويلة وتسد هذه العادة في كل جزء من المحاجر. يستأجر الحجاج الأتراك المنازل كلها في «مسمى». وعند

وصور مجموعة من الحجاج من حدة، وهذا ما يحدث كل صباح تقريباً لأربعة أو خمسة أشهر من السنة، تؤذع حقائقهم في هذا الشارع عادة فيقومون بعده بزيارة المسجد ثم يذهبون في طلب المساكين وهكذا، فقد وجدت الشارع مكتظ كل يوم تقريباً بانوافيد من الحجاج والمرشدين ومروّجي الأخبار.

في أثناء إقامتي في مكة، بدا «مسي» كسوق قسطنطينية، حيث كان يدير العديد من المتاجر أتراء من أوروبا وآسيا الصغرى يبيعون فيها أنواعاً متعددة من لأرباء التركية كانت سابقاً تحصى حجاجاً متوفين أو أولئك الذين باعوا ملاسهم لاقتدرهم إلى مال، كما كانت تُعرض للبيع «سمرار سيوف مُنقّاة الصنع وساعات إكليرية عالية النوعية وبسحات حمينة من لقران، وهي أثمن حاحات ثلاثة يمكن وجودها في حقبة حاح تركي. وكان طهارة المعصبات المسططينيون «لأراك» يبيعون هنا المطائر والتمني في الصباح، ولحم الصنّ المشوي أو الكباب بعد الظهر، وفي مساء، يبيعون نوعاً من الهلام يُدعى «مُهسته».

وها أيضاً مفاد عديدة تكتظ بناس من ساعة الثالثة صباحاً حتى الحادية عشر ليلاً وربما يفاحاً نقارىء إذ ما عثم أن المشروبات المسكرة كانت تُباع عند حلال الليل في متجريت ثمين، وليس في النهار^(١). يُحصّر الشراب من الربب الحضر، وعم أنه عادة يمزج بكمية غير قليلة من الماء، لأنه يبقى قوياً إلى درجة أن بعض الكؤوس منه تؤدي إلى الشكر ولاخر هو نوع من «السورة»، وهو ممزوج بالتوبل ويُدعى الصوبية Solbye وهذا لشراب معروف في القاهرة (رغم أنه لا يُعد بهذه القوة).

و«مسي» مكان للعقب، فهناك يُقتل المذنبون المحكومون بالإعدام وحلال إقامتي، ضرب عنق رجل بحكم من القاضي لأنه سرق من حاح تركي صنع مائتي جنيه استرليني^(٢)، وكانت هذه العقوبة الوحيدة من نوعها التي علمتُ بها، رغم أن النصوص يوجدون بكثرة في مكة بينما يسمر الحج مع ذلك، فإن تاريخ مكة يرحر بالمحاكمات التي ينتج عنها أقطع أنواع لعقوبات فمثلاً، تم سنة ١٦٢٤م سلخ جند لخبين وهم أحياء، في هذا الشارع؛ وفي سنة ٦٢٩ م، تم ثقب دراعي وكتفي قائد عسكري من اليمن كان قد سحنه الشريف الحاكم، ثقفوا في مواضع عدة وأُصعب شموع مُصعدة على الخروح، كما قُلب إحدى رجليه إلى أعلى وشُدّت إلى كتفه بواسطة حُطّاف حديدي وعلّقت في هذه الرصعية على شجرة ليومين في

(١) يكثر المؤلف من مثل هذه الإشارات الموضحة في ثنايا الكتاب

(٢) لا يضرب حتى السارق، وإنما قد تقطع يده فكلّام الكاتب ادعاء كاذب.

«المعلا»، حتى لا يفتى حتمه ولكن يبدو أن عقوبة سجن العبيد - وهي شائعة في أحرار أخرى من الشرق - لم تُطبق أبداً من قبل حكام المحاز.

يقع مبنى لائق وحميل في «المسعى»، وهو تابع للمسجد، وقد بُني سنة ١٨٨٢هـ، على يد كابد بك، سلطان مصر، وأُسس فيه مدرسة حكومية كبيرة تحتوي على اثنين وسعين شقة مختلفة، كما رؤده بمكتبة قيمه. ويتذمر المؤرخ قطب الدين، الذي كان قِيماً على هذه المكتبة، بعد مئة عام من ذلك، من أنه لم يبقَ من ربه إلا ثلاثمائة كتاب، حيث سرق الباقي القاسدون من سبقوه في منصبه.

وعند الطرف الشمالي من «المسعى» يقع المكان المدعو «مرورة» وهو نقطة انتهاء «السعي» كما تم وصفه سابقاً. وقد تمَّ تشييد هذا المكان، كما هو الآن، سنة ١٨٠١هـ، ويبدو خلقه سرل الذي كان المسكن الأساسي للعباس، أحد أعمام محمد - صلى الله عليه وسلم - الكثير. وتقع دكاكين الحلالين بالقرب من «المرورة» حيث يعتمد فيها الحجاج إلى حق رؤوسهم بعد أدائهم شعيرة «السعي». كما تُقام هنا أيضاً المراتب العلوية كل صباح، فتعرض الملابس والسلع من جميع الأنواع وتُقدم إلى المرشد الذي قدّم أعنى ثمر، وتُستعمل اللعبة التركية من أجل الحجاج الأتراك في هذه المسامات؛ وبالتالي فإنه نادراً ما يكون هناك صبي في مكة ليس على إمام بها، أو بالأرقام التركية منها على الأقل. وهناك سبيل ماء أيضاً بالقرب من هذا المكان وهو سبيل عام يساهم الخليفة العثماني سليمان بن سليم، تُرؤده بالماء قاة مكة، فيعصر بالحجاج طوال النهار وقد أتوا لملء قرباتهم.

إلى الشرق من «المسعى»، عند «المرورة» على الطرف، يعرّض شارع يُدعى «سويقه»، أو السوق الصغير، الذي يقع بموازة الجهة الشرقية للمسجد تقريباً وهو اشوارع الأكثر نظافة في المدينة رغم صيقه، حيث يتم تنظيفه باستمرار وتُرش بالماء، وهي ليست الحال في أي من اشوارع الأخرى ويعرض هنا التجار اليهود سلعهم للبيع وشالات الكشمير الجميلة والموسمين؛ وهناك ما يقرب العشرين متحراً حيث تُباع العطورات والريث الحلو ولبس مكة المعشوش وحشيش الألو أو الصبر والبراد. وهو من أنواع الطيوب، الخ. وقليل من الحجاج فقط يعودون إلى بلادهم دون أن يحملوا معهم بعض الهدايا إلى عائلاتهم وأصدقائهم وتكون عادة عبارة عن سحاحات وعطورات ويسمى مكة وحشيش الألو الذي يُستعمل في الشرق كله في قطع صبرة توضع فوق التبغ المشتعل في العليون فتعطي رائحة طيبة

تُباع في متجر أخرى عقود المرجان واللؤلؤ المريف والشبهات المصنوعة من حشيش الألو أو الصندل أو القمصن والعقود الالامعة المصنوعة من العقيق الأحمر والعقيق المعدّ بالأحجار وشكليه

مجموعة من الألبسة الصيفية. ويدير تلك انتاخر كلها ليهود وسعهم كلها صناعة هدية لإنتاج هدي وهناك تحامل كبير على هؤلاء اليهود في شبه الجزيرة العربية وذلك من جزاء فكرة عامة تقول بهم ونسبون لا يُطعمون الشعائر الإسلامية أو يُضيقون بها إلا ظاهرياً فقط؛ ويفترض أنهم من المذهب الإسماعيلي، أولئك، لأتبع العامصون الذين قدموا وصفاً عنهم في رحلتي إلى لبنان^(١) والذين ينطبق اسمهم على أولئك اليهود في مكة ويقوم هذا نحو اثني عشر منهم ويصل الآخرون سوياً إلى الحج ويشترون الذهب القديم والعصاة ويعيدونها إلى سوررات Surat التي يأتي منها معظمهم. وقد عاش بعضهم في مكة مدة عشر سنوات كانوا يؤدّون خلالها كل شعيرة دينية وبشكل دقيق ويستأخرون مراً كبيراً يعيشون فيه سوياً ولا يسمحون أبداً لأي غريب بالسكن في أي جزء منه حتى ولو كنت العديد من شفق غير مؤجرة وبشكل ناقص لممارسات كل مسلمين الآخرين، فإن هؤلاء اليهود لا يصطحبون أبداً ساءهم إلى الحج رغم أنهم قادرون جداً على تحمل نفقاتهم وهم يُعرفون أن أحد من أقام في مكة قد تزوج هناك، مهما كانت المدة طويلة، وهو أمر منصوص جداً حيث أن المتحدثين الآخرين من أهل الهند الذين يعيشون هنا لأي فترة من الزمن عادة ما يتزوجون بالرغم من أنهم قد يكونون متزوجين في بلادهم

وتسود بينهم هذه الروايات التي تُروى عن الإسماعيليين السوريين الذين أرجع الفارسي لهم في روايتي «رحلتي إلى سوريا ولأرض مقدسة» وقد بدأت بالعمل جهودي الخفيفة التي كانت تهدف إلى جمع معلومات صحيحة وموثوقة عن عقائدهم السرية، فلم تُعط أي نتيجة لها تماماً كما حصل في سوريا حيث دُكر بشكل مُهم أن مركز الإسماعيليين الرئيسي كان في الهند وأنهم كانوا يحافظون على ترأسل مستظم بين تلك البلاد وسوريا. كما يُقال أن مذهباً يُدعى «محمدي الصوء» موجود في الهند وكذلك في بلاد ما بين النهرين قد ينتمي إليهم ربما إسماعيليو سوريا ومكة. وأولئك الذين رأيتهم في مكة لديهم بالأحرى قسائم فارسية أكثر منها هندية وهم جال أطول قامة وأشد قوّة وبينة من اليهود بشكل عام^(٢)

وسط «أسواقه» تقريباً، حيث يمتع عرض الشارع أربع خطوات فقط، هناك مقاعد حجرية على كلا الجانبين ويُعرض لها العيب. الأثريون من الرجال والنساء للبيع. بما أن الجمل هو عنصر جذاب عام وشمس، يحيط بتلك المقاعد دائماً الحجاج المستوف والشباب الذين يدعون

(١) راجع «رحلتي في سوريا» الح

(٢) الأشخاص الذين يذكرهم هنا كانوا هم ربما يصر البازسين من سوررات أو بومباي

(البازسي. زوداشتي متحدث من اللاجئين الفرس المقيمين في بومباي وغيرها)

عالباً أنهم يسامون الخسعين، وذلك بعية رؤية الجاريات لبضع لحظات في مقصورة مجاورة. وتُقل العديد من الجاريات من هنا إلى المناطق الشمالية من تركيا وكان سعر أجملهن يتراوح بين مئة وعشرة إلى مئة وعشرين دولاراً.

عند طرف «السويقة» غطي الشارع بسقف حجري مرتفع ومضطر وقد دُعم من كل جانب بعدة مباد ضخمة تستعمل كمخازن للتجار الأعياء، وقد بنى هذه محمد، باشا دمشق، ندي عاش منذ عدة قرون مضت وهي الآن تابعة للمسجد. وتما أن هذه النقرة هي الأبرد في المدينة خلال فترة الطهيرة فهي بالتالي أكثر البقع ارتياداً. يأخذ الحجاج النبلاء كلهم في «السويقة» استراحتهم الصباحية والمسائية ويدحون عيوبهم. وقد تعرفت إلى أحد بائعي العطورات، ركت يومياً أمضي ساعة في الصباح وأخرى بعد الظهر جالساً على المقعد أمام متجره، أذعن الرحلة وأشرب القهوة مع صديقي هما. سمعت الأخبار عن وصول حاج كبير الليلة السابقة؛ وما هي الدعاوى القصائية التي رُفعت أمام القاضي؛ والأخبار الجديدة عن جيش محمد علي؟ أو ما هي الصفقات التجارية الكبرى التي تمت؟ وكانت أحياناً تتم مناقشة الأخبار الأوروبية كآخر مقادير بوابارت مثلاً؛ إذ إن الحجاج القادمين من القسطنطينية واليونان كانوا يأتون بالأخبار من أوروبا بشكل متواصل. وكنت عادة أضي الفترة البكرة من صباح كل يوم والجزء الأخير من المساء بالتحول في المدينة وارتياقها عند أطرافها حيث قد أُنقضي بالبدو الذين سرعان ما أدهمهم بعد تقديم بعض القهوة للحديث عن بلادهم وأمتهم وخلال ساعات الطهيرة أبقى في البيت، والجزء الأول من الليل كنت أفضيه في الساحة المربعة في المسجد حيث تسود بسمه برودة دائمة وحيث كنت أعرض عميقاً في الدكرة إلى ماضق نائية جداً. هنا وأنا جالس على سجادة مرشها بي عدي، في حين كان الحجاج مشعلين في تلاوة الأدعية والطواف حول الكعبة.

عند الطرف الشرقي من «السويقة» يتغير اسم الشارع ليصبح «شامية» وهو اسم يُطلق كذلك على عدة شوارع فرعية في كلا الجسبين، تؤدي تلك الواقعة في الجهة الشمسية إلى الجبل وتلك التي في الجهة اليسرى نحو المسجد. ويصم «شامية» عند نهايته إلى حي «شبيكة» و«باب القمر» هذا الجزء من المدينة مُنقش بالساء ويسكنه الحجار الأعياء أو العلماء المرتبطون بالمسجد بشكل أساسي. وهناك عدد قليل من المتاجر في الشارع الرئيسي يستضاء فترة الحج حيث يُفتح العديد منها يعرض فيها السوربون منتجات بلادهم وصاعاتها؛ ومن هنا أخذ اسمه. ونجد في هذه المتاجر الخرائر من دمشق وحلب والقماش القطني المصنوع في مصطفة «بابلس» وحيط الذهب والقصة المصنوع في حلب واماديل اليدوية وتُدعى «كفتة» المصنوعة في بغداد ودمشق، والحرير من لبنان؛ والسجاد الفاخر من الأنابول ومن صناعة بدو التركمان،

والعباءات من حماة؛ وما كفه الخففة وقمر الدين من دمشق والمستق من حب الح ولم ألتق في مكة بين كل السورين، بشخص كسّ قد عرفته في بلاده باستثناء رجل رعيم تدمر الذي لم يعرفني على أية حال ولقد أتى مع مائتي أو ثلاثمائة حمل لنقل أمتعة باشا دمشق

بالعودة عبر «شامة» باتجاه «السوق»، يجد على الجهة الشمالية لهذه الشوارع حياً يُدعى «قار» وهو لأشهر في مدينة وريد الأنقر بقاء، حيث انحد فيه أعني لبحار مدرهم ويعيش أكبر تجرمين في الحجار هما جيلاني وسقط هما في حجره الأكبر من السنة ويذهبان فقط إلى جدة (حيث لديهما أيضاً مؤسسات) حين يتطلّب وصول القادة الهدية حصورهما في ذلك المكان وقد اتحدت ساء محمد عني باشا مسكاً بهم في حي «قار» مع حاشية من شخصين المرتبطين بهم وشارل هما كلها ذات طابقين أو ثلاثة طوابق وقد ظلني العديد منها بلون مرخرف وتموي على شقق مسيحة وقد بنى الشريف غالب هنا قصراً وهو أفضل من كل أولئك التي امتلكها في مكة، وكان يسكن فيه في أشهر شتاء خاصة فقشتم وقه بين هد القصر وذلك الذي بالقرب من المسجد وقد انحد بعض الرؤساء العسكريين من هد بقصر مركز بهم وهو لا يتميز عن شارل الأخرى في مكة إلا بحجمه وبعدد البوابد فيه وليس به أي رواق مُعَمّد كما أنه لا يُدعى أي هدية مُهمّة

وقد بنى عاب حصناً قرب لقصر على أنه داخل المدينة، تحيط به أراج منية صلبه، إلا أن حجمه أصغر بكثير من لقلعة الكرى. ثم قام بتحجيرة مدفعيه وعمته بالمؤن حين تقدّم جيش التركي باتجاه الحجار، لكن حامية الحجة لادّت بالقرار بوراً بعد أن وقع سجيناً، كما فعلت حامية القلعة. وتُعرف التلة التي يقوم عليها باسم «حبل مدع» يذكرها أحياناً شعراء عرب ويقع حصن آخر صغير في مقادير هذه التلة، من الجهة الجنوبية الشرقية، على قمة حبل وراء صواحي المدينة، قدم غالب بإصلاحه كذلك ويُدعى «حبل هدي»، ذلك لأن شعباً كبيراً أو مديناً من كشمير كان قد ووري الثرى هنا وتقصّ البرح الآن بعض العائلات الهدية التي تتمتع بحرة وحوذ حرّان حيد جدّ تحميم مياه الأمطار يُدعى هذا الحبل كذلك من قبل المكيين الحاليين «حبل قعيقعان» - وهي تسمية أقدم ربما من تسمية مكة نفسها مع ذلك، يضع الأُرقي حبل قعيقعان أكثر إلى الشمال، ويقول إن اسمه مشتق من فقعقة سلاح جيش لمكي الذي كان متحركاً هنا، وذلك حين استولى الجيش اليمني بقيادة بُيُج على «بلد الحيد» وبين التلّين والقسمتين، تتلّى لمساحة بشارل فقيرة نصف متداعية يسكنها بشكل أساسي أدنى طبقة من الهنود المستقرين في مكة.

بالالتفاف نحو الشرق من «قار»، وبعد المرور يحيي يُدعى «ركوبه» الذي يوراي «قار»

من ناحية النساء، رغم أنه لا يُعتبر مكان إقامة أيقاً و«مستقراطياً» يصل إلى الشارع الكبير الذي يُدعى «مُدعى»، وهو استمرار «للمسعى» وتنمتة له، ثم يرجع عبر الأحير إلى اسطقة المجاورة للصفاء حيث يمكننا رؤية الأحياء الشرقية من المدينة.

يتفرع شارع عريض بالقرب من الصفاء بموازة «المُدعى» وإلى الشرق منه ويُدعى «هندشيه». حيث قامت بين العديد من المساكن الصغيرة، عدة صروح جيدة البناء وأخرى قليلة راقية، وعدد من المقاهي وعدة مناحر أسلحة وحقدَمَ وهما يقيم الحاكم أو مدير الشرطة وهو المسؤول الثاني بعد الشريف في مكة وقد بُني جزء من الشارع على أدنى منحدر من الجبل الشرقي ويُدعى «جبل قيس»، يؤدي إليه من تلك الجهة أرقّة صنيقة وقنطرة وشديدة الانحدار. إن «القشاشية» هو الحي المفصل لدى الحجاج لأنه وحد لتهدئة ومفتوح على الرياح الشمالية وقد عشتُ لها خلال أحر أيام رمضان، في شهر أيلول، سبتمبر من سنة ١٨١٤، عند وصولي من الطائف إلى مكة.

يأخذ هذا الشارع، في آخره، اسم «حارة سوق الليل» ويحتوي على حي واسع ناحية لشرق حيث يبدو «مولد النبي»، أو مكان ولادة النبي صلى الله عليه وسلم - والذي يحادي «المعاملة» أو مصنع الفخار. ونسبى الشوارع الفرعة بحاسب «المولّد» «بشعب المولّد»، أو «صخور المولّد»، لأن الأرض هنا معصاة بالصخور.

تقع «المعاملة» على جانب «جبل قيس» وتحتوي على اثني عشر درناً تسع بشكل أساسي لجرار وخاصة منها تلك التي تُستعمل في نقل المياه من نهر ورمم الشهيرة. ورغم أن هذه لجرار مخرقة بشكل جميل فهي ثقيلة الوزن جداً وتختلف بذلك عن الخراف الجميل في شمال مصر وبعداد الخفيف الوزن حتى إن حرة فارعة بإمكان هبة ريح أن ترميها وتروّد «المعاملة» وحدها المحار كنه، هي الوقت الحاضر، بأوعية الماء هذه؛ وقبل نقط من الحجاج يعودون إلى بلادهم من غير أن يأخذوا بعضاً من تلك الجرار كنموذج عن إبداع المكين وبراعتهم.

بالابتعاد أكثر بغد، يأخذ «سوق الليل» سم «لعزّه» كما يُدعى بذلك الاسم أيضاً كلا حاسبي الطريق الرئيسية التي لا تزل تشكل استمراراً «للقشاشية» وتنمتة له. وهناك عدة أبار عميقة لمياه مائة في هذا الشارع. وهما أيضاً نجد مساجد الجارين والمجدين الأتراك والمقولين أو المتعبدين الذين يصنعون الأسرة أو المنصات التي ينام عليها المكثون، كذلك تلك التي يُحمّلون عليها ليؤازروا الثرى وهما أيضاً يسع تجار الحملة الفاكهة والخصراوات التي تأتي من الطائف ووادي فاطمة، تتحار المرفوف في الصباح الباكر وتُقام سوق يومية للجصان ولأبقار عند الطرف الشمالي «لعزّه» حيث يتسّع الشارع بشكل كبير (في الجهة الشرقية، باتجاه جبل. عند

المحدر جرثاً، يقع حي يُدعى «شعب علي» وهو يحادي «شعب المولدة»، حيث يبدو هـ المكان المؤقر بولادة علي. إن كلا الحيين اندعوثين «شعباً». هما من يبر أقدم أجراء لمدينة حيث عاش القرشيون في السابق؛ وبسكنهما الآن الأشراف بشكل أساسي، ولا يحتويان على ماجر والمائل فسيحة والتهوية فيها جيدة.

وراء سوق المناسبة في «عرة»، تنهي دور السكن وتحل المحر الفيلة الارتفاع والسفائف حاصبي اعترين ويدعى هـ الجزء «سوق حدادين» فهما تقع متاجر الحدادين، الأتراك وصانعي الأقفال وعلى مسافة أبعد بقليل، يفتح الشارع على آخر يُدعى «المعلا» الذي هو نفسه تنمة «للندعي»، ويشكل الحد الفاصل بين أجراء المدينة الشرقية ونهرية، ويتجه في حط مستقيم شمالاً على طول المحدر المتصاعد قليلاً للوادي.

ويكتظ «الندعي» و«المعلا» (ويعني الأخير المكان المربع، في مقابل «السفلة» أو المكان المحفص) بالتاجر على جاسين. ومجد هـ محال انتدة ولأسوبه وتجر الحصة والنسج والعردوات وصانعي الأحذية وعدد كبير من نجار الألبسة القديمة. وهناك محرن كبير في «الندعي» لخدمة وقد كان سابقاً مدرسة حكومية وهناك آخر في «المعلا» من هذه المحرن نطلق قواهل المؤن للحيش التركي في لطائف وتقدم لمردات العلية ها كل صباح كما أن هناك سوقاً عند الطرف الشمالي «للمعلا» حسب يأتي اندو من كل الأحاء بقطعدهم للبيع. وهما أيضاً عند محال اجرارين التي يُباع فيها حم القر وادصان وانجاء؛ وهناك في الشارع نفسه، مسجد صغير للصلاة اليومية حيث إن المسجد الكبير يقع على مسافة بعيدة عبر أ صلاة جمعة تُقام دائماً في هذا الأخير.

وتنهي اسرل الحجرية باتجاه هذا الطرف الشمالي من «معلا» حيث يلتقي بسوق الحدادين، ويسعى صف واحد من لتاجر الفيلة الارتفاع والمنصات على كل حسب، يُباع فيها المؤن إلى اندو لشرقين اندين يأتون إلى مكة للحصول على الحبوب. وهما يقع مقهى يُدعى «فهوة خششين» حيث تباع مسحضرات الخشيش وبنة السج المخدرة التي تروح مع لتبع وتدخن. يرتاد هذا المقهى أسافر أهل المدينة. وقد قدم الشريف عبد مصر صربية مرتفعة على بيع الخشيش بهدف إغاقه بمدرسه تشكّل انتها كماً مباشر للقانون.

يعرف «المعلا» كذلك باسم «حارة القاء» الآتي من الاسم القديم لودي الف الذي أطلق على هذا الجزء من وادي مكة.

(١) أعتقد أن هـ هو المسجد الذي يذكره المؤرخون تحت اسم «مسجد ويطة» وبكلم الأرقني عن أربعة أو خمسة مساجد في مكة في وقته

يملك أعنى التجار اليهود المارل في الشوارع الفرعية في «المُدعى» حيث يستقبلون الرباثن لأبهم أكثر كبرياءً من أن يفتحوا متاجر عامة و محارن. وهناك رجل هدي من هذا الحي، وهو أصلاً من سورات ويُدعى «الشمسي»، كان يُعتبر أعنى رجل في الحجاز؛ على الرغم من أن السلع التي كانت تشملها تجارته كانت أقل اتساعاً من تلك التي تتعاطى بها تجارة جيلاني والكثيرون غيره. وقد قام هذا الرجل بالمفاوض معي شخصياً ما يدهر الساعة والنصف على شالي من الموسدين لا يساوي أكثر من أربعة دولارات، رغم أنه يمتلك عدة مئات من ألوف الجنيهات الإسترلينية!

لقد أنشئ في «المُدعى» حاجر أو سد عر الوادي، مع بوابة حديدية، بناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمقاومة السيول المتدفقة في هذا الاتجاه نحو مسجد حلال الأمطار العريضة وبقيت بعض آثاره حتى القرن الرابع عشر. وكان الحجاج، خلال وجوده، يستمعون عند وصولهم إلى مكة بالقاء أول نظرة على الكعبة من على قمته، وهناك أيضاً كانوا يتنون الأدعية. من هنا يأخذ الشارع اسمه «المُدعى» أو «مكان الدعاء».

هناك أحياء عديدة بين «المُدعى» و«المعلاة» من جهة، و«بصرة» و«قشبية» من الجهة الأخرى تتألف هذه الأحياء من أبنية جيدة نوعاً ما لكن شوارعها قسوة وصيقة جداً بحيث لا تُرفع القدرة أبداً كما يعيب عليها الهواء النقي. ويحدّها «الرفاق الصيني» حيث متاجر صائمي الذهب والفضة. وهم يعملون بالأسلوب الأكثر بُعداً عن الدوق والصناعة، لكنهم مصدرون جداً خاصة لصنع الخواتم الفضية للرجال والنساء. وهي تحية تُستعمل بشكل واسع جداً بين العرب إلى الجنوب من هذا الحي يقع «رفاق الحجر» (ويُدعى أيضاً «رفاق المرق») الذي يحتوي على مكان ولادة فاطمة، ابنة محمد - صلى الله عليه وسلم -، وأبي بكر، حليمة السبي أو وريث في الخلافة ويأخذ هذا الشارع اسمه من الحجر الذي كان يقوم بمعجزة إلقاء التحية على النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - قائلاً: «اسلام عليك» كما مر النبي من هنا في عودته من الكعبة. وهو الآن صامت منذ أيام النبي لكنه ما يرون ظاهراً حيث يمرر قليلاً من حائط منزل ثم طلاؤه باللون الأبيض تكريماً لهذا الحجر

يعود الآن باتجاه «المعلاة»، قبلاً حلف البغمة التي يلتقي فيها «بصرة». تنتهي المتاجر هنا ويبدأ سهل عريض رملي حيث يجد عدداً قليلاً فقط من انقاضي المعصية بإمكانها اعتبار هذه المنطقة طرف المدينة ويحب اعتبار ما يقع أبعد من ذلك باتجاه الشمال أنه يشكل جزءاً من الصحاري وبالتقدم على طول السهل، يجد على كل جانب من الطريق بركاً كبيرة أو خروانات مياه لخدمة قوافل الحجاج، ويمكن منوها من القصة التي تمر من هنا باتجاه المدينة من هذه البرك، هناك واحدة لنقطة البصرية وأخرى لنقطة السورية وقد بُنيت سنة ٨٢١هـ، وهي مُغطاة بالحجر

بشكر كامل وما تزال في حالة جيدة جداً وهناك آثار مشبهة لا تزال قائمة بسلطنة لأتراك الأسحياء، يجدها عند كل محطة من الحج، من «المدينة» حتى دمشق وحلب ويبدو بعضها، وقد رأيتها إلى الجنوب من دمشق، أشد صلابة في بنائها من برك مكة. فتلك التي يملكها الحجاج المصريون بلع نحو مائة وستين قدماً مربعة، ومن ثلاثين إلى خمس وثلاثين قدماً عمقاً وحين تحتوي المكة من ثمانين إلى عشر أقدام من المياه، يُعتبر ذلك كدياً لتزويد لقافلة ولا يتم ملء هذه الخزانات بالكامل أبداً وما أن القدة تزود بالمياه بشكل صئيل فهما بعض الأراضي، بمحاذاة لركة بحرية، التي تُرى بواسطة بحر وتتمو فيها خصراوت وهك أيضاً، بالقرب منها، جامع صغير يُدعى «جامع سليمان» في حانه تداعفهم بعد يستعمل لأغراض دينية، لكنه يستخدم في الوقت الحاضر لإجراء بعض جود لأتراك وهو يحصن حتى يدعو بالسلماسة الذي يمتد من «جبل لعم» بجانب الجبل الغربي وحتى لمقار الوفعة حيث السرك وهو لا يحتوي على مزارل مُتقنة لباء. كما علمت أنه اشتق اسمه من السيمانية، كما يدعو المسلمون شعب قندهار وأفغانستان وكشمير وبنار عديدة أخرى من نواحي الهند تلك ويقابل بعض المتحدرين من هؤلاء، الذين كانوا أول من استقر هناك لا يزالون يقيمون ه وقد احتفظوا بالعديد من العهود غير أنه يبدو من تاريخ قطب ندين أن السلطان سليمان قد شيد نحو سنة ٩٨٠ هـ مسجد في هذا الحي وإمكان أن يفترض على الأُس بأن مسجد قد ستمار اسمه من مؤسسه وسكان السلماسة هم من المسلمين المنتسبين إلى المذهب الحنفي، أول مذهب الدينية الأربعة، وهم ليسوا من أتباع علي كالفرس الذين يأتون بأعداد كبيرة كل سنة إلى الحج إلى مكة إما عن طريق البحر من بومباي أو البصرة وإما عبر البر، فيسافرون كدراويش على طول اساطق الحوية من بلاد فارس إلى بغداد، وعبر بلاد ما بين النهرين وسوريا إلى مصر وقد رُيت العديد من أتو عبر هذه الطريق ويبدو أنهم رجال يتمتعون بشخصية أفضل بكثير من أغلبية اليهود وأشد نشاطاً وقوة منهم.

مدين حي سليمانية هذا، على جبل لشرقي. بمحاذاة «عرة» و«شعب علي»، هناك منطقة نصف مهذمة تُدعى «شعب عمر» يسكنها نافعون متحورون من بدو قبيلتي «تقيف» و«قريش» وبعض عائلات الأشراف الفقيرة. وهناك بعض الطواحين الكبيرة في هذا الحي، تُشغلها الأحصنة وهي بالحاكم لتركلي. وليس في المدينة على ما أعتقد طواحين أخرى ذات حجم مهم إلا استعمال مطحنة اليدوية هي عادة في مكة، ويتولى تشغيلها عبيد العائلة أو النساء بين الطبقات الفقيرة جداً. ه أيضاً تقع لأمكنة الوحيدة في مكة (أو ربما في حجاز) حيث يتم صنع كتان والقص بالنوبيل الأزرق السبي ولون الرعفران أي الأصفر البرتقالي أما الأقمشة الصوفية فلا يتم صنعها هـ.

بما أن أعداداً من فتيات الهوى يُقمن في «شعب عامر»^(١)، فهذا الحي لا يصنف بين الأحياء الأكثر احتراماً في مكة. وقد فرض الشريف غالب صربية منتظمة على أولئك النسوة، وطلب دفعة إصاغية من الملواني يلتحقن بالحجّاح إلى عرفات في موسم حج. وهناك صربية بمائته مفروصة في القاهرة وفي كل بلد الريفية لكبيرة في مصر وتنعج مكة ببنات الهوى الملواني يرداد عددهن خلال الحج مع قدوم معامرين من البلدان الأجنبية. وهن أكثر بهرجة وريبة من فتيات الهوى في مصر ولا يظهر أبداً في الشوارع دون ترفع. وهناك العديد يسهن من الحاربات الخشيات اللواتي يتقاسم معهن أسبادهن لسبقون الأرياح النافخة عن مهتهن، حسب الإشاعة. والبعض الآخر جاربات لبعض المكين.

عاباً عما يلحق الشعراء العرب لشعب عامر^(٢).

بالتقدم من البرك باتجاه الشمال على السهل، نصل إلى منزل معزول ذي حجم جيد وبناء مُثَقَّن، وهو حصص الشريف. وقد أقيم فيه مرة بعض اقربين من غالب ومقابل هذا البناء هناك طريق مرتفعة معبّدة تقود باتجاه التلال العربية وتحتلها فتحة تبدو إصطباغية ويعطي الأررقني اسم «جبل حره» لهذا الجزء من الحبس ويقول إن الطريق قد مُثَقَّت بين الصحور، وقام بذلك يحيى بن خالد بن برمك وفي الجهة الأخرى من الفتحة نهبط الطريق إلى سهل «شيخ محمود»، وقد شمي كدند بسبب وجود قبر قديس يحثم حوله الحجّاح السوريون وقد شيد لشريف غالب على التلة برحي مراقبة على حاسي الطريق لصيقة المكونة من درجات بدائية (من الصعب معرفة ما إذا كانت طبيعية أم اصطباغية)، وبشبه هذان الرجال تلك التي قد مسق وصفها. وتمتد اندوس على جانبي الطريق في وادي مكة حيث قبور عائلات معظم سكان المدينة.

وبعد قليل من منزل الشريف الذي ذكرناه الآن، عند طرف «المعلاة»، يقع قبر «أبو طاب» وهو عم محمد - صلى الله عليه وسلم - (والد عمي). وقد عمد الوهابيون إلى تغليب البناء الذي يعطي القبر إلى مجرد كومة تراب؛ ولم يَزَّ محمد علي - شا أن من المناسب إعادة بنائه. وأبو طاب هو راعي المدينة العظيم وهناك العديد من الأشخاص في مكة ممن لا يتردد كثيراً في بكث قسم أنفسهم بالله، ولكنهم يحافون من القسم باسم أبي طاب لتأكيد صحة كذبة. أنفسهم بالمسحدة، أنفسهم بالكعبة، هي عذرت تتردد باستمرار من المكين بنية فرص كلامهم على العرباء؛ ولكن القسم بأبي طاب مسألة أشد خطورة ونادراً ما سسمها في مثل تلك

(١) يكرر المؤلف مثل هذه المزاعم.

(٢) رجع نصير السير وليام دور Poëss-Asi at، في موضوع قصيدة لابن فارس، شعر بمسجات عن مكة

المناسبات وفي مقابل القر المهذوم، هناك سيل ماء عام، وهو عبارة عن حوض مبني من حجر ويبلغ طوله خمسين أو ستين قدماً يتم ملؤه بالماء يومياً من القناة. وقد تمت قربه بعض الأشجار. ولا يرى أي أبنية بعد هذا السيل إلى أن نصل إلى قصر كبير لشريف تحيط به جدران مربعة مطوقها الأبراج ويحتوي داخل السباح هذا على ماء مسيح. وقد كان محبباً جداً في زمن الشريف فكان عالماً ما يقيم هذا حلال حروبه مع الوهابيين لأنه يستطيع الانطلاق منه عند أي هجوم سري أو حملة دون أن يُعرف ذلك في مدينة على الفور ويُستعمل المني الآن لكنه للحنود الأتراك.

إلى الشمال من هذا القصر يقع حي، أو صاحبة «معايدة»، وهي تتألف في جزء منها من مارل حجرية قليلة الارتفاع رسيّة الساء، وفي جزء آخر من أكواخ بُنيت من الأعصان المقطوعة، ويسكنها البدو بالكمن وقد أصبحوا من المستوطنين هنا من أجل ممارسة التجارة وخصوصاً في الحظوة والبلح والماشية بين مدينة قبائل مواطنهم وقد رأيت بينهم عرباً من قبائل قريش وثقيف وهذيل والغنية وقد قيل أننا نستطيع هنا أن نجد أحياء أشخاصاً من كل القبائل المهمة في الصحراء، وذلك في وقت السلم، ومن بعد أيضاً. وهم يعيشون، كما سبق وذكرت في معرض حديثي عن أولئك الذين يحتلون قسماً حراً من مكة، بالطريقة والأصلوب نفسهما اللذين يعملان في الصحراء ولا تحتوي مارلهم على الأثاث، إلا ما يجده تحب خيمة بدوي ثري وبما أنهم يبعثون عن المسجد الكبير، فقد سيجوا مساحة مربعة من الأرض بحدود منحصصة حيث يعتمد من يريد منهم التطهر بالانتظام في إيمانه (وهذا نادراً ما يحصل بين البدو) إلى أداء صلاتهم على الرمال، حسب العادة في الصحراء.

لم يعتقد حاكم مكة التركي أنه من اللائق وضع أي من حدوده هنا وهو أمر يحسن من الصاحبة مدينة له بالكثير و«المداينة» هي، يفصل موقعها ومنه سكانها وجزءهم، مقصده جداً عن المدينة لدرجة أن امرأة أكدت لي أنها لم تدخل إلى المدينة في السنوات الثلاث الماضية، رغم أن البدويات يتجولن في الوادي بحرية.

لواذي مكة هنا محرجان، أو ممدان؛ فمن جهة الشمال هناك عمر صين يحميه برجاد لسراقة ويؤدي إلى وادي فاطمة، وتنتهي «معايدة» من الطرف الشرقي بحديقة ومركز تسلية لشريف حيث كان عاب كثيراً ما يمضي ساعات الطهيرة وشيئت الحديقة بحدود عالية وأبراج فتشكل بالتالي مركز محصن أمام المدينة. وهي تحتوي على أشجار السجيل والبق وبعض أشجار الماكهة الأخرى التي تعطي ظلاً وخضرة مبهجة جداً وكان يدخل في زمن عاب يبقى مفتوحاً دائماً لشعب مكة. أم المرل، فقد بُني بشكل سيء، وهو ليس أحد أعمال عاب

وخلال آخر حروبه مع البرهانيين استولى هؤلاء على مكان إقامته وتقاتلوا لعدة أسابيع مع جنود مكة الذين كانوا متمركزين عند القصر المجاور أو الشكنة إلى الجنوب، والذين رصعوا لعماء وفجروا جزءاً من الجدران وأجبروا البرهانيين على الانسحاب وقام غالب هيماء بعد بإصلاح الضّرر، ويعيش الآن بعض الجنود الأتراك في المنزل الذي بات الآن نصف مهدم على أيديهم. وهناك سبيل ماء عذب عام لا يُستعمل الآن، مع قبة جميلة مبنية فوقه، وهو يقع على جانب من الحديقة؛ وعلى الجانب الآخر هناك بئر كبيرة للمياه المالحة التي ينتشر العديد منها في المعابدة.

إن الطريق من مكة، باتجاه الشرق، نحو عرفات والطائف، تمر بهذا المنزل؛ وعلى مسافة قصيرة خلفه يتسع الوادي حيث يُقيم الحاج المصري محيّمه، الذي يمتد جزء منه عادة على السهل باتجاه البركة. وكانت القافلة السورية في السابق تحيّم في المكان نفسه. وبين الحديقة والقصر أو الشكنة المذكورة أنباء، قد حُزمت قناة مكة فوق الأرض لنحو مئة قدم في أحود حجري مكسو بالحص من الداخل ويرتفع عن سطح الأرض بأربع أقدام، ولا تظهر القناة في أي مكان آخر في وادي مكة.

ما أن تقطع نحوم مكة النهائية هذه حتى تتراءى الصحراء أمام ناظريها، حيث عابت لأشجار والحدائق ومراكز لتسليّة عن الحوادث المؤدية إلى المدينة المحاطة من كل جانب بأودية رملية حرداء وتلال قاحلة كذلك إلى عربياً على الطريق الكبيرة المؤدية إلى الطائف، تماماً حلف معطف التلة في المنطقة الملاصقة لحديقة الشريف، من شأنه أن يحسب نفسه بعيداً تماماً عن مجتمع الإنساني كما لو كان في منتصف صحراء البوّة. ولكن ذلك يمكن أن يُعزى كلياً لكسل السكان وعدم اهتمامهم بالزراعة. ويثبتُ اعدد الكبير من الآبار المنتشرة عبر المدينة أن المياه متوافرة بكثرة ويسهل الحصول عليها بعمق نحو ثلاثين قدماً تحت الأرض.

من اليسير تخيل أي بركة في شبه جزيرة العربية لتصبح مشجّة سريعاً حيثما توفّر ري الأراضي عبر الأنار وهكذا، فيمكن جهد بضع سنوات أن يجعل من مكة والمناطق المجاورة مناطق مشهورة بحضرتها وحدائقها كما هي مشهورة الآن بعنهم الكامل ويتكلم الأرقبي عن الحدائق في هذا الوادي ويصف بياض وآبار محتلة لم تعد موجودة الآن حيث إنها قد تكون سُدّت وحُفّت جزاء السيول الجارفة. ويؤكد لغامسي كذلك أن «المدينة» كانت في أيامه تحتوي على ما لا يقل عن ثمانين وخمسين بئراً. لكن في الأرمّة العابرة في ترويح شبه الجزيرة، كان هذا المكان حتماً قاحلاً. ولذلك رصفه نقرآن بأنه «وادي غير ذي ريح». علاوة على ذلك،

يقول لأرربي إنه ببل بلاد المزارع هنا من قبل قصي، كان هذا الوادي مكتظاً بشجر الأكاسيا وأشجار شائكة متنوعة.

ليس هناك من شيء أصعب من إحصاء سكان المدن الشرقية بدقة حيث لا يتم أبداً تنظيم السجلات وحيث يصعب التحقق حتى من عدد الدار. وإن انقسام بحكم يرتكر على تطوهر والمقارنة مع المدن الأوروبية حيث يُعرف مجموع السكان بدقة، هو أمر قد يكون مُصلاً ومطوياً على معاملة. إن المساكن الخاصة في الشرق هي بشكن عام، رغم أن للحجار بشد عن القاعدة هذه) بصدق واحد وتحتوي بالتالي على عدد أقل من البراء مقارنة مع المساكن الأوروبية. ومن ناحية أخرى، فإن المدن الشرقية لها شوارع صيقة جداً وهي تحو من ابادين أو الساحب العامة أو الأسواق الكبيرة، وتكثظ صواحبيها المائسة عامة بالسكان أكثر من أفضل شوارعها الرئيسية غير أن المسافرين، مرورهم السريع عبر مدن، من السهل أن يحددوا لأهم يرون فقط لأمنوق وبعض الشوارع التي يجتمع فيها الجزء الأكبر من الذكور عادة خلال اسهار وهكذا، حدث أن أعلنت السلطات الحديثة شحتمه أن سكان حلب يبلغون مئتي ألف سمة، وأربعمئة ألف في دمشق وثلاثمائة ألف في القاهرة. إن تقديري لسكان المدن السورية الكبرى الثلاث هو كالتالي: في دمشق، مائتان وخمسون ألف، في حماه (التي سأتكلم عنها بشعة من) من مئتين إلى مئة ألف؛ وفي حلب التي تنصاعل يومياً وتصحح، بين ثمانين وسعين ألفاً. وإن أسمح لذهرة أكثر من مئتي ألف سمة في أحسن الأحوال أما بالنسبة إلى مكة التي رأيتها قبل الحج وبعده والتي أعرفها رعا بشكل أشمل من أي مدينة أخرى في الشرق، فإن شحده تحقيقاتي أظهرت بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين ألفاً من السكان المسمهرين وذلك سكان المدينة وصواحبيها، فضلاً عن ثلاثة إلى أربعة آلاف عدد حششي أو ربحي، ومساكنها قادرة على حتواء ثلاثة أصعاف هذا العدد. في زمن السلطان سليم الأول (حسب قطب الدين، سنة ٩٢٣هـ) أجري إحصاء سكان مكة قبل القيام بتوزيع الخطة محاب بينهم وانصح أن العدد كان اثني عشر ألفاً، حالاً وساء وأصلاً ويظهر الكاتب نفسه، أنه، في أوقات سابقة، كان عدد السكان أكثر بكثير؛ فعندما قام «أبو صاهر»، رعيم للمرمطة (وهو مذهب مهرطق أو مشق عن المسلمين) بيهب مكة سنة ٣١٤هـ، فُت ثلاثون ألفاً من السكان من قبل جنوده المتوحشين.

وصف بيت الله أو المسجد الكبير في مكة

يقع لمسجد ويدعى «بيت الله» أو «الحرم»، على تلك الضفة في الوادي، الأكثر عرضاً من الأجزاء الساحلية الأخرى لمدينة. وهو بناء لا يميزه إلا الكعبة التي يصفوها. هناك العديد من المساجد في أماكن أخرى من الشرق التي تواريه حجماً وتعوقه جمالاً بدرجات.

تقع الكعبة في ميدان مستطيل يمتد طوله مائتي وخمسين خطوة وعرضه مائتين؛ وإن أياً من جوانبه لا يمتد في خط مستقيم رغم أنه يبدو للمكان شكل مستطيل محممة عند انطوية لأبوي. وقد شُيِّع هذا الميدان المكشوف في الجانب الشرقي بصف من الأعمدة، فتقف الأعمدة في صف رباعي وهناك ثلاثة عميقة في الجوانب الأخرى وترتبط ببعضها بأقواس مديية، وتحمل كل أربعة منها قبة صغيرة مكسوة باحصى ومطلبة بالنور الأبيض من الخارج يبلغ عدد هذه القباب، وفق قطب الدين، مائة واثنين وخمسين، كما تتدلى مصابيح من القاطر على طول صف لأعمده كنه وعلى الجوانب الأربعة، فضاء بعضها كل لثة وتضاء كنهها خلال بيالي شهر رمضان ويتعدى طول الأعمدة عشرين قدماً ويبلغ قطرها عادة قدماً ونصف أو قدماً وثلاثة أرباع القدم، لكنها لا ترى سوى القليل من الانتظام في ما يتعلق بها. وبعضها من الرخام الأبيض أو العرييت أو حجر Porphyry، لكن العدد الأكبر منها هي من الحجر العادي في جبال مكة ويعتبر القاسي المجموع بحمسة مائة وتسعة وثمانين ويقول إنها كلها من الرخام باستثناء مئة وستة وعشرين من الحجر العادي وثلاثة مركبة. أما قطب الدين فيعد حمسة مائة وخمسة وخمسين عموداً منها، يقو إن منها ثلاثمائة وأحد عشر من الرخام والباقي من الحجر لأنني من اجبال المجاورة؛ لكن أياً من هؤلاء الكتاب لم يعش ليرى التصديحات الأخيرة للمسجد بعد الحراب الذي سبب به سيل سنة ١٦٢٦م. وهناك، بين كل ثلاثة أو أربعة أعمدة، واحد ذو ثماني روايا وأصلع ويبلغ سمكه حوالي أربعة أقدام. وهناك عمودان على

الجهة لشرقية، من العرايب الرمادي اللون الصرب إلى الحمرة ومؤلف من قطعة واحدة وعمود رمادي اللون من حجر Prophyry مع ألواح من الأسبوم الأبيض. وفي الجهة الشمالية، هناك عمود من لعرايب لأحمر وآخر من حجر Prophyry الأحمر المُعروق. ولعل هذه هي الأعمدة التي ذكر قطب الدين بأنها أُحصرت من مصر وبشكل أساسي من أعجيم أي (Panopolis) حين قام ابرعيم ايهدي بتوسيع المسجد سنة ١٦٣ هـ. ومن بين الأعمدة الأربعمئة واخمس مائة أو خمسمائة التي تشكل السياج، لم أجد أي تاجين أو قاعدتي عمود يشبهان تماماً، فالتيجان هي من صناعة عربية إسلامية رديئة، فإن بعض التي كانت مُستعملة في أسبنة سابقة، قد تم وضعها بصريقه معكوسة فوق الأعمدة، وذلك من جهز العاص. وقد رأيت نحو ست قوعد رخامية من صناعة يونانية متقنة. كما أن عدد قليل من الأعمدة لرخامية تحمل النقوش العربية والكوفية التي قرأت فيها التواريخ ٨٦٣ و ٧٦٢ هـ. وهناك عمود على الجهة الشرقية يعرض نقشاً كوث قديماً جداً، وقد مُحي وطُمس بوعاً ما فلم أستطع قراءته أو نسخه وإن الأعمدة التي قُدت من حجر مكة والمقطوعة بشكل أساسي من حاسب الجبل قرب حي الشبيكة هي في أغلبها مؤلفه من ثلاث قطع، لكن لأعمده لرخامية مؤلفه من قطعة واحدة. وقد تم تدعيم بعض الأعمدة وتقويتها بوسطة حديد وأصواف حديدية كالعديد من المباني العربية في الشرق وقد ستمعملها للمرة الأولى هنا «س صاهر يرفوق»، من مصر، في إعادة بناء المسجد الذي كان قد دُمّر بالنار سنة ٨٠٢ هـ.

لقد دُمّر هذا المسجد وأُصلح مراراً وتكراراً لدرجة أننا لا نجد فيه أي آثار من لعصور القديمة النائية وهناك نقش عربي واحد طاهر لعيان داخل الجدر الكبير الذي يحيط بصفت لأعمده وقد كُتب بأحرف كبيرة ويحتوي على أسماء محمد - صلى الله عليه وسلم - وحلفائه المباشرين لا غير وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعني كما يظهر كذلك اسم الله بأحرف كبيرة في أمكن عدة وهناك نقوش صويلة بحص الثلث في الخارج، فوق البوابات، كُتبت إحياء تذكري أسماء أولئك الذين بو لبوابات وتفاصيل صويلة ودقيقة أعصها مؤرخو مكة كما أن النقوش على الجهة الجنوبية، فوق باب إبراهيم هي واضحة وحليّة جداً وقد تمت إعادة بناء تلك الجهة كلها من قبل لسلطان بصري «عوري» El Gheury سنة ٩٠٦ هـ. وفوق باب علي وباب العاص، هناك نقش طويل بأحرف الثلث كذلك وقد وضعها هناك السلطان مُرد بن سليمان سنة ٩٨٤ هـ بعد أن أعاد إصلاح المبنى بأكمه وقد ورد قطب الدين تفاصيل تامة عن هذه نقوش فهي تحتل صفحات عديدة في تاريخه، وهي أثر باقي لرهو وعروور السلطان. وكان هذا الجانب من المسجد قد يح من الدمار سنة ١٦٢٦ هـ فتيب النقوش سيمه

لقد طُليت بعض أعمدة الجدران والقناطر بطون مرخرف وقد حُطت بالسويين الأصفر

والأحمر وباللون الأزرق، كذلك المآذن، ولا تظهر في أي مكان رسومات الأهرار ذات الطابع الإسلامي المعتد؛ وقد تم تليط الأرضية في صف الأعمدة بأحجار كبيرة غير مشتهة بالإسمنت مع بعضها بشكل جيد.

هناك سبعة طرق معبدة، أو ممرات تفرد من صف الأعمدة باتجاه الكعبة أو البيت الحرام، في الوسط. وهي تعرض كافي لاحتواء أربعة أو خمسة أشخاص يجشون جشاً إلى جنب. وقد ارتفعت بمحو تسعة إنشآت فوق الأرض وبين هذه الممرات المغطاة بالحصى أو بالرمل، يظهر انعشيب وقد نما في أماكن عدة، وهذا ناتج عن مياه رمرم التي تتسرب من الجرار المصوغة في الأرض في صفوف طويلة خلال النهار. وتقع منطقة المسجد كلها على مستوى أكثر انحداراً من أي من الشوارع المحيطة به، وهناك منحدر يُقدر بحو ثمانى أو عشر درجات نزولاً عند بوابات الجهة الشمالية، وهو يؤدي إلى المصعد عند صف الأعمدة، ومنحدر آخر من ثلاث أو أربع درجات في الجهة الجنوبية من البوابات

مع الكعبة في وسط سكة المنطقة تقريباً وبعد عن ممر الأعمدة الشمالي مئة وخمسة عشرة خطوة كما تبعد عن ممر الأعمدة الجنوبي ثمانى وثمانين خطوة يمكن أن نعلم القصر في التواريخ بأن الكعبة كانت قائمة قبل المسجد الذي بني حولها، وقد تم توسيعه في مراحل مختلفة والكعبة بناء صرح مستطيل يبلغ طوله ثمانى عشرة خطوة وعرضه أربع عشرة خطوة ويبلغ ارتفاعه من خمس وثلاثين إلى أربعين قدماً. وقد قمت بقياس الخطوات لأحد أصول حوائجها ووجدته يبلغ (NNW ½ W) وقد بُني من حجر مكة الرمادي بكتل كبيرة من أحجام مختلفة، وقد جمعت ببعضها بطريقة عشوائية جداً وبوعية سيئة من الإسمنت وقد أعيد بناؤها بالكامل كما هي الآن سنة ١٦٢٧م، لأن السبول في السنة السابقة كانت قد دمرت ثلاثة من جوانبها في السنة السابقة، وقبل إعادة بنائها تم هدم الجانب الرابع منها حسب قول «الأعصمي» وذلك بعد استشارة العلماء حول الموضوع لمعرفة ما إذا كان يحق للشعر تدمير أي جزء من الصرح المقدس دون أن يجلبوا على أنفسهم نعمة انتهاك حرمة المساجد والكمر والإلحاد.

تقف الكعبة على قاعدة علوها خطوات تظهر سطحاً مستوياً شديد الانحدار، وسطحها مسطح بحيث تظهر، من على مسافة معينة، وكأنها مكعب تام. ويقع الباب الوحيد الذي يسمح بالدخول في الجهة الشمالية وهو يفتح مرتين أو ثلاث مرات في السنة، ويرتفع عن الأرض بحو سبعة أقدام وللدخول إليها، شُعملت درجات خشبية، عن تلك، سأترككم فيما بعد. في المراحل الأولى للإسلام، حين أعاد بناءها ابن الربيع رعيم مكة وابن أخت عائشة، سنة

٦٤هـ، كان لها باب على مستوى رصية المسجد، إن الدب خالي (الذي أحصر، حسب قول الأرقم، من القسطنطينية «استابول» سنة ٦٣٣م) معقب بكلمته بنقصة وفيه عدة أحرف ذهبية وتوضع كل ليلة شموع صغيرة مسوعة ومصنوعة على عتبه، فضلاً عن الأوعية معطره المملوءة بالنسك وخشب الألو، الخ

وعند الراوية الشمالية الشرقية من الكعبة، قرب الباب، يقع الحجر الأسود الشهير، وهو يشكل جزءاً من راية الباء الحدة، حيث يرتفع عن الأرض بأربعة أو خمسة أقدام وهو بصوري الشكل وغير منتظم ويبلغ قطره نحو سبعة إشتات وله سطح متموج يتألف من نحو اثني عشر حجراً صغيراً أحجاء وأشكال مختلفة، متصلة بعضها ببعض جداً بكمة صلبة من الإسمنت وقد نغمت بإحدى فهو يبدو كما لو أنه كُسر بكمة إلى عدة أجزاء بصره عسفة ثم أعيد جمعه مرة ثانية من الصعب تحديد نوعية هذا الحجر بدقة وقد أصاب إحدى سطوحه خالي من ملايين التمسكات والقبيلات التي نفاها. وهو يبدو كالحجم الذي تحتوي على عدة شريشات صغيرة دحيلة من مادة صابرة، هي البياض والصخرة ولونه خالي بني غامق صارت إلى احمر ويبدو من الأسود، وقد أحيط من كل جانب بحاشية مؤلفة من مادة أظلمها قرية من الإسمنت المؤلف من أحصى ولزمت بنود مشابه لا يختلف إلا قليلاً عن ذلك الصرب إلى السري تؤمن هذه الحاشية دعم قطعه المنقصة، ويبلغ عرضها إشتات إلى ثلاثة إشتات ويرتفع قليلاً فوق سطح الحجر. إن الحاشية والحجر كليهما مُحاصَر بطوق قصي وهو أعرض في الأسفل منه في الأعلى وفي الجهتين، مع اتساع مهم في الأسفل كما لو كان حرة من الحجر محيطاً تحته. وقد نُتت الجزء الأسفل من الحاشية مسامير فضية.

هذا حجر آخر في الراوية الجنوبية الشرقية من الكعبة، أو كما يدعونها العرب «المكس البياضي»، ويرتفع هذا الحجر نحو خمس أقدام عن الأرض ويبلغ ضوله قدماً ونصف اتقدم وإشتات عرضاً وقد وُضع عمودياً وهو من حجر مكة العادي، يقوم الناس وهم يدورون حول الكعبة بلمسه فقط بيدهم اليسرى ولا يلمسونه.

في الحجاب الشمالي من الكعبة، هناك حفرة طعيفة في الأرض، قدماً عند اباب وقرية من الحائط وقد نُتت بالرحام وهي عريضة بكفي لاحتواء ثلاثة أشخاص جالسين من اعتقد أن الصلاة هاتئة، وتُدعى هذه بقعة «المعج». وقد تكون المكان الذي كان إبراهيم واسه سماعيل يحلان فيه الكس والطير اللدري ستحدهما في بناء الكعبة ويُقال أن إبراهيم قد وضع قرب هذا المعج الحجر الكبير الذي وقف عليه حين كان يعمل في البناء وهناك نقش كوفي على فاعمة الكعبة تماماً فوق «المعج» وهو نقش قديم، لا أني عحرت عن فك رموزه ولم تفسر لي الفرصة لسمعه، كما أني لا أحده مذكوراً لدى أي مؤرخ

على الجهة الغربية من الكعبة، تحت فمها بحو قدمين، يقع «الميراب» الذي تزل منه مياه الأمطار التي تجتمع على سطح المبنى، حتى تتسرب إلى الأرض. ويسغ طوله نحو أربع أقدام وعرضه ستة إشات حسبما استطعت تقديره من لأسفل، مع حافات يوارى ارتفاعها عرصه. ويتدلى عند الفتح ما يسمى بـ «بحية الميراب» وهو لوح ذهبي تقع عليه المياه ثم إرسال هذا الميزاب إلى هنا من القسطنطينية سنة ٩٨١هـ، ويقدر أنه من الذهب الخالص وقد تم رصف الأرضية حول الكعبة، تحت الميراب، سنة ٨٢٦هـ، وهي تتألف من أحجار ملونة مختلفة تشكل نموذجاً نيقاً جداً من المورايك. وهناك بلاطتان كبيرتان حصراوان في الوسط وحسب التقرير^(١)، فقد أرسلنا إلى هنا هدية من القاهرة سنة ٢٤١هـ هذه هي البقعة التي دفن فيها إسماعيل بن إبراهيم وأمه هاجر، حسب الفرو الإسلامي. ومن السنة هنا للحاج أن يتلو صلاة من ركعتين وهناك حائط شبه دائري على هذه الجهة الغربية يتراصف طرفاه مع حوائط الكعبة، ويبعد عنها مسافة ثلاثة أو أربعة خطوات، تاركاً فتحة تقود إلى مكان دفن إسماعيل. ويحمل الحائط اسم «الحطيم»، وتُدعى المنطقة التي يطوقها «الحجر» أو «حجر إسماعيل» لأنها مضمونة عن الكعبة. ويُدعى أحياناً الحائط نفسه بالاسم ذاته، كما يطلق المؤرخون اسم «حطيم» على الأرض الواقعة بين الكعبة والحائط من جهة، وبئر زمزم ومقام إبراهيم من جهة الأخرى غير أن المكيين اليوم يطلقون اسم «حطيم» على الحائط فقط.

يقول الفرو إن الكعبة كانت تمتد في فترة من العترات إلى «الحطيم»، وإن هذه الجهة قد تداعت وقت الحج، وقد طلب من الحاج دفع مصاريف إعادة تصحيحها بحجة أن عائدات الحكومة لم تكن كافية بطريفة صافية وطارئة بما يكفي لتوضيها في أمر بهذه القداسة، في حين أن أموال الحاج تمتنع بـ «طهارة» والقدسية المطلوبتين. غير أن إسماعيل الذي دفعه لم يكن كافياً، لذلك لم يتم إنشاء سوى حائط يحدد المساحة التي شغلها الكعبة سابقاً على الرغم من شيوع هذا الفرو بين المؤرخين، إلا أنه يناقض التاريخ الذي يروي أن «الحجر» قد شيدته بنو قريش الذين فلصوا أبعاد الكعبة، وأنه تم جمعه مع الساء من قبل «الحجاج» ثم عاد وفصله عنه ابن الأثير. ويؤكد القاضي أن جزءاً من الحجر، كما هو الآن، لم يكن أبداً ضمن الكعبة ويظهر إليه القانون كقسم من الكعبة بظراً لأن الصلاة عند «الحجر» تعتبر مثابة كذلك مثلما هي الصلاة في الكعبة نفسها، وإن الحاج الذين لا تنسى لهم الفرصة للدخول إلى تلك الأخيرة، يُسمح لهم للتأكيد، بأن يقسموا أنهم صلوا في كعبة رغم أن من الممكن أن يكونوا قد اكتفوا بالصلاة ضمن مباح «الحطيم» وقد بُني الحائط من الحجر النصب ويبعد ارتفاعه نحو خمس

(١) راجع في كتابه، «هل هي روايت مصر»

أقدام وسماكته أربع أقدام، وقد عُطِّي كنه بالرحم الأبيض ونُقش عليه ابتهاجات وأدعية تم بحتمها بإتقان على الحجر بأحرف حديثة. وهذا الرحام والنقش هما من أعمال «العوري»^(١)، سلطان مصر سنة ٩١٧ هـ. كما عمننا من قطب النديس، إن لصفوان حول الكعبة يؤدي خارج الحائط وكلما اقترب منه الحاج كان ذلك أفضل.

لقد عُطِّيت الجهات الأربع بقماش حريري أسود يتدلي إلى الأسفل تاركاً سطح مكشوراً^(٢) يُدعى هذا الستار «الكسوة»، ويتم تجديده سنوياً في موسم الحج ويُحصر من القاهرة حيث يتم صمعه على حساب السيد الأكبر^(٣). وقد نُسحت عليه أربعة متنوعة بالنون نفسه كالقماش، بذلك فمن الصعب جداً قراءتها. وهناك خط من الكتابات المعانلة التي شُعلت بحيط ذهبي، وقد التفت حول أسى بكاميه قليلاً فوق الوسط. أما الجزء الذي يعطي الباب من الكسوة فقد طُرِرَ بالقصة بكثرة وهناك فتحات تُركت سحجر لأسود وللآخر في الراوية الحسوة الشرقية بحيث يبقى الاثنان مكشوفين إن لكسوة دائماً الشكل نفسه والقماش نفسه وتلك التي رأيتهما في ريزي الأوسى بمسجد كانت في حالة رثة وميشة بالثقوب وهي الخامسة والعشرين من شهر «دي القعدة» يتم برع الكسوة القديمة فتبقى الكعبة دون عطاء لمدة خمسة عشر يوماً، ويُقال عنده «إن الكعبة تحرم»، «أي أن لكعبة قد لست الإحرام» ويستمر ذلك حتى العاشر من «دي الحجة»، وهو يوم عودته. يحتاج من عرفات إلى وادي منى، حيث يتم وضع الكسوة الجديدة خلال الأيام الأولى تشي أطراف العطاء إلى أعلى وترفع بحجر مشينة ومشدودة إلى سطح حتى تُترك الجزء الأسفل من الساء مكشوراً، وبعد أن تنفي الكعبة كذلك ليصنع أيام، تُسدل الكسوة لتُعطي الباء بأكمله تُربط حينها عند قاعدة الكعبة إلى حنقات بحاسية متينة. كانت عملية نزع الكسوة القديمة ثم بطريقة غير لائقة أبدأ، حيث كان يشأ عراك بين المحاح وأهل مكة، شباباً وكهولاً، على بصع قطع أر أسمايل منها حتى أن محاح يجمعون العار لعلق على جدران الكعبة تحت عطاء ويبيعونه عند عودتهم كأثر مقدس عنده يكون أسى مُعطى وعار تماماً أو «عريان» كما يُقال، ويحتمع حشد من السماء حوله مُهللات بصيحات تُدعى «ونؤله».

إن بون الكسوة الأسود الذي يعطي مكعاً صحماً وسط فناء شسع، يعطي الكعبة، عند

(١) إن الوهابيين، خلال السنة الأولى لانتسابهم في مكة، قد عطف الكعبة بكسوة حمراء اللون صُنع في الحسد، من القماش نفسه الذي تُصنع منه العنابات العربية الأيمة.

(٢) خلال العصر الأول للإسلام، لم تكن الكسوة تُرعى أبداً حيث كانت توضح الجديدة سنوياً فوق القديمة. لكن للمكين بعد فترة من الزمن، خشوا أن تتداعى الكعبة تحت ثقل تكديس الورق عليها، فترع عنها الخليفة المهدي بن عبد الله الأعظم سنة ١٦٠ هـ (راجع المنبري).

انطرة الأولى، مطهراً فريداً وجليلاً؛ وبما أنها غير مثبتة إلى الأسفل بشدة، فإن أرق نسمة تجعلها تتحرك في تموجات بطيئة تتم تحيُّتها بأدعية من حشد المصلين حول الباء، كإشارة إلى حضور الملائكة الحارسين، حيث يُفترض أن يكون حَقُّ أحبتهم هو السبب في تموج العطاء. وهناك سبعون أمماً من الملائكة الذين يتولون رعاية الكعبة، وقد أمروا بحملها إلى الفردوس حين يدقُ النعير مؤذناً يوم الحساب [19].

إن تعطية الكعبة كانت عادة قديمة عند العرب الوثنيين ويقول لأرزقي إن أول كسوة وضعها أسد ثُجج، أحد ملوك اليمن الحميريين. فقبل الإسلام، كان لها كساءان، واحد للشتاء وآخر للصيف. وكان أحياناً أبيض اللون في العصور الأولى للإسلام، وأحياناً أخرى أحمر اللون، وكان يتألف من أعى أنواع القماش المطرّز المنقُص. وفي أرمه لائحة، كان سلاطين بغداد ومصر واليمن المختلفون يتولون كسوتها، وذلك حسب سيطرة بقودهم المتعاقب على مكة؛ إذ إن كساء الكعبة كان يُعتبر رمزاً لسيادة على الحجاز. وقد استولى «قلاوون» سلطان مصر، لنفسه ولخلفائه على الحق الحصري في ذلك، وكان منهم ورثة سلاطين القسطنطينية كما استولى قلاوون كذلك على عائدت القريين الكبيرتين في جنوبي مصر، ييسوس وسنديير، وذلك لتأمين كلفة الكسوة، ثم أصاب هذه السلطان سيمان بن سليم عدة قرى أخرى؛ لكن الكعبة قد جُرّدت الآن من هذا المورد منذ وقت طويل⁽¹⁾

وهناك أرضية حمية ومرصوفة بالرحام حول لكعبة. تنحصر عن مستوى الفناء مربع الكبير بنحو ثمانية إنشآت، وقد وُضعت سنة ٩٨١ هـ بأمر من السلطان، ولها شكل بيضاوي غير منتظم وقد أحيطت باثنين وثلاثين عموداً ذهبياً رفيعاً بين كل اثنين منها، علقت سعة مصابيح رجاحية تُضاء دائماً بعد الغروب. ووراء الأعمدة، أرضية مرصوفة أخرى، يلمع عرصها بنحو ثمانية خطوات وقد ارتفعت عن الأولى نوعاً ما لكنها ذات صفة أسوأ ثم هناك واحدة أخرى، أعلى ستة إنشآت ويسع عرصها ثمانية عشرة خطوة تقف عليها عدة أبية قديمة صغيرة؛ وحلف تلك، هناك الأرض المقروشة بالحصاء، بحيث أن درجتين عريضتين قد تؤديان من الفناء المربع نزولاً إلى الكعبة. أما الأبنية الصغيرة المذكورة أمماً ولتي تحيط بالكعبة فهي المقامات الخمسة مع بئر زمزم والقنطرة المدعوة بباب السلام والنسر

هناك أربعة أبية صغيرة أخرى مقابل الجهات الأربع للكعبة، يقف عليها أئمة المذاهب الدنية الإسلامية، وهي الحمية والشافعية والحنبلية والمالكية، يؤموا الحشد بالصلاة. يقع مقام المالكي في الجنوب والحنبلي مقابل الحجر الأسود، وهو عبارة عن مقصورة صغيرة مفتوحة من

(١) راجع قطب الدين والأعصم

الجهاب كلها ويدعمها أربعة أعمدة رفيعة مع سقف مائل خفيف ينتهي في نقطة تماماً مسطحة بقاء الناعودة^(١) يهمني. ولقمام الحضي. وهو الأكبر حجماً حيث يبلغ طوله خمس عشرة خطوة وعرضه ثمانية وهو مفتوح من الجهات كلها ويدعمه اثنا عشر عموداً صغيراً، وله صابق علوي، مصوح كذلك، يتحد فيه المؤذن الذي يدعو إلى الصلاة موقعه. وقد بقاء أول مرة السلطان سليم الأول سنة ٩٢٣هـ، ثم أعيد بناؤه بعد ذلك بأمر من حوشعبيدي حاكم جدة، سنة ٩٤٧هـ. لكن المقامات الأربعة كلها، كما هي الآن قد بُنيت سنة ١٠٧٤هـ^(٢)، ويقع المقام الشافعي فوق بئر زمزم، وهو لها كعرة عسوية.

يجلس أئمة المذاهب الأربعة المختلفة للصلاة قرب مقاماتهم المتعاقبة، وخلال إقامتي في مكة، كان الحشيرة يبدأون صلاتهم أولاً؛ لكن، حسب العادة الإسلامية، يحب على الشافعيين أن يبدأوا أولاً بالصلاة في المسجد، بينهم الحشيرة والمالكيون ثم الحشيرة، من صلاة عرب تشكل استثناء حيث يمنع الجميع بأدائها معاً^(٣)، ولقمام الحشيرة هو المكان الذي يجلس فيه صايط الحكومة وشخص كبار الحشيرة خلال تلاوة الأدعية؛ وهذا يجلس الباشا والشريف؛ وفي عابهم يجلس حشيرة بعد يلاً هؤلاء المسدحة تحت هذا المقام في الجهة المقابلة، ورؤسها تحدد أماكن سماء سخايات لنواني بربر المسدح واللواني يأتيه إليه يشكل أساسي بصلاحي عرب والعشاء كما يؤدين الصواف أو لدوران حول الكعبة في الليل عامه على الرعم من رؤسهم أحياناً يمشون خلال النهار بين الرحال.

يقع الذي الحالي الذي يصوّف بئر زمزم بالقرب من المقام الحشيرة وقد شُيّد سنة ١٠٧٢هـ^(٤)، وله شكل مربع وباء صمغ مع مدخل من الشمال يفتح على العرة التي تحتوي على بئر. وقد بُنيت هذه العرة بشكل جميل بالرحام بألوان متعددة، ومحداته، لكن لها باباً مفصلاً وهناك عرفة صغيرة فيه، حزان حشري مليء دائماً بماء زمزم يشرب منه الحجاج بتمرير يدهم بكموب عبر فحة مشبكة بالحديد، وهي عبارة عن نافذة تطل على الحشيرة دون لدخول إلى العرة. يحيط بمساحة البئر حذر يبلغ عنوه خمس أقدام وقطره عشر يقف عليه الناس يدين بسحب الماء في دلاء حديدية، وقد بُنيت سياج حديدي بطريقة تمنعهم من السقوط فيه. في زمم الفاسي، كان هناك ثمانية أحواض رخامية في هذه العرة لمصوء.

ومن قبل طوع الحجر وحتى منتصف الليل تقريباً تكتظ غرفة البئر بالزوار باستمرار. ولكل

(١) رجع قطب الدين والأعصمي

(٢) رجع العاصي

(٣) رجع الأعصمي

حرته في سحب المياه لنفسه، لكن يقوم بذلك عادة أشخاص يقفون هناك بهذا الغرض، ويتقاضون أحدهم من المسجد وهم يتوقعون إكرامة من التشاريين ولكسبهم لا يجزؤون على طليها. ذهبت أكثر من مرة إلى تلك الشر ركت أنظر نحو ربع ساعة قبل أن أتمكن من الحصول على حصة ماء لكثرة الحشود يتسلق الحجاج الأتقياء الحائط أحياناً ويسحبون الدلو لساعات عديدة، آمين بملك التكثير عن آثامهم.

قل العرو نوهائي، كانت بئر زمزم تحصى الشريف، فتصبح المياه بالتالي احتكاراً ولا يمكن الحصول عليها إلا بشئ مرتفع لكن أحد أولى أوامر سعوده، حين وصوله إلى مكة، كان إلغاؤه هذه التجارة. وأصبحت مياه المقدسه^(١) الآن تورع مجاناً ويعتبر الأتراك أن مياه هذه البئر لا تنصب أبداً على الرعم من السحب المتواصل منها، وذلك معجزة. ليس هناك بالتأكيد أي نقص في عمقها لأنني، وبعد المعاينة الدقيقة للحبس الذي تُسحب بواسطته البلاء، وجدت أن الطول نفسه كان ضرورياً عند الصباح والمساء للوصول إلى سطح الماء بعد التحقيق، عمنش من أحد الأشخاص الذين برزوا إليها أيام الوهابيين لإصلاحها، أن المياه كانت تتدفق في القعر، وأن الشر كانت بالتالي تترؤد بالمياه من غدير تحت سطح الأرض. والمياه ثيلة الطعم وشبه أحياناً الحليب في نوبها، لكنها عذبة وتحتل جداً عن آبار المياه المالحة المنتشرة عبر المدينة، وهي فائرة قليلاً عند سحبها وتشبه من هذه الناحية العديد من شبل المياه في الحجارة.

ترؤد بئر زمزم المدينة كلها بالمياه، وبأدراً ما يكون هناك عائنة لا تملأ يومياً جرة من مياهها، عبر أنها لا تستعمل إلا للشرب أو لوصوء لأنه من غير النزع، كما هو معتقد، استعمال مياه بهذه القداسة^(٢) لأغراض مصبحة أو في مناسبات عديدة. لكن حاح تقريباً جرة موصوعة أمامه، حين يأتي إلى المسجد للصلاة المسائية، يصحبها أولئك الذين يكسبون رزقهم من خلال تأدية هذه الخدمة. وتورع المياه في المسجد إلى كل ظمان لقاء ثمن بحس، بواسطة حاملي المياه مع حرار كبيرة عنى ظهورهم، ويتقاضى هؤلاء الرجال أيضاً أحدهم من الحجاج المحسنين لتزويد الحجاج الأكثرين فقراً بهذا الشرب المقدس قبل الصلاة أو بعدها مباشرة.

تعتبر هذه المياه دواء ناجعاً لكل الأمراض. ويعتقد المؤمنون أنهم كلما شربوا منها تحسنت صحتهم وكانت صلابهم مقبولة أكثر من له. وقد رأيت بعضهم عند البئر يشربون كمية كبيرة منها إلى درجة لم أعتقد أنها ممكنة أبداً. وكان هناك رجل عاش معي في المنزل وهو مريض بحمى متقطعة، وكان يذهب كل مساء إلى بئر زمزم ويشرب من مياهها حتى يكاد يعمى عليه ويستلقي بعدها لساعات عدة ممدداً عنى ظهره عنى الأرضية قرب الكعبة، ثم يعود ليجدد

(١) ماء زمزم غير مقدس كما يزعم المؤلعة.

شربه وعندها وصل إلى شفير الموت بسبب ذلك، أعلن بأنه مقتنع تماماً أن تعاقبه مرضه يعود إلى عجزه عن ابتلاع كمية كافية من المياه! إن العديد من الحجاج الذين لا يكتفون بمجرد شرب مائها، يعزّون في لرفة ويُفرعون محتوى البلاء من الماء على أحسادهم، فهم يعتقدون بذلك أن القلب يتطهر وكذلك الجسد. وقيل هم الحجاج الذين يعدّون مكة دون أن يحملوا معهم بعضاً من هذه المياه في أية من السحاس أو التصدّير، إما بعرض تقديم هديا وإما لاستعمالهم الشخصي في حال المرض، أو بلوصوء والتصدّير بعد الموت. لقد حملتُ معي أربع زجاجات صغيرة بيّنة تقديمها كهديا لملوك المسلمين في بلاد الروج. وقد رأيتها تُساع في السويس من قبل حجاج عاتدين من مكة بسعر بيرة لمقدار مملأ صحن قهوة.

إن سد رمرم هو أحد العماء الأساسيين في مكة. لا حاجة لي لأن أدكر انقراء بأن المقترص هو أن رمرم هي السبوع ندي وجدته هاجر في البراري في اسقطه التي كان فيها آبها إسماعيل يحتصر من اصماً. ومن المرشح أن مدينة مكة تدين بجدورها لهذه اشتر. لأننا لا نجد لأميال عديدة حولها أي مياه عذبة، ولا في أي جزء من لبلاد المحاذية، بهذه الوفرة ووفرة.

في الجهة الشمالية الشرقية من رمرم مبيان صغيران، يقع الواحد خلف الآخر ويُدعيان «القشين» وقد عُطّيا بقشّين طُلب بالطريقة نفسها كما في المسجد وبهما حرار ماء ومصابيح وسجد وحصير ومكانس وأعرّض أخرى تُستعمل في المسجد نفسه. إن هذين المبيّنين القشيين يسبّب للخطر الداحني ليلساء، لأن شككهما الصصح وبُنيتهما يتعارضان بشكل غير مؤب مع الشكر الخفيف والجيد التهوية بمقامات. وقد سمعتُ بعض الحجاج من اليهود وهم رجال مرهقو الدوق أكثر من عرب، يُعبرون عن أسفههم للسماح بقشّين بتشويه المسجد، حصه وأن بالإمكان وضع محتوياتهما في الأبنية المحاذية له وهما لا يشكّلان جزءاً مهماً منه لعدم ارتباطهما بأي صعه أو أهمية دينية. وقد بياهما اخوشعينيدي، حاكم جدة، سنة ٩١٤هـ، ويدعى إحداهما «قبة العاس» لأنها تقع في مكان حران صغير يُقال أن العاس قد وضعه، وهو عم محمد - صلى الله عليه وسلم.

عنى بُعد بضع خطوات، عربي رمرم، مقابل باب الكعبة مباشرة، يقف سُلمٌ أو درج يُرفع على حائط الكعبة خلال الأيام التي يُفتح فيها ذلك الباء، يصعد عليه الزوار إلى الباب. وهو مصنوع من الخشب مع بعض سربة النقوشة، ويتحرك عني عجلات محفصة، وهو عريض بما يكفي لاستيعاب أربعة أشخاص يصعدون الواحد بجانب الآخر. وقد أرسل السدم الأول من القاهرة المؤيد أبو النصر، ملك مصر، سنة ٨١٨هـ لأنه كان هناك دائماً في الحجار كما يبدو

نقص في الحرفيين بحيث إنه كلما احتاج المسجد إلى أي صفة، كان من الضروري، إحضار مستلزماتها من القاهرة بل حتى من القسطنطينية أحياناً.

على الخط نفسه من السلم، وقريباً منه، فطرة معرلة ودائرية رشيقة البناء ويبلغ اتساعها نحو خمس عشرة قدماً وعلوه ثمانى عشره وتُدعى «باب السلام»، والتي لا يجب الخلط بينها وبين بوابة المسجد الكبيرة التي تحمل الاسم نفسه إن من يدخل إلى بيت الله الحرام للمرة الأولى، عليه الدخول من باب السلام الداخلي والخارجي، وبالمرور تحت الأول، عليه أن يقول: «رب اجعله مدخلاً مباركاً» ولا أعرف من بنى هذه الفطرة لكنها تبدو حديثة.

يقع مقام إبراهيم أمام باب السلام تقريباً وقريباً من الكعبة أكثر من الأبنية المحيطة الأخرى وهو مبنى صغير تدعمه ستة أعمدة يبلغ ارتفاعها ثمانى أقدام، وقد أحاط بأربعة منها، من الأعلى إلى الأسفل، حاجر حديدي جميل ليترك بالتالي المساحة حجب العمودين الخفيفين مفتوحة؛ وضمن الحاجر إطار مساحته نحو خمس أقدام مربعة ينتهي بقمة هرمية الشكل ويُقال أنها تحتوي على الحجر المقدس الذي وقف عليه إبراهيم عليه السلام حين بنى الكعبة، والذي نقله من هنا، بمساعدة ابنه إسماعيل عليه السلام، إلى المكان الذي يُدعى «معجس» الذي سبق ذكره. ويُقال إن الحجر قد تداعى تحت ثقل الأب الحليل وأنه ما برح يحتفظ بآثار قدمه التي ما زالت ظاهرة عليه، لكن يُنمى من الحجاج لم يرها أنداً لأن الإطار معطى دائماً بشكل كامل بقماش حريري أحمر مقضب ومطرز بشكل جميل ويرى أساس باستمرار أمام الحاجر يتوسلون بشعاع إبراهيم، وعلى الحاح صلاة قصيرة بحجاب المقام بعد أن ينتهي من الطواف حول الكعبة ويُقال أن العديد من الصحابة، أو أول من وإلى الإسلام واعتنقه، قد ذهبوا في المساحة المكشوفة بين هذا المقام ورمم ذلك فهو أكثر الأمكنة تفصيلاً للصلاة في المسجد. في هذا الجزء من المساحة قام الخليفة سليمان بن عبد الملك، أخو الوليد، ببناء حزان سنة ٩٧هـ، وملاؤه من يسوع شرق عرفات. إلا أن المنكبين أزالوه بحجة أن مياه رمم كانت معضلة^(١).

بحجاب مقام إبراهيم، يقع مير الوعظ في المسجد، أمام الجزء الأوسط لمقدمة الكعبة وقد بُني برهافة ذوق من الرخاء الأبيض الأبيق، مع العديد من الرخارب المنقوشة، وقد أرسله هدية إلى المسجد السلطان سليمان بن سليم^(٢) سنة ٩٦٩هـ. وهناك درج ضيق مستقيم يؤدي إلى مركز الخطيب، يعلوه برج ذهبي كثير الأصلاع مستند الرأس يشبه المسنة. هنا تُلقى الخطب أيام الجمعة أو في بعض المناسبات والأعياد. وهي، كمثتها في كل المساجد في البلاد

(١) راجع بحث المقرئ - منهج من الخلفاء

(٢) أرسل مير الأول من القاهرة سنة ٨١٨هـ، مع الدرجات المذكورة أعلاه، بأمر من الوليد، ملك مصر (راجع الأعصم)

الإسلامية، بها لمجوى وامعري مسجدهم، مع بعض التعديلات الطمبة التي تنطسها اندسات الخاصة. وقبل أن يعرو الوهابيون مكة، كست ثصاف الدعوت لمسطار واشريف، لآ أن مسجداً قام بمسها مع ذلك، فقد أعيدت العادة القديمة تلك مد الحكم التركي، فيحشر اسم المسطار ومحمد علي باشا واشريف يحيى في الدياحة أيام الجمعة وكذلك عند انتهاء صلاة المغرب اليومية. يُعهد بالخطب على المسر إلى العديد من علماء مكة الأول؛ وهم دائماً أشخاص مسون يتولون مهمتهم بتتابع في لرمس لبعيد، كان محمد نفسه يعنلي لمسر ويخطب في الناس كنما أتى إلى مكة، كذلك خلعه والخلعاء.

ويظهر الخطيب على المسر وقد انتف بعسة بيضاء اللون تعطي رأسه وجسمه ويحمل عصا في يده، وهي عادة تُمارس في مصر وسوريا أيضاً تحليداً بعصر الأول من لإسلام حين كان الخطباء يحدون لستح ضرورياً خوفاً من معاجئهم ويتم دفع عمين أحصيرين على حاسبي الخطيب، كما في المساجد الأخرى.

يقوم روار لكعبة بوضع أحديتهم على مقربة من لمسر لأنه يس مسموحاً لسير حور الكعبة بالأحذية، كما لا يُعتبر لائقاً حمل الأحذية باليد كما يحدث في مساحد أخرى ويقوم بحراسه الأحذية عدة أشخاص يتوقعون عطية صغيرة مقابل ذلك. ولكن قداسة منطقة الحرم لا تردع لساكنين، إذ يبي فقلت على انبوي في هذه البعة ثلاثة أروح من لأحذية لجديده، ويحدث الأمر نفسه مع العديد من الحجاج.

لقد قمتُ الآن بوصف الأبية كنها الواقعة ضمن سياج المسجد^(١).

ثم عند صلاة المغرب تعطيه لأرض امروشة باخصاء وجرء من لأرضية الخارجية محاذية للكعبة، بالسجاد الذي يلع طوله من ستين إلى ثمانين قدماً وعرضه أربع أقدام، وهو من صناعة مصرية، ثم يُعد ثقه بعد انتهاء لصلاة وبأني العدد الأكبر من الحجاج يسجداتهم اخاصه وتُعد الأجراء البعيدة من المسطفة، والأرض تحت صبف الأعمدة، بالخصر التي أحصرت من سواقين؛ وهذا المكان الأخير هو المكان المعتد لتأدية صلاة الظهر والعصر يفدّم حجاج العديد من تلك الخصر ويشعرون في المقابل بالرؤسى لرؤية أسمائهم مكتوبة عليها بأحرف كبيرة.

(١) إن خريطة أرض المسجد التي قدمها عني بك الماسي وصحيحه تماماً إلا أن ذلك لا يطبق على خريطة مكة التي وسمها ولا على أرائه المختلفة عن لبحار إن معاربه لقوصف الذي قدمته وكتابه هو مستظهر المعاد التي اختلف فيها معه، حيث يعني بالمسجد وأيضاً عي يتعلق ببندينه وسكانها. وقد وقفت على كتاباته بعد عودتي من شبه الجزيرة العربية إن مشهد مسجد الذي قدمه d'Ohsson، في كتابه القيم، صحيح جداً، يشاء أن الكعبة كبيرة جداً بالنسبة إلى باقي الباء غير مشهد مدينة مكة لم يكن وهياً وصحيحاً أم الرسم الذي في كتاب بيور، والذي نسخ عن رسم عربي قديم، فهو أفضل دقة من رسم d'Ohsson. إذ إن الأسمية يبدو أنها رُسست قبل التعديلات الأخيرة التي حدثت على الباء والمسجد.

عند غروب الشمس يجتمع عدد كبير لتأدية صلاة المغرب ويشكّون أنفسهم في عدة دوائر واسعة يبلغ أحياناً العشرين دائرة حول الكعبة التي تصبح وسطاً مشتركاً بسجدة أمامه كل شخص. وهكذا، كما يلاحظ علماء الدين المسلمين البارزين، فإن مكة هي المكان الوحيد عبر العالم الذي يستطيع فيه المؤمن التخصّص، أن يتجه خلال تأدية صلاته نحو أي نقطة في النوصلة. ويتّخذ الإمام موضعه قرب بوابة الكعبة وتفتدي به الجموع المحتشدة كلها. إن وقع السجود المتوحد الذي يقوم به ستة أو ثمانية آلاف شخص. يُضاف إلى ذلك تذكُّر المسافة والمساطر المحتلمة التي يأتون منها، ولأي عرض، لا يمكن إلا أن يترك في نفس أكثر الأشخاص برودة ورباطة جأش. شيئاً من الرهبة. وعدم ثناء المصاييح ليلاً، فإن الأعداد الكبيرة من المؤمنين الذين يؤدّون الطواف حول الكعبة، ومطر الحشد الناشط، وأصوات المصنّفين المصممين على جعل أصواتهم تُسمع من قبل أولئك الذين يردّدون الصلاة بهم، والتجاذبات الصاحبة للعديد من الكسائي، ورخص القضية ولعبيهم وصحّكهم، كل ذلك يُصفي عني الجز بأكمه مظهراً محتلفاً كلياً يشبه أكثر ما يشبه مكاناً لتسليّة العامة^(١). غير أن الحشود تعاد المسجد نحو الساعة التاسعة ليصبح المكان مجدداً مكان تأمل هديء وصامت. وصلاة للرائزين القلائل الذين تدفعهم إلى ها تقوى صادقة وليس أي دوافع دنيوية أو تقييد.

هناك رأي سائد في مكة، يسع من عرف ديني مقدّس، يقول إن المسجد بإمكانه احتواء أي عدد من المؤمنين؛ وأنه إذا ما دخلت الأمة الإسلامية كلها دفعة واحدة، سيجد الناس كلهم مكاناً فيه للصلاة. ويُقال أن الملائكة الحارسين سيوسعون بشكل غير مرئي مساحة البناء، ويُقلّصون حجم كل فرد الواقع في المسجد، خلال مواسم الحج الأكثر اكتظاظاً، الذي يستطيع على ما اعتقد احتواء نحو خمسة وثلاثين ألف شخص وقت الصلاة، لم يكن أبداً متلىء بصفه وحتى أيام الجمعة أيضاً. لأن لأكثرية السحقة من المكين تؤدي صلاتها في سرل، بعكس ما أوصى به الشرع، هذا إذا ما صلّوا، ويتبع مثلهم الكثير من الحجاج كما أبي له أستطع أبداً إحصاء أكثر من عشرة آلاف شخص في المسجد في الوقت نفسه، حتى بعد العودة من عرفات، حين يجمع حشود الحجاج كلها لبعثة أيام في المدينة أو حولها.

في كل ساعة من النهار، يرى أشخاصاً تحت صف الأعمدة مهمكين في قراءة القرآن. يكتب دبية أخرى، وهذا عند العديد من اليهود الفقراء أو الربوح حصرهم ويصون كل فترة. فإنيهم في مكة هم يأكلون ويأمنون لكن عداد الطعام غير مسموح به هناك وخلال ساعات الظهيرة، يأتي العديد من الأشخاص ليأخذوا نسطاً من الراحة تحت صف الأعمدة، في ظل

(١) يكثر المؤنّف من مثل هذه العبارات، والتلميحات السيئة للمسلمين وشعائرهم.

السقف المقطر البارد. وهي عادة لا تُعشّر نط الساء الذي يراه في معابد المسلمين القديمة في مصر وشبه الجزيرة العربية فقط، ولكنها تفسر الأمر نفسه في معابد المصريين القدماء، التي قد تكون تُركت فيها الأروقة الصحمة لمعشده المفتوحة لأهل البلاد الوثنيين الذين لا تؤمن لهم مارنهم المنيبة من الطين إلا ملجأ غير كافٍ ضد حراره منتصف لهار

ولا يصح المسجد الكبير في هذه اسلاد بقديسية الصلاة ومحرمها إلا في ساعات الصلاة وبدون ذلك تبدو وكأنها أماكن عادية وقد رأيت في الأهرام الجامع لأول في القاهرة، صبه ينادون عالياً لبيع القطر المحلاة وحلأقوب يحقون نزيائهم وانعديد من عامة لشعب يتناولون عشاءهم بسب لا يحول اساء الحشد خلال الصلاة أي حركة خفيفة ولا حتى هسة. إن أي صوت لا يُسمع خلال تأدية الصلاة في المسجد الكبير في مكة إلا صوت الإمام. حيث يصيح، في أوقات أخرى، مكاناً لاحتصاع رجاء الأعمد يتباحثو بشأن أعمالهم وهو يعشّ أحياناً بالحجج الفقراء أو بامرصى الممددين تحت صف الأعمدة وسط أمتعتهم اسائسة ارثة، إلى درجة يصح فيها أشبه بمستشفى مه مسجد والنصبة يلعبون في الساحة الكبيرة والحخدم يفلون الأمتعة غيرها يجرروا من أقرب طريق من جزء من المدينة إلى الآخر وهو يشبه من هذه الناحية المساجد الكبيرة لأخرى في الشرق. لكن الكعبة المقدسة باتت مسرحاً مثل هذه الأعمد غير اللاتفة والإجرامية بحيث لا يمكن للمرء إلا أن يلحظ ذلك ولا تتم ممارسة هذه الأعمال ه من عر عقوبة فقط، لكن تقريباً بطريقة علنية، وكثيراً ما أثارت شخصي أمور بعضة سم نكنس تحدث في المشاهدين المربين الآخرين أكثر من ضحكة أو تأييب خفيف

لقد أُقيمت مدارس عامة في أجزاء عدة من صف الأعمدة حيث يتعلم الأولاد الصغار التهجئة والقراءة وهي تشكل مجموعات صاحبة جداً كما أن عصا معلم لا تكف عن أداء وظيفتها. ويُنقى بعض عشاء مكة محاصرت حول موضوعات دينية كل يوم بعد الظهر تحت صف لأعمدة إلا أن عدد المسمعين نادر ما يكون كبيراً. في أيام الجمعة، يقوم بعض العلماء الأراك بعد الصلاة بشرح عدد من سور القرآن لوطيهم المحدثين حزنهم ثم يعود بعدها كل واحد من الحضور إلى تقبل يد المعشّر ويرمي القود في قعته. وقد أعجبت بشكل خاص ببلاغة خطاب أحد هؤلاء العلماء رغم أنني لم أفهمه لأن محاضرة كانت تُلقى باللغة التركية إن إيماءاته والبره بتعبيره في صوته كانت معبرة أشد التعبير، لكنه كممثل على المسرح، بإمكانه أن يضحك ويكي في الدقيقة نفسها ويكفي قسما وجهه خدمة عرصه بطريقة ماهرة جداً لقد كان من أهل بورصة وقد جمع مبلغاً كبيراً من المال.

قرب بوابة المسجد لبي تُدعى باب السلام، يجلس بعض الشيوخ لعرب يوماً مع دواتهم

وورقهم مستعدين للكتابة لكل من يطلب ذلك، من رسائل وحسابات وعقود أو أي وثيقة مشابهة. كما يتعاطون كذلك بالتهويد والأحذية المكتوبة كذلك الشائعة في بلاد الروج كالحجاب وإيصالات الحب وتُدعى «كس محبة وقبول» يستعملها خصوصاً الدو ويطلبون فيها مبلغاً بهظاً.

وشاهد باستمرار الأكفان والأقمشة الكتانية لأخرى المعسولة بمياه رمرم وقد عُثقت بين الأعمدة حتى تحف. ويشترى العديد من الحجاج الكس الذي يرغبون في أن يذهبوا فيه من مكة ويعملونه بأنفسهم عند مر رمرم، مُفترضين أنه إذا ما لُفَّت الجنة بكتان قد تم تيميله بهذه المياه المقدسة، فإن سلام الروح بعد الموت سيكون مضموناً تماماً. ويجعل بعض الحجاج من هذا الكتان سلعة تجارية.

تكتظ مكة عموماً والمسجد خاصة بأسراب الحمام البري الذي يُعتبر منكهة المعبد التي لا تُنتهك حرمتها ويُدعى حمام بيت الله ولا يجرؤ أحد على قتل أي منها حتى حين تدخل إلى البيوت الخاصة. وفي فناء المسجد هناك عدة أحواض حجرية، صغيرة تملأ بالماء بانتظام للحمام وهنا أيضاً تعرض نساء عربيات الحظوة والدرة لبيع، على تحضر صغيرة من الفس، يشتريها الحجاج ويرمون بها إلى الحمام. وقد رأيت بعض فتيات الهوى يتخذن هذه الطريقة عرض أنفسهن وللمساومة الحجاج بحجة بيع الدرة للحمام مقدس^(١)

إن عدد بوابات المسجد هو تسع عشرة وقد وُزعت حوله دون تناسق أو ترتيب. وأدبلها أسماءها كما تُكتب عادة على بطاقات صغيرة من قبل المطوفين، وهي عمود خمر هناك الأسماء التي كانت تُعرف بها تلك البوابات في الأرملة العابرة والتي أخذتها خاصة من الأرقم والقطيبي.

(١) لا ينسى المؤلف ذكر مثل هذه الأكاذيب والإساءات للمسلمين، وأماكن عبادتهم من اليمن والآخر

الاسماء القديمة	الاسماء الحديثة
باب بني شيبه	- باب السلام، يتألف من ٣ بوابات أصغر حجماً أو قناطر
باب جنابر، حيث أن الميث يحمل عبرها إلى المسجد وتنتهي أدعية على روجه وجسده	- باب النبي، يتألف من بوابتين أصغر حجماً، أو قناطر
باب بني شيبه	- باب العاص، يتألف من ٣ بوابات، أو قناطر عديداً، كان مع أمهات عرب العباس باب الشرطة
باب بني شيبه	- باب علي، يتألف من ٣ بوابات أصغر حجماً
باب يازان	- باب الزهراء، يتألف من بوابتين أصغر حجماً
	- باب الدشرة
	- باب بقله، يتألف من بوابتين أصغر حجماً
باب بني منزوم	- باب المعاء، يتألف من ٤ بوابات
باب اسيراد	- باب شريف، يتألف من بوابتين
باب الدعامة	- باب مجاهد، يتألف من بوابتين
باب شريفه جملان، الذي يراه	- باب زخرفة، يتألف من بوابتين
	- باب أم هانئ، يتألف من بوابتين تدعى كذلك نسبة إلى أبي طالب
باب حوزة الأخيرة	- باب الوداع، يتألف من بوابتين الذي يمر عبره الحاج حين يمشي للمسجد
باب حوزة الأخيرة	- باب إبراهيم ^(١) ، يتألف من بوابة واحدة
	- باب القمرة يتألف من بوابة واحدة يخرج منه الحاج لأداء الصلوة. تدعى كذلك
	بني سهم
باب عمرو بن العاص أو باب المسيرة	باب عتيق، يتألف من بوابة واحدة
باب عتق	- باب الباسطيه، بوابة واحدة
باب رباط دار الفتوة	- باب الكسي ^(٢) ، بوابة واحدة
	باب زيادة يتألف من ٣ بوابات
باب مدرسه	- باب فريه، بوابة واحدة
	مجموع عدد القناطر تسع، ثلاثون

إن البوابات الرئيسية منها هي:

في الجهة اليمنى الشمالية، باب السلام التي يدخل فيها كل حاج إلى المسجد وباب عمار؛ وباب عتيق التي قيل أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - كان يدخل دائماً إلى المسجد منها؛ وباب عتيق وفي جهة لشرقيه، باب الريت أو باب عشرة التي كان يدخل منها أصحابه العشرة الأول، أو أولياء محمد - صلى الله عليه وسلم - وباب الصف وبوابتان تدعى ببيان الشريف، وتقع مقابل قصور لشريف وهي الجهة الجنوبية، باب إبراهيم، حيث يمرر صف

(١) تدعى كذلك، ليس بسبب إبراهيم، لكن من غيظ كان دكانه بالقرب منه.

(٢) أحد أسماء كاد - شهر تاريخ مكة، عاش في منطقة محاذية، وضع هذه البوابة الصغيره التي تؤدي إلى المسجد

الأعمدة وراء حص الأعمدة استقيم ويشكل مربعاً صغيراً؛ وباب العمرة من الضروري المرور عبره عند أداء العمرة وفي الجهة الغربية، باب الريادة ويشكل مربعاً بارزاً مشابهاً لذلك الذي عند باب إبراهيم، لكنه أكبر، ولعظم هذه البوابات قناطر عالية محددة الرأس، لكن عدداً قليلاً من القناطر المدوّرة الرأس تُشاهد بينها، وهي نصف دائرية تقريباً ككل القناطر في الحجار من هذا النوع. وقد حلت من الرخاف ما عند القنوش من الخارح التي تُجبي لذكرى من بناها. وهي ترجع كلها إلى ما بعد القرن الرابع عشر. وبما أن كل بوابة تتألف من قصرتين أو ثلاث فناصر، أو أجزاء، مفصصة عن بعضها بعضاً بواسطة جدران صنيقة، تُحسب بالتالي هذه الأقسام عند البوابات المؤدية إلى الكعبة، مما يجعل العدد سعةً وثلاثين. وبما أن البوابات من غير أبواب، يبقى المسجد مفتوحاً في الأوقات كلها. لقد دخلت المسجد في كل ساعة من الليل وكنت أجد دائماً أناساً «هناك» إما يصلون وإما يتجولون.

إن الجدران الخارجية للمسجد هي تلك التي تعود للمسار التي تحيط به من الجهات كلها. وكانت هذه المنار أساساً تحص المسجد، أما الآن فالقسم الأكبر منها هو ملك للأفراد الذين اشتروا تلك المنار ويتم تأجيرها لأغنى الحجاج بأسعار باهظة جداً تعدد الخمسمائة درهم لقاء شقة جيدة مع نوافذ تطل على المسجد لذلك. فقد فتحت النوافذ في أقسام عديدة من الجدران على مستوى الشارع وعروق الأرضية عند صب الأعمدة. وبإمكان الحجاج الذين يعيشون في تلك الشقق أن يؤدوا صلاة الجمعة في المنار؛ مما أنهم يرون الكعبة من النافذة، يُفترض أن يكونوا في مسجد نفسه، ويُسمح لهم بمشاركة أولئك المحتجعين ضمن حدود المسجد في الصلاة وهناك شقق صغيرة مبنية في الجدران على مستوى معين من مطابق الأرضي لصف الأعمدة، وتفتح عليهم، وبها مصهر يشبه البرانات وقد بقيت هذه الشقق ملكاً للمسجد فيما أصبح منار الخاصة موقها مُكناً للأفراد. وهي تؤجر إلى «رجال الماء» الذين يصنعون الجرار الحديثة بماء رمزم فيها، أو إلى حجاج أقل عى من يربحون في العيش في المسجد ولا نرا بعض المنار المحيطة تحص المسجد وقد كانت مُعدّة أساساً لتكون مدارس حكومية كما يوحي بذلك اسمها مدرسه وهي الآن تؤجر كلها إلى الحجاج. وقد عاش محمد علي باشا في أحد أكبر تلك المنار وعاش في آخر حسن باشا^(١).

(١) إن إحدى أفضل المدارس في مكة التي بُنت بأمر من قاين بك، سلطان مصر سنة ١٨٨٨هـ بجانب المسجد وبمواجهه شارع «مسمى» أصبحت كذلك مبنى خاصاً بهد أن حُرمت من مدخولها بسبب قلب المشرفين عليها إلى جانب المدرسه. كان هناك باب آخر أصغر حجماً بناها سلاطين محضون في مصر والقسطنطينية لأغراض مشابهة، وتدعى رباط حيث يسكن الحجاج الفقراء الذين يختارون المدرسه هناك، لكنها لاقت مصير المدرسه نفسها وأصبحت الآن إما ملكية خاصة للمكيين أو تؤجر لإيجارات طويلة الأمد، من قبل المسجد.

بالقرب من باب إبراهيم هناك مدرسة كبيرة وهي الآن ملك السيد محجين، وهو أحد أهم التجار في المدينة ويفتح محله على المسجد إن هذا الرجل أمين مشهور بالورع والقدسية، ويقال أن يد الشريف عذب، حين كان مرة يمسك بحماره لأنه رفض أن يقدم بعض المال، قد أصيبت بالشلل للحظة، ويأتي إلى منزله كل مساء مجموعات فتقرأ كتب فقهية^(١) وتناقش موضوعات دينية.

ومن بين الأسبئة التي تشكل سياح المسجد، هناك «المحكم»، أو بيت العدل، بالقرب من باب زيادة، وله بنية جيدة ومنبئة مع قناطر أنيقة في الدحل وفيه صف من النوافذ التي تطل على المسجد، ويسكنه القاضي. وتقع مدرسة كبيرة في محاذاته تحيط بمساحة مرتفعة وتعرف باسم مدرسة السنيماية، وقد بناها السلطان سليمان وابنه سليم الثاني سنة ٩٧٣هـ. وهي دائماً تعج بالحجاج الأتراك، أصدقاء القاضي الذي يتمتع بحق التصرف بالمساكن.

وقد رُئي المسجد من الخارج بسبع مآذن موزعة بشكل غير مستطيم.

١ - مئذنة باب العمرة؛

٢ - مئذنة باب السلام؛

٣ - مئذنة باب عثي؛

٤ - مئذنة باب الوضوء؛

٥ - مئذنة مدرسة قابل بك؛

٦ - مئذنة الزيادة؛

٧ - مئذنة مدرسة السلطان سليمان وهي مآذن رباعية الروايا أو ذات أبراج مدوّرة ولا تختلف بأي شكل عن المآذن الأخرى. واندخل إليها هو من الأبنية المختلفة حول المسجد الذي تحاذيه، وعند الصعود إلى تلك الواقعة إلى أقصى الشمال، نحصل على مشهد جميل للحشد المهرج في الأسفل.

لقد بات واضحاً من الوصف السابق أن مسجد مكة لا يختلف إلا قليلاً في بنيته عن العديد من الأبنية الأخرى من النوع نفسه في آسيا إن مسجد النبي زكريا في حلب والمسجد

(١) إن ابن عم هذا الرجل هو القرماني الشهير السيد محمد المحجل، الذي ارتكب عدة أفعال وعشية ضد المسلمين الأوزبكية في البحر الأحمر وحتى إنه هاجم القرماني في مئذنة سنة ٨١٤ هـ استدعى إلى جدة مع عرشه بالدخول في عهده محبب علي باشا الذي كان يدينه بـ «يا عفايتك بجهة اليمس» وعدم رد الباشا الهدايا القيمة له على أمل إدخاله في خدمته وإلا يهدف تأمين صداقته؛ لكن القرماني رفض عروضه وقد جمع ثروة طائلة وله مرسعات في كل مرفأ في البحر الأحمر تقريباً وبعضه بجواره وجوده لسحابة الشهد وكابن عمه في مكة، يجمع في جعل الناس يعتقدون أنه يتمتع بعوى

الكبير المدعو الأموي في دمشق والعدد الأكبر من المساجد الكبرى حجماً في القاهرة، قد شُيّدت كلها تماماً على الخريطة والتصميم نفسه، مع صف أعمدة مقنطرة تحيط بمساحة مربعة. وإن أياً من المساجد لا يشبه بقدر مسجد ابن طولون في القاهرة الذي بُني سنة ٥٢٦ هـ. ومسجد عمرو الواقع بين القاهرة والقاهرة القديمة. على البقعة التي عرفت دت مرة بالفسطاط، وقد بناه عمرو بن العاص، هي السوات الأولى من فتح مصر؛ وفيه نافورة مياه مقنطرة في الوسط حيث تقف النكبة في مكة، إلا أنه يبلغ ثلث مساحة المسجد في مكة. إن تاريخ بيت الله ليشهد بأنه ساهم في تكوين العديد من المتعممين العرب، ولم يتم توسيع المسجد سوى في الأرملة الأخيرة، فالعديد من الأشجار كانت في يوم من الأيام في فناء المسجد وإن لم تؤسّف أنه لم يتم زرع أشجار أخرى.

إن خدمة المسجد تشغل عدداً واسعاً من الناس فهناك الخطباء والأئمة والمعتون وأولئك الملائمون لشر رمرم والمؤدّبون الذين يدعون إلى الصلاة وأعداد من العلماء الذين يُلقون محاضرات والمسؤولون عن إضاءة المصابيح وحشد من الخدم البسطاء، كلهم يعملون في بيت الله. وهم يتلقون أجوراً منتظمة من المسجد إلى جانب ما يحصلون عليه من الهدايا التي تقدّم لهم من الحاج بغية توريثها، وتلك التي ليست لهذا الهدف يُحتفظ بها لتصليحات البناء. إن مردود المسجد مهم جداً رغم أنه يُجرّد من أهم وأفضل مروع دخله

قليلة هي المدن أو المقاطعات صم لأمر صورية [الدولة] التركية التي لا تحتل فيها الأمر صورية [الدولة] أرضاً أو منارل، لكن المجمع السوي لدخل هذه الممتلكات عالياً ما يحتفظ به الحكام المحليون لأنفسهم، أو فهو على الأقل يتقصر عبر الأيدي التي يمر من خلالها إلى نسبة ضئيلة من قيمته الحقيقية ويعلى الإسحاق El Is-haaky في تاريخه عن مصر، في زمن السلطان (أحمد)، بن السلطان محمد (الذي توفي سنة ١٠٢٧ هـ)، أن مصر كانت تُرسل سوياً إلى مكة مائتين وخمسة وتسعين كيس درهم، موجهة حصيصاً إلى المسجد، وثمانية وأربعين ألفاً وثمانية أرادب من الحنطة وقد قام بيزيد، بن السلطان محمد حاك (سنة ٩١٢) بتحديد دخل مكة والمدينة الذي سيُرسل من القسطنطينية بأربعة عشر دوكان (عملة ذهبية أوروبية) في السنة، ذلك فضلاً عن أندي كان أسلافه قد أمروا به. كما قام السلطان سليمان ابن سليم الأول بزيادة الدخل السنوي لمكة لمُرسل من القسطنطينية والذي حدّده أبوه السلطان سليم بسبعة آلاف أرادب من الحنطة إلى عشرة آلاف أرادب وخمسة آلاف نسكان المدينة^(١) وقد حدّد كذلك الصرة من القسطنطينية، أو كما تدعى الصرة اليونانية بإحدى وثلاثين ألف

دوكانت في السنة^(١) وكان كل الدحل لآبي من مصر تقريباً يصادره لمالك، ثم قام محمد علي الآن بالاستيلاء على ما بقي ويأتي بعض المردود من ليس ويدعى «وقف الحمام»، كما يدخل القليل سويلاً مع قذلات الخجاج يأتي بمكة ليعول إن مسجد مكة صغير مقارنة بحالته السابقة^(٢) ويستشهد بعض المصاييح الذهبية في الكعبة، فهو لا يحتوي على أي ثروات مهما كانت بالرغم من الروايات المساندة عن العكس وقد علمت من القصص نفسه أن السلطان، ولكي يُبقي البناء في حالة جيدة، يُرسل حاليّاً أربع مائة صبرة سويلاً، كهدية إلى الكعبة، وهو مبلغ يُنفق جزء منه في خدمة المسجد ويُقسم الجزء الآخر بين الخدم المرتبطين به

يجب ألا نلاحظ بين دحل مسجد ودحل عدد من المكيين، من فيهم العديد من الخدم، ذلك الدحل الذي يأتي من مؤسسات دينية أخرى في الأمراء طورية «الدولة» التركية ويُعرف باسم «الضرة»، لثني لا يزال قسم كبير منها كما هو غير أن هبات الخجاج هي وفرة جداً لكي تؤمن عيشاً كريماً للأعداد الكبيرة من الأشخاص الكسالى الذين يعملون في المسجد؛ وصد أن موسم الحج قائم فليس من سبب بدنا لكي نحشى اقتصرهم للصعوبات وللكماليات في الحياة

إن الموظف الأول في مسجد هو نائب الحرم، أو حارس الحرم، وهو الحارس الذي يحتفظ بمناجيع الكعبة. تودع بين يديه المبالغ المصروفة كهدايا بناء والتي يوزعها بالاشتراك مع القاصي. ونتم كذلك اتصالات في البناء على وفق توجيهاته^(٣) وبعد اكتمال بي - ولا أدري مدى صحة ذلك - أن مدحول نائب الحرم السوي، الذي يُصادق عليه بشريف ولفاصي ويُرسل إلى القسطنطينية، يبلغ ثلاثمائة صبرة، فقط لمصاريف الاتصالات الضرورية والإصاعة والسجادة، الخ، ولإعالة الخصيان المرتبطين بالمسجد. إن هذا الموظف الآن هو واحد من عماء العائلات الثلاث الوحيدة المنحدرة من قبيلة فريش القديمة والتي لا تزال تقيم في مكة وهناك إلى جانبه، الموظف الثاني في المسجد في المرتبة، وهو أحد الخصيان أو كما يدعى «أعده الطواشي». يمارس الخصيان مهمته المشرفة في المسجد^(٤)؛ فهم يعمون الإحلال بالنظام ويعومون

(١) راجع الأعصمي - مد كان أول من عمى بعليد هذه الصبرة هذه محمد بن السلطان بدير، سنة ١٨٠٦ هـ.

(٢) إن أمر الهدى قد أتوا مرراً وبكرار عن كرم وسخاء عظيم تجاه المسجد في مكة سنة ١٢٩٨ هـ أرسل هدايا كثيرة من الأغراض الثمينة من قبل أمراء البغال وعسايي؛ ويذكر الأعصمي عالماً أسياد ببال كرجان محسن.

(٣) إن شرف الاحتفاظ بمناجيع الكعبة، لا ربح التي نتج عن ذلك، عالماً ما كان موضوع ربح وخلاف ومناجعة بين القبائل العربية القديمة.

(٤) إن موظف العيد أو الخصيان في هذا المسجد يعود إلى قديم الزمان، وكان معوية من أبي صفيان هو أول من طلب العيد ليعمل في الكعبة، بعد زمن قصير من محمد - صلى الله عليه وسلم - (راجع القاسي).

ومن بيت الله أو للمسجد الكبير في مكة

يومياً يغسل وكس الأرصية حول الكعبة بواسطة مكاس كبيرة. وفي وقت المطر، رأيت الماء راكداً على الأرصية بعمق قدم. فيقوم العديد من الحجاج في مثل هذه الظروف بمساعدة الخصييان في إراتها عبر عدة فتحات وثغوب في الأرصية تؤدي، كما يقال، إلى سراديب واسعة تحت الكعبة، على الرغم من أن مؤرخي مكة والمعد لا يتطرقون إلى ذكرها ويرتدي الخصييان القاروق القسطنطيني، مع أثواب واسعة مربوطة بحرام ويحمون عصا طويلة في أيديهم إن النقوش في أثوابهم التي يعرضها *د'Ohsson* في كتابه دقيقة وصحيحة بشكل مدهش كما هي عامة الصور والرسومات كلها على أنزي في هذا العمل، الذي أتيت لي الفرصة كي أقارنه بواقع الحال^(١). ويتعدى عدد الخصييان الآن لأربعين ويسم تمويلهم من الباشا رساء آخرين الذين يرسلونهم كهدية إلى المسجد كما تُرسل مائة دولار مع كل واحد منهم كتجهيز أو عدة وقد قدم محمد عبي عشر خصييان صغار إلى المسجد وهناك، في الوقت الحاضر، عشرة رجال راشدين، وعشرون صبياً يعيشون مع بعضهم في منزل حتى يتم تعليمهم بما يكفي ليُعهد بهم إلى إخوانهم الأكبر سنّاً الذين يبقون معهم يصنع سوات ثم يقيمون مؤسساتهم الخاصة. وقد يبدو غريباً أن الراشدين من الخصييان كلهم مزوجون من جاريات رنجيت وهم يحتفظون بعدد من العبيد من الرجال والنساء في منازلهم، خدماً وهم يُظهرون لهم كل اهتمام، وفي حال حدوث مشاجرات أو شغب فهم يُرحلونهم صرباً بعصيهم. إن العديد من عامة الشعب يقتلون أيديهم عند الاقتراب منهم كما أن رئيسهم أو «الأغا» الذي يتحبونه من بينهم يتمتع بشخصية همة ويُسمح به بالجلوس في حصرة الباشا والشريف. إن بلخصييان دخلاً كبيراً من عائدات المسجد ومن الهبات الخاصة التي يلقونها من الحجاج، كما أنهم يقبضون رواتب منتظمة من القسطنطينية ويحسون الأرباح من التجارة التي يتعاملون بها بوعاً ما، ككس أهل مكة، وحتى رجل الدين الأول. إن حماسهم في السعي وراء الربح التجاري أكبر بكثير من حماسهم لأداء واجباتهم الرسمية، ولا يوازونها إلا تلهمهم على مصادقة الحجاج الأغنياء.

إن معظم الخصييان أو الطواشية، هم من لرنوح، وبعضهم من اليهود ذوي البشرة النحاسية ويُرسَل أحياناً واحد من الرنوح إلى بلاد السودان يجمع لهدايا ملكية. وقد ذكر بروس (Bruce) المصير الذي لقيه محصّي بهذا الوصف فقد حصل ذلك المحصّي على إذن بالعودة إلى السودان، وذلك بعد أن قدم إلى المسجد شخصاً آخر ليحل محله، وقد ذهب إلى بورغو عربي دارفور ليصبح الآن حاكماً قوياً لإحدى المقاطعات.

(١) هذا العمل الرائع هو المصدر الوحيد الكامل لمعلوماتي المتعلقة بموازين ودمتور الدولة التركية، لكن يجب ألا نسي أن المبررات السائدة في المقاطعات تكون لسوء الحظ متعارضة مع روح القانون ونصحه، كما شرح ذلك الكاتب

كَمَا أَتَى حُجَّاجَ الرُّبُوحِ إِلَى مَكَّةَ، فَلَا يَكْفُونَ أَبَدًا عَنْ لَتَوْدُدِ إِلَى الصَّوْاشِهِ وَرَبِّ الْمُحَصِّي،
بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي يَوْمٍ مِنْ الْأَيَّامِ مُلْحَقًا بِحَدْمَةِ الْكَعْبَةِ، مِمَّا يَعْطِيهِ تَسْمِيَةُ «طَوَاشِيهِ النَّبِيِّ» (مُحَصِّي
السِّي)، لَا يَسْتَطِيعُ بَعْدَ ذَلِكَ الدَّخُولَ فِي أَيِّ مَصْنَعِهِ أُخْرَى.

حِلَالُ شَهْرِ رَمَضَانَ (وَهُوَ الشَّهْرُ بَدَى قَصِيئُ أَيَّامِهِ الْأَخِيرَةِ فِي مَكَّةَ، سَنَةِ ١٨١٤م)، يَكُونُ
الْمَسْجِدُ مُتَأَلِّقًا بِشَكْلِ بَارَرٍ وَيُؤَدِّي حُجَّاجَ فِي تِلْكَ لَفْتَةٍ (الَّتِي صَادَقَتْ فِي شِدِّ أَوْقَاتِ سَنَةِ
حَرَامٍ عَمَّةٍ فَرُوضِ الصَّلَاةِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى فِي الْمَزَلِ، نَكْمُهُمْ يَحْتَشِدُونَ فِي مَجْمُوعَاتٍ كَبِيرَةٍ فِي
الْمَسْجِدِ لِعَادَتِهِمْ وَصُنُونِهِمُ الْمَسَائِيَةَ فَيَحْمِلُ كُلُّ وَاحِدٍ فِي مَدِينَةٍ قَلِيلًا مِنَ اللَّحْمِ وَالْخَبِزِ
وَالْجَسَدِ، أَوْ بَعْضُ لَبَسٍ، يَضَعُهَا أَمَامَهُ مُنْتَظِرًا وَقْتُ الْأَدَاةِ لَصَلَاةِ الْعَرَبِ، حَتَّى يُسَمِّحَ لَهُ
بِالْإِفْطَارِ. خِلَالَ هَذِهِ الْفِتْرَِةِ مِنَ التَّرَقُّبِ وَالْإِنْتَظَارِ، يَعْصِرُونَ بِطَبْعٍ عَنِ جِيرَانِهِمْ قَسَمًا مِنْ
وَجْنَتِهِمْ وَيَحْصِنُونَ عَلَى مِثْلِهِ فِي انْقِبَابِ وَلَكِي يَكْسُو شَهْرَةَ بِالْإِحْسَانِ وَلِنَصْدُقَ الْفَرِيدَ
وَالْمُتَمَيِّزَ، كَانَ بَعْضُ الْحُجَّاجِ يَتَنَقَّبُونَ مِنْ رَجُلٍ إِلَى آخَرٍ، وَيَضَعُونَ أَمَامَهُ كُلَّ وَاحِدٍ بَصْعَ قُطْعٍ
صَغِيرَةٍ مِنَ الدَّهْنِ، وَيَتَعَمَّقُ الْمُسْتَوَلُونَ الدِّينَ بِأَحْدَثِ بَدَوَرِهِمْ قُطْعَ الدَّهْنِ تِلْكَ مِنَ الْحُجَّاجِ
لَدِينِ وَضَعَتْ أَمَامَهُمْ وَمَا أَنْ يَبْدَأَ الْإِمَامُ مِنْ عَلَى قَمِهِ بِتَرْمِيمِ يَقُولُ «لَهُ أَكْبَرُ»، حَتَّى يَتَسَارَعَ
لِجَمِيعٍ يَشْرَبُونَ مِنَ الْحِجْرَةِ الْأَيْ مِيَاهِ تَرْمِيمِ الْمَوْصُوعَةِ أَمَامَهُمْ، وَيَتَنَاقَشُونَ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ قَبْلَ أَنْ
يَصْطَوُوا إِلَى الصَّلَاةِ، وَيَعُودُ الْكُلُّ بَعْدَهَا إِلَى أَسَارِ لِنَسَاوَلُوا طَعْمَ الْعِشَاءِ، ثُمَّ يَقُومُونَ مُحَدِّثًا
بِرِيَاةِ الْمَسْجِدِ، لِإِقَامَةِ آخِرِ صَلَاةٍ وَهِيَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ. فِي هَذَا الْوَقْتِ، تُصَافُّ السَّاحَةُ بِأَكْمَلِهَا
وَصَفِّ الْأَعْمَدَةِ بِأَلْفِ انْصَابِيحٍ، وَفَصْلًا عَنْ تِلْكَ، هُنْدَى أَغْلَبِ الْحُجَّاجِ مُشْكَاةَ خَاصَّةٍ
مَوْصُوعَةٍ عَلَى الْأَرْضِ أَمَامَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ. وَهَذَا أَدَّى هَذَا الْمُنَظَرُ لِمَشْعَرِ السَّجْدَةِ السَّارِدَةِ الَّتِي تَعُمُّ
الْعِشَاءَ بِجَاهِزٍ فِي التَّرِيثِ هَذَا، لِنَسْجَعِ حَتَّى مُتَصَفِّفِ اللَّيْلِ هَذَا انْفِصَادًا، وَهُوَ الْمَكَانُ لِوَحِيدِ
الْمَسِيحِ وَالْمُكْشُوفِ فِي الْمَدِينَةِ كُلِّهَا، يَسْمَحُ بِدُخُولِ لِسَمَةِ لِمُعْشَةِ عِبَرِ بَوَانَاتِهِ كُنْهًا، لِأَنَّ
الْمَكِينِ يَعْرِوْنَ ذَلِكَ إِلَى الْأَجْحَةِ الْمُرْفُوعَةِ لِأَرْلُوكِ الْمَلَائِكَةِ لَدِينِ يَحْرُسُونَ الْمَسْجِدَ [١٩] وَقَدْ
شَهِدَتْ حِمَاسَةً حُجَّاجَ مِنْ دَارِفَرِ، وَصَلَ إِلَى مَكَّةَ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ. بَعْدَ رَحَلَةٍ طَوِيلَةٍ
عَبْرَ صَحَارَى جَرْدَاءٍ وَمَعْرَنَةٍ، دَهَشَ عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْعَبِيدِ الْمَشْعَرِ لِرُؤْيَا ذَلِكَ لِلْمَشْهَدِ إِلَى حَدِّ
بَعِيدٍ، وَحَرِّ سَاجِدًا، مِنْ رَهِيْتِهِ أَمَامَ الْكَعْبَةِ لِسُودَاءَ، بِالنَّقَرِ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي كُنْتُ حَالِسًا فِيهِ،
وَبَقِيَ مَطْوَلًا فِي هَذِهِ الْوَضْعَةِ مِنْ اتِّعِيدٍ. ثُمَّ بَهْضَ وَمَجَرَ بِالْبُكَاءِ، وَفِي قَمَةِ انْفِعَالَاتِهِ، وَبَدَأَ أَنْ
يَصْدِي الصَّلَاةَ الْمَعْتَادَةَ لِلزَّائِرِ، اكْتَفَى بِالْقَوْرِ «رَبَّاهُ، حَدِّ الْآنَ رُوحِي، لِأَنَّ هَذِهِ هِيَ الْجَنَّةُ».

إِنْ اشْتَاءَ مُوسِمُ الْحَرِّ يُصْغِي عَلَى الْمَعْبِدِ مَظْهَرًا مُخْتَلَفًا جَدًّا فَالْأَوْبَقَةُ وَالْأَمْرَاضُ وَالْوَقْفَاتُ
الَّتِي نَبَى الْإِرْهَاقَ الَّذِي عَنِ مِمَّا الْجَمِيعِ خِلَالَ الرَّحَلَةِ، أَوْ الَّتِي نَسَبَ بِهَا بَرْدَاءَ الْخَفِيفِ أَوْ
الْإِحْرَامِ، وَالْمَسَاكِينَ عَنِ الصَّحِيَّةِ فِي مَكَّةَ، وَالطَّعَامَ لِسَيِّءِ التَّوَعُّبَةِ، وَأَحْيَانًا الْعَوْرَ انْطَلَقَ، كُلُّ

ذلك يملأ المسجد بالجثث التي تُحمل إلى ها ليصلي الإمام عليها؛ أو بالمرضى الذين يُنقل العديد منهم إلى صف الأعمدة حين يدنو أجسامهم، لاحتمال شفائهم عند رؤية الكعبة، أو على الأقل ليشعروا بالرضى لموتهم ضمن السيج المقدس. ويرى الحجاج الفقراء الذين أنهكهم المرض والجموع وهم يجرون جسداهم الضعيف الهريل على طول الأعمدة؛ وحين يعجزون عن إبقاء يدهم ممدودة إلى الأمام متضرعين وطالبيين الحسنة والصدقة من المارين، يصعدون رغبة أمامهم ليتلقوا فيها الصدقات قرب الخصيرة التي يتمددون عليها. وحين يشعرون باقتراب أجلهم، يعطون أنفسهم بكسائهم الرث؛ وكثيراً ما يمر يوم بأكمله قبل أن يتم اكتشاف موتهم. وبعد انتهاء الحج بشهر، كنت أجد كل صباح تقريباً جثث حجاج ممددة في المسجد؛ وقد قعت بنفسى، مع حاج يوماني أحضرته المصادفة إلى ها، بإعلاق عبي حاج مغربي فقير كان قد رجع إلى جوار الكعبة حتى يلعط أنفاسه الأخيرة، كما يقول المسلمون، «بين يدي النبي والملائكة الحارسين». وقد لمخ لنا بالإشارة، عن رعبته في أن يرش عليه من مياه رمزم؛ ويسما ك يعمل ذلك، توفي ودفن بعد مرور نصف ساعة. وهناك عدة أشخاص في المسجد موكلون بعسل البقعة التي استنقى عليها أولئك الذين توفوا في المسجد ويدفن كل العرباء الفقراء الذين لا أهل أو أصدقاء لهم والذين يموتون في مكة (١).

(١) لا يسمى حتى القارئ ميلاد المؤلف المتممة في إظهار صورة محبة ومبداً لأقدس مكان عند المسلمين!

بعض الملاحظات التاريخية المتعلقة بالكعبة ومسجد مكة

مقتطفة من أعمال الأورفي وافيقي وقطب الدين والأعصمي،
وهم كتاب تم ذكرهم بشكل خاص في المقدمة

تؤكد الرواية الإسلامية أن الكعبة قد بُنيت في لجة قل حنن هذ عالم نألمي سنة، وأنها كانت موقرة من ثلاثكة لدين أمرهم الله بتأدية الطواف أو الدوران حولها وقام آدم، أول مؤمن حقيقي، بتشييد الكعبة فوق لأرض في موقعها الحالي الذي هو مباشرة تحت لموقع الذي كانت تحته في حنة. وقد حسم الأحجار لباء من جبال الخمسة المقدسة لباء، وطور سياء (جبل سياء)، وجودي، (وهو الاسم الذي أعطاه المسلمون لجبل الذي رشت عليه سعية وح بعد الطوفان)، وحراء أو جبل اسور، وصور زيت (وهو جبل لدي، كما أعتقد، يشير إليه القرآن في السورة الخامسة والتسعين). وقد تم تعيين لاف ثلاثكة خراسه الباء من الحوادث إلأ أنهم، فيما يبدو من تاريخ هذ الباء المقدس، كثير ما أهتموا بآديه وجسمهم وقام أبناء آدم بإصلاح الكعبة وبعد الطوفان، أمر الله إبراهيم، بعد أن ترك وثية قومه وأبائهم، بإعادة بنائها. وأمه إسماعيل، الذي قام مع أمه هاجر منذ طفولته قرب موقع مكة، ساعد والده الذي بُني من سورين بتشييد ما أمره به الله وبني أشاء، لحجر، وجدوا الأسماء التي كان قد وضعها آدم واحتاجتهم إلى حجر يثبتونه في زاوية المسمى كعلامة تدل على لمقطة التي يجب أن يبدأ الطواف منها، أ الدوران مقدس حولها، ذهب إسماعيل محطاً عن واحد وفي صريفة بحر حل قس، انتهى بالملك جبرئيل وهو يحمل في يده الحجر الأسود الشهير وكان حبيبها متألقاً فاتح اللون، نكهه استحال إلى الأسود، كما يقول الأورفي، نتيجة تعرضه مراراً وتكراراً لمدار، قبل بدء لإسلام وبعده، ويقول آخرون إن نوبه قد تغيرت من خطايا الدين لمسوه وفي يوم الحساب، سيشهد لصالح كل أولئك الذين لمسوه بقبول صادقة وسيُمنح السطر والصبر

بعد أن تُلحقت بئر زمزم بأعحوبة. وقبل أن يبدأ إبراهيم ببناء الكعبة، استقرت هنا قبيلة بني جرهم العربية وهي فرع من العماليق، يربط من إسماعيل وأمه، اندس عاشوا معهما وكان إسماعيل يعتبر لبئر زمزم له؛ لكنه بعد أن ترواح مع قبيلة جرهم، اعتصبوا بعد موته ملكة البئر والكعبة وحلال إقامتهم في هذا الوادي، قاموا بإعادة بناء الكعبة، أو بإصلاحها كلها؛ إلا أن البئر سُدَّت من السيول الجارية وبقيت كذلك لحول ألف سنة. وتملكت بعد ذلك قبيلة «خزاعة» الكعبة ثلاثمائة عام؛ وقد حلفهم من قبيلة «قُصي بن كلاب» مرة أخرى بإعادة بنائها، لأنها كانت دائماً عرصنة لاجتياح السيول المدمرة، ولهدد كبت بحاجة إلى تصليح غائباً وقد كانت إلى حينها مفضوحة من لأعلى فقاموا بسقفها، ومدت تلك الفترة أصبح تزيينها أقل ارتباطاً بالخرافات والشكوك.

إن عربياً من قبيلة قُصي ويُدعى عامر بن يحيى كان أول من أدخل الوثنية بين مواطنيه؛ فأحضر الصم ويُدعى «هُنل» من هيت في بلاد ما بين النهرين^(١) ونصبه في الكعبة ثم انتشرت الوثنية بسرعة، ويبدو أن كل قبيلة عربية تقريباً قد احتارت إليها الخاص أو قديسها الخاص وبما أنهم يعتبرون الكعبة هيكلًا مشتركاً بينهم جميعاً، فقد كانوا يختلفون إليها لتأديبه الحج وكانت قبيلة «خزاعة» تؤله الحلة اسماء القرى كما يقول الأرقبي، وكان بو «تغيف» يعدون الحجر المدعو «الآت»، كما أن شجرة كبيرة تُدعى «ذات الرُوط» كانت تعبد لها قبيلة قريش، كما كان للأماكن المقدسة، منى ولصفا والبروة قديسوها الخاصون أو أنصاف آلهة. ويعطي المؤرخون قائمة طويلة بأسماء آلهة أخرى وإرداد عدد لأوثان حداثاً إلى درجة أنه كان هناك واحد في كل مرل وحيمة في هذا الوادي؛ وكانت الكعبة مُرددة بثلاثمائة وستين منها، تمثل رجاء أيام السنة.

كانت قبلة قُصي أول من بنى أسوار حول الكعبة، وكانوا يعيشون فيها خلال النهار لكنهم كانوا يعودون في المساء دائماً إلى خيمهم المنصوبة على الجبال المحيطة. وقد خلعت بني قُصي في مكة، أو مكة (وهو الاسم الذي أطلق عليها على المدينة) بو قريش وقد دُمُرت الكعبة في زمنهم بالنار فأعادوا بناءها من الخشب بحجم أصغر مما كانت عليه في زمن بني قُصي، بنوها كانت تشير إلى حدوده السابقة بواسطة حائط الحجر (الذي سبق وصفه). وكان سقف مدعوماً من الداخل بستة أعمدة؛ وكان تمثل «هُنل»، وهو «حويبر» العرب (كبير آلهة الرومان)، موضوعاً على بئر كالب حينها موحودة داخل الكعبة وقد حدث ذلك خلال فترة شباب محمد - صلى الله عليه وسلم -، ثم تم وضع الأوثان داخل المسى الجديد مرة ثانية.

ويورد الأزرقي الشهادة العيسة بعدة شهود موثوقين، ليست أمراً لافتاً (لم تتم ملاحظته حتى اليوم، كما أعتقد)، وهو أب وجه لعنداء مريم مع لطفل عيسى (المسيح) في حجرها، كان مسحواً كذلك كناية فوق أحد لأعمدة الستة الأقرب إلى ابوبة

وقام جد محمد، عبد المطلب بن هشام بترميم بئر زمزم، وتجديدها بالخير قبل احتراق الكعبة ببعض الوقت.

عندما دخل محمد المنتصر إلى مدينة أبيه، دثر الأوثان في الكعبة وألغى عبادة الأوثان اراثية بين مواصيه؛ وقام مؤذنه الربيعي بلال بدعوة مسلمين إلى الصلاة من على قمة للكعبة.

بُنيت قبلة قريش مدينة صغيرة حول الكعبة التي كانوا يمجّونها لدرجة أنه كان ممنوعاً لأي كان أن يرفع سطح ممره فوق سطح الساء المقدس. وقد عزز الإسلام الحق إلى هذا المقام المقدس بعد أن رسخ تقديده العرب الوثنيون.

لقد كان عمر بن الخطاب هو أول من بنى مسجداً حول كعبة سنة ١٧هـ، بعد أن اشترى من قبيلة قريش سائر الصغيرة التي تحيط بها، وبني حائطاً حول المنطقة. وقام عثمان بن عفان سنة ٢٧هـ بتوسيع المساحة. في سنة ٦٣هـ، عندما حاصر عبد الله بن الزبير، ابن أخت عائشة، شائر والمشق يريد في مكة^(١)، دُفرت هذه لأخيرة بالدار، ويقول البعض أن ذلك قد حدث بالمصادفة سبب يؤكد الآخرون أن ذلك تم بحسب اتفاق موثقة بينهما من قبل يريد من على قمة جبل قيس حيث كان قد اتحد مركزاً به. وبعد طرده، قام ابن الزبير بتوسيع سياج الحائط بشراء يريد من سائر المنكبين وبضم موقعا ضمن الحائط. بعد أن سطّحها. وقام كذلك بإعادة بناء كعبة على مدى أوسع، رفعاً بها من ثماني عشرة قدماً^(٢) (وهو ارتفاعها في زمن سنة عريش) إلى سبع وعشرين قدماً، وتقريراً كما كانت في زمن بني قصي ثم فتح بابها، بينها على مستوى سطح المصطفة وبني سقفاً مزدجاً تدعمه ثلاثة أعمدة بدل ستة، وهو الرقم لسابق. كان يتبع طول هذا المبنى الحديد خمسة وعشرين قدماً وعرضه عشرين من جهة وواحدة وعشرين من الجهة الأخرى وهي الداخل كانت هناك البئر، الخافة ويدعى بئر أصو التي ما زالت موجودة حيث توزع الكور وبشكل خاص الآية السهية التي قدّمت إلى الكعبة. وقد حمل الساء في هذه لفترة اسم لكعبة ويقال إنه اشتق من «كعب» أي «البرد» (رهر

(١) هكذا ورد في الأصل الإنكليزي، وهي مستعملة، والمعروف أن الكعبة قصصها بالمنجنيق حصين بن عمر قائد جيش يريد ابن أبي سفيان عندما عاد بها عبد الله بن الزبير، كما يعود المؤلف ليذكر المترجم

(٢) يبدو أن الصحيح خطوة لا قدم

الطاولة أو المكعب، وهو الشكل الذي يتخذه المسمى في الوقت الحاضر. وكان اسمه السابق «بيت الله» أو «البيت العتيق» وهو اسم ما زال يُطلق عليه كثيراً.

بعد عشرين عاماً من الفترة المذكورة سابقاً، قام الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان حينها حاكم مكة ولم يعجبه الحجم الموسع للكعبة، بتقليص حجمها إلى ما كانت عليه في زمن قبيلة قريش، مقتطعاً ست أقدام من طولها؛ وقام كذلك بإعادة ترميم الحائط المدعو «الحجر» الذي كان قد أدخله ابن الربيع صخر الباء والحجم الذي أعطي أذاك للصرح كان هو نفسه حجم الباء الحالي وقد تم الالتزام به بشكل دقيق في كل التصليحات أو إعادة تشييد والبناء التي حصلت فيما بعد.

بحو نهاية القرن الأول من الهجرة، كان الوليد بن عبد الملك هو أول من شيّد الأعمدة في المسجد وقد جعل تيجان الأعمدة تلك تُعطي بصائح من الذهب، وبذر مصاريح باهظة للزخارف. ويُروى أن كل الزخارف والزينة للذهبية التي قدمها إلى المسمى أرسلت من طلبه في إسبانيا وحمّنت على ظهور العمال عبر إفريقية وشبه الجزيرة العربية.

قام أبو جعفر المنصور، أحد الخلفاء العباسيين، سنة ١٣٩هـ، بتوسيع الجهتين الجنوبية والشمالية للمسجد وجعلهما أكبر بمرتين مما كانتا عليه من قبل. بحث إنها تشغل الآن مساحة تبلغ سماً وأربعين قدماً ونصف ذلك طولاً كما قام كذلك بتليط الأرض المحاذية بئر رمرم بالرحام وأصاف الخليفة المهدي إلى حجم المسجد في فترتين مختلفتين؛ كانت الفترة الأخيرة سنة ١٦٣هـ. وقد اشترى الأرض اللازمة لهذه الإصافات من المكيين ودفع لهم خمسة وعشرين درهماً لقاء كل قدم مربع. وكان هذا الخليفة هو من أحضر الأعمدة من مصر كما سبق أن ذكرت وأكمل به الهادي التحسينات التي كان قد بدأ بها وكان سقف الأعمدة قد بُني من الساج وهو خشب هدي ثمين. وسُلبت لأعمدة التي أحضرها المهدي من مصر في شمال جدة بعد رحلة دامت يوماً كاملاً، ولكن وبسبب بعض العوائق التي استجدت، لم يتم نقلها كلها إلى مكة بحيث ترك بعضها على لرمال قرب الشاطئ، إني أذكر ذلك لكي أوضح للمسافرين في المستقبل الذين يعتقدون أن تلك الأعمدة، إذا ما اكتشفوها، هي آثار مستعمرة يونانية أو مصرية قديمة.

ويلاحظ مؤرخو مكة، بشكل لا يحلو من دهشة، أن الخليفة السحي هارون الرشيد لم يُضف شيئاً إلى المسجد إلا مسيراً واحداً، رغم أنه قام بربرة الكعبة مراراً وتكراراً.

سنة ٢٢٦هـ، خلال خلافة المعتصم بالله، شققت بئر رمرم إذ إنها كانت مسيجة من جميع الجهات لكنها لم تكن مسقوفة.

سنة ٢٤١هـ تم سيطر المساحة بين «الحجر» والكعبة بالرحم الحميل وكان هناك في ذلك الوقت بوابة تؤدي إلى المساحة السيحة ضمن حائط «الحجر».

سنة ٢٨١هـ قدم الخليفة المعتصم بترميم مسجد بكامله، فأعاد بناء جدرانه وبني بواباً جديدة وأعطاه اسماء جديدة وقام بتوسيع اسمي من الجهة العربية وذلك بإضافة المساحة التي كانت شغلها في السابق در السور إلى مساحته وهو بناء قديم في مكة ومشهور حتى في تاريخ العرب الوثنيين لأنه كان دائماً مجلس الشورى مشترك بين رعاء مكة ويقدر أنه كان يقع في المقعة التي وضع عليها الآن المقام الحنفي.

سنة ٣١٤هـ أو حسب أقوال آخرين، سنة ٣٠١هـ تعرضت مكة ومسجدها لكارث كبيره واحتاج الجيش مذهب القرامطة المذبح الحجار، يترأسه رعيمة أبو طاهر، وسوى على مكة وقد دبح خمسون نكاً من سكانها في أثناء عمليات السلب التي تعرضت لها المدينة وحرق المسجد والكعبة من الرخايف القيمة كلها. وبعد أن بقي لواحد وعشرين يوماً، رحل بعدو حمله مع حوارة مكة العظيمة وهي الحجر الأسود. وخلال الحريق الذي كُلم بالكعبة في زمن ابن لربيع، أدت اختراقة اللاهه إلى انقسام الحجر إلى ثلاثة أقسام أعيد جمعها بعد ذلك سورياً وأعيد تثبته في النوصعة السابقة، يحيط به إطار من الفضة، وقد حدد هارون الرشيد هذا الإطار وعُمد إلى تقويمه.

حسن القرامطة الحجر إلى «هجر»^(١)، وهي بقعة حصية في الصحراء، على طريق قنفة السورية شمال «المدينة» والتي احتاروها مقر بهم. لقد أملوا في أن يأتي لمسلمون كههم بركة هجر، وفي أنهم بذلك سيرثون الثروات التي كان يأتي بها الحجاج من كل أصقاع لعالم، وفي مكة في ظل هذه الفكرة، رفض أبو طاهر عرضاً بحمسين ألف دينار كعديّة عن حجره بكر بعد موته، قام القرامطة بإعادته حوارة سنة ٣٣٩هـ^(٢) بعدما اقتنعوا من تحريتهم بأن بوقعانهم بالبراء من امتلاكه كانت مبنية على أسس وهمية، وأن عدداً قبيلاً من المسلمين فقط أتوا إلى «هجر» بهدف تقبيله. كان الحجر في ذلك الوقت قسمين بعد أن انشق بفعل ضربة قام بها أحد القرامطة خلال هب مكة.

وبعد استرجاعه بسبعين عاماً إلى موقعه القديم، عرض الحجر لمهانة أخرى والحاكم بأمر

(١) يقول لأعصمي إن الحجر حمل إلى الحب، قرب الخليج الفارسي وهي مدينة تم بناؤها حديثاً بأمر من أبي طاهر وقد وجدت في أسوار ابن بطوطة مدينة في منطقة اعسا تدعى «هجر».

(٢) يروي أن الخليفة الفاطمي في مصر هددهم بإعلان الحرب عليهم إن لم يعينوا الحجر الأسود.

الله، ملك مصر المبحون الذي كان يبوي ادعاء التمتع بامتيازات سماوية دينية لنفسه، أرسل سنة ٤١٣ هـ مصرياً مع قافلة الحج إلى مكة لتدمير الحجر. وبهراوة حديدية محبأة تحت ثيابه، اقترب الرجل منه وقال عالياً: «إلى متى سيحسد هذا الحجر ويقتل؟»، وليس هناك محمد ولا عبي لمحي من فعل هذا. «واليوم سأقوم بتدمير هذا انساء!» ثم صربه ثلاث مرات بهراوته. وكان هناك فرقة من الخيالة تعود للقافلة التي كان قد سافر فيها من مصر، مستعدة عند بوابات المسجد لمساعدته، إن يتم تنفيذ مهمته؛ إلا أنهم كانوا عاجزين عن حمايته من غضب الجماهير العارم. وقد دبحه واحد من أهل اليمن بحجره. وتمت مطاردة الخيالة ونهبت كل القافلة المصرية بالمسبة. وقد تبين بعد التحقيق أن ثلاث قطع صمير بهحم، ظفر رجل قد تشظت من الصربات العيفة؛ ثم سحقها وحُل مسحوقها بالإسمت الذي عولجت به الشقوق ومد ذلك الوقت لم يتكبد الحجر أي محنة أو بلية إصاوية إلا في سنة ١٦٧٤. حين عُثر عليه في صباح يوم من الأيام مُصْحَافاً بالقدارة، كذلك باب الكعبة، بحيث أن كل من قبله تراجع بوجه مشتمر وقد تمّ البحث عن مفتعل هذه الدعاية المدّسة دون جدوى، ووقعت الشبهات على بعض الفرس، لكن لم يتم إثبات العمل عليهم.

يبدو أن قدسية الحجر قد وُضعت موضع الشك والتساؤل من قبل أحد أهم أعمدة الإسلام. ويقدم الأرفقي شهادة عدة شهود قد سمعو عمر بن الخطاب يقول عالياً بينما كان يقف أمامه. «إني لأعلم أنك حجر لا يضر ولا ينع، ولو لم أر محمدًا يقلك ما قتلتك».

سنة ٣٥٤ هـ، بنى الخليفة لمقتدر المدح المسقوف قرب بوابة المسجد التي تُدعى باب إبراهيم والتي تزرع عن الخط المستقيم للأعمدة وتجتمع فيه بوابتان قديمتان تدعى باب بني حمعة وباب الخياطين. ومنذ ذلك الوقت، لم تتم أي تحببات إصاوية لقرون عدة.

سنة ٨٠٢ هـ، دمرت البيران الجهتين الشمالية والغربية للمسجد كلياً، وبعد سنتين تمّ إعادته بنائهما على حساب سلطان مصر، الناصر فرج ابن ظاهر برقوق. وتمّ نقل الخشب الضروري لهذه العناية في جزء منه من مصر وفي جزء آخر من الطائف حيث أعطت شجرة العرعر وهي من فصيلة السرو أو العرعر، خشباً ممتازاً.

سنة ٦٠٩ هـ قام قاصوه العوري، سلطان مصر بإعادة بناء الجزء الأكبر من حائط باب إبراهيم، كما يدين له الخباز بعنة صروح عامة أخرى.

سنة ٩٥٩هـ، خلال حكم سليمان بن سليم الأول، سبطان القسطنطينية^(١)، تم تجديد سقف الكعبة.

سنة ٩٨٠هـ، أعاد السبطان نفسه بناء جانب المسجد باتجاه شرع ومسعى ورفع كل نصب انبي تغطي سقف صف الأعمدة وقام كذلك بوضع الأرضية الجصية التي هي الآن حول لكعبة، وأرضية جديدة حول صف الأعمدة.

سنة ٩٨٤هـ، قام ابنه مراد بتصليح الجوانب الثلاثة الأخرى وأعاد بناءها حريثاً، وهي الأجزاء التي لم يمسها والده.

سنة ١٠٣٩هـ (أو ١٦٢٦ حسب تقويمنا)، انجرف سيل هابط من جبل اسور إلى المدينة وملاً المسجد بسرعة أدت إلى عرق الأشخاص كلهم الذين كانوا في الداخل في ثناء ذلك، وقد أنقذت الكتب والسج القيسية من القران كلها. وعبره مما كان موحوداً في لشقق حول حدران اباء؛ وجرء من احائط أمام الكعبة ويدعى «حجرة» وثلاث جهات من الكعبة نفسها قد انجرفت مع السيل. وزُهقت خمسمائة نص في المدينة. وفي السنة التالية، تم إصلاح انصرر وإعادة بناء الكعبة بعد هدم الجانب الذي يجا من هول السيل

سنة ١٠٧٢، شُيد المبى فوق بئر رمرم كما هو الآن؛ وسنة ١٠٧٤، تم بناء المقامات الأربعة من جديد.

بعد ذلك الوقت، لم يذكر انؤرحون أي إصلاحات مادية أخرى أو تعبيرات في المسجد، وأعتقد أن شيئاً من هذا لم يحصل في القرن الثامن عشر بإمكاننا بالتالي أن نعزو المبى كما يظهر الآن بالكامل تقريباً إلى سحاء وكرم آخر سلاطمة مصر، وحلفائهم، سلاطمة القسطنطينية عثمانيين، منذ انقربين الخامس عشر والسادس عشر

وفي حريف سنة ١٨١٦، وُصف العديد من العناير والحرفيين المرسلين من القسطنطينية. في الحجار لإصلاح انصرر كنه الذي سته الوهابيون في مقامات، لأئمة مي تلك للداد، كذلك لقيام بالتصحيحات الضرورية كلها في المساحد في مكة والمدينة.

(١) يذكر المؤلف (استانبول) أو (إسلامبول) أو (الأستانة) باسم القسطنطينية دائماً، عداً بأن اسمها البيزنطي القديم يدل مد ان فتحها السبطان محمد الفاتح عام ١٤٥٣م.

وصف عذة أماكن مقدسة أخرى قام الحجاج بزيارتها في مكة والمناطق المجاورة

خلال زمن الوهابيين، لم يجرؤ أي شخص على زيارة هذه الأماكن دون أن يُعرض نفسه لعذائتهم؛ كما أن لأبنية التي كانت قد سُيّدت على هذه البقع قد دمرها أو هدموا قبورها على الأقل.

ويظهر في المدينة.

مولد النبي - صلى الله عليه وسلم - أو مكان ولادة محمد، في الحي المدعو بهذا الاسم. كان هناك في زمن المؤرخ الماسي مسجد يقع بالقرب منه ويدعى مسجد المختار. وخلال إقامتي كان الحرفيون منهمكون جداً في إعادة بناء المنى فوق المولد حسب تصميمه السابق. وهو يتألف من قاعة مستديرة تعلوها قبة، أرضها منخفضة عن مستوى الشارع بنحو خمس وعشرين قدماً مع درج يؤدي إليها. وقد بدت حجرة صغيرة في الأرض، تلك التي جلست عليها أم محمد - صلى الله عليه وسلم - حين أنجبت، ويُقال إن هذا المكان كان مرن عبد الله، والد محمد.

مولد سنا فاطمة، أو مكان ولادة فاطمة، ابنة محمد، وهو مبنى حجري جميل، يقال أنه كان منزل أمها حديجة، ويقع في الشارع المدعو «زقاق الحجر». وهناك درج يؤدي إلى أرض هذا المبنى، الذي ينخفض، مثل المبنى السابق، عن الشارع بدرجات. ويتضمن هذا الصرح الصغير مكانين مقدسين: في واحد منهما حجرة مشابهة لتلك التي في «مولد النبي» لتحدد المكان الذي وُلدت عليه فاطمة، وبالقرب منها حجرة أخرى أقل عمقاً حيث يقال أنها كانت تُدير صابونتها اليدوية أو «الرحي» بعد أن كبرت. وفي شقة بالقرب منها تظهر حجارة ضيقة حيث كان يجلس محمد - صلى الله عليه وسلم - ويتلقى من الملاك جبرائيل سور انفران الآتية من السماء، ويُدعى هذا المكان «قبة الرحي».

مولد الإرم عبي، يقع في الحي المدعو «شعب علي» وهو معبد صغير تصهر في أرضه حفرة
تحدد لبقة التي يقال أن علياً، بن عم النبي محمد، قد وُجد عليها
مولد سيدن أبي بكر، وهو معبد صغير مقابل الحجر الذي كان يلقي عبي محمد تحية
«السلام عليكم» كما مر بالقرب منه ولا يظهر هذا أي بقعة مقدسة، لكن أرضه قد فرشت
بالسجاد الفارسي الأبيض.

لقد خصصت كل هذه الموائد لتصبحات كاملة من اسحاب الوهايين، باستثناء مولد
محمد، الذي كان الحرفيون يراون يعملون فيه. وتشترك عدة عائلات مهمه في الوصاية
عبي هذه الأمكنة، وخاصة من الأشراف الذين يحضرون كل بدوره مع مجموعته من الخدم
وقد شرت ماذيل بيضاء اللون أو سجاد صغير عند كل روية من تلك الأبنية حيث يتوقع من
الزوار رمي بعض المال. كما يصطف ساء على طول ابوابات ويشعلن أم كهن بالأسقية
ويتوقفن مساعدة من مال الحجاج، و فحة شلر مورعة في ناراب Paras عند كل من الموائد
تُحقق بالكامل توقعات الخشيم والعقير المعور

مولد أبي صلب في أعلى، وهو مهدم كلياً كما سبق أن ذكرت؛ ورمي لن تتم إعادة بنائه
من سبت حديجة، روجة محمد - صبي لله عبيه وسيم - والذي هُدم الوهايون قننه ولم يُعد
ساؤه حتى الآن. يروره حجاج بانتظام خاصة صباح الجمعة. ويقع بي المقبرة الكبيرة في أعلى
عند منحدر سلسلة عربية، وهو مُسيح بحائط مربع ويس فيه ما يشير العصور بمستثناء شاهده
الفرشي نقش عليها بالأحرف الكوفية وتنصص مقطعاً من القرآن مأخوذاً من بي الكرسبي. وي
أر الأحرف ليست مكتوبة بالخط الكوفي تقدم، فإني شئت بي أن ححر لم يكن مُعد أساساً
لتعصية هذا قبر فليس هناك أي تاريخ في النقش ولقد كان الشريف ضرور، وهو سلف
عالب، من العرور بحيث إنه صلب من عائلته وهو عبي فرش الموت دفن جثته بالقرب من قبر
حديجة، في السباح نفسه، حيث لا يزال الآن. وعلى مسافة قصيرة من هذا، يبدو قبر مة، أم
محمد صبي الله عليه وسلم، وقد غُطّي ببلاحة من الرجام الحديد الأبيض نقش عليها بالخط
الكوفي ونحط أقدم من الأول. وقد كسرها الوهايون وأر بوا انقطعتين لتعبير عن استيائهم
وسخطهم من راية الأصرحة التي تحوي رفات أموات، وهو أمر كان في تقديرهم صرياً من
الوثنية وقد وحدث عند هذه القبور ساء سُمح لهم بشر ماذيلهم لطلب لصدقات من كل
رائر

في أثناء سيرني بين هذه المقابر القسيحة، وجدت العديد من شوهد القصور وقد نُقش عليها
بالخط الكوفي لكن ليس بأحرف قديمة جداً ولم أستطع فك رموز أي تاريخ يعود إلى ما قبل

انقرض السادس من الهجره (الثاني عشر حسب تقويمنا)؛ لكن الأعلى الساحة منها قد حوت على آيات وأدعية فحسب دون ذكر اسم الميت أو التاريخ. والقبور بشكل عام مؤلفه من أربعة أحجار كبيره موضوعه في مربع مستطيل الشكل مع حجر عريض قد رُكز عامودياً عند طرف من الأصرف ويحمل النقوش. ولم أر أي قر صحنه أو شريط نقش في الحجر أو أي من تلك الرية المستعملة في أجزاء أخرى من آسيا. وقد رفعت أولى عائلات مكة أسية صغيرة لتسيح قور أقاربهم؛ وهي ملطه من الداخل لكنها دون سقف وقد بُيت بساطة شديدة. وفي اثنين أو ثلاثة من تلك القبور وجدت أشجاراً قد رُعت نوى من حوانات أُقيمت صم السياح سجميع مياه الأمطار. وهذا تُخصي العائلات التي تحصنها هذه الصور اليوم بأكملها. وهناك عدة أسية، تعرفها القُتب، دفن فيها رجاى اشتهروا بعلمهم، قد هدم لوهايون قبيها دون تغيير، غير أن هؤلاء المتعسفين لم يمساو أبداً للصور نقشها وكانوا في كل مكان يحترمون وُعدت الأموات ويراعون حرمتها. ومن بين القبور هناك أصرحة تعود بعدة بشوات سورين ومصريين وقد بُيت مع زخارف بسيطة.

عند طرف كل صريح تقريباً، مقابل الحجر المقوش أو الشاهدة، وجدت الحنبه الصغيرة المدعوة «الصُبر» وهي صف من سات الألوة مرروعة في الأرض وهي دائمة الخضرة ولا تحتاج للكثير من الماء كما يوحي بذلك اسمها العربي «صبر». فقد اخبرت بهذا العرص إشارة إلى لصبر اللارم بانتظار البعث أو الشور بشكل عام، لا هذه المقرة هي في حالة متداعية ويفل أن السبب يعود إلى تحريب الوهايين؛ ولكنني أرى أن السبب يعود أكثر مما يعود إلى الإهمال الذي يصهره انكيتون فيما يتعلق بالقبور التي تحوي حث قاربهم وأصدقائهم.

والأماكن التي نزرها خارج المدينة هي:

جبل أبو قيس إن هذا جبل واحد من أعلى الجبال في لمطقه المحاوره مباشرة للمدينة، ويشرف عليها من لشرق. ويقول العرب الإسلامي إنه كان أول جبل خلق على الأرض وبعد اسمه في أعمال كل مؤرخ أو شاعر عربي تقريباً. وهناك بقعتان مختلفتان على قمته يرورهما الحاج، تُدعى الأولى، «مكان الحجر»، حيث كان عمر، الذي بولى الخلافة فيما بعد، يدعو الناس إلى الصلاة في السنوات الأولى للإسلام، حين كان القرشيون أو سكان مكة، في أعينتهم لساحفة من الوثنيين وتظهر هـ فجوة في الصخر شبه قبراً صغيراً، يُقال إن الله، عند الصوفان، أمر الملائكة الحارمين بوضع الحجر الأسود فيها - وكان مقدساً قبل أن يسي إبراهيم الكعبة بفترة طويله - وأن يجعلوا لصخر يلثم فوهه حتى لا تمسه المياه؛ ويُقال أيضاً أنه، بعد الصوفان، قسم ثلاثة جرائيل الصخر ونقل الحجر إلى موقع الكعبة، والنقمة الدنية، للزيارة هي

عبر وادٍ صيق، وعلى مسافة قصيرة من بقعة الأوبى على قمة جبل وتدعى «مكة شق القمر»، أو المكان الذي انقسم فيه القمر - وهي إحدى المعجرات التي اجترحها محمد^(١). غير أن القصة الآن لا تُروى بشكل مختلف من المكيين الذين يقولون إنه حين كان محمد يصلي لها في منتصف النهار، أتى المشككون من أهل قريش وأبذلوا منه أن يقعهم في الخيال، بمعجزة ما^(٢)، إن كان حقاً سي الله. وقد أحابهم. «مداً فص كي تؤموا بصدق؟»، فقالوا له «اجعل الشمس تكفىء ويظهر قمر وسجوم. حين القمر يرل إلى الأرض ويأتي إلى هذا الجبل ويدخل إلى أحد أكمام عبءك ويخرج من الآخر، ثم يعود إلى السماء، ومن ثم اجعل نور النهار يشع علينا من جديد». فاعترض محمد وتوجه إلى الله بصلاته قصيرة فتحققت المعجزة بأكملها على الفور؛ انتهى بعدها القرشيون إلى الإسلام. تلك رواية وأحريات مماثلة التي يرويها المكثرون عن أماكن مختلفة بهدف انتزع المال من الخداح، لا تدعمها أو يؤيدها سنة النبي الموثقة. ويأتي أهل مكة إلى هذا المكان حتى يتمتعوا بمطر قمر رمصب الجديد والشهر لذي يتبعه بين هذين المكين، قليلاً إلى لشرق مهمل، تقع أنفاص مسى صلب ومثير لم يبق منه سوى بعض الحدران ويقال إنه كان في السابق مسجداً حكومياً شرفاء مكة، فيه عدة أبراج تشبه البرارات، وربما كان قصر شيد فوق جبل قبس بأمر من مكثر بهشمي. أحد رعماء مكة، نحو سنة ٥٣٠ أو ٥٤٠ هـ؛ أو ربما كان مسجداً يدعى «مسجد إبراهيم» الذي وُجد هنا في القرن السابع حسب تقويم، وفق ما أورده الأزرقي وهناك اعتقاد عامي سائد في مكة بأن من يأكل رأس حروف مشوي فوق جبل قبس، سيشفى إلى الأبد من أنواع الصداع كلها.

جبل النور يقع هذا الجبل إلى الشمال من المدينة بعد ثمرٌ بحديقة الشريف على الطريق نحو عرفات، فليلاً إلى الأمام، يدخل في وادٍ يمتد باتجاه الشمال الشرقي والشمالي وينتهي بالجبل المخروطي الشكل وقد سُكبت درخت في الساب في المرتفع الحاد لكنها الآن مهذمة؛ وقد ستغرق، الوصول إلى القمة ثلاثة أرباع الساعة وجهداً مصياً شهكاً وفي أرض مبي صغير صحيرية، هذمه لوهابود، يظهر صدع تقريباً بحجم رطل طولاً وعرضاً ويقال أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - اكتأب وحر من حرم أعدته لإصرارهم وتردد أتباعه في مكة الذين أعلنوا أن الله قد تحلى عنه كبد^[١٥]، فاعترض في هذا الجبل وتمدد في صدع مشمساً يعول من

(١) معجزة انشقاق القمر حقيقة ولكنه لكلمة [اجترحت] فهي تستخدم في السجلات غالباً

(٢) لقد دؤن المؤرخون أنه على وزن رعمه بعض أهل تري المشككين. جعل القمر يبدو وكأنه مقطوع ورماً، بحيث إن قسماً منه ظهر خلف جبل أبي قبس والقسم الآخر في الجهة العاكسة، فوق جبل قبعان

أعلى. وقد أرسل إليه الملك جبرائيل بهذه السورة القصيرة من القرآن التي ندعوها «الرابعة والتسعين»، وتبدأ بالكلمات التالية: ﴿ألم بشر لك صدرك﴾؟ كما أن السورة السابقة بهذه تشير إلى حالته السيئة. وتحت هذا المكان يقبل هناك كهف صغير في صحر العرانيات الأحمر «سدي يشكل الطبقة العليا من هذا الجبل، ويدعى «معارة حراء»^(١) وهنا يُقَدَّر أن عدة آيات أخرى من القرآن أنزلت إلى النبي الذي كثيراً ما كان يذهب إلى ذلك المكان المرتفع؛ لكن أياً من الحاضرين لم يقل لي أي مقاطع من القرآن كانت تلك. إن حراس هذين المكانين هو بدو من قبيلة الحبان.

لقد عاشرت مكة سيراً على الأقدام مع مجموعة كبيرة من الحجاج لزيارة هذا المكان التي تتم عادة أيام السبت. وكنت على القمة قبل الفجر؛ وعندما برعت الشمس تحلى لنا منظر واسع وشامل جداً إلى الشمال والعرب إذ إن الجهات الأخرى تحدها الجبل. وكان للمنطقة أمامنا صابغ حريص وكثيب بحيث لا يظهر للعيان أي بقعة خضراء، فكل ما كان يتراءى للمظهر تلال جرداء سوداء ورمادية وأودية يهضاء رمادية وعلى منحدر الجبل، على مسافة قليلة من القمة، هناك حزان حجري صغير بني لبرود الزوار بهيئة. وقد كان جافاً حين رأيته وهي حاله سيئة.

جبل ثور ويقع على مسافة نحو ساعة ونصف الساعة جنوب مكة، إلى الجهة اليسرى من الطريق المؤدية إلى قرية الحسنية، وهو جبل شامخ ويرتفع أعلى من جبل النور، كما يُقال وعلى قمته هناك كهف كبير لجأ إليه محمد وصديقه أبو بكر هرباً من المكيين قبل أن يهاجروا إلى «المدينة». وقد سجد عكبوت شبكته أمام الداحل، وبعد أن رأى مطاردوه ذلك، «فترصوا بالطبع أن العارفين ليسوا في الداحل إلى هذه المناسبة يلمح القرآن في السورة التاسعة (التوبة) ولم أقم بزيارة المكان.

القنطرة لقد سبق وتكلمت عن هذا المكان، فهو عبارة عن معبد صغير وصفت مسجداً من الأعمدة، يقع على الطريق إلى وادي عاصمة. تحب على كل حاج زيارته، ويترك خيبره الشخصي فيما يتعلق بالأماكن التي سبق ذكرها. وتحيط بالقنطرة أنقاص منزل، وهناك بحر عريضة بالقرب منه وترى آثار زراعة في الوادي وأعتقد أن البئر هي التي يدعوا مؤرخو مكة «بئر نسيم». وحسب المؤرخ العباسي، كان يقف هنا في العصور الأولى للإسلام مسجد يُدعى

(١) في من العرب الوثنيين كان هذا الجبل يدعى «جبر حراء»، وبمكسي هنا أن أصيب أن العديد من جبال «الأودية» في الحجاز قد عدت أسماها القديمة. وقد أثبتت ذلك ملاحظات الأورقي الطوبوغرافية، ومؤرخو «المدينة» والزمخشري في كتابه القيم «البلدات والجبال».

«مسجد أهليحة» وسأحجم وصفي لمكة بالانتقال إلى وصف فتاح مكة، لدي أرجأت كي لا أقطع وصف المسجد

تُفتح الكعبة ثلاث مرات في السنة فقط في يوم العشرين من شهر رمضان وهي الخامس عشر من ذي القعدة وهي العاشر من محرم (أو عاشوراء كما يدعوه العرب). ويتم لافتتاح بعد ساعة من شروق الشمس عندما يُسحب لدرج على عجلات إلى بوابة المني، وما إن تمسك الحائط حتى تسرع الحشود فوقها وتملأ الكعبة كلها من الداخل في لحظات. وبصطف حصبان لمسجد على المدرجات ويسعون عثاً للحصاة على لظام فتعيط عصيتهم بشدة على أولئك الذين لا يرمون إكرامية في أيديهم؛ ومع ذلك فكثير ما يُسحق العديد من بين حشود بلا رحمة وفي ساحل على كل رائر أن يصلي ثماني ركعات أو يقوم بسب عشرة سجدة؛ في كل زاوية منها ركعتين، لكن من السهل أن تتصور كيف تؤدي هذه الصلوات، وأنه يسا سحي أحدهم يمشي آخر فوقه^(١٥) وبعد سهاء الصلوات، على الرائر أن يتكىء على أي حرة من الحائط يدين بمدودتين، ووجهه متصق به، وهكذا يردد أدعية ديبه. فملاً العرفة بشيخ والعوين وأعتقد أنني لاحظت أقوى المشاعر وأصدق الاعلانات القليلة المخلصة وتوبة صادقة لدى العديد من الروار، وتسمع الهتافات لتاليه وأخرى مشابهة، وقد نبئت وجوه عديده بالدموع «يا رب البيت عمر لي وبرالدي ولأبائي» رب أدخلني في حبك، وحسن رفعتي من نارك يا رب البيت العتيق» ومن أستطع لقاء أكثر من خمس دقائق، حيث كاد يُعمر على من شدة الحر وحُر عدة أشخاص إلى الخارج بصعوبة وهم فادسو نوعي

عند المدخل، يجلس شريف حاملاً مفتاح الكعبة لقصي في يده التي تمدد إلى الخارج يقبلها ويدفع بقاء ذلك رسماً عند حروحه كما يُعطى المال يصب للخصي يجلس بجانب ذلك الشريف ويتوقع كذلك بعض الحصبان على المدرجات وعده موصفين بسطاء وحذاء على الأرضية التي تحيط بالكعبة، أو يدفع لهم الحجاج كذلك وقد سمعت العديد من الحجاج يسفرون بشده وفسوة هذه المماسة المشيه فائلين إن المكان الأكثر قدسية على لأرض لا يحب أن يكون مسرحاً للطمع والجشع الإنساني. إلا أن الكثير لا تهرهم مثل هذه التوبيخات.

تنفي الكعبة مفتوحة حتى الحادية عشرة نغرياً وفي اليوم التالي تُفتح حصرياً للنساء، وبعد زيارة الكعبة، من الواجب تأدية الطواف حولها

يتألف دحل الكعبة من قاعة وحدة يدعم سطحها عمودان وليس لها أي وسيلة للإضاءة إلا النور الذي يدخل من ابواب إن السقف والبصيف العلوي من العمودين وجدران الجاسية، صحن مساحة من الأرض تملح نحو خمس أقدام، قد رُيت بقماش سبيك من الخرب الأحمر

المسوح بأرهار ونقوش بأحرف كبيرة من الفضة، والجرء السقي من كل عمود قد مُدَّ عليه حشب الألوة للجميل المحوت؛ وذلك اجراء من الجدران أسفل القماش الحرير يُصَف بالزُحام الأبيض الجميل المزين بالنقوش البارزة، ورحرفات الأرييسك الجميلة، والعمل برمتة هو عبارة عن براعة مُتَقَّة والأرضية التي هي فوق مستوى معين من الباب، وبالتالي يرتفع بحو سبع أقدام عن مستوى منطقة المسجد، قد رُصفت بالرحام بألوان مختلفة وقد عُلِّقت بين الأعمدة أعداداً من المصابيح وهي هبات من المؤمنين ويُقال أنها من الذهب الخالص؛ ولم يَمَسَّها انواهايون^(١) وفي الراوية الشمالية العربية من العرفة بوابة صغيرة تؤدي إلى السطح المبسط لئلا ولم أشاهد أي شيء آخر يستحق الملاحظة؛ لكن العرفة شديدة الظلمة بحيث أنك تحتاج لبعض الوقت قبل أن تتمكن من رؤية أي شيء فيها. إن لرحرف الدخلة معاصرة لمرميم الكعبة الذي تم سنة ١٦٢٧م ولم أتعرف أية شعائر مقدسة يعسل أرض الكعبة كما ذكرت في أسفار عني به العاصي. فقد رأيت الطواشيح يؤديون تلك المهمة بالطريقة نفسها التي تُعسل فيها الأرضية حولها، رغم أنه يبدو من تاريخ (الأعصمي) أن أرض الكعبة يعسلها أحياناً رجال دور شخصيات مهمة.

لا تشكل الزيارة إلى دخل الكعبة أي جزء من الواجب الديني للحج، ويعادر العديد منهم مكة من غير رؤيتها^(٢) وقد رأيتها مرتين؛ هي الخامس عشر من ذي القعدة وهي العاشر من محرم. وفي المرة الثانية، كانت السناثر الجديدة المرسمة من القاهرة من قبل محمد عبي، مُعَقَّة وكانت من القماش العاخر جداً، مُحَكَّمة لسيح ربوعية وجودة تفوق فيهما العطاء لأسود الخارجي والسناثر القديمة لني عُثِّفَت لأكثر من عشرين عاماً كانت الآن تُباع علناً إلى المؤمنين بسعر يقارب الدولار الواحد لقطعة حجمها ستة إنشات مرَّعة. إن حقَّ وهب تلك السناثر أو تنفيذها كان محصوراً في شخص من يقدم الكسوة الخارجية، رغم أن الاستثناءات كانت أحياناً تحصل، كما في سنة ٨٠٥هـ حين أرسل الشاه رُخ، ملك بلاد الفرس عطاءً حلاًباً للدخول^(٣).

أمام البوابة التي تُدعى «باب السلام» فهناك متجر تُباع فيه باستمرار قطع من الأعطية الخارجية والدخلية ملكه، وتلك الأخيرة تُشترى بقدر أكبر وقد رأيت (صداري) مصوغة منها، وهي تُعثر بالطبع أكثر الدروع أماناً مما يمكنكم أن يتردده. وتُباع في اشهر نفسه

(١) يزوي قطب الدين أن شيوخ مكة سهر مصابيح الذهب الملقب بي الكعبة وأحدوا بيتاً في أكام عباداتهم الواسعة وقد أرسل السلطان سليمان العتيق من المصابيح الذهبية إلى هذا (١٩)

(٢) انظر نفسه.

(٣) ربما يقصد رؤية دخل الكعبة، فأما رؤية الكعبة فلا بد منها لأن الحاج يطوف طواف التوداع قبل مغادرته مكة

رسومات عن مكة والمدينة، مصنوعة على الورق أو الكتان بأسلوب منحرف جداً وفظ، ومطبوعات صغيرة من الأدعية، إلخ. وقد نُحِطت على الخشب. وقد اشترى بعضُها للعرض نفسه الذي اشترى من أجله مياه زمزم التي أحدثها من هذا.

ملاحظات حول سكان مكة وجدة

تسكن مكة وجدة الطبقة نفسها من الناس؛ كما تشابه طابعهم وعاداتهم. وقد سبق وذكرنا أن المكيين لأثرياء كدعمهم يملكون مزارع في جدة، وأن المصالح التجارية هي نفسها في المدينتين.

بإمكاننا تصنيف سكان مكة كلهم أحباب أو من نسل أحباب، باستثناء بعض بدو الحجاز أو نسلهم الذين استوطنوا هنا. وقد أيدت تقريباً قبيلة قريش القديمة التي انقسمت إلى فرع متحول وآخر مستقر. ولا يزال بعض بدو قريش يعيشون في الحجاز؛ لكن المستوطنين من قريش، الذين كانوا سكان مكة في زمن محمد - صلى الله عليه وسلم - إما تم تدميرهم وإما برحوا نتيجة الحروب الأهلية المتكررة. في هذه الفترة، نجد في مكة ثلاث عائلات من قريش فقط، وهم متحدثون من القبيلة القديمة التي تحمل هذا الاسم، ورعيم إحداهم هو «النائب» أو الوصي على المسجد؛ والعائشان لأحراب هم من الفقراء، اسخرطين كذلك في خدمته غير أن المنطقة المحاذرة لسوق جدة الكبير، ووصول أعداد هائلة من القوافل سنوياً، والبيت المقدس. قد جذبوا عدداً كبيراً من العرباء لسد مكان القريشيين. ويبقى بعض الخجاج في مكة عند كل موسم حج، فالمسلم عادة حين يقيم في مدينته ما لبعض الوقت، يتخذ زوجة فيميل بالتالي إلى الاستقرار بشكل نهائي في المنطقة لهذا السبب، فإن معظم المكيين هم متحدثون من أحباب أثوا من أصقاع بعيدة من العالم، وتبنوا العادات العربية، وأوجدوا من خلال تواجدهم عرفاً لا يمكن تمييزه الآن عن أهل شبه الجزيرة لأصليين. وبعد أن استعمرت من بعض مدبري المناجر والتجار والعلماء والمطوفين، وأناساً من الأشكال والأنواع جميعها، اكتشفت أنهم أباء أو أحفاد نسل أحبي. والأكثر عدداً هم أولئك الذين أتى أبائهم من اليمن وحضرموت، ويليهم في العدد المتحدثون من اليهود والمصريين والسوريين والحريين والأثراك. وهناك أيضاً مكيتون من

أصل درسي وانتار وإبحاريون والأكراد والأفغان أي بالاحتصار من البلدان الإسلامية في العالم جميعها تقريباً ويحرص المكي على الحفاظ على معرفة موطنه الأصلي كما هي العادة وقد عرف دليبي ندي كان يرافعي نسله إلى نترقي وربكني من المنطقة المجاورة سحاري، وكان كلب وصل حاح ما من تلك منطقة، لا يتردد في عرض نفسه دليلاً به، رغم أنه يحسن تدمناً بعثهم.

غير أن هات فرعاً وحدثاً من أهل شبه الجزيرة لقدماء لأصديق ما يرال في مكة، هؤلاء هم الأشراف من أهل البلاد (وهم متميزون عن المتحدرين من الشرفاء العرب الذين استقروا هنا) وهم يسبون سبهم إلى خمس وأخمين، نساء فاضلة بسب محمد؛ وهو سب يدعيه كذلك لنفسهم الشرفاء الآخرين، لكن سلالاتهم يعترض أن تكون أقل مصداقية ويشكل شرفاء مكة صفه كبيرة لا يقبل بدخولها لأي غريب وهي تنتشر على أجزاء عديدة أخرى من شبه الجزيرة العربية ولم أعرف بشكل تام تريحهم أو العبرة التي بها بالشعب هي فئات معينة؛ وأستطيع فقط أن أصرح بأنهم يعترفون بالكثير من شرفاء اليمن وأجزاء أخرى من الحجاز على أنهم أقارب بعيدون؛ وهم مفسمون في الوقت الحاضر على عده فئات يختار الشريف الحاكم من إحداهما كما سأذكر لاحقاً ويلاحظ اختلاف في مكة في الاسم المعطى إلى الأشراف وذلك حسب مهتهم فوثق المخضوض في سعيهم وقانون ويحتلون برعاً ما مكراً حول المسجد ومحقاته، يدعون بنقبة السيد، بينما أولئك الذين يصبحون جنوداً ويدخلون في الشؤون الحكومية، يُعرفون حصرياً بنقبة «الشريف» ويقول المكيون إن الأسيد هم تابعو الدين، أما شرفاء فهم جنود ويتبع لأبن عذرة مهنة والده وإن هؤلاء لأشراف من أهل البلاد هم رعماء المدينة، أو على الأقل كانوا كذلك قبل أن يكسر أنفتهم الاحتلال التركي.

على الرغم من أنهم شعب مختلط، فإن مكان مكة يريدون لري نفسه ولهم العادات نفسها كذلك. ورغم أنهم من أصل مختلف، فهم يبدون أقل تمسكاً بربهم الوطني وعاداتهم في هذه المدينة المقدسة منهم في أي مكان آخر ففي سوريا ومصر، يحتفظ العرباء من كل أنحاء آسيا بثوب بلادهم وبسمط لحية فيها بأكثر قدر ممكن من الصرامة، رغم أنهم استقروا في ممراتهم الجديدة؛ وهو أمر يجعل مشهد لسوق الشرقي أكثر متعة وبهجة من مشهد أي حشد كبير من الناس في أوروبا في الحجاز، على العكس من ذلك، فإن أغلب الزوار الأجانب يبدلون بربهم الوطني ربي شعب البلاد، كما يشاء أولادهم الذين يوسون هناك ويرتدون حسب طريقة المكيين أما اليهود، كما سبق أن ذكرت في معرض حديثي عن حدة، فهم يشكلون

استثناء للقاعدة العامة؛ وهم جماعة متميزة ويحافظون على نعتهم الوطنية الأصلية التي يساها عادة أولاد العرباء لأحرار الدين غالباً ما تكون أمهاتهم عربيات، من أهل مكة

إن سحنة أهل مكة وحدة بنية اللون وصارية إلى الصفرة، وتكون فاتحة أو غامقة حسب أصل الأم التي تكون غالباً جارية حشوية كما أن قسماتهم هي أقرب بكثير إلى قسمات البدو من قسمات أهل أية مدينه رأيتها في الشرق؛ ويلاحظ ذلك خاصة عند الأشراف الذين وهوا سيماء وملامح وسيمة؛ فديهم رجع البدوي وعينه وأنفه المعقوف لكنهم أكثر امتلاء. أما الطبقة الدنيا من المكيين فهم عامة بدنيون مع أوصاف نامية العضلات، في حين تتميز الطبقات الغنية بأشكالهم الدخيلة الهريفة، ويسطبق ذلك على كل السكان الذين تعود جذورهم إلى الهند أو اليمن إن البدو الذين يحيطون بمكة، رغم فقرهم، إلا أنهم يشتمون بأجسام أكثر صلابة وبنية أشد قوة من البدو الأثرياء داخل الصحراء، ربما لأن عاداتهم أهل تجوالاً وحركة ولأنهم يتعرضون أقل من أولئك للإجهاد الذي تسببه الرحلات الطويلة والمكي بشكل عام تقريباً، أقل قوة وأصغر حجماً من السوري والمصري إلا أنه يقو في القسمات الصغيرة خاصة في الحيوية والبريق الدكي في عييه

إن المذكور من أهل البلاد في مكة وحدة كلهم موشومون بعلامة معينة، ويقوم بذلك أمهم حين يبلغون أربعين يوماً من العمر. والوشم عبارة عن ثلاثة نقوش طويلة ممتدة بربواً على الخدين، واثنين على الصدع الأيمن، حيث تنفي بذورها التي تبغ أحياناً ثلاثة أو أربعة خطوط عريضاً، مدى الحياة، وتُدعى «مشاله». ولا يشع البدو هذه العادة، لكن المكيين يعترفون بالتمييز الذي يحول دون أن يدعى سكان الحجاز الأحرار من البلاد الأجنبية، شرف ولادتهم في اندب المقدسة. ويُطبق هذا الوشم أحياناً على الفتيات الصغيرات، رغم أن ذلك أمر نادر جداً ولأهل بوربو، داخل إفريقيا، علامة مماثلة على الخدين، رغم أنها أخص بكثير.

إن ري الصبغات الثرية، في اشتاء، هو عبارة عن ثوب Benish أو عاءة جوح فوفية وجه، أو عباءة تحتية من القماش نفسه. كما يُلْبَس الري نفسه في أنحاء تركيا كلها. فضلاً عن عاءة حريرية مزخرفة مشدودة بوشاح من الكشمير الرقيق وعمامة من المولسلي الأبيض وخفان أصفر، يُشكّلان تنمة للثوب. ويرسود بدلاً منه في فصل الصيف رياً مؤلفاً من قمات حريري بالغ الرقة من صناعة هندية وتُدعى «مكترخان»

أما الطبقات العليا معاماً ومره والتي تقلد الري التركي و(موصته) فتعتمد قلنسوة حمراء معربة تحت العمامة؛ تلك التي تعتمرها الطبقات الأخرى هي من الكتان المطرّز بأحري، وهي

من صنع نساء مكة وهي هدية شائعة من امرأة إلى حبيبتها، وتُطَرَّر في أعلاها أحياناً آيات من القرآن بأحرف كبيرة.

العباءات التي يرتديها الأبقون من الطبقة الوسطى هي عمة من الموسير الهندي الأبيض وتكون دون أي تبطير وتُدعى «بدن»، وتختلف عن «الأنثري» المشرفي الشائع كونها قصيرة جداً ودون أكمام وبالصبح أكثر برودة. وفوق «البدن» تلبس حبة من القماش الرقيق أو القماش الحريري الهندي التي يرميها الرحن فوق كتفيه، في موسم «الحر الشديد» فتكون حبيها لعباءة أو القميص التحتية عطاءه لوحيد وتكون القمصان من «حرير الهندي» أو «الكثان المصري» أو الأناصوري، ويكون بالجوذة التي يستطيع تحمُّل كلفتها الشاري.

لا ترتدي الطبقات لدا عادة، على الأقل في فصل الصيف، إلا قميصاً، وعوصاً عن السرور، قطعة من الشكير الأصفر الهندي (قماش قطني متين) أو لكثان اصصري المخطط حول الخاصرة؛ ويرتدون فوق تلك في فصل لشتاء «بدن» من لحام الهندي المخطط، لكن من غير حزام لشدها حول الجسم.

وتنتعل الطبقات لدا والوسطى الصبادل بدن الأحذية في عادة تناسب تماماً هذا الجو الحار، إذ إنها تساهم في برودة القدمين وتأتي أفضل الصبادل من اليمن حيث تبدو أنواع الصناعة الجديدة كلها في ازدهار

يعتمر العديد من أناس في فصل الصيف، والهود السطاء كدهم، القلنسوة فقط دون العمامة. إذ العمامة المعنودة هي من القماش القطني أو الكتاني الهندي، أو من الموسير، التي تُلَفُّ كل طبقة حول الرأس في شكل معين من شيايب وأولئك الذين يصتقون أنفسهم علماء، أو فقهاء، يتركبون طرفها ليتدلَّى في حط صيق إلى وسط صهرهم ويحافظ المنكبون على بطاها ثوبهم أكثر من أي شعب شرقي عرفته يوماً. فهذا أن الموسير الأبيض أو الكتان الأبيض يشكل الجزء الأساسي في لباسهم، فهو يتطلب غسلاً متكرراً، وهذا ما يتم بانتظام بحيث إن الطبقات الأشد فقراً تسعى إلى تبديل ثوبهم مرة في الأسبوع على الأقل أبصاً. أما لدى الطبقات العليا والوسطى، فرب التبديل يتم طبعاً بشكل متكرر أكثر كما يرتدي «ثوباً محلياً» كل يوم، وليس عريب أن يمتلك العديد ثلاثين أو أربعين ثوباً إن أهل «الحجار» يتجهجون بأثوابهم أكثر بكثير من المسلمين الشماليين؛ فيسق دحل الطبقات اللذي في الأعاب على لثياب وعندما يعود مكّي من متجره إلى المنزل، أو حتى برهة قصيرة في المدينة، يحنع ثيابه فوراً ويلبّسها على حبل مربوط عبر عرفة الجبوس ويرفع عمامته ويدل قميصه ثم يجلس على سجاده وعبي رأسه قلنسوة خفيفة وفي هذا الثوب المرّي يستقبلون الزوار ولكي يصوّر أو نصّف مكّي بدقة، عيب

تصويره وهو حائس في ثوبه المنزلي قرب نافذته المشيكة البارزة، وقد حمل في يده نوعاً من المراوح تكون عادة بهذا الشكل وهي مصنوعة من سعف النخيل يطرأ بها الدباب، وفي اليد الأخرى، أيوب غليونه الفارسي الطويل.



يظهر المكبون خلال أيام الأعياد الدينية، ولعهم بالثياب بدرجة أكبر بكثير، فمن الأكثر ثراءً إلى الأشد فقراً ووعوراً، على كل شخص أن يكون حسبها مرتدياً ثوباً جديداً، وإذا ما كان عاجزاً عن الشراء فإنه يقوم باستئجار واحد من التجار يومين أو ثلاثة أيام. فيتمتع أحياناً في هذه الأساسات ما يعادل مائة ليلة لاستئجار ثوب ربما يسع ثمنه ألفاً وخمسمائة إلى ألفي ليلة ولا يرصى أحد حينها بثوب يلائم منزلته الاجتماعية، لكنه يرتدي ثوباً يوافق الطبقة الأرفع منه منزلة. فمدير المتجر العادي الذي يتحول السنة كلها بعاءته القصيرة ومسدل لف حول حاصرته، يظهر في العيد بعاءة زهرية اللون محططة بالساتان وعمامة ذهبية مطرزة وشاح من الحرير الفاخر يشعرون بحيط فضي وحجر معقوف معق في وشاحه وقد غشي غنمه بعلة فضية أو ذهبية. كما يرتدي الأولاد بالطريقة المكلفة نفسها؛ وقد يرصى شخص لنفسه بأن يدعى لصباً، ولكنه لا يسمح لمن هو في منزلته الاجتماعية بحسبها بالتفوق عليه في الملابس والحلي. والألوان المفضية هي بشكل عام أكثرها حرقة؛ وعلى العباءة الفوقية أن تكون دائماً بلون شعائر اللوب الثوب تحمها ونرى كذلك شالات الكشمير خلال الأعياد رغم أنها نادراً ما تظهر في أوقات أخرى من السنة إلا على النساء والأشراف المولعين بالحروب؛ إلا أن كل مكبي لديه في أسهل الحالات أصفاً منزعة منها في حرارته وبعد العيد، توضع الألبسة الفخمة جاساً ويعود كل واحد إلى حالته المألوفة في اللبس. ويحمل كل مكبي من الراشدين عصا طويلة في يده، وهي تدعى بين الطبقات السفلى «هروات» ولا يشاهد أبداً أي عالم بغير عصاه. ويحرج القليل من الأشخاص وهم مسلحون إلا بين الطبقات الدنيا أو الأشراف الذين يحملون خنجر معقوفة في أحزمتهم.

ترتدي نساء مكة وجدة عباات من الحرير الهندي وبطناً مصفاً أزرق محططاً يصل إلى الكعبين وقد طرأ في الأسفل بحيط فضي؛ ويرتدين فوقه العباءة الواسعة وتدعى الحرة وهي من القماش الحريري الأسود المستخدم في مصر وسوريا؛ أو ملاءة من الحرير المحطط بالأزرق والأبيض من صناعه هندية ويحجب وجوههن يراقع بيضاء اللون أو ورقاء فاتحة؛ ويعتمد على الرأس المغطى بالملاءة قنسية مثل الرجال لف حولها قطعة من المرسلين المنقوش في

عدة ثياب ويقدّر أن عطاء الرأس أقل رخصة بالمعملة الذهبية والفضة والحلي من الذي تعتمره السيدات في مصر وسوريا؛ إلا أنه، عني الأقل، قد عُفّ حوله حظ من الشكوك (غمّة)؛ وبسبب العديد من العمود لذهبي والأساور وخلاجل لفصية. ويرتدي أساء لأقل ثراء انقبض المصري الأرق وسطاً قصصاً كذلك الذي سبق ذكره وأساور من الفرس أو الزجاج أو الكهرمان.

إن أظفار مكة ليس مدّنين من أهلهم كما هي الحال في بلاد أخرى من الشرق؛ فما أن يتمكنوا من السير عني أقدامهم بحرية، حتى يُسمح لهم بالعب في الشارع أمام شرب وهم يرتدون ثياباً رفيقه جداً أو وهم بالأحرى صف غراه. لهذا السبب ربما هم تُصب ثيبه وأسم صحة من الأصناف المتوفرة في سوريا ومصر الذين عائل ما يؤلّفون عناية حادثة تكاد تقتلهم.

فلية هي العائلات المكية المتوسطة الحال التي لا تقضي عياداً وقد وجد محمد - صبي الله عليه وسلم - تجاره الرقيق الإفريقية شديدة السرح في شبه الجزيرة بحيث إنه لم يبدح جهداً لإلحائها^١ وهكذا فقد عزّر هذه التجارة عبر إفريقية الشمالية وشرها، مع ما يصحبها من قسوة ووحشية، إلى جانب أسلاد التي اعتنقت الإسلام. ولخدم من بذكور والإناث هم عبيد أو من النبوة يُحصر عاده من السواقين؛ والمحاصيل هن دائماً عبيدات حبشيات. وليس هناك من مكّي ثري يفصل نسلا والهدوء برلي على إشباع أهوائه؛ فالكل يحتفظ بحوار إلى جانب روجتهم الرسمية بكر، إذا ما نُجبت بحرية ود، يقوم السيد عادة بالزواج منها، أو، إذا ما فشل في القيام بذلك، فإنه يتفق أسوم والتفريق من المجتمع؛ إن اقتداء الجوري لحشيات لا يزال أكثر شيوعاً في حدة، فالحديد من المكيين يسر لديهم سوى روجت حبشيات بعد أن ألغى لعريات أعلى كلفه وأقل استعداداً للرصوح لإرادة أروجهن ويسع العديد من الأحاب العادة نفسها ممن يبيعون في لحجار لفترة قصيرة فبعد وصونهم يشترون وصعة بكة بعدها عد رحيهم، لكن حياناً تطول مدة إقامتهم، وتحمل الحارية بطفل فيتزوجون منها ويصبحون مستقرين في المدينة وليلون هم لرجال غير المتزوجين أو ممن لا يملكون حارية وهو يفعل أمر شائع وعام في الشرق بكر ما من مكان يهوى مكة في ذلك. إن الاقتراح باسم الحبشي قد أعطى بلا شك المكيين تلك السحنة الصفراء للبشرة والتي تميزهم عن أهالي الصحراء الأصليين.

إن بيع حاربه يُعتبر أمراً معيماً بين الطبقات الأكثر ثراءً، وإذا ما حصلت بطفل ولم يكن سيدها بعد أربع روجت شرعية، فإنه يتزوج منها؛ وإن لم يكن الحال كذلك، فهي تبقى في

(١) هذا كلام يرد عني جهن المؤلف أو حمله وعنه لأد كتب الحديث عليه بالأحاديث الشريفة عن التشجيع والحث على تحرير الأرقاء، ولم يحدث أن عز الرسول والمسلمون عامة بجارة العبيد وشرها

مرله مدى الحياة ويتزايد عدد الجوّاري في بعض الأحيان ليلعب لعشرات، من المسات والشابات. وليس لدى الطبقتين لدينا والوسطى في مكة مثل ذلك الوازع الموحود عدد الطبقات الأرفع مرلة، هم يشترون الحبشيات الشابات بالمصاربة، ويربونها في منازل العائلة وتعلمهن انطبخ والحياكة، الخ، ثم يبعونهن للأجانب بشيء من الربح، أو يبيعون من يشت أنهن عافرات على الأقل. وقد حيرت من أطباء وحلاقين وتجار أدوية أن عمميات الإجهاض غالباً ما تحدث، والدواء الشائع الاستعمال لهذا الغرض هو بدر الشجرة التي تنح بلسم مكة. ولا يعرف المكيون أبداً بين الأولاد الذين تحبهم الجوّاري الحبشيات وأولئك الذين تحبهم النساء العربيات الحرائر.

ليس لدى سكان مكة سوى نوعين من الأعمال وهما التجارة وخدمة بيت الله أو المسجد. لكن الأولى تمتع بأفضلية وقيدون هم العلماء أو الأشخاص المعاملون في المسجد الذين لا يمارسون بعض الأعمال التجارية رغم أنهم أكثر كبرياء من أن يحجروا بذلك علناً وقد لاحظ القاريء رعا في وصف مكة السابق قلة الحرفيين العاملين في شوارعها كالبائين والجارين والخطاطين وصانعي الأحذية والحذادين، الخ وهؤلاء هم أقل مهارة من الطبقة نفسها في مصر. وباستثناء صناعة الفخار والمصابيح، ليس لدى المكيين أي صناعة. لكنهم كشعب حدة، يعتمدون على لبس الأخرى لتزويدهم بالحوائج وهكذا، ففي مكة درجة عالية من التجارة الخارجية التي تُدار بشكل أسدي خلال الحج وفي الأشهر القليلة التي تسبقه يقوم بها الحجاج الأثرياء الذين يُحصرون من كل بلد مسلم صاعته الوطية إلى جدة، إما عبر البحر أو عبر الصحراء من دمشق فتسادلونها بين بعضهم بعضاً أو ينقلون من تجار مكة السلع المصنوعة في الهند أو في شبه الجزيرة العربية التي كانت قد كُتبت سلعها في المخازن طوال السنة. في هذه الفترة، تصبح مكة إحدى أكبر الأسواق الموسمية في الشرق وأكثرها أهمية بالصنع بسبب الشعوب المختلفة والمتنوعة التي ترتادها. وتنفق قيمة الصادرات من مكة قيمة الواردات بدرجات وتتطلب إقامة التوارن بينهما مبلغاً هماً من المان، بالدولار والسكويين. يجد جزء منها طريقه إلى اليمن والهند ويمضي نحو الربع في أيدي المكيين. إن هذه التجارة مربحة جداً بحيث إن السلع التي يشتريها التجار في حدة، والتي يأخذونها من السلع التي تصل إلى هناك من الهند تعطيتهم ربحاً صافياً يبلغ عشرين أو ثلاثين في المئة حين يبعونها بالجملة في مكة خلال موسم الحج، وخمسين في المئة حين تُباع تلك السلع بالتحرة. فليس غريباً بالتالي أن يكون أهل مكة كنههم من التجار. إن كل من يستطيع جمع بضع مئات من الدولارات، يذهب إلى جدة يشتري سلعاً يعرضها لبيع خلال موسم الحج. كما يتم جني أرباح كبيرة بالاحتيا، فعدد كبير من الحجاج يجهلون اللغة العربية فيقعون بالتالي في أيدي الساسرة أو المثرحين الذين لا

يعجزون عن جمعهم يدفعون عالياً لقاء خدماتهم؛ حيث إن مكة تجعلها تبدو فعلاً متحدة في مشروع غش الحجاج (١٩) (١).

في السابق، حين كانت القوافل تتمتع بالأمن والحماية على الطريق، كانت السلع تُنقل بشكل أساسي عن طريق البر إلى مكة، لكن في وقت الحاضر، فيما يُعرض التجار بضاعتهم للمخاطر الكامنة في المرور عبر الصحراء، فهم يفضون إصاعة فرصة سترادها إلى مكة معصية من الرسوم الجمركية، وهي حصة كبيرة تتمتع بها لقوافل، ويقومون سفنها عبر لحر إلى جدة، وهي الطريق التي يدفع من خلالها كل حجاج إفريقيا وتركيا ضريبة مصاعمة. وحين تصل إلى مصر وإلى جدة مرة أخرى؛ يفسر محمد عني نصريين. وبذلك فإن التجارة البسيطة فقد هي التي تُنقل في الوقت الحاضر في القوافل التي تسبق موسم الحج حين يصل تجار أحاب عن طريق جدة ولديهم الوقت الكافي لتسوية أعمالهم قبل أن يبدأ موسم الحج

في وقت اسلام الدخلي، تردهر تجارة هامة مع لبدو وخاصة مع سكان مدن مصطفة «جدة» الذين يطبقون اسلع الهندية والأدوية والألبسة التي يحضرونها إما من «المدية» وإما من مكة بسعر قُل. والقهوة التي تُستهلك بكثرة في الصحراء. يستوردها أهل «جدة» أنفسهم الذين يرسلون قوافلهم الخاصة إلى بلاد القهوة إلى اليمن.

إن انكس، وخاصة من لم يكن مهم ثرياً بما يكفي ليتجر بالسلع الهندية (التي تتطلب قدر كبير من المال اناهر يدفع، وأحياناً تبقى من غير أن تناع لوقت طويل) يوظفون رأس مالهم خلال الفترة المصعبة بين مواسم الحج، في تجارة اندرة والمؤ. وقد كان ذلك مربحاً في السابق أكثر منه في الوقت الحاضر؛ إذ إن محمد علي قد قام باحتكار هذه السلع فأصبح الناس الآن مضطرين لشراء الحبوب في حدة بالسعر الذي يرضه الناش والاكنتاء بربح بسيط عند إعادة بيعها في مكة غير أنها، بعد دفع رسوم الشحن، تصل تدراً ربحاً يعادل خمسة عشر أو عشرين في المئة، وهو صرب من التجارة يحدد رؤوس الأموال الصغيرة بشكل عريب. فالأسعار في تغير مستمر فتصبح لينة لينة حظ يمكن أن يتضاعف لما من خلالها في وقت قصير

عند اقتراب موسم الحج، ترتفع أسعار المؤن كلها بأنواعها المختلفة؛ والسلع التجارية كلها كذلك لكن بنسبة قُل. وأولئك الذين يمكنهم مخارب ملأى بالندرة والأرز والسكر والسكر متأكدون من جني لأرباح الكبيرة إن تأمروا الطعام، خلال الإقامة في المدينة، لدفع من الشعوب يبلغ سنين ألف إنسان وعشرين كفاً من الجمال، فضلاً عن المؤن برحلة عودتهم إلى بلادهم ليست مسألة تتطلب وقتاً قصيراً. ولم يدر محمد عني حتى الآن بالسطرة عني كل

(١) أكثر عبارات الإسائة وجهها المذموم حتى الآن من مكة وسكانها. عديري.

ذلك. كما أن كل مكّي يمتلك بضعة دولارات يُنفقها في شراء نوع ما من المؤن التي ينقلها على ظهر حماره من جدة إلى مكة حين يدنو موسم الحج.

كلما تم فتح داخل شبه الجزيرة في وجه القوافل، فام البدو من المناطق كلها المحيطة بشراء موزونهم السنوية من الخطة من مكة التي تحصل كذلك في زمن السلم على كمية كبيرة من الخطة من اليمن وخاصة من المقوع، وهي مدينة تبعد مسافة عشرة أيام على السفح العربي لسلسلة الجبال الكبيرة، وهي سوق العرب الذين يرعون تلك الجبال. وقد سمعت أن الواردات من تلك المدينة بلغت نصف متطلبات مكة. لكن ذلك يبدو غير دقيق، رغم أنني لا أملك الوسائل التي تساعدني لتكوين تقدير صحيح، لأن الطريق غير سالكة حالياً، وتتلقى مكة موزونها بالكامل من جدة. بإمكاننا القول إن استهلاك الحبوب هو أهم شأناً في شبه الجزيرة منه في أي من البلاد المحيطة، لأن الجزء الرئيسي من الشعب يعيش بالكامل تقريباً على القمح والشعير والعدس والأرز ولا يستهلك الحبوب، بل كمية كبيرة من الربة.

من الصعب، إذا لم يكن مستحيلاً، على أي كان الحصول على تفاصيل دقيقة عن مثل هذه التجارة الواسعة الانتشار كنتك التي تُمارس في مكة، إلا إذا كان المرء يتعاطى بنفسه الأعمال التجارية أو له صديق ذكي من بين تجار الحمة. لذلك، فإني سأمتنع عن تقديم أي ملاحظات جريئة وبالتالي غير صحيحة عن فروعها المختلفة التي لست على اطلاع أو معرفه دقيقة بها والتي لم أجد أحداً في مكة بإمكانه شرحها لي وتوضيحها.

من الطبيعي الافتراض أن مكة مدينة حرة، وكان من شأنها أن تصبح أكثر عنى لو أن السلطات الدنيا لم تُعق أرباحها بهذه السرعة في إشباع رغباتها الدانية. إن تجار الحملة أثراء، وبما أن كامل أعمالهم تتم لقاء المد الجاهل مدفع، فهم أقل عرصه للحماة من التجار الشرفيين الآخرين ويملك معظمهم مؤسسة في حدة. كما أن تجارة المدينتين مرابطة بشدة.

خلال حكم الوهابيين، كان داخل شبه الجزيرة مفتوحاً في وجه مكة؛ لكن الواردات الأجنبية عبر البحر والبر قد قلصت إلى ما كان ضرورياً لاستهلاك السكان كما أن سوق موسم الحج الكبيرة لم تعد تُقام. ورغم أن بعض الحجاج الأجانب استمروا في زيارة المدينة المقدسة، غير أنهم امتنعوا عن تعريض سلهم لاحتمال استيلاء الوهابيين عليها. في ظل هذه الظروف، انتهى الدافع والباعث الرئيسي الذي يُبقي المكيين في المدينة، وأعني به أرباحهم غير المنقطعة. وكان الثري ينتظر تجديد وصول قوافل الحج؛ لكن العديد من الفقراء غير القادرين على إيجاد مورد رزق لهم، استحبوا من مكة واستفروا في جدة أو مرافئ أخرى على البحر الأحمر؛ حيث تبعهم العديد من التجار المرموقين.

تُمارس التجارة بواسطة السماسرة ولعديد منهم همدون إن مجتمع اليهود هو بشكل عام الأكثر ثراءً في مكة، وهم على اتصال مباشر مع كل المرافئ في يهد وكثيراً ما يستقبحون تكثيد البيع بسعر أقل من مذهبهم والعديد منهم، كما سبق أن ذكرت، مسقرون هذا يعني هناك آخرون يسافرون باستمرار ذهناً وديناً بين الهمد والحجار ويُحفظون كلهم على نعتهم الوصية التي يُعْمَمُونها لأولادهم وكذلك لعدة نجر في مكة بشكل سطحي كي يتمكن معظمهم منهم الأعداد الهندي، أو الهندستانية، على الأقل، وحمل الأكثر شيوعاً التي تُستعمل في عمليات البيع والشراء. ويجهد اليهود في ظل صعوبات كبيرة حمة في تعلم اللغة العربية؛ ولم أسمع أبداً ياً منهم، مهما كانت مدة إقامته في الحجار طويلة، يكلمها بلغة مقبولة. فهم في هذا الصدد أدنى درجة من الأتراك والدين وبدو في مكة يتكلمون لغة العربية طبعاً كعنتهم الأم كما أن يهود عدة كتابة للغة العربية بأحرف هندية

ويقال أنهم شديديو التحل إلى حد بعيد. وبما رأيتُ منهم في بيوت بعض تجارهم لأوائل يندولي أنهم يستحقون الصنف هذه وهم تجار ذهاه ويتفوقون في ذلك أحياناً حتى على العرب. وهم حذرون بالآراء من حاجتهم إلى لإحسان؛ إلا أنهم يُظهرون بين أنفسهم أملاً جريئاً شجاعاً يحسن منهم محترمين وحتى أحياناً مرهوين في مكة ولدى العديد منهم شركاء في الهمد، وهكذا فهم يحصلون على سلعتهم بتمس أرخص مما يمكن شراؤه من نفس الهمدية في حدة هكذا، فإن التجار ومديري المتاجر انصاع في مكة كثيراً ما يرون شراء السلع منهم بقرص قصير الأمد مناسب أكثر، من الذهاب إلى جدة حيث يجب دفع المال نقداً لشراء كل شيء. وباستثناء واحد أو اثنين، فإن أي من تجار شبه الجزيرة في مكة لا يتلقى سلعاً مباشرة من الهمد بل يشررونها من نفس الهمدية، ومن بين كل الناس في مكة، ما من أحد أشد صرامة في تأدية شعائره الدينية من اليهود

حين يتفاوض تاجران بحصول أحدهما برعباً في إعفاء أعماليهما عنهم، يعملون إلى جمع يديهما ليتمين تحت راية عبدة أو كُتم أحد الطرفين؛ وللمس مفاصل الأصابع مختلفة. يحددون الأرقام، وهكذا يُتَمَرَن صفتهم بصمت.

إن المكين الذين لا يارسون التجارة علانية، هم ملتحقون بالحكومة أو بالمسجد، لكن، كما سبق أن قلت، فهم يدخنون، نوعاً ما، في فرع من فروع شعائره، كما يتطعن الشعب بأكماله قُدماً إلى فترة الحج مصدراً لدخلهم.

يتقاضى لأشخاص الملتحقون بالمسجد مربيان متصمه، وبأحدون حصة من الهدايا العامة التي تُقَدَّم، ويتوقعون هبات خاصة من المؤمنين المحسبن كما يشاركون في المراتب التي

تُحصرها القوافل السورية والمصرية وتُدعى هذه المرتبات «الضرة» (التي قدمت عليها وصفاً)، وهي تستقي جذورها خاصة من سلاطين القسطنطينية «استانبول» الذين يقومون، عند اعتلائهم العرش، بتحديد مبلغ سوي معين لدعم الفقراء وأفاضل مكة و«المدينة». ويوزع القاصي هذا المبلغ كما يراه مناسباً في المدينتين؛ لكن إذا ما مُنح شخص ما معاش مرة، فهو يستفيد ويُدرج اسمه في سجل في مكة تُرسل عنه نسخة مسوياً إلى لقسطنطينية، حيث يُدرج اسمه في كتاب الضرة نعم. وتُعد الضرة في القسطنطينية في عدد كبير من الزم الصغيرة وتحتوي كل وحدة منها المبلغ المقرر وتُظهر باسم الشخص الموجهة إليه وإذا ما أرسل مبلغ جديد لتوريه، يقسمه القاضي ويُعلم مراقب الضرة في القسطنطينية بأسماء من أعطي لهم هذا المال وفي السنة التالية تُضاف الزم الإصافية الموجهة إلى المستعدين الجدد، إلى الرقم السابق ويأتي بعض الضرة من مصر، ولكل لأعباء السحقة تأتي من القسطنطينية عبر سوريا، وهي تصل بشكل منتظم جداً. ولكل قاض كاتب ضرة حاص بها وتقوم مهمته كذلك على توزيع المبالغ الأخرى كلها، أو الإتاوات التي تدفعها القوافل للبدو والعرب، في ضريقتها إلى مكة.

توزع الضرة الخاصة بمكة في المسجد تحت نوافذ مرل القاصي بعد رحيل الحجاج. وهناك أشخاص ينقبون مبالغ رهيبة جداً قد تبلغ ليرة واحدة، والمبلغ الأكبر هو من عشر إلى عشرين ليرة، لكن هك عددًا قليلاً من العائلات التي تتلقى ما يصل إلى الألفي ليرة مسوياً ورغم أنها لا تمنح دائماً من يستحقها أكثر من غيره فهناك العديد من العائلات المعوزة التي تتلقى الدعم من هذه المخصصات. وبالإمكان تحويل هذه البطاقات بحيث يستفيد منها الغير، ولكن يجب أن يوقع القاصي والشريف على التحويل؛ ويُسجل لاسم الجديد، فيعطى ملحق صغير لكتاب القاصي ويُرسل إلى القسطنطينية. بادرأ ما كان المكّي في السابق يميل إلى بيع ضرته التي يعبرها شرفاً كذلك رموزاً ثانياً أكيداً لعائلته. إلا أن قيمة الضرة قد تعثرت كثيراً. وفي ظل الوهابيين، فقدت البطاقات كلها تقريباً قيمتها إذ إن حامليها لم يلقوا أي مبلغ لشماني سوات. وقد استعادت شيئاً من قيمتها الآن؛ لكن بعضها قد بيع مؤحراً لقاء قيمتها لستين ونصف، مما يعطي فكره عن لرأي السائد في مكة حول مدى استقرار الحكومة التركية ورسوخها أو احتمال عودة الوهابيين.

يتحد مهمة المطوّف أو الدليل أكسل الأشخاص في مكة وأكثرهم ساداً وخسة ووقاحة^(١)؛ وما أنه ليس هناك نقص في تلك الصفات وهناك طلب على المطوّفين من خلال موسم الحج، فهم كثير العدد. فصلاً عن الأماكن التي وصفتها في المدينة، يُرافق المطوّف الحاج إلى كل

(١) ليس أكثر ساداً وخسة ووقاحة من هذا المؤلف الفخري

الأماكن الأخرى التي يتم إربادها في المنطقة مقدّسه وهم مستعدون لتأدية أي نوع من الخدمات في المدينة. ولأن المنفعة المتأتبة منهم يوربها، لا ين يحطّاه ويطمى عبيها رر عجم ومكرهم. فهم يظفون عرفة الخارج من طلوع الشمس وحتى عروبها ولا يسمحون له بالقيام بأي شيء دون إقحام مصائحهم ويحالسونه خلال العصور والعداء والعشاء ويدفعونه إلى كل المصاريف الممكنة التي يستطيعون أن يأخذوا حصّة منها ولا يموتون فرصة يضلوا من معه؛ والويل للتركي المسكين جاهل الذي يوطّهم مترحمين له في أي عمل تجاري لقد كان دليلي الأول هو الرجل الذي سكّ في مرله خلال آخر أيام رمضان. وعد عودتي إلى مكة مرة ثانية، فابنه في اشارع لسوء الحظ، ورغم أن ترحسي برؤيه كان أبعد ما يكون عن الحرية لأن لديّ لأسباب الكافية التي تدفعني إلى لشك في براهنه، فقد عاقني بشعب وحمل من مرله على الفور مقرأ نسكي لجديد. وقد رافقي في سداية كل يوم في طوافي حول الكعبة لتلاوة الأدعية التي تؤدّى في تلك المناسبة والتي سرعان ما حفظتها عيباً واستعيت بالتأني عن خدماته عند الاقتضاء. وكان يجلس معي بانتظام على العشاء، وعدياً ما كان يأتي بسلة صغيره ويأمر عبي بأن يملأها بالنسكويات والمحم والخضار أو الكهة ثم يأخذها معه. وكان كل ثلاثة أو أربعة أيام يطلب المال قائلاً «لست أنت من يعطيني ربه، بل إن الله يرسله لي». وبعد أن عحرت عن إيجاد أي وسيلة لاثقة للتخلص منه، قنت له بصراحة أنني لم أعد في حاجة إلى خدماته؛ وهي رعه لم يعند عبيها دليل في مكة بكرى، بعد ثلاثة أيام، عاد وكان شيئاً لم يكن وطلب مني دولاراً، فأجنته بأن «الله لا يحركني أو يدفعني لكي أعطيك أي شيء» فهو رأى ذلك صحيحاً لكان حراً قلبي وحملني أعطيك محفظتي كلها» فقال «لست أعيتي إن لم يرسل لك الله أصعاف ما أطبه منك» فأجنته «سحب كل شعرة فيّ إذا كنت سأعطيك «بارة» واحدة، حتى أقتع أن الله سيعبر ذلك عملاً مثاباً». عند سماعه ذلك، وثب واقفاً وبعد قائلاً «عود بانه من قلوب المنكرين وأيدي السحلاء» إن هؤلاء الأشخاص لا يتموهور بعشر كلمات أبداً دون أن يلفظوا «سم الله أو محمد» فراهم دائماً والشبهة في أيديهم ويتمتمون بالأدعية حتى في أثناء حديثهم إن مواصفات المظفرين هذه تُطبق إلى حد بعيد على أهل مكة بشكل عام، حيث إنهم يستعمون في انقاهرة المثل، التالي لكبح إرعاج المتسولين النوقحين «أنت كالمكي، تقول أعطني، وأنا سيدك».

وبما أنني كنتُ مُجبوراً على الحصول على دليل فمتُ باستخدام رجل مسن من أصل تربي وعما أنني عقدت معه معاهدة مد ابتداية فقد كنت مقتنعاً نوعاً ما بأنه. لقد بلغ مجموع ما دفعته لمطوفين، وفي أماكن إربادات المقدسة ثلاثمائة وخمسين ليرة تقريباً؛ غير أنني لم أقدم الهدايا، لا للمسجد ولا لأي من موظفيه وهذا ما يفعله فقط الحجاج الكبار أو أولئك الذين

يرحبون في لفت الانتباه إليهم. لقد تركز بعض المطوفين باستمرار قرب الكعبة يتطرون استخدامهم للطواف حولها؛ وهم عندما يرون حاجاً يسير وحيداً، يمسكون بيده، دون أن يُطلب منهم ذلك عالياً، ويبدأون بتلاوة الأدعية. يبلغ كلفة هذه الخدمة نحو نصف ليرة، وقد رأيتهم يتفاوضون مع الحاجاج تداً عند بوابة الكعبة على مسمع من الجميع. ويكتفي المطوفون لأكثر من فقرات بربع ليرة. كما يُرسل العديد من مديري المتاجر والبائعين من الطبقة الثالثة ألبائعين الذين يعرفون الأدعية جيداً، إلى هذه النواحي ليتعلموا مهنة الدليل. ويحكي أولئك الذين يعرفون اللغة التركية أجوراً مرتفعة. وما أن الحاج لأثرأ أن يأتي عادة عن طريق جدة في مجموعات من ثمانية إلى اثني عشر شخصاً قد عادروا منازلهم في جماعات ويعيشون سوية في مكة، يتكفل دليل واحد بشكل عام بالمجموعة بكاملها ليتوقع أحراراً يتناسب مع عددهم ويحدث أحياناً أن يقوم الحاجاج عند عودتهم إلى ديارهم بتزكيتهم إلى مجموعة أخرى من مواطنيهم الذين يطلبون منه عند وصولهم إلى جدة أن يؤمن لهم مساكن في مكة وأن يلاقيهم في جدة وأن يُشرف على رحلتهم القصيرة إلى المدينة المقدسة لإرشادهم في الأدعية الواجبة عند الدخول إليها مباشرة، وقد رأيتهم على الطريق المؤدية إلى مكة يمشون على رأس المجموعة التي تعاملهم باحترام كبير ولطف وتهذيب. فإن تركياً من أوروبا، أو اسبانيا، لا يُفهم كلمة واحدة من اللغة العربية، يُساعده جداً بحاد عربي طلق أسناناً يتكلم بتهمة ويمدّه بتأمين وسائل الراحة كلها له في مكة، التي قيل له أن لا شيء ينتظره فيها سوى الخطر والنصب (١٩). ويحكي الدليل الذي يأخذ على عاتقه الاهتمام بمجموعة من اثني عشر حاجاً تركياً لمدة شهر واحد، ما يكفي مصاريف مره حلال السنة بكاملها، إلى جانب ألبسة جديدة له ولأولاده كلهم.

بعض هؤلاء المصوفين لديهم مهنة فريدة جداً. فالشريعة الإسلامية ينص على أن أي امرأة غير متروكة لا تستطيع تأدية الحج (٢٠)، وحتى امرأة المتروكة يجب أن تكون برفقة زوجها، أو على الأقل أحد أقربائها المباشرين (المذهب الشافعي لا يسمح حتى بالشرط الأخير). وتصل أحياناً نسوة من تركيا لتأدية الحج، وهن أرامل مُسلمات وثريات ممن يرغبن في رؤية مكة قبل أن يُسلمن الروح؛ أو نساء يبدأن الرحلة مع أزواجهن وفقدنهم على الطريق بفعل مرض. ففي هذه الحالات، تجد امرأة في جدة مصوِّفة رَأو كما تُسمى تلك الفئة (مُحَلِّين) مستعدين لتسهيل تقدمهم عبر المنطقة المقدسة بصحبة أزواجهم ويكتب عقد الزواج أمام القاضي. فتقوم امرأة حينها، يرافقه دليلها بتأدية الحج إلى مكة وعرفات ولأماكن المقدسة كلها. غير أن هذا الزواج يُعتبر زواجاً اسمياً فقط؛ وعلى الدليل أن يُطلق المرأة عند عودته إلى حدة. أما إذا ما رفض

(١) هذا الكلام يدل على جعل المؤلف بالشريعة الإسلامية أو على كونه

الطلاق فلا يستصيع القلوب إكراهه على ذلك ويعتبر الزواج عندئذٍ مُلْزماً، غير أنه لا يعود بإمكانه ممارسة عمل الدليل المريح، ولم يستصيع من روى لي ذلك، لا تذكر مثاب من الإبقاء على هذا الزواج، واعتقد أن الرقم غير مناسب فيه إذا ما قُسم إن هناك ثمة دليل راشد إلى جانب الصفة الذين يتعمقون المهنة فكيف فقد صاحب منجر رائته، ورغب رحل من المثقفين الفقراء في حيي قدر من مال يعاد ما يحويه عند حشيشي، فإنه يتحول إلى مهنة الدليل ولا تتمتع هذه المهنة بالسمعة الحسنة إلا قليلاً، لكن العديد من لمكيين الأثرياء كانوا في فترة ما من حياتهم أعضاء فيها.

إن اشروات ثني تندفق إلى مكة من اسجدة والروت والأربح التي تأتي من لحجاج، طائفة جداً وكان من شأنها أن تجعل من مكة مدينة من أعنى المدن في الشرق، لولا عادات سكانها المتسمة بالفسق والاعمال في مدنات، وباستثناء الطبقة الأولى من التجار الذين يعيشون عامة تحت مستوى مدحولهم رعم أنهم ينعكون مؤسسات عظيمة، وباسماء فنة كبيرة من الطبقة الثانية لثني مدحر مال بهدف الوصول إلى الطبقة الأولى، فإن أغلبية مكيين، من لأواع ومن كلهم، حليعون ومدرون بشكل باهر، ولأربح الطائفة التي يحبوها في ثلاثة أو أربعة أشهر، تُدَد في العشر الهامىء، الكريم والنياب والمسرآت الجسديه، وما أنهم سسأ يشعرون بالاضمئان عنى أربح انس القادمة، فهم قبيلاً ما يأبهون بادحار أي جزء من الأرباح لحاليه. وفي شهر محرم، ما أن يسهي موسم الحج ورحل الأغلبية لساحقة من الحجاج، من المألوف إقامة حفلات الأعرس وأعياد الحتان وتم هذه الاحتمالات في مكة بأسلوب رائع. وإن رجلاً لا يملك أكثر من ثلاثمئة دولار لإعاقه في السنة، سيرمي نصف هذا المبلغ في رراح وبنه أو جتانه

إن قدسية هذه المدينة الطاهرة ووصايا القرآن المراجعة عذرة عن ثني سكان مكة عن استعمال المشروبات الكحولية والاعمال في كل مدنات واشحاورات اساتجة عسباً عن الشمالة. وتستورد المسك الهندية كميات كبيرة من مشروب (الراكي) في براميل، ويباع هذا المشروب الذي يمزج بالسكر وروح القرفة، تحت اسم ماء القرفة، ولدى الأشرف في مكة وحدة والتجار الكبار والعلماء وكل الناس لمهمين الموقوفين، عادة شربه ويقعون أنفسهم بأنه ليس سيئاً ولا حتى (براندي)، فهو نباتي ليس محرماً في الشريعة. ولا يستصيع السكان الأقل ثراء شراء سلعة مكلفة كهذه، لكنهم يستهلكون شرباً محمراً مصوغاً من الريب، يستورد من الطائف. بسما شرب اصبيقات الدنيا (البوره) وحلال إقامتي في الطائف، قام تركي ينمي إلى حاشية محمد علي باشا بتقطير (البراندي) من العنب وباعه عند بأربعين ليرة لرحاجة لواحده.

يُنفق المكبوت بسحاء في مساربهم، فالعرف مرددة بالسجاد الفاخر وعدد وافر من الوسائد والأرائك المعطاة بالقماش المطرر؛ ويرى وسط الأثاث الكثير من الخرف الصيني الجميل وعدة رُاحيل مرّيته بالقصة. وإن صاحب متجر صغير يحجل من استقبال معارفه في منزل مُعدّ بطريقة أقل روعة وجمالاً. وموائدهم غنية أكثر منها في أي بلد آخر في الشرق حيث يعيش العائلات، حتى الكبيرة منها، بقتصاد من هذه الناحية. ويحب أن تحتوي مائدة المكي يومياً على اللحم الذي يكلف من ليرة ونصف إلى ليرتين سكيو عرام الواحد، حتى وإن كان يسمى إلى الطبقة الدنيا. كما أن قدر القهوة في منزله لا تُرفع أبداً عن النار وهو ونسوه وأولاده يشربون باستمرار تقريباً الأرجينة، والتع لدي يوضع فيها لا يمكن أن يكون مصروفاً صليلاً

لقد أدخلت النساء (موصة)، شائع في تركيا أيضاً، وهي القيام بزيارات متبادلة يسهن مرة في الأسبوع على الأقل مع كل أولادهن. وتستمر الزيارة طيلة اليوم، كما يتم تأمين تسليّة غنية في المدسة. كما أن عرور سيدة البيت يجعلها تسعى جاهدة لتعوق معارفها في المطبخ والمطبخ، وهكذا فإن مصروفاً مستمرٌ يصبح لازماً في كل عائلة ومن بين مصادر الإنفاق، يجب تعداد عمية شراء الحاربات الحشيات اللاتي يحتفظ بهن الرجال، أو المال الذي يُمنح لفتيات الهوى اللاتي يتردد إليهن العديد منهم. كذلك تُبذّر مبالغ كبيرة على المسرات الجسدية الأكثر مباداً واحتياطاً، لكن، وللأسف فإن ذلك شائع في مدن الحجار تماماً كما هو في بعض الأجزاء الأخرى من آسيا، أو في مصر في ظل المماليك. وقد سبق أن ذكرنا أن مسجد مكة نفسه، وهو قدس أقدس الدين الإسلامي، يُلوث تقريباً يومياً بمدرسات فاسقة إلى حد بعيد، ولا يتم إحقاق الحزّي والعار بهي رُشّشع عليها الشباب من كل الطبقات من قبل المسير منهم. وحتى أن الأهل هم من الدماء والحجارة يمكن بحيث يتعاصون عن تلك المفاسد من أجل ادل غير أن محيطات البدو العرب حاية من هذا التدريس؛ رغم أن أسلافهم لم يكونوا أقباء من هذه الناحية، هد إذا م صدّقنا بعض النواذر الخيرية التي سجلها مؤرّحون شوقيون^(١).

إلا أن وصفي لبائعات الهوى (وهن كثيرات جداً) لا بد من إتمامه هذا. وقد سبق أن ذكرت أن الطي المدعو شمع عمرة كان مقرّ القصة الأشد فقرأ من بائعات الهوى، وأولئك المواتي يسمين إلى الطبقة العليا، مورعات في المدينة. إن سمو كهن الطاهري أكثر حشمة من سلوك أي من ساء الهوى في الشرق وللتأكد من خلال حركة معينة في مشيتها بأن الشيء يحثه لذاره أمامه تنتمي إلى النقيبة الفسدة، فذلك يتطلب عين المكي الخيرة. ولن أتجرأ بالكلام على نساء مقروجات في الحجاز، فقد سمعتُ نواذر متصلة بهذا الموضوع ما ليس فيه مصححهن لكن

(١) مسجد القاريه مثل هذه الحارات البديعة من المؤلف كثيراً، ومرصه واضح

في الشرق، كما في بلاد أخرى، فإن الشبان أحياناً يتباهون بعلاقات لم يمارسوها قط. إن السلوك الخارجي بساء جدة ومكة هو في عاية الخشمة واللباقة فلا يُشاهد منهن إلا القليل وهن يمشين أو يركبن في الشوارع، وهو شيء شائع في القاهرة رغم أنه يناقض فكره الاحتشام الشرقي. وقد عشت في ثلاثة مزار مختلفة في مكة دون أن أرى وجوه بساء البيت سافرت

يعيش تجار مكة الأثرياء بطريقة فحمة جداً. ففي مزار جيلاني والعجيل والسقاط، وسور، هناك ما يقرب الخمسين أو ستين شخصاً. وقد حصل هؤلاء التجار على ثرواتهم بشكل خاص خلال تحكم عاتب الذي كان جيلاني والسقاط يعملان لديه كجواسيس على البحار الآخرين. وتحتوي مواثيم يومياً وبوفرة على كل لطيفات الخمية وأيضاً تلك القادمة من الهند ومصر ويجلس معهم إلى المائدة لعشاء نحو عشرين شخصاً؛ ويُسمح للجاريات الخشبات المفصلات اللاتي يعملن عداً ككائنات أو أمهات صندوق، بالجلوس إلى مائدة سيدهن؛ لكن الجاريات لأدنى مرتبة والخدم لا يأكلون، لا يطبخون ويربدة كما أن حرف الصبي والرحاح الذي تقدم فيه الأطباق، هو فاحر جداً؛ ويُرش ماء لمر على خية الصبوف بعد العشاء وتُملأ بعرقة بأصباغ حشب الأكرة وعطره وهو يحترق فوق الأراجيل ويقتد بهديب فائق في السلوك دون رسميت؛ وما من رجل يبدو أن أكثر لطف ورقة من امكين الأثرياء الذين يُكرمون وفادة صيوفهم. وكل من يصادف جنوسه في الردهة الخارجية في أثناء تقديم العشاء، يُسأل أن يصم إلى المائدة، وهو أمر يعده لصيف دون أن يعتبر الدعوة تفصيلاً أو مئة عيه، يسما يعتبر امصيف، من ناحيته قبول الدعوة امتياراً مُح له.

يُعد امكينون الأثرياء وحسين يومياً، وحدة قبل منتصف النهار والأخرى بعد غروب الشمس. أما عند الطقات الدب، فتكون العصور عند شروق الشمس ولا يأكلون شيئاً بعده حتى قتراب ميعت الشمس وكما في الحار في بلاد النرويج. ليس من اللائق رؤية رجل في الشارع وهو يأكل، فتوُجُ الجود الأثراك الذين مرون يحفظون بعاداتهم النوطية، من قبل شعب مكة بسبب قلة تهديهم في هذا الصدد.

قبل الاحتلال التركي وحروب الشريف مع النوايين التي سفتها. كان تجار مكة يعيشون حياة رعيمة وبعيدة السعادة خلال أشهر أيار/ مايو، وحريرال/ يونيو، كانوا يذهبون إلى حدة لخصور بيع السلع الهندية. وفي تموز/ يوليو، واب/ أغسطس، (إلا إذا وقع الحج في هذه الأشهر) يعودون إلى مدارسهم في الطائف حيث يصور الموسم الأشد حرارة محبين ورءهم شرك، هم أو كتبهم في حدة ومكة وخلال أشهر الحج، يكونون دائماً في مكة طبعاً، كان

كل عائلة مكة ثرية تتبع الحج إلى عرفات كرحلة استحمام واستمتاع وتُحيم هي وادي مبي ثلاثة أيام.

في شهر رجب، وهو الشهر السابع بعد الحج، كانت تنطلق دائماً قافلة من مكة إلى «المدينة»، وتتألف من عدة مئات من التجار يركبون على الجمال وكانت تُقام في ذلك الوقت سوق موسمية كبيرة في «المدينة» يرتادها العديد من البدو في المناطق المحيطة وشعب الحجار ويجد.

وكانت السلع التي تملأ هذه السوق تُرس من مكة بقافلة ضخمة من الجمال التي كانت تنطلق مباشرة بعد التجار، وكانت تُدعى «ركوب المدينة»^(١). وكانت تبقى نحو عشرين يوماً في «المدينة» ثم تعود إلى مكة. إن تعبير المسكن المكرّر والمستخدم هذا، كان بالتأكيد محسناً لدى التجار خاصة في تلك الأوقات التي يستطيعون فيها، يقين، التأكد من أن موسم الحج التالي سيكون مصدر ثروت جديدة لهم. وبما أن الطائف و«المدينة» الآن هما شبه مهدمتين، يذهب تجار مكة إلى جدة كونهما المكان الوحيد لهم للاستحمام. ولكن حتى أولئك الذين يمكنهم روجات ومسرل هناك، يتكلمون عن مؤسساتهم في مكة كمارلهم الوحيدة الحقيقية حيث يمشون الجزء الأكبر من السنة.

يتمتع عامة سكان مكة وجدة، وبوعاً ما سكان «المدينة»، عراج مُفعم بالحياة والشاهد أكثر من السوريين أو المصريين. إن أياً من أولئك الأشخاص الصامتين الوقورين الذين يعملون بطريقة سية، لا يُشاهدون هنا، وهم منتشرون في أحرأ أخرى من الشرق. وهم عادة ما يظهرون إلى جمودهم وغنائهم كدليل على الإحساس الذي يتمتعون به والحكمة والدهاء.

ويشبه طبع المكّي في هذا الصدد طبع البدوي، كما أن جشعهم وتوقعهم الشديد إلى تحقيق لأرباح لا يشوّه في أحوال كثيرة ملامحهم، إذ إن الالبسة المرحلة ترسم دائماً على شعبيهم. وفي الشوارع والأسواق، في المارل وحتى في المسجد، يحب المكّي الصلحك والدعابة. وعند التعامل مع بعضهم أو في أحاديثهم حول مواضيع هامة، كثيراً ما يُدخلون أمثالاً أو سوربة (تلاعب في اللفظ) أو إحدى التلميحات النظرية التي تُحدث الصلحك. وبما أن المكّيين يتمتعون بصلاً عن هذا الطبع المرح، يعطيه حادة وحصافة ودمائه شديدة في السلوك، فهم يعرفون جيداً كيف يوقعون بسها ويبين كبريائهم البطري فإن أحاديثهم ممتعة جداً إذ إن كل من يسعى لإشياء محرد معرفة شخصية سطحية معهم، غالباً ما يُسر بطمعهم. وهم أكثر بطفاً وتهدياً في تعاملهم مع بعضهم ومع الغرباء مما هم عليه سكان سوريا ومصر، وهم كذلك يحتفظون بشيء

(١) على العموم، فإن عرب الحجاز يسمون القوافل «الركوب»، أي تعداد يسمونه كروب الشام أو ركوب العراق

من مرج البدو طُيِّب ندين هم أسلافهم وحين يبادرون بعضهم بالكلام في اشوارح سمرة الأولى خلال لهر، يقوم الشاب بتقليل يد الأكبر سناً أو من ينتمي إلى طبقة أرفع منه منزلة، بينما يرد الأخير التحيّة بقبضة على الجيب. ويتبادل الأشخاص من الطبقة نفسها والعمر نفسه (ليس من الطبقة الأولى) تقليل لأيدي^(١). كما يتوجهون إلى لمرير فيبادون «أيها المؤمن»، أو «الأح»، كما أن قور الله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ تجده دوماً على شفاههم وغالباً ما يقول صاحب المتجر بربوبه الأحسي «أهلاً وألف أهلاً»، ويضيف «أنت عريب الله وصيف المدينة المقدسة؛ كل ما أمسك تحت تصرفك» وحين نحتاج خدمة من أحد ما يقول هذا الأخير «كل موارد رفا ندين بها لكم أيها الحاج، بعد الله، فهل بإمكانك إلّا أن تكون ممتن؟» وإذ كان عريب ما يقف تحت الشمس في مسجد، يقوم الملكي بإفراح المكان له في لصل، وإذا ما مرّ بقهوة فيه يسمع أصواتاً تُناديه ويدعوه للدخول وشرب فنجان من القهوة؛ وإذا ما أحد مكّي حرة ماء من أي بائع متجول أو عمومي، فإنه يعرضها، قل أن يصعها على فمه، على أي غابر سبيل؛ وعند أي نعارف سطحي معه، فإنه يقول لصديقه الجديد «متى سنشرفني بزيارة إلى مرلي لتناول العشاء معي؟» وحين يشاخرون مع بعضهم بعضاً، فإن لا يسمع أياً من تلك الدعوات أو الألعاب السببية أو انعة الحسنة القدره التي تُستعمل بشكل متكرر في مصر وسوري؛ ولا تُوجّه الصرعات إلّا عند الظروف الاستثنائية حد، كما أن وصول شخص محترم ومرموق يصع حداً فوراً لأي خلاف عندما يصح بالوئام قائلاً: «حلفنا الله أكبر آمين»، فيقولون جميعاً: «إلّا أنه وهبنا، كذلك، فصيلة الدم السريع».

إلى هذه الصفات المصيفة، يُصيف مكّي واحدة أخرى يستحق لأحدها لثناء وهي أنهم عرق أيّ ورعم، أنفتهم لا يرتكر على ستحق أو كفاءة فطرية؛ فإنه فصل بكثير من الخنوع المتعلق الذي يتميز به اشرفيون الآخرون لذين يعرضون هم إعدامهم لتسم دخول والوصعة لأسبادهم، بأشد أنواع عطاسة شتداداً تجاه من هم أدنى منهم. ويفخر المكّيون لكونهم قد وُلدو في المدينة المقدسة وبكونهم مواطني النبي ولأنهم قد حافظوا إلى حد ما، على عاداته. كذلك لأنهم يتكلمون بعتة الصرفة ولأنهم أيضاً يتمتعون، بكن الامتياز في العالم الآخر التي وعد بها حيران الكعبة؛ ولأنهم أكثر حرية بكثير من الأحاب الذين يروهم يحتشدون إلى مدينتهم. وهم يُدبون أفتهم أمام أسادهم لذين عموهم التعامل معهم بكثير من اللين والهدوء؛ كما أنهم يظرون إلى الشعوب الإسلامية لأخرى كلها كشعب أدنى منهم

(١) عند تصادفه بمسك أحد نون أيدي بعضهم بعضاً ويشدون عليها بالإبهام ثم يصحون أكتهم ويشدون عليه ثلاث مرات أو أربع مرات ويقال أن هذه كانت عادة محمد - صلى الله عليه وسلم

مرلة فيعاملونهم بطف وكياسة نتيجة لتعصمهم وتدرئهم. وقد نتج عن هذه الأنفة أمور جيدة لا يستطيع شعب دونهما أن يتوقع الحفاظ على مرلته بين الأمم وقد حال ذلك دون أن يعرق أهل مكة عميقاً في العبودية كععض جيرانهم؛ إلا أن ذلك لا يبعث فيهم أي شيء جدير بالثناء، في حين يرى تأثيره في الأردء الذي يُصبرونه للأحباب. ويظهر هذا الأردء، كما سبق أن ذكرت في سياق حديثي عن حدة، تجاه الأتراك بشكل أساسي. الذين أسهم جهلهم لعة العربية وريتهم ونمط عيشهم وسلوكهم الديني في إقاص شأنهم جداً في نظر العرب، فضلاً عن لجسهم الذي يظهر كنما هوجم حاج في طريقه عبر الصحراء، وقلة الاحترام الذي كان يُظهره لهم حكام مكة طالما أن سلطه الأشراف كانت تامه؛ بحيث إنهم يُعتبرون في الحجار أفضل بقليل من الملحدين وبالرغم من أن العديد من المكيين هم من أصل تركي، غير أنهم يصمتون بحماسة إلى باقي مواضعهم في الخط من قدر الأصل الذي يتحدثون عنه. وقد أصبحت كلمة «تركي» عبارة مُهينة لعصمهم بعضاً وتشيع بين الأولاد كما تُطلق غالباً عبارتنا «نصراني» أو «يهودي» على الأتراك من قبل شعب مكة، ويؤثر سوءكم ولعنهم مورداً دائماً لسحرية واخري.

ويسمى السوريون وأنصريون كذلك المعاملة نفسها النابعة من أفع أهل الحجار لكن ذلك يطبق على السوريين بشكل خاص، إذ إن أنصريين من بين كل الأحباب، يقتربون أكثر من أهل شبه الجزيرة في العادات ولغة ويحافظون على قدر كبير من علاقات شخصية وحمية معهم غير أن السوري مسلم المتعزف الذي يدعو حلب أو دمشق «أم الدنيا»، ويعتقد أن ليس هناك عرق يوزي عرفه وأ ليس من لعة حائصة وصرفة كاللعة السورية رغم أنها بلا شك أسوأ بهجة في اللغة العربية بعد اللهجة المغربية^(١)، هو مُحبر ها على أن يتصرف بقدر كبير من التواضع والاحتراس وأن يتكلف على الأقل التهذيب واللياقة وبالرغم من كونه عربياً إلا أنه يُنتقد في الملبس وطريقة العيش كالتركي؛ يرتبط لقب «شامي» بمكرة مهرج سادج وثقيل الظل وإذا ما رأى العرب الأتراك في بلادهم التي هم فيها أسياد سيكبر مقتهم لهم أكثر إذ إن سوءكم في المدينة المقدسة عامة أكثر حشمة ولياقة ويتوافق مع مبادئ دينهم أكثر منه في البلاد التي يأتون منها.

ويعتقد المكليون أن مديسهم، مع سكانها كنهم، هي تحت رعاية الله الخاصة، وبأنهم معصّلون على الأمم كلها بدرجات. «هذه هي مكة، هذه هي مدينة الله»، هذا ما يقولونه حين يُبدي أحد ما الدهشة لبقاء الأغلبية الساحقة منهم في المدينة خلال فترة ركود التجارة وغياب

(١) هذا يدل على جهل المؤلف باللغة العربية

الحجاج، فيقولون «لا أحد هنا يفتقر أبداً إلى قوته اليومي، ولا يحشي أحد من عرو لأعداء. كما يعتقدون أن الملك «سعوداً» قد نُقِدَ المدينة من السب، وأن أياً من عمليات السب لم تحدث حين قامت الحياة التركية، في ظل مصطفي بك. بالاستيلاء عليها من لوهانيين؛ وأن لقاء القيص على الشريف غالب لم يؤد إلى أي مباح صرح حدود مكة، وأن كل ذلك هو معجزات كثيرة وأصحة ومرئيه من الخلق لإثبات صحة ذلك انقطع من القرآن (سورة ١٠٦)، وقد قيل فيها ﴿فليعدوا ربّ هذا البلد الذي طعمهم من خوع وامهم من خوف﴾. لا أنهم يسبون النظر إلى الوراء، إلى تريحهم الخاص الذي يحصل بعدة محاعات رعية ومعارك دموية حدثت في هذا الحرم المقدس، وتحقيقه أن يحذر ربما عدت من المجمعات أكثر من أي بلد شرقي آخر. وقد أورد المؤرخون وصفاً شاملاً ومرواً عن تلك الأحداث المؤسفة، سأذكر منها واحدة فقط حدثت سنة ١٦٦٤، حين قدم العديد من الدس، كما يروي «الأعصمي»، يبيع أولادهم في مكة لقاء مكين واحد من الخطة، وفي جدة، حين كان لشعب يتغذى باللحم البشري.

وقد روى بي مكين، أنه بعد أن عزم أمره على ترك المدينة، نتيجة عده وصول الحجاج الأتراك، الذين كانوا يروّجون بوسائل بقائه، ظهر له ملاك في يومه في البيلة التي سبق رحيله لقرر وكان ملاكاً يحمل في يده سيفاً برقاً ووقف فوق بوبه مكة التي كان يحترم الرجل معادرة المدينة غيرها، وقال «إني أيتها الكافر المشكك، فإن مكينين سيُكُونُ الشهد في حين ستكتفي كل شعوب لأرض بحير الشعير» وتبحة بهذه الرؤية، تراجع الرجل عن مشروعه واستمر بالعيش في المدينة.

إن أنطط انطهر الذي يتسم به شعب مكة يُعدّل صدقهم وإخلاصهم، كما هي الحال كذلك بالنسبة إلى محاربتهم وعناد حساسي والتراهم وإخلاصهم لدينهم، مع لتغيد بتعاليمه وإن العديد منهم، خاصة أولئك الذين ليس لهم مصلحة خاصة في حجاج الحجاج بالظهور عظه شديدة انصرمه، يرحون كثير في أدء شعائر دينهم معتقدين أنه يكفي أن يكون أحدهم مكياً وأن يطلقوا لأدعية الورعة أمام الملأ، أو طابن أن لصرامة في ممارسة الشعائر أمر قد يصعب على البرائين الأحاد الذين يرون مكة مرة واحدة فقط في حياتهم. وكما هي حال البدو فإن العديد منهم إما غير منظمين أبداً في صلاتهم وما لا يصنّون البتة ويكتفون بالمسجد بالبرياء شكل أساسي خلال صلوات الجمعة التي يُفرض على كل مسلم منهم في المدينة حضورها، في حين يرى العديد من أهل مكة يدخون في متاجرهم وبعد معادرة الحجاج لمدينة، لا يكون حضور الصلوات إلا من منه قبلة. وهم لا يورعون بصدقات أبداً مُعلنين ذلك بأنهم قد وصعوا في هذه المدينة بعمل قدرة إلهية ليتفقوا احساسات وليس لتغديهم وهم يقتدرون لعدوات مقولة

عن محمد - صلى الله عليه وسلم - خاصة ما كان منها أكثر سطحية رتفاة، حيث يحرصون دائماً على جرّ شاربهم والإبقاء على خبثهم تحت انقاص بانتطاء لأن تلك كانت عادة النبي - كذلك. فهم يتركوا طرف العمامة يتدلى بحرية فوق العنق ويصنعون كل يوم الكحل أو الإثمد (شجيرة الأراك) على جفنيهم ويمسكون دائماً في أيديهم مسواكاً من عود رمع من شجيرة الأراك، أو واحداً مستورداً من الخجاج القرم، ويحفظون غيباً العديد من آيات القرآن والحديث يلتمحون إليها أو يستشهدون بها كل لحظة. يكرهون يسون أن هذه النوصايا أو التعاليم أعطيت كفوقه لسلوك وليس فقط لتجديد تكرارها وتباع مشروبات الكحولية تماماً عند بوابات المسجد^(١). كما أن المطوفين أنفسهم يتصرفون كما يعرض مباشرة القانون والشرع وذلك بتلاوة لأدعية بصوت عالٍ في المسجد ليريدهم من الخجاج، لكي يُغفروا بأصواتهم الرنانة حجاجاً آخرين، وهم يحملون في الوقت نفسه عصا المكيين العريضة المعتادة. كما أن تدخين الخشيش المحذر علناً هو انتهاك فاصح للقانون والشرع. ويلعب الورق تقريباً في كل مقهى عربي (يستعملون ورقاً صلباً صغيراً)، رغم أن القرم يحرم بشكل مباشر ألعاب القمار. فضلاً عن أن الحماية التي تؤمنها الحكومة للأشخاص من الذكور والإناث ممن هم أكثرهم حلاعة وتهنكا، هو تشجيع إصافي على الانتهاكات اليومية التي تمس القواعد والمبادئ العامة الصارمة لشرع الإسلام، إذ إن العنق وانقسم برائف الكادب لم تعد تُعتبر جرائم بينهم. وهم مدركون تماماً لحزبي الذي تُحققه هذه الرذائل لأن كل دين يعبر عن موقفه لمعارض لفساد في السلوك لكن أباً منهم لا يقدم مثلاً للإصلاح؛ وببما هم يتصرفون باستمرار وفق مبادئ تعارض تماماً تلك التي يشيرون بها، يعملون بإجماع أن الرمس قد أصبح يبرر العبارة التي تقول: «إن الحرام في بلاد الحرمين».

إن المكان الذي ليس فيه مجموعة موعة من العقائد، لا يمكن أن يظهر فيه المصايقات أو الاصطهاد لكن من المحتمل أن يميل المكثرون بسهولة إلى القيام بتجاوزات ضد من يدعونهم كفاراً فقد لاحظت في الشرق أن المسلمين الأكثر إهمالاً ونهاوياً في تأدية واجباتهم لدينية، هم الأشد عنفاً وصراوة في فرض شعائره على الكافرين؛ كما أن نجد معتقدات الخرافية الأكثر جسامة منتشرة عامة بين أولئك الذين يستحقون بواجباتهم أو حتى بين الذين يسحرون منها كالعديد من العثمانيين، ويدعون حرية التفكير واعتقد. وليس هناك طبقة من الأتراك أكثر ترشحاً في كرههم للمسيحيين من أولئك الذين يتعاملون بشكل منكر معهم، بحيث يجدون من الملائم المحلي بفترة ما عن مظاهر تحيرهم. ويعيش المعارضة كالكافرين في المرافئ الأوروبية

(١) يفرّد المؤلف بذكر مثل هذه الروايات في ثنايا هذا الكتاب، وله أن يرفع ما يشاء!

على البحر المتوسط، كنها، لكنهم حين يصبحون في بلادهم، لا يمكن شيء إلا الخوف أن يجعلهم يصنعون حدوداً لتعصبتهم وهذه هي حال الأتراك في لأرجس. وبإمكانني إبراد العديد من الأمثلة في سوريا ومصر لتثبيت هذا الحزم وإن ما كان التعصب قد حقت حذره خلال السنوات العشرين لماضيه عبر الأباطورية التركية فيمكن عرو هذه الظاهرة فقط لاحتصاص الحماسة عند السكان وبالمبالاة المرابدة تجاه دينهم، وليس بالتأكيد لانتشار مبادئ أكثر إنسانية وخيرية.

إن نص الشريعة الإسلامية محدد في تحريض ثريديها على البعض غير منقطعة لكن من يؤمن بمعية محتتمه وعلى اردرائهم واحقارهم. رسم تحمد أو تحف حدة هذا الازدراء لكن، عتد يترك محالاً بلطيط خارجي كنها كانت مصحة المسلم تعرض ذلك وتوقف درجة التسامح الديني الذي ينصع به مسيحيون على مصحة الحكومة المحلية التي يعيشون في ظلها وإذا ما حدث أن كانت لهم خطوة فإن لتركبي يمحني للمسيحي. فهي كل البلدان شرقية التي ررتها، تمنح متياراب للمسيحيين أكثر مما تأمر به الشريعة الإسلامية أو تسمح به بشكل عام. إلا أن رصعهم يتوقف على أمر حاكم لمديه أو المطلق، كما سبق أن حنروا ذلك مد نحو سبع سنوات في دمشق في ظل حكم يوسف باشا حين تمت رعدتهم فجأة إلى رصعهم منذل السابق ونقد كان وصع لقسطي في مصر، مد عشرين عاماً، هو نفسه كانهودي الآن في بلاد المغرب؛ لكن، في نوقت الحاضر، حين يحد محمد علي، صاحب الفكر لحرز (دون أن يكون سراًياً نساكد) أن من مصحته اسرضاء امسيحيين وسمائتهم، يصح بإمكان يوناني أن يصرب تركيا دون أن يحشئ عواقب هذا الفعل من الجماهير. وزي أعرف مثلاً عن رسمي قتل حادمه اسنم وبها من العقاب عر دفع صريه بحكومة على الرعم من نشر الخبر بين العامة وبما أنهم مقتنعون، كما هي حال الأتراك، لأن في أجزاء عديدة من شرق، بمقوق هؤلاء الأوروبيين الذين لا يستطيعون سوى اعتبارهم أخوة رؤوسهم لمسيحيين، فإن سوكهم تجاه هؤلاء الرؤوس سوك مع ذلك منتم بشكل صارم لمشاعر حكامهم المعلنه وسكوب من السهل على محمد علي أن يهش المسحيين في مصر بكلمه وحده ويحط من قدرهم بالسهولة نفسها التي وجدها لرفع شأنهم إلى رصعهم الحالي، هم أرفع مقاماً، على ما أعتقد، بما هم عليه في أي جزء آخر من تركيا.

إن الحمد نحو لمسيحيين هو نفسه تقريباً في كل جزء من الإمبراطورية لعثمانية؛ وإذا ما كان اسلمون يفضخون بهذه المشاعر، فلا يعود ذلك إلى مبادئ الإنسانية والحيية ولكن لتحمهم من صادف أنهم في السلطة. ونصل وصاعتهم حذاً يجعلهم يفلون أيوم اليدين اللتين داسرهما بالأقداء البارحة وعند التدقيق في أعمال الشعب، اتعصية التي سجن العديد منها في رشف

لقصاص الأوروبيين في الشرق، سجد بشكل عام أنه كان للحكومة يد في ذلك الشعب، وقد نجحت بسهولة في قمعها والسيطرة عليها. ولم يجد السلطان سليم الأخير، في نظامه الإصلاحى التجديدي الذي جمعه يؤيد المسيحيين ويساندتهم، أي معارضة من جماهير شعبه لكن من الإنكشاريين الفيوريين؛ وعندما انتصر هؤلاء الأخيرون، عرق محدداً نيلاء القسطنطينية شبه المنعزسين في «الشقة»، وإحقيقة أن مؤمناً متهوراً، أو شيخاً محسوباً أو درويشاً عني رأس بعض أموالين، يمكن أن يشكل أحياناً استثناء لهذه الوقائع، ويقوم بإهانة مسيحي يتمتع بأعلى امتيازات من السلطات العامة، كما حدث في دمشق سنة ١٨١١، مع البطريرك اليوناني بعد عزل يوسف باشا لكن مواطيه، نادراً ما تكون لديهم استجابة يطلقوا الصان لمشاعرهم ويحدوا حدود شيخهم رغم إيمانهم بالمبادئ ذاتها وامتثالهم بالكرهية نفسها. إن أياً من تلك الاضطرابات ولغز الشبهة الحقيقية لا نشهداها الآن في الشرق، وقد كانت في يوم من الأيام معتادة في أوروبا، عندما رأى أعضاء الكنيسة الحاكمة أفراداً من معتقد حصص يوسعون نفوذهم. رمهما تكن نظرنا لذلك من وجهة النظر الأخلاقية، علينا احترام حماسة رجل يدخل بهوور ردون تردد في مصال وكماح ليس له أي محرر مؤكد عني الأقل، يصبر عامة بمصالحه الشخصية الحياتية، وذلك لأنه يتوهم أو يؤمن بأن واجبه الديني يوجه جهوده. إن مسماً من لأمبراطورية التركية، حسماً سحت لي فرصة الملاحظة، قد يقع مشاعره وأهواءه بسهولة، وما يمليه عليه ضميره وما يصفه يوافق إرادة الله، عندما تعرض عليه مصالحه ذلك أو حسب رعية السلطة الحاكمة أو تخليها.

كانت ثناء معاملة المسيحيين في جدة عادياً في زمن الشريف، فلا يستطيعون ارتداء اثوب الأوروبي أو الاقتراب من مدينة في الجزء الواقع تحت نواة مكة. لكن منذ وصول جيش محمد علي، أصبحوا يسبرون ويسسون كما يشاءون. ففي شهر كابور الأول/ ديسمبر سنة ١٨١٤، حين مر رجال إنكليزيان من بوبة مكة في رهة حول المدينة (وهم ربح أول من مر أبداً، بباس أوروبي عبر الحدود المقدمة)، سمعت امرأة تهتف: «حقيقة، إن العالم قد اقترب من نهايته، وإن الساعة قد دنا موعدها إذا تجرأ الكفار عني وطء هذه الأرض». وحتى الآن، إذا ما توفي مسيحي هناك، لا يُسَخَّ بأن يُدفن على الشاطئ، وتُنقل الخنة إلى جزيرة صحراوية صغيرة في البحر. وعندما تفتى الطاعون في أبحار سنة ١٨١٥، وهو أمر لم تكن البلاد قد شهدت من قبل، جاء قاضي جدة، برفقة مجموعه لعلماء كلهم، بريرة رسمية إلى حكومة لندنية التركية ليطلبوا منها دك طاحونة هوائية قام بعض مسيحيين اليونانيين في القاهرة بسانها خارج إحدى البوابات بأمر من محمد علي. وكانوا على يقين، كما رعموا، بأن يد الله قد ررتهم بسبب هذا الانتهاك للأرض المقدسة من قبل المسيحيين. منذ بصع سوات مصت، تحطمت

سنية إنكليزية بانفرب من جدة، ومن بين العوائق المتنوعة التي أحدها من الخصام الشريف غالب. كان هناك خسرير. وهو حيوان لم يُشاهد ربما أبداً في جدة من قبل؛ وكان هذا الخسرير طليقاً في المدينة مع بعامين وأصبح مصدر زعج لكل بائعي الخير والخضار، لأن مجرد لمس حيوان بهذه القدرة كالخسرير، وحتى بطرف العبادة، يحسن اسم غير طاهر أو نجس وغير قادر على تأدية صلواته دون أن يتوصلاً فيها. وقد بقي حيوان هذا لسته أشهر إلى أن قدمه الشريف إلى كبت أمير كي لقاء خمسين دولاراً؛ لكر هذا السعر قد رُفص طبعاً، وشرعان ما نفق الخسرير من التهمة بما أراح السكان وأرضاهم^(١).

غير أن المكيين، بتسامحهم صمن حذرانهم مع هرطقات رديئة السمعة وقد سبق أن ذكرت للإسماعيليين، وهم مذهب رشي من الهند، الذين يظهرون بري لمسلمين كما أن العرس، وهم مشهورون بشيعةهم لعلهم لأنواع محمد الماشرين، لسوا مُعرض لأي مصايقات معينة وقد تسامح معهم الشريف لكر حرص على كل منهم صرية لأعناق أما الأشراف أنفسهم، كما سأشرح ههنا، فهم في أعليتهم من المذهب الريذي، وهم مسلمون على خلاف مع المذهب الشيعي (ألف الخصوم للمتشييعين العرس) المختلف مع عقائدهم الأساسية^(٢).

وكما ذكر المكيون كلمة مسيحي أو أروبي، فهم يُرقونها بأكثر الألقاب رمياء وتحقيراً ويُدرجونها كلها في تسمية «الكافر»، دون أن يكون لديهم أي أفكار واضحة عن الأمم المختلفة التي يتألفون منها. أما الإنكليزي، بما أنه على علاقة قرب معهم بسبب ممتلكاته الهندية، فيدعى غالباً وبشكل حصري «بالكافر»؛ وكلمة استعملت هذه التسمية، يُعهم منها «الإنكليزي». وهكذا، يقولون «الكافر في الهند» أو «مركب الكافر في جده»، ويعنون بذلك دائماً «الإنكليزي».

حين اجتماع العرسيون مصر، قدم شيخ مصري في مكة ويُدعى شيخ جيلاني، وهو على قرابة بعيدة مع تاجر ثري في مكة، وكان قد اعتاد لبعض الوقت إلقاء المحاضرات في لمسجد الكبير، باعتلاء يسر يسر بحممة عنفة ضد الكفار الذين استولوا على بوابة مكة، كما كانت تنقب مصر. وما أنه كان حطياً بارعاً ولبياً ويتمتع باحترام ووقير، تدفق العديد من العرب لوقوف بي صفه وأعطاه آخرون مالاً؛ ويقال حتى إن العديد من النساء أحصرن به تحييه الذهبية والعصية لمساندته ودعمه في مشروعه المقدس وقد رسا بي جدة برفقة أتباعه المتحمسين على

(١) كثير من مثل هذه الأمثلة المسجفة، ونظيره غير القليل، ماثلة في ثنايا الكتاب

(٢) لا خلاف بين السنة والزيدية من الشيعة في المعائد لأساس

من سفينة صغيرة ونزل في القصير. ويبدو أن حكومتني مكة وحدة لم تكونا متحمستين كثيراً لذلك المشروع بالرغم من أنهما لم تصعا العوائق في طريقه. إن مصير هؤلاء العرب (وكان العديد منهم يتمون إلى القبائل الوهابية نفسها التي ساهمت كثيراً فيما بعد في مقاومة محمد علي)، والصردوة التي حاصروا بها العرسيين في شمالي مصر، قد سبق أن أُلغى عليها القاريء في الوصف أخي الذي قدّمه ديون (Denon). وقد قُتل الشيخ جيلاني، وعدد عدد قليل من أتباعه. رَأَيْتُ أن ديون قد بالغ في تقدير عددهم، إذ لم أسمع قط أنه كان يتعدى الألف وخمسمائة.

والمكيون، كسكان تركيا، حالون من رذائل الاحتلاس وسرقة، وقليل ما يُسمع عن عمليات نهب وسلب بالرغم من أن مكة في موسم الحج وحلال الأشهر التي سببه ولبه، يعغ بالأوغاد المحتالين الذين تُعريهم السهولة التي يتمكنون بها من فتح أقفال هذه البلاد.

كان عبيد الشريف في السابق معروفين بسلوكهم المحل. إلا أن غالب أقام نظاماً صارماً يسهم وحلال فترة حكمه. لم يتم ارتكاب أي سرقة دون كشف الفاعل ومعاقبته.

تكتظ شوارع مكة بالمتسولين والاحجاج الفقراء الذين يتفقون حساسات العرباء فقط لأن المكين يعتبرون أنفسهم ذوي امتيازات تُعفيهم من هذا الواجب إلا أن منهم من يعتمد التسول كمهنة خاصة خلال موسم الحج حين يكون الاحجاج مُلمرين بممارسة هذه العضية التي تعرضها تعاليم محمد - صلى الله عليه وسلم - بشكل خاص. والأغلبية الساحقة من المتسولين هم هنود وآخرون سوريون ومصريون. والرنوح هم قلائل كرههم يفصلون العمل على التسول بشكل عام؛ لكن هناك نسبة كبيرة منهم تأتي من اليمن. ويُقال عامة في الشرق أن مكة هي حلة المتسولين. وقد يذخر بعضهم قليلاً من المال، لكن مظهر الآخرين البائس يُظهر بحلاء إلى أي حد يمكن أن تحجب توقعاتهم. واليهود هم أكثرهم تواضعاً، فهم يتوجهون إلى عابر السبيل بالكلمات التالية: «يا الله، يا كريم!» وإذا لم تُعطَ لهم الصدقات فهم يتعدون دون أن يسبوا سبب شمة سري «يا الله يا كريم» وليست هذه حارة اليومي أو المكّي، فهو يصيح عالياً ويقول «ذكر بواجبك كحاج»؛ «فانله لا يحث من هو بلا رافة» أو ترفض بركات المؤمنين؟ أعيد وسيُعطى لك؛ بهذه وبعدة وبعدة من لحمل الأخرى الدنية يتوجهون إلى عابري السبيل، وعندما يأمنون أن الصدقات أصبحت في أيديهم، فهم عابياً ما يقولون كما فعل الدليل الذي كان يرافقني، «إنه الله وليست أنت من وهبي ياها». وإن بعض أولئك المتسولين مرعجين إلى حد بعيد ويبدو أنهم يظنون الصدقات وكأنها حق من حقوقهم.

بينما كنتُ في حدة، كان هناك متسول يمني يعتلي المذبة يومياً بعد صلاة الظهر ويتكلم

عاليًا بحيث يسمعه كل من في السوق، فثلاً: أطلب من الله خمسين دولاراً وثياباً وسبعة من الفرو، اسمعي أيها مؤمن، أطلب منك خمسين دولاراً، إلح. وقد رد ذلك بصعوبة أصابع، حين قام حاج تركي أخيراً، وقد اسوقه عربة مدانة، فرادياً، وطلب منه أحد ثلاثين دولاراً والتوقف عن صياحه، الذي يشكل وصمة على إسماعية الحجاج لموحددين كلهم ولكن المتسور رفض فثلاً «كلاً لى أحدها لأني مقتنع أن الله سيرسل لي كل ما أطلب منه بحده». وبعد أن كثر نؤشانه لعسبة لبصعة أيام، أعطاه إمام المبيع كله الذي طلبه لكن دون أن يشكره المتسور. وقد سمعت لاس يقولون في مساجد مكة، مباشرة بعد الصلوات، «أيها الأخ، أيها المؤمن، اسمعي، أصب من الله عشرين دولاراً لأدفع تكاليف عودتي إلى بلادي، عشرين دولاراً فقط»، أنت تعرف أن الله حواء كرم، وقد يرسل لي مائة دولار، لكسي أطلب عشرين فقط. تدكر أن الإحسان هو الطريق الأكيدة إلى الجنة. وليس هناك أدنى شك في أن هذه الممارسة تنتهي عالياً بالحجاج.

لأننا لا نستطيع نوع ردهم العلم والمعرفة في مكان يشعل فيه كل دهن في البحث عن الربح أو في الجنة. وأعتقد أن لشي من الأسباب ما يكفي لأؤكد بأن مكة هي أقل درجة بكثير في لوقت الحاضر حتى في المعرفة الدينية من أي مدينة في سوريا أو مصر بعدد السكان نفسه وقد لا يكون الحال كذلك سابقاً حين تم بناء العديد من المدارس العامة التي خوت الآن إلى مساكن خاصة للحجاج يقول الأساسي به، في رمة، كان هناك إحدى عشرة مدرسة في مكة إلى جانب عدد من الرباطات، أو المدارس الأقل على في تحصصاتها لمائة، التي كانت تحوي كذلك على مساكن للحجاج الفقراء، وما يرون العديد من تلك «الرباطات» قائمة في اسطقه محاورة للمسجد. لكنها تستعمل فقط كمساكن وليس هناك أي مدرسة حكومية في المدينة تُلقي فيها المحاضرات، كما هي الحال في أحرار أخرى من تركيا، والمسجد الكبير هو المكان الوحيد الذي يجد فيه التلميذ الشرقيين وثقافة المدارس التي يتعلم لصية فيها القراءة والكتابة في المسجد، كما سبق أن ذكرت حيث يقسم بعض العلماء في فترة ما بعد الظهر وبعد انتهاء الصلوات، بعض كتب الدين للجمهور هربل يتألف بشكل أساسي من يهود والماليين والروح وبعض سكان حصر موت والنعم، الذين حذبهم اسم مكة العظيم، ويقولون هنا بضع سوت حتى يروا أنهم يهلبوا ما يكفي من النعم بما يسمح بهم بالعودة إلى بلادهم وادعاء النعم. أما المكيب أنفسهم ممن يرغب في التقدم في النعم، فهم يذهبون إلى دمشق أو القاهرة بهذا الغرض، وبعد العديد منهم في تلك الأخيرة وباستمرار يطلبون النعم في أجامع الأهر.

وتشبه المحاضرات التي تُلقي في مسجد مكة تلك التي تُلقي في مدن شرقية أخرى وهي

نظام محاباً، وتدوم كل محاصرة ساعة أو اثنتين، وبإمكان أي شخص يظن نفسه قادراً ومؤهلاً لهذه المهمة أن يحاصر في أساس، أكان ينتمي إلى مسجد أم لا وهذا ما يحدث كذلك في الجامع الأزهر في القاهرة حيث رأيت أكثر من أربعين شخصاً محتجبين مشعبي في الوقت نفسه في إنقاء محاصرتهم ومواعصهم. وتتناور هذه محاصرات في بيت الله في مكة كإعادة موضوعات مطوّلة عن الشرع وتعليقات على لقرآن وستة النبي. لكن أياً منها لم تنصرف خلال إقامتي إلى القواعد والمطلق وعلم البيان أو علوم عامة، ولا حتى التوحيد وتفسير ماهية وحدانية الله التي تشكل فرعاً أساسياً في تعميم الدين الإسلامي إلا أنني علمت أن بناء الجملة العربية يتم بتفسيره أحياناً، فضلاً عن القواعد، عن «أقبيس مالك» إلا أن المكين لدين اكتسبوا معرفة عميقة ووصيدة بكامل معتهم ونبيتها، يديون بذلك لإقامتهم في القاهرة.

ولس هناك أي مكتبة عامة منجقة بالمسجد، فمكتبات القعدة التي سبق أن تكلمت عنها قد احتضت بأكرمها. يملك نائب الحرم مجموعة صغيرة من الكتب التي تخص المسجد أساساً لكنها تعتبر الآن ملكه الخاص، ولا يمكن استئجار كتب دون صعوبات. لكن بالأزهر في القاهرة وصعباً محتجباً جداً فقد أحقت بكل رواق، أو بناء خاص بالأئم الإسلامية المختلفة التي يصنفها المسجد، (وعندها الآن ستة وعشرون) مكتبة كبيرة، وكل أعضاء الرواق الحرية في أحد الكتب منها لمساعدتهم في دراساتهم ومكة كذلك حانة من المكتبات الخاصة، باستثناء مكتبات انتجار الأثرياء الذين يعرضون بعض الكتب ببيعهم أنفسهم عن عامة الشعب أو عن العلماء الذين يمتلكون بعضاً منها كمرجع يومية ضرورية في قضايا الشرع.

وتقول التقارير، إن الوهابيين قد حملوا معهم كميات كبيرة من الكتب، لكن يقال كذلك أنهم دفعوا لقاء كل ما أحدهم وليس من المرجح أن يكونوا قد أخذوا مكتبات مكة كلها وقد سميت جاهدًا، دون جدوى لاكتشاف مجموعة واحدة من الكتب كما أسأ لا نجد أي متجر للكتب أو لتحليل الكتب في مكة. بعد عودة الحج من عرفات، يقوم بعض العلماء الفقراء بعرض عدد من الكتب ببيع في مسجد قرب باب السلام وكانت ذلك التي رأيتها كلها كتاباً حول الشرع، والقرآن مع التفسير وأعمال أخرى مشابهة، فضلاً عن بعض الكتب في القواعد النبوية. ولا نجد أي كتاب عن تاريخ أو أي فرع آخر في المعرفة وعنى الرعم من جهودي الخشنة، لم أستطع أسأ إلقاء نظرة على تاريخ مكة، رغم أن أسماء الكتاب لم تكن محبولة عند المكين وقد عُدوني أن تجار الكتب كانوا يأتون إلى هنا في السابق مع قعدة الحج النبوية ويبيعون كتاباً قديمة تأتي خاصة من صنعاء ولحيه. وكان الكتاب الوحيد القيم الذي رأيته في مكة عبارة عن نسخة جيدة من المسجد العربي ويدعى «الفوموس»، وقد اشتراه ماليري لقاء مئائة وعشرين درهماً، وربما يكون ثمنه في القاهرة نصف هذا المبلغ. ولربيب أن العديد من

الحجاج المكين لم يستفيدوا من هذا المزع من التجارة الذي لا يدرك بالطبع ربحاً كلقهوة والسلع الهندية. وقد أسفستُ جداً لنقص النعم الذي عانيتُ منه في الكتب. وخاصة سجع عن مؤرخي مكة التي بركتها في القاهرة؛ فلقد كانت وجهتي في العديد من الأبحاث والتحقيقات حول الطوبوغرافيا التي عالجها الأرنؤني خاصة بكثير من الكد والمثارة

إن الحجاج المزمس والمليين هم من يسعى بشكل أساسي وراء الكتب ويُقال أن لوهديين كانوا بشكل خاص من مُحتي لبحث عن لأعمد لتاريخة. وهي ملاحظة كُتبت قد سمعتها تزدد في «لمدينة» خلال إقامتي في دمشق، وهي سوق الكتب الأكثر غنى في لشرق وأرخصها، حيث بها قليلاً ما يرتاده الأورؤيون، سمعتُ أن عدداً من العرب من بغداد. كانوا مكثفين سرياً لهذا العرض بأمر من سعود، الرعيم نوهائي. وقد اشتروا هناك لعديد من الكتب التاريخية، وحين ذهب أبو بقعة Abou Nokta مريء اليس، حمل معه عدداً كبيراً من الكتب وأرسنها إلى اللوعية.

وندعرو سدة في الكتب النقمة في مكة وما إلى ما يشتره الحجاج باستمرار، إذ لا يوجد في مكة أي نسخين لإعادة سجع الكتب نتي تم تصديرها^(١) إن الحاجة إلى النسخين هي فعلاً شكوى عامة. كما هي الحال أيضاً في سوريا ومصر، وستؤدي حتماً في النهاية إلى نقص نام في الكتب في تلك البلاد إذ ما استمر التصدير إلى أوروبا. وهناك في القاهرة جانب ما لا يتمدى لثلاثة نسخين خبراء ممن يكتبون بخط جيد، وبندهم معرفة كافية تؤهلهم لتعادي الأحداث الصالحة كان هناك في مكة رجل من لاهو، يكتب الخط العربي بشكل جميل جداً رغم أنه يتكلم العربية عبر الأكثر. ركن يجلس في متجر قرب باب السلام ويسمح للحجاج الأدعية الواجبة في أثناء سجع ويختلف لخط الحجاري عن ذلك مستعمل في مصر وسوريا، لكن تقريباً صغير يجعله معروفاً بسهولة وبشكل عدم، لأن لكل بلد، لا بل لكل منطقة حتى من شرق طريقته أو أسلوبه الخاص في الكتابة والتي يتمكن الشخص من تمييزها بالممارسة فقط. وهناك اختلاف في الطلال في خط الحسين، وأهل دمشق ومصر، يمكن لتفسير بسهولة بين خط (قاهري) وخط أحد سكان جنوب مصر ويختلف خط مسمين في كل مكان عن خط المسيحيين الذين يتعمون بكتابة عبر كهنتهم وليس عبر أمادة أترك كما أن لأفاط مصر كذلك خطاً يختلف عن خط لمسيحيين الآخرين فقيمير في البلاد ويمكن الخبير، من خلال عنوان رسالة، من معرفة المنطقة أو العرق الذي ينتمي إليه من كتبها ويمكن تمييز اللهجات أو السمات المحكية وأسبوب كتابة لرسائل بالقدر نفسه كالخط؛ وهذه الملاحظة تطبق

(١) في القاهرة، رأيت العديد من الكتب التي بها طابع الحجاز اشترتُ بعضاً منها

بشكل خاص على التعبيرات الإضائية التي ترحر بها الرسائل دائماً. فأسلوب سوريا هو الأكثر ثاقباً وبلاغةً وبجده حتى في رسائل الأعمال الصرفة. وأسلوب مصر هو أقلُّ مُحاملةً، أما أسلوب الحجاز فبسيط ورجولي ويفتقر من صراحة البدو، ويحتوي على بضع كلمات فقط للاستعلام عن صحة وخير لشخص المرسل إليه، وذلك قبل المحتوى المباشر للرسالة. ولكن يبدو كذلك صريقته وأسلوبه الخاص والمميز في نبي الرسالة فهي الحجاز، يتم حتم الرسائل بصمغ عربي؛ وهناك وعاء خاص مليء بالصمغ المدبب معقٍ قرب بوابة كل منزل كبير أو حاد.

ومهما نكرس اللامبالاة التي يُظهرها المكبوت نحو لتعميم^(١)، فإن لغة مدينتهم لا تزال أكثر نقاءً وأمانةً في الأسلوب واللفظ منها في أي مدينة أخرى تتكلم العربية. فهي تقترب أكثر من أي لهجة أخرى من اللغة لعربية المكتوبة القديمة، وقد خلت من تلك التأثيرات والتحريرات للمعنى الأساسي، اسي تكثر في مناطق أخرى. وأنا لا أعتبر أن اللغة العربية هي في حالة انحطاط، صحيح أنه ليس هناك بعد أي شعراء يكتبون كالمتنبي وأبو العلاء أو ابن العارض، وأن العرب لم يمتلكوا أبداً نصاً ثرياً جيداً. ويكتفي الشعراء العصريون بمحاكاة أساتذتهم انقدماء مستعيرين بتواضع النصور مجرية والاستعارات الرائعة والشعر القوية الصادرة عن قلوب أكثر نبلاً وحرية من قلوب علماء العصر الحالي. لكن في الوقت الحاضر حتى، تتم دراسة اللغة بعمق من قبل كل الرجل المتحضر والمثقف؛ فهذا هو العلم الوحيد الذي يستطيع بواسطته استسم الراشد قمصة أوقات فراغه، بعد أن يكون قد سبر غور الشرع واستكشف متاهاته. ويُعتبر ذلك أمراً ضرورياً لا عسى عنه للحصول على ثقافة جيدة، في كل مكان من الشرق، ليس فقط بهدف كتابة اللغة بصحة وصفاء، لكن أيضاً لقراءة الشعراء الكلاسيكيين ودراساتهم وحفظ أجمل ما كتبوا عليه. إن لإعجاب ولتعدير الذي يوبه العلماء العرب لأفضل كتابهم يحاكي التقدير الذي يكنه الأوروبيون لكتابهم الكلاسيكيين. وبارعم من أن الأغلبية الساحقة من الشعوب الشرقية لا تحسن الكتابة أو القراءة، لكن نسبة كبيرة جداً من أولئك الذين تلقوا تعليمًا في صناعة الكتب يكتبون بأسلوب جليل وهم أكثر اطلاعاً على كتاب بلادهم من بطرائهم الأوروبيين من الطبقة نفسها.

(١) سأذكر دليلاً على هذا التعميم في مكة وهو أن من بين اثني عشر شخصاً مرموقاً من حيث موقعه في الحياة، استقصيت منهم عن المكان يدعو عكاظ فلم يعرف منهم أي واحد موقعه أو إذا ما زال موجوداً. وعكاظ هو المكان الذي كان الشعراء العرب القدماء، حتى من محمد، يلقون فيه قصائدهم أيام اجتماع هناك بأعداد كبيرة. وكانت الأشعار الرائعة تُعنى بعدها على الكعبة. ويدين بهذه العادة بالأشعار الشهيرة مدعوة بالمعقبات السبع. وقد أخبرني بسوي من قبيلة عدل أن عكاظ لا يزال مكاناً مهجوراً في بلاد بني نازقة، التي نجد من يومين إلى ثلاثة أيام عن الطائف وأنها لم تُعد مرتادة كمسوى منذ سنة ١٢٩ هـ. ويقول الأزهري إن تلك السوق كانت بعد عن الطائف ثلث مائة ميل، عني الطريق إلى صنعاء في اليمن وكانت تسمى حينئذ بني كنعان.

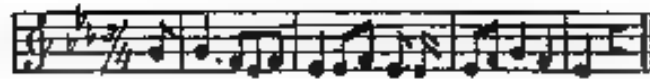
لا بد من أن يكون الشيء الكثير إلى جانب اللغة والشرع ويتعمق بعض القضية ما يكفي من اللغة لتركة يتمكنوا من غش الحجاج العثمانيين، لأن معرفتهم بتلك لغة تُرْخِّجُ كفتهم ليصبحوا مطوّفين لهم ويتعمق عدم الفهم في المسجد معرفة الوقت المحدد تماماً لمرور الشمس عبر دائرة خط الزوال (نهاجرة منتصف النهار)، ويشعل نفسه بعبه لتسحب والأبراج وهناك طبيب فارسي، أستاذ طب الوحيد معترف به في مكة، وهو لا يتعاضى إلا في الأدوية المعجبة والإكسير الدجج، وتجربته كنها حلوة لمدافق وسائغة؛ كما أن يبست وحش الألو الذي يحرقه يشرع محرقه غيراً لديدأ ساهم في تعزيز شهرته والموسيقى التي يعشقها العرب بشعب كبير تُدْرَس في مكة بسنة أقل منها في سوريا ومصر وهم يتمكنون من الآلات الموسيقية الزينة فقط، والناي وطبوري و الطبوري ويسمع الناس القليل من الأغاني في المساء، إلا عند ندو في تحوم مدينته ويعني الشرب أحياناً لأغنية الكورسية التي تُدعى حوق في لقاها ليلاً، ويُرافق إيقاعها تصفيق الأيدي إن أصوات أهل الحجارة عمدة حشمة وغير بقيه إذ لمي لم أسمع يوماً من تلك الأصوات الرنة والمتعمة كنت لأصوات الرائعة في مصر. وبذلك الاستثنائية في سوريا، أكدت تنطق أعدي حب أو ترقن سوراً من القرن في الحاد، والتي لها وقع مميز وحلاب في عمق الليل. وحتى لأنهم في المسجد وأولئك يدين برنوب لمرافق الدينه مرددين الكلمات الأخيرة لأدعية الإمام للمهدية، تجد لي أصواتهم حشونة وشرار، رغم أنهم في البلدان الأخرى يُختارون لجمال أصواتهم.

بشرى عرفه موسيقى عسكريه. هي نفسها لي يحفظ بها الناشوات. وهي مؤفة من حلف من الصور والأبواق وسابات، الحج، وتصدح للموسيقى أمامه مرتين في اليوم، وتعرفه لسحو نصف ساعة في كل مساء من العصر الجديد (الشهر الجديد)

ويحضر الأعراس بنت محروقات، يُعبر ويرقص، ولهم كما يُقد أصوات جميلة، وهم لا يسمون إلى لغة القاسقة التي يسمي إليها معون وراقصون نشعوب في سوريا ومصر. ويقول المكبون إنه، قبل الاجتياح النهدي كان بالإمكان سماع المعين خلال المساء في كل شارع، إلا أن صرمة النهديين الذين عارضوا عداء الإثبات المعني، رغم أنهم شعوبون بأغانيهم البدوية الخاصة، قد نسبت في انهيارهم أو الحرف الموسيقية كنها. إلا أن العكس القائل بأن العصور القديمة كانت دائماً أفضل من العصور الحاصرة من نواحي كلها، هي فكرة عامة قافهة لا قيمة لها ويمكن تصنيها مع تلك الشائعة في الشرق كما في أوروبا.

ب. سقاين، أو حامني اميه في مكة والعديد منهم من لأحاب برقدوب أغنية مؤثرة حد من خلال ساطتها ويهدف الذي استعمت لأجله، حيث يقوم الحجاج الأثرياء مردراً بشراء

كل ما تحويه ثوبهم عند معادرتهم المسجد في الليل خاصة ويصبون منهم توزيعه بين الفقراء مجاناً. ويسمى يسكبون اماء في الأوعية الخشبية التي يملكها كل متسول، يرددون «سبيل الله، يا عطشان، سبيل!» ومن ثم، يرددون الأعية القصيرة التالية المؤلفة من ثلاث نوتات موسيقية فقط، والتي لم أسمعها قط دون أن أسمع بها: «الحمة والمعمرة لصاحب السبيل»، أي لكس الحمة والمعمرة من نصيب ذلك الذي أعطاك هذا الماء!



وليس باستطاعتي أن أصف حفلات الأعراس كما تُقام في مكة لأنني لم أحضر يوماً منها إلا أنني رأيت العروس تُنقل إلى بيت زوجها، تُرافقها كل صديقاتها. ولا تُستعمل طلة في هذه المناسبة كما هي الحال في مصر، ولا الموسيقى؛ ولكن يتم عرض الثياب الفاخرة والأثاث المرلي، كما أن المائدة فخمة وعية وتندوم على ثلاثة أيام أو أربعة عند تسوية الزواج، يُحمل من الواجب دهنه سموس في موكب من مرل العريس إلى مرل والد العروس. ويُحمل عبر الشوارع فوق مصدتين حميصتين وقد لُفَّ تمديد أبيض وعُطي مجدداً بقماش من البساتان المرر كس المطرور. ويسير أمام الشخصين اللذين يحملان المصدتين، شخصان آحران، مع قارورة من ماء الورد في يد ومبحرة في الأخرى، يحرق فوقها أنواع الطيوب ويعطور كها. ويسحق بهم في الخلف في صف طويل، أسباء العريس وأسرته وأصدقاؤه كلهم وقد تروا بأفصل ثيابهم. ويتراوح السبع الذي يُقدم للمداري في مكة بين الطبقات الفقيرة، بين أربعين إلى ثلاثمائة دولار، وبين عشرة إلى عشرين دولاراً بين الطبقات الفقيرة. ويتم دفع نصف المبلغ عادة، ويُترك النصف الآخر في حيازة نروح الذي يدفعه في حال أراد تطبيق روجته.

وحفلات الحينان هي نفسها التي تُقام في القاهرة. فبعد العمدية، يُلبس الولد من أعلى الأقمشة وأتمها ويوضع على حصار مرر مرر كس، ويُنقل هكذا في موكب عبر المدينة مع صبول نُقرع أمامه. ولا تختلف الحفلات عن تلك التي تُقام في مصر وسوريا.

ويمتلك أهل مكة عامة عدداً فسيلاً جداً من الخيول. وأعتقد أنه ليس هناك ما يعنى الستين منها، يحتفظ بها أفراد وللشريف نحو عشرين أو ثلاثين من الخيل في اسطبلاته؛ لكن الشريف غالب كان يمتلك مجموعه أكبر من الخيل والشرفاء العسكريون يمتلكون العرس، لكن الجزء الأكبر منها فقد مع الجيش ويمتلك السمو المستقرون في «معابده» النباحة وفي أجزاء أخرى من المدينة حيولهم كذلك، كونهم يهتمون بالشؤون العامة؛ لكن أياً من التجار أو الطبقات الأخرى لا يحتفظ بإحداها. فهم يحشون أن يستولي الشريف على أي حيوان جيد يمكن أن يحتفظوا

به، لذلك، فهم يكتفون بالبعد أو لكديش. كما أن لحمير شائعة جداً لكن لا يركبها أي شخص ذو مكانة. والخيول القليلة في مكة هي من سل جيد وسل، ثم ابتاعها من لبدو، وثرسل في الربيع إلى محيمات لبدو لترعى العشب البعدي في الصحراء ويملك الشريف يحيى مرساً رمادية من مجموعة عاب، قُذرت بعشرين محمطة دراهم؛ وكانت أحمل مخلوق رأيته في حياتي، وأفضل مما رأيت في الحجار كله. ويفتقر بدو هذه البلاد، خاصة أولئك الذين يقطرون حول مكة، إلى الخيول، ولدى بعض النسيوح نقت واحد، وذلك بسبب ندرة الكلاء ولأن كلفة الاحتفاظ بواحد من الخيول تبلغ ثلاثة دراهم في اليوم.

في السهل الشرقي، حنف الطائف، تكثر الخيول رغم أنها أقل بكثير منها في نجد، وصحارى سوريا. وذلك سبب الندرة النسبية للمحطة والأمطار غير المؤكدة، وهو صحر يترك البدوي سة يكاملها بلا حُصرة وهي ظروف قدما تحدث في الصحارى الواقعة أكثر إلى الشمال حيث إن الأمطار نادراً ما تتحلف في المواسم المحددة.

حكومة مكة

إن ماصق مكة والطائف والقنطرة (التي تمتد جنوباً حتى هالي على الساحل) ويشع، كانت كلها، قبل الفتوحات النوبادية وناصرية، حاضرة لشعبة شريف مكة بني رشح نفوده على جدة كذلك، رغم أن هذه المدينة كانت معصية عن المناطق الخاضعة لسيطرته، وكان يحكمها باشا أرسل إلى هنا من باب العالي ليصبح السيد ليطبق على المدينة وليقسم دحبها مع الشريف إن الشريف الذي وصل إلى ممرته بالقوة أو بالعود الشخصي ورصى وموافقة عائلات الأشراف القوية في مكة، يستمد سلطته رسمياً من الباب العالي الذي يُقر دوماً الشخص الذي ينتزع المنصب^(١) وكان يُكسى سورياً بمعطف من القسطنطينية من قبل القبطانجي باشي وكان يُصوّف في الطقوس التركية من بين أو ثل الناشطات في الإمبراطورية. وحين أمست سلطة باشاوات جدة اسمية، ولم يعد الباب العالي قادراً على إرسال جيوش كبيرة مع قوة الحج في الحجار، ليؤمّن سلطته على تلك البلاد، أصبح شرفاء مكة مستقلين وأعضوا أوامر الباب العالي كلها، رغم أنهم كانوا لا يرالون يدعون أنفسهم خدام السلطان ويلقبون لكسوة السوية، ويعترفون بالقاضي المبعوث من القسطنطينية، ويدعون من أهل السلطان في المسجد الكبير. وقد أعاد محمد علي سلطة العثمانيين في الحجار واستولى على نفوذ الشريف كله، تاركاً للشريف الحالي يحيى تقريباً حكماً اسمياً.

واختيار شريف مكة يتم من إحدى قبائل الأشراف العديدة، أو المتحدثين من النبي - صبي

(١) بعد كانت حكومة الحجاز موصوع خلاف بين خمسة بعدد وسلاطه مصر وأئمة اليس عالشرف المرتبط وهو بحطة اسمية على امدن المقدسة. كان الحرم الوحيد في مظهرهم، على الرغم من أن نسب السطة كانت بدل أن يزيد من دخلهم بمرهم على تحس مصادرهم بهطة إن حق كسوة الكعبة وإدراج أسماءهم في صوات الجمعة في المسجد كان الربح الوحيد الذي يحصلون عليه إن سيجره مصر على مكة والتي برشعت شباب وبرة مند بداية القرن الخامس عشر، انتقلت بعد غزو سليم الأول للبلاد تلك إلى سلاطين القسطنطينية

الله عليه وسلم - الذين استوطنوا في الحجاز، وقد كانت تلك القبائل فيما مضى عديدة، إلا أنها تقلصت لأن إلى بضع عائلات في مكة. وحتى القرن الماضي، كان حق الخلافة يحضر في أهل بركت أو دوي بركت^(١)، وهم يدعون كذلك بيمما بركات بن السيد حسن عجيلان، اندي حلف والده سنة ١٨٢٩ هـ. وكان ينتمي إلى القبيصة شريفة فتاده التي كانت أساساً مستوطنة في وادي الحزيمة الذي يشكل جزءاً من يسع وبحل، وكانت على قرابة من ناحية السيد، مع بني هاشم الذين أخرجوهم من حكومة مكة سنة ١٦٠٠ هـ بعد موت آخر هاشمي ويدعى مكتر Mekether وحلال القرن الماضي، كان على بركات شتر حروب عدة مع حصونهم من القبائل، وقد حصروا ونسبوا أحباراً لأكثرهم عدداً وهم سو ريد الذين ينتمي إليهم الأشراف خانيد، والذين يشكلون. مع كل فتادة، حرباً من قبيلة الكبيرة «أبو نعمة» وقد هجر معظم أهل بركت واستوطن العديد منهم الأردنية الخصبة في الحجاز، وآخرون في اليمن. ومن الشرفاء الذين ما زالوا في مكة وحولها، إلى جانب القبائل المذكورة أعلاه، فقد منتمي إلى الخمسة التالية «عادل» و«سي سرور» و«حراري» و«بني حمود» و«الصوامد»^(٢).

تم تكن الخلافة في حكومة مكة وراثية، بل كخلافة شيوخ البدو، رغم أنها بقيت في القبيصة نفسها طالما أن سلطة هذه القبيصة ظلت متفوقة وراجحة بعد موت شريف ماء، يحده قريه سواء كان ابنه أم أخاه أم ابن عمه، الخ. شيء يملك الحزب لأقوى و الرأي العام وأصونه في صفه ولم يكن ثقام احتفالات تنصيب أو يمين «ولاء» ويتلقى الشريف الجديد زيارات لتهنئة من «مكيين»، وتعرف فرقته أمام باب و يبدو ذلك علامة الملكية هـ كما هي في بلاد الترويح ومد الحين فصاعداً يصبح اسمه مدرجاً في الأدعية العامة وبالرغم من أنه نادراً ما كانت تحدث خلافه دون بعض المعارضه، إلا أنه كان هناك القليل من سفك الدماء بشكل عام وبالرغم من دفع بعض أعمال العنف والقسوة، إلا أن مبادئ الشرف والإخلاص التي تميز حروب قبائل الصحراء كانت تُراعى بصفة عامة ويحصى الخصوم ويقرب عادة في المدينة دون أن يحصروا استقلالات قريتهم المنتصر ولا أن يرهبوا امتياعه، بعد أن يكون السلام قد حل وتُعتبر حقوق

(١) دوي تعني آل أو عائلة

(٢) نصلاً عن هذه الجد العديد من القبائل الأخرى التي ذكرها عصمي كدوي مسعود ودوي شمر ودوي «عرب» ودوي نعيم ودوي «جازن» ودوي «بار» ويطلب الحب في تاريخ مكة من المصادر المذكورة أعلاه وفي فرع أكبر من الذي كُتِبَ «حصل عليه» وقد قسم D'Ohsson ملاحظة تاريخية عن شدة مكة فيها العديد من الأخطاء. إن النسل الطوي الذي يجب تحديده للحصول على فكره رصحه من حكمه أي جزء من شبه الجزيرة العربية يجعل من تاريخ تلك البلاد من نالغ التعقيد

حسب الصياغة وبوفادة مقسمة خلال الحرب، كما هي في الصحراء، حيث كان الدحيل أو اللاجيء يُحترم دائماً. وفيما يختص بسفك الدماء من الجهتين، فإن التعويض كان يتم من خلال ديات تُدفع لأقرباء القاتل. كما كانت تُراعى قوانين لثأر نفسها التي تعود بين البدو، وكان هناك دائماً حزب قوي يعارض السلطة الحاكمة؛ إلا أن هذه المعارضة كانت تظهر في حماية الأشخاص الملاحقين من الرعي، أكثر منها في محاولات مكشوفة ضد سلطته على الرعم من ذلك، فإن الحروب كانت تقع بشكل متكرر. ولكن حزب مواليه بين البدو في الجوار، لا أنها كانت تشب على وهي نظاء المناوشات البدوية وقلما كانت تهول مدنها.

بالرعم من أن هذه العادات كان بإمكانها سحق سلطة الشريف الحاكم، إلا أنه كان يُصاحبها نتائج سيئة على مجتمع، حيث كان كل فرد مجبراً على الالتحاق بحرب أو بأخر، وبأحد المدافعين أو الحامين الذي كان يعامل مواليه بالاستبداد نفسه وانظلم الذي كان يراه ويعاينه من سيده. وقلما كانت القوانين تُحترم حيث كانت كل القرارات تُتخذ عبر النهود الشخصي وصعقت سلطة الأشراف بشكل ملحوظ على يد سرور، الذي حكم من سنة ١٧٧٣ إلى سنة ١٧٨٦؛ لكن كان على عال، حتى في الأوقات الأخيرة، أن يحارب أقرباءه بالرعم من أنه كان يتمتع بسلطة أكبر من سلطة أي من أسلافه.

إن استمرار سيادة الشجارات الأهلية والحروب وبراكات الأحرار المسيطرة، وتقلبات القدر التي لارنتها، ومن اكتساب الشعبية الذي كان الرعماء مُجبرين على ممارسته، كل ذلك أصمى على حكومة المحازميرة تختلف عنها في الحكومات الأخرى في الشرق، والتي احتفظت بها في المظهر الخارجي، حتى بعد أن أصبح غالب تقريباً في حكمه كطاغية. ولم تكن تُشاهد أي من تلك المراسم أو التشريعات التي ترسم حداثاً مميّزاً بين ملوك الشرق وبين الشعب وكان بلاط الشريف صغيراً وحالياً كلياً تقريباً من مظاهر الفخامة والأبهة ولم يكن يقفه السلطان ولا السلطان شريف، ولا مولاي، كما يؤكد علي بك عباس. «سيدنا» كان اللب الذي يستعمله رعاياه عند مخاطبته؛ أو «سيادتكم»، الذي يُطلق على المناشوات كلهم. ولم تكن المسافة بين المرؤوس والرعي كبيرة إلى درجة تمنع هذا لأول من التعبير عن شكواه والمطالبة بالإصلاح باحترام ولكن بهجرة.

ولم يكن الشريف الحاكم يحتفظ بعدد كبير من الجند، لكنه كان يستدعي أنصاره الأشراف مع تابعيهم كلما كان القرار يُتخذ في ش الحرب، كان يُلجأ هؤلاء الأشراف بشخصه عبر احترام مكانتهم وعودهم، وكانوا معتادين على اعتباره الأول بين أشخاص مساوين.

إن تقديم لمحة عن تاريخ الأحداث التي جرت في مكة منذ الفترة التي ختم فيها المؤرخون

العرب أعمالهم (بحر منتصف القرن السابع عشر، على ما أعتقد)، سينتطلب عملاً شاقاً، إذ إنه سيقوم على الاتصالات الشعبية، لأن أحد في هذه البلاد لا يفكر في تدوين أحداث زمانه. إن الظروف التي روت في ظلها انكار قد معني من الخصوم على معلومات دقيقة وشاملة عن الوضع السياسي في البلاد، حتى وإن كان لدي بعض وفدت الفرع لأن مثل هذه الأبحاث والتحقيقات كانت ستحرمي على الاحتياط بنسب ذوي مرلة رفيعة وبأولئك الذين يشعرون المناصب العليا، وهي صفة من المجتمع كثر، ولأسباب وصحة، سعى جهداً كي أتجسها. إن ما بقي هو مقدار المعلومات التي استطعت جمعها والتي تتعلق بتاريخ مكة الحديث.

سنة ١٧٥٠، عُيّن الشريف مسعد بحكم مكة وبقي مدة عشرين سنة. وقد استدرجته قوة الأشراف إلى شن حروب معهم بشكل متكرر، وعما أنه بدرأ ما كان يتصرف فيها، فقد استمر يهودهم بالقوة نفسها. وبعد أن كشف عن مظاهر العداء وخصومه بحو عني بك الذي كان حينها حاكم مصر، أرسل هذا لأخير لخدمته الفصل «أب ذهب» الذي جعل منه بيكاً، برفقة عدد كبير من الجود، كزعيم لقافة الحج المتجهة إلى مكة وذلك بهدف عزل مسعد؛ لكن الشريف توفي قبل بضعة أيام من وصول أبي الذهب.

سنة ١٧٦٩، أو ١٧٧٠، بعد موت مسعد، نُصّب حسين، بارعم من أنه كان ينتمي إلى القبيلة نفسها، إلا أنه كان حصماً لمسعد في كل مناسبة مستغياً بأنصاره وقد ثبت في ذلك المنصب بمساعدة أبي ذهب. واستمر في الحكم حتى سنة ١٧٧٣ أو ١٧٧٤، حين دُبح حسين في حرب مع سرور بن مسعد ولا يزال المكيون يوقرون مسم سرور الذي حكم لفترة امتدت ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً، فقد كان أول من قهر عزة لأشراف وسلطانهم وأقام أسس عدانة صرامة في المدينة قبل حكمه، كان لكر شريف في مره في مكة مؤسسة مؤلفة من ثلاثين أو أربعين من العبيد المستحجرين، وخدم وأسبأ، إلى جانب أصدقاء ذوي نفوذ بين البدو وجهالهم بأي عمل آخر سوى استعمال الأسلحة، لقد كانوا يعيشون من الماشية التي يحتفظون بها بين البدو وهي أجراء محتففة من الحجار، ومن الضرّة التي كانوا يتنقلونها من الحج؛ فصلاً عن الهدايا التي كانوا يعتصونها من احتجاج ومن تابعيهم في المدينة. وبالإضافة إلى تلك الموارد العامة للدخل، قام بعضهم بانتزاع انوطائف العاطلة المربحة من أكبر لأشراف السابقين كالصرائف على السفن أو على بعض أنواع السلع، والرسوم التي كانت تُجمع عند إحدى بوابات جدة؛ وصربية لأعناق المفروصة على الاحتجاج الفرس، الحج وكان سلوكهم في المدينة هيجاً ومصطوباً وكانوا يفتلون أوامر لشريف كبير، فكان كل واحد منهم يستخدم سلطته الخاصة لزيادة ثروته؛ وكانت براعات العائلات تقع باستمرار وبشكل متكرر؛ وكانوا غالباً في

وقت الحج يكمون لمجموعات صغيرة من الحجاج في صريفها من «المدينة» أو من حدة إلى مكة، يقومون بهب من لا يُظهر أي مقاومة أو دفاع عن النفس ويفتلون من يقومهم بعد رواع طويل الأمد، نجح سرور أخيراً في تقليص قوة الأشراف إلى الطاعة، ودلت عبر سعيه لكسب ردة الطبقة الشعبية من المكيين والبدو من خلال بساطة أسلوب حياته واقتصاده الشخصي في الإفاق وكرمه نحو أصدقائه إلى جانب شهرته في الشجاعة الزائدة والحصافة وعالياً ما كان يُرمز اتفاقيات السلام مع أعدائه، لكن حروباً جديدة كانت تندلع بشكل متكرر ويُقال إنه ذات مرة، كشف مؤامرة تحاك لقتله في إحدى دوراته الليلية حول الكعبة وأنه رَحِمَ انتاميين وصنع عنهم بشن وهام فقط بعيهم. كما عمد إلى تقوية القصر الكبير في مكة، وروصع عدداً كبيراً من العبيد المسلحين والبدو في خدمته باستمرار وكان يتحمل نفقات ذلك من أرباحه التي كان يجنيها من التجارة، فقد كان يقسم ماذلات تجارية نشيطة مع اليمن؛ وأخيراً، فرض على أقوى عائلات الأشراف الاعتزاب واللجوء إلى اليمن يسماً قتل العديد منهم في المعارك وأعدم آخرون. وانكبَّ سرور بعد ذلك على إعادة فرض العدالة. كما يُروى عنه العديد من الأفعال التي أكسبت حبه للعدالة والإنصاف ودكائه الكبير احتراماً عظيماً. وأخرج اليهود من جدة حيث كانوا قد اكتسبوا ثروات هائلة عبر عملهم في السسرة وصفتاتهم الاحتياطية؛ وأقر حماية الحجاج في نقلهم عبر الحجار، ونظم حبي الضرائب والرسوم الجمركية التي كانت تُجمع بطريقة عشوائية وحين توفي، نبع شعب مكة كله دُباته إلى القبر ولا يزال ملكيون يعتبرونه قديساً ويتخلون اسمه. بل ما يزال اسمه موضع احترام حتى من قبل الوهابيين.

سنة ١٧٨٥ أو ١٧٨٦، بعد موت سرور، حمله عبد المعين، أحد إخوانه، مدة أربعة أو خمسة أيام، حين قام أخوه الأصغر غالب، عبر مهورته المتوقعة في المكائد وعبر شعبيته التي اكتسبها في زمن سرور من خلال مسالته وتنهجه وأسلوب حياته الجذاب، بخلع عبد المعين وإكراهه على الانسحاب بصمت وخلال السنوات الأولى من حكمه، كان غالب أداة لعبد سرور وحصيانه ذوي النفوذ الذين كانوا أمياداً مطلقيين على المدينة، وانعكس في اتباع استوك المضطرب نفسه والظلم والقمع الذي كان يميز الأشراف في السابق. غير أن غالباً حرَّر نفسه من نفوذهم واكتسب أخيراً سلطه أقوى وأصلب على الحجار مما اكتسبه أي من سلفه، واحتفظ بها حتى أسهمت حروب الوهابيين، وحياته محمد عبي في وضع حدٍ لحكمه. لقد كانت حكومة غالب معتدلة أكثر من حكومة سرور، رغم أنها كانت أبعد عن العدالة. فقبل من الأمراء تُحكموا بالموت وأعدموا بأمر منه؛ غير أنه بات جشعاً وعالياً ما كان يسمح للمجرمين عنابة حياتهم لقاء دفع عرامات كبيرة. ولإتمام هذا الابتزاز، ملأ سجنه بالعبيدين؛ لكن الدماء لم تُسفك إلا في تعامله مع الوهابيين فخلال حروبه مع هؤلاء الثُراة، قام أصغر أبناء سرور،

عبد الله بن سرور وسيد بن سرور. بمحاولة اعتصام الحكومة من عثمانيي مكة بحاج، وحين عفا عندهم بصدق مع غالب سمح لهم بالعودة يهدوء إلى مكة حيث كان يقيمون عندهم وصل محمد علي. وقام محمد علي بإرسال عبد الله إلى القاهرة مع غالب، لكنه تلقى لأوامر من الباب العالي بإطلاق سراح عبد الله الذي سبق له أن ذهب مرة إلى القسطنطينية للحصول على دعم السلطان ومساعدته ضد عاصي.

إن حرأة عبد الله ونهوضه قد كسبه في مكة عدداً من معجبي أكثر من الأصدقاء؛ لكن يبدو مرتحلاً أنه في حاد أحوال الأتراك مرة أخرى على معدرة الحجر، فإنه سيحل محل أخيه يحيى، لرعيهم خالي لدي عتيه محمد علي سنة ١٨١٢. ولدي كانت شهرته وعوده في مكة بلائمان منبهه المخزي. فقد استولى الباشا على دخل حكومة مكة وسمح انشريف محضات شهرته تلبس حمسين محفظة درهم فقط أو نحو ثمانمائة بوند، لإعالة جده وأهل بيته وكان هؤلاء الأحيرون أنفسهم اسمياً كما كانوا قبل، وعرو التركي، ويتألفون من بعض الأشراف وبعض الملكيين، وعبيد حبشيين أو نوح كانوا يعيشون دواب تمير في الوظائف المتعددة حول شخصه، وهي ألقاب أتيته اقتست من الكتاب لأحمر في البلاط التركي وكان عتب يصنع وير له في يتبع والطلائف ومكة وجده، وكان يدعى إناكم في مكة والطف، كان به أيضاً «حريرة»، أو أمين الصدوق، وسعدار، أو حامل السيف، ومهردر أو حافظ الخاتم، وبعض الموظفين الآخرين الذين كانوا يعد من أن يحسرو قواعد انشريفات بشكل حدي أو أن يكونوا أشخاص ذوي شأن، كأولئك الموظفين في البلاط التركي وكانت مؤسسة غالب شخصية كلها تتألف من حمسين أو سمين حادماً وموظفاً، ومنهم من العبيد واختصاص، إلى جانب سبائه يد أنه كان يحتفظ بنحو أربع وعشرين حارية حبشية وصعب هذا العدد من الإبلات لقمين بخدمتهن وليسهرن على صحة أولاده. وكان هناك في إسطنبول من ثلاثين إلى أربعين من الخيل من أفضل سبل عربي، ومبعة بعل كان يتقبل أحياء على طهرها، ومثلها من الجمال العربية وقد علمت من أحد خدامه أنه كان يعجرح يومياً من آخر من يعادل خمسة عشر بوشل (مكيال للحبوب) لاستعمال أهل البيت؛ هذا وربما يصاحبه إلى حمسين مكيالاً من الزبدة وحرروين، مما كان يشكل المصروف الأسبوعي من المؤن. وكان يستهلك ذلك، بحرق منه، السور الذين أتوا إلى مكة بداعي العمل وكانو معتادين على الذهاب إلى مرل الشريف طالبين لحسن وفادته، تماماً كما كانوا يُعرجون على شيخ في حبيته في محبم في الصحراء وحين يعدرون كانت أكياسهم تملأ بالمؤن للطريق، كوبها عادة عند العرب، فضلاً عن أن أشراف مكة كانوا يبدون دائماً رعة عارمة في معاملة البدو بكثير من اللطف والتقدير.

إن ثوب الشريف هو نفسه ذلك الذي يرتديه رعماء عائلات الأشراف كلهم في مكة، وهو

عادة عبادة من الحرير الهندي، تُسدل فوقها عباءة بيضاء من أفضل صاعات منطقة الإحساء على الخليج؛ وشال من الكشمير للرأس، وحقان أصفر أو أحياناً صدل للرحلين. ولم أر أياً من الأشراف المكيين يعتمرون عمامة حصراء فمن يدخل منهم في خدمة الحكومة أو يُدرب على حمل السلاح، والذين يدعوه المكيون «الأشراف» بشكل حصري، يلبسون عمامة شالات من الكشمير السود، والآخرى، الذين يعيشون حياة خاصة أو الذين يعملون في القنول والمسجد، يرتطون شالاً صغيراً أبيض حول قلسوهم، إلا أن للأشراف علامة واحدة مميزة في ثوبهم وهي قلسوة صوفية مرتفعة حصراء السود، يلقون حولها شالاً من المولسبين الأبيض أو من الكشمير؛ وتبرر فوقه القلسوة كأني بها تحجب أشعة الشمس عن وجه معتمريها؛ ولقاندتها في هذا الصدد، يعتمرها أحياناً كذلك الأشخاص المستون غير أنها ليست رتبة شائعاً

حين يخرج الشريف، يحمل في يده عصاً قصيرة ورفيعة تدعى مطرق كذلك التي يستعملها اندو أحياناً عند ركوبهم الجمال، ويحمل حيال يسير إلى حابه مظلة أو ضة ذات تصميم صبي ثريتها شرايات حريرية، يرفعها فوق رأس الشريف حين ترعجه لشمس هذه هي علامة الملكية الوحيدة التي يتميز بها الشريف حين يظهر بين الناس؛ وهي لا تستعمل حتى في أثناء سيره في الشوارع وقد أجبره الوهابيون على ترك انظلة حائياً والذهاب إلى المسجد سيراً على الأقدام متدريعين بأن ذلك يتناقض مع التواضع المطلوب عند الملوك أمام الكعبة على ظهر الخيل. لكن حين كان غالب يتمتع بسلطة مطلقة في مكة، أجبر الباشاوات الذين كانوا يرافقون قافلة الحجاج، بالاعتراف بحقه في الأسقية في كل الظروف؛ وبشر في كل أنحاء الحجاز اعتقاداً بأن مرله كاتب معروف مرة أي موظف من موظفي لباب العالي، وأنه حتى في القسطنطينية، يجب على السلطان نفسه، بمقتضى جدية قواعد التشريمات، أن يهصر ويحييه. لقد سبق أن ذكرت لكساء السروي الذي يشقه الشريف من القمصاني ناسي وحسب المراسم التي تُقام عند وصول القافلة، يقوم الشريف بالزيارة الأولى إلى الباشا أو أمير الحج. ويلقى هذا الأخير عند ردة الزيارة، حصاناً مزبناً بغطاء مزركش أبيض من الشريف. وبعد عودة الحجاج من وادي مي، يقدم له الباشا، في اليوم الأول حصاناً مشابهاً، ويتبادلان لائس الريارات في خيمهما عند مي. وحين تصبح القافلة حاضرة بمرحيل من مكة، في طريق عودتها إلى بلادها، يزور الشريف الباشا مرة أخرى في محبته خارج المدينة ويقدم له هناك حصاناً آخر

من يفترض أن يكون لقبائل اندوية كلها في الحجاز حاصمة لسلطانه القصائي، وتُدرج أسماءها على الأقل في سجلاته الخاصة وفي سجلات الباب العالي كرعايا السلطان والشريف المطيعين. وحين كان غالب في أقصى سنطه وأوجها، كان يتمتع بعبود دي شأن على تلك القبائل لكن لم تكن له سلطة مباشرة عليها فكانت تلك القبائل تنظر إلى الشريف وحده

وأصدقائه بأسطرة نفسه التي كانوا يرون فيها أحد شيوخهم ومواليه؛ وكانت قوانين الحرب كلها الشائعة في الصحراء تراعى بدقة من قبل الشريف. وفي حملاته الأخيرة صد الوهابيين. كان يرفقه سنة أو ثمانية آلاف بدوي انضموا إليه كما كان من شأنهم أن يفعلوا مع شيخ آخر، دون أن يتقاصوا أي أحرار لقاء خدمتهم، لكنهم يتبعون رعماءهم الذين يكسب غالب اهتمامهم ومودتهم من خلال الهدايا التي يقدمها لهم.

ولأولئك غير المنظمين على سياسات الصحراء، تشكل حكومة مكة شيف من العرب الذين يمكن شرح كل شيء بسهولة إذ ما اعتبرنا الشريف رعيماً بدوياً فادته سلطته وثرؤه إلى التمتع بهود وحكم عشوائيين؛ وقد تنسّى الشكل الخارجي حاكمه عشماوي لكنه يترجم بصرامه بكل العادات والأعراف القديمة لأمنه في الأرملة السابقة، كان رعماء عائلات لأشراف في مكة يمارسون الهود نفسه كآرياب العائلات في المنابر البدوية، وسود سلطة الرعيمة الكبير فيما بعد ويُجبر الآخرون على الخضوع له؛ لأنهم يحتفظون في حالات عديدة حقوق أسلافهم وكانت الفئات المتنافسة تعتبر باقي المكيين غير متساوين معهم بل كمستوصين خاضعين لسيطرتهم؛ بطريقة نفسها التي تتحارب من خلالها القبائل البدوية لأجل القرى التي تدفع لهم صرائب معينة وتبني يعشرون سكنهم في مرتبة أدنى منهم هم شخصياً، غير أن يجب ألا يسطروا إلى المكيين كسكان المدن في مناطق إسماعيلية في تركيا، فقد كان لهم موقف في صغائر الأشراف ورعاتهم كما شاركوا في هود وسيطة التي حصل عليها رعماءهم يتناولون وحين قام مرور وعاسب بالتسالي منع أنفسهم سيطرة أشد مما تمتع به أي من أسلافهم، اتخذ الأشراف السابقون بشدة مع المكيين وشكلوا معهم، حتى لفترة الأخيرة مجموعة همة وذات شأن بسبب ومعهم بالحرب كما ثبت ذلك في مشاجراتهم متكررة بين أنفسهم والمقومة التي أظهروها ضد الحكومة حين كانت الإحراءات والتدابير التي تتخذها تؤثر سلباً في حياتهم بالرغم من أنه قد تم انتقيص من شأنهم إلى حد بعيد بحيث لا يشعرون حين يتم لاستلاء على أموالهم.

كانت حكومته عابثة تتسم بالرفق واللين واحذر، على الرغم من الابتزاز المالي الذي كان يمارسه. فقد كان يحترم ألفة المكيين ويادراً ما كان يقوم بمحاولات اعتداء على أمن الأفراد الشخصي أو حتى على ثرواتهم، رغم أنهم كانوا يرححون تحت وطأة تلك القوانين التي كانت تمنحهم وترفعهم بشكل جماعي وقد سمح لأعدائه الصريحين بالعيش بسلام في كنف عائلاتهم، وسمح للناس بالاعتماد على شجارات دموية كانت تتمركز دائماً بين بعضهم بعضاً، إما شحنة نار الدم أو الحسد والغيرة التي كان يكتفئ سكان الأحياء المختلفة في المدينة لبعضهم

بعضاً؛ وكانوا يشتكون أحياناً لأسابيع عدة لكنهم يستعملون عامة العصي والرماح والخدح
دون الأسلحة النارية

وهناك عادة لدى الأشراف أو نسل محمد - صلى الله عليه وسلم - انقيمين هي مكة
والجوار، الذين ينتهجون بالأسلحة ويتوزعون في أغلب الأحيان في شجرات مدنية، تقوم على
إرسال كل صبي إلى حيمة ما عند البدو في الجوار، بعد ثمانية أيام من ولادته، حيث يُرَبَّى مع
الأولاد في الخيمة ويُشَأ كبدوي حقيقي لثمانية أو عشرة أعوام، أو إلى أن يصبح الولد قادراً
على ركوب العرس، فيعود به والده عسثي إلى المنزل. ولا يروى الولد والديه أبداً خلال تلك
الفترة كلها، ولا يدخل المدينة سوى في شهره السادس، حين تحمله أمه بالرضاعة في ربرة
قصيرة إلى عائلته وتعود به فوراً إلى قبيلتها. ولا يُترك الولد أبداً في حضن أمه أكثر من ثلاثين
يوماً بعد ولادته، في أي حال من الأحوال؛ وأحياناً تمُد فترة إقامته بين البدو حتى الثالثة عشرة
أو الخامسة عشرة من عمره. فيصبح بهذه الطريقة معتاداً على أخطار الحياة البدوية كلها
وتفانياتها، ويعتاد جسمه على التعب والحرم، ويكتسب معرفة بلغة البدو الصرفة وفوقاً يسهم
يصبح فيما بعد في غاية الأهمية له. وليس هناك أي رعيم، من الشريف نزولاً إلى أشدهم فقراً،
لم تتم تربيته بين البدو؛ كذلك فإن العديد منهم مترجون من فتيات بدويات وقد نشأ أبناء
عائلة الأشراف الحاكمة ضمن قبيلة عدوان التي تشتهر ببسالة أعصائها وحسن وفادتهم؛ ولا
أنها تقلص بسبب حروب الأشراف الأهلية التي كانوا يشاركون فيها دائماً، ويسبب العرو
الأحير الذي قام به محمد علي، حين رآوا من خلاثم ترك مطلقاً الحجارة والحجوة إلى محيحات
قبائل السهل الشرفي وكان عثمان المضايقة الرعيم الوهابي لشهير، والأداة الأساسية التي
يستعملها سعود في إحصاع الحجارة، شياً من قبيلة عدوان وقد تزوج الشريف غالب بأخيه.
وكان يرسل الأشراف الآخرون ولادهم إلى محيحات هذيل وثقيف وبني سعد وغيرها،
وانفيل منهم إلى قبائل قريش أو حرب.

إن الشريف الذي نشأ في محيحات البدو، يستمر في معاملتهم مدى الحياة بالاحترام نفسه
الذي يعامل به أهله الحقيقيين وإخوته، فيدعوهم بالتتالي - والدي، أمي، أخي. ويتفق معهم في
اقتدال تسميات مماثلة وهم كلما أتوا إلى مكة، يقيمون في منزل ربيهم ولا يتركونه أبداً من
غير أن يتقوا الهدايا. خلال فترة تنمذته، أطلق الشريف تسمية «أرحام» على أبعد أسباء العائلة
البدوية الذين كانوا يتمتعون أيضاً بصدفته واهتمامه؛ كما يعتبر طوال حياته أنه ينتمي إلى
المصارب التي أمسى فيها سواته الأولى، ويُطبق على أهلها تسمية «شعب» أو «عائلة»؛ وبوي
اهتماماً فائقاً بمصائبهم؛ ويقوم عالياً في أوقات فراغه بزيارتهم خلال أشهر الربيع ويرافقهم
أحياناً في تجوالهم وحروبهم.

وقد أظهر غالب دائماً اهتماماً بعيداً بولديه بنصره؛ وكان كلما رآوه يبهر من مجلسه ويعتفهم، رغم أنهم لا يتميزون عن أي من سكان الصحراء الحفيري الثياب وباطبع، يحدث أحياناً أن الأولاد الأشراف لا يستطيعون التكيف بسهولة مع والديهم الحقيقيين في سر، بل يفرون أحياناً ينضموا مجدداً إلى أصدقاء طفولتهم، بدو الصحراء

إن هذه العادة التي وصفتها نتو هي غاية في انقدم في شبه الجزيرة العربية. فقد نشأ محمد صلى الله عليه وسلم - بين العرباء، في بيعة بني سعد، ويستشهدون به باستمرار عند التكلم عن لعادة التي لا تزال شائعة بين الأشراف إلا أنهم الشعب الوحيد تقريباً في شبه الجزيرة الذي لا يزال يمارسها حتى الآن.

ب. العرب الوحيديين الذين شهدت بهم شأناً مماثلاً هم البدو المدعوون «الموالي»^(١)، وقد كانوا في ماضي قبيلة واسعة سلطنة، لكنها تقنصت الآن إلى عدد ضئيل، وهم يرعون قطعانهم في منطقة المخاورة حسب فإن العادة متأصلة عندهم تقوم بأن عني بن رعيم بلذ القصة أن ينشأ في عائلة فرد آخر من القبيلة نفسها، لكن في مصارب أخرى عموم، حتى يصبح كبيراً بما يكفي ليكون قادراً على بدتر أمره نفسه ويدعو التعميد مرشده المرتني، ويظهر له أشد الاحترام فيما تبقى من حياته

ويستمد الأشراف فوائد وحسات حمة من تنشئتهم لدويهم؛ فيكتسبون لس فقط انقرة والنشاط جسدي، بل أيضاً جرأاً من ثقت أحيويه وحرية التصرف والجرأة التي تتميز سكان الصحراء؛ فضلاً عن عناية كبيرة بمصائل حسن لوفاده وإحلاص التي يكتسبونها أكثر مما يوشأوا في مكة.

ج. أراعيه من لأشراف. ومن بين لعدد الضئيل الذي ما يزال الآن، كان بعضهم يعمل إما كدليل مع جيش محمد علي وإما قد تم دمجه من قبله في فيلق بدوي صغير، بإمره الشريف (أصح)، وهو أحد أعصائهم البارزين، وإما في خدمة الشريف يحيى الذي كان يرسلهم في الخدمة إلى مراكز متقدمة باتجاه اليمن وقد اسحب بعضهم بعد هزيمة عذب، إلى ابوهايين أو إلى اليمن حيث ما يزال عدد قليل منهم هك. وأولئك الذين نسب لي رؤسهم، خلال إقامتي في مكة، كانوا متميزين بعلامح رجولية حميدة تغتر بقوة عن نسب بيبر؛ وكانو يحافظون على العادات اإخارحية للدوي؛ فهم أحرار وشجعان وصادقون وأصدقاء حميمون

(١) هذه القبيبة تنتمي أصلاً إلى النحنا وقد سكنت في موسي مدية وكثير ما اأشر بأور حون إلى سب القبيبة خلال الرحة الأول بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم.

وأعداء للدودون، يسعون وراء الشعبية ويتمتعون بأنفسهم فطرية تصعبهم، حسب تقديرهم، في مرحلة أرفع بكثير من سلطان القسطنطينية. ولم أشاهد رجلاً أكثر وسامة من الشريف راجح الذي ساهم وقاره وشل سلوكه بطولته التي ذكرتها في معرض حديثي عن تاريخ حمزة محمد عني، في تميره من بين الآلاف؛ كما أن أي من الوجوه المفعمة بالحيوية والدكاء لا يمكن تصورهما بسهولة كوجه الشريف غالب. أما يحيى، الشريف الحالي، فيشتم ببشرة قائمة كأبيه وكانت أمه جارية حبشية سمراء داكنة.

ولا ينس المكيون كثيراً بصدق الأشراف وأمانتهم. وقد أظهروا على الدوام تفهبات كبيرة في السلوك والطبع؛ لكن من الصعب أن تكون الحال غير ذلك إذا ما أحداً بعض الاعتبار المحيط والرمس اللذين نشأوا فيهما، فقد ساهمت تربيتهم البدوية دون شك في جعلهم يعوقون الطبقة الشعبية من المكين في نواح عديدة.

وليس بإمكان بات الزعيم الحاكم أن يترواح أنداءً ويسمى بعب احتوئهم في الشوارع مع ملائمتهم الذين لا يتميزون عنهم بشيء أنداءاً لا بالمجلس ولا بالمطهر، تنقى العتبات السببات الخط سحبات مرل أبيهم. وقد رأيت أحد أبناء الشريف غالب الذي كان والده أنداءاً في المنى في سالوبيث، وكان يلعب أمام مرل أبيه لكي سمعت أنه، حين يعود أبناء الشريف الحاكم من انصحراء وهم يسو بعد ناصحير بما يكفي ليطهروا بمطهر رحولي رسمي بين الناس، فإنهم يقفون صمى مرل والدهم أو النساء ولا يرفعهم إلا أفراد العائلة المقيمون في المرل نفسه، ويظهرون علناً للمرة الأولى وهم ينتظون جوداً بجانب والدهم؛ ويبدأ اعتبارهم راشدين منذ ذلك الوقت، وسرعان ما يترواحون بعد ذلك ويشاركون في الشؤون العامة.

إن العالمية المساحقة من أشراف مكة، وخاصة أولئك الذين ينتمون إلى القبيلة الحاكمة (بني زيد) أو ذوي زيد، يشبه بشدة نأهم من المسلمين المتشيعين الذين ينتمون إلى الريدية أو أتباع زيد، وهو مذهب له العديد من الأنصار في اليمن وخاصة في الجبل حول صنعاء.

غير أن الأشراف لا يعترفون بذلك، لكنهم يطبقون تعاليم المذهب التقليدي الشافعي الذي ينتمي إليه أغلب المكين، إلا أن الأشراف المقيمين في الخارج لا يسكرون ذلك؛ وكلما توقفت بؤد الشرع التي يحتلف حولها الريديون مع أهل السنة، ينحسب الأشراف دائماً امشاركة في النقاش.

أعتقد أن الريديين منقسمون إلى مذهب مختلف. فأولئك في اليمن ومكة يرون أن مؤسس مذهبهم هو الإمام الهادي إلى الحق ليقين، ابن الحسين، الذي يرجع نسبه إلى الحسن بن علي. وقد وُلد في الرس في منطقة القصيم سنة ٢٤٥هـ، وقد ظهر تشيعه للمرة الأولى في صنعاء في

اليمس سنة ٢٨٠. وقد تحارب مع العباسيين واستولى على صنعاء التي أخرج منها، وهاجم الغرامطة بعد ذلك، ونوهي مسموماً في صعدة سنة ٢٩٨هـ. ويُرجح أن يكون مصدر هذا المذهب إلى أحد من ذلك، إلى ريد بن عيسى بن العائدين بن الحسين بن عيسى بن أبي طالب، وقد قتل في الكوفة سنة ١٢١هـ، على يد جيش الخليفة هشام بن عبد الملك ويبدو أن الريديين يُصمرون عامه لعلي كل الإجلال والتوقير في الوقت نفسه اندي لا يلعنون فيه أبا بكر وعمر، كما يفعل الغرس إن ريديي اليمس الذين يسمي إلههم إمام صنعاء نفسه، يصنفون مذهبهم باعتباره مذهب الخمس من مذاهب المسلمين المألوفة، بعد الحنبلية والشافعية والمالكية والحنفية، وهم يُدعَوْنَ لهذا السبب بأهل المذهب الخمس. ويحاربون في اليمس بعقائدهم، أما في مكة فهم يحرمونها. وقد سمعتُ أن إحدى عقائدهم لأساسية تقول به لا يجوز في أثناء الصلاة، كدخول المسجد أم المنزل، استعمال تعابير أخرى غير تلك الواردة في القرآن، أو تلك التي تتألف من آيات في ذلك الكتاب.

وينظر المكتوبون إلى الريديين كمشتقين، ويؤكدون على أنهم، كغرس، يظهرون إلى الخلفاء المباشرين لمحمد صلى الله عليه وسلم بطيرة رداء، وتُروى قصص عن الريديين في اليمس الذين يكتسبون اسم معاوية على أجره الأكثر قداره في منازلهم ليُظهروا احتقارهم له؛ لكن مثل تلك المعتقدات لا يتم إعلانها ويتوقف الأشراف مع أهل السنة في كل شيء مهما تكن آراؤهم الخاصة.

قد سبق وذكرنا أن قاضي مكة يُرسل سويلاً من لمسططبية على وفق العادة المألوفة للحكومة التركية في ما يتعلق بالمدن الكبيرة في الإمبراطورية. وقد بدأ هذا النظام مع أولئك الخلفاء العثمانيين الذين كانوا يعتقدون أنهم، غير حرمان الحكام المحليين من إدارة المدن، ووضعها بين يدي رجل متعلم يرسلونه دورياً من لمسططبية، ويكون مستقلاً تماماً عن الحكام، بإمكانهم بذلك منع هؤلاء الأخيرين من ممارسة أي نفوذ غير ضروري على محاكم القضاة، ويتجنبون في الوقت نفسه عواقب بقاء القاضي في عمله لفترة طويلة. ولكن الأحلاق قد احتضنت في الإمبراطورية كلها إلى حد بعيد عما كانت عليه منذ ثلاثمائة عام مضت فبرح القاضي الآن في كل مدينة تحت اننفوذ مباشر لمحاكم لذي تُرك يستبد كيفما شاء طالما أنه يُرسل إعاناته المالية المعتادة واستظمه إلى الباب العالي ولا يستطيع أي كد أن يربح دعوى قضائية إلا إذا كان على علاقة طيبة مع الحكومة، أو إذا قدم رشوة إلى القاضي الذي يتقاسمها مع المحاكم أو يتقاضى عنها لقاء دعوى لقاضي يصححه في حالات أخرى. كما أن رسوم المحكمة بهظة جداً وتتبع عامة ريع المبيع لرفع الدعوى؛ في حين تبقى المحكمة صماء أمام الحقوق الأكثر وضوحاً إذا لم تكن تدعمها الهيئات التي تقدم إلى القاضي وإلى حشود الموظفين

والخدم الذين يحيطون بكرسيه ويؤيد الباب العالي هذه الفوضى ويستجمعها، حيث يُباع مركز القاصي هناك إلى أفضل مُزايد يعلم بدوره أنه سيسترد ما دفعه من مكاسب منصبه.

ويصبح القاصي الذي لا يعرف سوى القليل من اللغة العربية في تلك البلاد حيث يتدفق العرب إلى محكمته، تحت رحمة مترجمه الذي يكون مركزه دائماً عادة، فيعطي التوجيهات والإرشادات إلى كل قاضٍ جديد حول طرق الرشوة الشائعة في المكان ويأخذ حصة كبيرة من الحصاد إن عمارسات الضم السافرة والرشاوى الوفحة التي تحدث يومياً في المحاكم مستندو غير معقولة لا بل مستحيلة تقريباً بالنسبة لأي أوروبي وخاصة إلى رجل إنكليزي.

لقد شارك قاصي مكة مصير إخوانه القضاة في أجزاء أخرى من الأمبراطورية وكان خاصصاً كلياً بسنوات عديده تعود الشريف بحيث كانت تُقام الدعاوى القضائية كلها مباشرة أمام مسره وهكذا، قُضيت مهام القاصي إلى إصغاء وقته في تسليية غير ذات منفعة. وقد أُعسمي القاصي نفسه أن السلطان الكبير قد اعتاد فيما مضى على دفع مئة درهم سنوياً إلى قاصي مكة من حزبته، نظراً إلى لمكاسب المائة الثاوية آنذاك. ومد عرو محمد علي، استعاد القاصي أهميته بالنسبة نفسها التي تصاعل فيها تعود الشريف. وعندما كُت في مكة، كانت الدعاوى القضائية كلها تُبرم في المحكمة. وبأدراً ما كان محمد علي يتدخل بسنطته لأنه كان يرغب في استمالة وُد العرب، ويدو أن القاصي نفسه قد تلقى من أوامر صارمة لتصرف بوعي واحتراس؛ إذ إن العدل، في ذلك الوقت، كان يُطبق بشكل جيد ومقبول، مقارنة بمحاكم أخرى على الأقل. ولم يكن السكان ينعمون من النظام الجديد للأمور. ويُعبر قاصي مكة المراكز القضائية في جدة والطائف التي تملأ بالعرب وليس بالأتراك. وفي الدعاوى ذات الأهمية، يتمنع مفتي المذهب الأربعة بفوذ هم في صنع القرار.

ويأتي دخل الشريف بشكل أساسي من الرسوم الجمركية التي تُدفع في جدة. والتي، كما سبق أن ذكرت، بدل أن تكون مقسمة بين الشريف وناش جدة. حسب نوايا الحكومة التركية، كان يستولي عليها الأشراف الأحيرو كدنة، وهي الآن تحت سيطرة محمد علي وقد راد غالب كثيراً الرسوم الجمركية في جدة، وهي نفسها كذلك التي تُجبي في كل جزء من لأمبراطورية التركية، وقد كان ذلك السبب الرئيسي الذي دفع مجموعة التجار كلها إلى معارضته كما رفع حصته الشخصية من التجارة بدرجة كبيرة جداً. حيث كانت تُوظف نماني سفن تابعة له في تجارة القهوة بين اليمن وحدة ومصر وحين يُمناني بيع هذه السلعة من البطء والركود، كان يُحجر التجار على شراء حملاته لقاء مبالغ نقدية وبسر السوق، بهدف إرسال عائلاته من الدولارات إلى اليمن في أقرب وقت ممكن. وكانت تقوم سفينتان من أكبر

سبعة (كانت واحدة منها من صناعة إنكليزية، وقرن ثلاثمائة أو أربعمائة صن، اشتراها من يومباي) برحمة مسويه إلى بلاد الهند الشرقية، وكانت الحمولات التي تأتيان بها إلى البلاد، تُباع في الحج في مكة أو تُقسم بين تجار حدة الذين يُحبرون على شرائها.

إلى جانب مرها جدة، كانت تُعرض في مرها يُتبع، حيث كان لشريف حاكم، - صرائب مماثلة كما كان يحيي صريه على النواشي والمؤر كنها التي كانت تُقل من داخل البلاد إلى جدة، كما على تلك التي كانت تُقل إلى مكة وبطائف ويسع، باستثناء ما كان يأتي مع قافلتي الحج الإنكليزيين من الشمن اللذين كانا تَمْران أهما كان من غير صرائب ولا يدفع سكان مكة وجده أي صرائب أخرى غير تلك التي ذكرت للتو، إذن مارلهم وملاكهم كانت معبئة من الرسوم، الأخرى كنها؛ وهي ميرة م يقدروها حق قدره، رغم أن بوسعهم إجراء مقارنة بينهم وبين حبرائهم في مصر، سوريا، وكنت لغزوع الأخرى من دخل شريف عبده عن الأرباح الناتجة عن بيع المؤر في مكة التي كان يمتد منها محروناً مهمماً جداً، رغم أنه لم يحتكرها كما فعل محمد علي، ولكن محروبه كبير مكته من التأثير في لأسعار ليومية؛ فضلاً عن صريه الأعناق المفروضة على احتجاج القوس كنهم، أكانو آتين عبر البحر من بغداد أم عن طريق البحر الأحمر واليمن؛ كذلك لهدايا الحقة التي كانت تُقدم به محباً أو تلك التي كان يترعها من الاحتجاج الأثرياء الآتين من كل البلاد.

وكان الشريف يستولي على مقدار كبير من ادس الذي كان يُرسَل من انقسططبية إلى المدينة المقدسة والمسجد، لخزينته الخاصة ويقال أنه كان بأحد حصص الهدايا كلها التي كانت تُقدَّم إلى المسجد وكان غالب يمدك أراضي شسعة، وللعديد من البساتين حول الطائف والمرع في وادي الحسبية ووادي فاطمة ووادي سيمون ووادي مديك Medyk، كسب ملكه به وكان له في حدة لعديد من مسارل ولصادق التي كان يؤجرها للأحاب؛ وكان يشبه جداً حلقه محمد علي، بحيث أصبحت الأرباح النافهة ولصثيه جداً مسألة ذات أهمية لديه، فكان يوجه اهتمامه باستمرار نحو تجمع الثروة وقد يلع دخل عذب السوي، خلال أول حُكمه وسطته، ما يقارب ثلاثمائة وخمسين ألف جنيه استرليني؛ لكن مس احتلال الحجار من قبل الوهابيين، ربما لم يجعله نصف هذا المبلغ.

وبما أن غالباً كان تاحراً وملاكاً يؤمن لسع الاسهلاكية كلها بالدرجة الأولى، فلم تكن

(١) في السابق، عندما كان أشرف مكة أقوى موداً، كانوا يعرضون إثارة على لوائل الاحتجاج على قرار لإكراهه التي كان الهدو يعرضونها عليهم كان أبو منة يقاضى سنة ٦٥٤ هجرية ثلاثين مرساً عن كل حمل في القافلة الآتية من اليمن وخمسون مرساً عن كل حمل في القافلة الآتية من مصر.

عالة أهل مره، كما أتصور، مع نسائه وجارياته، تتطلب ما يزيد عن عشرين ألف جنيه سترليني في السنة وكان الشريف يحتفظ في راس لسلم بقوة عسكرية صغيرة دائمة لا تعدى لخمسمائة رجل، كان منهم مئة في حامية في جدة وخمسين في الطائف وكذلك في ينبع والباقي في مكة. من هذه القوة، كان هناك ثمانمائة من الحيتالة بالإضافة إلى أهل بيته من الفرسان. وكان العديد من الجنود عبيده المربيون، لكن الأعنية الساحنة منهم كانت من البدو من أجراء محتلفة من شبه الجزيرة، وكان أكثرهم عدداً من ليس وجبان عمير وبجد، وكانوا يتقاضون بين ثمانية إلى اثني عشر دولاراً في الشهر؛ وكان يقودهم الأشراف الذين كانوا يطيعونهم كما يعصون أربابهم مع قتلهم خلال الحرب أي، بما أنهم لم يتلقوا تدريباً على أي عمل منتظم، فقد كانوا يرافقون الشريف كما قام برهه خارج المدينة، وعند العودة، يُطلقون بيران أسلحتهم، على وفق العادة العربية، وهم يشبون على نحو حمامح حوله. وكان سلاح كتيبة المشاة عبارة عن بدقية قنبل حاجر معقوف، ولدى احتياله الرماح

وعندما كان غالب يدحل حرباً، كانت تكرر تلك القوة العسكرية عبر إضافة العديد من الأشراف وحشيتهم، الذين لا يتقاضون أي أجر سوى الهدايا العرضية وحصة من العيمة التي يحصلون عليها حيث كانت هذه الحروب عامة موجهة ضد بعض القبائل البدوية التي كانت مواشيها الهدف الوحيد للعرو وكان ينضم إلى الشريف في تلك الظروف بدو آخرون كذلك كانوا يعودون مع مشايخهم إلى ماريهم عند انتهاء الحملة وعند اندلاع الحرب الوهابية، حين بدأ الوهابيون بشن هجمات ناجحة على الأحجار، وحده غالب من الضرورة ريدته قوته العسكرية الدائمة، فقام لذلك بإصابة عدد من العبيد البروح إليها فبلغت ثمانمائة رجل، مقتدياً في هذا المصارع بأسلافه الذين كانوا يعتبرون العبيد الخاصين بهم أسمى الرجال تحت إمرتهم^(١) كما قام كذلك بتجنيد أعداد إضافية من البدو، فأصبح لديه خلال فترة القتال كلها من ألفين إلى ثلاثة آلاف رجل عامة، وهو عدد يُعتقد أنه كافٍ جداً لحماية مدنه. وكان، كلما حطط لشن هجوم ضد الوهابيين، يجمع حلفاءه من البدو، ويتقدم مرات عديدة باتجاه نجد مع قوة موحدة مؤلفة من عشرة آلاف رجل وحين اضطر هؤلاء الحلفاء إلى الإدعاء لعراة. وقهر بدو الجنوب الذين كان غالب يعتمد عليهم بشكل أساسي؛ بجهود عثمان المصانفة العظيمة وشباطه، وجد غالب نفسه وحيداً مع جسده القلائل عاجزاً عن مواصلة القتال، وسرعان ما أُخبر عن الخضوع رغم أنه كان لا يزال يحتفظ بفرقة من الجنود لحسابه بعد أن استولى سعود على الأحجار بقوة، وأدار أعماله بموهبة وبراعة شديتين للحفاظ على سلطته ليبال تقدير الوهابيين واحترامهم.

(١) خلال القرن الماضي كان اشراف مكة يحتفظون دائماً بثلث من الحرم الخاص من أملاك الجرحيين.

كانت المصاريف التي ترتبت على زيادة نوات الشريف خلال الحرب الوهابية مرهقة جداً، وكان ضرورياً تقديم الهبات إلى الأشراف والبدو ببقيتهم في خدمة مصالحه، لكنه لمرة واحدة كان كانت مصالحه مطابقة لمصالحهم، ويكتفي البدو عادة بمسح صغيرة رعم أنهم لا يمنون أبداً من طيب الهدايا، ويمكن أن نذكر بسهولة هنا أن غانياً لم يعيش على وفق مقدر دخله خلال أي مرحلة من حكمه، وفيه رأي شائع وعام في الحجاز، وأعتقد رأياً مسياً على أساس متين في الحجاز، أن عالماً جمع خلال السنوات السبع والعشرين من حياته الرسمية، مبعاً مالياً صحماً. وعندما فصر عليه محمد علي، قدُرت بمسكانه المنقورة كتبها التي وجدت في مكة وحده بحو مائتين وخمسين ألف جنيه استرليني فقط، واقترص ساس أنه قد باعهم كره في قصر مكة، أو قام بإرساله إلى أصدقائه في الهند، سيما كان محمد علي يحضر بهجومه. ومن المرجح أنه اعتمد لطريقتين في إحصاء ثروته، وهكذا، فقد أضاف مرة أخرى إلى المبالغ الكبيرة التي تُدفن يومياً في الشرق من قبل رجال في السلطة وأشخاص عديدين. أي هذا هو الاستعمال السيء الذي يوظف فيه الحكام الشرقيون ثرواتهم، بحيث يعاين زدهار بلاد الغم من الخسارة قليلة^(١)

(١) إن شيوخ عادة إحصاء الثروات في تركيا وسبها، سيظهر حوراً في سرد حادثة جرت سنة ١٨١٣ في القاهرة. فيمد أن حبيب محمد علي ١٥٠٠ محفظة دراهم من الأقطاب العاملين في الاقتصاد المصري، سمووا مبلغ بينهم كمد أن المقيم فليوس وهو رجل عمو كان في السابق ممولاً مهماً، أجز على دفع ١٢٠٠ محفظة دراهم أو نحو ١٨٠٠٠ جنيه ترادي، وقد دفع ذلك المبلغ مدعياً الفقر، لكن بعد معارضة طويلة، عرض أخيراً تقديم ٢٠٠٠ محفظة دراهم فأرسل اليش في عليه وهنده وبعدنا رأى تصميحه أمر بصريه وبعد أن تنقّى خمس مائه صرية بالمصري وقرب من الموت قريه، أقسم أنه لا يستطيع دفع أكثر من ٢٠٠٠ فاعمد محمد علي أنه يكون حقيقة، نكث ابنه إبراهيم باشا الذي صادف حضوره، قال إنه كان مساكداً أن الرجل يملك من هذا أكثر من ذلك، فتملى هذا الأخير ٣٠٠ صرية إضافية اعترف بعدها أنه كان يملك مبلغ المطلوب ووعد بدفعه فسمح له حينها بالعودة إلى ممره وبعد انتهاء سيره أي بعد أن شفي تمام من تأثير الصربات التي تلقاها وسطاع المبر، ثم إرسال يهوثين إلى ممره واستدعي الصان وقرل معهم إلى أسفل ممره حيث أزالوه حجراً كبيراً كان يسد ممره صبيح يحتوي على مشكاة مسعوفة حيث تم إيداع مسدودين حديديين عند فتح تلك المسدودين وجدوا في محفظة داهم ثمة منها اليش ١٢٠٠ وركز الباقي بمالك الذي مد بهد ثلاثة أشهر من سبب الصربات التي تلقاها ولكن حراً على خسرة أمواله ولو أنه استطاع نقل كثره سره في كمال ميعه ذلك، ثم يتم وضع ضابط معه في بينه بمجرد أن وعد بدفع المال قد شئت لبشاه في أن أموال كانت مخبأة في مكان سرى ما كما هي العادة الشائعة في الشرق

المناخ والأمراض في مكة وجدة

إن مناخ مكة صاّرٌ وشديد الحرارة والرطوبة، فالصحور التي تحيط بواديها الصيق تعترض سبيل الرياح، خاصة تلك التي تهب من الشمال، وتعكس أشعة الشمس بحرارة مضاعفة. وتكون الحرارة مفرطة في أشهر آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر ونشرين الأول/ أكتوبر، فخلال إقامتي في مكة عمت المناخ ربح حارة حافة في شهر أيلول/ سبتمبر استمرت خمسة أيام متتالية. وبدأ موسم المطر عادة في شهر كانون الأول/ ديسمبر، لأن الأمطار ليست متواصلة، فهي، كما في بلدان استوائية أخرى، تهطل فقط على فترات تمتد من خمسة إلى ستة أيام، نكسها عريرة وعيفة. كما أن وابل الأمطار مألوف حتى في فصل الصيف. ويعول المكيون إن العيوم الآتية من جهة البحر هي تلك التي تروي الأرض بمرارة؛ بينما تلك الآتية من ناحية الشرق أو الجبال العالية، تُرسل مجرد رحات من مياه ويمكن أن تلمس هذا النقص كثيراً في الأمطار. فلقد علمتُ أنه نادراً ما تشهد أربع سموت متتالية من الأمطار الغزيرة؛ وقد يكون ذلك السبب الرئيسي للفقر الذي يعاني منه أبداً في هذا الجور، إذ إن الأعنية الساحقة من مواشيه تفتقر في سنوات الجفاف بسبب نقص المراعي.

إن المناخ في مكة شديد الجفاف عامة، ويبدأ السقي في شهر كانون الثاني/ يناير. بعد سقوط بعض الأمطار العيفة إن حالة جدة تشكل القيص حيث يكون الجو رطباً حتى خلال النقيظ الشديد، وتتكون الرطوبة من أبخرة البحر ومن استقعات المتعددة الموجودة على هذا الساحل المسحوق. إن رطوبة الهواء هناك مرتفعة جداً بحيث أسي وجدتُ عبيتي الهوقية مبللة كثيراً في يوم حار وصافٍ جداً من شهر أيلول/ سبتمبر، وذلك بسبب وفومي ساعتين في الهواء لطلق. كما يساقط السقي في الليل خلال ذلك الشهر وفي شهر تشرين الأول/ أكتوبر، ويظهر ضباب كثيف على الساحل عند المساء والصباح وخلال أشهر الصيف، تهب الرياح من الشرق والجنوب عامة ونادراً ما تنعصف نحو الغرب بل تنحدر نحو الشمال أحياناً. وتهب الرياح

الشمالية المعتادة في شهر أيلول/سبتمبر وتستمر طيلة فصل الشتاء. إن رياح الشمالية الشرقية تكون أكثر رطوبة من غيرها في الحجر، كما هي على ساحل البحر في مصر، حيث تبدو أرضية ساحل البحرية دنيماً كما لو كانت معطاة بالندى، وذلك خلال الفترة التي يسود فيها تلك الرياح.

إن الأمراض السائدة في المدينة هي نفسها تماماً، ويُعدُّ ساحل الحجر ربما من بين «سلالات» الأكثر ضرراً بالصحة في الشرق. فالحق في الحقيقة شائعة ومنتشرة إلى حد بعيد، كذلك حالات الحرارة التي تنتهي عادة بانفتاح البطن، ويكون أحياناً مميتة والقليل من الأشخاص يمضون منه كما هو دون أن يتعرضوا لتلك الاضطرابات ولو بدرجة خفيفة. كما أن أياً من الأشخاص العرب لا يسافر في مكة أو حدة دون أن يعاني حتماً من إحدى الاعتلالات تلك. خلال الأشهر الأولى من إقامته وهو واقع قدّم عنه الجيش التركي مثلاً واهراً، في ظل محمد علي باشا، إن الحمى الملتزمة أقل انتشاراً في حدة منها في مكة، لكن تروّر سكان الأوب حثي فاسدة، وهي، كما قال بي السكك، تبدو بها مُعدية أحياناً؛ حيث توفي خمسون شخصاً إثرها في يوم واحد. ويذكر الأعصمي والفاشي بعض الأمراض الوبائية المتكررة في مكة، ففي سنة ١٢٧١هـ، انتشر الطاعون الدبلي مما أودى بحياة خمسين شخصاً في يوم واحد وفي سنوات ٧٤٩ و ٧٩٣ و ٨٢٩، عرّت أمراض أخرى المدينة كذلك، وفي ٨٢٩ تمهيداً توفي ألف شخص إلا أن هذين الكتابين لا يذكران لطاعون، ولا يظهر هذا المرض في ذاكرة سكان القدماء في الحجر، حيث يسود اعتقاد بأن الله عزّ وجل كان يحمي هذه المنطقة المقدسة من أخطار الكس، في ربيع سنة ١٨١٥، انتشر هذا الوباء بعف شديد، كما سأذكر ذلك لاحقاً، وفقدت مكة وجدة شُدهن سككهما تقريباً.

أما الرمد، أو التهاب العين، فليس معروفَ حداثاً في الحجر. وقد رأيت حالة واحدة من الجُدم في بدوي في نصائف ومرض لُعيا (يصحح هائل في عصر من جسد) ودودة عيسا هما مرضان شائعان أيضاً، خاصة مرض الأول الذي رأيت منه حالات عديدة محيطة ويقف إن حصي المثانة أمر شائع في مكة، وقد يعود سبب ذلك إلى نوعه الماء العربي التي يتسبب سوء نوعيتها في هذا البلد. حار انتشار العديد من الأوبئة الأخرى، حيث تُستهلك منها كميات كبيرة يومياً. وقد سمعتُ أن الجراحين الوحيدين الذين يعرفون تطبيق عملية استئصال الحصى من المثانة، هم بدو من قبيلة بني سعد الذين يعيشون في الجبال التي بعد نحو ثلاثين ميلاً عن الطائف. ويأتي بمصهم إلى مكة في زمن السلم سوياً للقيام بهذه العملية التي يُرجعون مهارتهم فيها إلى مهرة مورثة عامصة في بعض عائلات في قبيلتهم. ويقف إنهم يسعمون موسى عادية ويُحجزونها بجراح بشكل عام

إن التفريجات على الأرجل وخاصة على القصبة، شائعة جداً في مكة لكن بدرجة أكثر في جدة حيث يجعل رطوبة الجو من علاجها أمراً أصعب بكثير منه في مكة. في الواقع، فإن أصعب حدث في ذلك الطقس الرطب أو أي شئ حشرة، تستحيل فرحاً إذا ما أهملت وسرعان ما تقول إلى حرج مفتوح، ليس هناك أمر أكثر شيوعاً من رؤية أشخاص يمشون في الشوارع وعلى أرجلهم تقريجات من هذا النوع التي تُبقي العظم غالباً إذا ما أهملت. وبما أن علاجها يتطلب صبراً وراحة فوق كل شيء، فمادر ما يستعمل الطبقات الدبب العلاجات المناسبة في الوقت المناسب وعندما يتعاقم الوضع إلى حانة يُصبح معها العلاج أمراً ضرورياً، يصعب إيجاد الأطباء الماهرين؛ فتشأ الحمى ويموت العديد من المرضى. وأعتقد أن ربع سكان جدة مصابون بشكل مستمر بالتقريجات على الأرجل، وتتعاظم طبيعة هذه التقريجات السيئة بشدة بسبب استعمال مياه البحر للوضوء.

وبدراً ما كنت أتمتع بصحة جيدة خلال إقامتي في مكة. فقد أصابني احمى مرتين. وبعد رحيل قافلة الحج السورية أصبحت بوسهال حاد، شُعبت منه بصعوبة حين ذهبت إلى «المدينة» وقد شعرت بكاسل وإحباط نفسي في تلك الأيام وفقدان تام بشهية حتى عندما كنتُ حالياً من الأمراض وخلال أيام الحج الخمسة، كنت بصحة جيدة لحسن الحظ، بالرغم من حشيتي من النتائج التي مسترثت عن ارتداء الإحرام. ووهنت قوتي الجسدية جداً كما كان التجول على الأقدام يتطلب مني جهداً كبيراً.

لقد عرثت مرضي إلى سوء نوعية المياه بشكل رئيسي. إن تجاربي السابقة علمتني أن طبيعتي الجسدية حساسة جداً بسبب حاجتي إلى المياه الخفيفة الجيدة، وهي المادة الأساسية الأولى للحياة في البلدان الشرقية وقد يكون المياه المالح في الصحراء معيدة صحياً للمسافرين، حيث أن احتراهم من الرحلة والجهد الذي يبذلونه في طل العقبات التي تُسببها نوعية الطعام على الطريق، يجعل من تلك المياه سائلاً مُلثاً وترؤد المكان بجرعات طيبة. لكن الوضع يصبح معكوساً حين تستعمل المياه نفسها خلال إقامة مستمرة وثابتة وحين تصبح العادة هي السبيل الوحيد لتأقلم المعدة على احتوائها ولو أنني كنت بصحة أفضل ومعديات أعنى لكنت ررتُ بعض الأودية المجاورة نحو الجنوب أو أمصيت بضعة أشهر بين البندو في الحجاز؛ لكن أسوأ مظاهر المرض التي تظهر على المسافر هي احمى الذي يرافقه، والخوف الذي يملأ الدهر من التعب والمخاطر التي ما كانت في طل ظروف أخرى، لتستحق الملاحظة.

إن أسعار المؤن الحالية في مكة في شهر كانون الأول/ديسمبر من سنة ١٨١٤ كبت كالتالي (الليبره) وحده وزن رومانية قديمة تعادل ٣٢٧,٤٥ غرام)

ليرة	بارة
٢	١٠
■	
١	
٥	
٣	
٦	
—	٨
٢	
—	٣٠
—	٢٠
—	٣٢
١	٢٠
—	٢٥
٢	١٠
٢	٢٠
—	١٥
١	١٥
—	١٠
١	
٢	
٣	
٣	
٣	٢٠
٣	
٢	٣٠
١	
١	٢٠
—	٢٠
٢	
١	
٣٠	
٥	



(١) لدى الحكيم عبيد فقط، ذكر السند من مصريين مستعبدون يدخلون في خدمة الحاكم وأنه غلبه الاكثر شيخاً في عائلات مكة هم الأبناء الأصحرون مناً أو بعض الأندلس للعرباء.

ملاحظة: كان الدولار الإسباني يعادل من تسع إلى اثنتي عشرة ليرة خلال إقامتي في مكة، وكانت قيمته تتبدل يومياً والليرة تعادل أربعين باراً (بارة) أو ديواني، كما تدعى في الحجاز إن الباوند أو الرطل في مكة فيه مئة وأربع وأربعين درام. الإردب Erdeb المصري الذي يعادل نحو خمسة عشر بوشل إنكليزي (البوشل - مكيل للحبوب يساوي ٨ غالونات أو نحو ٣٢ لتر ونصف)، يُجرأ هنا إلى خمسين كيلاً Keyles أو مقبباً. ويُجرأ الإردب في «المدينة» إلى ستة وتسعين كيلاً. والباوند في جدة هو تقريباً ضعف ما في مكة.

الحج

لقد ولى النعمان (ورع إلى الأبد)^(١) حين كان احتجاج من شاطئ كنها في اسلاد الإسلامية، يأتون كن سة في حشود، كي يروروا لأماكن المقدسة في الحجاز في تقدي وحلاص. أما الآن، فإن زيادة الاممالة تحاه ديههم والتكاليف المرتفعة للرحلة تُعيق الأعبي الساحة من المسلمين عن تطبيق هذ الشرع القرآني المزم لكل مسلم بإمكانه تحس بفقات الحج إلى مكة مرة واحدة في حياته على الأقر. ويسمح الشرع بمدى تقبدهم أشدهم التي لا عى عنها في أوطانهم باستبدال ذلك باصلوات، لكن تقبل من أساس الآن يلتزمون حتى بهذه الوصية، وهم يتهربون منها عبر إعطائهم بضعة دولارات لأحد محجح ندين يأخذون عمولات من النوع نفسه من عده أشخاص، ليُدخل أسماءهم بناء على ديت في لبيدات اسي تُصاف إلى الصوت التي يتنوها في أماكن الريارات المقدسة وحين كانت الحماسة الإسلامية أكثر اتقاد، كان يُنصر إلى تحشم المصاعب على أنه زياده في الأحر، وأصحت للعديد دافعاً صافياً للانضمام إلى القوافل والقيام بالرحلة كنها عبر البر نكر، في الوقت الحاضر، لا يصبه أغلب الحجاج إلى أي فاعله عاديه، بل يصلون إلى جدة عبر البحر من مصر أو الخديج العرسي، تدفعهم إلى ذلك المصاربات التحارية المريحة.

سنة ١٨١٤، رحل لعديد من الحجاج إلى مكة، قبل ثلاثة أو أربعة أشهر من الوقت المحدد للحج وإن مصء شهر رمضان في امدة المقدسة يشكر إعراء كبيراً من يستطيع تحمل الفقات من الحجاج، يسرعون وصولهم ويمددون فترة إقامتهم فيها وحو الوقت المتوقع بوصول القوافل الاعتيادية، أنى عبر البحر أربعة لاف حح عى لأقل من تركيا، كدوا قد تجمعوا في مكة، ونصف هذ العدد ربما من مناطق أخرى بعيدة من العالم الإسلامي. ومن بين

(١) خطاب أمل المؤف مما وال المسلمين يحجون بيت الله الحرام بمئات الآلاف كل عام.

القوافل المنتظمة الخمس أو الست التي كانت تصل دائماً في السابق إلى مكة قبل بضعة أيام من الحج، ظهرت اثنان فقط هذه السنة، وكانت اثنتين من مصر وسوريا. وكانت الأخيرة مؤلفة كلياً من أناس ينتمون إلى حاشية قائد الحج، وجنده، إذ إن أياً من الحجاج لم يأت عبر البحر من القاهرة، بالرغم من أن الطريق كانت آمنة.

كانت القوافل اسورية دائماً هي الأقوى، منذ الوقت الذي كان فيه الخلفاء يرافقون الحجاج من بعدد شخصياً. وهي سطلق من القسطنطينية وتجمع الحجاج من آسيا الشمالية عند مرورها عبر الأندلس وسوريا حتى تصل إلى دمشق حيث تبقى لمدة أسابيع ويولي اهتمام كبير بأمن القافلة وراحتها خلال الطريق كلها من القسطنطينية إلى دمشق، تترافقها قوات الحكام المسلحة من مدينة إلى مدينة وقد بُنيت الصادق عند كل محطة وسُبل المياه العامة بأمر من السلاطين السابقين وذلك لراحة القافلة عند مرورها والتي تُصاحبها الابتهاجات والنهرجانات. في دمشق، من الواجب الاستعداد لرحلة تستمر ثلاثين يوماً عبر الصحراء إلى «المدينة»، ويجب أن تُبدل الجمال التي وصلت إلى هذا الحد، لأن الجمال لأناصولي ليس قادراً على تحمل التعب ولشقات في رحلة كذلك. وتجهز كل مدينة تقريباً في الجزء الشرقي من سوريا حيواناتها لذلك الهدف. ويتفاوض كبار المشايخ ابداً كثيراً على الجمال مع حكومة دمشق، على حدود تلك البلاد. ومن الأرجح أن عددهم كبير جداً، حتى وإن لم تُلزم القافلة أعداد كبيرة، وذلك حين نأخذ بعين الاعتبار أنه إلى جانب تلك التي تحمل المياه والمؤن للحجاج والجنود، والحسن والجمال الاحتياطية التي تحمل تلك التي تعجز عن متابعة الطريق، فإن الطعام اليومي للجمال نفسها يجب أن يُحمل كذلك؛ فضلاً عن المؤن التي يودع في القلاع على طريق الحج لتشكّل محروناً بطريق العوده. ويهتم البدو كذلك كثيراً في ألا تبرد حمولة جمال عما يجب، بحيث تتم زيادة كفهده العدد المطلوب سنة ١٨١٤، كانت القافلة تضم خمسة عشر ألف حمل^(١) بالرغم من أنها كانت تتألف فقط من أربعة إلى خمسة آلاف شخص ليس إلّا. عن فيهم الجنود والخدم.

(١) بروي العباسي أنه حين قامت والدته المتصم بالله، آخر الخلفاء العباسيين، بتأديته حج سنة ٨٦٣، كانت قافلته مؤلفة من مئة وعشرين ألف حمل. وحين قام سليمان بن عبد الملك بتأديته الحج سنة ٨٩٧، وظف تسميته جمال تصل ثيابه فقط ومن ملاحظ أن أهل من الخلفاء العثمانيين هم يؤد الحج شخصياً أبداً كما أن الخليفة المهدي أن عبد الله محمداً، صرف في حجه سنة ٨١٦، ثلاثين مئوب درهم فقد حمل معه عدداً هائلاً من البغال لتوزيها كهدايا، وقد بقي يوماً جملته في كل محطة من بعدد إلى مكة وعام يفرشها بطريقه رائعة كما قام بتشييد معالم عديدة على طول الطريق كلها، وكان «خليفة الأول» الذي حمل الحج معه ليراد، عصير العاكه على الطريق وقد قدمه العديد من خلفاء. إن هارون الرشيد، الذي قام بتأديته الحج سبع مرات، أنفق في إحدى رحلاته مئوباً وخمسين ألف دينار في الهدايا التي قدمها إلى المكين وإلى الحجاج الفقراء. وسطان مصر، الملك ناصر الدين أبو العالي، نقل معه في رحلة الحج سنة ٨٧١٩، خمسمائة حمل؛ ذلك خمس الخيول و مئوبات فقط، ومائتين وثمانين جملاً لحمل الرثاء واللوز وكهة أخرى، وكان في موضعه الخاص بحفظ المحرم والأمنه ألف إبرة وثلاثة آلاف طير أو دجاجة. يجب لتقريزي، «من حج من الخلفاء»

إن القافلة السورية منظمة بشكل جيد، بالرغم من أن الاستثناءات تكثر جداً في كل شؤون الحكومات الشرقية ويُرقى هذه القافلة دائماً ناشأ دمشق أو أحد صباطه الرئيسيين، ويعطون الإشارة بالتحميم والاصطلاق عبر إطلاق سديفة قديمة بظرار تدعى مسكيت. على الطريق، تسير مجموعة من الخيالة في المقدمة وأخرى في الخلف توقف المفوضي، رتبتي مجموعات الحجاج المختلطة المصنفة حسب المقاطعات أو المدن التي أتت منها، مجتمعهم مع بعضهم، ويعرف كل منها موقعها كدبت في القافلة بتسلسل يهكمي قربها الجغرافي في المكان الذي أتت منه كما تتم المحافظة على الترتيب نفسه باستمرار عند التحميم، وهكذا. يحتم أهل حب دائماً بانقرب من أهل حمص، الح. ب هذا الصدام ضروري وأساسي لمنع الفرصى خلال امسيرات البلية^(١)

ويتعاقد الحجاج عدة مع مقوم، وهو شخص يقوم بأأمين الجمال والمؤن للحج. ويُعنى كل مقوم بسحو عشرين إلى ثلاثين حاجاً وهو يملك حمه وخدمه ويُرجح الحجاج من أي إرهاب أو مشاكل على الطريق. فيتم تخصيص الخيم والمهوية والماء والمقصور والعشاء لهم، فلا يتحمون عشاء التوصيب والتحميل. ودا ما يقع جعل يده من واجب المقوم أن يحدد آخر ومهم رادت الحاجة إلى المؤن على الطريق فإن عليه تزويد مسافريه بوجباتهم اليومية.

سنة ١٨١٤، كانت تملح كمية استبحر مقوم وتناول الصمام على مائتته، مائة وخمسين دولاراً، من دمشق إلى المدينة، وخمسين دولاراً إضافياً من المدينة إلى مكة من المائتي دولار تلك. كان المقوم يعطي ستين دولاراً لرجل يقود الجمال بوسطه الرأس خلال المسيرات بليلة إذ يحب الاحرس وأحد الخيصة في فواش بهد اللحم، حين يسترسل الركب في النوم. ويمكن للجمال أن يهيم بسهولة مبتعد عن الطريق ويتلقى المقوم دائماً، فضلاً عن الأجرة المتفق عليها، بعض الهدايا من حجاجه وفي طريق العودة إلى سوريا، يكون المبلغ أقل نوعاً ما حيث يكون العديد من الجمال دون حمولة.

قيسون هم الحجاج الذين يختارون القيام بالرحلة على مسؤوليتهم لشخصية أو على جمالهم الخاصة فإن لم يكونوا في حمية جماعة حمد أو رئيس القافلة، يحدون صعوبة في الهروب من معاملة المقوم السيئة عند مورد المياه وهي أثناء السير؛ حيث يسعى هذا الأخير حاهداً للحد من الرحلات غير لتابعة له بكل الوسائل المتوفرة بحيث يصعب القيام بدت على الحجاج كلهم بآ الأثرياء منهم القادريين على تشكيل مجموعة خاصة تصل إلى أربعين أو خمسين شخصاً

(١) في رحلات كاتب في سوريا، سيجد القارىء بعض الملاحظات الإجابية عن قافلة الحج هذه، وفي منحى هذا الكتاب رقم ٣، سيجد تقريراً عن الطريق بين دمشق ومكة

ونُصاء اصباح ليلاً، وتُقطع المسافة اليومية عادة بين الساعة الثالثة من بعد الظهر وبين ساعة أو اثنتين من شروق شمس اليوم التالي ويسافر البدو الذين يحملون المؤن لمجند خلال النهار فقط، متقدمين على القافلة التي يمرون بها في الصباح لتدركهم هذه الأخيرة وتتجاوزهم في الليلة لتانية عند المكان الذي يرتاحون فيه. إن الرحلة مع هؤلاء البدو أقل إرهاقاً منها مع حشم القافلة الصحم، لأنهم يرتاحون ليلاً بانتظام، إلا أن أحلافهم السيئة تُثني معظم الحجاج عن الالتحاق بهم.

وهناك على الطريق، عند كل مورد ماء، قلعة صغيرة وحران كبير ترتوي عنده الجمال ويحرس القصور بعض الأشخاص الذين يقفون طوال السنة لحراسة المؤن المودعة هناك. وعند موارد المياه تلك التي تحصى البدو، يلتقي شيوخ القبائل بالقافلة ويقصرون الإناءة المعتادة. ويجد المياه بوفرة على الطريق حيث إن موارد المياه لا تعد عن بعضها بعضاً أكثر من مسير إحدى عشرة أو اثني عشرة ساعة. كما تكثر في الشتاء البرك التي تتجمع من مياه الأمطار. ويتمكن الحجاج الذين يسافرون وهم محفرون بحفالة أو مريح واسع، من النوم ليلاً فيقومون بالرحلة دون عقبات أو إزعاج؛ إلا أن أولئك الذين دفعهم الفقر أو الرعية في تحصيل مبلغ كبير من المال بسرعة إلى اللحاق بالقافلة سيراً على الأقدام، أو إلى العمل كحشم لقاء أجر معين، يموت العديد منهم على انطريق جرائم التصب.

تتبع القافلة المصرية التي سبقت من القاهرة النظام نفسه كالقافلة السورية، غير أنها تدرأ ما تواري تلك الأخيرة في العدد، لأنها تتألف من المصريين فقط. إلى جانب الحرس العسكري والطريق التي تتبعها أكثر خطورة وإرهاقاً من طريق القافلة السورية؛ فالطريق على طول شاطئ البحر الأحمر تمر على الأراضي لتبعة لقبائل البدو وهمجييين، المحاريين، الذين كثيراً ما يسعون إلى إيقاف جزء من القافلة بالقوة كما أن موارد المياه أقل منها على الطريق الأخرى بكثير؛ حيث تفصل عدة مسافة ثلاثة أيام بين الآر التي يادر ما يكون عريرة، وهي مألحة باستثناء اثنتين أو ثلاثة منها. سنة ١٨١٤، كدت هذه القافلة تتألف من الجند فقط ومن حاشية الجمل المقدس وبعض الموظفين العاميين؛ إذ إن كل الحجاج لمصريين قد فصلوا. المرور عن طريق السويس. سنة ١٨١٦، انضم العديد من نبلاء القاهرة إلى الحج، وكان أحدهم يملك مائة وعشرة جمال لقن أمتعته وحاشيته وثماني حيم وقد بدعت كتفه دهابه ويديه عشرة آلاف (باوند) وكان هناك أيضاً نحو خمسمائة فلاح مع سائهم من شمال مصر وجنوبها من لا يحشون الإرهاق والمخاطر في الصحراء بقدر ما يحشونها في بحر وقد رُيت معهم فرقة من فتات الهوى والراقصات اللوثي كن يُحجس ويتجهزون بالطريقة الأكثر فحامة في القافلة. وتُرافق القافلة السورية حاجات من النساء من الطبقة نفسها.

وقد وقفت قافلة الحج الفارسية التي اعتادت على الاتصال من بغداد والبروز عبر نجد ومكة، وذلك حين أوقف الوهابيون قافلة الحج السورية وبعد أن عقد عبد الله بن سعود اتفاقية سلام مع طوسون باشا سنة ١٨١٥، عاصرت تلك القافلة في عبور الصحراء ومرت عبر الدرعية دون أن تعرض للمصاييد، لكن على بعد أربعة أيام من مكة، هاجمها بو مشر وهم قسمة بقيت على الحياد خلال الحرب بين طوسون والوهابيين فعاد عبد الله بن سعود إلى الدرعية وقد سترحت السلع التي نُهبَت منها من خلال وساطة سعود الذي أرسل جماعة من رجاله لمواكبتها إلى المدينة المقدسة.

ويؤكد القادة الفارسية عادة العرب من قبيلة محيل من بغداد ولأن حجاج تلك قافلة هم من المشيعين، فهم كثيراً ما يتعرضون لابتزاز على الطريق، وقد فرض عليهم سعود ضريبة أعاق مرتفعة، كما فعل الشريف غاب في مكة حيث بلغت بضريبة في الآونة الأخيرة ثلاثين (سيكوي) على شخص، وكل الحجاج لفرس هم من الملاكين، ولا يعني أي من الحجاج ما يعانونهم من ثقل الضرائب خلال الطريق كلها. يأتي العديد منهم عبر البحر حيث يصنعون من البصرة إلى المحل، وهم إن كانوا من أصحاب التجارة، يتجهون مباشرة نحو جدة وإن لم يكونوا. كذلك، فهم يصنعون أنفسهم في قافلة ويأتون عبر البر على طول ساحل اليمن وسنة ١٨١٤، حين كنت حاضراً في الحج كان لعدد القليل من فرس الذين أتوا عبر البر قد مروا عبر بغداد إلى سوريا ولحموا بالقادة السوريين يرافقهم راكبو جمال من بغداد.

ويحذر الذكر هنا أنه لم يكن يُسمح بفرس بنحجي، إلى المدينة المقدسة، فهم معروفون بالمشيقين، وهم يحضرون عقائدهم فقط خلال الحج كي لا يشيروا سنياء أهل السنة سنة ١٦٣٤، أي بعد بضع سنوات من إعادة بناء الكعبة، أمر السلطان مراد الرابع بجمع أي درسي متشيع على من القيام بالحج أو لدخول إلى بيت الله وتم لإدعاء نهد الملة لعدة سنوات إلا أن ابن الذي يُعقده الفرس سرعان ما أعاد فتح الطريق أمامهم إلى عرفات والكعبة وحسب الأعصمي، فقد قُتل أحد شيعة علي على الحاروق في مكة لأنه لم يقبل بشعب معتقده أو الارتداد عنه.

وبت قافلة الحج المعربية غير منتظمة لعدة سنوات ويرافقها عادة أحد أقرباء ملك مراكش، حيث تنطلق من مقر إقامته بطلة باتجاه تونس وصراليس فتجتمع لتريد من الحجاج عند كل مقاطعة تمر بها، وتمتد طريقها على طول شواطئ سيرة إلى درنة، ثم على طول ساحل مصر مروراً بالإسكندرية أو باتجاه بحيرة النصوص مباشرة إلى القاهرة فتتبع من هناك الطريق المعتادة إلى الحج وتزور هذه القافلة المدينة دئماً عند عودتها من مكة، وهذا ما لا يصحح حاج

انصري، وتقتد طريقها أحياناً عبر البر حتى القدس، ويرافقها القليل من الجند، غير أن حجاجها مسلحون جيداً ومستعدون للدفع عن أنفسهم أما في القافلتين الكبيرتين الأخيرتين، فلا أحد يحارب إلا رجال المواكبة.

لقد مرّت القافلة المصرية الأخيرة عبر مصر سنة ١٨١١، وقد سمح لها الوهايون بزيارة مكة بعد أن علموا أن حجاجها لا يدرسون العادات المحرمة التي رُسِمَ بها المصريون والسوريون. إلا أن هذه القافلة قد عانت من مشاكل عديدة في طريق عودها، من الأعداء ومن جراء عيب أي دليل معها ومن النقص في المؤن الذي ماتت نتيجة العدي منهم ويصل الحجاج المعاربة الآن عبر البحر عادة إلى الإسكندرية، ثم يطلقون محمداً في السويس في مجموعات من خمسين أو مئة شخص. وهم رعم ثيابهم لثرة الفقيرة، يملكون ما يكفي من المال لتحمل نفقاتهم، والقليل منهم متسبون؛ غير أنني رأيت من هذه القافلة مجموعة صغيرة من العرب من منطقة دراع عبي الجانب الجنوبي الشرقي من جبل أطلس، وقد انطلقوا مع القافلة المصرية عبر البر في شهر أيلول/ سبتمبر من سنة ١٨١٨ رعب منهم أنهم حصروا مجاناً على العبور من تونس إلى الإسكندرية بحراً. وكان أحدهم بدوياً من شعب شيوخ، وكان محيماً على مسافة عشرين يوماً من تومبكتو حين عادره.

وهناك كدنت في القافلة المصرية عامة بعض أهل جزيرة جربة ويشته بأبهم من شيعة عبي، وقد استقر بعضهم في القاهرة وهم يقطون، أخي اندعو طبلوب، ويقولون منفصلين قداماً عن كل مصريين في المدينة لكن الأغصنة السحفة من القافلة أتية من مملكة المغرب

حسب اعتقادي، يبيع أقصى عدد من حجاج بلاد المغرب البرابرة سوياً، ألقي حاج. وقد ضمت القوافل الأخيرة جمعاء من ستة إلى ثمانية آلاف رجل

وكانت قافلنا حج عيّنات تصلان إلى مكة في السابق عبر البر وتُدعى الأولى حج القيسي وتنطلق من صعدة في اليمن وتتابع سيرها على طول اجبال إلى انطائف ومكة. ويظهر في الملحق خطي منير لهذه القافلة مع بعض الملاحظات عنها، وقد أتت القافلة الأخرى التي كانت تتألف من أهل اليمن والعرس واليهود الذين وصلوا إلى مومبيء ذلك البلد، على طول الساحل. وقد توفقت هذه القافلة نحو سنة ١٨٠٣، ولم تتم حتى الآن إعادته تأسيسها وقد كانت فيما مضى كبيرة وعنية بالنسب والنفوة، وكانت تشرف أحياناً برفقة أئمة السن. وكالقافلتين السورية والمصرية، فقد كان لتلك القافلة موقعها الخاص للتحجيم قرب مكة حيث بُني حزان حجري كبير لترويضها بالياه.

وقد رأيتُ الطريق التي تتبعها قافلة الحج الهندية وقد رُسِمَت على عدة خرائط، وهي تبدأ

من مسقط ونمرو سجد إلى مكة؛ غير أنني لم أحصل على أي معنومات عنها، وتلك التي كانت متوفرة سابقاً قد تكون نابعة من لذكر المتكرر لها من المؤرخ الأعصمي كما أن الأشخاص الذين استطلعتهم أكدوا لي أن ليس هناك قافلة كذلك قد وصلت، حسنة يدكروا؛ لكنني اعتقد أنه، في زمن السلم، كان يصل إلى سحاز متسولون هود وهرس وعرب، في مجموعات صغيرة عبر الطريق المذكورة أعلاه.

قبل أن يتغلب الشريف سرور على سلطة الأشراف، كان هؤلاء يشترعون من كل قافلة تأتي إلى مكة مبالغ ضخمة إلى جانب البضاعة التي كانوا يحضنون عليها. وكانوا، ما إن يسمعوا باقتراب قافلة ما، حتى يطلقوا من مكة مع كل جندهم المسلحين وأصدقائهم من البدو، فينتارعون غالباً مع قادة القافلة لعدة أيام قبل أن يتنه دعه لإتاحة.

وبإمكاننا أن نصيف إلى القوافل المعتادة المذكورة أعلاه، مجموعات كبيرة من البدو الذين يأتون إلى مكة خلال السلم من كل أنحاء الصحراء، لأن لقب الحجاج كان يلقي احتراماً وتديراً كبيرين حتى بين البدو الأقل الثراء بالبدن، فكان أهل نجد يرسلون الحجاج وكذلك كان يفعل بدو الحبوب وعندما كان الوهايون يسيطرون على مكة، كانت حشود من تلك الطائفة تأتي إلى عرفات بهدف التوجه إلى رعيهم الذي عُرف عنه به برؤية شبيهة من العرب مجتمعين هناك. كما كانت لديه أهداف دينية كذلك وكانت سنة ١٨١١ مرة الأخيرة التي هم بها الوهايون فيها بتأدية الحج، وذلك بعد فترة قصيرة من لهزيمة الأولى التي لحقت بطومسون باشا في الحديدة؛ وكان يرافقهم مجموعات كبيرة من البدو من قبيلة قحطان وعسير، وآخرين من الأحرار الداخلية من الصحراء. وكانت ساع مسلوبات الذخوده من الجيش التركي إلى المكين في السوق في عرفات وأذكر هنا أن علي بك العباسي ارتكب هفوة كبيرة مع حشود الوهايين حين رآهم يدخلون مكة في وقت الحج، حيث توقع أنهم قد أتوا ليسيظروا على المدينة، وهو يُسي على نفسه بأنه كان حاصراً عند أول دخول وهابي لمكة بينما كان يوسع أي ويد في المكان أن يعلمه بأن ذلك قد حدث قبل ثلاث سنوات من وصوله إلى الحجاز.

كما سبق أن ذكرت، يصل معظم الحجاج إلى حدة عبر البحر في الوقت الحاضر، فأولئك الذين من الشمال يسبحون في السويس أو القصير Cosseir ويسهم نسبة كبيرة من حجاج بلاد العرب البرابرة إلى جانب العديد من الأتراك من الأناضول والأتراك الأوروبيين والسوريين والعديد من الدراويش من بلاد الفرس، والتتار والمناطق التي تروى مياه الإندوس إلى الحاحة إلى السفن في البحر الأحمر الناتجة عن الطلب المتزايد لها بعبء ترويد الجيش التركي في الحجاز، تجعل من العبور عملية غير أكيدة؛ وتكونهم الفرصة أحياناً فيصنون متأخرين على الحج كما

حدث مجموعة سنة ١٨١٤ وصب إلى مكة بعد ثلاثة أيام من الحج بعد أن احتجرت طويلاً في السويس. وبسبب سوء نوعية السفن ووضعها غير المريح، أصبح العبور مكروهاً ويكون أحياناً محفوفاً بالمخاطر. ولم يبق محمد علي باشا إلى الآن بأي شيء لجعل هذه الرحلة أكثر راحة للحجاج؛ لكنه على العكس، فرض ضريبة عليهم من خلال عقد إجباري يدفعون بموجبه مبلغاً كبيراً لقاء مرورهم إلى جدة (كان يبلغ سنة ١٨١٤، ثمانية عشر دولاراً لشخص)، وذلك بالاتفاق مع حاكمه في السويس الذي كان يوزعهم على متن السفن العربية ويدفع لرؤسائها ستة دولارات لشخص فقط. وكان يُسمح للحجاج في السابق أن يحملوا من السويس كمية كبيرة من المؤن بقدر ما يريدون، يبيعون قسماً منها في الحجاز حتى يخلص الأرباح؛ لكن في الوقت الحاضر، لا أحد يستطيع الإبحار مع ما يكفي من استهلاكه الشخصي خلال الحج. إن السبب الرئيسي الذي كان يجعلهم يفصلون السفر بحراً هو الخسرة الشاملة في نقل المؤن معهم، وخاصة الزبدة والحلوى والسكر واللحم المجمد، التي يشترونها في مصر بسعر بخس، مما يكفيهم لرحلة بأكملها. أما أولئك الذين يسافرون برّاً، فكان عليهم شراء كل المؤن في مكة حيث الأسعار مرتفعة.

وإذا لم يسمح للحجاج الأجانب، عند وصولهم إلى القاهرة، عن أي سفن راسية في ميناء السويس، فهم يتابعون طريقهم على نهر النيل حتى أحيّة «Genne»، ومن هناك، يعبرون الصحراء إلى القصير فتصبح الرحلة إلى جدة قصيرة. وتُفصل الأغلبية الساحقة من الحجاج الأتراك هذه الطريق عبر القصير في طريق عودتهم من الحجاز. ويذهب أهل شمالي مصر عبر الطريق نفسها كالعديد من الحجاج النرويج، بعد أن يكونوا قد تبعوا صفاف النيل من صئار برولا حتى أحيّة. وتتراوح أجرة السفر من القصير إلى جدة بين ستة وثمانية دولارات.

وقد عانى العديد من الحجاج الأتراك الذين ذهبوا إلى الحجاز في مجموعات صغيرة من معاملة المماليك السيئة لهم في طريق عودتهم إلى مصر، وذلك في الأيام الأخيرة من عهد لمالك، حين كانوا يسيطرون على جنوب مصر، بينما كان الجزء الشمالي يحتله محمد علي، فقد سبّ العديد منهم وذبحوا في مرورهم برولا بمحاذاة النيل. وقد تهاوى حسن بك اليهودي، الإغريقي الدموي، بقتل خمسمائة منهم بعنف وأعطت هذه المجرور التي مورست على الحجاج المسلمين، محمد علي عبثاً بخيائته حين قام بقتل المماليك في قلعة القاهرة.

ويصل حجاج الحروب عبر البحر من اليمن والهند الشرقية، خاصة منهم اليهود المسلمون والملاويون (أبناء شبه جزيرة الملايو) وأهل كشمير وأساس من عوجرت. وفرس من الخليج الفارسي، وعرب من البصرة ومسقط وعمان وحصرموت، وأولئك القادمون من سواحل مبيدا.

وموسسا الذين يُطلق عليهم اسم أهل السواحل فضلاً عن المسعين الحشيشيين والعديد من الحجاج الذين يأتون من الطريق نفسها ويجد السبعون كنهم المقسمون على سواحل المحيط مقيمة، بالتأكد معادرة من مساء محاور إلى البحر الأحمر خلال فترة الحج لكن العدد الأكبر يصل مع السفينة الهندية التي تصل بانتظام في شهر أيار/ مايو، ويقفون في مكة أو «المدينة» حتى وقت الحج، يركبون بعدها على من السفن الوطنية في حلة إلى اليمن حيث يترقبون إلى حلول وقت رياح لنحية سحاروا باب السب كما يأتي إلى مكة العديد من المتسولين من السلدن المذكورة أعلاه ويحصلون على عبور مجاني من لأشخاص المحسنين في بلادهم أو يقوم بتحمل نفقاتهم من يستخدمونهم بعية تعويضهم بتأدية الحج؛ عبر أنهم حين يصلون إلى البر، يصبحون بالكامل معتمدين على حسابات الحجاج الآخرين؛ والصدقات التي يجمعونها تُساعدهم في الرجوع إلى ديارهم.

وباستثناء استؤليل، يصل القليل من الحجاج فقط دون أن يُحصر معهم بعض منتجات سداهم الخاصة للسع؛ ويصنع هذا على أسجار بقدر ما ينطبق على من تُحركهم لحماسة يدوية حيث إن الأرباح التي يحققها هؤلاء الأخيرون من بيع سلعهم بعوضهم عن نفقات الرحلة الثمينة إلى حد ما ويُحصر المربيون مثلاً فساتينهم الحمراء والعباءات الصفوية، ويأتي الأتراك والأوروبيون بالأحذية والخفاف والحردوت والأصعة المنصورة ونربي والكهرمان والنحني الأوروبية الصنع والحفائب الخيرية المحبوكة، الخ وأتراك لأناصول يأتون بالسجاد وخرثر وشالات الأنفور المنصوغة من وبر الأراب، ويحضر الفرس شالات الكشمير والماديين الخيرية المنكسرة؛ والأفنديون، فراشي الأسان المدعوة مسواك، المنصوغة من الأعصاب لإسجحية بشجرة نمو في بحاري، والشحات من حجر لصابوني الأصفر والشالات الخشنة البسيطة المنصوغة في بلادهم؛ أما اليهود فيأتون بمنتجاتهم المتعددة التي ترحل بها منطقتهم البعية الواسعة ويُحضر أهل اليمن حراطين العيون الفارسي أو الرجلة، والصدل ومنصوغات أخرى جديدة؛ والإفريقيون يُحصدون سعاً متنوعه تنكثف مع تجارة ارفيق. لكن، غالباً ما يُصاب الحجاج بحية الأمر فيما يحصل توقعاتهم بالربح، فالحاجة إلى المال تجعلهم يبيعون حراتهم البسيطة في المراد العلي، ويُجبرون غالباً على القبول بأسعار متدنية جداً.

ولا أحد يتمتع بسمعة جديدة بالاحرام في الكد والمثابة من بين كل الحجاج الذين يصلون إلى الحجاز، أكثر من الربح أو «التكروري» كما يُدعون لها ويتحور يهود كلهم من الطبقة لأشد فقراً إلى التسول ما إن يزلوا في حلة ويُمارس العديد من السوريين والمصريين التجارة نفسها بحلاف الروح. وقد سبق أن ذكرت في يوميات سابقة أن الزنوج يصلون إلى الحجاز

عبر الموانئ الثلاثة لمصوع والسواقيز والقصير. وأولئك القادمون عبر صبار واحتبشة يعودون
 عنهم من الفقر المدقع ويقلهم الدولار الواحد من المصوع إلى الساحل المقابل في اليمن
 ويرلون عادة في الحديدة حيث ينتظرون وصول عدد كافٍ من مواطنيهم لتشكيل قافلة صغيرة
 ثم يصعدون حيد اليمن على صول الأودية الخصبة التي يقطعها العرب الأسحياء فيستجدون
 منهم أجرة طريقهم إلى حدة أو مكة^(١). وإذا ما توفّر معهم مبلغ دولارين يصبح بإمكانهم
 المرور من المصوع مباشرة إلى جدة، حيث يشتقون مواطنيهم عن أتوا من السواقيز والقصير.
 وفور وصولهم إلى جدة أو مكة يقومون بعرض أنفسهم للعمل، فيعمل بعضهم حاملين نقل
 للصائغ والحطّاء من اليمن إلى المخارن، ويعمل بعضهم الآخر في تنظيف الساحات وإحصار
 الحطب من أجل المجاورة ليرودوا بها سكان حدة ومكة المدينين لهم وحدهم بذلك إذ إن أياً
 من فقرائهم الخمولين لا يُعقل أن يقوم بهذا العمل بالرغم من احتمال جني أربعة دراهم في اليوم
 منه. ويصنعون في مكة قوالب صغيرة من الأجر (كايون) يملونها بالأحمر والأصفر، ويشتريها
 الحجاج لعلّهم قهوتهم عليها. ويصنع بعضهم سلالاً صغيرة أو حصائر من أوراق النخيل، أو
 يحضرون الشراب (بيرة)؛ ويعمل آخرون في نقل المياه. وباحتصار كسباً دعيت الحاجة
 إلى عمل يدوي، يتم استخدام أحد الزوج دائماً من السوق. وإذا ما أُلِّم بأحدهم المرض، يتولى
 رفاقه العناية به ويتحملون مصافته. وبم أن لا القليل منهم يستجدون الصدقات، باستثناء الأيام
 الأولى التي تلي وصولهم، أي قبل أن يتمكنوا من الحصول على عمل وهم يسافرون من مكة
 إما براً وما يُعبرون من طريق يَسع إلى المدينة التي يرودونها محدداً بحطب الوقود وبالمعل،
 يصنع الحجاج في الحجار في حيرة من أمرهم إذا ما عجزوا عن الحصول على خدمات هؤلاء
 الزوج المصية. وقد استمروا بتأدية الحج خلال العرو الوهدي؛ ويُقال أن سعود قد عبّر عن
 تقديره الكبير واحترامه المعزّ لهم^(٢).

وبعد أن يتم هؤلاء الزوج مراسم الحج وزيارة مكة، يعودون إلى حدة حيث يستمرون في
 العمل حتى يتسنى لهم الإبحار إلى السواقيز؛ فالقليل منهم فقط يعود من طريق الحبشة. وعند
 معادرتهم الحجار، يكون بحيرة الجميع منبع كافي من المال جمعه من أرباح حياضهم
 بحصول على مغامرة صغيرة أو ليؤتمروا على الأقل، عند وصولهم إلى السواقيز، سفرًا عبر

(١) سنة ١٨١٢، أنشد مجموعة من الزوج نكت الطريق، وقام عرب فلب الحيد، وهم وهاديون أو غائب الزوج صبر
 الجود الأتراك، بتصور أن اصحاب الزوج كانوا محتادين على الدخول في حدة الأتراك ولحق هذه المجموعة عدة من
 محاربتهم؛ أوقفوا الزوج للسكاكين على الطريق وقتلوا العديد منهم.

(٢) يعر. المقرري في أحياه عن الخلفاء الذين أداواهم الحج أنه في عام ١٧٢٤ هـ وصل إلى القاهرة بهريته إلى مكة ملك
 ونجي يدعى موسى بأكرم السلطان ملاوي وفادته، وأنه كان يقر في موكبه، حسب المقرري ١٤ ألف حارة

الصحراء أكثر راحة مما خبروه في رحلتهم السابقة، ثم يتابعون باتجاه بلادهم عبر شدي وكردفان إلا أن العديد منهم يتشرون في شبه الجزيرة العربية، بدل أن يعودوا عند إتمام الحج، فيزورون المسجد الأقصى في القدس أو مقام إبراهيم في الخليل، فيقرب هكدا بعيداً عن ديارهم لسنوات عديدة ويعيشون مما يحسنه من خلال عملهم. وقد ساهم المحسنون في لكبة في إعاء مسجد مكة واطولعين الكسالى فيه؛ غير أن أحداً منهم لم يعك في تشكيل أي مؤسسة تساعد الروح واليهود وتسهل لهم تأدية الحج، وتؤمن لهم سمر مجالياً إلى الحجاز عبر الخليج تلم كفت دولاراً أو دولاين ثقل كاهل أولئك. وهم يصلون عالياً إلى مائىء اجاب الإرفني مر الخليج، بعد أن يكونوا قد أنفقوا المبلغ البسيط الذي أتوا به من بلادهم، أو بعد أن يسلب منهم خلال الرحلة. وحين يعجرون هناك عن إيجاد أي وسيلة لحمل ما يكفيهم من مال لسمر عبر البحر الأحمر، يحجرون على الانتظار حتى عوده رملاتهم لمسورين من الحجار الذين يدفعون عنهم تكاليف سفرهم بحجة

ويمثل اليهود النقيض انتم الروح في انطهر أو بي الطباع إذ يصعب تصور سمات أشد بؤساً وشفء من سماتهم. فهم يبدون وقد فقدوا كل طاقة لديهم بل والأمل أيضاً. وهم حريون بالمؤاساة والتحرر مع أحساد لا تكاد تبدو قادره على مقاومة غصقة ربح، وأصوات حائرة واهية، إذ إن التجربة اليومية لم تثبت أنهم يسرور بالظهور في هذه الحالة المذكرة التي تؤمن لهم الصدوات من محسنين ونعميهم من العمل. وتكتظ شوارع مكة بهم؛ ويتوجه الأكثر بؤساً منهم بتوسلاته الحرة بكثبة إلى المدرة وهم يتمددون وسط اشراع على صهورهم، وتعيج بوابات المسجد بهم دائماً، وكل مفهى وكل مورد ماء هو محطه لعصهم. بحيث لا يستطيع أي حاج شراء مؤن في الأسواق دون أن يُنخ عليه ليهود في طلب كمية مه. وقد رأيت بينهم أحد المقصعين إلى ذلك والموجودين بكثرة في شمال لهد وفارس، وكانت إحدى يديه معنقة مباشرة فوق رأسه وقد رُكزت هكدا عترة حويلة بحيث أصبح من المتعسر تحريكها في أي وضع آخر. وبسبب التعجب والاستعاب اللذين يثيرهما، اقترصت أن مثل أولئك لأشخاص نادراً ما يجدون طريقاً إلى الحجاز.

وبجد بين حجاج سراویش من كل مذهب وطقة في الدول التركية، والعديد منهم محابين، أو على الأقل يدعون لجنون مما يجذب اهتمام الحجاج بهم فيملأون جيوبهم بالمال من ملوك بعضهم هو من العف والمكر والخبت بحيث يدفع الحجاج، حتى عبر المحسنين منهم، بي إعطائهم شيئاً ما كي يحلصوا منهم. وهم يأتون غالباً من بلدان أخرى. فمن بين أهالي شبه الجزيرة أنفسهم، هناك عدد أقل من محابين من الأجرء الأخرى من الشرق، وتعيج بهم مصر بوجه أحص حيث إن في كل قرية في وادي سيل تقريباً بعض

مسؤولين أو احمائيين الذين يعتبرهم السكان أشخاصاً ملهمين وبركة أروستها لهم السماء^(١).

إن محبي العرباء من أجراء العالم الإسلامي كله، من نوموكتو إلى سمرقند ومن جورجيا وبورنيو يجعل من جلة مقر إقامة يرحب فيه الرحالة الأوروبي الباحث الذي يستطيع عبر تقديم المعونات للحجاج الفقراء وتخصيصهم بمقدار قليل من المؤن، اجتذاب أعداد كبيرة منهم إلى منزله فيتمكّن بالتالي من جمع الكثير من المعلومات المتعلقة بالأحرار السائبة من إفريقية وآسيا. ويؤجر انكيون كلهم منازلهم خلال الحج، باستثناء الطبقات الغنية، ويطلبون من استأجرين، لقاء بصصة أسايغ أو أشهر، ما يدفعونه للمالك في سنة كاملة. فقد دفعت بقاء غرفة واحدة محفزة بمطبخ صغير وموضع جنبي للخدام، خمسة عشر دولاراً لسنة أسايغ، أي ما يعادل الأجرة لسوية لمنزل بأكمه التي كان يتقاضاها المالك ولكن أجبر على دفع المبلغ نفسه برأي استأجرته فقط خلال لأسوعين السابقين للحج والتاليين له. وكان لشرل الذي استأجر في هذه العرف مقشماً إلى عدة مساكن، وقد أخرج كله للحجاج محتسبين لقاء مئة وعشرين دولاراً، بعد أن انتقل المالكون إلى شفق من الحفارة بحيث لا يمكن أن يشعها العرباء.

من بين العديد من الحجاج الذين يصلون إلى مكة قبل القافلة، بعض التجار وبأني العديد من الآخرين بالتفصيل من السلع التي يبيعونها دون مشقة. ثم يقضون العترة التي تسبق الحج متمتعاً وسرور، وهم يحاولون من الهموم والتوحيشات، يتمتعون ببهجة الآسيوي في الكس اللديده. وباستثناء أبناء الطبقة الغنية جداً، يعيش الحجاج معاً في حرية ومساواة ويحتفظون بالقليل من الخدم؛ لكن العديد منهم لا يملكون أي خادم، وهم يتقاسمون الواحبات المختلفة في منزل كإحصاء المؤن من السوق وإعداد الطعام، رغم اعتمادهم على خدمات اخده في منازلهم إن الحرية ونسيان الهموم التي توافق السعر تجعل منه فترة استمتاع بين أهل الشرف كما بين الأوروبيين، فيشعرون بالسعادة معها جزاء إقامتهم في مكة حيث يقرأون القرآن ويستمعون في الشوارع أو المقاهي ويصطنون أو يحدثون في المسجد، فضلاً عن اعتراهم بالقرب من البيت المقدس إلى حبب الاحترام والتقدير المتوقّعين والذين يُصفيهما لقب الحج لما ينقي من حياتهم؛ إضافة إلى الرضا الذي تنتجه المشاعر الدينية والآمال المعلقة على المستقبل والتي تؤثر في العديد من الحجاج. ويقضي الحجاج الذين يأتون في القوافل أوقاتهم بشكل مختلف جداً، مما أن ينتهوا من رحلتهم بطويلة، حتى يتعين عليهم أن يشاروا شعائر زيارة الكعبة والقمره المهكّة، يسافرون بعده مباشرة إلى مكة وعرفات، ثم، وهم لا يزالون يشعرون باخز حذاء الرحلة، يتعرضون للهواء القارص على جدران الحجار وقد ارتدوا العصاء الخفيف وغير الملائم، أو الإحرام.

(١) سنة ١٨١٣م انفضى بين السكان المسيحيين في مصر العليا شاب وسسوب أو متوجه، كان يسير عازياً في السوق وكان السكان المسلمين، الذين ذهب فيهم العيرة ألفوا القيس عليه ذات ليلة وقاموا بختابه وتحويله إلى «وحي» مسلم.

ثم، عند عودتهم إلى مكة، لا يتبقى لهم سوى بضعة أيام فقط لاسترحاء قلوبهم وإقامة
بريارتهم المذكورة إلى بيت الله، ثم لا تلبث القافلة أن تطلق في طريق العودة وهكذا، يكون
الحج بأكمله محنة أو اختباراً قديماً لنقوة الجسدية ومسئمة مستمرة من التعب والحرمان.
ويتوافق هذا النمط في زيارة المدينة المقدسة مع آراء العديد من العلماء المسلمين الذين يعتقدون
أن الإقامة الطويلة الأمد في الحجاز لا تعزّز الإيمان لصديق مهما كانت النوى صادقة وفاضلة،
لأن رؤية الأماكن المقدسة يومياً تُضعف من الوقوع الأول الذي تحدثه على النفس. وعلى الرغم
من ندبي أحفاد المدينة عامة عند المسير، لا يزال عدد منهم من يدعهم الإيمان إلى زيارة
الأماكن المقدسة مراراً وتكراراً وقد عرفنا أنراكاً يقطعون القاهرة، كانوا يدهنون كل سنة عبر
طريق القصير إلى مكة، وذلك حتى عندما كان المذهب الوهابي مهيمناً في الحجاز. كما أن
هناك بعض الأشخاص الذين أقاموا باستمرار في تلك المدينة حتى يتمكنوا من قضاء ما تبقى من
أيامهم وهم يؤدّون واجباتهم الدينية فيحجرون من الأسماء الدنيوية. وحلال إقامتي، وصل
أحد السلا لأترك من «تسطينية»، وكب قهوجي باشي بسطان سيم، وقد سمح له لصدر
الأعظم بالذهاب لانتصار الموت في الأرض المقدسة حيث تم الإعلان عن وصوله عبر هبات
فاخرة قُدمت إلى المسجد.

وتصل القافلتان السورية والمصرية دائماً في فترات محددة، تكون عادة قبل يوم أو يومين من
رجيل حج إلى عرفات وتقر القافلتان عادة عبر بدر، في اليوم نفسه أو يعارق يوم واحد فقط
إن القافلة السورية القادمة من «المدينة»، والقافلة المصرية القادمة من ينبع لبحر، تتألف من طريقهما
من بدر إلى مكة، على مسافة قصيرة الواحدة من الأخرى. في الخامس من شهر ذي الحجة من
سنة ١٢٢٩هـ، أو في لوحيد ولعشرين من شهر تشرين الثاني / نوفمبر من سنة ١٢٨١م، أعلن
أحد مسؤولين عن اقتراب القافلة السورية، وقد دخل هذا المقيم المدينة مسرعاً ليحصل على
الجائزةخصصة لسباق، أو كن من يأتي بالأبناء الأولى عن وصول تلك القافلة بسلام وقد
تبعته هتافات الحشود إلى منزل الحاكم حيث تلقى حصده عند ترجله. وكانت الأنباء المتعقبة
بتلك القافلة في عية الأهمية إذ إنه لم يُسمع أي خبر عنها، لا بل انتشرت الشائعات بأن الدو
قامو سبها على الطريق شمال «المدينة» وبعد ساعتين، وصل عدد آخر من الأشخاص من تلك
القافلة، وبعد لبس، وصلت القافلة كلها وكان باشا دمشق على رأسها، وحيثما في سهل
الشيخ محمود.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وصلت القافلة المصرية كذلك وأُرسِلت الأمتعة
الثقيلة والخيول إلى المكان المعتد الذي تحيّم فيه هذه القافلة في المدينة؛ غير أن المخض، أو
الحمل المقدس، بقي في «الشيخ محمود» كي يتمكن في اليوم الثاني من المرور عبر المدينة في

موكب، وقد وصل هذا الصباح محمد علي باشا بشكل مفاجئ وغير متوقع من الطائف كي يكون حاضراً في الحج، وكما يتحقق من فرقة الحياطة التي أتت مع القافلة المصرية، وقد كانت تشكل بالسنة إليه دعماً يدعونه أماله بالانتصار على الوهابيين. وقد ارتدى إحراماً أيقناً رلفاً حول حاصرته وكتفيه شالين من الكشمير الدصع البياض. وكان رأسه حليفاً غير أن ضابطاً كان يحمل به مظلة تقيه من الشمس وهو يمتطي حصانه في الشوارع وفي الصباح نفسه، ارتدى الحجاج المقيمون في مكة كلهم ملابس الإحرام في مساكنهم، وبدأوا بممارسه الشعائر المعتادة التي تسبق انطلاقهم إلى عرفات وعند منتصف النهار، اجتمعوا في المسجد حيث أقيمت خطبة صغيرة باندسبة. وكان الحجاج القادمون مع القافلة قد وضعوا الإحرام في عساف، قبل مكة بمحطتين. غير أن عدداً كبيراً منهم وخاصة الخدم وسائقو الجمال، لم يجمعوا ثيابهم العادية. حتى إنهم طهروا بها في عرفات دون أن يثيروا الدهشة أو السخط. فليس هناك شرطة دينية أو أي مباحث هنا، حيث يترك كل واحد لما يُمليه عليه ضميره بالإذعان لتعاليم الشريعة القرآنية أو تجاهدها.

وقد عمت الصوصاء في المدينة ذلك المساء، حيث كان الجميع يتحضر للرحلة إلى عرفات. وأتى الحجاج السوريون لحجز المساكن والاستعلام عن حان الأسواق وزيارة الكعبة للمرة الأولى. وقد عاود عدد من النجار المتجولين وأصحاب المتاجر الصغار ليستقروا في عرفات فيكونوا على استعداد هناك لتأمين حاجات الحجاج وفام عدد من سائقي الجمال في سوريا ومصر بعرص حملاتهم في الشوارع لتأجيرها إلى الحجاج الذين إلى عرفات وكانت الأجرة هذه السنة معتدلة جداً، بالنظر إلى العدد الكبير المتوفر من حيوانات التحميل. وقد استأجرت حمالين لأربعة أيام ذهباً ورياباً إلى عرفات مبلع ثلاثة دولارات.

في الثامن من ذي الحجة، في الصباح الباكر، مرت القافلة السورية عبر المدينة في موكب، وكان يرافقها الجند كلهم وعلى رأسها حمل الحمير وقد تركت أمتعتها في «الشيخ محمود» بستان الخيل التي شُصت في عرفات. وقد جلس أعين الحجاج في شبرية وهي أشبه بالهودج يوضع على الحمل أم كبار القوم وباشا دمشق نفسه فكانوا جالسين في تحتروان وهي نوع من حشالة مُعلقة أو هودج يجزوه جملاً، واحد من الأمام والآخر من الخلف، مما يشكل مكاناً مريحاً باستثناء الحاجة الدائمة إلى سُلّم يتمكن الشخص به من الصعود والبرول وقد رُيت رؤوس الجمال بالريش والأحراس. غير أن رؤوسها المحته أرساً كانت تُظهر مدى تعبها من الرحلة. وبعد مرور تلك الجمال، كان الناس من كل الطبقات، يصطلمون على جواب الطرقات ويلقون التحية على القافلة بهتافات عالية كما كانت الموسيقى العسكرية لباشا دمشق والألحان عشر حصاناً المكسوة ملابس فاخرة مرر كشة أمام هودجه والتحتروان.

العربية التي كانت بسوءه يحلس فيها، كن ذلك يفتُّ الأنظار بشكل خاص

ما إن مر اسوريون، حتى حق بهم موكب مصري وهو يتألف من المحمل أو الحمل مقدس (كان هناك حمل مقدس في كل قافلة منهما) ولشربات تابعة بموظفين العموميين الذين يُرافقون الحج دائماً؛ لكن أياً من الحجاج للحاصير لم يكن يُشاهد في تلك لشربات. كما أن المظهر الأنيق للحدود الذين يرافقونهما وعظمة المحمل والتجهيزات النعمة لأمير الحج، وهو قائد الحيازة الأثري ويدعي ذهبي، كن ذلك جعل المكيين يُظهرون علامات لتقدير كندك التي أظهرها آدم من سبهم مباشرة. وقد سمعت انفتحتان طريقهما إلى عرفات بلا توقف

قبل منتصف النهار، ركب كل ذلك كل الحجاج الذين أقدموا في مكة لبعض الوقت حملهم واحتشدوا في شوارع يسرعو في اللحاق بقافلة الحج وانضم إليهم الجزء الأكبر من أهالي مكة وقد أصبح الذهاب إلى عرفات سوية قاعده يديهم، إلى جانب عدد مائل من أهالي جدة الذين كانوا قد اجتمعوا هنا لبعض الوقت. وخلال خمسة أو ستة أيام، تقى أبواب جدة مغلقه بعد أن يكون قد هجرها العديد من الناس.

بعد منتصف النهار، عادت لمسكن سيراً على الأقدام مع مرافق وخادم يركبان جملين كندك قد أسأجرتهما من رجل سوري من حمص ويُعتبر انضمام بالرحلة إلى عرفات التي ستم ست ساعات، سيراً على الأقدام، عملاً يستحق لثواب، خاصة إذا كن الحجاج حافياً. وقد قام بذلك العديد من الحجاج، وقد قصت هذه الطريقة لأني عشت حياة حوس وارتياح لصعبة أشهر ومررت عدة ساعات قبل أن يبلغ نحوم مدينة الوقة حلف انعامه، حيث كان عدد الحملين كبيراً وقد وقعت عدة حوادث ومن الحجاج شبه المرأة الذين استقوا جميعاً لباس الإحرام الأبيض، جلس بعضهم يقرأون القرآن على جمالهم، وقام البعض الآخر بتلاوة لأدع بصوت عال، يسما شتم حرون سائقي جمالهم ونشجروا مع من هم بالقرب منهم الذين كانوا يُعقون المرور وتُسع الطريق حلف المدينة، وقد مررنا عبر الأودية بحطوط بضيئه حداد، ساعتين حتى وادي مبي حيث وقعت عند مدحه أصيقت بليلة كبيرة. ونفرض الشريعة على الحجاج أداء خمس صلوات عند وادي مبي كما كان النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - يفعل دائماً، أي أن عيهم أن يصعدوا إلى هناك عند لظهور في وقت صلاة الظهرية ويقولون حتى الصباح التالي فيتمكنون بالتالي من تذية صلاة العصر والمغرب والعشاء ومن ثم صلاة الفجر في اليوم التالي غير أن الإشكاليات التي تطرأ عادة من التأخر على الطريق أدت إلى إهمال هذه الشعيرة منذ فترة حلت من الزمن وتقر قوائم الحج الآن عبر مبي في طريقها إلى عرفات دون توقف.

بعد وادي مبي أصبح مسجد الزدلفة إلى يميننا، حيث ذهب العديد من الحجاج لتأدية صلاة

العصر والمغرب؛ إلا أن القافلة تابعت طريقها وحلف ازدلفه، دخلت مجدداً الجبل عبر المعبر المدعو المزومين (El Mazoumeyn) وخرجنا عن الجانب الشرقي منه إلى سهل عرفات. وهما، مؤ الحجاج بين العامودين المدعوين «العلمين»، وعند الاقتراب من سفح جبل عرفات، انتشروا على السهل بحثاً عن مكان يحتمون فيه. وصلت الخيتم بعد ثلاث ساعات من العروب، غير أن آخر الماصين لم يصلوا حتى منتصف الليل. وشوهد عدد لا يحصى من البيران التي أضرمت على مساحة من لأرض امتدت حتى ثلاثة إلى أربعة أميال صولاً، وحددت مجموعة من المصاييح العالية التوهجة، الأمكة المختلفة حيث حثم محمد علي وسليمان باشا وأمير الحج التابع للقافلة المصرية وشوهد الحجاج يتجولون بين الخيم في كل اتجاه بحثاً عن ملائهم الذين أصابعهم في رحام الطريق ومرث عدة ساعات قبل أن يهدأ الصحيح والجبنة. ولم يتم من الناس إلا القليل في تلك الليلة فقد ظل المؤسود مستيقظين يملون الأدعية، وكانت أصواتهم المرتفعة مميزة جداً باتجاه الخيم السوري خاصة وقام لرحول من المكبير بتشكيل مجموعات ليرددوا الأعيان المبهجة التي تُدعى حرق، يُرافقها تصفيق الأيدي. وكانت انقاضي المشترة على السهل تكتظ بالزبائن طوال الليل.

كنت الليلة مظلمة وباردة، وهطبت بعض قطرات لمطر الخيمية وقد أعددت مكاناً لي لمراحة بسجادة كبيرة ربطتها في الجزء الخلفي من خيمة أحد المكبير. وبعد أن تحولت في القسم الأكبر من الليل، وما إن محطرت نسوم، حتى أطلقت نثار من مسدسين عند القافلتين المصرية والسورية للإعلان عن دؤ فجر يوم الحج ومادة المؤمنين إلى صلاة العجر. ولتين الوصف التالي، أرفقت خريطة لعرفات، وتم شرح العلامات والرسومات التي تحتويها^(١).

- | | | |
|--|----------------------------|-----------------------------|
| (١) - حبر عرفات | ٢ - موضع صلاة محمد علي منه | ٣ - مضه الواعظ |
| ٤ - موضع ميلاد آدم | ٥ - جامع الصخرة | ٦ - وادي عرفة |
| ٧ - خيمة روجة محمد علي باشا | ٨ - القاعة المصرية | ٩ - خيمة محمد علي |
| ١٠ - مخيم خيالة محمد علي | ١١ - القافلة السورية | ١٢ - خيمة سليمان، باشا دمشق |
| ١٣ - مخيم خيالة سليمان باشا | ١٤ - خيمة عائلة جيلالي | |
| ١٥ - مخيم كبار أهل مكة والخبيل الأتراك الذين لم يأتر مع القافلات | | |
| ١٦ - مخيم الهند والطبقة الدنيا في مكة حيث توقفت أنا نفسي | | ١٧ - السوق |
| ١٨ - منزل الشريف | ١٩ - خيمة الشريف يحيى | ٢٠ - مخيم البدو |
| ٢١ - مسجد وجامع عرفة | ٢٢ - العلمين | ٢٣ - بر باران |
- a-a-a. حرانات مياه

مخيم القافلات ومجموعات مسوعة من الحجاج في أماكن بينها، تماماً كل عام وتختيم القافلة العارسية عند وصرها من معاد بالقرب من منزل الشريف عند المكان المحدد بعلامه (b) والقائه البهنية عند (c). وأنا كنت محباً عند (d)

THE PLAIN OF ARAPAT

(- with the -)

(LINE OF THE PHILADELPHIA)

814

Road from Mount Zion and Jericho to 23

L. 21

Road to Tyre



عند شروق شمس اليوم التاسع من ذي الحجة، خرج كل حاج من حيمته ليسير على السهول ويلقي نظره على الحشود المشغلة بمجتمعة هناك. وتؤم صفوف طويلة من الحميم، التي أعدت لتشكّل أسواقاً، كل أنواع المؤن. وكان قائد فرق الحيانة في الماهلتين المصرية والسورية قد درّب جندهم في الصباح الباكر، بينما كانت تشاهد آلاف الجمال يرعى العشب الجاف في السهل حول الحميم. وقد صعدت جبل عرفات لأستمع بمنصر عام شامل ومميز من على قمته وترتفع هذه التلة الصحيرية التي ندعى أيضاً جبل الرحمة، على الجانب الشمالي الشرقي من السهل بالقرب من سبخال نتي تحيط بها لكن يفصلها عنها وادي صحري، ويلعب محيطها ميلاً أو ميلاً ونصف وحواليها محدرة وترتفع قمتهما بحر مائتي قدم فوق مستوى السهل. وتؤدي درجعات حجرية عريضة على الجانب الشرقي منها إلى القمة. كذلك، يؤدي الممر العريض غير المعتد على احاسب الغربي إلى كتل صحيرية غليظة من العرايت عُطيت بها محدراتها. وبعد صعود نحو أربعين درجة، نصل إلى بقعة ممتدة قليلاً إلى اليسار تدعى مدعى سيدنا آدم، أو مكان صلاة سيدنا آدم، حيث يُروى أن أب البشرية كان يقف عند الصلاة وقتها، حسب الثغور الإسلامي، علّم الملاك جبرائيل آدم رز، مرة كيف بعد خالفه. وقد رُكّرت قطعة من الممر على جانب الجبل، تحمل نقوشاً بأحرف حديثة. وعند بلوغ الدرجة الستين تقريباً، نصل إلى منصة صغيرة معدة إلى يمينا، على بقعة مستوية من التلة، حيث يقف الراجع الذي يحذر الحجاج في ظهيرة هذا اليوم، كما سأذكر لاحقاً. عند هذا المستوى من العلو تكون الدرجات عريضة وسهلة بحيث يكون من اليسير على حصان أو حمل صعودها؛ لكن، كلما صعدنا عالياً أُمست الدرجات أكثر انحداراً وأقل استواءً. ويظهر على لقمة المكان الذي كان محمد - صلى الله عليه وسلم - يتحده محطة له خلال الحج؛ وكان فيه مقام صغير في السابق، ولكن الوهابيين هدموه وبصّنيها الحجاج عادة ركعتين تحية عرفات وتعطي الدرجات وقمة مبادئ وصفت لاستقبال هداياهم الدينية. إن كل عائلة من عائلات المكين أو البدو المتصبر إلى قبيلة قريش، والتي يقع عرفات في أراضيها، تملك موضعاً خاصاً لهذا الغرض. وتُشرف لقمة على منظر متفرد واسع. وقد أثبتت سؤصتي كي أحدد دائرة من لوجهات والمواقع، لكن الحشد كان من الكثير بمكان بحيث تعسر عليّ استعمالها. وبحو الصرف الغربي من السهل، يرى بئر باران (والغلميش)، وعلى مسافة أقرب، باتجاه الجنوب، يقع المسجد المدعو جامع عمرة. أو جامع سيدنا إبراهيم؛ وفي الجنوب الشرقي يقع مرل اعناد الشريف السكر فيه خلال الحج ومن هناك تمتد أرض صحيرية مرتفعة في السهل باتجاه عرفات وعلى الجانب الشرقي من الجبل، قريباً من سفحه، هناك أنقاض مسجد صغير بني على أرض صحيرية ويدعى جامع الصحرة حيث اعتاد محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يصلي وحيث يؤدي الحجاج أربع ركعات تحليداً

لذكرى السي^(١) وتشر عدة حروب مياه مرصوفة بالحجر فوق السهل، وهناك اثنان أو ثلاثة بالقرب من مفتح عرفات، وأخرى قرب منزل الشريف وهي تملأ من القناة نفسها التي ترؤد مكة بمياه والتي يقع رأسها على بُعد ساعة ونصف في الجبال الشرقية. وتترك هذه القناة مفتوحة لتأمين الراحة للحجاج، ويتم حرقها حول جوارب الثلاثة بسجبل مروراً بمدعى سيدنا آدم^(٢)

وقد أُنصبت، من على قمة عرفات، نحو ثلاثة آلاف حيمة منتشرة فوق السهل، يعود ثنائها إلى قائلتي الحج وإلى جنود محمد علي وحاشيته؛ وما بقي منها يعود إلى عرب أشريف والحجاج البدويين وأهل مكة وجده. كانت هذه الجناهير محتشدة دون حيم في قسمها الأكبر، مثلي^١، وقد حُصت بقامتان دومتان نظام محدّد. يمكن مجموعة من الحجّاح أو الحُد قد نصبت حيمها في دوئر كبيرة كانت جمانهم تسريح وسطحها. وكان هناك في السهل من عشرين إلى خمسة وعشرين ألف حبل في أجزاء مختلفة منه، وكان اثنا عشر ألفاً منها تعود إلى النقابة السورية، ومن خمسة إلى ستة آلاف إلى النقابة المصرية؛ فضلاً عن نحو ثلاثة آلاف اشتراها محمد علي من البدو في الصحاري السورية وأنى بها إلى مكة مع عائلة الحج سفل الحجّاح إلى هذا. فكان قبل أن يتم استئجارها في نقل مؤن لجيش إلى الطائف

كانت النقابة السورية مخبئة في جانب الجنوبي والجنوبي العربي من الجبل؛ والنقابة المصرية في جانب الجنوبي الشرقي وحول منزل الشريف كان يحيى نفسه مخبئاً مع برف البدو حاصته، وفي جواره كان أهل الحجر كلهم. وهنا كانت تتركز في السابق لقائتان البصير كما كان محمد عبي وسيدمان باشا دمشق والعديد من صفتهم حيم بالعه لأفاده غير أن أشدّها روعة كانت لروحة محمد عبي، والدة طوسون باشا وإبراهيم باشا التي كانت قد وصلت مؤخرًا من القاهرة لنادية الحج مع تجهيزت مكينة، حيث كان هناك خمسمائة من الحمال سفل أمتعتها من حدة إلى مكة. وكانت حيمتها في الموقع عبارة عن محتم مؤلف من اثني عشرة حيمة بأحجام محتفه تسكنها ساوهد، ويحيط بها جدار من الفماش القصي يبلغ محيطه ثمانمائة خطوة؛ وكان يحرس مدخلها الواحد حصن في ثياب رائعة. وحول هذا السبج نصبت حيم الرجال الذين يشكلون حاشيتها الكبيرة. إن المنظررات لحميه على لجهه الخارجية من هذا القصر القطبي، والألوان المتسوعة التي تظهر على كل جزء منه، شكّلت مطراً أعادي في الذكرى إلى بعض الوصف في روايات ألف ليلة وليلة العربية. ومن بين التجهيزات لمية الخاصة بالحجاج آخرين أو بأهل مكة، لم تكن أي منها أكثر بروزاً كذلك التي نحضر عائلة

(١) ليس في الإسلام صلاة لتخليد الذكرى

(٢) حتى نهاية القرن السادس عشر، حسب قطب الدين، كان يتم زراعة كل سهل عرفات

جبلاني، التاجر الذي كانت خيمه منصوبة في شكل نصف دائرة ضاهت في جمالها وروعها بحيم الباشاوات وفاقته بدرجات نخيم الشريف يحيى. في أحراء أخرى من الشرق، يفكر التاجر بشراء جبل يلقه على عنقه ما إن يفكر في عرض ثروته وعنه هي حضرة أحد الباشاوات؛ إلا أن جبلاني لم يكن قد ألقى جانباً العادات التي تعلمها المكيون في ظل حكومتهم القديمة، خاصة حكومة الشريف غالب الذي كان نادراً ما يتزعج بمشكلات الأفراد؛ وهم يعتمدون على وعود محمد علي باحترام ممتلكاتهم.

تخلان الصباح بأكمله، ثم إطلاق النار تكراراً من المدفعية التي أتى بها كل من الباشاوات معه. وقد اتحد بعض الحجاج مساكن لهم على جبل عرفات نفسه حيثما وجدوا كهماً صغيراً أو كتلة متدلية من الغرائب، تحميهم من الشمس. وهناك معتقد شائع عامة في الشرق يقو به العديد من الحجاج المتباهين عند عودتهم إلى بلادهم، وهو أن الحجاج كلهم في هذا اليوم يحثمون على جبل عرفات، وأن لجبل يملك ميزة عجائية تمكنه من الاتساع والامتداد بحيث يحتوي عدداً غير محدد من المؤمنين على قمته. وتعرض الشريعة بأن تتم «الوقوف» التي يؤديها الحجاج، على جبل عرفات؛ غير أنها تنجب بحكمة أي استحالة لتنفيذ ذلك من خلال اعتبار السهل المجاور مباشرة للجبل داخلاً في نطاق تسمية «الجبل» أو جبل عرفات.

وقد قدر عدد الأشخاص المحتشدين هنا نحو سبعين ألفاً وكان الحميم يبلغ طوله من ثلاثة إلى أربعة أميال ويتراوح عرصه من ميل إلى ميلين. وقد لا يكون هناك أي بقعة على وجه البسيطة يتساهى فيها إلى الأذن تنوع لعوي يمثل ذلك الحجم في مكان بهذا الصغر. وقد تعرضت أربعين لعة لكني لا أشك في أنه كان هناك العديد من السمات الأخرى. وبدا لي أنني وُضعت هنا في معبد مقدس للرحالة فقط؛ ولم أشعر أبداً في أي وقت من الأوقات برعة عارمة كنتك التي تملكنتني في التمكن من الدخول إلى المناطق النائية في بلدان العديد من أولئك الأشخاص الذين أراهم الآن أمامي، وأنا أتحتل بشعب أنني لن ألقى صعوبة في بلوغ أوطانهم أكثر من تلك التي خيروها في رحلتهم إلى هذه المنطقة.

وحين يشغل الدهن يمثل هذا العدد الكبير من الأمور الجديدة، يمر الوقت بسرعة فائقة. فما لبثت أن هبطت من جبل عرفات وتحولت لبعض الوقت في الحميم هنا وهناك. اتحدت مع الحجاج وأبحث في الحميم السوري عن بعض الأصدقاء وأنقصي الأحبار عن الصحاري بين البدو السوريين. حتى كان قد مر منتصف النهار ويجب أن تتم تأدية صلوات هذه الفترة من النهار إما داخل جامع نمرقة وإما في المنطقة الملاصقة له، حيث أتى الباشاوان لهذا الغرض. غير أن العالوية الساحقة من الحجاج تدع هذه الشعيرة ويُعمل العديد منهم صلاة الطهيرة كلها،

حيث لا أحد من يشعل نفسه بحرقه دقيفاً ثم لا في تأدية لشعائر المفروضة وبعد منتصف النهار، على الحجاج الاعتسار وتطهير الجسد من حلال الاعتسار المعروف في الشريعة ويُدعى «العسل»، وقد نُصب الخيم العديدة في أسهل لهذا الهدف خاصة كثر الجو كان عائماً ومائلاً إلى البرودة ثم حذر بتسعة أعشار الحجاج الذين يرتفعون تحت لعطاء لرفيق الإحرام، إلى إعمال هذه الشعيرة أيضاً وإلى الاكتفاء بالوصوء الاعتيادي. وكان قد اقترب وقت العصر (أو نحو الساعة الثالثة من بعد الظهر)، وهو الوقت الذي تُدرس فيه هذه الشعيرة، وقد أتت الحشود كلها إلى هنا لهذا لعرض، وبدأ الحجاج الآن بالتقدم نحو جبل عرفات وعطوا جوبه من الأعلى إلى الأسفل وفي الوقت المحدد تماماً للعصر، اتحد الواعظ موصيه على المنصة على الجبل وبدأ في محاضرة الجماهير وشكل هذه الشعيرة التي تستمر حتى معبد الشمس الشعيرة المقدسة في الحج التي تُدعى حطة الوفاة فلا يستطيع أي من الحجاج حمل لقب حجاج إلا إذا كان حاضراً في هذه المنصة، حتى وإن قام بريرة كل الأمكة المقدسة في مكة ومع قرب العصر، أريست الخيم كلها وتم توصيب الأعراض كلها وبدأت القوافل بالتحميل وامتص الحجاج جمالهم واحتشدوا حول الجبل ليكسبوا على مرمى نظر الواعظ. وقد يكفي لأن الجزء الأكبر من الجماهير بعيدة جداً بحيث يتعذر سماعها. واتحد الناسون مع فرق الخيالة الدبعة بهما كنها والتي صطف في وحدتين خلفهما. موقعهم في مؤخرة صفوف الجماد الطوبى للحجاج، والتي تضم إبيها أهالي الحجاز، وهؤلاء، ينظرو بصمت رزين وتقي انتهاء الخطبة. وكان الشريف يحيى مع فرقة حمده الصغيرة، على مسافة أبعد من الواعظ، وقد برر من حلال عدة أعلام حُصِر تحملت أمامه وحملان أو حملان المقدسات البدان بحملان على ظهرهما انهيكل المرتفع الذي يمثل شعار قافلتيهما المتنايتين، كان يشق طريقهما بصعوبة عبر صفوف الجمال التي أحاطت بحواش لينة الجيوبية والشرقية، في مقابل الواعظ، واتخذ موقعهما يحيط بهما الحرس مباشرة تحت منصة أمامه (١).

(١) إن المحقق (الذي قدمه نه درسون D'ohsson وصفاً دقيقاً) هو إلهار مرتفع ومجوف خشبي، له شكل مخروطي وقمتا هرمية الشكل معطاه بمماش حريري داخر ومطرز قد رُيت بريش النعام، ووضع في وسطها كتاب أدعية صغير وتماثيل نُقِب بقطعة قماش حريري (الوصف الذي قدمته مأخوذ عن شخص مصري) وهو يشكّل على الطريق رية أو شعار معداً لتعزية بعد عبور القافلة «مررة» يُمرر كتاب الأدعية في سجدة «عسيرة» في القاهرة حيث يسحب الزجان والنساء من نبطية الدنيا تعبيلة ويصنوعون على البركة من حلال مرك جيبهم عليه وليس هناك أي نسخة من القرآن أو أي شيء آخر في محفل القاهرة سوى كتاب الأدعية هنا وقد أعلن الوهابيون أن هذه السيرة في الحج هي بدعة عديم الجدوى تعود جذورها إلى الوثنية وهذا من روح دين الخبيثة وكتاب مدمر، نكت السيرة إحدى الأسباب الرئيسية التي دعت بالوهابيين إلى منع القوافل من الذهاب إلى مكة في العرون الأولى للإسلام، ثم يكن للامويين ولا عباسيين أي محفل يُدعى ويعزل المقرري في محله «حول الخلاء» بالسلاحه الذين أذو الحج شخصياً، إن القاهرة يبرز، سلطان مصر، كان أول من أدخل شخص نحو سنة ١٦٧٠هـ. ومنذ ذلك الوقت، عبر كل السلاطين الذين أرسلوا قواتهم إلى مكة

كان الواعظ، أو الخطيب، وهو عادة قاصي مكة، يركب جملًا مزينًا بأناقة وقد سبق لصعود الدرجات. ويؤمن أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - كان يجلس هه دائماً حين يتوجه إلى الميمنة، وهي عادة دأب عليها الخلفاء كهم الذين أتوا إلى الحج وحطوا في الناس من هه شخصياً. غير أن السيد التركي القادم من القسطنطينية، وغير اعتاد على ركوب الجمال، لا يستطيع البقاء جالساً كما دأب على ذلك لبي البدوي القوي؛ وبعد أن يفقد السيطرة على جملة، يكره على الترحل عنه. ويقرأ عظته من كتاب «باللغة العربية يُمسكه بيديه، فيتوقف هبة عدد كل أربع أو خمس دقائق ليمد ذراعيه إلى الأمام صاناً البركة من السماء يسما تلوح اجموع احتشدة حوله وأدمه بالإحرام فوق رؤوسهم ويملأون الأجواء بدعاءاتهم «لبيك اللهم لبيك»، وبدا جاذب الجمل المكتظ بكثافة بالجماهير المكشبة بالثوب الأبيض خلال التلويع بالإحرام، كشلال ماء؛ يسما كانت المظلات الخضراء التي ترود بها عدة آلاف من الحجاج يجالسون على جمالهم في الأسفل، شبه سهلاً مكسواً بالخضرة

حلال عظته التي استمرت ثلاث ساعات تقريباً، بدأ القاصي باستمرار يسمح عييه بمعدل، لأن الشريعة تعرض على الخطيب أو الواعظ بأن تمض نفسه بالأحاسيس ومشاعر الندم والتوبة^(١)، وبأنه كلما بدت الذمير تعسل وجهه، يكون ذلك إشارة بأن الله يُبهر بصيرته وأنه ميسنجيب إلى صوته ودعائه. وقد بدأ الحجاج الذين وقفوا بالقرب مني على كتل العربيت الكبيرة التي تكسو جوانب جبل عرفات، عظامر متعددة. فكان العض، وأعليهم من الأجاس، يكي بصوت عال، ويوحون صاريين على صدورهم معترفين أمام الله وفقرين بأثامهم؛ ووقف البعض الآخر (وهم الأقل عدداً) متأملين بصمت واندموع تفرق في أعينهم. ركان العديد من أهل الحجر ومن جرد الجيش التركي يتحدثون في هذه الأثناء ويضحكون؛ وكانو كلما قام الآخرون بالتلويع بالإحرام، يقومون بحركات عييه كما لو كانوا يهرزون من هذه الشعيرة. وقد شاهدت في الخلف، على التبة عدة مجموعات من العرب والحمد يدخون (ماركيتهم) بهدوء. وفي كهف مجاور، كانت تجلس إحدى نساء الهوى تبغ القهوة، وكان روارها، عبر

ذلك الأمر مرة حة بإسار واحد مع كل قافلة كعلامة على موكبهم الشعبية وقد أتى أول محفل من البس سنة ١٩٦٠ هـ وسنة ١٠٤٩ هـ أتى المؤيد بالله مثلك فيس وإمامها الذي جهر علانيه بالمشهد الريدي، برفقة محفل إلى عرفات؛ كما كانت قافلات بغداد ودمشق والناصرة نعل واحداً معها. سنة ٧٣٠ هـ أحضرت قافلة بغداد واحداً إلى عرفات على من (انظر الأعصم). أنا أعتمد أن هذه العادة بدأت من راية الحرب عند البدو التي تُدعى مركب وعظمه (Merkeb and Otfe)، والتي ذكرتها في ملاحظاتي حول البدو، والتي شبه المحفل حيث أنها إشارات عشبية مرتفعة موضوعة على ظهر الجمال

(١) الشريعة لا تعرض ذن

ضحكاتهم العالية وسنوكهم المشاعب، عاباً ما يقاطعون الحجاج بالقرب منهم في تعبتهم الصادق^(١). وكان هذا عدد من نس وقد بدو في ثيابهم العادية وسحر انتهاء العظة، بدأت الأعسة الساحقة من الخشود وقد أُلِّم بها الضحى، فهبط العديد منهم الجبل قبل أن يُبهي الخطيب كلامه. نكر نجر الإشارة ها بأن الخشود الملتمة على الجبل كانت في حزنها الأكبر من الطبقات الدنيا، حيث أن الحجاج الأثرياء ذوي المنزلة الرفيعة كانوا يركبون جملهم أو حبلهم في السهل.

بعد فترة من الزمن، بدأت الشمس تغيب خلف الجبال الغربية، حين تلقى القاضي بعدما أعلّق كتابه، آخر ملاحظة «بيك»، وأسّرت الخشود بالزور معطرة عذوت. ويُعتبر الإسراع في إتمام ذلك في هذه المناسبة عملاً يستحق الثوب، ويحمل العديد من الأشخاص من ذلك سيفاً كاملاً يدعوه العرب «سفرة من عرفات». في السابق، حين يحدث أن تكون قوة لقائتين السورية والمصرية متعادلة تقريباً، كانت تقع شجرات وعراكات دموية هنا كل سنة تقريباً بينهما، حيث تسمى كل فئة واحدة لنسب الأخرى وتُجمل محمداً يتجاور الآخر ويتقدمه ويحدث الأمر نفسه حين يقترب الحملان من منصة عند بدء العظة، وقد أُرهب في إحدى المرات ماثلاً روح ثمناً لما كان يُعدُّ شرف القافلة. وتسود سطة محمد علي في الوقت الحاضر، ويُظهر الحجاج السوريون تواضعاً كبيراً.

وتتقدم الآن على السهل القوافل المتحدة وخشود الحجاج كلها، وقد وُصفت كل حيلة مسيئة كي يكون الجميع حاضرين للحدث ويتدافع الحجاج عبر العنبر حيث يجب أن يمرّ ثابته عند عذوتهم وهبط الليل قبل أن يملأوا المر لصيق المدعو المزومين El Mazoumeyn ويتبع الآن إضافة أعداد لا تُحصى من المشاعل وتُحمل أربعة وعشرون منها أدم كل باشا، فتتطاير منها النيران بشراراتها بعيداً فوق السهل، وتُطبق المدافع باستمرار، كما أُطلق الخود النار من يادقهم وعرفت حققتا الباشاوين المسكرين، وأطلقت في لسماء أسهم نارياً من ضباط الباشا والعديد من حجاج، بينما كانت قافلات الحج تمر بحظي سريعة وبموصى عارمة، وسط صخب وحلبة تُصم الآذان، عبر مر المومين المؤدي إلى مردلفة، حيث ترتحل الجميع بعد ساعتين من المشي. ولم تتم مراعاة أي نظام عند التحميم؛ فكان كل واحد يستنقي على أول بقعة يلقاها، كما لم تُصعب الخيم بامشاء خيم البشاوات وحاشياتهم. وقد تمّ إشعال المصابيح في شكر قناطر مرتفعة استمر في الانقاد طوال الليل بينما تواصل إطلاق المدفعية دون أيما انقطاع.

في خصم القوصى التي تفرق الوصف والتي أُنسم به رحيل قوافل الحج من عرفات، أصابع

(١) لا يقوت القارىء المتأمل هدف المؤلف السوء من تكرار مثل هذه العبارات.

لعديد من الحجاج جمالهم، وسمعناهم ينادون سائقهم عالياً وهم يبحثون عنهم في السهل، وكنت أنا نفسي واحداً منهم. حين ذهبت إلى جبل عرفات، أمرت سائقي وخادمي بالبقاء على استعداد على البقعة التي كانوا عليها آنذاك حتى أعود إليهما بعد مغيب الشمس؛ لكن ما إن تركتهما حتى رأيا لجمال المحملة الأخرى تندفع بسرعة باتجاه الجبل، فلاحقا بهما، وعند عودتي إلى المكان الذي تركتهما فيه، لم أجدهما. وكنت بذلك مجبراً على السير إلى مزدلفة حيث كنت على الرمال، يعطيني لباس الإحرام ليس إلا، بعد أن بحثت عن رملاتي لساعات عدة.

في العاشر من شهر ذي الحجة، أو يوم العيد المدعو «بهار الضحية» *Nehar el Dhahye* أو يوم البحر. أيعظ مدفع الصباح الحجاج قبل العصر. ومع بروع النهار، اتخذ العاصمي موضعه على المنصة المرتفعة التي تحيط بمسجد المزدلفة، والتي تُدعى عادة «المشعر الحرام» *Moshar el Haram*، وبدأ حصته المشابهة لتلك التي ألقاها في اليوم السابق. وأحاط الحجاج بالمسجد من كل جوانبه بمشاعل مضائة ورافقوا الخطبة بالمساجاة نفسها «ليث اللهم ليثك». وعلى الرغم من أن هذه الخطبة تمثل إحدى الواجبات الأساسية في الحج، فقد بقيت الأعلى الساحقة من الحجاج إلى جانب أمتعتهم ولم يحصروها. وليس الخطبة طويلة جداً حيث تدوم فقط من ابتلاع الحجر حتى شروق الشمس؛ وهي فترة أقصر طبعاً في هذه المنطقة منها في بلادنا الشمالية. وتؤدي صلاة العيد الحشود كلها في الوقت نفسه حسب شعائرها. وحين تسلمت أولى حيوط الشمس عبر السماء الغائمة، انطلق الحجاج بخطوات بطيئة باتجاه وادي مبي الذي يعد من هنا مسافة ساعة واحدة.

عند بلوغ وادي مبي، حثمت كل أمة على البقعة التي اعتادت أن تحجم عليها عند كل موسم حج. وبعد يداغ أمتعتهم، أسرع الحجاج لتأدية شعيرة رمي الحصى على الشيطان أو رجم الشيطان. ويُقال أن إبراهيم، حين عاد من الحج إلى عرفات ووصل إلى وادي مبي، ظهر له إبليس عند مدخل الوادي ليعيق مروره؛ فنصحه الملاك جبرائيل الذي كان يرافقه برجم الشيطان بالحصى. ففعل؛ وبعد أن رجمه سبع مرات، تراجع إبليس. وحين بلغ إبراهيم وسط الوادي، ظهر له الشيطان مرة ثانية، ومرة أخيرة عند طرفه العربي، وكان عند كل مرة يتراجع بعد رمي العدد نفسه من الحصى. وحسب الأُرقي، درج العرب الوثنيون، تحليداً لهذه العادة، على رمي الحصى في هذا الوادي عند عودتهم من الحج؛ ووضعوا سبعة أوثان عند وادي مبي، كان منها واحد عند البقع الثلاث حيث ظهر الشيطان، فيرمون عند كل واحدة بثلاثة حصوات.

وقد راد محمد، الذي جعل من هذه الشعيرة إحدى الواجبات الأساسية في الحج، عدد الحصى إلى سبعة. ويقوم عمود حجري فقط، أو مذبج، عند مدخل الوادي باتجاه المزدلفة،

يرأى ارتفاعه بين سنة إلى سبعة أقدام، ويقع وسط الشارع وتُرمى عليه أوان سلع حصوات، كونه المكان لأول الذي ظهر فيه الشيطان. وهناك عمود مائل نحو وسط الوادي، ويقوم عند طرفه عربي حذار حجري شيد للعرض نفسه. ويحتشد الحجاج بتعاقب سريع حول العمود لأول ندعو «الحجرة الأولى»، ويرمي كل واحد بالتالي سلع حصي صغيرة عليه، ثم يتقنون إلى القعة الثانية ثم الثالثة (التي ندعى «حجرة الأوسط»، و«حجرة اسفلى» أو «العقبة» أو «الأقصى»، حيث نكرر لشعيرة نفسها وعلى الحجاج أن يقولوا عند رمي الحجارة «بسم الله والله أكبر (معنى ذلك) يعود الله من الشيطان وجده» ويجب أن يكون حصي المستعملة بهذا العرض بحجم حبة انفاصوساء الكبيرة أو نحو ذلك؛ ويُصنع الحجاج بحجمها في سهل المردلفة، لكن بإمكانهم أحدها من وادي مبي، لكن، خلافاً لشريعة، يجمع العديد من الناس تلك التي سبق رميها.

بعد أداء فريضة الرُحِم، يدبّع الحجاج لحيوانات نبي أنوا بها للتصحية، إن المستمعين كنهم، من أي بقعة من العالم أنوا، مُرمون في هذا بوقت بتأدية الشعيرة نفسها. وكنت جاهرة بهذه المناسبة بين سنة وثمانية آلاف حروف وماعر، تحب رعاية ميسو (الذين يطلبون ثمناً سهلاً فيها) ولا يصح مراسم التصحية بداتها لأي شعائر أخرى غير إداره وجهه الصحية نحو لسله أو الكعبة، وقول «بسم الله الرحمن الرحيم، الله أكبر» عند قطع العنق وبمكس اختيار أي مكان لتصحية التي تؤدي في كل روية من وادي مبي، غير أن المكان المفصل هو صحرة «عمة» ملساء على طرفه العربي حيث ذبحت هذه آلاف من الخراف في ربع ساعة^(١).

وما إن ينتهي تقديم لأصاحبي، حتى يُرسل الحجاج في طلب الاخلاق أو يذهب إلى متاجرهم التي أقيمت صفوف منها من ثلاثين إلى أربعين قرب المكان المفصل للتصحية فيقومون بحل رؤوسهم باستشاء أهل المذهب الشعبي الذين يحلقون فقط ربع رأسهم ها ويحتفظون بالأربع الثلاثة المتبقية حتى ينتهوا من زيارة الكعبة، بعد العودة إلى مكة^(٢) فيحلعون الإحرام ويرتدون ثيابهم الاعتيادية؛ ومن يستطيع منهم تحمل نفقات ثياب جديدة يشترىها إذ إن اليوم هو يوم عيد وما إن انتهى الحج حتى تبادل الحجاج كلهم التهاني والتعنيات بقبول الحج من الله. فعارة «تقتل الله» تُسمع في كل حاسب وقد بدا للجميع راضين. لكن تذكر لم تكن حالي حيث دعت كل جهودني لإيجاد جمالي ها بالعسل بعظم الخشود

(١) بروي طلب مبي أنه حين قام الحليفة لمقتدر بتأدية الحج بحرة ٢٥٠ هـ، فذم في ذلك اليوم أربعين ألف حسن، بعره، وخمسين ألف حروف، أحسن الآن مديح الأثر، جمال ويمكن أن يسم الدبح «الركاء» أو الصبر.

(٢) يبدو جهل المؤلف بالعقبة وأصحابها فلسفي أن يحلق أو يقصر. - ولعمري كذلك

التي ملأت الوادي. وبسما كان الحجاج يردون ثيابهم، كثر مُجبراً على التحول بالإحرام. والحس، لاحظ، فإن محفظة المال التي عنقها حول عنقي وفق عادة الحجاج (بما أن الإحرام لا جيوب فيه) مكنتني من شراء حروف للأصحية ولدفع أجرة حلاق. ولم أجد زملائي إلى ما بعد مغيب الشمس، وقد خيمر، على جبل الشمالي وكانوا طوال الوقت قنفذ علي.

بقي الحجاج ليومين آخرين عند مبى. وتاماً عند منتصف النهار، في الحادي عشر من ذي الحجة، يتم مرة ثانية رمي سبع حصي صغيرة على لأمكنة الثلاثة التي ظهر فيها الشيطان، ويتم الشيء نفسه في الثاني عشر من ذي الحجة، بحيث يصبح عند الحجارة لرمية ثلاثاً وستين حصاة خلال ثلاثة أيام. بعد الرجم لتكرّر ثلاث مرات يُرمى في كل مرة إحدى وعشرون حصاة ويجهل العديد من الحجاج الفحوى الدقيقة للشرعة فيما يتعلق بذلك، كما يفعلون فيما يحتصر بعدة نقاط أخرى في شعائر الحج، فيما يقومون برمي الحجارة في الصباح الباكر بدل منتصف النهار، وإما لا يرمون العدد المحدد المفروض. ثم تعود قوافل الحج إلى مكة في فترة ما بعد الظهر، وذلك بعد إتمام الرجه الأخير في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة.

إن مبى^(١) واد صيق يمتد في خط مستقيم من العرب إلى الشرق، ويبلغ طوله نحو ألف وخمسمائة خطوة فيما يتبين عرصه. ويحيط به من جاسر أجراء من العربيت الحادة والقاحنة وهناك صف من الأبنية المهذمة بأكبرها، وتقع على طول المنطقة الوسطى من الوادي، على جانبي امر ويملك تلك الأبنية مكثيون أو بدو من قبيلة قريش، فيما يؤخرونها أو يشعلونها هم خلال الأيام الثلاثة من الحج، ويتركونها حاوية فيما تبقى من السنة، حين يكون وادي مبى غير مأهول بالناس. وقد بُني بعض تلك الأبنية من الحجر الجيد نوعاً ما بعنو طابقي، لكن لا تتم المحافظة إلا على نحو عشرة منها في حالة جيدة جداً وعلى الطرف الشرقي البائي من الوادي، يقوم مرل جميل يملكه احاكم شريف مكة لدي يقطعه عادة خلال تلك الأيام. وتشعله الآن ساء محمد علي، حيث إن الشريف يحيى، بعد أن حلع الإحرام، عاد إلى مكة حيث يذهب كذلك العديد من الحجاج مباشرة بعد تلك الشعيرة؛ غير أنهم مُلزمون برحلة وادي مبى مرة ثانية عند ظهر اليوم الحادي عشر أو الثاني عشر من هذا الشهر لرحم الشيطان، بما أن إهمال هذه الشعيرة قد يجعل من الحج عملاً ناقصاً. ثم يمكنهم فيما تبقى من هذين اليومين أن يذهبوا أينما شاؤوا. وفي مساء يوم التصحية، يذهب الحجاج التحار عادة إلى مكة كي يتمكنوا من إفراغ البضائع التي شتروها هناك. وفي المساحة المكشوفة بين مرل الشريف ومساكن المكثين،

(١) يُقال إن هذا الاسم أتى من آدم، الذي، خلال إقامته في الوادي، حين سأله الله طلب عسمة، أجاب وأتمس الجنة فأخذ هذا المكان بسميته من هذا الجواب ويقول آخرون إنه أخذ اسمه من تدفق الدماء في يوم التصحية

يعوم المسجد المدعو «مسجد الخيف»، وهو بناء متين صلب ويحيط بهناء المكشوف فيه جدار صلب ومرتفع وفي وسطه، سيل ماء عام تملؤه بية صغيرة؛ ويملاً جانب لعربي حيث يقوم سير اخصة صباً أعمدة مثلث، والمسجد قديم جداً، وقد أعيد بناؤه حديثاً سنة ١٥٥٩هـ. بأمر من صلاح الدين الشهير، لكنه بُني في شكله الحالي بأمر من قائد بك، سلطان مصر سنة ٨٧٤هـ وحسب العاسي، يُقال أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - تلقى الوحي عدة مرات من الله على سطح لجبل حلفه، وإذ آدم ووري الثرى في المسجد. وإلى جانبه حزان مياه وصعبه كذلك قائد بك، حسب ما ذكر قصب ندين، وهو حاف تدمراً الآن، فصلاً عن آخر مماثل حيث حُتّت انقافة السورية إل انقص في المياه في وادي مبي قد أُحير الحجاج الفقراء على العمل عسقة، فكثروا يأتون بالقليل منها إم من المردفة وإما من الحزان الواقع حلف مبي، على الطريق إلى مكة، وكانت ثباع قرية المياه بأربع ليرات. وهي زمن العاسي، كان هناك خمس عشرة بئراً للمياه المالحة عند مبي، حيث يبدو أن مياه تتوافر إلى عمق معتد في المنطقة كلها حول مكة.

ويظهر في البيان المرفق كل ما يحذر ذكره في بلدة أو قرية مبي^(١). وكان منزل جبلاي، وهو الأفضل يكتظ باستمرار بالزوار الذين كان يُعاهد بهم بسحاء وكانت تجاوره منزل القاصي

(١) يشير الرقم.

- | | |
|---|--|
| ١ - إلى منزل الشريف | ٢ - خيمة محمد علي بك |
| ٣ - خيمة محمد علي باشا | ٤ - القافلة المصرية |
| ٥ - خيم سليمان باشا وحاشيته | ٦ - خيمة أحمد بك، قافل الخيالة السورية |
| ٧ - القافلة السورية | ٨ - الخيالة السورية |
| ٩ - الجامع المدعو مسجد الخيف | ١٠ - خزانات مياه جافة |
| ١١ - مخيم الحجاج اليهود واليمن والبروج الفقراء | ١٢ - منازل مهتمة يشغلها المكيون |
| ١٣ - خيم عبارة عن مقاهي | ١٤ - منزل التاجر جبلاي |
| ١٤ - أول عمود للرجم | ١٥ - منزل التاجر جبلاي |
| ١٦ - صف متاجر | ١٧ - عمود الرجم الثاني |
| ١٨ - منزل قاضي مكة | ١٩ - باحة أو فناء مسقوف، فيها متاجر على الجانبين |
| ٢٠ - مسجد مهتم | ٢١ - منبر كبير، حيث تُعرض التجارات المتحبات |
| ٢٢ - منزل سقايا تاجر ثري من مكة | ٢٣ - مخيم حجاج أترك وبدو وحجازيون |
| ٢٤ - عمود رجم الشيطان الثالث والأخير | ٢٥ - صف دكاكين الحلاقين |
| ٢٦ - الصخرة التي تُذبح عليها الضحايا | ٢٧ - درجات مرصوفة على الطريق باتجاه مكة |
| ٢٨ - منزل الشريف الصغير حيث يخلع الإحرام ويرتدي ثيابه | |
| ٢٩ - البقعة التي نهياً عليها إبراهيم للضحية بابه، وبالقرب منها مكان ولادة إسماعيل | |
| ٣٠ - جبل المدعو «جبل الزبير» | |

وعائلات سقاط العبة وتم مؤجراً، على الجانب نفسه من الطريق، ترميم رواق ضيق طويل وإعداده، حيث يعرض نحو خمسين مكتباً وتركيباً من أصحاب المتاجر سلهم. والمنزل على الصف الشمالي مهدمة كثيراً تقريباً. كما أن صف المتاجر (رقم ١٦ على الخريطة) على ذلك الجانب كانت مفتوحة بلا أبواب. وكان هناك إلى جانب ذلك أسقفيات شيدت وسط الشارع حيث يمكن شراء المؤن بوفرة لكن بأسعار باهظة.

إلى الشمال، على مسجدر الجبل المدعو «جبل الديرة»، يقع موقع بروره الحجاج، حيث طلب إبراهيم، كما نطعننا بعض الأحبار، الإدول بتقديم ابنه كضحية. وهناك كتلة من العرايت مشطورة إلى قسمين، كانت قد وقعت عليها سكين إبراهيم في اللحظة التي دلّه الملاك جرائيل على الكيش المجاور. وبعد ملازمة السكين، اضطرت الصحرة إلى قسمين. وتخيداً لذكرى هذه التضحية، يقوم المؤمن بعد إتمام الحج بدبح أصحاباته. غير أن الفقهاء في الشريعة لا يتفقون على الشخص الذي يوي إبراهيم التضحية به. فيروي البعض أنه كان يعقوب، لكن الأغلبية الساحقة تقول إنه كان إسماعيل. وفي المنطقة الملاصقة لتلك الصحرة كهف صغير يمكن أن يؤوي من أربعة إلى خمسة أشخاص، يقال أن هاجر قد أنجبت إسماعيل^(١) فيه؛ غير أن هذا يتناقض مباشرة مع الشريعة الإسلامية التي تروي بأن إسماعيل وُلد في سوريا، وبأن أمه هاجر حملته إلى الحجار ولم ير بعد رصيعاً، لكن الكهف كان ملائماً جداً لاستيذان وادي ميس سوريا، كونه مكاناً مناسباً جداً لولادة أب ابدر، خاصة وأن ذلك يجذب العديد من الهبات لدية التي يتقاه المكيون الذين يجلسون حوله بماديل مفتوحة^(٢). وهناك مرل صغير بشريف حيث ينتهي الوادي باتجاه مكة، يقوم فيه بأداء الأصحبه وجمع الإحرام. وقد ذكر أن هناك مسجداً يُدعى مسجد العشرة حيث كان أتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - يصلون، ويقع في واد حاسي، يؤدي من هذا المكان نحو جبل النور، لكني لم أقم بزيارته. وهناك، حسب كلام الأورقي، مسجد آخر يُدعى مسجد لكيش، يقع قرب الكهف. كما يروي العاسي أنه كان هناك واحد بين عمودي رحم الشيطان، الأول والثاني، والذي حُدّد ربما بالرقم (٢٠) على الخريطة.

ولكل قسم من حجاج مكان يحتم فيه حُدّد في وادي ميس أو عند عرفات؛ غير أن المساحة هنا أصغر بكثير وترجع القاعة المصرية قرب مرل الشريف حيث نصب محمد علي خيمته في جوار فرقة حيتانه. وقد وُضع أمام خيمته وعدول جلدان كبيران يُملآن بالماء باستمرار

(١) ما علاقة ولادة إسماعيل عليه السلام بالشريعة؟ ربما قصد المؤلف بالشريعة، المسيرة

(٢) تلمذ.

لاستعمال الحجاج. وعلى مسافة قصيرة منه، نحو مسجد الحف، نُصبت خمسة سلمان، باشا دمشق الذي حُتِمَ قافلته في الجهة المقابلة لطريق. وأمام حيمه، وُصِعَ صَفٌّ من عشرة مدايع أحصرها معه من دمشق وقد انفجرت دحيرته الخيرية على طريق حين كانت القافلة تتوقف عند بذر. وقُتِلَ حمسون شخصاً من حرء الحادث، بكر محمد علي رؤده بدحيرة جديدة، فكانت المدايع تُطلق تكررًا كذلك لأنني عشر الأخرى التي وُصِعت قرب حيمة محمد علي وقد حُتِمَت الأعلى الساحة من الحجاج دوماً نطم على السهل الصحري بغير السوي باتجاه الشمال خلف القرية. وكانت حيم الكبير مُعدَّةً بإتقان. وما أن اليوم هو يوم عيد، فقد تراءى لرجال والنساء ولأطفال في أحى حنكهم وقلوبهم هم الذين عامرو بالاستسلام إلى اليوم بسبب النصوص الذين يرحل بهم وادي مبي. فقد سُرق حجاج في الليلة السابقة وشب منه ثلاثه دولار. وعند عرفات، سرق الدو لعديد من الجمال وقد تم إلحاق باثنين من النصوص وألقي بقصر عبيها ومثلاً أمام محمد علي عند رادي مبي الذي أمر بصرب عنيهما. وبقي حسدهما المشوهان مرمين أمام حيمه ثلاثة أيام. وبحنهما حراس جمعوا أصدقاءهما من أحدهما إن مثل هذه العروس لا تثير الاشتغال ولا الرعب في نفس عثمانى، حيث يكرر ذلك يقسي مشاعره فيمسي غير متحوب مع مشاعر الشفقة والرأفة وقد سمعت بدويًا لعله كان صديقاً للفتيل، وقد وقف قرب الحتير، يقول: «اليتعمدهما الله برحمته؛ لكن لا رحمة على من قتلها».

لقد حوّل لأن الشارع الذي يمتد على طول وادي مبي إلى سوق ومعرض وقد نُصبت على كل قدم من الأرض الحاوية فيه سقائف مصنوعة من الحصير أو حيم صغيرة أُعدت كمناجر، وأحصرت المؤن والسلع من كل نوع من مكة وحلاف للعادة المنتعة في بلدان إسلامية الأخرى حيث تُهْمَش الأعمال التجارية كلها خلال أيام الأعياد. فقد كان التجار وأصحاب المتاجر والسماسرة كنهم مهمكين في السجارة وبدأ التجار الذين وصلوا مع القافلة السورية مسؤماتهم وعقد صفقاتهم للسلع الهندية، وقاموا بعرض مداخل عن السلع التي أحصرها هم أنفسهم والتي كتب مودعة في المحرر في مكة وكاد عدد من التجار الفقراء يادون على سلعهم الصغيرة التي حملوها في الشارع على رؤوسهم. وما أن لأعمال كلها قد حتمت في هذا الشارع الوحيد، كان الخليلط من الأثم والعداوت واسلع مشيراً للدهشة أكثر بكثير منه في مكة^(١).

(١) لقد رُتِطَ هذا الحج عند الويسين العرب في كل الأرم، سوق موسمه كبيرة تقام في مكة وفي الشهر الذي يسبق الحج، كما هو برورين بعض الأسوان المهاجرة لأخرى، خاصة تلك التي في عكاظ، وهي سوق قبيلة كندة ومجده وادي نهار، وسوق قبيلة هذيل والحب وأنسوا في الأرد. وبعد أن يحضر وتتهم بالنسبة في تلك الأسواق، يذهبون إلى الحج في

وفي فترة ما بعد ظهر اليوم الأول في ميى، تبادل الباشاوان الريارات، وقامت فرق حباتهما بالمناورات أمام حيمتهما ومن بين جد سليمان باشا، كان هناك نحو ستين رمبرك Sambarek من يلفت الأنباه. وهم مدفعيون، يركبون الجمال، وقد ثبتت أمامهم وُصلة متراوحة تدور على محور مثبت إلى سرح الحمل. وهم يصفقون النار في أثناء عدو الحمل، ويتلقى الحيون بهدوء تام صدمة إطلاق النار وتتألف فرقة الحياة السورية من نحو ألف وحمسةائة رجل، هم خاصة من دلهي، وليس مع القافلة أي كتيبة مشاة. ويظهر اليوم سيمان باشا بتجهيزات مثيرة للإعجاب حيث ارتدى حراسه كلهم الحبس المطررة والملوثة بالدماء، وكانوا جميعاً يركبون الخيل، رغم أن حبل النابض نفسه لم تكن تأبه لشيء. وبعد أن تبادل الباشاوان الريارات، حدا صباطهما حدودهما، وسمح لهما بتقيل يدي الباشاوين حين يتسلم كل منهم هدايا مائة كل حسب سرته وقد أعرب القاصي ونجار مكة الأثرياء والسلا من الحجاج عن احترامهم للباشاوين ودامت كل رياراة من رياراتهم نحو خمس دقائق. وكان هناك في الوقت نفسه حشد كبير من الناس وقد اجتمعوا في نصف دائرة حول حيمتهما المتوحة ليشهدوا مظهرهم المتألق وفي فترة ما بعد الظهر، أنت مجموعة من الحجاج الروح، برأسهم قناد، وشقت طريقها عبر الحشود، وبالاقترب من سليمان باشا (الذي كان جالساً وحده يدخن على الأريكة في موضع داخلي في حيمته)، ألقوا عليه التحية بحرارة وتمنوا به السعادة في إتمام الحج، وقد تلقوا بعض القطع النقدية الذهبية في المقابل. ثم قاموا بالتحيرة نفسها بعد ذلك مع محمد علي باشا، لكنهم لم يحصلوا إلا على صفعات علي قفاهم من صباطه مقابل تحيتهم ومن بين الأمور العربية التي أثارت أساه الحشد، كانت الكركر (عربة ذات عجلتين وجوادين) التي تملكها زوجة محمد علي ولتي كانت متوقفة عند مدخل مرل الشريف. وقد نقتها تلك السيدة على متن سفيتها إلى حدة، وركبت فيها من هناك إلى مكة وعرفات. وكانت هويتها بالطبع سرية، وكان يحرق لعربة حصان أصلاً، وشوهدت بعد ذلك مرراً تخذل في شوارع مكة.

في الليل، توجه الوادي بأكمله، فقد أضيء كل مرل وكل خيمة. وكان هناك مصابيح جمية أمام خيم الباشا؛ وشعل يبدو اسار في الهواء يطلو على قمم الجبال واسمرت أصوات المدافع تنأى إلى لأد حلال الليل؛ وعُرضت الألعاب النارية التي أطلقها المكينون.

وقد مرّ اليوم الثاني من العيد في وادي ميى كاسوم الأول تدماً. لكن جثث الدبابح المتعفة

عرفات، ثم يعودون إلى مكة حيث كانت تُقام سوق كبيرة أخرى (راجع الأرمي). وعند عرفات وميى على العكس، ينعزلون عن التجارة بشكل دميى خلال أيام إقامتهم هناك وخلال تأدية الشعائر المقدسة. إلا أن المراد ألقى هذا المشرع، فهي مقطع منه سيج بالأنجار حتى في أيام الحج، على الأقل، ثم تفسير ذلك بهذه الطريقة (راجع العاسي).

باتت كريبه إلى حد بعيد في بعض أجزاء الوادي، فالقليل من لحجاج الأثرياء فقط يستطيعون استهلاك الأسماك التي يبيعونها. كما أن لشريعة لا تسمح لحجاج في مذهبهم يأكل أكثر من ثمر الخروف ويُمنح الجزء الأكبر من اللحم لحجاج الفقراء، وتُرمى الأحشاء في الوادي والشارع وكان يتم استخدام اليهود والبروج لتقطيع اللحم إلى شرائح وتخفيفه تأمين مؤونة السفر^(١).

واليوم، يؤدي العديد من الحجاج صوتهم في مسجد الخيف الذي وجدته مكتظاً باليهود الفقراء الذين اتخذوا منه مأوى لهم. وكانت الأرضية مكسوة بحيف الأضحيان وقد غُلِّق على لحبال بين الأعمدة شرائح من اللحم لتخفيفها وكان المطر والرائحة كريهين جداً، وبدت الدهشة على وجوه العديد من الحجاج لسماح مثل تلك الأعمال غير اللائقة وبشكل عام، يرى الحجاج العرباء في مكة العديد من الممارسات التي لا تعبر لديهم مشاعر لتوقير واحترام تجاه الأماكن مقدسة في ديانتهم. وبالرغم من أن البعض قد يحج في الحفاط على حمسته الديني، يفقد آخرون بالتأكيد الكثير منها من حياء ما يشهدونه خلال الحج إن هذا الاستحفاف في احترام الدين وهذه الممارسات الشائنة ومحرمة التي تكررت في لمدينة المقدسة حتى عدت ممارسة مشروعة، وإلى كل هذه الممارسات يمكن أن تعزى تلك الأمثال التي تصور الحجاج على أنهم أقل تديناً وموثوقية من أي شخص آخر. لكن أرصد المسيحية المقدسة عرصة لبعض النقد بسبب ممارسات من أسوع نفسه. ويعترف المسلمون الأكثرون ورعاً وثقياً وأشد صرامة بوحود فساد وآفات بهذا الشكل وبأسفهم لوجودها، ويشتمون أنهم ما ألقى بصيرة أو أصدق من الحجاج المسيحي شاتوبريون^(٢).

بعد منتصف النهار، في الثاني عشر من ذي الحجة، مباشرة بعد رمي الحصى الإحدى والعشرين الأخيرة، عاد الحجاج وادي مي ورحلوا إلى مكة لمحادة الوادي، وهم يطهرون معوياتهم المرتفعة عبر الأغاني والأحاديث الصباحية والصحت، كما يتناقض مع الكآبة التي حلت

(١) حتى القرن السادس عشر، كان هناك قاعد واسع في سلاطين مصر وبعد ذلك لدى سلاطين المماليك، وهي زويد كل الحجاج الفقراء في وادي مي بالطعام على حساب نظرية الملكية. قد ميّز العرب الوثنيون أنفسهم بصيانتهم وكرمهم خاصة خلال الحج، وكانوا حين يذهبون إلى الحج، يستضيفهم مجاناً كل أصحاب ديم الذين يرون بهم على الغرب، بعد أن يكونوا قد حضرو أنفسهم سيقاً لهذا الهدى فتزودو بكميات كبيرة من الطعام (راجع قطب الدين)، من بين المعائب التي تميز وادي مي عن الأودية الأخرى، بروي العاسي، بأنه يوشع مساحته لاجم أي عدد من الحجاج، وبأن السرور لا تحمل أبداً أي نتائج له كهدى الفقراء؛ وأما على الرغم من كمية اللحم التي، لا يزعج الديار أند الزوار في هذا المكان. إن الملاحظة الأخيرة غير صحيحة ومربكة، حيث إنني أستطيع قول ذلك من تجربتي الشخصية

(٢) قد يكون لدى السيد شاتوبريون جوانع شبه دواعي من الدونية لكي يقلد في بوياته صورة بهذا النوع بطشطين وكهنة، لكنه، كرحالة، لا يستطيع الشرب من عوم والانتقاد لاتباعه عن حقيقته، ولتشويهه التام أحياناً للمعاني التي وقع أمامه

في العموس كنها عند البدء هنا مد أربعة أيام خلت. عند بوع مكة، على الحجاج ريادة الكعبة التي اكتسبت في هذه الأثناء بالكساء الجديد الأسود الآتي من القاهرة، وعليهم الطّواف حولها سبع مرات وتأدية شعيرة السعي، وهذا ما يُدعى بطواف الإفاضة. ثم يرتدون الإحرام مرة ثانية بهدف أداء العمرة؛ وعند العودة من العمرة، يؤدّون مرة أخرى الطّواف والسعي؛ وبذلك يكون الحج قد احتُتم أخيراً.

إن الواجبات التي تقع على عاتق الحاج هي:

- ١ - عليه ارتداء ملابس الإحرام؛
- ٢ - أن يكون حاضراً في التاسع من ذي الحجة في فترة ما بعد الظهر حتى معيب الشمس عند الخطبة الملقاة في عرفات؛
- ٣ - حضور خطبة ممائة عند المردفة عند شروق شمس العاشر من ذي الحجة؛
- ٤ - عليه في العاشر والحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة أن يرمي كل يوم إحدى وعشرين حصاة على الشيطان في وادي ميس؛
- ٥ - أن يقوم بتقديم الأضحية في ميس؛ وإذا ما كان فقيراً، يستطيع إبدال ذلك بالصوم في فترة لاحقة؛
- ٦ - عند عودته إلى مكة، عليه ريادة الكعبة والعمرة. تنص الشريعة فروقات عديدة دقيقة وتريد بشدة عدد القواعد الواجب على الحاج اتباعها عند كل خطوة، بحيث يصعب إلا على القليل منهم إصفاء صفة الحاج المسلم (سويّ والفعل على أنفسهم لكن، في غياب أي شرطة لحماية الطقوس والشعائر خلال تأدية الحج يصبح كل واحد سيّد نفسه المطلق ويحمل لقب الحاج أكان ممن التزم بشدة ودقة بكل واجباته الدينية أم لا فيكفي مثل أولئك أن يكونوا حاضرين في عرفات في اليوم الملائم - فهذا هو الحد الأدنى من التمسير. لكن مجرد ريادة إلى مكة لا تسمح لرجل بإطلاق لقب الحاج على نفسه، كما أن ادعاء هذا للقب دون تقديم حجج إضافية، تعرضه للسخرية. كما لا تُعطى أي شهادة رسمية للحجاج في مكة، كما هي الحال في القدس؛ إلا أن العديد من الناس يشترون بعض الرسومات لمدينة وأشياء أخرى، ترفق بها شهادة أربعة شهود تعيد بأن الشاري من الحجاج الفعليين وإذا ما صادف وقوع التاسع من ذي الحجة، أو يوم النوفة، في يوم جمعة، فإنه يُعتبر يوماً سعيداً ومحظوظاً بشكل خاص

ويتوق بعض الحجاج إلى اكتساب لقب «حادم المسجدة» الذي يحصل الحاج عليه لقاء مبلغ ثلاثين دولاراً تقريباً، حيث تُسلّم لقاء هذا مبلغ ورقة للشاري تمنحه هذا القب أو التسمية،

موقعاً من الشريف ولقاصي. ولله من اشائع السماح حتى للمسحيين بالحصون على امصار تسمية أنفسهم بخدام المسجد، ويسمى وراء هذا الشرف خاصة سكان حرر الأرحيل الليباني وشواطئه؛ فهي حال كني النص عنهم من قل قراصة الربر، بل وثيقة كهده عاساً ما يحترمي أشد معارفة قسوة. وقد استقيت بسطان يوباني حصل على وحدة نقد مائتي دولار، وكان قد قاد إحدى من محمد علي، وكان لأن متوجهاً إلى بلاده، وكان يشعر بالراحة والطمانية لأن أي سمية قد يقودها من لأن فصاعداً في لأرحيل، سكون في مأس من القراصة من خلال هذه الوثيقة. وكان لقب «الخدم» هذا في السابق يبدو ذا أهمية أكبر مما هي عليه الآن؛ إذ إني أجد في تاريخ مكة العديد من لأشخاص عظماء ندين يرفقون هذا للقب بأسمائهم.

بعد عودة الحجاج من وادي مسي، يصبح الشارع الرئيس في مكة غير سلك تقريباً حرراً الحشود المجمعة هناك ويستأجر التحار من الحجاج السوريين المتاجر، ويستعيدون جيداً من الوقت القصير المصوح بهم لإجراء معاملاتهم وصفقاتهم التجارية ويشتري الجميع المؤن بحد العودة إلى الديار؛ ويستحود السعي وراء الريح على الأدهان الآن من أعلى ضفة إلى دها وتعداد اتفاقات مكة عادة نحو ثلاث والعشرين من دي الحجة بعد مكوث في المدينة عشرة أيام. ويقع أحياناً التحار قائدي القافلات منجهم تأجيلاً بضعة أيام، وهم يدفعون جيداً نقد هذه خدمة؛ فكهم هذه السنة لم يطلوا هذه الخدمة لأن القافلة كانت تحت سيطرة محمد علي ندي كان يستعد لشحن حمته على انوهايين. وقد رأى أن من لأسب متحداً بحر اثني عشر ألف جمل من لقافلة السورية في رحلتين إلى جدة ورجلة واحدة إلى الطائف، وذلك لنقل المؤن أما بالنسبة إلى القافلة المصرية، فكان محمد علي يسيطر عليها كنيلاً، وقد أمر كل الحان والجار اني رافقت القافلة مسانده في حملته. وأعيد الحمل أو الحمل المقدس إلى السويس عبر البحر، وهو أمر لم يحدث من قبل ولم يندر القافلة سورية مكة حتى اسامع والعشرين من دي الحجة، إذ إن العمل الشاق واستمر الذي فرض على جمالها، أصعب تلك الأخيرة إلى درجة أن أعدداً كبيرة منها نفقت في طريق عودتها عبر الصحراء. كما أن القوافل من جمال عبر المحملة والتي كانت تُعادر مكة إلى جدة كل ساعة لتحميل المؤن هناك قد سئل نقيام بهذه الرحلة القصيرة إلى دت المكاب على أولئك الحجاج الذين نموا العودة إلى بلادهم عبر البحر.

وبعد أن سمعت أن يبلغ انني الذي أرسلت في طلبه إلى القاهرة ما إن وصلت إلى جدة، قد وصل إلى هناك، انطلقت ليل الأول من كانون الأول، ديسمبر، وبقيت في تلك المدينة ستة أو سبعة أيام. وكان الحجاج محتمين في كل حي فيها، وقد أتوا في أفواج إليها يومياً في هذه

الأنشاء، في طريق عودتهم من مكة؛ ومرعد ما أصبحت بالتالي مكتظة كما كانت مكة. ومن بين السفن التي كانت جاهرة لتحميل الركاب في الميناء، سفينة تجارية وصلت مؤخراً من بومباي، وكانت تملكها أسرة فارسية، ويقودها قبطان إنكليزي كان قد شق طريقه إلى جدة ضد الرياح التجارية في هذا الموسم الأخير وقد أمضيت العديد من الساعات الممتعة برفقة القبطان Boag على متن سفينته، وأسفت لأن أبحاثي ستجبرني على الرحيل قريباً. وقد وصل إلى جدة أوروبيان آخران في الوقت نفسه تقريباً، من طريق القاهرة. كان الأول إنكليزياً في طريقه إلى الهند، والثاني طبيباً ألمانياً، وكان أصل هذا السيد من هانوفر، وكان باروياً سيلاً وقد أقصته الحجة التي نسب بها القدر المحزون عن بلاده وفكر في ممارسة مهنته في جدة، أو متابعة مسيرته إلى محا Mokha؛ لكن فكره لم يكن مستقراً على أي أمر وكان يتمتع بشخصية مستقلة تبعه من قلوب المشورة أو المساعدة وقد تركته في جدة عندما عُدت إلى مكة وعممت بعدها أنه توفي هناك في شهر آذار/ مارس بسبب الطاعون، وأن اليونانيين في جدة قد دفنوه في جزيرة على المرفأ.

حين عُدت إلى مكة نحو الثامن أو التاسع من شهر كانون الأول/ ديسمبر، لم أجد أحداً بنفسه من الناس؛ غير أن المتسولين كانوا قد أصبحوا من الكثرة والإزعاج بحيث فضل العديد من الحجاج البقاء في منازلهم طويلاً النهار، كي يهربوا في الوقت نفسه من إلحاحهم ومن تكلفة الالتقاء بهم أو مواجهه فضيحة الفقر والعور. لقد كان هؤلاء المتسولون يستحدثون الصدقات ليتمكنوا من العودة إلى بلادهم، وقد ازداد عددهم بانضمام العديد من الحجاج بدوي المصهر اللائق المدين أنفقوا أموالهم خلال الحج وكثت عارماً، عد عودتي إلى مكة، على الانضمام إلى القافلة السورية للسفر معها إلى «المدينة». لذلك، فقد عقدت اتفاقاً مع بدوي من قبيلة حرب لاستخدام جملتين من جماله، تقيداً لبعض إلحاح السوريين الآخرين الذين وصلوا إلى مكة قبل القافلة؛ على الرغم من أن معظم إلحاح الذين يروون قبر محمد - صلى الله عليه وسلم - في «المدينة» بعد الحج، يرافقون القافلة السورية ويتفقون مع مقوم ليحمل هو البعثة كلها على الطريق؛ لكن لأسباب عديدة، من الأفضل السفر مع بدو ويس مع أهل المدن، خاصة على طريق تمر عبر الأراضي البدوية إلا أن حدثاً قد معني عن الانتفاع من هذه الفرصة.

بعد أن أصبحت القافلة جاهرة بالاصلاق في الخامس عشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر، حرمت أمتعتي الشخصية في الصباح، وبعد انظهر تم إطلاق مدفع يعلن عن معادرة سليمان باشا سهل الشيخ محمود حيث كانت القافلة محجمة؛ لكن البدوي الذي يُرافقني لم يكن قد وصل بعد، فأسرعت نحو لشيخ محمود، حين علمت أن شائعة سواء، أكانت صحيحة أم غير

صحيحة، قد عشت، بأن محمد عني كان يسير فقط رؤية الجمل كلها وقد تحمّص في الصباح على السهل، لكي يستولي عليها ويرسلها إلى الصائغ، وبأن العديد من البدو كانوا لادوا بانفraz خلال الليل، وكان من الواضح أن أولئك الذين اتفقت معهم كانوا من بينهم وفي حصص السرعة والصحب عند الانطلاق، كان من المتعذر إيجاد أي جمال أخرى، وكنت بالتالي مكرهاً على العودة إلى المدينة برفقة العديد من المكيين الذين أصيبوا بحبة الأمن نفسها

عند لحظة الانطلاق، بوزع قائد القافلة السورية دائماً كمية معينة من المؤن على الفقراء. وقد قام سيمان باشا بهذا العرس بتكديس حمولة ماشي حمل قرب حيمته؛ وحين متطى حصانه، انقص عليه من كانوا يتصرون الإشارة بذلك، بالطريقة الأكثر عمداً ووحشية والأقل انظاماً فقد قامت مجموعة من نحو أربعين حاجاً راجياً مسجون بالعصي للاستلاء على كمية كبيرة من الحمولة لأنفسهم.

وبنه لمن عدة القافلة لسورية التوقف يومين أو ثلاثة أيام، في طريق عودتها، عند وادي فاطمة وهو المخصصة الأولى من مكة، يؤموا للجمل المرعى الجيد في تلك المنطقة، لكن سيمان باشا، الذي كان يُصمر في نفسه عدم الثقة بتأناً في محمد عني، وكان يحاف خاصة من أن يعمد محمد عني إلى سحب أمريد من جمال قافلته؛ لذلك، فقد قام برحلة متوصلة محطتين متجاورين وادي فاطمة، فحجب أمل العديد من المكيين من أصحاب المتاجر الذين أتوا إلى هنا امين في إقامة سوق في تلك فترة وقد أصاب الباشا التهديدان في أثناء الرحلة، وقبل أن يبلغ دمشق، حوّل صباطه على حريته، وقد استعاد رهنه في دمشق غير أنه توفي هناك بعد ذلك بقليل

لقد كنت مضطراً لبقاء في مكة شهراً كاملاً بعد رحيل قوافل الحج، باستطاعة فرصة أخرى تسمح لي بمتابعة المسير إلى «الندية» ولكنك تمكنت بسهولة من الذهاب من جدة بحراً إلى يسم، لكنني عصيت السريراً وبقي أهل الحجار في هذه الوقت في ترقب قلق بسبب محمد علي الذي كان يستعد للانطلاق من مكة شخصياً، في حمته على لوهائيين، وكانوا يعمون أنه إذا ما فشلت حمته، فإن بدو الحجار سيعودون مباشرة إلى مدارسهم المألوفة ويقصعون الطريق المؤدية إلى داخل اسلاذ على المسافرين كهم؛ كما علمتهم التحرنه كذلك أنه إذا ما استولى الوهابيون على اسلاذ مرة ثانية، فقد تأمل مدينة مكة فقط في انحرار من لهب والسلب، وقد خُرت هذه الاعتبارات كلها انطلاق المواعيل إلى «المدينة» وتُعاد مكة عادة قافلة قوية في الحادي عشر من محرم (يوافق هذه السنة الثاني من شهر كانون الثاني، يناير من سنة ١٨١٥)، وهو اليوم الذي يتلو افتتاح الكعبة الذي يحدث دائماً في العشر من محرم، أو اليوم يدعو

«عاشوراء». وبحر نهاية شهر كانون الأول/ ديسمبر، تم إنذار السكان عبر تقرير رائف بوصول قوة ومماية عن طريق الساحل، من الحروب وبعد ذلك بقليل، في الأيام الأولى من شهر كانون الثاني/ يناير سنة ١٨١٥، نطلق محمد علي من مكة، والتقى بجيش الوهابيين بعد أربعة أيام، عند بيسل، في حوار الطائف، حيث أحرر النصر الكامل الذي أوردت تفاصيله في موضع آخر وما إن شاع الخبر في مكة حتى انطلقت القافلة التي كانت جاهرة منذ وقت طويل، إلى «المدينة» في الخامس عشر من كانون الثاني/ يناير.

بعد أن عذرت القافلة السورية ورجع لجزء الأكبر من الحجاج الآخرين إلى حدة، باسظار فرصة تسمح لهم بالإبحار في السفن، بدت مكة مدينة مهجورة ولم يبق من متاجرها الشهيرة سوى الزبج؛ ولم يعد يرى أي حجاج في الشوارع التي كانت منذ أسابيع قليلة تصطف إلى شق طريق بصعوبة عبر الحشود، ما خلا بعض المتسولين الوحيديين الذين رفعوا أصواتهم انشاكية الباكية باتجاه نواهد المارل التي صرأ أنها لا تزال مأهولة. وقد عصت القدرة والأوساح الشوارع، ولم يكن هناك من أحد لإرائنها واكسب نجوم المدينة بحيف الجمال لمينة التي جعلت روائعها الهواء كريهاً في وسط المدينة، سُهمت حتماً بانتشار العديد من الأوبئة وترقد عدة مئات من تلك الجيف بالقرب من حزانات المياه، ولا يحرق العرب انديين يقطبون في ذلك الجزء من مكة أبداً دون أن يذسوا في أنهم قطعاً صغيرة من القطر التي يحملونها معنقة حول عنقهم بواسطة حيط^(١). لكن ذلك لم يكن كل شيء فقد اعتاد المكبون في هذا الوقت على إخراج مراحيص مارلهم؛ وما أنهم من انكسل ولحمون ما يجمعهم من حمل محتوياتها إلى حلف نجوم اندية، فهم بالكاد يحمرون حمرة في الشارع، أمام باب المسكن ويودعوها هناك ثم يصمرون البقعة بطبقة رقيقة من التراب فقط. ويمكر بصور شائع ممارسة كهذه بسهولة.

ثم الآن حفلات الرذاف والتطهير حيث يتم الاحتمال بها دائماً بعد الحج، ما إن يترك المكبون وحدهم، وقبل أن يتسنى لسان الوقت لصرف المانع التي ربحوها خلال إقامة الحجاج؛ غير أي رأيت جدارات وماتم أكثر بكثير من حفلات الرذاف فإن أعداداً من الحجاج انديين يُصابون بالمرض من جراء التعب والإرهاق عنى الطريق، أو من جراء النقاط البرد عند رتمائهم الإحرام، يصحرون عن متبعة رحلتهم إلى بلادهم، فسقون على أمل استعادة عافيتهم، نكهم

(١) إن العرب يشكل عام، حتى البدو منهم، هم أشد حساسية من الأوروبيين فيما يتعلق بأهل رائحة مرعجة عند إحدى الأسباب الرئيسية التي لا يدخل من جرائها البدو أساً إلى مدينة ما دون الإحساس بالارعاج. فهم يعتقدون أن الروائح الكريهة تؤدي العسحة وتغز بها عد دعوها عبر الأنف إلى الرئتين ولهذا السبب، أكثر منه بسبب الإحساس المزعج منه الذي تنتجه الرائحة، يرى العرب والبدو غالباً وهو يعطون أنهم يوسطة قماش عمامهم في أثناء مشيهم في الشوارع

عاشاً ميموناً هنا. وإذا ما كان يُرافقهم قريب أو رميل، فإنه يحصل على ممتلكات الميت يدفع حرية لنقاصي، وإذا ما كان الميت وحيداً، يصبح النقاصي والشريف ورثته، ويُعتبر هذا النوع من الميراث مصدراً مهماً للدخل حين عادت مكة كن لا ير هناك ألف حاج ركب، وقد بوى العديد منهم مضياء سنة كاملة في المدينة المقدسة حتى حصول موسم حج آخر، وبوى اخرون تحديد هرة إقامتهم لبضعة أشهر فقط.

في يوم الرحيل من مكة، من للاق القيم برباره وداعيه لنكبه وتُدعى «طواف الوداع»، إلى جانب تأدية الطواف ونسعي. ويقوم الحجاج بذلك عامة حين يكون كل شيء جاهزاً للانطلاق، فيركبون جمالهم ما إن ينتهوا من القيام بذلك.

الرحلة من مكة إلى المدينة

في الخامس عشر من شهر كانون الثاني/يناير، من سنة ١٨١٥، عادت مكة مع قافلة صغيرة من الحجاج الباكانيين زيارة قبر لبي - صلى الله عليه وسلم - وكانت تتألف من خمسين رجلاً يملكها بعض بدو قبائل الريشية Ryshtye والريضة الذين كانوا يرافقون حمانهم بأنفسهم أو يرسلون معهم عبيداً وقد استأجرت حمارين لحمل أمتعتي وحادسي، ودفعْتُ المال مقدماً كما هي العادة في الحجاز، وهو مبلغ مائة وثمانين ليرة للحمار الواحد. إن دليلي المسيحي الأخير الذي رتحتُ برفقه لأسبب عديده رغم أنه لا يحلو تماماً من العيوب المهمة التي سبق أن ذكرتُها، رافقتني حارح المدينة نعاية سهل الشيع محمود حيث تجمعت الحمال، ومن حيثُ نظمتُ القافلة عند الساعة التاسعة مساءً. وتتم الرحلة إلى «المدينة» ليلاً، كنتُ التي بين مكة وجدة، بما يحتملها أقل فائدة للمسافر، وتكون في فصل اشتهاء أقل راحة بكثير ليلاً منها في النهار.

بعد أن تبعنا السير لساعة وربع الساعة^(١)، مررنا بالعمرة، وحتى الآن كانت الطريق معتادة في أجواء عديدة بأحجار كبيرة وخاصة في المنحدرات. ومررنا عبر أودية ذات رمال ثابتة بين سلاسل غير منتظمة من التلال المنخفضة، حيث تنمو بعض الجبال وأشجار الأفاقيا القصيرة وكانت الطريق مستوية بشكل تام، مع بعض الاستثناءات.

بعد مرور خمس ساعات من مكة، مررنا بمبنى مهتم يُدعى «الميموية»، ويحتوي على قبر إمام هدم قومه الوهابيون. بالقرب منه تقع بئر ماء عذب وبركة صغيرة أو خزان من الحجر كما أن هناك مبنى صغيراً أخق بالقبر، وهو عبارة عن حان للمسافرين تقع طريقاً في الساعات

(١) كنتُ قد اشترتُ ساعة في مكة، وحصلت على بوصلة جيدة من السيد الإنكليزي في جدة

الست الأولى من مكة باتجاه الشمال الغربي، واعطما حسمها عند تنف شديدة الارتفاع تعجر القوافل عن عبورها، وتابعا باتجاه الشمال والشمال لغربي إلى وادي فاطمة الذي يبعده عن مرور ثمانتي ساعات من مكة أي عند بزوغ الفجر.

في السادس عشر من شهر كانون الثاني، ترحلنا في البقعة التي ترتاح فيها قوافل الحج في اليوم الذي يسبق وصولها إلى مكة، في جزء من وادي فاطمة ويدعى «وادي حموم». إن وادي فاطمة هو عبارة عن أرض منخفضة ترحل بالبايع والآبار، وينتد إلى الشرق والشمال الشرقي لمسافة أربع أو خمس ساعات حتى يلتقي بوادي يسمون «تقريباً» وإلى الغرب من مكان توقفنا، ينتهي الوادي بعد مسافة ساعة ونصف الساعة حيث يبلغ طوله بالكامل نحو ست ساعات من المشي. وتُدعى النقطة الأبعد منه غرباً «مدوة» وتقع في الجهة الغربية لمرارع الرئيسية، وإلى الشرق لا يُزرع إلا في أماكن قليلة فقط. وقد تجلّى ساطرياً في ذلك الاتجاه سهل ينبغ عرصه عدة أميال وقد غطته الجبال، وتخيّل به من الحايين بلال منخفضة جرداء أو أرض مرتفعة لكن يُقال أنه مرور جيداً باتجاه طرفه الشرقي. ولوادي فاطمة تسميات محتلمة في أجزاء مختلفة؛ لكنه يُعرف بالكامل عند أهل حدة ومكة باسم «الوادي». ويدعو المؤرخون العرب عادة «وادي مر» وبين ودي فاطمة والهد (وهي محطة المسافة كذلك على طريق حدة)، يقع المكان المدعو «صروان» و«كاني»

تحتوي الأراضي المزرعة في وادي فاطمة بشكل رئيسي على أشجار سحيل التي تروّد الأسواق في المدينتين المجاورتين، ولحصر التي تُنقل كل ليلة على ظهور قطع صغيرة من الحمير إلى مكة وحدة وتزرع كذلك القمح والشعير بكميات صغيرة. وبما أن الوادي يرحل بالمياه، فمن الممكن زيادة إنتاجه. أكثر مما هو عليه الآن؛ لأن أهل الحجر عامة يكرهون لأعمال اليدوية. وبالقرب من المكان الذي ترحلنا فيه، يجري عذير صغير أت من الشرق، يدع عرصه نحو ثلاث أقدام وقدمين عمقاً، ويتدفق في سبيله تحت لأرض معطاة بالصخور، كشفت في مساحة صغيرة حيث تروّد القوافل بالمياه الماترة أكثر من مياه رمرم في مكة، وألذ منها طعماً. بالقرب منها عدة أبنية عربية مهدمة وحان كبير؛ وهما أيضاً، حسب القاموس، كان سابقاً مسجد يُدعى «الفتح»، كما تقع بعض لأكواح العربية بين بساتين اسحيل يملكها انعلا حوب، خاصة من قبيلة لهياد؛ وينتهي الأمر على مهم إلى قبيلة شريف مكة وتدعى آل بركات، وهم يعيشون هنا كالبندو في خيم وأكواح. وهم يذكرون بعض المواشي، كما أن أبقارهم، ككل الأبقار في الحجر صغيرة الحجم وبها حدة بين الكتفين ويتميز وادي فاطمة كذلك بأشجار الحبة العديدة التي يستخدم الشرقيون أهدارها العطرة بعد أن يحولوها إلى مسحوق لصنع بكرين وأحمر القدمين أو الأظافر وتباع الحبة التي تُمو في هذا الوادي إلى

احتجاج في أكبس جلدية حمراء صغيرة؛ ويأخذ الكثير منهم بعضاً منها إلى بلادهم كهدية إلى فريثاتهم. وأعتقد أنه من المحتمل أن يكون الراديتيون Oaditac الذين تحدث عنهم بطليموس كانوا سكان هذا الوادي كما يدل اسمهم.

لقد وجدنا عند مكان استراحتنا فرقة تتألف من نحو عشرين حادماً وجثلاً يتمون إلى الجيش التركي في مكة، كانوا قد غادروا ذلك المكان سراً لتفرار من الحصار الذي فرضه محمد علي على كل الأشخاص الذين يملكون تلك المواصفات. ولم يكن في حورتهم أي مؤن وقليل من المال؛ لكن، بعد أن سمعوا بقافلة ستطعن إلى «المدينة»، فكروا في إمكانية مرافقتها إلى هناك. وعقد بعضهم النية، وكانوا مصرين، على الذهاب إلى تبغ، ووضع آخرون سوريون خطة العودة إلى الديار عبر الصحراء من طريق الحجاز، واستجداء كلفة طريقهم على طول محيمات البدو، لأنهم لا يملكون المال لدفع تكاليف الرحلة بحراً إلى السويس.

غادروا مكان استراحتنا عند الساعة الثالثة من بعد الظهر واستغرقنا ساعة بعبور الوادي إلى صرره الشمالي حيث تبدأ طريق الحج التي سافروا عليها بالارتفاع شتاً فشتاً بين التلال، عبر أودية ميفة بأشجار الأفاقيا بالاتجاه الشمالي الغربي، بدرجة ٤٠. وكانت الصحور من العرائس من الصنف الرمادي والأحمر. وبعد مرور ساعتين، تنكشف الطبيعة وتقل الأشجار ويتغير اتجاهها إلى الشمال الغربي، بدرجة ٥٥. وكنت قد غادرت القافلة نحو الغروب، وبعد أن شعرت بالتعب، جلست في ظل شجرة أنتظر اقتراب القافلة؛ حين أنسل خمسة بدو جلوساً من بين الحبات بحوي، وقاموا فجأة بحرق عصاي وهي السلاح الوحيد الذي كان خلفي على الأرض وقال قائدهم إنني دون شك غار من الجيش التركي، لذلك فقد كنت غنيمتهم الشرعية. ولم أبدأ أي مقاومة؛ لكني، وبعد أن ألغيتهم أقبل إصراراً من النصوص البدو عامة، استنتجت بأنهم يشعرون بشيء من الخوف. لذلك، أخبرتهم أنني حاج وأتني إلى قافلة كبيرة يرافقها بدو قبيلة حرب، وأنه من الأفضل لهم أن لا يستجدوا لعف معي لأن مرشدنا سيهرعون القاعدين بلا شك وسيقتلون ذلك إنني من يملك السلطة لمعاقبتهم. وكنت مطمئناً إلى أن ليس لديهم النية في إهدائي جسدياً، خاصة أنني لم أكن أحشى شكاً لأنني كنت أملك فقط رداء السفر وبضعة دولارات لأحسرها في أسوأ الأحوال. فقام أحدهم، وكان رجلاً مُسنّاً، بصبح رملاته بالتراب قليلاً، لأن عواقب سرقة حاج لن تكون جيدة أبداً. وفي أثناء تعاوصنا، كنت أنتظر بهارغ لصبر رؤيه القافلة تقترب؛ غير أنها توقفت لربع ساعة لتفسح المجال أمام المسافرين بتأدية صلاة المساء، وهي ممارسة يومية كنت أجهلها حتى الآن. ولم يكن هذا التأخير في صالحني، وكنت أتوقع في كل لحظة أن أتعرض لتسلل حين سمعت أحيراً وقع الجمال بما حمل البدو على الأسحباب بالسرعة نفسها التي اقتربوا فيها.

ينبع من أد الطريق من مكة إلى «المدينة» كانت تُعتر أمة حتى لقوا من غير مسلحة كفاقتنا، غير أن من يسعد عن انقائه سيتعرض دوماً للخطر ولولا لرعب اندي شره، قبل يصعه يوم، انصار محمد علي على نوهائين، والذي أثر في ابدو كنهم في الحوار، لزم كنت دفعت ثمن قبة حنري بالسير وحدي وقد بيرنا في القسم الأكبر من الليل على سهل مفروش بالحصاء أكثر من الرمان، حيث تنمو بعض أشجار العاشور Ashour بين الأفانياء، وهي من الفصيلة نفسها كذلك سي ذكرتها في رحلاتي إلى النوبة، وتُدعى هذه الأرض «برقا» ثم توقف بعد السير بسبع ساعات عند «القارة».

في البع عشر من شهر كانون الثاني/يناير، ستسبب ليوم يصعب ساعات خلال الليل، وهو أمر نادر لحصول في هذه الرحلة، والقارة هو سهل أسود صوّابي، فيه تلال منخفضة على مسافة بعيدة إلى الشرق، وفيه بعض الأشجار الشائكة لكنه يحلو من اساء وقد ذهبت من شبهه بكبير بانصحراء النوبة إلى جنوب من شره Shigre وكان بحر شديد طوال الصباح في بقاره على نرع من كوب وسط فصل الشتاء ولم يكن أي شخص في القارة يملك حيفة، وكنت معرضاً لخطر أكثر من أي شخص آخر إذ إن الآخرين كنهم كانوا يركوب شربة أو شكدوف^(١) تسع لشخصين يجلس كل واحد منهم على طرف من الجمل عبر أبي كنت دائماً أقصر المقعد المكشوف على الجمل لأنه أكثر راحة فضلاً عن كونه عربياً أكثر، وله ميزة تمكن الجلس من الصعود والبرول من غير الحاجة إلى مساعدة أحد ومن غير إيقاف الجمل، وهي مهمة صعبة مع كل تلك الآلات على ظهره، خاصة الشكدوف حيث يضطر كلا الراكبين إلى موازنة بعضهما البعض بشكل متواصل.

بعد أمت يوم معرفة أكثر حميية مع رفاقي مسافرين، هي لقوا الصغيرة يسعى كل واحد جاهداً إلى التوقف مع مرافقيه وهم كانوا ملاوتين (من شبه جزيرة الملايو)، أو كما يُدعون في الشرق، (جوا) وبسبب البع القاديين من ساحل مالاقا، كانوا كنهم إنكبير من أبناء سومطرة Sumatra وحاوا Jawas وساحل Malabar. وبأني أبناء دلايو إلى الحج بانتظام ويصحبون غالباً نساءهم حيث كانت ثلاث مهر في عاقبتنا. ويبقى العديد منهم في مكة لسنوات لدراسة القرآن والشرعة، وهم معروفون بين هنود لبحار بأنهم متدينون ومتمرمون بدقة بالتدبير، أو على الأقل باشعائر في دينهم ويتكلم القليل منهم العربية بطلاقة لكنهم جميعاً يقرأون لقران ويتمرمون حتى بدرسته في ثناء السمر. وهم يؤمنون بصفات رحلتهم عن بيع

(١) وهي نوع من سرج الجمل «نظلاً» الذي يهي من الشمس أثنان على الجمل إذ كان يُدعى على الأرض، وتسمى الشربة شخص واحد والشكدوف لشخصين.

حشب الألوة حيث تبغ كفة أجود نوع في بلادهم، ويُدعى «ماوردي» كما قيل لي، بين ثلاثة وأربعة دولارات لبويد الواحد. ويُباع في مكة بمبلغ يتروح بين عشرين وخمسة وعشرين درلاراً. إن قسماهم الواضحة العنوية وجسيمهم النادر وقوامهم القصير، الصلب وأساسهم المتأكله التي تشكل تدفصاً مدهشاً مع أساس العرب اللؤلؤية، كل ذلك يميزهم أينما كانوا، على الرغم من ارتدائهم الري الهندي المعتاد. وترتدي سائرهم اللواتي لا يصنع الخمار جميعاً أثواباً ومناديل من العماش الحريري المخطط الصيني الصنع. ويبدو أنهم شعب ذو عادات مفرقة ورصينة وسلوك هادئ، لكنهم في منتهى لبحر، وقد ثبتت قلة إحسانهم بوضوح من معاملتهم للاجناب المغموسين الذين انصموا إلى القافلة عند وادي ناطمة. وكانوا يقتاتون خلال الرحلة كلها من الأرز والسمنك المنج، فكانوا يعلون الأرز بالماء دون إضافة الرينة، وهي سعة عالية في الخبز، غير أنهم كانوا يحترقونها، حيث توصل العديد حادمي لإعطائهم بعضاً من ردتهم جفئة نعمة إصافتها إلى طبقهم. ولما أنهم من أصحاب الأملاك، فإن البخل وحده قد يكس وراء حد النظام العددي اعتدوا؛ لكنهم كانوا يبالغون عقاباً كافياً من لعنت اليدو الذين كانوا يتوقعون صعباً للحصول على نصيب من عشائهم. ولم يتمكنوا من الاقتناع ببذلا لآرز اعلي بالمياه وكانت أصباغهم اسحاسية صنية الصنع، وعوضاً عن الإبريق الذي يستخدمه اشرفيون للاعتسال والوضوء، كانوا يحملون أباريق الشاي الصينية.

خلال هذه الرحلة، تسست لي امصة لمعرفة رأي أولئك الملاوتين حول أخلاق الإنكليز وحكومهم، وهم أسيادهم الحاليين وقد كشموا عن حصد متأصل ونعوس عدائية تجاههم، وشتموا عاداتهم ولعوبها بشدة، وأسوأ ما عرفوا منها أنهم يسرفون في شرب الخمر، وأن الرجال والنساء يحتضون معاً في العلاقات لاجتماعية غير أن أياً منهم لم يقم بتحريض عدالة الحكومة واتهامها، وهم كانوا يقاربونها بالقمع الذي كان يمارسه أمرؤهم ورعم نهم أطلقوا على الإنكليزي العوت المحقرة بحسها لتي يشتتم به المسم المتعصب الأوروبي في كل مكان، فلم يوانوا عن إضافة عبارة ولكن حكومتهم جيدة. وقد سمعت مرراً العديد من المحادثات المماثلة بين اليهود في جدة ومكة، وكذلك بين البحارة العرب الذين يمارسون التجارة إلى بومباي وسورات؛ وكانت محواهر مسلمي الهند يكرهون الإنكليزي رغم أنهم يحبون حكومته. عادرا مكان استراحت عند الساعة العاشرة مساء، وديعا السير على سهل القرة بالاتجاه الشمالي الغربي بدرجة ٤٠. وبعد مرور ثلاث ساعات مررنا ببناء مهتم يُدعى سبيل القاره حيث تقع بئر كات ترؤد المسافرين سابقاً بالماء. ولم أر أي تلال على امتداد نظري باتجاه العرب، وتموها في السهل بعض لأشجار واجبات الكثيفة. وتابعا عبور السهل حتى مرور ست ساعات حيث اعلن وبدأت الطريق ترتفع شيئاً شيئاً عبر وادٍ مُدغل. هنا تقع بئر

«عسفان»، وهي بئر كبيرة وعميقة محاطة بالأحجار، وبها بيع من المياه العذبة في القفر. هذه هي إحدى محطات الحج وهناك صريق أخرى من وادي فاطمة إلى عسفان، على بُعد أربعة أميال شرقاً من صريق، وقد مررت بالبئر من غير أن أتوقف. ويذكر لسمهودي Samhudy مؤرخ «المدية»، قرية عبد عسفان فيها بيع يُدعى «أولى»؛ لكن ليس هناك الآن أي قرية هنا. وبعد سبع ساعات، يبدأ أمر صيق جداً يرتفع بين الصحور يسرع فقط لجمال واحد. وقد دُمّرت السيول التي تندفق بولاً عبر هذا الممر في الشتاء، الطريق كلها وملائها بكثبان صحيرية كبيرة وحادة وقد بدت طريق الحج مقطوعة من الصحور في أماكن عدة، غير أن النيل كان حالكاً بحيث يصعب تمير أي شيء. وبعد مرور ثمان ساعات، بعد فمة هذا الممر حيث يقدم بناء صغير قد يكون قبر أحد الأئمة سر من هنا على سهل واسع عريض رملي أحياناً، وهي أجراء أخرى مريح من الرمل، بطون حيث تنمو لأشجار والأعشاب. وبعد أربع عشرة ساعة، مع اقتراب بروج البحر، مرور بحميم بدوي صغير، وتوقفاً بعد مرور خمس عشرة ساعة في حوار فري ندعى «خلبص» وقد توقفنا بركة مرت عديدة خلال الليل، وأصرمت النيران لتدفئة.

تقع «خلبص» على سهل عريض واسع تُرى ستين البلح في أجزاء عديدة منه وحقول تُزرع فيها الدرة والبنامية والدخن. وقد تناثرت عليه عدة قرى صغيرة سُميت «خلبص» العامة، وتُدعى أكرها حجباً «السوق» حيث يحجم الحجاج بالعرب منها. وتجري ساقية صغيرة فائرة كتلت بني في وادي فاطمة، قرب «السوق»، تُجمع مياهها حارج القرية في بركة صغيرة باتت مهتمة الآن. ثم تروي للسهل؛ وهناك أيضاً قرب البركة بقص سيل^١ وحسب كلام قطب الدين، فقد بنى بركة وسيل قائد بك، سلطان مصر نحو سنة ٨٨٥ هـ. كان «خلبص» في ذلك الوقت أميرها الحصص وكان شحصاً ذا نفوذ وسلطة في الحجر. وقد رأيت الكثير من الماشية والأبقار والعم؛ غير أن العرب كانوا يشتكوا من الجفاف الذي تعاني منه مزارعهم، لأن الأمطار لم تحصل بعد على الرغم من أن الموسم كان متقدماً جداً كما أن المياه في الساقية لا تبدو كافية بري لأراضي المزارعة كلها، وكانت كمية المياه أقل حتى من اللازم لأن نصف هذه الكمية كانت تتسرب من الأفنة الضيقة بسبب الإهمال.

تحتوي قرية «السوق» على نحو خمسين مراً بُنيت كلها من الطين، وهي محفصة جداً، وتمتد على ضوا شارعها الرئيسي المتاجر التي يُديرها أهل «خلبص» ويرتادها بدو الجوار كلهم. والتمر هو السلعة الرئيسية للبيع والتي كانت تمتنع بها معظم المتاجر، ويُباع في غيرها الدرة والشعير والعدس والبصل من (مصر) والأرز ومواد أخرى سمون؛ لكن الحنطة لا تُباع هنا لأن

(١) السيل هو بناء صغير ومفرج، بجده عالية بجانب الينبع في هذه السبل يصلي المسافرون ويتأخرون قسماً من الراحة

بدو الحجار لا يستحدمونها إلا قليلاً وهناك أيضاً التوابل وبعض الأدوية وحاء شجرة لصع قرب الماء، وقليل من الريدة. ولم أجد أثراً للحبيب لأن أحداً لا يرغب في أن يُطلق عليه نعت «بائع احبيب» بحيث الساقية كان يقوم مسحداً مُنقى الباء قرب بعض أشجار الجميز، وقد وجدت فيه حاجتين رنجيين من دارفور، كان قد تم سبهما على الطريق في الليلة الماضية بصعة ليرات كسبوهم في مكة وقد حاول أحدهما الدفاع عن نفسه فأبرح صرياً، وهما يويان الآن العودة إلى جده ويسعيان إلى تعريض حسايرهما بالعمل عدة أشهر. وكان أحد البدو الذين سلبوهم يدنّس غيونه في القرية، غير أنهما كان يفتران إلى الدليل لإثبات عملية السرقة عليه والحصول على حكم عادل. و«خُلَيْص» هي المقر الرئيسي لقبيلة ربيد العربية، وهي فرع من بني حرب؛ ومقر إقامة شيخهم. إن الجزء الأكبر منهم بدو؛ ويحصى العديد منهم جرءاً من لسة تحت الحميم في الصحراء، حتى أولئك الذين يرعون الأرض، وذلك بعة ترك ماشيتهم ترعى العشب البري. وتحتلظ بعض عائلات بني عامر^(١)، وهي فرع آخر من قبيلة حرب، مع هذه القبيلة في «خُلَيْص».

قبل الاحتلال التركي، كانت العملة المعتادة في تلك السوق هي الدرة Dhourra لكن في الوقت الحاضر، يتم تداول الليرة والبارة. وترسل خُلَيْص عالياً قافلات صغيرة إلى جدة التي تعد مسافة يومين أو ثلاثة أيام. وقيل لي أن الجمال المجاورة كانت تكتظ بالبدو. وعلى مسافة ثلاث ساعات باتجاه الشمال الشرقي، وادٍ خصب يُدعى وادي حوارا ويُعرف بمزارع الموز العديدة التي تزود أسواق العاكهة في مكة وجدة.

في ثامن عشر من شهر كانون الثاني/يناير. بعد أن ملأنا قِزبنا بالماء، انطلقنا في الساعة الثالثة من بعد الظهر. وكانت طريقنا تقع إلى الشمال الشرقي على السهل بدرجة ٢٠ وقد بلغنا ثلة عالية بعد ساعتين وتُدعى «ثنية خُلَيْص»، وكانت الرمال تعطي جاسها المنحدر بكثافة اسدي صعدت إليه حمالاً بصعوبة. وتقوم على قممتها أنقاض قديمة لبهاء كبير. وتحذُ الجدران الصريق من حاسي الثلة لمنع تجمع الرمال بكثافة وكانت تعطيها حشث الجمال وهي اثار قوافل الحح الأخيرة. وبالهبوط من الجانب الآخر، يبسط أمامنا إلى الشمال والشرق سهل على امتداد ابصر وقد تبدت لنا جبال شهقة تبعد نحو عشرين إلى ثلاثين ميلاً في الاتجاه الشرقي الشمالي والشرقي. وبالنزول إلى لسهل، أحدها الاتجاه الشمالي الغربي بدرجة ١٠. وبعد مرور ثلاث ساعات ونصف الساعة، يتبدل السهل الذي كان حتى الآن مفروشا بالخشب، ليصبح رملياً، وفيه أشجار الطرفة Tarfa أو النمر الهندي (Tamarisk) التي تنمو في الرمل خاصة، وفي

(١) لا يجب الخلط بين بني عامر Amer وبني عامر Amer، وهم قبيلة أخرى من حرب.

الموسم الأشد حفافاً، حين يكون الخصرة مغطاة كلها دالمة، فهي لا تفقد لونها الأخضر، وهي أحد إنتاجات صحراء شبه الجزيرة الأكثر شيوعاً من العُرات إلى مكة، وتوجد كذلك في الصحراء النوبية، وتشكل أوراقها الناعمة عدداً ممتازاً للحصان. وبعد مرور أربع ساعات وربع الساعة، ألقينا لصريق وقد عطشها قشرة مائة تشير إلى اقتراب البحر. أصبحت مسيرتنا من هنا في الاتجاهات متنوعة.

حسب لعدة المألوفة في الأحجار، تسير جبال في صف واحد قُربت الجبال الخفيفة بدليل تلك التي في الأمام وتقع قيادة القاهنة على عتق العربي الذي يسير في المقدمة، غير أنه يسترسل في اليوم دائماً تدماً كرملائه في خلفه، فسير جمعه حشيد على هواه وغالباً ما يقوم بتصلب القافلة كلها. بعد السير لاثنتي عشرة ساعة، نزلنا عند إحدى محطات الحج وتُدعى «كَلِيَّة» وكذلك «كُتَيْبَة» وتُعرف كل منطقة في سهول شبه الجزيرة باسم خاص، ولتصير مقاطعة صغيرة عن أخرى، هناك حاجة إلى عين البدوي لدقة وحبرته؛ يهد العرص، فإن أصوب الجسوت والشجيرات المختلفة، وبكلاً الذي يسمو فيها بسبب بظفر، تشكل عوداً كبيراً؛ وكلما أرادوا ذكر مكان معين لرملائهم لا يحمل أي اسم، فهم يدنون عليه عبر الغشب الذي يحو فيه، مثلاً: أبو شيخ، وأبو عقاب، أبو الحج.

وبعد الابتعاد في الاتجاه الشمالي الشرقي، لمسافة ساعتين من المكان الذي سترجنا فيه، هناك محرق مبدع وسنك بحل صغير وعلمت أن البحر كان بعد مسافة سب إلى شمالي ساعات. وبقيت الجبال ظاهرة سعيان على مسافة عشرين إلى ثلاثين ميلاً إلى شرق، وقسمها مستدقة تشكل هضاباً معرلة شاهقة وشديدة الانحدار، تقص فيها قبيلة «عسة» التي كانت تسكن وادي دطمة كذلك في القرن السابع عشر، حسب كلام لأعصمي في الصباح، ظهرت بعض النساء البدويات مع قطعان من العجم ولحق الجذعة التي بحث عن قدر صليل من الكلال المرعي، لأن الأمصار لم تهض في السهل وقد دببت كل الجسوت؛ ومع ذلك، لم نرؤ تلك البدويات على اسحت عن المرعي في الجبال المحورة التي لم تكن تنتمي إلى أراضي قبيلتهم؛ فحدود كل أرض يتم اتقدها بشدة من برعاة في وقت الحصاد وقد حُرحت برفقة العديد من أبناء الملايو لمقابلة تلك النساء وطلب بعض الخليل؛ وأحد الملاويون بعصر المال لشرائه، أما أنا فقد ملأت جيوبي بالسكوب للعرض عليه وقد رفضت النساء قول المال وقُلن. بهن غير معتادات على بيع الخيل لكن، حين قدمت لهن السكوب قُص من عمل قُرنتي الخشبية في انقباس. ويمر هؤلاء لبدو انقباء في الاتجاهات كلها خلال مرور قوافل الحج عندهم بالعدادات المؤدية ولصارة لتي يتبعها الجنود الذين يُرافقون القافلة

في التاسع عشر من شهر كانون الثاني/يناير، عدينا «كليت» عند الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر وتابع السير على السهل. وبعد مرور ثلاث ساعات، بعنا تلالاً مخصصة من الرمال المتحركة وبعد مضي أربع ساعات، وصلنا إلى سهل صحري به كتل صخرية ممتدة على الطريق، وكنا سير في الاتجاه الشمالي الغربي بدرجة ٢٥ وبعد مضي سبع ساعات، توقفنا خلال الليل قرب قرية «رابع». وقد كانت طريقنا مستوية باستمرار. وتشمل هذه التسمية ثلاث أو أربع قرى صغيرة تبعد قليلاً إحداها عن الأخرى، والقرية الرئيسية منها، كما «خليص»، تسير باسم إضافي وهو «أسوق». ويتم ررع السهل المجاور، كما تجلس مزارع أشجار الحل، المكتبة من «رابع» مكاناً د شأنا على هذه الطريق. وتنمو بين أشجار الحل بضع من أشجار التمر الهندي التي كانت نمارها نذاك حصراء يابسة ولذيذة الصمم كما تنمو بضع أشجار مماثلة في مكة كذلك.

لقد هطت الأمطار هـ مؤخرًا وكانت لثربة محروثة في أجراء عديدة. وكانت الثيران أو إجمال نجر محارث أولئك العرب، التي تشبه تلك التي وصفها الرحالة بيور، والتي تستعمل عامة في الحجار واليس^(١) على ما اعتقد. و«رابع» ميرة وحود عدد من الآبار من المياه المقبولة، لأ، قريباً من البحر الذي يعد كما علمت مسافة مئة أو مئتين أميال قد جعل من ساحل «رابع» مكاناً نزوره العديد من السفن التي تقصها المياه، بالرغم من أن البحر كان محجوباً عن الطريقتين الحل إن بدو هذا لساحل صيادون شيطون، يأتون بأسماكهم الممنحة إلى هنا من الدواشي البعيدة بكميات تتوافر دائماً في الأسواق، وبشربها طاقم السفن العربية الذين يستهلكون كميات كبيرة منها ويحملون الباقي إلى مصر أو جدة. إن سكان «رابع» هم من قبائل حرب المذكورة أعلاه كقبيلة «عمر» و«ريد»، وخاصة من تلك الأخيرة وهي الجبال المقابلة، إلى الشرق، يعيش «بو عرف» وهم قبيلة أخرى من قبائل حرب. وعلى الحاج الذين يهرون بحراً من مصر إلى جدة، وصع الإحرام أمام «رابع»، إما على الشاطئ أو على متن السفينة

وقد وقع حادث هنا أنقضى الصوء على نقص الإحسان والمعروف لدى رملانا الملاويين. وكان هناك العديد من الملاويين الفقراء المعوزين الذين يعطون عن دفع أجرة جمل، فكانوا يحقون برفاقهم سيراً على الأقدام، وبما أن رحلاتنا الممتدة كانت طويلة جداً، كان هؤلاء الرجال يصون بعد ساعة أو اثنتين أحياناً من توقفنا في الصباح وقد أحضر أحدهم بدويين من

(١) لا أعرف ما الذي حمل بطليموس على ذكر بهر في الاتجاه بين مكة وميعة، حيث إنه ليس هناك بالتأكيد أي بهر بحسب مي البحر في المحل. وفي وقت الشتاء تجري سيول عديدة هائلة من الجبال.

قبيلة «عوف»، فأحبرنا أنهما وحدهما يهيم في الصحراء فوعدهم بدفع عشرين ليرة، إذا ما أرشده إلى النقطة، وأنهما توقعاً أن يقوم أصدقائهما بدفع ذلك السبع، لأن الرجل كما رأيه، كان مجرداً من المال. وحين رأيا أن أحداً من مجموعتنا لم يُبدِ استعداداً لدفع جزء صغير من المبلغ وأن الجميع قد أنكر أي معرفة بالرجل الذي، كما قالوا، انضم إلى القافلة عند الانطلاق من مكة دون أن يكونوا على معرفة بشخصه، أعلن البدويان أنهما سيأخذان الثوب الهزيل الذي يرتديه وسيحتجراه في خيمتهما حتى مرور أحد الملاويين الذي قد يطبق سرجه. وحين كانت القافلة تنأهب للانطلاق، قبض عليه وجزّاه إلى مسافة قصيرة باتجاه الأشجار. وقد تملكه الخوف لدرجة أنه فقد لقدرة على الكلام وسمح بأن يأخذه بعيداً دون أن يبدي أي مقاومة ولم يكن أي دليل من يرافقه إلا صاحبي أحد أفراد قبيلة عوف، وهي قبيلة يحشاها الجميع بسبب الوحشية والهجومية اللتين يتسم بهما طبع أفرادها؛ كما أنه لم يكن من قرية «رابغ» أي قاصر يُستعان بسبطته ومساعدته؛ كما كان لبدووين مطلب شرعي عن سحيهما ولم أكر لأقوم بعمل سحي يدفع هديته بنفسه؛ غير أنني كنتُ أعتقد أن ذلك هو واجب يقع على عاتق مواطنيه الملاويين، لذلك فقد سميتُ حاهداً لإفناعهم بالدفع في الواقع، ثم ألتقي في حياتي بأشخاص خسيين قساة القلوب عديمي الإحساس مثلهم، فقد أعسر بالإجماع عدم معرفتهم بالرجل وبالتالي، فهم غير مُدرين بحمل أي مصير لأحبه. وكانت الحمال محمّدة، فقد وصّوا الأمتعة كلها وكرّوا فائدة لقافة بهم بالانطلاق حين تعالى صراح الرجل للبائس موضوع الخلاف، وقد انتظرتُ هذه اللحظة، فقد عمدتُ إلى إيقاف حمل الدندنة وجعته بقع أرضاً، ثم قلتُ عالياً إن لقافلة من تتابع المسير حتى إصلاق سراح الرجل، معتمداً فيما فعلتُ على الاحترام الذي كنتُ أتمتع به في لعافله إذ إنهم كانوا يطوبون أي حاح على صلة ما بحيش محمد علي، مُستنداً كذلك على الود الذي حصلتُ عليه من كل دليل في انقاصه عبر توزيع أموال بينهم محاباً مند أن عادوا مكة ثم تنقلتُ من حمل إلى آخر وأحدثتُ من كل واحد عشرين بارة (أي ما يعادل نحو ثلاثة بسات)، ودبتُ عبر دوف الملاويين وبسنتهم بشتائم ومن خلال التعارك مع بعضهم؛ وبعد بضال طويل جمعتُ عشرين ليرة. وحمدتُ هذا المبلغ إلى بدويين اللذين بقيا على مسافة قصيرة مع سحيهما؛ وبعد أن عرضتُ عليهما حالته البائسة، وانتمستُ شرف قبيلتهما، جعلتهما يقبلان بعشرة دراهم. وعلى وفق مبادئ قواعد السلوك التركيبي الحقيقية، كان يجب أن أحتفظ بالليارات بعشر الدقية كمعويض لما فُتت به، غير أنني أعطيتها للرجل الملاوي الفقير لأشعر مواطنيه بالخزي والعار. وكانت استجته أن أعدوه كِباً عن مجموعتهم خلال الرحلة وألقوا به بين يدي أنا إلى أن وصلتُ إلى «المدينة» وخلال إقامته هناك.

وقد عقدت النية على إعطائه ما يساعده على العودة إلى يبع، نكني ما لبثت أن مرضت مرضاً شديداً بعد وصولي إلى «المدينة»، فلم أعلم بعدها ما حل به.

كان العديد من الحجاج يلتمسون الصدقات في سوق «اربع»، إذ إن هؤلاء الفقراء يتوهمون عند الانطلاق من مكة إلى «المدينة» مع ثقافة الكيرة، بأنهم من القوة ما سوف يمكنهم من تحمل مشقات تلك الرحلة، وهم يعلمون أن الحجاج المحسرين يمكن الثور عليهم عبر السعر مع القافلة فيؤدوهم بالطعم والماء. لكن المسافات الصوية التي يقطعها يلاً لا تلبث أن تُهك قراهم يبدؤون بالتبطل في الخلف على الطريق. وبعد حرمان كبير وتأخير، يُجبرون على مواصلة رحلتهم بوسائل أخرى. وقد انضم حاج أفغاني هنا إلى مجموعتنا، وكان رجلاً مُسياً يتمتع بقوة جسدية كبيرة ومجيرة. وقد أتى على الطريق كله من «كابول» إلى مكة سيراً على الأقدام، وكان يروي العودة بالطريقة نفسها. وقد أسف لعدم معرفته باللغة العربية إذ بدا رجلاً ذكياً كان بإمكانه تزويدي بمعلومات هامة عن بلده.

في العشرين من شهر كانون الثاني/يناير، غادر «اربع» عند الساعة الرابعة من بعد الظهر وكانت طريقنا تقع إلى الشمال الغربي بدرجة ٨، وتتألف في معظم أجزائها من حجر الصوان الأسود، وقد انتثر هه وهههك بعض التلال الرملية التي عث عليها بعض الأشجار. وما أني لم أتمتع بأي قسم من الراحة في اليومين الأخيرين، فقد عموت على ظهر الجمل، وجل ما أستطيع قوله هو أننا نرجلنا بعد إحدى عشرة ساعة من السير على أرض رملية كثيرة التلال، وقد توقفتنا عند إحدى محطات الحج وتدعى «مستورة» حيث تؤم بئرين كبيرتين وعميقتين مرصوفتين بالحجارة راداً غريراً من مياه العدة. بالقرب منها، كان يقوم قبر إمام يدعى شيخ معدلي Madeily، وقد هدمه الوهايون وعلى مسافة عشرة أميال منه يقع جبل شاهق يدعى جبل «أوب»، وهو يعلو قمم الجبال في السلسلة نفسها، وقد عطته الأشجار في أجزاء عديدة. نسكن هذا الجبل قبيلة عوف. إن الطريق كلها من «كلية» إلى هذا المكان خطرة جداً بسبب لسرقات التي يرتكبها هؤلاء البدو، فلا تمر القافلة أساً من غير أن تحسّر بعضاً من حمولتها أو جمالها. كانت الطريق في زمن الوهايين آمنة جداً، حيث كان شيوخ قبيلة حرب والقبيلة كلها مسؤولين عن كل أعمال السلب التي تُرتكب على أراضيهم غير أن الوهايين لم يمكنوا من إحصاء قبيلة عوف في الجبال التي يقطونها، ويبدو الدليل على استقلاليتهم جدياً بسبب الشعر الطويل الذي كان يميز أفراد تلك القبسة مما يعرض تعاليم الوهايين الذين جعلوا من حلق الرأس قانوناً عاماً.

وقد وُجد عند إبار «مستورة» عدة قطعان من الجمال والغنم التي كان رعاة قبيلة عوف من

الرجال والنساء يسقونها. فاشترى منهم حروفاً بصع ليراب وبعض شح، وقمت بتوريه على كل دين من كل من كان يرفقاً سير على الأقدام وأتى الملاويون يطلبون نصيبهم محاولين إلهامي بأن مطوعتي هي الاستعصاف الذي قمت به لأجل مواطنهم الفقير كانت تستحق المكافأة غير أن تبدو يدين كانوا مع وفروا عني عماء وحببتهم وحدث عر تأنيبهم بصريفة ساحرة ومهية وقد حدث عدة قبور للحجاج قرب بشرى حرمها ابوهاييون إذ إهم نادراً ما يتعرضون للصور التي تركتها الكسرية والتعصب لأعني دور تزيين^(١)

في الواحد والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير انطلقنا عند الساعة الثالثة من بعد الظهر وكان السهل يدي قطعاه إما صوالياً صماً وإما دأثر به صالحة للزرع في بعض الأماكن وكان اتجاهنا نحو الشمال. وبعد أن تابعا السير على سهل رملي تعطيه حبات قصيرة لساعات ونصف الساعة، بدأ جبل أبيوت على بعد نحو ستة أميال؛ فبدأت سلسلة جبال أكثر تحفاً صوالية بطريق هـ تركت طريق الحج التي تعطف أكثر إلى الغرب وتابعا باتجاه الجبال شمالاً شرقاً بدرجة ١٥ حتى سبيع الظهرة Szafra عبر الطريق الأقرب. وبعد أن مشينا ثلاث عشرة ساعة على أرض غير مستوية وتلال منخفضة، توقفنا مع اقتراب النهر في سهل رملي قرب بشر ندعى «بئر الشيخ». لقد سبق أن ذكرت أن مسيرنا البلية كانت دائماً صوية جداً، غير أن معدن مراعته الجمال كان طليخاً جداً، بحيث أنها لا تكاد تقطع أكثر من ميين في الساعة أو ميين وربع. ويسع عمق بئر الشيخ بين ثلاثين وأربعين قدماً وعرضها خمس عشرة قدماً؛ وقد رُصفت بالحجارة بصلاة وقد أتم ذلك رجال شعروا بالقلق على راحة المسافرين إلى المدن المقدسة أكثر من يظهره برعماء الخاليون للمؤمنين. وتأخذ هذه الحج أحياناً هذه الطريق عند الاستعمال، لكنها تشع عادة الطريق التي تمر عبر بدر، حيث تلحق الفولتان لمصرية وسورية بعضهم بعضاً في طريقهم إلى مكة عارف يومين أو أكثر، لأن توقفت بطلافتهم في الرحلة يتم في أيام محدده لا تتغير لقد اقتربنا الآن من السلسلة الكبيرة التي كانت على يميننا منذ أن عاين «خليص»، وهناك سلسلة صعبة منها تميل غرباً باتجاه البحر على مسافة بضعة أميال إلى الشمال من بئر الشيخ، وتقع «بدر» عند طرفها. وقابلنا بدويين عند هذه البئر أيضاً وكانوا من قبيلة «بني سام» أو «سوالمة» Sewaleme، واشترى أدلأنا حروفاً منهم وقاموا بشيء على «الحجبة»، وهي نوع من حبرة في الرمل تحيط به حجارة صغيرة يتم تسحبها ويوضع اللحم عليها ثم يُعطى بالخمير ويجلد الحيوان اسنل ويُعلق تقريباً بالرمل ولصين وبعد ساعة ونصف الساعة، يُطبخ اللحم دون أن يفقد الماء فيه، وله مذاق رائع.

(١) الأصل في القبور ألا تزق، فلا كسرية أو تعصب أعني كما يزعم المؤلف

في الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير، غادروا الشر عند الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر على طريق في الاتجاه الشمالي الغربي بدرجة ١٠، وهي ترتفع على أرض غير مستوية. وبعد مرور ساعة ونصف الساعة، دخلنا الجبال عند الزاوية التي تشكلها السلسلة الكبيرة من جهة والسلسلة الصغيرة المتفرعة المذكورة أعلاه والتي تمتد باتجاه «بندر»، من جهة ثانية. وتابعنا من هنا شمالاً وشمالاً شرقاً في أودية ذات تربة رملية مليئة بالصخور المتفرقة. وتحيط بالطريق على الجانبين جبال شاهقة ذات قمم مستدقة وحادة وجرءاء كلياً ويدعى الجبل الشرقي الذي يقع هنا بمرواة الطريق، «جبل صبح»، وهو ملك لقبيلة بني صبح القوية، وهي فرع من قبيلة بني حرب. وفي جبالهم أودية شديدة الخصوبة حيث تُزرع الدرة وتُمو أشجار الحنظل ويوجد هنا شجرة بلسم مكة بشكل أساسي، و Senna Mekka أو Senna العربية التي تصدّرها القافلة السورية، تُجمع في هذه المنطقة حصرياً ويقال إن العبور إلى الأجزاء الداخلية من هذا الجبل في غاية الصعوبة، بحيث يُعذّر على الوهابيين مهاجمتها وقد جاء العديد من عائلات قبائل حرب الأخرى إلى هنا مع كل أمتعتهم وموشيمهم هرباً من سلطة سعود؛ وفي حين خضع بدو الحجاز كلهم لسيادة الوهابيين وسطاهم، كانت قبيلة صبح هي القبيلة الوحيدة التي تمكّنت بحرح من حماية أراضيها وأعلنت استقلالها بجرأة.

بعد اسير لست ساعات ونصف، بدأت الطريق بالارتفاع بين تلال صحيرية منخفضة. وبعد مصي سبع ساعات ونصف، دخل وادي رُقاق، وهو وادٍ ضيق مربع قليلاً، تملأه الصخور المنخفضة وتُمو فيه أشجار الأفاقيا بكثافة بالتقدم شيئاً فشيئاً، يُسمى الوادي الضيق فأضيق ويصبح الممر شديد الانحدار وأبغ صحوية عبور الجمال. وبعد ثلاث عشرة ساعة، وصلنا إلى أرض مستوية عند قمته، ودخلنا من هناك إلى وادي Es'Szafra، بالقرب من القرية التي تحمل الاسم نفسه، وقد توقفنا عندها.

في الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير، بعد أن تعبت جماعاً لأساً لم نجد الكثير من الطعام على الطريق، بارعنا من أنها كانت دائماً تملأ الصباح بأكمسه نرعى، وبعد أن بات بعضها مهدداً بالانهيار، توقف القائد هنا صوال النهار، وكالقرى السوديّة الآفة الذكر، فإن انطفرة هي سوق للقبائل المحيطة كلها، وقد بُيت مبارها على سطح الجبل وفي الوادي الضيق مما لا يكاد يترك مجال كاف لساتين الحنظل التي تُرتصف على حائبيه. ويتدفق نهر صغير في وادي فُسشر مياهه بين أشجار الحنظل فتروي بعض الحقول المروعة في الأجزاء الأكثر انحداراً في تعرجات هذا الوادي وتُزرع هنا الحنطة والدرة والشعير والدخن، ومن الحصار، تُزرع ابادجاء والملوحيّة والبصل والمجل، وتكثر أشجار الليمون والوز والكرم كما أن التربة رملية في كل مكان لكنها تصحح حصبة بالري، ولأمطار العريّة قد هطلت ثلاثة أيام في الجبال،

وكان سبيل لا يراى يتدفق يبلغ عرصه عشرين قدماً وعمقه ثلاث أو أربع أقدام. وتمتد بساكني الحبل لأربعة أميال تقريباً وهي منك سكدان الطفرة وبدو أجوار الدين يُقون بعضاً منهم هناك. أو بعض المزارعين العرب لري الأرض، ويأتون إلى هنا بأنفسهم حين ينصح ليدح. وتتفصل أشجار الحبل من شخص لآخر في عملية تجارية وتباع شجرة شجرة؛ كما يتألف عاباً مهر الفتاة الذي يدفع بالذهب عند بروج منها من أشجار الحبل وتسمى كلها في الرمال العميقة التي تجمع من لأحراء الوسطى في الوادي وتُروى حول جدرانها ويسمى تجديدها سوباً، إذ إن السيول تجرفها بعيداً. ويُحيط بكر بستان صغير حد من الحجر أو الصين؛ ويسكن المزارعون في عدة قرى صغيرة أو في مزارع معزلة منتشرة بين الأشجار. والمزارع محفصة ذات عرفتين فقط بشكل عام وفيها ماء صغير لماشية. ويحد العديد من ينابيع المياه الجارية والبار في الحدائق، ويسمى النهر الصغير الأساسي من بستان بالعرب من السوق، وقد بُني مسجد صغير بجانبه تُظلل به بصر من أشجار لكستان. ولم أرَ أبداً من تلك الأصناف في حجر. وهذا أيضاً كانت مياه الجدول فائرة لكن أقل منها في تجليص وراغ.

إن سكان هذا الوادي الذي يشتهر اسمه في الحجر بسب وفرة أشجار الحبل فيه، هم من قبيلة أبي سالم، وهي الفرع الأكثر عدد في قبيلة حرب. وتتألف في جزء منها، كمعظم القبائل، الأخرى في الحجر، من اسد، وهي جرثها، الآخر من السكان المستقرين؛ حيث يبقى هؤلاء في منازلهم وحدائقهم على مدار السنة، بالرغم من أنهم يترقبون ويعيشون بطريقة يصعب كإخوانهم تحت الحيم. وكان الرعيم الوهايي على اطلاع وعلم بأهمية هذه المنطقة وحين يحج، بعد مقاومة طويلة، في السيطرة على بي حرب الذين كانوا يمتكون مفتاح الحجر الشمالي^(١). فكر في ضرورة بدء غزو ساهرة على هذا الوادي، فبى هناك عدة أبرج متينة حيث أقام جامعاً صرائبه ودخله وحيث كانت تجمع الصرائب الحجة من الوادي وكان هؤلاء البدو كنهم يصمرون العداء المتأصل لمسلم الوهايي. وعلى الرغم من أنهم تخلصوا من يرقم، هم حتى الآن يوخهون إليهم الانتقادات اللاذعة بانقدر نفسه الذي يقوم المكثرون فيه بمدحهم. قبل انعرو الوهايي، لم يكن لبي حرب أي سيد. ولم يتم أبداً عرض ضريبة على منتجات حقولهم. وكان بالطبع لشريف مكة سيادة اسمية عليهم؛ لكنهم كانوا في الواقع مستقلين تماماً، وكان شيوخهم يشون على آراء الشريف عندما يتيقن فقط أنها مفيدة أو لها ميزة توفير

(١) في هذه الحصة، ساعد مصيان وهو رعيم سابق لقبيلة حرب، وكان قد أبعد عن مركزه بأمر من جري وهو خصم محفوظ. وقد تم بعد ذلك إيقاف مصيان بتهمة السر والخيانة من قبل الأتراك في «المدينة»، وضرب عقه في القسطنطينية وأُقل جري وهو صديق محمد علي، بأمر من حاكم «المدينة» التركي، لأنه يكتم عالماً وأصبح عن خدماته.

ريح مادي لشعبهم. ويدمر هذا الشعب الآن بشدة من الضرائب المرتفعة التي فرضها الوهابيون ويقولون إنه إلى حاسب المال المتوحيب عليهم دفعه إلى حزية سعود، فقد اشرع منهم رعيم شيوخ الوهابين كلهم في الحجار، عثمان انصافه، العديد من المبانع الإصافية وقد ساورتني الشكوك حول دقة هذه المعلومات لأنني علمت أن الرعيم الوهابي كان يولي اهتماماً خاصاً لمنع حدوث مثل تلك الممارسات غير العادلة من قبل ضباطه، كما كان يسعى إلى معاقبة المذنب. وقالوا لي كذلك إن المياه التي يروون بها مرروعاتهم كانت تُجرى مبلغ سوي، وليس فقط حدائقهم ومزارعهم كانت خاضعة للنظام الصريبي.

ويتألف ري أهل الظفرة من قميص وعباءة قصيرة من قماش الخام الهندي المدون الخشن، يرتدون فوقها عباءة بيضاء خفيفة، هي نفسها التي يرتديها البدو في الفرات قرب حلب، وهو يشبه ري كل بني حرب المستوطنين؛ في حين يرتدي بدو القبيلة العباءة المخططة البنية والبيضاء. ويبدو أن الأرباح التي يجمعونها من مرور القوافل ومن متاجرهم القليلة، كان لها تأثير فظيع في صباغهم، لأنهم يعيشون بقدر ما يستطيعون؛ غير أنهم لا يحلون من التعاطف وحسن الصياغة التي يبدونها للرححاق الفقراء الذين يعتمدون على مرورهم إلى إيجاد وسيلة لجمع ما هو ضروري لعدائهم اليومي من المتاجر.

وقد التقينا هنا بعدة رححاق فقراء كانوا في طريقهم إلى المدينة، وهم لا يملكون ما يسد رمقهم سوى ما يحصلون عليه من إحسان البدو على الطريق. ولم تكن تلك المرة الأولى التي وصفت فيها الطريقة السقيمة التي كان يُمارس فيها كرم العديد من الخلفاء والسلطان الذين كانوا يثرون مكة والمدينة ويعفون مبالغ طائلة لتأمين مرور قوافل الحج الكبيرة بمحانة وعظمة عبر الأرض المقدسة؛ لكنهم في الوقت نفسه كانوا يُهملون تماماً تأمين راحة العدد الهائل من الرححاق الفقراء الذين يسافرون باستمرار عبر تلك البلاد، وصمان أمهم. إذ إن بناء مست مؤسسات خيرية بين مكة والمدينة ومنح بصعة آلاف من الدولارات سويًا، هو عمل يحقق بشكل أفضل وفقال رسالة ديارتهم أكثر من المبالغ كلها التي تُنفق في إطعام عديمي الجدوى والكسالى أو في المحافظة على تقديم عروض تافهة. وليس هناك على صول هذه الطريق بين مكة والمدينة أي حاد عمومي، كما لم يتم القيام بأي شيء لتأمين خدمة المسافرين والشهر على مصلحتهم سوى المحافظة على الآبار في حالة جيدة إن العمل الوحيد الذي يدل على إحسان حقيقي وفقال قام به أي حاكم ساهم في إثراء مكة، قد سجنه المؤرجون، وهو مسمى مستشفى في مكة. وقد شُيّد سنة ٨١٦هـ بأمر من المؤيد، سلطان مصر، ولم يبق له أي أثر الآن.

يُعتبر انتمر السلعة الرئيسية المعروضة للبيع في شارع السوق في الظفرة ويدعى سوق الظفرة.

ويباع الكيلوغرام الواحد هنا بعشر نارت، بينما يُباع في مكة تسع خمس وعشرين بارة ويشكل العسل الذي يحفظ في جلد السم سعة تجارية أخرى هنا وتسمى الحباب المجاورة بيوت الحبل فهي تلك المقاصد التي تُعرف بتعدد الحبل عليها، يصنع لبدو حلايا حبل خشبية على الأرض، يقوم الحبل بالسيطرة عليها دائماً. والعسل ذو نوعية ممتازة، وقد رُت منه نوعاً كان من البيض والبقاء ما يشبه الماء كما يمكن شراء الأدوية والتوابل وبعض العطور التي يحثها لبدو تلك البلاد.

إن الظفرة وبدر هما المكاتب الوحيدان في الحجاز يمكن الحصول عليهما على بلسم مكة Balesan، في حالة نقيّة وتتميز شجرة البلسم في الحبال المجاورة لكن بشكل أساسي في حين «صباح» ويدعوها العرب «بشم» وقيل لي إن علوها يبلغ بين عشر إلى خمس عشرة قدماً وهي ذات حدة عام والحاء رقيق. في منتصف فصل الصيف، يتم حفر شقوق صغيرة في التربة، فيؤخذ اسائل الذي يخرج على الفور بإظفر الإبهام ويوضع في إناء وتندو انده تلك في ونيين، أحدهما أبيض اللون والآخر بون أبيض مائل إلى الأصفر، ويُعبر النوع لأول مر الأفضل وقد رأيت هنا اسوع اثاني في قرب جديّة يستعملها البدو عند إحصاره إلى السوق، وله رائحة قوية شبه رائحة ترابية، وضعه مر ويعد أهل الظفرة عدده إلى عشه برب السمس ونقصه. وحين يحضرون نقاء، يعمسون إصبعهم ثم يُصرمون النار فيه، فإذا احترق دون أن يؤم أو يترك أثراً على الإصبع، فهم يصنفونه في فئة النوعية الجيدة، لكن إذا احترق الإصبع ما إن يُصرم النار، فهم يعلمون أنه معشوش إلى ذكر أي قرأت في أسفر بروس Bruce وصدر عن كيفية حثاره وذلك عبر جعل نقطة من تسقط في سحاح مبيء بانياء؛ إذ إن Balesan أو البلسم الجيد النوعية يتجمّد في القعر. ويدوب السبيء اسوعية ويصفو على السطح وقد حرّبت هذا الاحتمار الذي كان يجهله الناس هنا؛ ووجدت القطرة تطفو على سطح امياه؛ كما حرّبت حثارهم بإصرام لدر على إصبع بدوي، وقد مدد على بهوّه لذلك، فقد عتبرت البلسم المبيع ه معشوشاً، كما أنه كان أقل كثافة من العسل وتميّت شراء القليل منه لكن أمتعي، وبصاعة لتاجر، لم يكن فيها ما يشبه القسيه لاحتوائه ويصلب البدو الذين يأتون به إلى هنا عدة دولارين أو ثلاثة للكيلوغرام الواحد إذا كان نقياً؛ ويُعيد عرب الظفرة بيعه إلى لحجاج في القافلة لكسره لقاء ثمانية أو عشرة دولاراب كيلوغرام الواحد، ويكون معشوشاً يشتريه القرس بشكل خاص.

يحصع البلسم المعد للبيع في حدة ومكة، حيث يأتي إلى القاهرة، لمسات عش عديده دائماً. وليس لدى أحد أي أمل في الحصول عليه في حالة نقيّة إذا لم يلتقي ببعض البدو مصادفة يشتريه منهم مباشرة إن الطبقات الأوفر على من حجاج يصنعون قطرة من البلسم في

أول صبح من القهوة يشربونه في الصباح ظناً منهم أنه يعمل كمشط. وتُستعمل بذور لشجرة التي ينمو عليها في الحجاز لعمليات الإجهاض.

يُحذر بي الإشارة هاهنا إلى ميرة خاصة في عادات قبيلة بني سالم، وهي أنه في حال وقوع قتيل، أو في حال فدية رجل قُتيل (وتبلغ هنا ثمانمائة دولار) التي تقلها عائلة المئومى، يدفع لقاتل وعائلته وأقرباؤه المبلغ، حيث يدفع الأول الثلث ويدفع أسبائوه الثلثين؛ وهي عادة لا تسود في أي جزء آخر من الصحراء، حسبما أعلم.

لقد تشاجر أدلاًنا البدو هاهنا صويلاً مع الملاويين. فقد تفاوض الأدلاء في السوق على حملين بعة استدال اثنين غير مؤهلين لتسعة الرحلة. لكن، بما أنهم لا يمكنهم المال الكافي يدفع ثمنهما، فقد طلبوا المساعدة من الملاويين ورجّوهم باستدانة عشرة دولارات منهم يدفعونها لهم في «المدينة». وقد رفض الملاويون، وبعد التصعد عليهم بشدة، سقوا لسيّ لكبي أتدخل بصاحبهم؛ لكن السوا أحسوا بأن منهم عوة بالوسائل نفسها التي اشترتها في مناسبة سابقة. وظهرت للعين الآن محطة أحد الملاويين التي حُثّت في كيس للأرز، وكانت تحتوي ربما على ثلاثمائة دولار، وكان صاحبها حائفاً إلى حد بعيد من إصهارها؛ كما أن حشيشته من أن يُقدم العرب على قتله من أجل أن يلحقه على بُحله، جعلته في حالة تأهب تام ومستمر إلى أن وصلنا إلى «المدينة».

في الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير، عاودنا سوق الظهرة^(٥) عند الساعة الثالثة من بعد الظهر ومشينا على طول الوادي الذي يبدأ بالانساع قليلاً خلف السوق وكانت الخصرة المتألقة التي تُضفيها أشجار الحجيل والمزارع تشكل تناقضاً متميزاً وفريداً مع الجبال الخرداء على كل جانب. وكان اتجاهها شمالاً شرقاً بدرجة ١٠. وقد أُلقيت الصحور هاهنا من حجر Thon لأحمر، مع طبقة مستعرضة من المادة نفسها لكن بلون أحمر ووجدت في أثناء عودتي من «المدينة»، خلف /حديدة Djedeyde، قبلاً إلى الأعلى، صحور الفلّسبار (سليكات الألمنيوم). وبعد مسافة ساعة من السوق، مررنا بقرية بمائلة في الوادي تدعى «الحُرمة»، ونقع صحر ودي الظهرة. وبعد مصي ساعتين، وصلنا إلى سبيل ماء عمومي مهذّم على الطريق بالقرب من بئر شبه مختلفة وينقسم الوادي هاهنا حيث يميل فرع منه في الاتجاه الشمالي الغربي؛ ويميل الآخر الذي تبعناه في الاتجاه الشمالي إلى الشمالي الشرقي. ومررنا بعد ساعتين ونصف الساعة بقرية تُدعى «دار الحفرة»، وفيها حدائق من أشجار الحجيل ومزارع تسكنها قبيلة

(٥) خلا - الليل، مر عبر الظهرة وصولاً كردي جبالاً ورافقه عدة بدراء وقد أتى من مركز محمد علي الرئيسي، وكان يحسن بآ إلقاء القيص على تربة لصالح طوسون باشا، في «المدينة».

«الحواسيب»، وهي فرع آخر من قبيلة حرب. وقد شيدت هنا عدة أبراج مراقبة على قمم الجبال لمجاورة على جانبي الوادي، بناها عثمان المضايقة لتأمين مروره وحمايته وقد عُرضت علينا الكثير من أشجار المور للبيع عند مرورنا بهذا المكان وبعد مرور ساعتين وثلاثة أرباع الساعة، تبدأ الطريق بالارتفاع، كما أن تربة الوادي البعيدة عن الظفرة، هي تربة حصية ممروجة بالرمل، وقد أصبحت الآن صحيرية بعد أربع ساعات وربع الساعة، مررنا بقرية تُدعى «مفعدة»، وهي تُنتج التمر كذلك.

توقفاً هنا بربع ساعة. حيث أحاط بنا العديد من السكان؛ وعند اعتلائي لجمال محمداً، وحدث أن عدة أعراض بسيطة قد شُيبت من أمتعتي وتحشى قوافل الحج بشكل خاص هذه الممارسات؛ ويُروى عن ارتكاب سرقات قام بها العرب وتندو غير معقولة وصعبة لتصديق تقريباً فهم يترقبون أحداً يري الخيول الأتراك ويدحسون في القافلة خلال السير بيلاً، بهذه الطريقة، قاموا لسنة الماضية بسلب أحد أفضل خيول باشا دمشق، رعيم القعدة السورية وهم يقفرون من الخوف على حمل خراج مسترسل في اسوم ويكتمون فاه بعائتهم ويرمون برملاتهم أرضاً كل من يحدون عليه من أعراض ثمينة وإذا ما تم اكتشافهم، فهم يستنون حواجرهم ويشقون طريقهم؛ فهم لا يتوقعون أي نوع من أنواع الرحمة إذا ما تم إلقاء القبض عليهم إلا وسينة العقاب المعتادة في مثل هذه الظروف، هي بقتلهم على الحاروق في المحطة التي تنطلق القافلة فيها من محطة التذية، ويتركوبهم ليموتوا على الحاروق أو الولد أو تنتههم الوحوش الضاربة غير أن الرعب ندي بشره في اسوس مثل هذا العقاب لا يمنع أحريش من ارتكاب الخرائم نفسها؛ ويقوم الأفراد بين البدو بمدح أنفسهم لشهريهم كحبر، في سرقة الخجاج، لأن ذلك يحصلب شجاعة هائلة وبراعة تتميز بها شخصيتهم

من هنا، نفع طريقاً شمالاً شرقاً بدرجة ٢٠. وبدأ هنا وذب قاحل يسع طوله من جانب إلى آخر نحو ثلاثمائة ياردة، وقد أوصلنا بعد مضي ست ساعات ونصف الساعة عبر تعرجات عديدة، إلى «الحديدة» Dredede. وهي تقع على بقعة تصبح عندها الطريق مستقيمة شديدة الارتفاع وقد رأيت الكثير من أشجار الساج على جانبي الوادي الذي يحسن سم «الحديدة»، ويُقسم إلى عدة فري. وتقع السوق قرب المدخل الجبلي، أو سوق «الحديدة» التي بدت مساحتها أكبر منها في لظفرة، لكنها الآن مهتمة بمروراً ويصبح الوادي من هناك أشد ضيقاً، ويمر لساعة تقريباً بين صحور حادة في هذه البقعة، شئ محمد عني أولى حملاته ضد الوهابيين بقيادة محمّد طوسون بك، التي مُيبت بالهزيمة في سنة ١٨١١. فقد استولوا على الجبدين، وكانت طنقات الأسلحة تعبال مساحة الوادي حيث حاول جيش التركي عبثاً، لغور

وكان حاصراً هناك معظم مشايخ قبيلة حرب ورعيما الوهابيين الجنوبيين العظيما عثمان
المصايفة وطامي، برفقة اثنين من أبناء سعود.

بعد مرور سبع ساعات ونصف، مررنا «بالخيف»، وهي آخر قرية في وادي «الجديدة»؛ وقد
انتشرت على طول الوادي عدة مجموعات من المنازل المنعزلة وقد نُصبت هنا نحو ثمانين خيمة
للمحود الأتراك لحماية هذا الممر. وهو أحد المواقع الأكثر أهمية في الحجاز لأنه السبيل الوحيد
الذي تستطيع عبره القوافل التقدم من مكة أو يسع إلى «المدينة». إن قبيلة حرب مؤهلة تماماً
لحماية هذا الموقع بسبب الطبع الحربي الذي تُشتم به وحتى قبل الفتح الزهابي، كانوا في
حروب متكررة مع القادة السورية؛ وقد تمّ هنا صدّ جرّار باشا Djezzar نفسه مرات عديدة،
واضطر إلى اتباع طريق الحج الشرقية عند مؤخرة سلسلة الجبال الكبيرة كي لا يخضع لمطالب
بني حرب الداهضة مقابل السماح لقوافل الحج بالمرور في أراضيهم وقد اضطر إلى القيام
بالشيء نفسه باشا دمشق. عبد الله، الذي قد قافلة الحج إلى مكة شخصياً ثماني عشرة مرة.
وحيث تكون قبيلة حرب على تعاونهم وودّ مع القافلة، فلها الحق في صرية مرور مرتفعة تُدفع في
«الجديدة» Djeddeyde.

لقد بدت لي الظهرة مأهولة أكثر، وتحتوي على عدد أكبر من المنازل مما هناك في «الجديدة»
الآن بالحديث عن هذا الأمر، يجمع العرب عامة الأسس فيقولون: «وادي الظهرة والجديدة»
ويتسع الوادي خلف «الخيف» وتكثر فيه المقامات. وكانت قافلتنا حائرة باستمرار هب من
المصوص الذين أبقوا مستبقطين على الرغم من أن البرد الشديد خلال الليل لم يكن يسمح لنا
بالنوم. وكان اتجاهها الأساسي من «الخيف» شمالاً شرقاً بدرجة ٤٠ وبعد مصي اثني عشرة
ساعة، دخلنا سهلاً مرتفعاً قليلاً عبر الوادي ويقع وسط الجبال. ويبلغ طوله نحو عشرة أميال،
ويُدعى «الزربة» حيث ترجل.

في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير بقينا مخبئين هنا طول النهار بعد أن
أطلعنا بعض المسافرين على حدوث أعمال شغب على الطريق أمامنا؛ ولم نكتشف عدم صحة
هذه الإخبارية حتى اليوم التالي. إن الصحور المحيطة بالسهل هي في جزء منها من العرايب
وفي جزء آخر من حجر الكس وتغطي أشجار الأفاقيا السهل بكثافة وتتوافر المياه العذبة على
جانب الجبال لكنها بعيدة في السهل نفسه ويرعى بعض بدو قبيلة بني سالم ماشيتهم هنا،
وهي القبيلة التي ينتمي إليها كذلك سكان «الجديدة» وكانوا متهمكين في جميع الطعام
حماهم من شحر الأفاقيا، ولهذا تعرض قدموا بمدّ حصيره من القش تحت الشجرة وبدأوا
بضرب أعصابها بعصي طويلة، نهضت أرضاً الأوراق الياقة الصرّة من عزم الصرّبات، وهي

تعتبر انقطاع الأضواء للجسم. وقد رأيت بك الأوراق تباع بالكيل في سوق الطفرة. وقد قُصا
تفايصة بعض البسكويت بالحليب مع هؤلاء البدو، وأعطيت أحدهم كمية صغيرة من عشب
الراوند فأحضر لي قليلاً من الزبدة الطازجة في المقابل.

في السادس وعشرين من شهر كانون الثاني/يناير، انطلقنا عند الساعة الثانية من بعد الظهر
ووصلنا إلى الجبل بعد اسير لساعة ونصف ساعة على السهول وبعيد عرس السهل هد كله
بحو سة أمبال فدحبت الجبل في اتجاه شمالي شرقي بدرجة ٥٠ ويشكل مريح صحور
الغرايت والكس حقة عبر متصلة. ثم مررنا عبر شغب أو ممر صيق قصير؛ وبعد مرور ساعتين
وبصرف دخلنا سهلاً صغيراً يُدعى شب بهال Shab e. Hal، بين الجبل حيث نُصت عنه
محيطات للبدو. وبعد خمس ساعات دحبت وادياً عريضاً عند بي حص مستقيم وتعلمه الرمال
البيضاء كان لدي فارساً وهدل أنقر جميلاً، فمشيت أدم القافلة التي كانت تسير ببطء،
تتقدمها دون أن أنته بدت، إلى مسافة كبيرة. وحين تم تظهر القافلة ورئي حسنت تحت
شجرة، وكنت أهدم في إشعال الدار حين سمعت وقع أحصنة تتقدم بحوي، فاحسبأت خلف
لأشجار ورأيت على الفور بعض البدو في مضهر يدعوني إلى الشك والزينة، يرون بالقرب مني
وبعد أن انتظرت القافلة طويلاً وعجزت عن معرفة سبب تأخيرها، ترجعت لأجد الجمال وقد
وقفت لتستريح وتستعيد أنفاسها، وكان كمن من يركبها مسرلاً في اليوم، وكان البسكرو
سيراً على الأقدام لا يزال متخريص عنها في الخلف وقد تكرر ذلك مرات عديدة خلال
رحلتنا فحين لا يسمع حمل أي صوت موته إليه، وحين لا يعمد القائد إلى حقه على السير،
فإنه يحقق سرعة خطواته ليقف أخيراً دون حراك يأخذ قسطاً من الراحة. وإذا ما توقف الجمال
في المقدمة، فعمل الجمال كلها في الحيف الشيء نفسه. فقامت بإيقاظ العرب وتابع السير.
وفي اليوم التالي، علمنا أن بعض المسافرين قد تعرضوا للسلب في تلك الليلة على الطريق ومن
لا شك فيه أن لفاعلين كانوا أولئك الخيالة بسين مزو بالعرب مني، ودين ري نفرقوا حين رأوا
قافلة كبيرة تقترب.

يُدعى الوادي الذي كنا سافر عبره «وادي الشهداء»، حيث يقال إن العديد من تباع
محمد - صبي الله عليه وسلم - قد قُتلوا في معركة؛ وقد عُطيت رؤاهم بكنل حجرية حشة
في أحراء محتمة من الوادي. ورى هنا أيضاً عدة قبور لحداح. وقد شاهدت بعض الجدران
في حالة سدعية حدة، حيث يبدو أن معبداً أو مسجداً صغيراً كان يقع هنا؛ حيث تعيب المياه
كلياً. إن هذه هي إحدى محطات قافله الحج. وبعد مصي تسع ساعات خرجنا من هذا الوادي
لدي يقع على مرتفع بسيط حدة، ثم اتجهت شرقاً ثم شمالاً شرقاً لعبور أرضاً صحيرية ودخل

سهلاً مسيحاً يدعى «العريش»، حيث مرّت بها قاعدتان صغيرتان قادماتان من «المدينة» في طريقهما إلى تبّيع وترجّسا بعد مضي إحدى عشرة ساعة ونصف.

لقد شهد سهل «عريش»، حسب المؤرخ الأعصمي، معركة دموية شنت بين شريف مكة وقبائل صغيرة ابتدوية سنة ١٠٦٣ هـ. وكانت قبيلة صغير المستقرة الآن في بلاد ما بين الهرير، باتجاه بغداد، ترعى قطعها في مناطق مجاورة لـ«المدينة».

السابع والعشرون من شهر كانون الثاني/يناير إلى الصحور كلها هنا من الغرابيت الأحمر وقد مرّت بنا مجموعة من البدو برفقة نسائهم وأولادهم وحيمهم، وكانوا ينتمون إلى قبيلة من قبائل حرب وتدعى «الحامدة» لقد عادروا شمالي البلاد حيث لم يكن انظر قد هطل بعد، للبحث عن مراعى وهو في الجبل الجنوبية. وبسما كنا محيّمين، هبت عاصفة قوية يُرافقها البرق والرعد فأدركنا، وهطل المطر. وما أن انظر كان كبيراً بأن تستمر العاصفة لفترة طويلة، وما أنا لم يكن يملك خيماً، فقد كان من المناسب موصلة السير. انطبقا بعد انظهر. واستمر هطول المطر طوال النهار والليل بأكمله، إلى جانب الطقس القارس في هذه المناطق المرتفعة، وقد غابنا جميعاً من نتائج ذلك.

صعد طريقنا عبر أودية صحيرية مبيّنة بالأشجار الشائكة وتقطعها عدة سيول، مما جعلنا نمر فيها بصعوبة. وبعد السير لسبع ساعات، بلغنا قمة هذه السلسلة من الجبال، فتبدّى لنا السهل الشرقي الضخم وقد امتد أمامنا؛ وقطعت عدة تلال معرلة؛ وكانت أحجار الصوّان السوداء والبيضاء تغطي الأرض. وبعد مرور سبع ساعات مررنا على مسافة معينة عربيّ مرارح النخيل والبيوت البعيدة البنية حول بئر علي وصلنا أمام بوابة «المدينة» بعد عشر ساعات، في منتصف الليل، ما إن تمخّص الطقس حل صقيع قارس تبع هطول المطر وكانت السواة معلقة فاصطبرنا إلى الانتظار حتى طلوع النهار لكي يتم فتحها ونعبرها عن إشعال النار على الأرض المبلّلة بالوقود الرطب، وما أن الجميع كان مبتلاً من المطر، فقد باب صقيع الصباح القارس والحار مصدر أسى وألم؛ وقد يكون هذا ما تسبب بالحمى التي تمكّنتني لفترة طويلة في هذه المدينة، إذ إني كنت أتمتع بصحة جيدة خلال الرحلة بأكملها.

دخلنا «المدينة» عند شروق شمس الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير، أي في اليوم الثالث عشر من معدرتنا مكة، بعد أن توقّف ليومين على الطريق وتقرّم عادة قافلة الحج بالرحلة في أحد عشر يوماً، وعشرة أيام إذا كان في عجله من أمرها.

يُصاق البدو على البلاد كلها بين مكة و«المدينة» عربيّ الجبال اسم «الجحمة»، الذي يُفهم معناه أحياناً بأنه البلاد الممتدة من مكة إلى بدر فقط.

المدينة

توقفت القافلة في هذه واسع في الصحابة حيث تمّ يدع الحمولة، ويترك المسافرون القادرون كنهم معها مباشرة، بحثاً عن المساكن. ومساعدة أحد المرؤسين، وهي معه محبته من الرحل الذين يشبهون السليل في مكة، حصلت بعد عشاء عبي شقة جيدة في شارع اسوق الرئيسي في المدينة، وتعد نحو خمسين ياردة عن المسجد. وبعتُ أمتعتي إليها، حين دعايني المرؤر بزيارة المسجد وقر محمد - صلى الله عليه وسلم - المقدس، إذ إن الشريعة تفرض هنا على المسافر الوصول إلى المدينة، كما في مكة، تأدية هذا الواجب قبل القيام بأي عمل وإن كان نافعاً^(١)

إن اشعائر هنا أسهل بكثير وقصر منها في مكة كما سرى ههنا فهي ربيع ساعة، ثممت ذلك الواجب وأصحتُ حراً للعودة إلى المنى والالتفات إلى شؤون البيت. وقد ساعدني المرؤر في شراء كل المؤن الضرورية التي لم يكن ليحصل عنها من غير صعوبة؛ إذ إن طرسون باشا، حاكم المدينة، قد أرحب ببدو وصائقي الجمال الذين كانوا يأتون بالمؤن إلى هنا، وحنهم على الغرام بسبب تدابيرهم المتهورة. غير أن الطحين والبردة، وهما السلعتان الأساسيتان في المطبخ الشرقي، كان يجب الحصول عليهما قبل مغيب الشمس، فهما لا توجدان في السوق العامة لكن مرت ثلاثة أيام قبل أن أتمكن من الحصول على محمي، إذ تزداد الحاجة إليه في هذا الفصل لبارد من السنة. وسمعتُ بعدها أن يحيى فندي، صبيب طرسون باشا، وهو الشخص نفسه لذي قام في غمرا يوليو السابق بأحد خطاب الائتمان حصتي إلى جدة، كان هنا فتمتُ بزيارته في اليوم التالي وأظفنه على رسالة سلمها في مكة قبل مغادرتي تلك المدينة، وهي

(١) قر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بس مقدماً ينحه إليه كالكمية وزيارته ليست موصفاً كما يرفع المؤلف

مُرْسَمة من مصر في القاهرة، يذكر فيها المصرفي الذي أتعامل معه أنه دفع تلك الماتورة، ولم يكن حير ذلك قد بلغ يحس نفسه وبقدري ما كانت معرفتي بهذا السيد معيدة جداً لي في تلك الظروف، غير أن أموراً عدة قد حدثت لتثقل من شأن تلك المعرفة. وفي زيارة لي قام هو بها في وقت لاحق، حدث أن رأى ما كان ندي من محروون أدوية صغير، هو نفسه الذي كنت أحمله في رحلتي إلى النوبة والذي لم أستخدم خلالها سوى بعض المقيّطات والمسهلات التي لحأت إليها خلال إقامتي في جدة ومكة فقط؛ بدا، فقد كان هناك نصف باوند من الأدوية التي لم أستخدمها قط. في هذه الأثناء، كان عدة أشخاص في بلاط الباشا يعانون من الحمى؛ حتى أن طوسون باشا نفسه كان في حالة صحية متوسطة؛ ولم يكن بحورة طبيبه سوى القليل من الأدوية التي تناسب حالات ممثلة. فرحاني أن أعطيه كيس أدويتي؛ ففعلت، لأنني كنت حينها في صحة جيدة، كما أنني كنت قريباً من مصر التي كنت أمل أن أصلها في مدة شهرين تقريباً. فضلاً عن ذلك، كنت أدين له ببعض الواجبات، وقد شجعت بالتعبير عن امتناني. بعد يومين، حدث ما جعلني أندم على كرمي وسخائي؛ فقد أصبغت بالحمى التي سرعان ما استغفلت بشكل حدي. وبما أنها كانت متقطعة، رعت في تناول الدواء، لكنني حين طلبت من الطبيب نصه بعضاً منه، أكد لي أنه كان قد وزع جرّ كمية منه، وأحضر لي بدلاً عنه بعضاً من مسحوق الجينثيانا Gentiana الذي كان قد فقد كل فوائده مع الوقت وهكذا، تفاقمتم الحمى برفاقها التقوّم اليومي والمتكرر والتمرق المزيم؛ واستمر ذلك يوماً للشهر الأول بكامله. وأثبتت المقيّطات التي استعملتها عدم فعاليتها. وبعد أن تناولت كل أنواع الأدوية التي كنت أحتاجها وأظنها مفيدة لحالتي، تركت مرضي لطبيعة تعاجه؛ إذ كنت نادراً ما أشرف برعاية من صديقي يحيى أهدي. بعد مرور الشهر الأول، عرفت فترة ماضية من لراحة استمرت أسبوعاً، أو أنني تمكنت من استعمالها بأحد الأدوية المناسب، لكنني بلا ريب تعلّبت على التوغل الذي أُلِّم بي؛ إلا أنه حبّ ليعود بحدة أكبر، وقد تحول الآن إلى حمى ثلثية، أي تتكرر كل ثمان وأربعين ساعة، في حين استمر التقوّم ترافقه حالات إغماء عرصية، لينتهي إلى إجهاد وتهيّار تام وبث الآن عاجزاً عن النهوض عن سجادتي بعير مساعدة حادمي، وهو رجل مسكين يصلح، حسب عاداته وطبيعته للعناية بجمل أكثر مما يصلح لتمرير سنده الواهر.

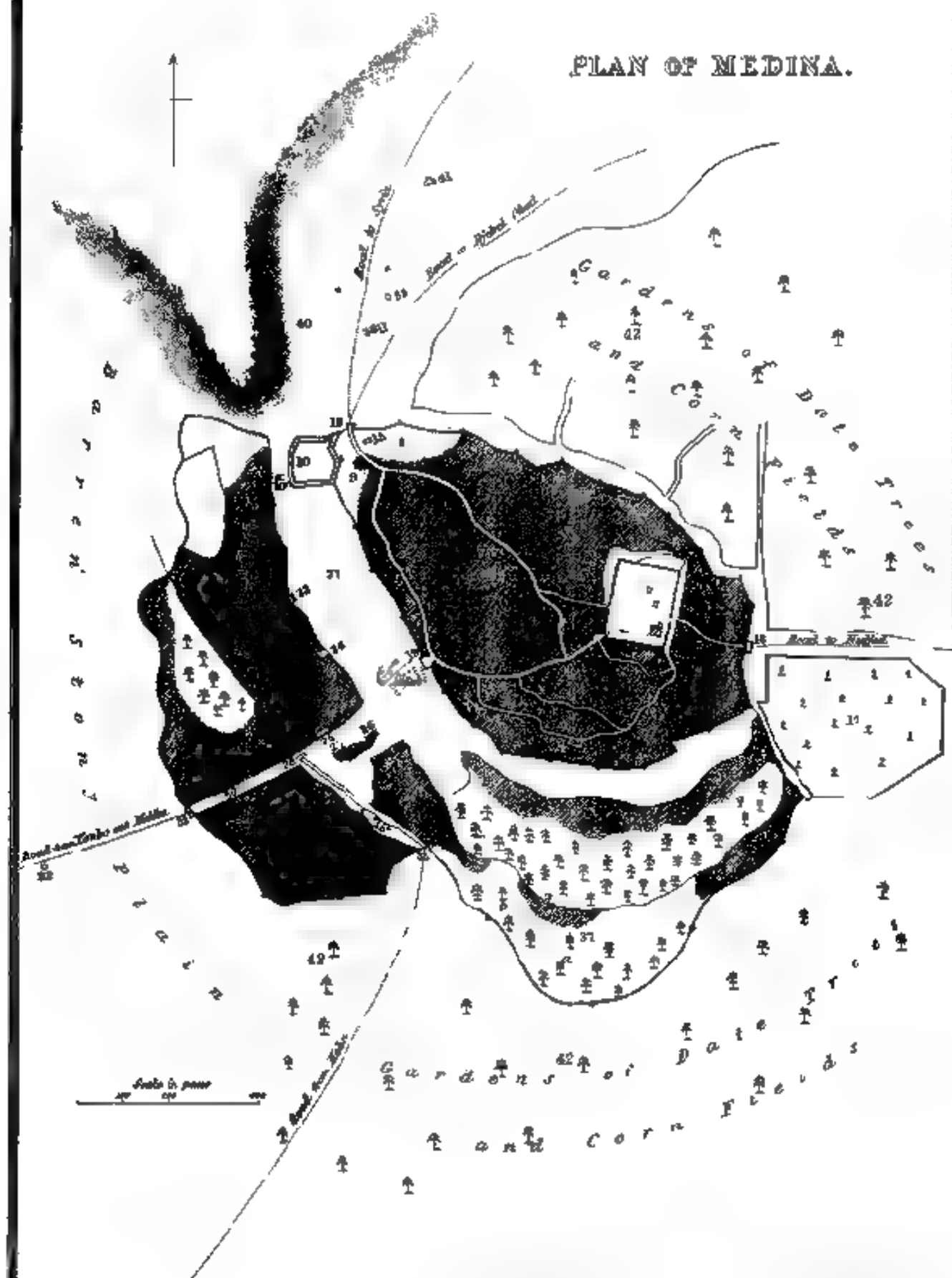
لقد فقدت الأمل في ذلك الوقت في العودة إلى مصر، وحضرت نفسي لموتها وتملكني الكتابة حيث أدركت أنه إذا ما بلغ حير موتي إلى إنكلترا، فقد تُعتبر رحلتي كلها في الحجار عملاً غير مُرحص قام به مُبشر طائش أو مُعالٍ في حماسه على الأقل. ولم يكن بحورتي أي كتب، ولا صحة تبعدي عن مثل تلك الأفكار والاعمال. فكنت أملك كتاباً واحداً، وهو نسخة جيب من أشعار ملتون Milton، كان قد سمح لي كاتب Boag في جدة بأخذ من

مكتبته وعُتِفَ أنه كان الآن يسوي رفاً كاملاً مبدئياً يكتب أخرى. كما أن ربة البيت الذي كنتُ أسكن فيه، وهي امرأة مسنة عذراء، مصرية المولد، قد اتحدت مسكناً بها خلال إقامتي، في طابق عدي يستطيع منه ان تحاطب معي من غير أن أراه كونه يفتح على عرفتني الخاصة في الأسفل. كانت تلك المرة تحدثني لنصف ساعة كل مساءً، وكان مروري يقوم بزيارتي من وقت لآخر، بهدف الاستلقاء على حذاء من معتي في حال وفاتي، كما راودتني شكوكي. وغادر يحيى أسدي لمدينه في شهر آذار/ مارس مع جيش طوسون باش الذي ذهب في حملة على الوهابيين

مع بداية شهر نيسان/ أبريل، ساعدت عودة حرارة طقس لربيع في وضع حد مرضي، لكن من أسبوعين تقريباً قبل أن أخرج بالخروج، وكنتُ أحشى أي سمة محفة عودة الحمى إلى الطقس السيء في المدينة ومناخها لكربها، فضلاً عن الأمراض والأوبئة العديدة التي كانت سائدة هناك، كل ذلك جعلني أتوق بفارغ الصبر إلى معادرة «المدينة». لقد كانت بيتي لأساسيه إبقاء هـ شهراً واحداً عني لأكثر، ثم مرافقة بعض الأدلاء البدو لأعبر معهم الصحراء إلى العقبة، عند طرف البحر الأحمر، في اتجاه مستقيم، من حيث كنتُ تكنت من إيجاد حربي بسهولة إلى القاهرة وقد رعت في هذه الطريق، في ريدة «هجرة» على طريق لفايلة سورية، حيث توفعت إيجاد بعض انقيا من آثار العصور النائية لي لم يصفها أي مسافر آخر، يسا كان داخل البلاد يرحل بالعديد من الموضوعات الأخرى التي تستحق البحث والتدقيق غير أن قيمي بثلث الرحلة كان مستحيلاً تدماً في حالتي لصحية المماثلة لشفاء، كما أن لأمل لم يكن موجوداً في أن أستعيد كامل صحتي في شهرين اثنين، والقوة الكافية بقيام برحلة سهكة إلى هذا الحد إن الانتظار طويلاً والتعرض باستمرار لمؤثرات المناخ السيء، كنت من الأمور غير حميدة؛ وكنتُ أتوق إلى تشق هواء حديد لقاعتي بأن ذلك يحول دون عودة حمى مرة جديدة. لقد دفعني كل تلك الأحاسيس إلى التحني عن المحطّط الذي رسمه صوباً لرحلي، وعقدتُ البتة الآن على الذهاب إلى يسع على ساحل البحر وإبحار من هناك إلى مصر، وهو أمر بات ضرورياً تفرصه حالتي المادية التي تدهورت بسبب إقامتي المطوّنة في «المدينة» وحين وحدثني قوماً ما يكفي بركوب الحصان، رحلتُ بحث عن عربة منجّهة إلى يسع وتعاقدت مع بدوي كان يشكل برفقة أصحابه قافلة صميرة انطلقت إلى هناك في الواحد والعشرين من شهر نيسان/ أبريل، في ستة أيام بعد ثلاثة أشهر من وصولي إلى «المدينة»، فصبتُ منها ثمانية أمنايع من الرقاد بسبب المرض

وقد رسمتُ خريطة المدينة خلال الأيام الأولى من إقامتي وأستطيع الحزم بصحح حصولها العامة، غير أنني لم أحط بالفرع الذي يشع لي تدفق تفاصيلها كلها كما نعلت في خريطة مكة.

PLAN OF MEDINA.



وصف المدينة(*)

تقع «المدينة» على طرف شبه الجزيرة الكبيرة، بالقرب من سلسلة الجبال التي يقطع تلك

- | | |
|---|---|
| <p>٢ - بير النبي محمد المدعو «الهمجرة»
 ٣ - شارع السوق الرئيسي
 ٤ - مدرسة حكومية مدرسة والحمدية
 ٥ - المسجد الكبير المدعو «الحرم»
 ٦ - منزل شيخ «الحرم»
 ٧ - شارع اسمه «البلاط»
 ٨ - الشارع المدعو «فرقان الصوان»
 ٩ - أحياء مهذمة
 ١٠ - بوابه صخرة
 ١١ - حمام عمومي
 ١٢ - حي بني شمس
 ١٣ - درجعات تؤدي إلى القناة في أجزاء مختلفة من المدينة
 ١٤ - مقبرة اسمها البقيع
 ١٥ - البوابة المدعوة «باب الفصري»
 ١٦ - المساحة المكشوفة المدعوة: «المنابع» مكان توقف
 البئر والحدود
 ١٧ - منزل الحاكم التركي
 ١٨ - أنفصل مبنى خاص في المدينة حيث تقسم سدة الباشا
 ١٩ - جامع آخر
 ٢٠ - منبر الباشا مع حديقة كبيرة
 ٢١ - البوابة المدعوة: «باب الصخرة»
 ٢٢ - حي في الصحابة؛ المساحة
 ٢٣ - قناة كبير تتولف فيه القناعات الدائمة من مكة
 ٢٤ - مجرى النيل</p> | <p>(٥) شرح خريطة «المدينة»
 ١ - المسجد الكبير المدعو «الحرم»
 ٢ - منزل شيخ «الحرم»
 ٣ - شارع اسمه «البلاط»
 ٤ - الشارع المدعو «فرقان الصوان»
 ٥ - أحياء مهذمة
 ٦ - بوابه صخرة
 ٧ - منبر الباشا
 ٨ - حي الأغوارب
 ٩ - البوابة المدعوة: «باب المجمع»
 ١٠ - البوابة المدعوة: «باب الشامي»
 ١١ - مقابر وأكواخ
 ١٢ - حي في الصحابة اسمه الواقعة مع حمور
 ومنار مهذمة
 ١٣ - حزان مفيء بياض القناة
 ١٤ - المسجد المدعو: «مسجد عمر»
 ١٥ - جسر على مجرى النيل
 ١٦ - شارع وحي اسمه «العبر»
 ١٧ - برج صغير يثني من حمام الوهابيين الذين
 قتلوا بين استولى الأتراك على المدينة
 ١٨ - بوابه صخرة: «باب قب»</p> |
|---|---|

البلاد من الشمال إلى الجنوب، وهي استمرارية لنسبنا لقد سبق أن ذكرت في كتابي حول «البتراء العربية»، أن السلسلة الواقعة شرقي البحر الميت تمتد برولاً إلى العقبة، ثم تمتد من هناك على طول شاطئ البحر الأحمر حتى اليمن، وتكون أحياناً على مقربة من البحر، ويعترضها في أجزاء أخرى سهل يدعو العرب «نهامة»، وهو اسم يُطلق في اليمن كذلك على قسم معين منها وقد ذكرت أيضاً في ذلك الكتاب أن المنحدر الشرقي لتلك الجبال، على طول لأردن والبحر الميت والوادي المسمى قزينة، برولاً حتى العقبة، أحف بكثير من المنحدر العربي. بذلك، فإن سهل شبه الحريرة الكبير الذي يبدأ من الجهة الشرقية لتلك الجبال مرتفع جداً فوق مستوى البحر. وقد دوت الملاحظة نفسها عند دهاشي إلى أطراف بعد أن اجتثت الجبل المدعو جبل «قرى» الذي يشكل جزءاً من تلك السلسلة؛ ويمكّر ملاحظة الشيء نفسه في «المدينة» فالجبل الذي صعدناه عند مجيئنا من مكة، حين نطرق إليه من الساحل، تبدو لنا قمم مستدقة شاهقة الارتفاع؛ وحين بلعنا السهل الشمالي في جوار «المدينة»، بدت لنا تلك القمم على يسارنا، وكأنها مجرد نلال، حيث أن ارتدعها فوق السهل الشرقي لا يتعدى ثلث لارتفاع عن شاطئ البحر العربي.

تبع آخر تعرجات تلك الجبال المدينة من الجانب الشمالي؛ وتصبح البلاد في الجانب الآخر مستوية بالرغم من أنها ليست دائماً عبارة عن سهل مسطح كلياً ويمتد فرع من السلسلة ويُدعى جبل «أحد» إلى السهل قبلاً على مسافة ساعة واحدة من المدينة في الاتجاه الشمالي إلى الشمالي الشرقي. وعلى مسافة ثمانية إلى عشر ساعات (شرقاً شمالاً^(١))، بدرجة ٦ - شرقاً جنوباً، بدرجة ٦)، ترتفع سلسلة من نلال المحفصة شرقاً، تمرّ عبرها الطريق إلى «بجد». وهناك نلال مماثلة، على المسافة نفسها، تقع إلى الجنوب الشرقي. وتمتد البلاد جنوباً على مستوى ميسط كما يظهر ذلك وإلى الجنوب العربي، على مسافة ساعة أو ساعة ونصف، يمر فرع يُدعى جبل عيرا من السلسلة الرئيسية إلى السهل، كجبل أحد.

وقد سُيّدت المدينة نفسها على الجزء الجنوبي من السهل، حيث إنها تغلق السهول من الجبال العربية، والجداول من جنوب والجنوب شرقي؛ مما يُحدث في الفصل المطر بركاً

٣٧ - أحياء فيها مساكن وحدائق

أ) حي يدعى لشهيرة

ب) حي يدعى الهندية

٣٩ - آثار مختلفة من المياه المالحة

٤١ - فيه صبرة يدعى العرب

(١) هذه الأرقام عرضة لارتجاجات إبرة القوسلة وليست دقيقة

٣٨ - خزّان ماء نحجاج السوري

٤٠ - مخيم قافلة الحج السورية

٤٢ - ساتين بحيل، وحقول على ثلاثة جوارب من المدينة

عابدة من المياه بركدة التي تُترك لتتجعد تدريجياً كما أن السدائق والأشجار والجدران التي
بكثر في السهل تقطع مجرى الهواء الحر تُحيط هذه الحدائق ومزارع السهل المرصعة بالحقول
بالمدينة من جهات ثلاث تاركة فقط جزءاً من السهل مكشوحاً للرياح وتجاه الطريق المؤدية إلى
مكة حيث تجعل صبة لأرض الصحريه من الزراعة أمراً مستحيلاً

إن «المدينة» مقسمة إلى قلب المدينة ولصواحي، بداخل شكل بيضوي يسغ محييه نحو
أربع وثلاثين حصوه تسهي في نقطة معينة وقد شيدت القلعة عند ملت النقطة على مربع
صخري صغير، ويحيط به حصار حجري سميك يتراوح ارتفاعه بين خمس وثلاثين وأربعين
قدماً ويصوّفه نحو ثلاثين برحاً وقد أحيط بحندق (من صنع لوهيين)، ثم ملؤه بمياه في أماكن
عدة تقريباً. ويتم ترميم الجدار بشكل كامل، وهو يشكل في شبه الجزيرة روعاً مهماً جداً؛
حيث كانت «المدينة» تُعتبر دوماً قلعة الحجاز الرئيسية وقد شُيّد الجدار سنة ١٣٦٠هـ؛ وكانت
لمدينة حتى ذلك التاريخ مفتوحة ومعرضة يرمياً لعروات البدو في اساطير الحيرة وقد أعيد
بناؤه فيما بعد في فترات مختلفة لكن بشكل أساسي سنة ٩٠٠هـ، وكان قد حفر حوله حندق
سنة ٧٥١هـ وحسب كلام الأعصمي، فقد تم تشييده كما هو الآن، بيوثانه، بأمر من سليمان
بن سليم في نهاية القرن السادس عشر حسب تقويم، وتؤدي ثلاث بوابات حميدة إلى داخل
المدينة وهي باب المصري في الجهة الجنوبية (وهي، إلى جانب باب الفتح Fatouh في
القاهرة من أجمل بوابات اند، التي رأيتها في الشرق)؛ وباب اشامي في الجهة الشمالية وباب
الجمعة في الجهة شرقية. كان هناك بوابة فرعية صغيرة تُدعى باب الصغير في الجدار الجنوبي،
وقد أعلقها الوهديون وقرب باب اشامي، بجانب بقعة، يظهر تحوير على شكل طرفة في
حائط المدينة حيث كان هناك عمداً مصفى مسجداً يدعى مسجد الست، كان مشيداً بمحمد -
صلى الله عليه وسلم - محاربون يطبقون منها للممارسة تمارين حجري.

والمدينة متخذة الباء، وكلها من الحجر، ومزارع عامة لا ترفع سوى صدقين مع أسطح
مبسطة، ولم يتم تبييض سائر، أو طلاؤها باللون الأبيض، فالحجر يستعمل لون قائم مما
أصفى على الشوارع طابعاً كسباً. والشوارع، في معظم أجزائها صيقة جداً ويسع عرضها حاناً
ثلاث حصوات فقط؛ وبعض الشوارع الرئيسية معتدة بأحجار كبيرة، وهي رفاة قليلاً ما
يوقّعها مسافر في شبه الجزيرة، وهي تجمّلها إحدى المدن العسلى بباء مما رأيت في الشرق
وتأتي في هذا الصدد بعد حلب ولها في الوقت حاصر مطهر كثيف، فالدارل تاكل شيئاً
مشيئاً والناكون اندين كانوا يحولون أرباحاً طائلة من حشود الزائرين القادمين على مدار سنة،
قد تقلص دخلهم فقاموا بالدلي بتحفيص مصاريف الباء الكبيرة لأنهم يعلمون أنهم لن يتمكنوا
من اسرعاها غير تأخير لشفق وتظهر المنازل المهتمة والجدران المتداعية في كل جزء من

مدينة كما أن «المدينة» المظهر نفسه المشيط لهمة كمعظم المدن الشرقية التي لا تعكس سوى صور واهية عن عظمتها القديمة.

إن الشارع الرئيسي في المدينة هو لأكثر عرصاً، وهو يؤدي، من بوابة القاهرة، إلى المسجد الكبير؛ ويحتوي هذا الشارع على معظم المتاجر. وهناك شارع آخر هام ويدعى «البلاط»، يمتد من المسجد حتى البوابة السورية، لكن العديد من اسارل فيه مهتّم؛ وهو يحتوي أيضاً على بضعة متاجر. لكنا لا نجد أيّاً منها في أجزاء أخرى من المدينة؛ وتختلف بذلك عن مكة التي هي عبارة عن سوق متواصلة يشكل عام، إن تلك لأحيرة تشبه المدن العربية أكثر من «المدينة» بكثير التي تُحكي مدينة سورية. ولم يتسنّ لي الوقت لرسم أحياء المدينة المختلفة كلها؛ غير أنني سأذكر هنا الأسماء التي تُعرف بها تلك الأحياء في الوقت الحاضر.

إن الأحياء الواقعة بين الشرعين الرئيسيين المؤديين من البوابتين المصرية والسورية إلى المسجد، هي: اسماحه وكومة خشبقة والبلاط ورفاق الطول (ها يقع المقام، أو مرل القاصي)، وقد أُرغقت بالأبنة الكبيرة عدة حدائق عشاء) ورفاق الصرة وسقيفة شاخي ورفاق البقر.

ولأحياء الواقعة إلى الشمال من شارع البلاط والممتدة إلى الشمال من المسجد حتى بوابة الجمعة هي الحماطة ورفاق الحيس ورفاق عسقي ورفاق السماهذي وحارة الميدة وحارة الشرشورة ورفاق الدور وحارة الأعوت حيث يعيش حصيان المسجد.

والأحياء الواقعة من بوابة الجمعة على طول الأجرء الجنوبية من المدينة حتى البوابة المصرية وشارع السوق الكبير هي: درواك والصباحية ورفاق ياهو وحارة أحمد حيدر وحارة بني حسين حيث تعيش قبلة بني حسين وحارة السور وحارة سقفة والرصاص ورفاق الرندي ورفاق الكريت ورفاق الخجامين وحارة سيدي مالك حيث كان مرل مالك بن أنس، مؤسس المذهب المالكي، وحارة القماشين.

قبيلة هي الأبنة الصخرة أو الصروح العامة في أرباص المدينة. والمعبد الوحيد هو المسجد الكبير الذي يحتوي على قبر محمد - صلى الله عليه وسلم - وهناك مدرسة حكومية جيدة تُدعى مدرسة الحمدية في شارع البلاط وأخرى مشابهة قرب المسجد حيث يعيش شيخ الحرم أو حارسه، وهناك متحر كبير لسحطة يحيط بهاء واسع في القسم الجنوبي من المدينة، وحمام (وهو الوحيد) غير بعد حداً عن المتجر، بهاء محمد باشا، وزير السلطان سليمان سنة ٩٧٣ هـ وهذه هي كل الأبنة أو الصروح العامة التي رأيتها^(١) وقد بقيتني في مكة كذلك القصر في

(١) يذكر مؤرخ «مدية» عدة «عقالات»، أو خانات عامة، في هذه المدينة؛ لكنني لم أر أيّاً منها ولا أعتقد أنها ما زالت قائية الآن.

الأبسية العامة الأثرية بشكل عام، إن شعب شبه الجزيرة العربية ليس من هواة الهندسة المعمارية أو من متذوقيها، حتى إن رعماءهم يكتبون في منازلهم بما هو ضروري. إن كل ما نجده الآن من صروح عامة في مكة والمدينة، هي من إبداعات سلاطين مصر أو القسطنطينية، والمصريف لضرورة التي كان يهبطها هؤلاء الحكام سويةً باهظة جداً بما لم يفسح المجال لأي زيادة تُضاف إليها من أجل المظهر فقط. وفي مقابل هذا النقص في الأبسية العامة، هناك نعمة المساكن الخاصة الجميلة، التي نصه حدائق صغيرة وأبواباً تستعمل مياهاً للري وملء أحواض رحامية، يضي حولها المالكون في فصل الصيف ساعات مطهرة تحت مظلات عالية.

ونحيط بالقلمة التي ذكرتها آنفاً جدران منية حدة وأبراج عالية صلبة عديدة. وعند السؤال على البوابة، لم يُسمح لي بالدخول إليها في داخلها مساحة نكهة لاحتواء ما بين ستمئة وثمانئة رجل وفيها العديد من العرف لمقصرة المقاومة لتقبيل؛ وهي، إذا ما تمت حراستها جيداً وترويضها بالمؤب، تعتبر حصناً ميعاً ضد أي قوة عربية، حيث تم بناؤها على صحراء، لذلك ليس بالإمكان إصعاف أساساتها أو هزها غير أنها ستدور، في نظر مدفعية أوروبية، حصناً ناهياً أو غير ذي منفعة. وبها بئر جيدة للمياه العذبة؛ وقد رُكز على أبراجها في الوقت الحاضر مدفعان أو ثلاثة فقط. كما لم يكن هناك أكثر من اثني عشر مدفعاً صالحاً للاستخدام للدفاع عن المدينة كلها.

تمتد لصوحي على الجبيلين العربي والجنوبي من المدينة وهي تشغل مساحة أكبر من المدينة نفسها، وتفصلها عن هذه الأخيرة مساحة مكشوفة تصبى في الجانب الجنوبي وتتسع غرباً أمام بوابة القاهرة لتشكل ساحة عامة كبيرة تُدعى شاح، وهو اسم يدل على أن القوافل تتوقف هنا، وهي فعلاً تكتظ دائماً بالبدو والجمال كما شُيّد هنا العديد من الأكواخ واستقائف في صفوف؛ تُباع فيها المؤن وخاصة الحطة والتمر والخضار والبردة، فضلاً عن العديد من المقهى التي تعج بالرائزين طوال النهار واجهة لمقنة «المناج» من الصوحي ليس فيها جدران، لكنها، من الخارج، إلى الجنوب والعرب، محاطة بجدار أصغر حجماً وأقل صلابة من حائط المدينة الداخلي. ويصيح في أجراء عدة مهدماً كبيراً، وتحميه أبراج صغيرة في الجانب الجنوبي فقط وتؤدي أربع بوابات من الصوحي إلى الأراضي المكشوفة. وهي صغيرة الحجم ومصنوعة من أبواب خشبية غير منية، باستثناء تلك المؤدية من بوابة القاهرة، وهي لأكر حجماً والأفضل بناء من الأخريات.

يتألف القسم الأكبر من الصوحي من ساحات كبيرة مهيبة تحيط بها بيوت صغيرة محففة وقد بُنيت على الصابق الأرضي، وتفصل بين هذه البيوت حصرة وحدائق وتُدعى

هذه أسوار «الحوش» (الجمع حيشان) وتسكنها كل الطبقات الدنيا في المدينة والبدو المستوطنون هنا وكل أولئك الذين يعملون في الزراعة. ويصمم كل حوش ثلاثين أو أربعين عائلة تشكّل بالتالي قرى صغيرة منعصمة عديدة، تكون في وقت اضطراب الحكومة في حالة عداء وصعوبة مع بعضها بعضاً بشكل متكرر. ويتم وضع الماشية وسط الفناء الذي يحتوي على بئر كبيرة؛ وتُفعل بوابة الدحول الوحيدة بانتظام في الليل وفي الجانب الجنوبي والشمالي العربي من المدينة، ضمن حدود حدارها، تتألف الصواحي كلياً من ساحات عمالة فيها حدائق تمتد حولها أيضاً. وعلى الجانب العربي، مباشرة مقابل بوابة القاهرة والمناخ، تتألف الصواحي من شوارع عادية جيدة البناء، فيها مارل تشبه تلك التي في داخل المدينة. ويقطع الشارع العريض المدعو «العصرية» هذا الجزء من الصواحي، وهو يحترق على أبنية جميلة على الجانبين. في هذا الجوار، كان يسكن طوسون بشاء في منزل خاص، أما والدته الياشا، زوجة محمد علي، وسائر اللواتي أتت مؤخرًا لزيارة المدينة، فيسكن بالقرب منه، في أحسن منزل في المدينة، يملكه التاجر الثري «عبد الشكور».

إن الأحياء الأساسية في الصواحي هي حارة العصرية وحارة الواجبة وحارة السجّ وحارة أبو عيسى وحارة مصر وحارة انطيار وحارة نفيسة وحارة العمدية وحارة الشحرية وحارة الخيرية وحارة الجعفر. ويمثل العديد من الناس من داخل المدينة منازلهم الصيفية في تلك الأحياء حيث بمصون شهراً في موسم قطاف التمر ويحيط بكل حديقة جدار من الطين، ويتسع العديد من الأرقعة الفرعية لمرور حمل واحد فقط عبر الصواحي في كل اتجاه. وهناك مسجدين في «المناخ»، يُدعى الأول «مسجد علي» أو مسجد ابن عم النبي الذي يُروى أنه قديم ويعود بناؤه إلى عهد محمد - صلى الله عليه وسلم - غير أن المسمى كما هو قد أعيد بناؤه سنة ٨٧٦هـ، كما يُروى أن محمداً قد أدى هذا أحياناً صلاته، وتُقام فيه خطبة صلاة الجمعة وذلك لراحة سكان الصواحي البعيدة ويُدعى المسجد الثاني «مسجد عمر»، وقد أُرقيت به مدرسة حكومية تُستعمل في أوقات احاضر كمستودع للبصائع ومركز للعديد من الجود ويُطلق مؤرخ مكة على المسجدين اسم «مسجد الفتح»، ويسمى أحدهما «المسجد الأعلى» لأنه يقع على أعلى جزء من المدينة وكان هناك في القرن السادس عشر مسجداً آخر يُدعى أحدهما «مسجد علي بكر»، والآخر «مسجد زباب»، وكان «المناخ» في ذلك الوقت يحمل اسم «جبل صوله» إذ إن العرب يُطلقون اسم الجبل على أي بقعة مرتفعة قليلاً من الأرض وكان هناك، في زمن المؤرخ نفسه، خمسة عشر مسجداً في هذه المدينة وجوارها، وهي الآن كلها مهتمة، كما أنه يُعطى أسماء سبعة وثلاثين آخرين وتوارى عنهم، شُدت في العصور الماضية للإسلام لقد قبل بي أن المنزل الذي كان يسكن فيه محمد - صلى الله عليه وسلم - في حي

«العسيرة» ما زال ظاهراً، لكن يشكك العديد في صحة هذه الأقوال، ولا يتم زيارة ذلك المكان كأحد الأماكن المقدسة. وكما في مكة، فإننا لا نجد هنا أي أبنية قديمة؛ فمصدر فصل الشتاء والجلو الرطب اشترى (يحتوي على بنروحين) الذي يسود خلال الفصل ممطر، فضلاً عن الحرارة الشديدة التي تتبعه، يلحق الضرر بالأبنية؛ كما أن الإسمبب المستخدم في بنائها ذو نوعية متوسطة، فلا تلبث الأحجار أن ترتخي مما يؤدي إلى تداعي الجدران.

تروى المدينة بانياء العدة بقناة تحت الأرض تم جرّها إلى هنا من قرية قباء التي تعد مسافة ثلاثة أرباع الساعة حوياً، وقد تم ذلك على نفقة السلطان سيمان، بجل سيم الأول والمياه واهرة وعريضة؛ وقد أقيمت في أحرق عديدة من المدينة بمرحات تؤدي بمروراً إلى القناة حيث يتروى لسكان بانياء، غير أنهم ليسوا مضطرين إلى دفع ثمنها كسكان مكة. وأقيم كذلك على بحوم «المناخ» حرن واسع مرصوف بالحجارة، على مستوى القاء، ويتم ملؤه باستمرار وتجري مياه القناة على عمق بحر عشرين وخمسة وعشرين قدماً تحت سطح لأرض، وهي تنمزع من عدة حدائق ويبيع في قرية قباء، وهي ستة البوعة على الرغم من أنها غير رديئة الطعم فهي، إذا ما تركت في وعاء لنصف ساعة، تعطي جوابه بقشرة بنروحية بيضاء؛ ويشتكى الأحباب غير المعتادين كلهم من مد الصعر من تسببها بعسر الهضم وهي فائرة عند مصدرها في قرية قباء، وتعاقد قليلاً على حرارتها حتى «المدينة». كما أن هناك العديد من الآبار المنتشرة في المدينة، ففي كل حديقة يتم تروى بها؛ ويجد البانياء بوفرة أيضاً حفرت لأص إلى خمس وخمسة وعشرين أو ثلاثين قدماً. إن مياه بعض الآبار عذبة وصالحة للشرب، ومياه بعضها الآخر مالحة جداً؛ كما أن حصوبة حقول والحدائق تختلف باختلاف نوعية البئر، فذلك التي تروى بالمياه المالحة لا تكاد تعطي مردوداً يعوّض ثمن أصحابها وعملهم. ووجدت أشجار النخيل سمو بنوعيه الجيدة نفسها في أي مكان.

فضلاً عن مياه الآبار والقنوات، تلقى المدينة في فصل الشتاء كمية من السيول^١ التي تدعى «سبل المدينة» أو «سبل بصحار» التي تتدفق من الجنوب إلى الشمال مارة عبر الصواحي وتتصل إلى وادي صحري إلى الشمال الغربي فالأمطار العريضة التي تهطل في بيلة واحدة تملأ قعرها بالرغم من أنها تتناقص بالسرعة التي تغلو فيها. ووجد في ذلك الجزء من الصواحي المدعو «العسيرة»، جسراً حجرياً مقوّساً جميلاً بني على صمطي السيل، حيث يبلغ عرضه نحو أربعين قدماً وتكثر في البلاد المحيطة لسيول المماثلة التي تملأ العديد من ليرك والأراضي المنخفضة

(١) السيول عبارة كلها تدفق إلى الأراضي المنخفضة في الجبل الغربية التي تدعى «العابة» وأيضاً «الزغابة» راجع Samhoudy

حيث تبقى أحياناً مياه حتى أشهر الصيف. وتُساهم هذه، إلى جانب الآبار، في جعل محيط هذه المدينة مشهوراً بوفرة المياه، متقدمة بذلك ربما على أي بقعة أخرى في شمالي شبه الجزيرة، ما جعلها مستقرً مهماً للعرب، قبل أن تصبح مقدسة بين المسلمين برمن طويل، من خلال الرحلة التي قام بها محمد - صلى الله عليه وسلم - إليها وزعامته وموته فيها. فهي تدعى لذلك اأحدث باسمها (المدينة) أو مدينة النبي.

لقد جعلت وفرة المياه وغزارتها من اخراجات قبيلة «عائدة» في المدينة، ولا أعتقد أن المارل التي تحتوي على مثل تلك الحراتات تتعدى الاثني أو الثلاثة، وذلك بالرغم من أهمية جمع مياه الأمطار من السيول للشرب لأنها أفضل من المياه النتروحيية في قرية قباء. ويتحول «صاح» خلال الأمطار العريرة إلى بركة كامنة بين المدينة وبصواحي. وتُغمر المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية بطبقة رقيقة من المياه. ويُرحب السكان بتلك الفيضانات الخفيفة لأنها تُعذ بالخير، فهي لا تروي فقط حنهم بعرارة، لكنها كذلك تشر الخصرة على السهول المائية التي يسكنها البدو الذين تعتمد «المدينة» على ما يأتيون به من ماشية وريدة لاستهلاكهم.

إن جوهرة «المدينة» الثمينة، التي تصعها في مرة مكة تقريباً، لا بل نجعلها مفصلة على تلك الأخيرة عند العديد من اأكتتاب العرب^(١)، هو المسجد الكبير الذي يحوي على قبر محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو، كمسجد مكة، يحمل اسم «الحرم» بسبب عدم انتهاك حرمة؛ وهو اسم يُطعمه عليه سكان المدينة باستمرار، بينما يُعرف في أجزاء خارجية منها بتسمية مسجد النبي الذي كان مؤسسه لأول. وتظهر الخريطة أن المسجد^(٢) يقع باتجاه الطرف الشرقي من المدينة وليس في وسطها كما يقول المؤرخون والحرفايون العرب عاباً. إن حجمه أصغر بكثير من حجم مسجد مكة حيث يبلغ طوله مئة وخمس وستين خطوة، وعرضه ثثة وثلاثين خطوة؛ غير أنه بُني وفق التخطيط نفسه، في شكل مربع مكشوف تحيط به صفوف الأعمدة اسقفوفة من كل جانب، مع بناء صغير وسط المربع. إن صفوف الأعمدة هذه أقل انتظاماً من تلك التي في مكة والتي لها العمق نفسه تماماً في الجهات كلها. وهي الجهة الجنوبية من المسجد

(١) هذه هي خاصة حال الذهب المالكي الذين يقدون أن «المدينة» يجب أن تكون وبور أكثر من مكة

(٢) إن وصف هذا المسجد، الذي قدمه بيور D'Ohhson، غير صحيح تماماً فقد يكون مغولاً عن رسومات عربية قديمة وكتب أنوي أن أرسم خريطة صحيحة ودقيقة عنه لكن انهم منعتني من تحقيق ذلك، ولا أرى في إعطاء وصف بهمد فقط على التاكيد ويحدد السهودي حجمه وأبعاده بشكل مختلف تماماً، يقول إن طوله يبلغ مائتين وأربعين قدماً وعرضه مائة وخمسة وستين قدماً في جانب الجنوبي، ومائة وثلاثين في الجانب الشمالي. ويضيف أن هناك مائتين وستة وسعين عموداً وست متأكداً مما إذا كان البناء قد بُني بميرة منذ ربه ويحدد الطرفين الذي شب سنة ١٨٨٦ لكنني لا أعتقد ذلك، وأعتبر أنه قد بالغ جداً في تقريره ووصفه

هذا، تتألف الأعمدة من عشرة صفوف حلق بعضها بعضاً، ومن أربعة صفوف في الجهة الغربية؛ وهناك ثلاثة صفوف فقط إلى لشمال، في جزء من الجهة الشرقية، وبُنيت الأعمدة نفسها بأحجام مختلفة، فهي الجهة الجنوبية التي تحتوي على قبر النبي، ولتي تشكل الجزء الأكثر قدسية من البناء، تظهر الأعمدة بحجم أكبر منها في الأجزاء الأخرى، ويبلغ قطرها نحو قدس ونصف وتعب عنها أي قوصرة في الأعلى، كما تلامس أسطوانات الأعمدة الأرض إن الاختلاف نفسه وندوق غير السليم يظهر أن بوصوح في تيجان الأعمدة ها كما هي الحال في المسجد في مكة، فلا يتشابه واحد مع الآخر. وقد بُنيت الأعمدة من الحجر غير أنها صلب باللون الأبيض بحيث يصعب تمييز نوعه، وتم طلاؤها بالورود والرخارف على علو نحو ست أقدام عن الأرض. بأسلوب فظ ومرخوف. وقد يكون القصد من ذلك تعويض العيب الذي يسببه غياب أي قوصرة وتلك الواقعة في ذلك الجزء من صف الأعمدة الجنوبي، أو باقرب منه، ويُدعى «الردفة» قد عُنُطت إلى نصفها بالآجر أو القرميد، أو بصحر الأردوار، وقد رُبِيت بالرخارف المتنوعة الألوان. ويسد القرميد وكأنه من حذر البديقية، وهو من النوع نفسه المستعمل لتعصبة المواد في ألمانيا وسويسرا.

يتألف سقف صف الأعمدة من عدد من القُبب الصغيرة المطلية باللون الأبيض من الخارج بالطريقة نفسها التي في مكة وطُبِيت كذلك الجدران الداخلية كنها باللون الأبيض باستثناء الحائط الجنوبي وجزء من زاوية الحائط الجنوبي الشرقي التي عُنُطت ببلاط رحامي إلى لأعلى تقريباً. وقد وُضعت عدة صفوف من سفوف بأحرف كبيرة مدحبه على طول هذا الحائط الواحد فوق الآخر، مما يُصفي مظهره برقة جداً على الرحام الأبيض كما أن الأرضية تحب صف الأعمدة، على جانبيين شرقي وشرقي، وعلى جزء من الشمالي، قد رُصفت ببلاط حش فقط، وتُرك الجزء الآخر من الجانب الشمالي دون تبيط بل عُنُطت قبلاً بطبقة من الرمال كما هي حال البناء الخارجي كنها. ورُصفت الأرض في الجزء الجنوبي بالرخام الجمين غير صف الأعمدة كله، حيث قام بني لمسجد بالإنفاق على هذه الزينة كلها بسجاء؛ وفي تلك الأجزاء الغربية من قبر محمد - صلى الله عليه وسلم - رُصفت الأرضية في شكل فسفساء براعة فية رائعة تشكر أحد أفضل السجاد من ذلك النوع التي يمكن رؤيتها في الشرق، وتستغل الصور النوافذ الكبيرة المرتفعة ذات الألواح الزجاجية (التي لم أر مثيلاً لها في الجبال) على الجدار الجنوبي، ولبعصها زجاج خارجي ملون حمين. وقد اشترت نوافذ أصغر حجماً في الجوانب الأخرى، على طول جدران، لكنها بلا ألواح زجاجية^(١)

(١) يبدو أن من الرسم على الزجاج بالوان تقوم طويلاً لم يقطع أبداً في الشرق

يقع لقبر الشهير قرب الراوية الجنوبية الشرقية، وهو معصل عن جدران المسجد ترك مساحة بينه وبين الحائط الجنوبي تبلغ نحو خمس وعشرين قدماً، وخمس عشرة قدماً بينه وبين الحائط الشرقي. ويشكل السياج الذي يحمي القبر من اقتراب الزائرين، مربعاً غير منتظم يبلغ نحو عشرين خطوة، يقع وسط صف الأعمدة حيث أدخلت عدة أعمدة صمته. وهو عبارة عن حاجر حديدي طلي باللون الأحمر ويبلغ ارتفاعه نحو ثلثي ارتفاع الأعمدة، ويملاً لمساحته بينها وبترك الجزء العلوي منها بارزاً فوقه؛ وهو مكشوف تماماً. إن هذا الحاجر هو نتاج عمل يدوي نقي مُتقن يُحاكي لصياغة التحريمية المر كشة، وقد مُرِح مع نقوش من البرونز لأصغر اللون يطره الجاهل ذهباً، وتصميمه كثيف جداً للدرجة يصعب معها رؤية أي شيء في الداخل سوى غير نواهد صغيرة قد صُممت على الجهات الأربع من الحاجر، وهي ترتفع عن الأرض نحو خمس أقدام. وفي الجهة الجنوبية من الحاجر حيث تقع النافذتان الرئيسيتان، يقف أمامهما الزائر في أثناء الصلاة. وقد طلي الحاجر بالفضة والنقوش المنكورة جميلة إلا أنه إلا الله الحق المبين التي حُفرت بأحرف فضية عبر الحاجر حول تلك النواهد. إن الدخول إلى هذا السياج يتم عبر أربع بوابات تبقى ثلاث منها معيقة باستمرار وتفتح واحدة فقط كل صباح ومساءً تسمح بدخول الخصيان الذين تكمن وطيمتهم في تنظيف لأرض وإضاءة المصاييح. ولكل واحدة من تلك البوابات اسمها الخاص وهي: باب النبي وباب الرحمة وباب التوبة وباب سنا فاطمة ويسمح لدوي لمسة الرفيعة كالباشوات أو رعاء قوامل الحج بالدخول مجاناً إلى هذا السياج الذي يُدعى «الحجرة» ويمكن الآخرين أن يدفعوا ثمن الدخول للمحصىين الرئيسيين وهو مبلغ يقارب الاثني عشر أو الخمسة عشر دولاراً، توزع كهدايا بينهم لكن قليلاً من الزائرين يسعون وراء هذا الامتياز، فهم يعمون جيداً أنهم لن يروا عند دخول السياج أكثر مما تقع عليه عيهم عند انظر عبر نواهد الحاجر التي تبقى مفتوحة باستمرار؛ ولم أمل أنا نفسي إلى جذب الانتباه العام لإشباع فضولي إن ما يبدو من الدخول هو سارة أسدل حور الجوب كلها لتحتل المساحة كلها تقريباً، وهناك بينها وبين الحاجر ممر مكشوف عرصه بضع خطوات فقط ويبلغ ارتفاع الستارة ارتفاع الحاجر نفسه؛ لكني لم أتمكن في الأسفل من التعبير ما إذا كانت كالأحيرة، مفتوحة في أعلاها. وهناك، كما يؤكد الخصيان، عطاء من القماش نفسه كاستارة، وهو قماش حريري مقصّب ثمين فيه ألوان متنوعة وقد رُكش بالأرهار القصية والحرقة النعيرية، وعليه شريط من النقوش بأحرف ذهبية في وسطه، كعطاء الكعبة. ويبلغ ارتفاع هذه الستارة ثلاثين قدماً على الأقل، وفيها بوابة صغيرة إلى لشمان بفي معيقة دائماً حيث يُجمع على أي كان الدخول ضمن حدودها المقدسة باستثناء رعيم الخصيان الذي يُعى بها ويصع حلال الليل الستارة الجديدة المرسله من القسطنطينية كلما ساءت حال القديمة، أو حين يعتلي سلطان

جديد العرش وتُرسن أسنان القديمة إلى القسطنطينية وتُستعمل لتغطية قبور السلامين والأمر^(١)

حسب مؤرخ «المدينة»، بعضي استتارة ميسى مرتباً من حجارة سوداء، يدعمه عمودان ويقع دحله قبر محمد - صلي الله عليه وسلم - وقبر صاحبه الأولين وحليفته المباشرين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - وحسب استطعت الاستعلام بها، فقد عطلت تلك القبور كذلك بقماش ثخين له شكل لعش، كيدي يحضر إبراهيم في مسجد مكة الكبير، ويدال أن القبور قد وُضعت حسب الترتيب التالي:



إن أكبرها هو قبر محمد - صلي الله عليه وسلم - ويقع بعده قبر أبي بكر. ويقول المؤرخ إن هذه القبور هي لحجر عميقة، وإن الكس الذي يحوي عني رفات محمد قد عُصي بالقصة، وله في الأعلى بلاطة رحاميه تُعش عليها «بسم الله، اللهم صل عليه» وهم تكن هذه القبور دائماً في ترتيبها الخاص فالسهمودي يصعها في أوقات محتمة على النحو التالي.



إن لروايات سائدة في أوروبا والقائمة إن قبر سبي مُعْتَق في الهوء غير معروفه في الحجار؛ ولم تُسمعها في أحرار أخرى من الشرق، على أنعم من أن التقارير الشديدة لمبالغ فيها عن عمائد وثروت هذا القبر، يشرها أولئك الذين رروا «المدينة» والذين يرمعون في إصفاء همة كبيرة على شخصهم عبر بشر قصص رثية عما يدعون أنهم رأوه. وكانت كمور الحجار في السابق موضوعة حول هذه القبور، بما معققة على حال حرية حُرّت إلى داخل الباء وإما موضوعة في صاديق على الأرض من بسها، يمكن أن ذكر خاصة نسخة من القرآن بالخط الكوفي تم الاحتفاظ بها هناك كأثر مقدس حيث كان يملكها عثمان بن عفان ويُقال أنها لا تزال موجودة في «المدينة»، لكني أشك في أن تكون قد حرحت سليمة من الحريق الهائل الذي دك المسجد فقد وُيْتُ هي كتابي عن تاريخ الودسين أنه حلا، حصر «المدينة»، تم لاستيلاء

(١) يعون مؤرخ «المدينة» أنه كذا يتم تعيرها في رمنة كل حمت سنوات، وإن دخل العديد من القرى في مصر كان يوضع جانباً في القاهرة وذلك لصناعة تلك الستار راجع D'Oghson

عنى نسب كبيرة من الكور، وخاصة الأواني الذهبية كلها التي استولى عليها زعماء المدينة راعين أن الهف من دلب توزيعها على الفقراء، لكنها هي النهاية وُرعت عليهم هم وحين استولى سعود على المدينة، دخل «الحجرة» بنفسه ووجع حلف لستارة حيث وضع يده على كل ما هو ثمين من استطاع إيجاده؛ وباع جزءاً إلى شريف مكة وحصل الباقي معه إلى الدرعية ومن بين الأعراس الثمينة التي أحدها، كان أعظمها قيمة، كما قيل، بحمة «رافة» مرضعة بالأماس والآلئ. كانت معلقة فوق قبر النبي مباشرة، ويذكرها العرب غالباً فيسئونها «كركب الثري» وهذا أيضاً كانت أنواع الأواني كلها الموضوعة بالمجوهرات وأقراط لأذن والأساور والعقود وأغراض أخرى بلرية أرست كهدايا من كل أنحاء الإمبراطورية، وقام بإحصائها خاصة الخراج العظماء الذين مروا بـ «المدينة». وبما لا شك فيه أن ذلك كله كان يشكل مجموعة ثمة جداً لكن لا يصعب تقديرها إذ إن الناس يبلون إلى المينة. وقد قدر الشريف غالب الجزء الذي اشتراه بمئة ألف دولار. ويقال إن زعماء المدينة أخذوا ما يرب نحو مائة رطل من الأواني الذهبية التي تبلغ قيمتها على أكثر تقدير، أربعين أو خمسين ألف دولار؛ ويُقال إن ما أخذه سعود كان يشكك أساسي عبارة عن لآلئ ومرجان لم تعد قيمته بالطبع ما قد اشتراه غالب لذا، فإن القيمة الإجمالية يمكن أن تصل إلى نحو ثلاثمئة ألف دولار ولا يبدو أن هذا قد تم إيداع المال هذا، لأن كل ما كان يُهدى إلى المسجد من مال نقدي كان يورع مباشرة عنى خادميه. غير أن هناك ما يدعو للاعتقاد أن هبات المؤمنين التي تراكمت هنا لعصور عدة بلغت رقماً أكبر بكثير مما ذكر أعلاه؛ لكن سيبدو عرياً أن لا يكون حكماً «المدينة» المستقلين غالباً، أو حراس القبر أنفسهم، قد سحبو بين آونة وأخرى شيئاً من هذا الكثر بالطريقة نفسها التي أتبعها زعماء مكة، منذ نحو ثلاثمئة عام لسرقه المصاييح الذهبية في الكعبة وحملوها خارج المسجد شجاعة تحت أكمالهم الواسعة، حسب المؤرخ قطب الدين.

لقد بحث طوسون باث عند وصوله إلى «المدينة» عن الأواني الذهبية التي أعاد زعماء المدينة بيعها لبعض السكان الآخرين ولم يكن قد تم تدويرها بعد. وقد وجد العديد منها فاشتراها من مالكيها بنحو عشرة آلاف دولار وأعادها إلى وضعها الأصلي.

إن الأرض بين الستارة والحاجر، وفي هذا الجزء من المسجد كله، مرسوفة بالزحام المسوح لأنواع في شكل مُسيفساء وهذا غُلقت المصاييح الزجاجية حول الستائر حيث تُضاء كل مساء وسقى مشتعلة طوال الليل. وقد عطي كل ذلك السياج أو «الحجرة» بقنة جميلة شامخة تعلو بكثير القبة التي تشكل سطح الأعمدة، وتظهر ليعيان على مسافة بعيدة من المدينة. ويبدأ

الرائثون القادمون إلى «المدينة» برديد بعض الأصوات ما إن يقع نظرهم عليها، والعطاء مؤلف من صفائح معدنية تتوجها كرة ضخمة وهلال يتألق باندھب^(١)

ويُروى أنها من الذهب الثمين، مما لا يكاد تصديقه إذا ما أخذنا في الاعتبار الميل البسيط الذي أظهره حتى أترى السلاطين وأشدّهم قوة وسلطة، في تزيين مسجد مكة أو مسجد «المدينة» بيضاء وروعة. وقد حاول الوهابيون هدم القبة ورمي الكرة والهلال رصاً بعد أن قتلهم مظهرهما، متبعين في ذلك عادتهم التي لا تتغير في تهديم القباب المشيئة كلها فوق قبور لعابن الدين يُعتبر محمد واحدٌ منهم غير أن مقاديرهم وصلاته وعطاء الصفائح المعدنية جعلها من ذلك مهمة صعبة؛ فقد برلق المال من عمالهم عند السقف وهبط إلى الأسفل، معدن بعدها الوهابيون عن إتمام مهمة الهدم؛ وهي حادثة تُروى الآن كأعجوبة وأصبحت قام بها النبي من أجل نصبه التذكاري.

يقع قبر سقّا فاطمة، أمة محمد وروحة علي بالقرب من ستارة «الحجرة» ومعصلاً عنها بالرغم من كونه ضمن حدود الخارج الذي يحرف هنا قليلاً عن شكله المربع ويتألف بقبر من نعل له شكل مُكعب وقد عُطي بقماش مرر كشر مطوّز أسود اللون ثمين عانت عنه أي رينة أخرى. لكن هناك خلاف في لآراء حول ما إذا كان زفافها يرقد فعلاً هنا أو في المقبرة التي تُدعى البقيع خلف المدينة وإلى أن يتم الفصل في هذا الخلاف، يُساق للحجاج إلى هذين المكانين ويصطرون إلى دفع تكاليف مصاعمة. وتظهر قاعدة صغيرة على الحائط الشرقي من المسجد، مقابل هذا القبر تقريباً، عند المكان الذي يُروى أن لملك جبريل قد هبط تكراراً من السماء إليه لتبليغ الرسائل إلى محمد، ويُدعى «مهبّ جبريل».

يصور الغرف لإسلامي أنه حين «يضع في الصُور» (أو يُطلق البعير لأخير) سيهبط عيسى المسيح من السماء إلى الأرض ليعلم لسكانها حلول يوم الحساب الكبير، ثم يموت بعدها ويُدفن في هذه «الحجرة» بحجاب محمد - صلى الله عليه وسلم؛ وإنه حين يُشتر الأموات من الصُور، سيهبط معاً ويصعدان إلى السماء، وسيؤمر عيسى في ذلك اليوم من الله بأن يفصل بين المؤمنين والكافرين^(٢) وحسب هذا الغرف، فقد أُشير إلى هذه البقعة التي سيوصح فيها قبر عيسى عبر ستارة «الحجرة».

(١) كاتب الكرة ذهبي، وقد أرسل الهلال من العسكارية السلطان سليمان بن سليم، ررجع الأعصم). إن القبة وكل المسجد كما يقف الآن، بناها خير بك، سلطان مصر، من سنة ٨٨١هـ إلى سنة ٨٩٢هـ.

(٢) من أين جاء المؤلف بهذا الغرف العريب؟

وهناك مقعد مربع في المسجد، يعلو عن الأرض نحو أربع أقدام ويبسج محيطه خمس عشرة خطوة ويُدعى «المائدة» أو الطاولة، ويقع خارج الحاجز، إلى شمال بالقرب من قبر فاطمة هنا يجلس حراس «الخمس» كما تُعقد هنا غالباً محالس رعماء المدينة أو اجتماعاتهم الأساسية.

ويمتد فاصل حشبي يبيع علوه نحو ثمانى أقدام من الجهة العربية من الحاجز، عبر المسجد بموازاة الحائط الجنوبي الذي يبعد عنه نحو خمس وعشرين قدماً، وينتهي قرب النوبة التي تُدعى باب السلام. ويمتد بذلك من «الحجرة» عبر كامل عرض المسجد تقريباً، وقد طُلي بالزحارف العربية النعنة. وتظهر فيه عدة أبواب صغيرة، وقد أقيم ليفصل بين المكان المقدس اندعو «الروضة» والرائير الذين يمشون بشكل متكرر عبر باب السلام، متقدمين باتجاه «الحجرة» على طول الأعمدة المنتصبة بين هذا الفاصل والحائط الجنوبي بالقرب من «الحجرة»، عند ذلك الجزء من صف الأعمدة الجنوبي الشمالي لعاصِل. يُعتبر المكان الأكثر قدسية في المسجد ويُدعى «الروضة»، أو حديقة المؤمن؛ وهو اسم أطلقه عليه محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي قال: «ما بين قبري ومبري روضة من رياض الجنة» ويقع مبر المسجد بالقرب من العاصِل هذا على منتصف الطريق بين «الحجرة» والحائط العربي في المسجد، ويُطلق اسم «الروضة» تحديداً على تلك المساحة فقط الواقعة بين المبر و«الحجرة». على الرغم من أن كل صف الأعمدة الجنوبي في المعبد، إلى الشمال من العاصِل، يُدرج غالباً تحت تلك التسمية. وإنه بسبب هذا الاسم «الروضة» أو الحديقة، فقد طُليت الأعمدة الواقعة ضمن حدودها بالأرهار والزحارف العربية إلى علو خمس أو ست أقدام لمساعدة مختلة الزائرين في اكتشاف الشبه بين هذا المكان وجنة عدن على العمور^(١). وقد وُصِفَ محرابان أو مشككاتان على جاسي المبر بوجه نحوهما المصنوع لأنهما يشيران بدقة إلى اتجاه الكعبة^(٢) وهما، فضلاً عن المبر، يُضهران عملاً بدوياً مُتقناً لأحمل فُسبساء. وقد أُرست إحدى المشككات من مصر هدية إلى المسجد بأمر من قايد بك، وأُرسل الأخرى من القسطنطينية السلطان سليمان بن سليم. وقد فُرشت أرض «الروضة» بعدد من السجودات الأبيقة التي أرسلت من القسطنطينية. وكما في مكة، فهذه هي لأعراض التسمية الوحيدة التي رأيتها في المسجد، ويمكن أن تكون قيمتها نحو ألف جنيه، أما الجزء الأعلى من صف الأعمدة، فقد فُرشت بالحُشُر.

(١) هذا من تحلاب المؤمن، مسلم إذا تحيل وهو في الروضة مستحيل جنة الآخرة، لا جنة عدن

(٢) لقد أدير المحراب جنوباً غرباً بدرجة ١١، وهو لاتجه الذي يُشير لها الاتجاه الدقيق لمكة

وتجتمع الحشود على مناجات «الروضة»، لأنه المكان المفصل لصلابة وليس هالك أي تعاليم تتعلق بالخالس، فكل واحد يستطيع أن يجلس أينما شاء؛ لكن من المعلوم أن النصف الأول الأقرب إلى الفاصل، وخاصة الصفوف الواقعة في حوز الإمام مباشرة، محجورة لدوي المرأة الرفيعة، فلا يُصحب أي شخص لا ينتمي إلى تلك الطبقة هالك وللدخل «الروضة» قرب باب لسلام، مصهر حلات، ولأنون المرحفة الظاهرة في كل حسب، والأعمدة المنصونة، والسجاد الفاخر والأرضية المصممة، ولقوش المدققة على الحائط، إلى الجنوب، وحاجر «الحجرة» المتألق الزاقي في الخلف، كل ذلك يُظهر لعين في سدة؛ لكن بعد توقف قصير، يصبح واضحاً للعيان أن ذلك ما هو سوى عرض للربة المرحفة وليس ثروات حقيقية. وحير تدكر أن هذه البقعة هي إحدى أكثر الأماكن قُسية في العالم الإسلامي ومشهورة بعصمتها وروعيتها وريستها المكلفة المعاصرة، وأنها رُئيت عبر لهات انديبه الموحده لكل المؤمنين والتابعين لهذا الدين، تتمسك الدهشة بالطبع عند رؤية مظهره البسيط. وبس هالك أي وجه للمقارنة بينها وبين مقام أبسط قديس في أي كنيسة كاثوليكية في أوباء، ويمكن، فيما يتعلق بالهات الدينية، أن تشكل دليلاً مقنعاً على أن المسلمين هم بضاهو في أي وقت من الأوقات مؤمنين الكاثوليكين؛ وذلك من غير أن تأتي على ذكر أحدث أخرى عديدة تُساهم في تعزيز الاعتقاد في أن المسلمين، مهما تكن معتقداتهم الخرافية^(١) وبعضهم، لا يميلون إلى تقديم التصحيحات المالية مؤسساتهم الدينية، كالكاثوليكين، أو حتى البروتستانتين.

بشعائر تواجة عند رياره المسجد هي الثانية في الأهمية، على الدخ تطهير لهته بالوصوء الكامل أو الغسل، قبل الدخول إلى المدينة، وإذا كان يستطيعه فيه أن يعطر حسده بروائح طيبة وحين تظهر القبة أمام عيه، عليه أن يُردد بصوت عالٍ بعض لأدعية الدينية وحين يوي رياره المسجد، يقوده دليل، أو امرؤز كما يدعوه هذا، إلى البوابة التي تُدعى باب السلام، فسر برحلة التمسى أولاً فوق المنيّة، وهي عادة عامة في كل المساجد لكن يُشدّد عليها هنا بشكل خاص. وأثناء تأديه بعض الصلوات، يتقدّم نحو «الروضة» حيث يؤدي صلاة قصيرة بأربع ركعات كتحية للمسجد، يتلى خلالها السورتين القصيرتين من القرآن وهما (١٠٩ و ١١٢) من ثم يمرّ عبر أحد الأبواب الصغيرة في الفاصل عند الروضة، ويسير ببطء نحو حاجر «الحجرة»، أمام نافذة العربية ليتحد موضوعه على الجهة الجنوبية؛ ويدراعين نصف مرفوعتين، يتوجه بابتهاالاته إلى محمد، مثلاً: «السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا رسول الله».

(١) ليس عند المسلمين - في الأساس - معتقدات خرافية، كما عند صيرهم.

بح. فيردد نحو عشرين نعتاً أو كنية مختلفة لمحمد مصيلاً قبل كل واحد منها «السلام عليك». ويقوم بعدها بطلب الشفاعة له في الجنة ويذكر أسماء كل أقربيه وأصدقائه الذين يرعب في إدراجهم في صلواته واحداً واحداً ولهذا نسب لا يتلقى المقيم في المدينة أبداً رسالة من الخارج دون أن يستعطف في آخرها بذكر اسم المرسل عند قبر النبي. وإذا ما كان الحاج مقوفاً بالحج من رجل آخر، يلتمس هذا بذكر اسم هذا الرجل إن في هذه الصلاة عبارة تستعمل، كما في الأمكة كلها التي تتم ريارتها بقدسيته في المدينة، غير أنها بدت لي غير مدروسة بحيث تنهم الرائر مشاعر الإنسانية والإحسان؛ فمن بين الأمور الأخرى التي يتصرع بها إلى الله، يُذكر الطلب الآتي: «اللهم دمر أعدائنا، واجعل مثوانهم اساراً».

بعد تلاوة هذه الأدعية، من لأفضل على الرائر أن يُقيي رأسه ملتصقاً بالفاضة لوضع دقائق هي تعبد صامت، ثم يتراجع إلى الورا ويؤدي صلاة من أربع ركعات تحت صف الأعمدة مجاور في مقابل الحجر؛ يقترب بعدها من الفادة الثانية، على الجهة نفسها التي يُقال أنها تواجه قبر أبي بكر، ويبدأ بأدعية مشابهة لتلك التي قام بها عند الفادة السابقة المدعوة «شباك النبي»، يؤديها تكريماً لأبي بكر ويتراجع مرة ثانية إلى صف الأعمدة، يؤدي كذلك صلاة قصيرة ثم يتقدم إلى الفادة الثالثة على تلك الجهة من حاجر التي تواجه ذلك الجزء من الستارة الذي يقع خلفه قبر عمر ويؤدي بها أدعية مشابهة وعندما تنتهي هذه الشعيرة، يسير الرائر حول الراوية الجنوبية الشرقية من «الحجرة» ويمثل أمام قبر سنا فاطمة، حيث يؤدي، بعد أربع ركعات، أدعية موجهة إلى فاطمة الرهراء كما تُدعى؛ ثم يعود إلى «الروضة» حيث يتم صلاة لتحية الخائف عند مفادرة المسجد والتي تحتتم هذه الشعيرة التي يستغرق إتمامها عشرين دقيقة في أقصى حد^(١)

عني كل بقعة تؤدي الصلوات عليها، تجلس بعض الناس مع سادس يُسبَّحُ أمهم لتلقي الهدايا من الرائرين، وكما يبدو، فهي تُعتبر رسماً أو جزية أكثر منها صدقة؛ لأن رائراً أيقاً سيجد صعوبة في شق طريقه دون دفع تلك الضرائب. وفي مقابل سنا فاطمة، تجلس مجموعة من النساء (حسب إن فاطمة نفسها هي قديسة أنثى)^(٢)، ويتلقين الهدايا كذلك في مناديلهن. ويقف الخصيان أو حراس المعبدين في «الروضة» مسطرين حتى يُهيئ الرائر آخر صلاة له لينسحبوا له «مساعدة لإتمامه الزيارة بحاج ويتلقوا أنعابهم». وتكتظ بوابة باب السلام الضخمة باستمرار

(١) ليس من السنة في شيء ما ذكره المؤلف «زيارة مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بسلام عليه والصلاة في مسجده» أما هذا التفصيل في الصلوات والحركات، فهو موجود ولا علاقة لكل ذلك بمهرجه الحج.

(٢) فاطمة - رضي الله عنها - ليست قديسة، بل هي صحابية جديده، ومثل هذه الألقاب تكثر عند النصارى وبخاصة من قبل بابا البانيكان.

بالفقراء الذين يستجدون المرائر عن قُرب عند معادرتهم المسجد، كما يوقع الخمار كذلك نصيبه كحق به. وقد كنتُ في زيارة كلها نحو خمس عشرة ليلة، وأعطيتُ دليلي عشر بيرات، لكي ربما كنتُ استطعتُ إتمام ذلك بصف ذلك المبلغ.

ويمكن تكرار الشعائر بقدر ما يرغب المرائر لكن لقبيل مهم يُحرمونها كلها إلا حين وصولهم إلى «المدينة» وعند المعادرة غير أن الدهب يومَ المرة واحدة على الأقل إلى لافدة المواجهة لقبر محمد، وأداء صلاة قصيرة هناك هي عادة عامة؛ والعديد من الأشخاص يفعلون ذلك كلما دخلوا المسجد. كما أن القاعدة بنفسها بعدم الجلوس أبداً في المسجد لتأدية الصلوات اليومية المعتادة دون أن يسبق ذلك التصريح إلى النبي بيدين مرفوعتين ووجه مُدار باتجاه قبره. كما يسود عادة ممانعة في مسجد أخرى عديدة في الشرق التي تحتوي على قبر قديس «صالح» يؤكد عناءه ليس اسمون أن يصلوب التي تؤذى في مسجد «مدينة» تُقبل من الله على نحو مميّز، ويدعون المؤمنين إلى تأدية هذا الحج قائلين إن صلاة واحدة تُتلى في حجرة «الحجرة» توري ألف صلاة في أي مسجد آخر باستثناء مسجد مكة

لقد سبق أن ذكرتُ أن الجهتين الشمالية والشرقية وحرّة من الجهة الغربية من المسجد ليست مبنية بصريقة حيدة كالجهة الجنوبية حيث تقع «الروضة» و«الحجرة» فالأعمدة في تلك الأحرى أكثر روعة وقد صُلّيت بإتقان أقل درحة، كما أن الأرضية خشية فظة، ولا يظهر أي نوع من الزينة على الجدران المطلية باللون الأبيض، إلا على الجهة الغربية حيث تلمّت لانتباه الرسومات النافذة لمسجد سانت صوفيا St Sophia ومسجد السلطان أحمد وبايريد والتي وسكوتاري. وهي مساجد مشهورة، في العاصمة، وقد رُسمت بالألوان المنيّة على الجدران الأبيض دون الإغناء بالناسق في الرسم. وكانت الجهة الشمالية كلها تحصص لتصبّحات وترميم، كما رُبيت الأرضية القديمة لتُبدل بها أخرى أفضل منها.

إن انشاء المكشوف المسيح بين صفّ الأعمدة غير مرصوف وقد غُطي بالزمان والحصى وفي وسطه يقف بناء صغير ذو سقف مُقنطر حيث تُعنى مصاييح المسجد. وبالقرب منه سياج صغير ذو حاجر خشبي محفص يحتوي على بعض أشجار النحل التي يعتبرها مسلمون مقدسة لأن عاصمة الرهراء قد زرعتها، كما يُقال، وشجره أخرى لم ينق منها الآن سوى الساق، وكانت كما اعتقد شجرة «لم كس»، بالقرب منها شر تُدعى «بئر النبي» مياهها حلّة، وهي بهذا السب ربما لا تتمتع بسمعة قديمة. ويقول السهمودي إنها تُدعى «الشامة»

تُضاء المصاييح في المساء حول صفّ الأعمدة، وخاصة في الجهة الجنوبية حيث يكثر عددها أكثر من الجهات الأخرى، وقد غُفّت في عيذان حديدية ممتدة من عمود إلى آخر، وتقع مهمة

إصاعتها على عاتق الخصيان والخدم في المسجد. وعمر تقديم هبة هؤلاء، يُسمح للراري القبر أن يندموا لمساعدة؛ ويتلوه العديد من الحجاج الأحباب لتأدية هذه المهمة أو الوظيفة التي تُعتبر ثواباً والتي يقوم الخصيان بمدحهم لأجرتها غير أنه لا يُسمح لهم أبداً بإصاعة المصباح دخل «الحجرة». وقد وُضعت على جوارب اسر والمحرابين شموع كبيرة يعرض جسم الإنسان وصحاته، ويبلغ عنوها اثني عشرة قدماً؛ وهي تُضاء في المساء بوصافة سُلم يركز بالقرب منها، وترسل من القسطنطينية. وقد أحضرت روحة محمد عني التي كانت الآن في «المدينة»، عدة شموع ماثلة هدية للمسجد، وقد نُقِئت بصعوبة ومشقة كبيرتين من يبيع إلى ها

إن للمسجد أربع بوابات وهي:

- ١ - باب السلام الذي كان يُدعى في السابق باب مروان، (حسب كلام السهمودي)، ويقع على لراوية اجنوية العربية؛ وهي البوابة الرئيسية التي يحب على الحجاج اجتيازها للدخول إلى المسجد عند ريارته الأولى وهي بوابة مُقطرة جميلة تفوق أي واحدة أخرى من بوابات مسجد مكة، بالرعم من كونها أصغر حجماً من العديد منها وأكثر أناقة من أي بوابة مسجد رأيتها سابقاً في الشرق. وقد غُطَّت جواربها بالرحام والبلاط المصقول بألوان متنوعة، ويررر منها عدد من النقوش بأحرف ذهبية كبيرة فوق القنطرة وعلى جواربها، مما يسع عليها مظهراً متألّفاً. وهناك سبيل صغير مقابل هذه البوابة يُملأ مياه «نقاء» حيث يتم اسس عاده وصوءهم إذا لم يحتاروا إتمام ذلك في المسجد نفسه حيث توضع جرار لهذا الغرض
- ٢ - باب الرحمة، وكان يُدعى سابقاً باب عاتكة، ويقع على الجدار العربي من حيث يُحمل الميت إلى المسجد حين يُراد أداء الصلاة عليه.
- ٣ - باب الجبر، ويُدعى غالباً باب جبرائيل كذلك.
- ٤ - باب اليسا، ويقع على الجدار الشرقي، وهو الأقرب إلى قبر سنا فاطمة والآخر أبعد بقليل.

وتؤدي بصع درحات إلى البوابات من الشوارع المحاورة حيث إن منطقة المسجد تقع على مستوى أكثر ارتفاعاً بقليل. وذلك عكس ما يُرى في مكة وبعد مرور نحو ثلاث ساعات من غياب الشمس تُقفل البوابات بانتظام بأبواب ذات مصاريع مبطنة بالحديد؛ ولا يُعاد فتحها إلا قبل نحو ساعة من صباح الفجر. لكن من يرغب بالصلاة طول الليل في المسجد يمكنه بسهولة الحصول على إذن من المحصي الحرس الذي ينام قرب «الحجرة». وخلال رمضان، يبقى المسجد مفتوحاً طوال الليل.

هناك عدة أبواب صغيرة تؤدي إلى المسجد، على الجهتين الشمالية والشمالية العربية، وهي

تحص مدارس حكومية مرفقة به أساساً لكنها الآن قد فقدت تميزها ويجلس على هذه الجبهة معلمو المدارس مع صبيتهم في دائرة حولهم فتعلمونهم مبادئ القراءة

لقد أوكنت مهمة حماية لمسجد ووظيفة تنظيف «الحجرة» وإحدى المصاييح، انج، لأربعين أو خمسين محصياً بهم مؤسسة ماثلة لتدرك الخاصة بحصيان بيت الله في مكة. غير أنهم أشخاص ذوو أهمية أكبر هذا، فهم يرتدون الثياب الشعبية رغم أنه الرديء نفسه، ويصحب عادة شالات من الكتشمير الجميل وعباءات من أفضل الأقمشة «سندية» الحريرية، وهم يدون سيماء وسميت بخارجي فائق الأهمية والاعتبار. وحين يمزو عن السوق، يسرع الجميع للتمنيديهم وهم يمارسون بعوداً مهماً في شؤون المدينة الداخلية، ويتفقون روات مرتفعة ترسل سويلاً من القسطنطينية عبر قاهرة لسخ السوربة، كما يشاركون كذلك في الهدايا المقدمة إلى المسجد كنها ويتفقون لهدايا من كل حاج ثري إلى جانب ما يأخذونه من أجور من روار «الحجرة» وهم يعيشون سويلاً في أحد أفضل الأحياء في «المدينة» شرقي المسجد ويقال إن سارهم مبروشة بصريقة مكلفة أكثر من أي منزل أخرى في المدينة والدعوى كلهم متروجون من جاريات رحيات أو حشيات.

إن الخصب الروح، على خلاف الأوروبيين منهم، يهرلون ويضعف جسدهم، وتصح قسماتهم خشنة وقطة جداً، فلا تميز سوى عظامهم، ويديهم كأيدي الهياكل العظمية، وكل مطهرهم يدعو للاشمئزاز. لكنهم، بمساعدة الثياب السميكه، يحضرون ضعف جسدهم، غير أن قسماتهم ليستة بالمعظم هي من الوضوح بحيث يمكن تمييزهم من اسفرة الأربى لكن أصواتهم لا تتميز كثيراً، إذا ما تغيرت، ولا تنحرف أبداً إلى تلك لعممة الأشوية الساعمة والخبثية لدى المطربين الإيطاليين.

ويُدعى رعيم الحصيان «شيخ الحرم»، وهو أيضاً رعيم المسجد والشخص الرئيسي في المدينة كونه في مرة أرفع مقاماً من الأعا أو رعيم الحصيان في مكة. وهو نفسه محصياً أرسل من القسطنطينية ويسمى عادة إلى بلاط الصدر الأعظم، الذي يُرسله إلى هنا بهدف انتهي أو العقاب بالطريقة نفسها التي يُرسل بها اماشاوات إلى جدة إن شيخ الحرم الخائي كان فيما مضى مشرفاً على ساء الخليفة سليم، وهي إحدى الوظائف الأولى في البلاط لا أستطيع انقول ما إذا كان شرف وظيفته سابقة التي يحتفظ السلاء الشرقيون عادة بمنزتها طوال حياته حتى وإن جردوا منها، أو شرف وظيفته كشيخ الحرم، هو الذي مسحه هذه الأهمية التي يتمتع بها. لكنه، وفي كل مناسبة، كب يأخذ الأسقية على طرسون باشا الذي كانت مرتبة مرتبة باشا جدة ويحضر ثلاثة شرائط. وكان هذا الأخير، كلما تلقيا، يقبل يد الشيخ كما رأيت يفعل في المسجد. وه بلاط مؤلف بطريقة ماثلة سلاط باشا، لكن بعدد أقل. وقد قدم بوصف ملاسه

بدقة بالغة، الرحالة D'ohhson، ويتألف من معطف رفيق جمل فوق عباءة حريرية مطرزة وفحمه تُقَدَّ حسب الموصلة في العاصمة؛ ويُعلَّق حصر مرصع بالألماس في حزامه، وقبسوة على رأسه. ويحتفظ الشيخ الحالي بحوالي عشرين حصاناً وكلماً كان يخرج من مرله، كان يمشي أمامه عدد من الخدم أو «الفراشين» من المسجد مستحجبين بعصي عريضة.

وكان الوهابيون يحترمون شخص شيخ الحرم فحين استولى سعود على المدينة سمح للشيخ مع عدة حصيان آخرين بالانسحاب إلى يبع مع سائه وإلى أمتعته وأغراضه الثمينة كلها، لكنه لم يبق باستقار شح آخر في المدينة، فعند الخصيل أنفُسهم إلى تعيين واحد منهم ليرأسهم إلى ما بعد فترة استمرت ثمان سنوات، حين تم إرسال الزعيم الحالي من القسطنطينية. غير أن عودته على شؤون المدينة الداخلية قد قُصَّ وهُمِّش إلى مجرد ظل لما كان عليه

وسيشعر محصِّي المسجد بإهانة وتحد كبيرين إذا ما داه أي شخص بهذه الصفة، لأن قبهم اعتاد هو الأعا ويكسب رعيهم لقب «سيادتكم» كإنياسا أو شريف مكة

إلى جانب هؤلاء الخصيان، يعطى المسجد بعدد من سكان المدينة كخدم له، ويُدعى هؤلاء «الفراشين»، وهي نسبة تدل على أن واحيهم هو المحافظة على نظافة المسجد، وبسط السجاد ومده. ويأتي أحدهم إلى المسجد لإصادة اصبايح وتنظيف الأرض مع الخصيان. وبأحد آخرون ذلك كمجرد وصيفة عاضلة؛ ويسمى بعض أهم الدس في المدينة إلى هذه المجموعة. ولا أعلم كيف يتم الحصول على هذه الوظيفة، لكني أعتقد أنها تُشتري من شيخ الحرم، ويُدرج اسم كل فراش في القوائم التي تُرسل سويًا إلى القسطنطينية، ويشترك جميعهم في الرواتب التي تلقاها «المدينة» من تلك العاصمة، وكن الأمراطورية التركية^(١) حيث هناك دائماً نسبة كبيرة ومهمة للفراشين وقد يبدو المصعب وراثياً أو يُنقل على الأقل من الأب إلى ابنه. ويُحدد العدد بخمسمائة؛ لكن قد اعتمدت حيلة بريادته، أو وسيلة تقصي بتقسيم كل عدد إلى النصف والثلث والثلث من الحصص؛ ويُمنح كل قسم كسري لشخص يصبح بالتالي عضواً أدنى في المجموعة. والعديد من هؤلاء الفراشين هم من المحاج الأجناب الكبار المنتشرين في كل الأمراطورية وهم يظنون أن اكتسابهم لهذا اللقب شرف عظيم لهم.

إن العديد من هؤلاء الفراشين هم في الوقت نفسه مُرُورون ويُمارسون كذلك المهنة المربحة

(١) لم تكن الدولة العثمانية يوماً إمبراطورية يحكمها إمبراطور كما كانت الحال في الدولة البيزنطية أو الرومانية، وإنما كانت دولة يحكمها خليفة يقض النظر عنها يشوب هذه الخلافة.

جداً وهي نأدية، الأدعية عن المائتين ومعظم المحتاج الذين يمزون هذا، من أى مرة احتساعية كانوا، يتعمدون بأحد هؤلاء الرجال، بوسعة أدلائهم في الأماكن المقدسة. وعند عودتهم إلى الديار، عاد ما يصصح إرسال بعض المال سويماً قاعدة دينية عندهم، فيرسون البين أو ثلاثة سكين (نقد ذهبي إيصالي وتركى قديم) إلى دينهم القديم الذي يشتر شرفياً بتلاوة بعض الأدعية باسم لمسيل أمم بامده «الحجرة» وتجمع هذه خوالاب انابية الملقوفة في ورق صغير محتوم كُتب عليه العبران، في كل مقصعة أو مدينة رئيسية في الأناضول أو في ترك الأورانية، وترسل من هناك بشكر أساسي إلى «الدينة» بوساطة كاتب الصرة في القسطنطينية الذي يرافق قافلة الحج ويرأس القسم لما في فيها وقد احتكر بعض القراشيين الأساسيين كل المدن والمقاطعات التي يقوم أبواؤهم، لدى بمرور عبر مدينة، بالعرف إليهم من خلال مواظبتهم ويشتر ممثلون آخرون في كل أنحاء الإمبراطورية. إن الأرباح التي يحصلونها من هذه المهمة كبيرة جداً، وشبه تلك التي تصبح حقاً ومطلباً شرعياً برهبان الكاثوليك الرومان مقابل قراءة لُقُداس فقد سمعتُ أن بعض القراشيين الرئيسيين به نحو أربعمئة إلى خمسمئة من زبائن المراسين له مستشرين في كل أنحاء تركيا ويلقبون من كل منهم رواتب سوية يبيع أديانها سكونياً واحداً من عملة البندقية.

ب عدد لقراشيين وروؤير كبير جداً، ويمكن تأديته واحبات وظائهم بسهولة، فهم، في قسمهم الأكبر، فئة عديمه الجدوى، كسولة لكن حلال رمن الوهابيين، توقفت علاواتهم وقل عددهم جداً بسبب وصول القليل من المحتاح أديك. وقد بدأوا بالأردباد الآن ببطء وهم يتدبرون من أن التوقف الطويل عن دفع الرواتب السوية قد عؤد العديد من مرسلتهم الأساسيين على الامتناع عن تقديم الهدايا، ومن أنه، بالرغم من إعاده تعزيز لعلاقات وانعاش مع قوئل الحج، هناك ميل بسيط جداً لإعادة البوصع كما كان عليه.

ب من غير المسحوح بلوهيين، وفق قانونهم، ريدو قبر النبي أو الوقوف أمام «حجرة» والدعاء شفاعته لهم في الجنة إن قبر النبي لا يستحق بالنسبة إليهم اهتماماً خاصاً حيث إنه ليس سوى رجل فاس الذي دفع سعوداً وأغره بسرقة كنوز «الحجرة»، كان مدعاً دينياً صارماً إلى جانب شعفه بالسلب والنهب فقد كان يعتبر تلك الكنوز غير مناسبة، من ناحية التواضع والساهة والأصوب، لتزيين القبور أما القبر نفسه، فلم يمشه، ولم يقم كذلك بإزالة القماش الملقط عن القبر ولا الستارة المحيطة به، وبعده بذلك يكون قد تراحم، ولمرة واحدة، أمام اشاعر الوصية لعرب شبه الجزيرة، أو ربما أمام وحر صميمه الذي لا يستطيع أن يتحرد من انطباعه الأولى. ويُقال أن الأحلام قد أرعبته أو معث يده المدنسة وأوقفتها. وقد احترم بالطريقة نفسها قبر فاصمة، لكنه، من ناحية ثانية، قام بهدم لأسية في المقابر العامة كلها بلا

امتثاء حيث يرقد العديد من الأئمة العظماء، وقام حتى بتدمير شواهد تلك القبور المسحوتة والمرحفة؛ لأنه كان يعتقد أن حجرًا بسيطًا يكفي لتعطية رُفات الميت.

ومع أي زيارة إلى القبر، لم يفكر الوهابيون أبدًا في قطع الزيارات إلى المسجد. فذلك «صُرح قد بناء النبي في تلك الفترة المميّزة التي تنقل فيها من مكة. والتي وصفت أولى أساسات الإسلام؛ فهو، بالنسبة إليهم، البقعة الأكثر قدسية على الأرض إلى جانب بيت الله في مكة. وقد أصدر سعود ذات مرة الأمر بعدم السماح لهؤلاء الحجاج الأتراك بالدخول إلى «المدينة»، وهم كانوا لا يزالون يمدون إلى هذا القبر من يسع، حتى بعد انقطاع نوافل حج منتظمة. وقد قدم بذلك لمنع صلاتهم الوثنية، كما بدعوه، وهي ممارسة من المستحيل إلغاؤها دون إخراجهم على الفور من المسجد. ولم يظن سعود أنه من الملائم فرص هذا الحظر بالقوة، لذلك، فقد فضّل إبقاءهم خارج المدينة بحجة أن سلوكهم غير المناسب جعل من هذا الإجراء أمراً ضرورياً. وكان هو نفسه، مع تابعيه ومُؤابيه كنهم، يقومون بزيارته المسجد المقدس. وفي معاهدة السلام التي أبرمها بحمد عبد الله مع طوسون باشا سنة ١٨١٥، هناك نص واضح بالسماح للوهبيين بزيارة مسجد النبي، (وليس قبره)، بلا إزعاج أو مصايقات.

حتى بالنسبة إلى المسلمين الأصوليين، فإن زيارة هذا القبر والمسجد، هي عمل لا يكاد يستحق الثواب، وليس له أي علاقة بواجب تأدية الحج المفروض على المؤمن؛ غير أنه عمل مقبول من الله ومستحب إليه، تماماً كزيارة المسجد في القدس وقبر إبراهيم في الخليل، لمحو العديد من الخطايا، وهو يحوّل الرثر ماصرة سي والشيخ جليل في الجنة. ويُقال أن من يؤدي أربعين صلاة في هذا المسجد، سيُنَجّي من نار جهنم وعذب ما بعد الموت^(١). وبما أن الناس يُعجلون الأئمة عدل أكثر من الخالق نفسه^(٢) اندي لا يقبل، كما هو معلوم جيداً أي قرابين أو تقديرات إلا صغيراً حياً ونفساً صاهرة نقية أو توبة صادقة محلصة، فهو بهذا السب. لا يُسرصى بسهولة. وهكذا، فزيارة «المدينة» تقريباً امرلة نفسها كزيارة بيت الله في مكة ويحتشد الزائرون بحماسة أكبر وشغف إلى هذا النقام أو المزار أكثر مما يفعلون في الكعبة. فخلال لسة، تصل إلى مكة حشود الحجاج من أقطار العالم الإسلامي كلها، ويأتون عادة من طريق يسع. وتبدو الحماسة على المعارضة خاصة أكثر من غيرهم في أثناء الزيارات. غير أنهم يأثون إلى هنا بهدف آخر؛ ففي هذه المدينة يقع قبر الإمام مابث بن أسس، مؤسس المذهب المالكي الذي ينتمي إليه المعارضة.

(١) يكثر المؤلف من مثل هذه الأقوال من غير أن يستدل بها إلى أحدا.

(٢) لأقل هذا الكذب الواضح من المؤلف.

وبرور المسجد في مكة يومياً إحاحات من النساء اللاتي لهن محطة خاصة معته لهن وعلى العكس، فإن قيام المرأة بالدخول إلى المسجد في المدينة؛ هو عمل عر محتشم أو لائق إن اللاتي يأتين من مناطق بعيدة يرزن القبر في الليل بعد الصلوات الأخيرة، بينما لا تكاد النسوة المقيمت في المدينة يعمرون أبداً بتخطي العتبة فصاحبة المسكن الذي أقيم فيه، وهي امرأة عصور، قد عاشت بالعرب من المسجد خمسين عاماً، أكدت لي أنها دخلت صغر حدوده مرة واحدة فقط في حياتها، وأن النساء اللواتي يتمتعن بصع متحرر فقط يحرقن على تأدية صلواتهن هناك، وبشكل عام، فإن نادراً ما يرى النساء في المسجد في لشرق برعم من أن حرية الدخول إليه غير مموعة ولتتقي بالقليل مهو في المسجد الأكثر قدسية كجامع الأزهر في القاهرة حيث يتوخهن بالشكر إلى الخائق لطلب كن قد قصص عليه بدر اعتراه وشكراً، وحتى في بيوتهن، فإن النساء نادراً ما يُصَلّين باستثناء النسوة لمسات لمؤمات^(١) وإد ما كتب امرأة تعرف جداً صلواتها وقد جمعت عياً بعض السور من القرآن، فإن ذلك يُعتبر إبحار مميّزاً. وأسواء في شرق مخلوقات دمي درجه، وقد نُكر بعض مفسري القرآن علماء عبيهن إمكانية دخول حنة^(٢)، فلا يهتم أرو جهن بالنالي كثير في تأديتهن لشعائر الديسة بدقة وصرامة، بل إن العديد منهم يكرهون ذلك لأن لالرام نديي يرفع ساءهم إلى مرله أقرب منهم ومن للاحط أ، امرأة تُعتبر روعة مينة إذ ما طالبت مرة واحدة بالاحترام الذي تستحقه من خلال أدائها للصلوات بانتصاف.

لبس هاتك حمام مقدس في هذا المسجد كما في مكة؛ غير أن كمية السجاد الصوفي الممسود فيه، حيث يجلس العرب الأشد مدارة بحسب الاححج الأكثر أناقة، جعلت منه المقر المفصل لملايين مخلوقات الأخرى الأكثر أدى من الحمام والتي بشكل مصدر إزعاج لكل الزائرين الذين يقلون تلك المخلوقات إلى مساكنهم الخاصة التي تكتظ بالثاني بالهوء^(٣).

وب هذا المسجد أصغر بكثير من مسجد مكة وهناك فرقة شرطة دائمة وصارمة يصعبها الحصيان فيه، مما يجعله أقل رحاماً بالمسؤولين وعديمي العائلة ولكسالي من لأوب. ويبدو كذلك أن قبر محمد - صلى الله عليه وسلم - يملأ قبوب لبس في المدينة، بحشية ورهبة أشد وقعاً وروع ديمي واحترام أبليغ تأثيراً مما تمعن الكعبة ممن هم في مكة؛ فتردعهم تلك المشاعر عن التمكنير فيه بنفاهة وشحف أو كمجرد سنوى؛ فيراعي لذلك الدوق ر لياقة صغر حدوده أكثر مما يحصل في بيت الله

(١) تأمل هذا الكلب الواضح من المؤلف

(٢) لا ينكر أي مسلم عاقل دخول المرأة الجنة، فيكن بالعالم ١١

وكما في مكة. هناك عدد من الخطباء والأئمة والمؤذنين وأشخاص آخرون ممن يتسمون إلى مجموعة العلماء، وهم مرتبطون بالمسجد. ويُقال أن العلماء هنا أعمق علماً وأوسع معرفة من حواهم في مكة؛ وقد أسح أولئك في الأرملة الغابرة العديد من الكتابات الثمينة القيمة. لكن، في الوقت الحاضر، يبدو أن مظاهر العلم والمعرفة هنا أقل منها في مكة. وخلال زيارتي إلى المسجد، لم أر أبداً عربياً يقوم بتدريس علم من أي نوع، فقط بعض الحجاج الأتراك الذين يمتدرون بعض الكتب الدينية المكتوبة بلعهم بلقيل من المستمعين، ويأخذون منهم مبالغ رهيدة لتأمين عقبات رحلتهم إلى الديار. وكان طوسون باشا، وهو الشخص الوحيد في عائلته الذي لم يحاهر بالحادة، يحضر تلك المحاضرات ويجلس في الدائرة نفسها مع الآخرين. وقيل لي أن بعض المحاضرات والخطب العامة تُلقى في المدرسة التي تدعى الحمديّة، لكن لم تسمح لي الفرصة بتأكد من صحة ذلك. وأعتقد أنه لا يوجد في كل الإمبراطورية الإسلامية مدينة بحجم «المدينة» لا تُلقى الدروس الدينية في المساجد. وقد كانت الدروس تُلقى في السابن في هذه المدينة، والدليل على ذلك المؤسسات الدينية العديدة التي أُسست بهذا العرص فقط، والتي لا يزال العديد من العلماء يتقاصون محضاتهم من غير تأدية واجباتهم.

إن للحرم، أو مسجد «المدينة»، كذلك ندي في مكة، أراضي شاسعة ودخلاً سويّاً لمدى الحياة في كل جزء من الإمبراطورية. ويُقسم دخله السوي بين الخصيان والعلماء والفراشين وتُحتسب النفقات اليومية لإصاءه أسمى وإصلاحه، لتوصيح النفقات بمجملها. وبما أنه لم يتم أبداً الاحتفاظ بأي كنز مالي في المسجد، باستثناء الأعرص الثمينة في «الحجرة»، فقد أسح ذلك حسنة مصاعمة لسكان المدينة الذين يحيي عدد كبير منهم ما يؤمن لهم حياة كريمة، سيما رتاح الجميع من خطر اندلاع الشجارات الداخلية التي كانت ستقع حتماً إذا ما عُمد بإمكانية الحصول على مبيع كبير من المال عبر الاستيلاء على المسجد. فقد ولت تلك الأيام في الشرق حين كان بالإمكان إيداع كنز عام في مكان يتمتع بقدسية مكفي لحمايته من اللصوص. ويُفق القسم الأصغر من دخل المؤسسات العامة كلها لحمايته من اللصوص. ويُفق القسم الأصغر من دخل المؤسسات العامة كلها لمساعدة الفقراء، ولتحقيق العرص الديني الذي دُفع لأجله؛ سيما يذهب جزء الأعظم لتدليل مجموعة من المنافقين عديمي الجدوى، الذين ليس لديهم أي هدف آخر وراء الحصول على علم ومعرفة سطحية باهية، سوى الأمل في المشاركة في الأرباح عبر بشروعة التي تصبح حقاً شرعياً لحراس تلك المؤسسات أو عملائها (١١٩).

وكلل الأبنية العامة في الشرق، تعص الطريق المؤدية إلى المسجد بمساكن الخاصة من كل جانب، تندع في بعض الأجزاء، شارعاً مكشوقاً يسها وبين جدران المسجد فقط؛ في حين أنها في أجزاء أخرى قد بُنيت بشكل مُلاصق لتلك الجدران مُحمية بهاها. وهناك ثلاث أو خمس

مآذن (إد نسبت أي متعددين هو الصحيح) شُيِّدَت على الجوانب المختلفة للبناء. ويقال أن إحداها تقف على البقعة التي كان بلال الحبشي، مؤذن الرسول وأحد أفضل مقرّبيه، يدعو فيها المؤمنين إلى الصلاة.

إن تاريخ المسجد لأنني المختصر، مُقتطف من التسمهودي، مؤرخ «المدينة».

«لقد شُيِّدَ محمد - صلى الله عليه وسلم - بمسجد «المدينة»، وهو لذلك يدعى مسجده، أو مسجد النبي محمّد بنع «المدينة»، وكانت في ذلك الوقت مستقرّ مفتوحاً للعرب وتدعى «يثرب» وقد أصبحت فيما بعد «المدينة». وذلك بعد هجرته من مكة، وسمّاهُ لكونه الآن بين أصدقائه، شُيِّدَ مسجداً صغيراً على البقعة الأولى التي أُنشِئت عندها في مدينة بعد أن اشترى لأرض من العرب، ثم سيجّه بجدران من الطين وصنع عنده سقفاً من أوراقي سخن تدعمه جدوع شجار الخنجر بدن الأعمدة. وما لبث أن قام بعده بتوسيع هذا الصرح بعد أن وضع أسامانه من الحجر وبدل غريب أو بشبكة لموضوعه في المسجد بتحديد لأتجاه الذي يجب أن يتجه نحوه المؤمّر في الصلاة، وصنع محمد حجراً كبيراً كان في بدء مدارّ نحو الشمال، باتجاه تقدس، ثم رُكِّز بالتحه بكعبة في مكة في السنة الثامنة للهجرة، حين تمّ تغيير القبلة القديمة.

«وقام عمر بن الخطاب بتوسيع مسجد بجدران من طين وأغصان الخنجر وبدن جدوع سخن، صنع أعمدة من الطين وعمد في سناء إلى وضع حائط حول «الحجرة»، أو المكان الذي دُفِنَ فيه محمد صلى الله عليه وسلم عند موته والذي كان قبل ذلك مسجداً بأغصان سخن فقط. وقد تمّ توسيع المربع الذي تحيط به جدران المسجد، إلى مئة وأربعين بيكاً (Pikes) طولاً ومئة وعشرين عرضاً، وذلك سنة ١٧هـ.

«وقد بنى عثمان لجدران بحجر محجوت هي سنة ٢٩هـ، قام بتجديد لأعمدة البرية مدعماً الحدد بأطواق حديدية، وبني السقف من الخشب الهندي الثمين سُمي «الساح»؛ ووُشِّع المربع إلى مئة وسين بيكاً (Pikes) طولاً ومئة وخمسين عرضاً، وتُحِث إليه سب أبواب.

«والزيد، الذي تبنى به دمشق بمسجدها الجميل يدعى «الجامع الأموي»، قام بتوسيع مسجد بني س ٩١هـ. وحتى ذلك الوقت، كانت الدار التي أُنشِئت فيها زوجات محمد وبناته وقربائه، تقع بالقرب من «الحجرة»، خلف حدود المسجد، وكانت تؤدي إليها أبواب خاصة ورعم المعارضة القوية التي راحهم، بعد أرعم توليد النساء على ركن ساربهن والقبول شمس معتدس مقابل ذلك ثم قدم بمحوها ووُشِّع حائط المسجد في تلك الجهة. وقد أُرسل به الإمبراطور البيزنطي الذي كان على معاهدة سلام معه، عمالاً من القسطنطينية ساعدوا في تشييد المبني الجديد^(١) وكان العديد منهم مسيحيين، وقاموا

(١) إن المفري، في وصفه لعدة حكام قاموا بتأديته حجج، يقول إن الإمبراطور البيزنطي (الذي لا يذكر اسمه)، قد أُرسلت مائة عامل إلى الريد وهدية عبارة عن مئة ألف مثقال من الذهب مع أربعين حمولة من الأحجار الصغيرة المنقطة، صنع أرباب من الصيغ.

كما يُروى، بنصرتهاب غير لائقة أو محتشمة، وقد نُقِلَ أحدهم أثناء تدبسه قبر محمد نفسه، وذلك بحجر سقط عليه من السقف. ولقد زُكِّرت الآن أعمدة حجرة جديدة في المسجد لها تيجان ذهبية؛ وُصِفَت الجدران بالرخام المتنوع الألوان وذهبت كذلك أحرارها، فتجدد المبنى بالتالي بشكل عام.

بحر سنة ١٦٦٠هـ، قام الخليفة المهدي بتوسيع السباح أكثر من قبل وجمعه يبلغ مائتين وأربعين بايكا (Pikes) طولاً وبقي المسجد على هذا الوضع لقرون عدة.

إن الحاكم بأمر الله، ملك مصر (محبول)، سي أُرسل أحد مبعوثيه لتدمير الحجر الأسود في الكعبة، قام كذلك بمحاولة فاشقة لأخذ قبر محمد من مسجد المدينة ونقله إلى القاهرة سنة ٥٥٧هـ، في زمن الملك العادل نور الدين، ملك مصر، أُلقي القبر على رجلين مسيحيين متحقيين في «المدينة»، كما قد مرَّ تحت الأرض من منزل مجاور إلى داخل «الحجرة» وسرقا من هناك أغراضاً ثمينة جداً وبعد أن تعرضا للعذيب، اعترفا بأن منك إسماعيل قد أرسلهما بهذا العرض، وقد ذهبا حينهما ثمناً لتقويهما. فحفر السيفان نور الدين بعد ذلك خندقاً حول «الحجرة» وملاء بالرصاص لمنع محاولات مماثلة.

سنة ٦٥٤هـ، بعد بضعة أشهر من انفجار بركاب قرب المدينة، اندلعت النار في المسجد فاحترق بالكامل لكن سمحات القرآن المودوعة في «الحجرة» قد تم إعادتها؛ وقد نُسب ذلك إلى شيعة بني حسين من العرس الذين كانوا اندالك حرساً للقبر وفي السنة التالية، أُعيد ترميمه على نفقة الخليفة المعتصم بالله ابن المنتصر بالله وسيد اليمن المظفر شمس الدين يوسف، ثم أكمله الظاهر بيبرس، سلطان مصر سنة ٦٥٧هـ. وقد شُيِّدت القبة فوق القبر سنة ٦٧٨هـ. وقام عدة ملوك في مصر بالتتابع بتحسين البناء وتوسيعه حتى سنة ٨٨٦هـ، حين دُمِّر مرة ثانية من جراء حريق تسبب به البرق والصواعق وكان الدمار شاملاً، إذ إن جدران المسجد كلها وجرياً من جدران «الحجرة»، واستغف ومئة وعشرين عموداً قد سقطت جميعاً، وأُتلفت كل الكتب في المسجد، غير أن النار على ما يبدو، لم تُهَب داخل القبر في «الحجرة» أو تمسه وقام قائد بث سنة ٨٩٢هـ، وكان انداك ملك مصر، الذي تدين له نبت البلاد والحجار بعدد من لأعمال العامة، بإعادة بناء المسجد بكامله كما هو الآن فأرسل ثلاثمائة عامل من القاهرة بهذا العرض وأُرسل م كان داخل «الحجرة»، فوجدت ثلاثة قبور عتيقة في الداخل ملأى بالعدرة؛ لكن كاتب هد التاريخ، الذي دخل بنفسه إلى هناك، لم يَز أي أثر لقبور وقد تم التأكد من مكان قبر محمد الأساسي بصعوبة بالغة ولم يُعيد حياها بناء جدران «الحجرة» واستحضر الحديد الموصوع حولها والذي لا يزال حتى الآن؛ وأُعيد رفع القبة فوقه؛ ووُزعت البوابات كما هي الآن، وأُرسل مير جديد كهذية من القاهرة؛ واتحد المسجد بأكمسه شكبه الحالي ومنذ الفترة المذكورة أعلاه، أُحرى القليل من التحسينات غير الهامة من قبل الخلفاء العثمانيين في القسطنطينية.

كما سبق أن ذكرت، يحيط لحدائق وامرارع «المدينة» وصوحيها على ثلاثة حوسب، وعلى مسافة ستة أو ثمانية أميال في الاتجاهين الشرقي والجنوبي. وهي تتألف بشكل أساسي من أشجار النخيل وحقول الحنطة والشعير؛ وقد شجنت تلك لأحيرة بحدران تربية وتحتوي على مساكن صغيرة بمرارعين. وب مدارلهم الواقعة في المنطقة المحاورة تماماً لـ «المدينة» هي حيدة لباء وفيها عداً ردهة ناعمها الأعمدة، وعرفه حلوس مقصورة محدية، وحران مرصوف بالحجارة أمامها. وهي مقر إقامة الصبي للعديد من عائلات مدينة بني حبيب من تمنية بصحة أشهر هناك في أثناء الموسم الحار، عادة لديها، إن القليل من أشجار النخيل قد شجنت، باستثناء تلك المنتشرة في الحقول، وتروى أغلب السبل والأثمار فقط. ولحدائق نفسها محفصة جداً حيث تم إزالة التربة من لأخرى بوسطى فيها وكُنست حول الجدران للمساحة المخصصة لرعاية عذرة عن حرة تحفص عن مستوى السهل بعشر أو اثني عشرة قدماً ويتم بيع هذه بطريقة يهدف الحصول على تربة أفضل، حيث ذب التحربة أو القشرة الخارجة مُشربه بالملح أكثر من غيرها ولا تناسب الزراعة كالصبة السفلى

ومن هناك وجود للصناعة في أي مكان، ويذهب الكثير من الأرصى سُدى وليس هناك اقتصاد من أي نوع في زراعة الأمكة التي يتم فيها تحصيل الحقول والعديد من المناطق حرداء قاحلة تماماً، كما أن صبيعة التربة المالحه تمنع سبور من النمو. ويُقال أن الأرض الواقعة باتجاه قرية بباء وحتمها في الاتجاهين الجنوبي والشرقي، حصه جداً دون أي مريح مالح، ويقوى قيمتها بالتالي تلك الواقعة بالقرب من المدينة والتي رأينا بعد هطول الأمطار مطقة كياً وبعد أيام بقشره مالحه ترسبت بجرء منها من المياه، وباجراء الأخر تثجرت من لتربة نفسها في الأماكن الأكثر ارتفاعاً حيث لا تصنها المياه

ويحصل معظم الحدائق وامرارع أهل المدينة، ولعرب الندين بررعونها (ويذغول «اسواحنه»)، وهم في معظم بررعول وتكون ملكية حدائق إم مُدك أو وقفاً وهي في الحانة الأولى تحص فرداً، وفي الثانية حصص المسجد أو أياً من المدارس أو المؤسسات الدينية التي ترعها عبر عقود إيجار طويلة الأمد. تُعصى لأهل المدينة أنفسهم ندين بعدون تأجيرها إلى مرارعين بعتوات أقصر، وهم لا يدفعون أي نوع من الضرائب. فلم يتم فرض أي ضريبة على الأرض، أو ما يسمى «ميري»، وهي حصانة كانت تمنع بها الواحاح، حصنة كنها في الحجار كما اعتقد، وذلك قبل عرو الوهابيين. فم إن اسوسى هؤلاء على المدينة حتى فرضوا ضريبة على لأرض ومن قانونهم. وكانت تُحدد الضريبة على حقول حسب إنتاجها بتمور وليس للحنطة، إذ إن عدد أشجار النخيل في كل حقل، يتعلق بخصوبة التربة، وكذلك حال بالنسبة إلى محصولها من الخيوط وكان جبة الضرائب الوهابيون يأخذون عن كل كمية من النمر حصنة بسية من

النمر أو من مال، وذلك حسب سعر السوق في ذلك الوقت وقد أدت هذه القوانين إلى كُره الوهابيين بها أكثر منهم في مكة التي لم يكن سكانها يدركون حقلاً لعرص الصرائب عليها، كما كان يتم هناك الإغناء من الصرية التي فرصها الوهابيون أو يتم إعطاؤها للشريف، حاكم المدينة القديم، كما سبق وذكرنا. فضلاً عن ذلك، فقد كان المكبوت يمارسون التجارة التي يحسون منها بعض الربح في الأوقات كلها، وذلك إلى جانب المميزات الأخرى التي كانوا يحصلون عليها من الحجاج الأجانب. على العكس، فإن أهل المدينة هم تجار صغار جداً ويعتمدون بشكل أساسي على الحجاج وعلى الرواتب السنوية التي تأتي من تركيب أو من ملاكهم المؤثرة، وبما أنهم كانوا مضطرين إلى التحني عن المصدر الأول، وبما أنه كان يتم تقليص أرباحهم من الثاني، وبما أن الوهابيين كانوا يُظهرون احتراماً للمقام المتحل في مدينتهم أقل مما كانوا يُظهرون لبيت الله في مكة، فليس باستطاعتهم أن تتفاحاً وتعجب من أن يقوم أهل المدينة بلبس اسمهم وربطه بالبعوث والألقاب الأكثر احتقاراً وازدراء.

إن الإنتاج الأساسي في الحقول حول «المدينة» هو الحنطة والشعير وبعض الترسيم والعاكهة، ولكن الغالب عليها هو التمر. ويُزرع الشعير بكميات أكبر بكثير من الحنطة؛ كما يشكّل حبر الشعير عنصراً أساسياً في الطعام لدى الطبقات الدنيا ويتم حصاده في منتصف شهر آذار/مارس. إن المحاصيل صعبة جداً لكن الانتاج ذو نوعية جيدة ويُنّاع في سوق «المدينة» بسبعة أعلّى بـ ١٥٪ من الإنتاج المصري وبعد الحصاد، تُترك الحقول لترات حتى السنة التالية بالرغم من مرة المياه في الآبار^(١) التي تؤمن دورة ري ثانية، غير أن التربة هي من السوء بحيث يتعذر رراعتها مرة أخرى دون إرهاقها كثيراً. ولا تُزرع الشوفان هنا ولا في أي مكان آخر في الحجاز وتوجد أشجار العاكهة بشكل أساسي على جانب قرية قباء، ويقال أن الرمان والعنب يمتارا النوعية خاصة الأول، كما أن هناك بعض الخوخ والموز وفي حدائق قباء، هناك الطيخ الأحمر والخسراوات كالسبانخ والبُعب والكراث والبصل والجزر والفاصوليا، لكن بكميات صغيرة جداً. وتكثر شجرة لسق التي تُنتج الموطس في سهل «المدينة» كما في الحبال المجاورة؛ وتؤتي بكميات هائلة من ثمرها إلى السوق في شهر آذار/مارس، حين تجعل منها الطبقات الدنيا العنصر الأولي في طعامها وبوعيته المتميزة عن شه الجزيرة. ونمو أشجار النخيل في الحقول المستنقعة حيث تُروى مع تدوير في الأرض، أو في السهل حيث تُروى من الأمطار فقط.

(١) لكل حديقة أو سهل بئر، يتم جر الماء منه بواسطة الحمبر والأبقار أو الجمال في دلاء جلدية كبيرة. ويُعتقد أنه ليس هناك أي حقول لا يتم ريها بانتظام ولا تُترك بذور أي منها لاجتماع هطول الأمطار فقط.

فتكون فاكهتها أقل ومرة غير أنها ذات قيمة أعلى ويبدو عدد منها في السهل بشكل طبيعي،
نكس لكل شجرة مالكة كما أن حجمها عامة هو أصغر من حجم أشجار الحبل لمصري
الذي يتعدى من التربة النقية الخصبة في تلك البلاد ومياه النيل؛ غير أن طعم فاكهتها أشد
حلاوة ولها رائحة طيبة وعطرة أكثر من تلك.

إن لاستعمالات المختلفة العديدة التي يُستمداد بها من كل جزء تقريباً من شجرة الحبل،
سبق أن ذكرها عدة رَحَّالَة؛ فهم يحملونها بحري لمستوطنات بعيدة يبيعونها لثي يولها «بدوي
كالجمل. ويشتهر محمد - صلى الله عليه وسلم - في أحد أحاديثه «سي تَقْلُثُ عنه، نرجل
الفاصل لكرم اسمك الشجرة الشريفة» ويقف متصباً أمام ربه، ويتبع في كل فعل يقوم به
أخاه الذي يتقاه من أعين، وأحياناً كنها مكرسة خير أباء جسد^(١).

ويستخدم أهل الحجاز، كالمصريين، أوراق الجذع ولحاءه كدواء لحصى الكلى والخارجي وإضافة لثي في
حدود الأوراق التي تنمو وتنب من الجذع، وهم، إلى جانب ذلك، يستعملون نواة لفاكهة
كطعم لماشينهم فيقعوها في ماء ليومين حتى ينين ثم يقدمونها للجمال والأبقار وانعم بدل
الشعير؛ ويؤمن أنها مصدر هام لعناء يهوق الشعير بكثير. وهناك ماحر في «المدية» حيث لا
يُباع سوى نواة بلح، ويتم استخدام المنسولين باستمرار لانتفاخ تلك التي رُميت في كل
الشوارع الرئيسية. ويطحس العرب في منطقة نجد نواة لعرض نفسه، لكن ذلك لا يتم في
الحجاز.

ونجد في «المدية» أصنافاً متنوعة من النمر كما في الأودية الخصبة المثمرة كلها في تلك
البلاد، وبكل مكان تقريباً أصنافه الخاصة التي لا تنمو في مكان آخر وقد سمعت أن أكثر من
منه نوع مختلف من النمر ينمو في المنطقة المحاذية للمدية. ويذكر كاتب وصف «المدية» مائه
وثلاثين نوعاً، إن الأنواع الأكثر شيوعاً هي «الحبي»، وهو الأرخص ثمناً والأكثر انتشاراً في
الحجاز بشكل عام؛ و«الحلوة» و«الحليه»، وهو بلح صغير جداً يحجم ثمرة التوت، وقد
اكتسب اسمه من طعمه الحلو المميز الذي يجعله يورق أفضل أنواع اللين في سميرنا Smerna،
ويُعلف هذا النوع، حين تحميه، بقشره سكرية. ويروي السكان أن محمداً - صلى الله عليه
وسلم - أوتي معصرة عصمه بهذا النمر، فقد عرر بذرته منه في الأرض بُتت على الفور جذور
وعت لتصبح خلال خمس دقائق شجرة مكثمة ناصجة ملأى بالفاكهة وقد انتصت أمامه.
ويروي عن معصرة أخرى فيما يتعلق بالأصناف التي تُدعى «الصيحاني»، وهي شجرة أُلقت

(١) راجع كذلك م. م. الأرنؤ، المجلد ٣ - «سيكون كشجرة» رعت بحسب أنهر «المدية»، الخ

بصوت عالٍ تحية «السلام عليكم» على النبي عند مروره تحفا. وتعتبر «البرني» نوعاً مفيداً للصحة كونه الأسهل للهضم، وكان النوع المفضل لمحمد - صلى الله عليه وسلم - الذي أصبح العرب بأن يأكلوا سبع حبات منه كل صباح قبل الفطور. والنوع «الجبلي» هو الأكثر ندرة، ويبلغ طوله ثلاثة إشات وعرضه إشاً واحداً، وله طعم غريب ولديده بالرغم من أنه ليس حلواً، لذلك كـ «احليته». ويبدو أنه ينمو بصعوبة بالغة حيث إن هناك ما لا يتعدى مئة شجرة من هذا الصنف على أبعد تقدير، وهي أقلها عطاء من أي واحدة أخرى. ولا يسمو ذلك النوع في أي جزء من الحجار إلا في بساتين «تبع السحل». ويبلغ ثمن «البرني» عشرين بارة للكيل الواحد وهي كمية تحتوي على مئة وعشرين بلحة على الأقل، يسما يُباع «الجبلي» بعشرين بارة مقابل ثمانين كيلات. ويكثر الطلب عليها من الحجاج الذين يحملون بعضاً منها إلى بلادهم عادة، وذلك لتقديمها إلى الأصدقاء، لأنها تأتي من مدينة النبي؛ ويتم صنع علب صغيرة تحتوي على نحو مئة بلحة منها في «المدينة» لتسهيل فتحها.

يشكل التمر عنصراً أساسياً جداً لتطبيقات الدنيا في «المدينة»، وهم ينتظرون حصاده بشغف ويشهدونه بفرح وانتهاج عام يوازي موسم قطف العنب في أوروبا. وقلما يُعرف عن تلك الأشجار أنها تُعطي إنتاجاً غزيراً ثلاث أو أربع سنوات متتالية؛ لذلك، فإذا ما حدث أن نشل الحصاد، وهذا ما يحدث غالباً، أو إذا ما التهمه الخراب، يعم الاكتئاب والحزن العام بين الناس كما لو أن مجاعة تدق الأبواب.

ويحتفظ صنف من تمر «المدينة» بسبب اسمه، بلونه الأحمر حتى وإن كان ناصحاً وشجعماً. ويحفظ صنف آخر بلون أصفر زهراني مائل، ويربط هذا النوع على أسلاك ويُباع في أنحاء الحجاز كلها حيث يحمل اسم «فلاند الشام» ويضعها الأولاد دائماً حول عنقهم ويؤكل أول موسم من التمر في بداية شهر حزيران/يونيو، ويدعى في تلك الفترة من عمه «رطب»؛ لكن يتم حصاد لتمر العام في نهاية ذلك الشهر، وفي مصر، يتم ذلك بعد شهر منه. ويُحصّر التمر بطرق مختلفة عند العرب، فيكون معلباً بالحليب أو مشوياً بالبريدة؛ أو يُقلص حجمه إلى لب سميكة عبر عليه بالماء ويُكسب فوقه العسل. ويقول العرب إن ربة مرل ماهرة تقدم لسيدها يوماً ولمدة شهر صيفاً من التمر محصراً بطرق مختلفة.

وتسمو في تلك الحدائق بكثرة شجرة «الأش»، وهي صنف من شجرة الطراء وتزرع خشبها الخشن، الذي يصنع منه العرب سرج جمالهم وكل المعدات التي تتطلب مقبضاً صلباً.

وبادراً ما يجد الأرض مستوية تماماً، كما يعمق غالباً عم المرورعات كومات من الصحور. وفي الجهتين الغربية والشمالية الغربية من المدينة، يصبح السهل كله صحراً إلى درجة يهرم بها

أي محاولات لتحسين وتآلف التربة الزراعية من صخر أو طين بمزيج بكمية كبيرة من الجبس والرمل، ولها لون أبيض مائل إلى الرمادي وفي أجزاء أخرى، سأل هذه التربة من طين ورمل ومادة عصبية طفاضة صفراء اللون، وكنت من مادة مشبه جداً بطين ونباع من تلك الأحيرة قطع صغيره مخروطية بشكل لراثري «المدينة»، يسع حولها نحو إنش ونصف وقد تم تحصيلها في الشمس وتحت على شريط ويروي أن محمداً صلى الله عليه وسلم - قد شفى بدويًا من ببي حارث، وأخرج عديد من حصى عبر غسل أجسادهم عياه أدبت فيها هذه التربة ويتوق العجاج إلى أحد كرهذه لمعجزة إلى ديارهم ويتم حصول على هذه التربة من خندق يقع في مكان يُدعى «المدينة» في جوار المدينة

إن أدبي قصة في سلسلة الجبل الشمالية والأماكن الصحيرية كلها معطاة بطبقة من بصحر البركاني ولها لون سود مائل إلى برقة وهي ملأى بالفتحات التي تعدد منها السوائل، غير أنها ثقيلة وصلبة وغير مصفوية وتحتوي غالباً على مواد صغيرة بيضاء في مسامها وتجريها بحجم رأس لدبوس ولم أجدها أبداً في حاة متسورة وللسهل لون سود ناعم بسبب هذه الصخور والقطع لصغيرة استرة عليه ولم أشر على أي جسم بركانية رغم أن طبيعة الأرض تدل بشده على وجود بركان مجاور. وروني كنت أتمتع بصحة جيدة، لكن كنت بعض الاستكشافات إلى الأجزاء الباقية من حداث «المدينة» تبحث عن عيّنات من المعادن لكن لأيام الأولى من إقامتي هناك مصب في إعداد خريطة للمدينة والحصول على معلومات عن سكانها ولم أكن بعد ذلك قادر على القدم بأي مجهود جسدي. وعند عودتي إلى القاهرة، وفي أثناء مطالعتي لوصف «المدينة» اندي ابتعته في لمكان السب، والذي لم أتمكن في الحجار من العثور على نسخة منه أو من وصف مكة، على الرغم من المساعي الحثيثة التي قمت بها صادفت تقرير عن هرة أرضية وحجار بركاني حدث في منطقة محوره مباشرة «المدينة»، وذلك نحو وسط قرن الثالث عشر وبعد لتحقيق والبحث، عمت من رجل في «المدينة» وكان مستوطناً في بدهره، أن مكان محرق الحجم البركانية لا يرون ظاهراً على بعد ساعة شرقي المدينة وحلال إقامتي، ذكرني ذكرني لذيبي ملاحظة عند ذهاني معه إلى حل أحد، وهي أن البلاد بدت وكأنها احترقت بديران، غير أنني لم ألتق سوى جواب لا معنى له، ولم أسمع أي تلميح أو معلومات في المدينة بعد ذلك تعيد بأي كنت ياهرب من ظاهرة طبيعية مثيرة للاهتمام قد تكون بعض المقتطعات من لعمل اندي أشرت إنه، والتي تصف هذا الانحجار البركاني، قيمة وتستدعي اهتمام نقاري، وقد قدمتها في الملاحظة المرفقة أدناه^(١).

(١٣) في بداية شهر جمادى الآخرة، سنة ١٦٥٤هـ، شعر السكان في مدينة بدهر أوصيه حقيقه وفي الثالث من الشهر حدث

حسب هذا التقرير، يجب البحث عن مجرى النهر كريمة على بعد ساعة شرقي المدينة. فقد تعود هذه المواد البركانية، التي تعطي اسطوانة المجاورة مباشرة للمدينة والسهل، إلى العرب منه، إلى الأعجارات السابقة لبركان نفسه؛ حيث إنه لم يذكر أي شيء في الرواية. عن أحجار قدوت من فوهة البركان إلى مسافة بعيدة. كما أن السهل كله باتجاه العرب وحتى وادي «عقيل»، على بعد ثلاثة أميال، قد غُطيَ بنات المواد البركانية لآفة الذكر وتُسوي بعض الشكوك في وجود براكين مشابهة سابقاً في العديد من الأماكن الأخرى في تلك السلسلة الكبيرة من الجبال، لأن العدد الكبير من البايص الدفنة التي يجدها عند كل محطة على الطريق المؤدية إلى مكة تقريباً تسمح لنا بمثل هذه التحقيقات

ومني أروع هذا، عبر ذكر مقطع من المقتطفات الواردة في الملاحظة الأخيرة. في تقديم للملاحظة التالية حسب ما نرى محمد - صلى الله عليه وسلم - الصارمة ومادته، فإن ذلك الجزء من أراضي «المدينة» الذي يطوّفها في دائرة تبعد اثني عشر ميلاً، مع جبل عيرة في الجهة الجنوبية وجبل «نور» في الجهة الشمالية (وهو جبل صغير خلف جبل أحد تماماً)، ليشكل ذلك

هرة أقوى من الأولى خلال النهار. وبعد الساعة الثانية من صباح اليوم التالي، أبلغ السكان هزات عجيبة متكررة، وإحداثيات قوتها خلال باقي الصباح، واستمر مقطعهم حتى يوم الجمعة في السادس من الشهر. وقد اهدرت العديد من الخار و«الخران» وفي صباح يوم الجمعة، شمع صوب واحد قوي. وفي منتصف النهار اندلعت النيران على البعثة التي خرجت منها في الأرض، علا دخان في البدء ثم السماء بعمامة سوداء. وبحو شرقي المدينة، مع اقتراب أفول النهار، كثب نهب النيران ظاهرة (بنيان)، وكانت كتلة ملتصقة ضخمة جداً وكأنها مدينة كبيرة مع جدران وحصى ومآذن ترتفع إلى السماء وخرج من نهب النيران نهر من ثمار بنود أحمر وأوراق برافعة صوب الرعد الهادر. وحملت الأمواج المنتهية كل الصحر آدمية لتكثف بعد مسافة في حسابات عالية. وكان النهر يقترب من المدينة حين أرسل الله سحابة باردة منبثقة على هذه الجهة. وقد أمسى كل سكان «المدينة» في الليلة في المسجد الكبير، وقد جعلت استكشافات النيران وبهيب من تلك الليلة بهراً وأخذ النهر، المتدفق باتجاه شاليه في الجبل المدعو «جبل وعيرة» الذي يقوم في الوادي المدعو «وادي الشهبان» الذي يقع قليلاً إلى الشرق من جبل «أحد» (عني بعد ميّين ونصف من «المدينة») وكانت النيران تروى وهي ترتفع وتعلو لحمة أيام، واستمر النهر في الاشتعال لثلاثة أشهر ولم يكن أحد يستطيع الاقتراب منه بسبب حرارته وقد دُمّر كل الصحر؛ لكن (كما يقول المؤرخ)، بما أن هذه هي أراضي «المدينة» للقدسة، حيث أمر محمد بقطع أشجار ضمن مساحته معه، فلم يمس النهر كل الأشجار التي صادفها أثناء مجرته. وكان طول النهر بأكمته يبلغ أربعة «فارسخ»، أو اثني عشر ميلاً وعرضه أربعة أميال وعمقه ثمانية أو تسع أقدام. وقد دُمّر وادي الشهبان تماماً وإن لمكان الذي دُمّر، ودُعي بالتالي «السدة» لا يزال ظاهراً. وقد شوهدت نهب النيران في جميع وهي مكة كما أن عرباً من بنياء (وهي مدينة صغيرة في الصحراء الشمالية الشرقية التي بعد مسافة ستة إلى ثمانية أيام عن «المدينة») قام بكتابة رساله خلال الليل على الضوء الذي كانت يحط تلك النيران إلى تلك المسافة. وفي السنة نفسها، حصل فيضان كبير لنهر الفرات، دُمّر على أثره نصف مدينة بغداد ومع انتهاء هذه السنة نفسها، احترق مسجد المدينة وبهار أرضاً. ووكأن العرب جاهزين يشهدوا مثل هذا خبر الهائل، لأنهم يدركون، بأن يوم الحساب من يأتي حتى يشب حريق في الحجاز، سيؤدي إلى جعل قلب الجمال في البصرة تبرق برقا.

حدوداً لها، من لزاجب اعتباره مقدساً، فلا يُسمع بديع أي شخص هناك أو قتله باستثناء المختصين والأعداء، في دفاع عن النفس، أو الكافرين الذين يدُسُّونه، كما لا يجب اصطلياد الطرائد أو قطع الأشجار في مثل هذه الأرض المقدسة. عبر أنه تم وضع هذا الخطر حائلاً في الوقت الحاضر، حيث إن الأشجار تُقطع والطرائد تُقتل وراعات دموية تنشب في أيديهم عسها وهي نجومها. وعلى الرغم من مع أي تابع أو موال علي لأي ديانة أخرى غير الدين الإسلامي، من السهل من بوابات المدينة، إلا أن العديد من ذلك حدث فعلاً خلال إقامتي هناك (وحيث كنت أقيم في يَسع). حيث كان هناك مسيحيون يونانيون موطنون في مقوَّصة جيش طوسون باشا محيَّمون ضمن حدود المدينة، قبل رحيلهم إلى مركز الباشا الرئيسي الذي كان حيداك في مقاطعة القصيم.

وَصْفُ لِبَفْضِ أَمَاكِنِ الزِّيَارَةِ

أَمَاكِنِ الزِّيَارَةِ الدِّينِيَّةِ فِي الْمَنَاطِقِ الْجَاوِرَةِ لِلْمَدِينَةِ

فِي الْيَوْمِ الَّذِي يَلِي انْتِهَاءَ الْحَاجِّ فِي تَأْدِيَةِ أَوَّلِي وَاحِدَاتِهِ فِي الْمَسْجِدِ وَعِنْدَ الْقَبْرِ، فَإِنَّهُ يَقُومُ عَادَةً بِزِيَارَةِ مَقْبَرَةِ الْمَدِينَةِ تَكْرِيمًا لِعَدِيدٍ مِنَ الْأَنْثَمَةِ الدِّينِ يَرْفَعُونَ هَاكِ. وَهِيَ تَقَعُ حَلْفَ حِجْرَانِ الْمَدِينَةِ، تَمَامًا قَرَبَ الْبَوَابَةِ الَّتِي تُدْعَى بِابِ الْجَمْعَةِ، وَتَحْمِلُ اسْمَ «الْبَقِيعِ» وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ مَرْتَبٍ مِنْ عَدَّةٍ مَثَبٍ مِنَ الْأَقْدَامِ يُسَبِّحُهُ جِدَارٌ يَصِلُ إِلَى الصُّوْحِيِّ مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَنَوِيَّةِ، وَتَحِيطُ بِهِ بَسَاتِينُ الْحَيْلِ مِنَ الرُّوْحِيِّ الْآخَرَى وَقَبَاً بِقَدْسِيَّةِ الْأَشْجَادِ الدِّينِ تَحْتَوِي الْمَقْبَرَةَ عَلَى رُفَاتِهِمْ، فَهِيَ مَكَانٌ تَذَرُّ، وَقَدْ تَكُونُ الْمَقْبَرَةُ الْأَكْثَرُ اتِّسَاعًا وَيَوْمًا فِي أُنَى مَدِينَةٍ شَرْقِيَّةٍ لَهَا حِجْمُ «الْمَدِينَةِ». فَلَيْسَ هَاكِ أَيْ قَبْرٌ جَيِّدٌ السَّاءِ، وَلَا حَتَّى شَوَاهِدٌ حَجَرِيَّةٌ مَفْخُوشَةٌ عَلَى الْقُبُورِ، وَبَدَلُ ذَلِكَ، هَاكِ كُومَاتٌ بَسِيطَةٌ مِنَ التُّرَابِ مَعَ حَاقَاتٍ مَنْحَصَصَةٍ مِنَ الْحَجَرِ غَيْرِ الْمُنْبَتَّةِ وَصُنِعَتْ حَوْلَهَا. وَتَشِيرُ أَصَابِعُ الْإِبْهَامِ إِلَى الْوَهْدِيَّتَيْنِ فِي بَشْوِيهِ الْقُبُورِ، وَاسْتَدْلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ، بَقَايَا قَبْرِ صَغِيرَةٍ وَمِيَالٍ مَهْدُومَةٍ قَدْ أَشِيرَ إِلَيْهَا وَكَانَتْ سَابِقًا تَغْطِي قُبُورَ عَشْمَانَ وَالْعَبَّاسِ وَسَيَّاهُ صَاعِمَةٍ وَعَمَّاتٍ مُحَمَّدٍ، وَالَّتِي يَرْجِعُ تَدْمِيرُهَا إِلَى تِلْكَ الصَّائِعَةِ. غَيْرَ أَنَّهُمْ بِالْصَّبْعِ لَمْ يَقُومُوا بِهَدْمِ كُلِّ قَبْرِ آخَرٍ بَسِيطٍ مَسْبُوعٍ مِنَ الْحَجَرِ، وَهَذَا لَمْ يَفْعَلُوهُ فِي مَكَّةَ أَوْ فِي أُنَى مَكَّةَ آخَرٍ لَا بَدَأُ أَنْ حَالَةَ الْمَقْبَرَةِ الْبَائِسَةِ هَذِهِ كَانَتْ كَذَلِكَ قَبْلَ الْهَجُومِ الْوَهْدِيِّ، وَإِمْكَانُنَا أَنْ نَعْرِفَ ذَلِكَ إِلَى نَفُوسِ أَهَالِي الْمَدِينَةِ الْبَحِيلَةِ، غَيْرِ الْمُسْتَعْدِينَ لِتَحْقُلِ أُنَى بَقَايَاتٍ لِتَكْرِيمِ بَقَايَا مُوَاطِنِهِمُ الْمَشْهُورِينَ وَرُفَاتِهِمْ. وَالْمَكَانُ كَمَّةٌ عِبَارَةٌ عَنْ تَرَائِكُمِ فَوْصُوعٍ لِكُومَاتِ التُّرَابِ وَالْحَجَرِ الْوَاسِعَةِ وَالْقِدَارَةِ، مَعَ عِيَابِ أُنَى قَبْرِ حَجَرِيٍّ مَسْبُوعٍ وَيُطْلَقُ مِنَ الْحَاجِّ زِيَارَةُ عَدَدٍ مِنَ الْأَصْرَحَةِ وَتِلَاوَةِ الْأَدْعِيَةِ بِوُفُودِهِمْ أَمَامَهَا وَيَجْعَلُ الْعَدِيدُ مِنَ الْأَشْخَاصِ مَهْمَةً لَهُمْ الْإِنْتِظَارُ طَوِيلَ النَّهَارِ قَرَبَ وَاحِدٍ مِنَ الْقُبُورِ الرَّئِيسِيَّةِ وَقَدْ بَسَطُوا مَنَابِلَهُمْ نَامَتِهِمْ، وَهُمْ يَتَوَقَّعُونَ وَصُولَ الْحَاجِّ الْعَدَمِيِّ لَزِيَارَتِهِ تِلْكَ الْمَقْبَرَةَ. هَذَا هُوَ الْإِمْتِيَارُ الْخَاصُّ

بِأَعْرَاسِهِمْ وَعَدَّتْ لَهُمُ الدِّينَ قَسَمُوا لِقُبُورِ بَيْتِهِمْ حَيْثُ يَأْتِيهِمْ كُلُّ مَكْرَهٍ أَوْ يُرْسِلَ حَادِمُهُ عَوَصًا
مَهُ.

إن أبرر الشخصيات نبي برقد هـ في هذه المقرة هي إبراهيم بن محمد - صبي الله عليه وسلم - الذي توفي ولم يزل بعد صغيراً وفاطمة بنته، علي وفق رء الكثيرين القائمين بأبها دفنت هما وليس في المسجد؛ وعنه من روجات محمد وبعض بنائه، وموضعها؛ وفاطمة ابنة أسد أم علي، وعباس بن عبد مطلب، وعثمان بن عفان، أما حمزة محمد بن حشيش بندي جمع سور القرآن المعثرة في كتاب واحد؛ «والشهداء» كما يُدعون، الذين ذبحوا هما على يد جيش مشفقين بأمره يريد بن معاوية وبقياده مُسلم سنة ٦٠ للهجرة (يقول آخرون سنة ٦٢) الذي بُني من سوريا وبها لمدينة التي اعترف سكناها بعد الله بن حطبة الثائر فائداً لهم، ثم حسن بن عتيبي بندي برقد بدنه ما فقط حيث إن رأسه كان قد رُسل إلى القاهرة ليتم الاحتفاظ به في المسجد اندعو الحسينية والإمام مالك بن أنس، مؤسس مذهب مالكي وبالعص، فإن عني «المدينة» برقات لأئمة العظماء جعهم يعقلون شيئاً من أهمتهم الشخصية، في حين أن مات شخص واحد من أولئك السابقين الذكر يكون كافياً جعل نبي مدينه إسلاميته أخرى دعة نصيب وناسبة إلى صيغة الدعاء والابتهاال لدي يتوخه به أنس إلى أرواح لأئمة هـ، سأنقل ذلك الذي يُرد يدني مرفوعين بعد تأدية صلاة قصيرة من أربع ركعات على قبر عثمان بن عفان. «السلام عليك يا عثمان، سلام عليك يا صاحب المصطفى! سلام عليك يا جامع القرآن! رضي الله عنك! جعل الله الجنة مسكنك ومثواك ومستقرك ومبرك! وإني أستودع هذه البقعة في حوارث يد عثمان شهادة دائمة من يومنا هذا إلى يوم القيامة لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله».

ويعرف سكّاب المدينة كثُر أمواتهم في هذه الأرض في القصور العديدة نفسها كقبور الأئمة،
وتُعرفُ عُصاة من أشجار لحل على القصور ويتمّ به يلها مئة كل سنة عند عيد البصر حين ترور
العائلة قبر أقاربها حيث تبقى أحياناً لأيام عدّة

زِيَارَةُ هَيْبَلِ أُمِّ

إنَّ إحدى الزيارات لأُساسته، أو أباكَس زيارته المقدسه في «المدينة»، هو جبل أُحد، مع قبر حمزة عَمَّ النبي مُحَمَّد. بشكل جبل أُحد جزءاً من سلسلة الكبيرة، ويتفرَّع عنها إلى سهل الشرقي، ليقف في غرلة تقريباً وهو يعد عن المدينة ثلاثة أرباع الساعة سير على الأقدام.

في السنة الرابعة للهجرة، حين رُمِيَ مُحَمَّد إقامته في «المدينة»، قامت قبيلة قُريش انوثثة وعلى رُأسها أبو سفيان، بعرو هذه الأحرار وتمركزت عند هذا الجبل فخرج مُحَمَّد من المدينة،

وقوة عبر متكوفة أبدأ، خاص هناك أشد الممارك عمداً وقسوةً وبطشاً مما شهده في حياته، وقتل عمه حمزة مع حمزة وسبعين من أتباعه، وقد أخرج هو نفسه، لكنه قتل برمحه الخاص أحد أشجع الرجال في الجهة المقابلة وأحرر في النهاية انتصاراً كاملاً. إن قبر حمزة والشهداء الخمسة والسبعين، كما يُستون، يشكّلون موضوع الزيارة إلى جبل أحد.

بدأت سيراً على الأقدام، مع دليلي، في المؤنة السورية، برفقة عدة راكبين آخرين؛ لأنه لم يكن أمراً اندهاب إلى هناك وحيداً، خوفاً من لنصوص العدو وتؤدي الزيارة عامة أيام الخميس. وقد مررنا بالمكان الذي سقيم فيه قافلة الحج لسورية، حيث توجد عدة آبار وحزانات متدعية مرصوفة بالحجارة. تزود الحجاج بالماء خلال قائلهم في هذا المكان مدة ثلاثة أيام، في طريقهم من مكة واليه. وإلى الأمام قليلاً يقع «كشت» حبل نعوه قبة شبه متدعية الآن كذلك وتُدعى «القرى»، حيث يتحد رعيم القافلة عادة مسكنه موقت. وتصح الأرض بعد ذلك مستوية تماماً، وتنصب هنا وهناك أشجار الحبل وتظهر عدة أراضي زرعها الناس فقط حين تكون الأمطار غيرة. وعلى مسافة ميل واحد من المدينة. يقع صرخ مهذم، من الأحجار والقرميد، تلى عنه صلاة قصيرة تكريماً لذكرى محمد حيث إنه وضع هنا درع الواقعي حين ذهب للاقاة العدو. وعلى مسافة أبعد، هناك حجر كبير كتب عليه أن محمداً أتى بها لصبغ دقائق في طريقه إلى أحد؛ وعلى الزائر أن يصعظ بصره على هذا الحجر ويقرأ الفاتحة، أو فاتحة القرآن.

بالاقتراب من جبل، مررنا بسيل ات من الشرق أو الجنوب الشرقي، مياهه يعق قدمين، وهو بقايا الأمطار التي هطلت منذ خمسة أيام وهو يرتفع أحياناً إلى حد يصح معه تحاوره مستحيلاً، وتغرق الأراضي المحيطة بأكملها. إلى الشرق من هذا السيل، تصبغ الأرض المؤدية إلى جبل جرداء فاحلة وصحرية، وتبدأ بالارتفاع قليلاً، حيث يقع على مسجدها مسجد يحيط به نحو اثني عشر مرلاً مهذماً كانت في يوم من الأيام فيلات للاستجمام يمكنها أثرياء أساء المدن، ويقع بالقرب منها حزان تملأه مياه السيل والمسجد عبارة عن صرح له شكل مربع صغير صلب لواء. وقد رمى الوهابيون قبته أرضاً بكنهم لم يمتوا لقبر. يحيط المسجد بقبر حمزة، وقبور أهم رجاله الذين قُتلوا في المعركة، خاصة منهم مصعب بن عمير وحفص بن شماس وعبد الله بن حش. وتقع القبور في ساحة صغيرة مكشوفة؛ وهي. كذلك التي في البقيع، عبارة عن كومات بسيطة من التراب تحيط بها بصعة أحجار غير مثبثة. بالقرب منها، هناك رواق معبد صغير كان يُستعمل كمسجد، حيث تؤدي صلاة قصيرة، يتقدم بعدها الحاخ إلى القبور حيث يقرأ سورة «يس» (من القرآن)، أو سورة الخلاص القصيرة أربعين مرة؛ ثم

يتوشل إلى حمرة وأصحابه للتشفع به ولكن عائلته عند الله يعطيهم الإيداع والصحة والمال ويوهق كل أعدائه بشكر مطلق. ويُقدّم ابن كالعدة عند كل زاوية لحراس المسجد والقبور، وللمؤذن والإمام، إلخ..

إلى الأمام قليلاً، باتجاه الجبل الذي يبعد مسافة مرمى سديفة فقط، تقع قبة صغيرة تتحدّد المنكر الذي ضرب فيه محمد بحجر أزداء أرضاً^(١) في إحدى المعارك وأدى إلى إسقاط أربعة من أسايه الأمامية. فطُت جماعته أنه قتل؛ إلا أن املاك جبرائيل ظهر فوراً ليعلن بأنه لا يزال حياً. وعلى مسافة قصيرة من هذه القبة التي دُمّرت ككل الأحرار، تقع قبور اثني عشر من أناس السبي الذين قُتلوا في المعركة؛ وهي تشكل مع بعضها عدة كومات من النقادة^(٢) [١] (٣) والأحجار التي يصعب تحيها تغيير قبورهم وتُلبى وصلوات مرة أخرى، مع ذلك المقصع من القرآن الذي يرد فيه، في الحديث عن الشهيد. ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحياءٌ عند ربهم يُرَقَّونَ﴾ وهي آية لا تروى تستعمل حتى في أيامنا هذه لتشجيع المجهود لأتراك في معاركهم ضد الأوربيين

يتألف جبل أحد من صحر العربيت المختلف الأنواع؛ وقد وجدت على جواره كدلت ححر الصوّال، لكني لم أجد حمماً ركابية ويصع طول الجبل بأكمله أربعة أميال تقريباً، من العرب إلى الشرق. وليس من المثير للدهشة أن يكون جبل أحد محطّ نحييل ووقار حص كونه شهد المعركة الشهيرة التي ساعدت إلى حد بعيد في تحرير دين محمد الجديد وجماعته وتقويتها ويعتقد أهل المدينة أنه سيُنقل إلى الجنة في يوم العث والشور، وأن الناس سيُجمعون عليه يوم يُعرضون أمام حائشهم، كونه الخطّة المصّلة^(٣). أما جبل عيرة المذكور أعلاه، والذي يقع إلى الجنوب الغربي من المدينة (تقريباً على المسافة نفسها التي يبعد عنها جبل أحد من الجهة الأخرى)، سيُشهد في ذلك اليوم مصيراً لا يُحسد عليه كالأوّل؛ فهو قد أكرأ على السبي الذي أصاع طريقه ذات يوم في أوديته، وراودة الطمأ، لد فإنه سيُعاقب على سوء صياقته وذلك برميّه فوراً في جهنم.

يرور أهل المدينة تكراراً جبل أحد، فيصوبون حياهم في اسارل انهدمه حيث يقول بصعة أيام، حصة منهم الناهيون الذين يدروا في أثناء مرضهم بدع حروف تكرير لحمرة، إذا ما

(١) تروى هذه القصة هنا، بالرغم من أن المؤرخين لا ينفقون حول هذا الموضوع

(٢) بعد المؤلف المائد ذكر على هذه الألفاظ السبعة دائماً

(٣) هذه افتراضات المؤلف ليس إلا لأنه لا ينسب ما يدعيه إلى مصدر موثوق.

تَمَثَّلُوا لِلشَّعَاءِ وَيَتَوَافَدُ النَّاسُ إِلَى هَا مَرَّةً فِي السَّنَةِ (فِي شَهْرِ ثَمُوزَ/ يُولْيُو عَلَى مَا أُعْتَقِدُ) فِي أَهْوَاجٍ وَحَشُودٍ، وَيَبْقَوْنَ لثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، كَمَا نُو كَانَتْ تِلْكَ أَيَّامَ عِيدِ النَّبِيِّ. وَيَتِمُّ حَبْنُهَا فَتُفْتَحُ أُسْوَاقٌ اعْتِيَادِيَّةٌ هَاكِ، لِأَنَّ هَذِهِ الزِّيَارَةَ تُشَكِّلُ أَحَدَ مَصَادِرِ التَّسْلِيَةِ الْعَمَّةِ الْأَسَاسِيَةِ فِي الْمَدِينَةِ.

قُبَاءُ

يَزُورُ الْحُجَّاجُ كَثِيرٌ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ لِجَاوِرَةِ الْبَقْعَةِ الَّتِي تَوْقِفُ عِنْدَهَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَوَّلًا عِنْدَ مَجِيئِهِ مِنْ مَكَّةَ وَهِيَ تَقَعُ إِلَى الْجَنُوبِ مِنَ الْمَدِينَةِ وَتَبْعُدُ عَنْهَا بِحَوْلِ ثَلَاثَةِ أَرْبَاعِ الْمَسَافَةِ. وَتَمُرُّ الطَّرِيقُ الْمُؤَدِّيَةُ إِلَيْهَا عِبْرَ سَهْلٍ تَنْمُو فِيهِ أَشْجَارُ الْحَبِيلِ بِكَثْرَةٍ وَتُعْطِيهِ الرَّمَالُ الْبَيْضَاءُ فِي أَمَاكِنَ عَدِيدَةٍ وَعَلَى مَسَافَةِ نِصْفِ سَاعَةٍ مِنَ الْمَدِينَةِ تَبْدَأُ الْحَدَائِقُ الَّتِي تَنْتَشِرُ عَلَى مَسَاحَةٍ يَبْلُغُ مُحِيطُهَا أَرْبَعَةً أَوْ خَمْسَةَ أَمْيَالٍ، وَهِيَ تُشَكِّلُ رُبَّمَا الْبَقْعَةَ الْأَكْثَرَ حَصُوبَةً وَمُنْعَةً فِي شِمَالِي الْحِجَارِ. تَتَظَهَّرُ أَنْوَاعُ أَشْجَارِ الْمَاكِهَةِ كُلِّهَا (بِاسْتِثْنَاءِ لِفَتَاحٍ وَالْإِحَاصِ الَّتِي لَا تَنْمُو أَيَّْيَّهَا) كَمَا أُعْتَقِدُ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ) فِي الْحَدَائِقِ الَّتِي أُحِيطَتْ كُلُّهَا بِالْجُدُرَانِ، وَيَتِمُّ رَبُّهَا عِبْرَ آبَارٍ عَدِيدَةٍ. مِنْ هَا تَتَرَوُّدُ «الْمَدِينَةُ» بِالْمَاكِهَةِ؛ كَالْحَامِصِ وَاللِّيمُونِ وَالزَّيْتُونِ وَالْمُورِ وَالْعَنْبِ وَالْخُرُوجِ وَالْمُشْمَشِ؛ وَتُرَرُّ أَشْجَارُ التِّينِ وَسَطَ أَشْجَارِ الْحَبِيلِ وَالسَّقِّ، وَتُشَكِّلُ بَسَاتِينَ كَثِيفَةً كَمَا فِي سُورِيَا وَمِصْرَ، فِي حَيْرٍ تَجْمَلُ ظِلَالُهَا مِنْ قُبَاءٍ مَقَرٍّ إِقَامَةً مُنَمَّاً وَبُهْجَاناً؛ كَمَا يَكْثُرُ الْخُرُوجُ هَا أَبْصَاراً. «يَزُورُ أَهْلُ «الْمَدِينَةِ» الْقَرْيَةَ تَكَرُّراً، فَيَتِمُّ بِاسْتِمْرَارٍ تَشْكِيلُ الْمَجْمُوعَاتِ لِمُتَعَبِي النَّهَارِ، كَمَا يُنْقَلُ مَرَضَى كَثِيرُونَ لِنَشْمُتٍ وَالِاسْتِعَادَةِ مِنْ حَسَبَاتٍ وَفَوَائِدِ مَنَاحٍ بَارِدٍ وَمَنْعَشٍ.

يَقُومُ مَسْجِدُ قُبَاءٍ وَسَطَ هَذِهِ الْبَسَاتِينَ، مَعَ نَحْوِ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ مَسْجِداً وَهُوَ مَبْنِيٌّ قَدِيمٌ وَمَتَدَاعٍ، تُرَازُ فِي دُخْلِهِ عِدَّةُ أَمَاكِنَ مَقْدُوسَةٍ تُوَدَّى عِنْدَ كُلِّ مَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ مِنْ رَكْعَتَيْنِ وَتُرَدَّدُ تَضَرُّعَاتٌ تَكَرِّمًا لِلْمَسْكَنِ. وَأَوَّلُ مَا تَرَاهُ هُنَا هُوَ «مَرْكُ النَّاقَةِ»، وَهِيَ الْبَقْعَةُ نَفْسُهَا فِي أَرْضِ الْمَسْجِدِ الَّتِي رُبِصَتْ عَلَيْهَا نَاقَةُ مُحَمَّدٍ، فِي رَحْلَتِهِ مِنْ مَكَّةَ، وَأَبَتْ أَلْ تَهْضُرُ ثَانِيَةً. فَتُصَحِّحُ بِالتَّالِي سَيِّدُهَا بِالتَّوَقُّفِ هَا (١٩) وَهَذَا مَا فَعَلَهُ لِبَصْعَةِ أَيَّامٍ قَبْلَ دُخُولِهِ «الْمَدِينَةَ» وَقَدْ بَنَى مُحَمَّدٌ نَفْسَهُ هَذَا الْمَسْجِدَ تَكَرُّمًا فِي هَذِهِ الْبَقْعَةِ وَتَقْدِيسُهَا (٢٠). بِأَحْجَارٍ عَبْرَ مَشِيَّةٍ. وَقَدْ تَمَّ تَعْيِيرُهُ فِي السَّنَةِ اتِّتَالِيَةِ إِلَى بِنَاءِ عَادِيٍّ مِنْ قِبَلِ بَنِي عَامِرٍ بِنِ عَوْفٍ؛ لَكِنْ الْمَسِيءُ الْخَالِي حَدِيثُ الْبِنَاءِ. وَإِلَى الْأَمَامِ قَلِيلًا تَظْهَرُ الْبَقْعَةُ الَّتِي وَقَفَ عَلَيْهَا مُحَمَّدٌ دَائِمَةً مَرَّةً بَعْدَ إِنْهَاءِ صَلَوَاتِهِ، وَرَأَى مِنْ هَاكِ مَكَّةَ بِوَضُوحٍ وَكُلُّ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ بِنُو تُرِيثُ هَاكِ؛ وَثُمَّ هَاكِ الْبَقْعَةُ الَّتِي نَزَلَ فِيهَا الرُّوحُ عَلَى مُحَمَّدٍ

(١) ثُمَّ يَبْنِي الرُّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْمَسْجِدَ تَكَرُّمًا وَتَقْدِيسًا لِلْأَرْضِ أ - بَلْ يَبْعِدُ بِهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ

بالسورة لقُرْآنِيَةِ الْمُتَعَذِّبَةِ بِسَكَانٍ هَاهُنَا ﴿وَلْيَسْجُدْ أَسْفَلُ عَلَى التَّعْوِي مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ ن تَقْوَاهُ فِيهِ،
فِيهِ وَحْدٌ يُحْثُونَ أَنْ يَتَصَهَّرُوا وَلَهُ يُحِثُّ الْمُظْهَرِينَ﴾ سورة التوبة/١٠٧
في هذه الآية، هناك تلميح إلى صهارة أولئك الذين سكمو قرية قتاء، طهارة شخصية مميزة،
وخاصة في بعض أعمال الوصوء.

لم أزل أتذكر في هذا المسجد باستثناء تلك التي كتبها الحاج بيدونوا أسماءهم على
الجدران البيضاء اللون، وهي عادة يعمس فيها المسافرون بشرقيون تماماً كالسياح الأوربيين،
ويصغرون أحياناً إلى الأسماء مصفاً من نباتات الشجر المفضين أو آيات من القرآن والمسجد
عبارة عن صف أعمدة صيق حول بناء صغير مكشوف حيث يقع «مركز الباقية» الذي تعود قبة
صغيره ترتفع إلى علو نحو ست أقدام وقد هاجمت مجموعة من المسؤولين عند خروجهم من
المسجد. وبين مجموعة المنازل التي تقع على مسافة قصيرة منه، يقع مسجد صغير يدعى
مسجد عتي بُني تكريماً لعتي ابن عم النبي بالقرب منه شر عميقة العور وسط حديقة، وهي
تُدعى «عين الرقعة»، وقد بُني على فتحها مسجد صغير فقد كانت هذه البقعة هي مقصدة
لدى محمد الذي كان يجلس عنده بين الأشجار مع أتباعه يتمتعون برؤية الماء يخرج في جدول
رائق شفاف، وهو أمر يحدث في الوقت الحاضر بقوة بناء الشرق، ومع إصافة شجرة وارف
مظلمة، قد يكون ربما سطر الطبيعي الوحيد الذي يحتويه. وقد وقع حاتم النبي ذات مرة في
الشر، حين كان يجلس هناك، ولم يتم أبداً لثورة عبيد ويجعل لا تراض بأن الخاتم لا يرس هناك
من هذه الشر شر شهيرة إن مياه فاترة عند مسعها وبها مذاق كريهي خفيف تعقده أثناء
حريتها ويتم حملها مع مياه عدة يابغ أخرى في قارة ترور «المدينة» بالبناء، وتبقى مدفعة
باستمرار بسبب ترويدها مياه نر متعددة وقام عمر بن الخطاب بداء دي بدء بحر اليسوع
إلى «المدينة» لكن السلطان مسلمان بن سليم الأول هو الذي بنى قصاه الخاتبة نحو سبه
١٩٧٣هـ، وهي عبارة عن عمل متين جداً تحت الأرض

إن هذه القصة إلى جانب قصة مكة، هي من التحف الهندسية الدرة والمصنعة في حجار
وعرب مسجد قتاء، يقوم مبنى شبيه أسطوانات مرد للبروش وحلف القرية بقليل، على
الطريق المؤدية إلى «المدينة»، يقع مسجد صغير يدعى مسجد الجمعة، بُني تكريماً للبقعة التي
النقى أهل «المدينة» عليها محمداً عند وصوله من مكة.

القبليتين

تتم زيارة مكان يحمل هذا الاسم إلى شمال العربي من المدينة، ويبعد مسافة ساعة و حدة
عنها ويُقال أنه يتألف من عمودين بسيطين (إد إبي لم أرة بعسي)، وهو البقعة التي يدل

محمد قبيلة عليها^(١)، أو لاتجاه الذي يتوجه نحوه المؤمن عند الصلاة، وكان ذلك في الشهر السابع عشر لهجرة أو رحلته إلى «المدية» حتى دنت الرقت، كان أنصاره مع البدو ليهود يتحدون من القدس قبيلة لهم؛ لكن محمد أدرها الآن باتجاه الكعبة التي يرمز إليها ذلك المنقطع الجميل من القرآن ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فأبما تولوا فتم وجه الله إن الله واسع عليم ﴿﴾، وهي آية أرسلت لتضع المسلمين بأنهم أبما اسندوا في صلواتهم، بأن الله يقف أمامهم ويقوم بالقرب من هذا المكان مسجد صغير مهتم.

إن الأماكن المذكورة أعلاه هي لوحيدة التي يرورها الحجاج والأراضي الواقعة حول قرية قباء، وفي الاتجاه الجنوبي الشرقي من المدينة، فيها العديد من الأماكن الجميلة الخلابة تماماً مثل قباء، والتي تصبح في فصل الصيف أماكن راحة واستحمام لأهالي «المدية». غير أني أعتقد أنه سس هناك أي مرقى في أي مكان، بل بعض المسارح المعزلة فقط، أو مجموعات صغيرة من لأبية المنتشرة بين أشجار النخيل.

(١) الله سبحانه هو الذي يدل القبلة، لا الرسوم. صلى الله عليه وسلم - فإن تعالى ﴿فَلْيُؤْيِكُمْ مِنْ تَرْصَادِهِ﴾

حول سكان المدينة

إن أهل المدينة، كما سبقت، هم في حرتهم الأكبر من العرب، وقد جديهم إلى هذا المكان قريشي والأرياح التي يصممها لجيرانه و لقليل فقط من العرب المتحدرين من تلك العائلات التي عاشت في «المدينة» حين أتى محمد من مكة، ما زالوا يعيشون الآن فيها؛ وعلى العكس، وبما نجد فيها جماعات من اعترين من كل جزء من العالم الإسلامي تقريباً، شرقاً وغرباً وقد أعلمت أنه لم يبق من العرب الأصليين لميمية، الذين يُطلق الكتاب المسلمون عليهم اسم «الأصار»، و ليس كانوا، عبد دحل محمد، يتألمون بشكل أساسي من قبيلتي «الأوس والخزرج»، سوى نحو عشر عائلات ثم يستطيعون إثبات نسلهم غير نسبهم وتاريخهم أو غير عريف أكيد ومثبت تماماً، فهم أدنى فقراء يعيشون كعلاحين في الحدائق والصحاري. عدد الأشراف المتحدرين من حسن، حفيد محمد، كبير جداً، لكن أغلبهم ليسوا أصلاً من هذا المكان، إذ إن سلافهم أتوا من مكة إلى هنا خلال الحروب التي أشعلها الأشراف لسيطره على تلك المدينة وهم جميعاً يرقون إلى فئة العبداء، ولا نجد هنا إلا القليل من الأشراف العسكريين، كأولئك الذين في مكة، كما نجد بسبهم قبيلة صغيرة من بني حنيفة المتحدرة من الحنيفة حي الحنيفة ويقال أنهم كانوا في السابق ذوي سلطة وعود في المدينة، وقد احتضروا أنفسهم بالجزء الرئيسي من دحل المسجد. هي انقرن الثالث عشر (حسب اليهودي)، كانوا حراس قبر النبي المنجيين، لكنهم تصاءرو في الوقت الحاضر ليصبحوا نحو ثلثي عشرة عائلة فقط لا تزال تدرج صغر صفوف السلاء في المدينة وسكانها الأوفر ثراء وهم يحضون حياً بأنفسهم ويجنحون لأرياح البطالة، خاصة من الحجاج انقرس الذين يتركون من هنا. وقد تم الإعلان عالمياً بأنهم مشقوق عن الدين ويتمون إلى مذهب عني العارسي، وبأنهم يمارسون بيزاً شعائر تلك العقيدة وطقوسها، بالرغم من أنهم يقررون علانية بعقائد مذهب استي. إن لهذا الرأي من

النشروع. وبما يلقاه من تأكيد الكثير من الدرس المحترمين، ما لا يكاد يجمعه عرصة لذلك بكرى
بني تحسب لهم يعود قوي في المدينة، وهم يتفقون ظاهرياً مع انبأى السبى، وهم لذلك لا
يتعرضون للمصايقة.

ويقال عامة أن البقية الباقية من الأنصار والأعداد الكبيرة من العالين العرب، الذين
يرجعون الحقائق واحقول في المناطق المجاورة للمدينة، يؤمنون بالبدعة نفسها. ويذكر أولئك
العرب «الواجلة» (وهو اسم يدل على أنهم يعيشون بين أشجار الخيل)، وهم كثر ومرلحون جداً
بالحرب وقد أثدوا مقاومة عنيفة أمام الوهابيين، ولطالما أثبتوا في الصراعات المدينة أنهم
متفوقون على أهل المدن. ويقال أنهم متحدثون من أتباع يريد بن معدوية الذي استولى على
المدينة وسلبها بعد ستين عاماً من المهرة. وهم لا يتزوجون إلا مع بعضهم بعضاً، ويظهرون في
كل مناسبة روحاً تصامبية عظيمة. ويتبع العديد منهم عقيدة علي حين يكونون في بساتين
بخلهم، لكنهم يصبحون شتيين كلما أتوا إلى المدينة وقد استقر بعضهم في الصحاري
واحتكروا مهنة الحرارة وفي أثناء اشجارات التي كانت تقع سمعت أشخاصاً منهم يُسَمَّونَ
علناً بالزوافص أو النشيعين دون أن يذكروا ذلك أبداً في الصحراء الشرقية وعلى مسيرة ثلاثة أو
أربعة أيام من «المدينة»، تعيش قبيلة بدوية كامنة تدعى قسلة بني علي، وهي تنتمي كلها إلى
هذه العقيدة القارمية^(١). وأنه لمن المدهش أن نجد البقتين الأكثر قدمية في الدين الإسلامي
السني، محاطين، أحدهما من ابوالين يريد والأخرى من لواين لعلي، دون القيام بأي محاولة
لإراحتهم وطردهم.

وهناك كذلك، من بين العائلات القديمة في «المدينة»، بعض المتحدثين من العباسيين، وهم
الآن يرحلون تحت ثقل الفقر المدقع، وهم يدعون «حليقية» للدلالة على تحضرهم من سل
الخلفاء.

إن معظم السكان هم من أصل أجبي ويشكون عصراً أو عرقاً متمازجاً متعدد الأنواع
كسكان مكة فلا تمضي سنة واحدة دون أن يُضاف إلى عددهم وافدون جدد. ولا يجترأ أي
قاعة حج «المدينة» دون أن تحلف وراءها بعض المسافرين الذين يتوقفون في بادى الأمر لنية
البقاء سنة أو ستين فقط، لكنهم يستمرون عامة في الإقامة هنا نهائياً. إن المتحدثين من شمال
بركيا عديدون جداً، لكن الجزء الأكبر منهم يعود أصلهم إلى المستوطنين في البلاد الجنوبية في
شبه الجزيرة واليمن وحضرموت، ومن سوريا ومصر، وعديدون كذلك من بلاد المغرب. وكان

ديلي يدعى «سعد» الذي الكردي» لأن جمده كان كردياً استوطن هه وكان اسم مائدك منول الذي كسب أسكر فيه «سيد عمر» وهو شريف من قبيلة اليمني في اليمن، وقد أتى أسلافه إلى هه منذ عدة مئات من سنين ويجد أيضاً اليهود، لأن عددهم أقل منه في مكة. هه بائعو أدوية ومديرو مناجر ثابوب، لكني أعتقد أنه لا يوجد في «المدينة» تجار لحمة من اليهود الذين يبيعون سلعهم نوطية. وهم يسمون برئهم وعاداتهم النوطية فيشكون جاليه صغيره، وهه يادرا ما يتزاجون أو يحتلطون مع السكك الآخرين

يد الأشخاص من لأهم الحصة المستقرة هه، في الحبل الثاني و ثالث منهم، كنهم فد أصبحوا عرباً، هه يتعنق بالنطيع والسلمات. غير أنهم مع ذلك، يتميزون عن المكين، هه ليسوا ذوي بشره داكة كأهل مكة، فيشكلون بالتالي صلة رصن متوسطة بين أهل الحجر وأهل شمر سوريا. فقسماهم أكثر وصوحاً بعض الشيء ولحيهم أشد كثائاً وأحسادهم أشد صلاة وقوة من المكين؛ لكن لوحه عربي واملامح وبرور انفسات هه نفسها في الهنيل

وبشه انديتون الأثره في رئهم أكثر مما يشهون جيرانهم الحويين بقليل منه يرتدون اللب أو العباءة بعريه النوطية التي بلا كمام. لكن حتى ساس الأكثر فقراً يرتدون العباءات النطوية مع خيطة أو عباءة فوقية، أو عصابة عها، عباءة من لقماش المخطط بالأبيض والشي كما هو شائع في سوريا وهي أبيضه بصحراء كلها كما تستعمل انفسسوات تنوسية لخمراء والأحده التركية هه أكثر منها في مكة حيث تردي الطبقات الدنيا فلسسوات بيضاء اللون وصندل في مرجين ونيسورون من ساس يتأقون في لبسهم فيصنعون الخيطة ذات القماش الفاجر والعباءات الجميلة، وهي لشتاء يرتدون المعاصف الأنيقة الآتية من القسصطيه من طريق القاهرة؛ وهي سلعة من لثياب شائعة جداً في شهري كانون الثاني / يناير وشباط / فبراير، وهو موسم أشد برودة هه مما يتوقعه الأوروبيون في الصحاري لعربية. وبشكل عام، بإمكان القول بأن مديين يتأقون في ساس بشكل أفضل من المكين رغم أنهم أقل نظافةً لكن لا يرى أي شيء رصني هه، وخاصة في فصل الشتاء البارد حين تقوم الطبقات الدنيا بلف أحسادهم ونعطيها بأي ثوب يستطيعون شراءه بسعر محقق في امردات العتيبة؛ بحيث أنه من سائد جداً رؤية رجل وقد ارتدى ثياب ثلاثة أو أربعة بدون محتفة، فيكون بالتالي كعربي إلى حد حصره، وكحدي تركني عند صدره وكتفيه. ويعتد الناس الأوفر ثراءً عرصاً رائعاً بثياب وخافسو، مع بعضهم بعضاً في الحنئي القاهرة وقد رأيت هه ثياب جديدة أكثر مما رأيت في أي جزء آخر من الشرق، حتى بعد انتهاء أعياد اسبوتية. وكما هي الحال في مكة، لا يصع الأمر في اللول الأحصر، بما العدمات البسيطة من لموسلين لأبيض، باستثناء أولئك القادمين من الجزء الشمالي من تركيب الذين استوطنوا هه حديثاً وهم لا يرلون يضعون شارة سيهم السيل

قبل الاحتلال الهندي، حين كان السكان يحضرون شحارات دموية كانت تشتت بين بعضهم بعضاً، كانوا يتسحرون دائماً بالحبيبة، أو الخضر العربي المعقوف، لكسا جانباً لا يرى إلا أنقليل من تلك الحجرة؛ يسماً أن كل شخص، من أعلى مرتبة إلى أسفلها، يحمل في يده عصا طويلة ثقيلة. فانثري قد توجت عصاه بالعصا، ويثبت الحرون رزة أو مسماراً حديدياً صحنياً عليها، فيجعلون منها بالنالي سلاحاً رائعاً يحمله العرب ببراعة وحذق. وكما هي الحال في مكة، تنزى النساء بعباءات رزء اللون ترتديها الطبقات الدنيا، وبلايات حريرية ترتديها الطبقات الثرية.

ويستعمل البدو المستوطنون في الصحواحي وبالقرب منها، الري نفسه تماماً كهبدو انصحراء السورية؛ وهو يتألف من قميص وعانة وقسوة على الرأس وحرام جلدي يُعق على الحجرة وصادل في لرجين. وحتى أولئك الذين أصبحوا مستوطنين، يشكلون عرقاً متميزاً فلا يختلطون مع باقي أهل المدن ويحتفظون بزيجهم الوصي ولعنتهم وعاداتهم ويعيشون في مدارس كما يعمون تحت الخيم في الصحراء وقد يُعتر بدو شبه الجزيرة، من بين الأمم والشعوب الشرقية كلها، أنهم لا يتحلون عن عاداتهم بوطية إلا بعد ثمانية ومقدمة عظيمة ففي مصر وسوريا والحجاز، يرى المستوطنات التي أصبح أفرادها مراعيين مد عده قرون حلت؛ غير أنهم لم يتسوا سوى لقليل من عادات للاحين، ولا يزالون يتفخرون بأصنام البدوي وأساليب حياتهم ويباهون بها.

ليس للمدينتين الوسائل نفسها لكسب الرق كالمكيين فعلى الرغم من أن هذه المدينة لا تخلو أبداً من احتجاج لأحاب، لكن ليس هناك نداء ذلك اسبق انهاثل من احتجاج الذي يجعل من مكة مكتظة لعنة أشهر في السنة، ويحوها إلى سوق لكل أنحاء الشرق، وبأدراً ما يكون الاحتجاج لدير يأتيون إلى المدينة تجاراً أو على الأقل، فهم لا يدهسون إلى هناك لأهداف تجارية، لذلك فهم يتركون أمتعتهم الثقيلة على الساحل وحتى اتجار السوريين الذين يمزون مع القافله الكبيره نادراً ما يمارسون التجارة إلا فيما يتعلق ببعض حمولات الجمال من النع والفاكهة المجمعة لذلك، فإن تجرة المدينة لا تكاد تتعلق إلا بالاستهلاك المحلي ويتزود بدو الجوار بالثياب والمؤن وتأتي هذه السلع من طريق ينع وتكون حصرياً تقريباً من مصر. وليس هناك أي من اتجار انكبر المستوطنين في المدينة؛ حيث إن التجارة فيها هي مجرد تجارة جزئية؛ كما أن أصحاب رؤوس الأموال يستثمرون عامة في السلع كما هي العاده في سوريا ومصر، لأنه ليس هناك أي مؤسسات عامة كالبنوك والشركات التجارية أو الاعتمادات مالية الوطنية التي يمكن أن يحسب منها الرأسمالي العائدة على أمواله ويجمع القابون التركي بشدة أحد العائدة، وحتى إن لم يكن الأمر كذلك، فليس هناك أي حكومة أو أي فئة من الرجال الذين

بأنفسهم الناس على مباح صحبة كما أن استثمار رأس المال في الأراضي هو كذلك عرصة للكثير من التجارة^(١). والطريقة المعتادة هي اندحور في شراكة مع تجار صغار مختلفين، أو تجار تجرئة، والحصول على نصيب من أرباحهم. لكن ذلك قد يكون مبعث قلق كاستحارة الشاشطة، وذلك بسبب الحاجة إلى الحفاظ على محاسبته دائمة مع الشركاء ومراقبتهم باستمرار وتثنية ممارسة الربا، ويدفع لأجل المال في القاهرة سويًا فائدة تروخ بين ثلاثين إلى خمسين في المئة، لكن لقليل من التجار الأتراك مدارس هذا العمل الذي لا يُعتبر مُشرفًا، ويسيطر اليهود كليًا على عمل الرأب إلى جانب المسيحيين الذين يبدنهم أوروبا. وقد لا يكون هناك في الوضع الحالي البائس الذي يعاني منه المجتمع الشرقي ما له الأثر المهيك على نفوس الناس وسعادتهم أكثر من ضروره الاستثمار طوي حياتهم في ممارسة أعمال مليئة بالمكاييد وتقلبات الخطأ إن لآمال المرحلة التي تمتع الحماض والحركة في الأوروبي في إمكانية التمتع في سر لشيوخه بأرباح جهوده السابقة مجهولة عند أبناء الشرق الذين لا يجلب بهم تقاعدهم سوى خطر، إذ إنه يجعل منهم أثرياء في نظر حاكمهم الخضع. إن لتأثير المصاعف للحكومة لتركبة ولذين الإسلام، قد أنتج نفاق ورياء عدا، إلى درجة أن نادراً ما يرى مُسلماً (الذي يعطي مظهره الهادي وهو يدخن علبه ممددًا على الأريكة، فكرة عن الشعور بالرضا التام والسكينة) لا يعاني من وصاة عذاب شعور باخس أو الخسع الذي لم يُشع أو الطموح، أو الخوف من فقدان أملاكه التي كسبها بطريقة ~~غير مشروعة~~.

إن الرحالة الذين يزورون بسرعة عبر الشرق، دون أن يتقنوا لغة، وندراً ما يحتلطلون مع أحد من أسس إلا لأشخاص المهتمين بتقديم فكرة غير صحيحة عن طبعهم الحقيقي، إنما يسجدون دوماً بسلوك تحليل للأتراك وسمتهم المترفع وحصانهم المبهمة الوقورة؛ رغم أن هؤلاء الرحالة قد يسحرون من فرنسي يدعي معرفته لجنته بالطلع الإنكليزي ومراحه وأعرافه، وذلك بعد

(١) نوح القريبي أصدره محمد علي سنة ٨١٣ أصبح شراء الأراضي في مصر أمر لا يمكن ممارسته، إذ به يحصل كل شلغم (أو أصحاب الأراضي الذين لهم حصص في أملاك العري والأراضي، والذين كانوا يشكون طبعه يعيش من ربحهم في مدن الريف) بأن يلقى دجته السوي من خربة الدث حيث كانوا يعانون من كل أنواع (الدال والظلم) وقد أصيب الأراضي كلها منذاً للحكومة، أو بتعبير آخر، ملكاً محمد علي نفسه الذي يقرر مهمته ورعتها للعلايين شروعه الخاصة وقد حدث مؤخرًا للعلايين الذين كانوا يرعوب حصص آلاف أكره من الأراضي التي تحصل برب دمهو قرب القاهرة، قد تجرموا من إبعادهم بعد أن أعلنت لأراضي ملكاً عاماً لأن الدسا كان يرعب في برعه الرسم لحياته في الأرض التي كان يملكها العلاحود. وقد عدا كاد الأملاء التي تمتع لأراضي في سورة من الكثير من مشاكل حيث كان مالك يتعرض للتمنع من حاكمه كل مقاطعة ومن كل جندي يمر بأراضي، كما كان يعاني في إبعاداته من إقرار الناس الذي يقع عامة على وس المزارع بفعل كثير من يقع على رأس الرجل الثري، وكان إذ سم يراقب استثماره، يتعرض حتماً للفض في أرباحه

إقامته بصفة أشهر في إنكلترا دون أن يُتقن اللغة الإنكليزية؛ مع أن من الأسهل على مرسيتي الحكم على أنة وشعب أوروبي محاور، أكثر من أوروبي يحاول الحكم على أئم شرقية تختلف أفكاره وعاداتها ومفاهيمها أشد الاختلاف مع أفكاره وعاداته ومفاهيمه. أما فيما يتعلق بي، فإنّ إقامتي المطوّلة بين الأتراك والسوريين والصوريين تسمّح لي بالتصريح بأنهم يعتقدون تماماً بالمصينة والشرف والعدالة^(١)، وبأنهم لا يملكون إلا قليلاً من التقوى الفعلية، وأقل منها من الإحسان والتسامح، وبأننا لا نجد الأمانة والاستقامة إلا في معقليهم وفقرائهم. وكاليونانيين القدماء، فقد يعلم تركي موضع الصواب والعمل المأجور للشاب، لكنه يترك القيام به للآخرين؛ بالرغم من أنه يسعى جاهداً لإقناع نفسه وهو يتنقّط بالحكم العملية بأنه يتصرف بما تُثبته عليه وهكذا، فإنه يظنّ نفسه مسلماً صاعاً لأنه لا يفعل بأذية بعض الصناعات وإتمام الوصوء، ولأنه يلتصق دائماً وتكراراً مغفرة الله.

يُدرس العديد من الأشخاص في «المدينة» المعاملات التجارية الصغيرة التي تحتصّ بالمؤن بشكل أساسي، وهي نادراً ما تكون منتظمة تماماً يتسبّب في تقبُّب أسعار المؤن باستمرار. إن العاقبة بوحيدة لذلك هي أن تجار الحظيرة الأثرياء يسحبون أحياناً في الاحتكار، بحيث لا تبقى حبة واحدة في غير محارهم بعد أن يضطر التجار الصغار إلى البيع. وكلّما تأخّرت لقوافل بالوصول نوقت طويل، ارتفع سعر الحظيرة بشكل هائل؛ وما أن رعماء المدينة مستعيدون من ذلك، فلا يمكن افتراض أيّ احتمالٍ بتدخل الحكام.

إلى جانب تجارة المؤن مع بدو الجوار، وهي التجارة الأكثر أهمية، فهم يروّدون المدينة بالريدة والعسل (عنصر مهم وأساسي في المطبخ في الحجاز) ولحم والفحم النباتي ويتقاصون بدلاً منها الحظيرة والثياب. كما يتسبّب وصولهم إلى «المدينة» بعدم الانظام. وإذا ما حدث أن اندلعت حرب بين قبيلتين، تبقى المدينة لمدة شهر تحت رحمة بعض التجار الأعياء الكبار الذين يصادف أن تكون هناك كمية متوقّرة من تلك السلع في محارهم. حين وصلت إلى «المدينة»، هم تكن الريدة متوقّرة في السوق، وكانت الحظيرة نادرة أكثر منها في يتبع بسبة حمسين في المئة. وما لبثت أن احتضت كلياً من السوق. وفي وقت آخر، شح الملح ثم انقطع، وحدث الأمر نفسه ليعجم النباتي. وبشكل عام، فإن سوق المؤن كانت سيئة التنظيم في مدن شرقية أخرى، كما في مكة وجدة. هناك موظف حكومي يُسمى «المحتسب» يُعنى بمراقبة بيع المؤن ليحرص

(١) عند حكم من لا يتلك مثل هذه القيم كالسمن من الذين بنوا بطلائعه إلى بلادنا من أمثال المؤلف بل أن باتوا هم محتلف.

على ألا ترتفع أسعارها إلى حد مُفْرِط فيُحدِّد لاجر المؤن سقفاً للأسعار بحيث يحسون ربحاً عادلاً وغير بهط لكنَّ الحال ليست كذلك في «المدينة»، لأنَّ «الحاسب» هناك لا يمنع بأيِّ يعود أو سُطَّط، فتُباع الحصة في جزء من «مدينة» سعر أعلى بسنة عشرين في المئة منه في جزء آخر وهكذا هي الحال بسنة إلى كلِّ سلعة أخرى، بحيث يصبح الأحاب غير المُضعين على أساس هذا المكان ووضعها في بعض ماديَّ حلال فقامني. كان الاتصال يتبع يتم من خلال قاعدة تُدَّلف من مئة وخمسين جملاً تُصل إلى «مدينة» كلِّ سبعين؛ ومن خلال مجموعات صغيرة من اب و التحار الذين يصلون كلِّ خمسة أو ستة أيام مع خمسة إلى عشرة جمال وكان الجزء، لأنَّ من الحمولات محضَّص لجيش طوسون باشا، والذي عبارة عن سبع ومؤن. لكنَّ تلك لأحيرة لم تكن ملائمة لحاجات «المدينة» ومتكيفة معها. وقد سمعتُ من شخص واسع لأطلاع أنَّ الاستهلاك اليوميَّ في «المدينة» كان يراوح من ثلاثين إلى أربعين أردناً، أو من خمس وعشرين إلى خمس وثلاثين من حمولات جمال الصحار ويُقدَّر أنَّ محصول الحقول التي تحيط بالمدينة لا يكاد يكفي لاستهلاك أربعة أشهر، ويجب أن تبقى من السنة الاعتماد على شمع و على اللوردات من مصر كان كلُّ ذلك متوقفاً بكثرة في زمن «سليم» لكنَّ مؤخر، ومد أنَّ تمرُّز الجيش التركي هناك، يحشى البدو على جمالهم من الأثرث، ممَّا أدَّى إلى انخفاض التزوُّد بالمؤن إلى ما دون حاجات المدينة بكثير وقد استاء السكَّان كثيراً من ذلك وقاموا بتحصيل أسهلَّهم من الحصة واستعدوا آخر كمية من مخزولهم وقام طوسون باشا بالاستيلاء بثُهور على عدد كبير من جمال البدو وأرغمهم على مرافقة جيشه الذي أُرْعبهم إلى حدِّ أنَّهم حشَّو من الحدة قبل وصول محمد علي، بسبب حاجة إلى الحيوانات التي تُستعمل للنقل ونقص فيها. وسعى الناس إلى استعادة الثقة، فبدأ بعض البدو بالعودة مع جمالهم تصل قوافل الحصة في زمن «اسلم» من نجد كدست، وحصة من تبت المقدَّعة التي تُدعى «القصيم» لكنَّ ذلك كُلُّه انقطع من وصول «الملك». وقد أُعْصِمْتُ أنَّ تجارة نقل مؤن من شمع قد أوقمت لعدة سنوات بعد عرو بوهائيين والمدينة، الذين رعب رعيمهم سعود في إعطاء الأفضلية إلى أبنائه الحاضرين في نجد، وأنَّ المدينة في ذلك وقت كنت تأتي برباها كنه من نجد ومن حقولها الخاصة. وبانت المؤن الآن نادرة جد، حيث كانت لطبقات الدنيا تعيش كليا تعرياً على التمر وحده وحر الشمبر الرديء؛ وكان يقلب منهم قادرين على شراء بعض لربده، والأقلَّ منهم بعض اللحم وقد عُزَّتْهُمْ فاكهة القوطس أو البق التي تنضج في شهر آذار/مارس، في ريث لتمر تنضج تعرياً عداءهم الوحيد عدَّة أشهر؛ فكانت تُشاهد كومات كبيرة منها في السوق وكان بإمكان الشخص الحصول على ما يكفي لإشاعه لقاء ما يشتريه بسنَّ واحد من الحطة التي كانت تُؤخذ كعرق عملة بدل لادن، ويقلبها لبدو الذين كانوا يأتون

بالعاصمة إلى المدينة أما الخصرارات البرروعة في الخدائق، فكانت محصصة للأحباب بشكل أساسي، ولها مدقّ عاديّ جداً وكان العرب يكرهونها، فلا يأكلها إلا أولئك الذين اعتادوا تدوّقها في اللذات لأجسية. إن البصل الطارح والكزّث والثوم هي الخصرارات الوحيدة التي يحبها العرب.

إن مادة الأولى من الطعام في «المدينة»، كما سبق أن ذكرت، هي التمر. فخلال الشهرين أو الأشهر الثلاثة من قصاه (لأن هذه العاصمة لا تنصح كلاً في الوقت نفسه لأن لكل صف من الأصناف موسمها الخاص)، من شهر تموز/يوليو إلى شهر أيلول/سبتمبر، لا تنغذي الطبقات الدنيا على أي شيء آخر؛ وخلال ما تبقى من السنة، يستمر التمر الخفيف في كونه غذاءهم الأساسي. ولتصاف التمر هنا الأهمية نفسها التي يتمتع بها القمح في أوروبا، ويسبب مشله الإحباط الكبير. «ما هو سعر التمر في مكة أو المدينة؟»، هو السؤال الأزل الذي يطرحه البدوي الذي يلتقي بمزارع الصويق. ويأتي من ذلك التمر جزء كبير إلى «المدينة» من المناطق البعيدة وخاصة من «الفرع» وهو وادٍ حصص تملكه قبيلة بني عامر، حيث هناك العديد من بساتين السحيل، وهو بعد مسافة ثلاثة أو أربعة أيام من «المدينة»؛ ومن «الربع» في الجبال. ويأتي التمر من هناك في سلال كبيرة حيث يُكسر ويُصعق سواً في عجينة كما سبق أن ذكرت

على الرغم من أن معاملات التجارية عامة وشاملة، فإن القليل من السكان يمارسونها ظاهرياً. فأغلب الناس هم بقال مزارعون، أو من الطبقات العليا من الملاكين أو من خدام المسجد. إن امتلاك الخقول والحدائق أمر مرغوب جداً، فإن يكون أحدهم مالك أرض هو أمر مشرف، كما أن ربيع الخقول مهم جداً إذا كان موسم التمر حيداً وإذا ما كان عليّ، لحكم من خلال الحداثتين اللتين نعلتا إليّ، فإن الخمول يُباع بمعدل يترك للمالك في السنوات العادية دخلاً بسببه اثني عشر إلى ستة عشر في المئة فوق رأس ماله؛ وذلك بعد أن يترك نصف المحصول للمزارعين الفعليين، كما هي عادة عامة. غير أنه قد تم تقدير ربحهم في السنة الماضية بأربعين في المئة ولا تستطيع الطبقات المتوسطة استثمار رأس مالها الصغير في الحدائق لأنه غير محدد بالسنة إليهم، فإن ستة عشر أو عشرين في المئة تكون نسبة عبر كافية من الربح؛ كما أن أي شخص في الحجار يتاجر بأموال بسيطة لا يرضى بأن من خمسين في المئة سواً. وبشكل عام، فهم يحدون وسيلة مضاعفة رأس مالهم من خلال عشّ الأحباب وأولئك هم فقط مالكو الأراضي الذين جمعوا ثروة كبيرة عبر التجارة أو عبر دخلهم من المسجد ومن الحجاج.

يأتي الدعم الأساسي «للمدينة» من المسجد والحجاج لقد سبق أن ذكرت العراشين أو خدام المسجد وأربحهم؛ وإليهم يجب أن نصيف عدداً كبيراً من الأشخاص المرتبطين

بالمسجد، وتقوم وظائفهم على عدم القيام بشيء وهم يشدركون في دخل الحرم؛ إلى جانب سلسلة كبيرة من الأدلاء أو المرؤوسين، وكل مالك منزل تقريباً الذي يؤثر شقاً إلى احتياج وفصلاً عن الحصة في دخل المسجد فيخدم من كل طبقة صُرة أو رتب دائم يأتي من القسطنطينية والقاهرة؛ كما يتنقى كذلك سكان كلهم هداية سوية مماثلة، يُصلن عليها أيضاً اسم «الصُرة». وصحيح أن هذه الرواتب لا توزع دائماً بانتظام، وقد حُرم منها الآن العديد من الطبقات الشديدة الفقر التي حُصصت تلك الرواتب لها أساساً غير أن المبالغ تصل إلى «المدينة» ويتم تداولها^(١) وهكذا يعيش العديد من لعائلات كلياً على الصُرة وتسلم ما يوزع منه ومثلي حبه متربسي في السنة، من غير أن تقوى بأي واجب كان ويقول المديون إنه دور تلك «الصُرة»، وتلك المدينة تترك سلاكين والمرعير؛ وإن هذا الاعتناء كان بالتأكيه الباعث الأساسي لاستقرارهم هناك، كما في الأوتاف العديدة أو المؤسسات الدينية التي أرفقت بالمسجد أو المسجد في أنحاء الأمور طورية التركية كلها. في الوقت الحاضر، يُساء استعمال الصُرة لشيء تساهم فقط في إغناء مجموعة من الأشخاص الكسالي المتعطلين، في حين يترك الفقراء محرومين مُعدين، ولا يتم أي تشجيع أو تحرير لصاعه أما بالنسبة إلى عياب الصناعة، فإن «المدينة» لا تزال أكثر بعداً لانشاء من مكة، فهي بحاجة حتى لأكثر الحرفيين ضرورة، والقبول ممن يعيشون هنا هم من الأجانب ويستقرون هناك معجزة وهناك مسجد واحد للأثاث لا غير وصانع قفاز واحد فقط في «المدينة» أما لتجارون والبنائون هادرون حد، بحيث إن عليهم المحمي من يسع لتصبح منزل. وكلما احتاج المسجد إلى عقاب، يتم إرسالهم من القاهرة أو حتى من القسطنطينية كما كانت الحال خلال إقامتي حين كان بناء معبدهم من القسطنطينية مشعلاً في إصلاح سقف أساء، وتروذ مصر «المدينة» بحاجاتها كلها بروزاً إلى أتعها الأعراض والسلع، وحين كنتُ هناك، تم تكرار تصنع حتى حرار المياه لمحاربة مدبصع سوت، أشس أحد أساء دمشق صاعاً بهذه السبعة الضرورية جداً، لكنه غادر المدينة فبات الإسكان مرغمين على اشتراب من الجرار نصف المكسورة المتبقية، أو على استيراد غيرها من مكة بكلفة عالية. وليس هناك صباغ أو صبغات صوبية ولا سبيح على التول أو دباغة، ولا أعمال جلدية أو حديدية من أي نوع؛ وحتى المسامير وجواهر الأحصنة كانت تأتي من مصر وتباع في معرض حديثي عن مكة. عروث لمقت ولكره العام لشديد اندي يُظهره أهل الحجار للصاعات اليدوية، إلى كسبهم وراحيهم وكرههم لكن الأعمال اليدوية دكرتُ لملاحظه

(١) بعد أن قام قائد تلك، سلطان مصر، بإعادة بناء المسجد سنة ١٨٨٦، عُظم دخلاً سنوياً بلغ سبعة آلاف وخمسمائة أردب لسكان المدينة، يتم إرساله من مصر. وخصصهم السلطان سليمان بن سليم دخلاً قدره خمسة آلاف أردب (راجع معبد الدين والمسجد دي)

نفسها لا تطبق على «المدينة» حيث إن المزارعين واستنابيين، على الرغم من عدم كونهم شديدي الاجتهاد في تحسين وضع أراضيهم، غير أنهم عتال شيطون جداً، وبإمكانهم حمل أنفسهم على القيام بأعمال في المدينة دون القيام بجهد جسدي أكبر من الذي يبذلونه في حقولهم. ولما أميل إلى الاعتقاد بأن الحاجة إلى حرفيين لها يجب أن نعروها إلى قلة التقدير والاحترام التي يكتفها العرب لتلك المهنة، والذين عاباً ما يسو كرامتهم وعزة أنفسهم أكبر بكثير من جشعهم وصنعهم، فما يجمع الوالد من تعيم ابنه أي صنعة، ولو ربما كانوا قد ورثوا هذا الكره من السكان القدماء، البدو، الذين يسدون من قبايلهم إلى اليوم، كما سبق أن ذكرت، الحرفيين كلهم ويعتبرون أولئك الذين يستوطنون معهم في مصاريهم من طبقة أدنى، فلا يتراملون معهم ولا يترؤحون معهم أبداً. ويُطرأ إليهم بطريقة محتلفة في أحرء أخرى من الشرق، في سوريا ومصر، حيث تمتنع نقابات الحرفيين بالتقدير والاحترام بعينه تقريباً والتي كانت في فرنسا وألمانيا خلال العصور الوسطى، بحيث تُعادر منزلة معلم جزفي منزلة تاجر من الطبقة الثانية، وبإمكانه التراوح مع العائلات المحترمة في المدينة، وهو عادة رجل ذو نفوذ في حي أكثر من تاجر يملك ثروة تفوق ثروته بثلاث مرات وقد سمي الخفاء، لأنك الأول بأدلين كل ما في وسعهم لدعم الصناعة والنصون وتعزيزهما وكانت تلك الصناعة لا تزال مردهرة في سوريا ومصر مد خمسين سنة حلت، لكنها بدأت بالانحسار في سوريا، باستثناء دمشق رما، وفي مصر انخفضت إلى أدنى مستوى. فبما كان محقق علي يحدد العتال الإنكليز والإيطاليين لعمل في خدمته وعلى حسابه الخاص، من غير أن يردهر عمل أي منهم، فإنه كان يقوم بفتح لصاعه الوطنية، وذلك غير احتكار سلعه، وغير استحداثه الاسم الأكبر من العتال بأجر يرمي أقل بثلاثين في المئة مما يجب أن يتقاضوه لو مُنح لهم بالعمل على حسابهم الخاص أو على حساب أشخاص آخرين.

إن الصاعين الوحيدين الذين نجدهم في «المدينة» هم المحتاج الفقراء المعذمون، حصة أولئك القاديين من سوريا وهم كثر، يسعون غير العمل الجهد خلال بضعة أشهر لكسب مال الكافي لتأمين نفقات رحلتهم إلى الديار. وهم يعملون فقط في حرات متقطعة، وتصبح المدينة عند رحيلهم ولفترة طويلة دون أي حرفيين. وببما كنت مقيماً في «المدينة»، لم يكن هناك سوى رجل واحد يعمل الشراشف والمفاشر؛ وحين رحل، أجزر المحتاج الأحناب كلهم على انقيام بذلك بأنفسهم، لأن النساء العريثات نادراً ما يتنذرل للقيام بمثل هذه لوظيفة في ظل هذه الظروف، ليس باستطاعة مسامر أن يتوقع العثور على وسائل الراحة الأكثر بدائية لها، وليس في مقدور المال حتم أن يُلبي حاجاته. غير أن هناك طبقة واحدة من الرجال هنا، والذين أشرت إليهم في وصف مكة، ثم يسعون لأن يكونوا معيدين في «المدينة» كذلك، وبالدرجة

بفسحها أعني بهم الاحتجاج الروح القادم من السودان والفلس من لروج، يأتون إلى مكة دون أن يقوموا كدست بزيارة «المدينة» وهي مدينة أكثر سحياً وتوقيراً في نظره من مكة حيث يحمل المذهب لذلك الذي يسمون إليه احتراماً لمحمد يعوق أياً من مذاهب الثلاثة لأخرى ويمكن القول بـ الروح، غير المتعمين جداً كما هم عادة، يكادون يعدون لسي، فيصعونه في صرلة، إن لم يكن كمره الخلق بفسحها، فهي على الأقل أدنى بقبيل منها وهم يقتربون من قره بصمير بمذاهب الرعب والخوف، وبمشعر عبيقة وقوية أكثر من بيت التي يظهر بها حين يرورون الكعبة وهم مفتعون تماماً بأن الصلوات التي يرؤونها وهم وقوف أمام بابه «الحجرة» ستبلغ مراده عاجلاً أم آجلاً وقد سألي حاش ربحي ذات مرة، بعد محادثة قصيرة معه في المسجد، عن صلوات لواح أدوها لجل محمّد يظهر له في ماله لأنه يرعب في طرح سؤال معبر عليه وحين عثرت عن جهلي بدت، أحسني أن لسي قد طهرها للعديد من مواطنيه. يزود هؤلاء الأشخاص «المدينة» بخشب الموقد الذي يجمعونه من الجبال المجاورة ويصعونه بسرعة وإذا صادف عدم وجود أي منهم في «المدينة»، أو كانوا قد فيها، فلا يمكن الحصول على الخشب حتى وإن كان لقاء المال وهم يعملون كحفاة كذلك، ومن يعجز عنهم عن القيام بأعمال شاقة، يقوم بصنع الحضر ولسان صغيرة من جريد الحن، وهم عادة يعيشون سوياً في بعض الأكواح في المكان لعام مدعو «السح»، ويقولون هناك إلى أن يجيوا من المال ما يكفي بعودتهم إلى الديار ولقبيل الأقل منهم متسوّبون، فقد رأيت هذا، اثنين أو ثلاثة منهم يتسوّبون من بين أربعين أو خمسين متسوّباً وذلك لأنهم لا ينامون لأني عمل آخر وشكل عام، فإن المتسوّبين أقل بكثير في «المدينة» منهم في مكة؛ وأعذب المتسوّبين الأحاب هم هود، كما في مكة ويأتي بعض الاحتجاج إلى ها من غير أن يكون في حورنهم المال اللازم، وهم مأكدون من كسب رزقهم بالعمل؛ كما أن لمسافه التي تفصل «المدينة» عن البحر هي أكبر بكثير من تلك في مكة، كما أن الطريق عبر لصحراء يحشاها العقراء المعدود وبإمكانها القول بـ تلك الاحتجاج فقط من يرورون مكة، يذهبون كدست إلى «المدينة»، وبأدراة تمر فافلة الخج مصرية بها^(١) ويوجد احتجاج في «المدينة» طوال السنة لأنه ليس هناك موسم معين لزيارة لقبر، ويقول ها عادة نحو أربعة عشر يوماً أو لشهر كامل. ويبلغ عددهم أقصاه خلال لأشهر اسي نلي حش إلى عروب، كذلك خلال شهر ربيع الثاني الذي يتم الاحتفال في الثاني عشر منه بعيد مولد السي

(١) كنت مررت فافلة الخج مصرية «المدينة» يكون دائماً في طريق عودتي من مكة، فتبني ثلاثة أيام فقط كالقائه السوري في طريقها من القاهرة إلى مكة، لا تزور تلك الفافلة «المدينة» أبداً

ويعوّض المدينيون عن قلة المسؤولين في مدينتهم وذلك بالذهاب إلى مكان آخر لمسؤول وهي عادة عند لسكان في المدينة الذين تلقوا بعض العلم والمعرفة والذين يحسبون القراءة والكتابة، بأن يقوموا برحلة تسوّ في تركيا مرة أو مرتين في حياتهم وهم يذهبون عادة إلى القسطنطينية حيث يمثلون أمام السلا، من خلال الاحتجاج الأتراك الذين عرفوهم في مدينتهم، معلين فقرهم وعوّزهم فيتلقون الهدايا الثمينة من الثياب وأمال؛ فهم يحطون بشيء من التقدير كونهم من أهل «المدينة» وحبرن قبر النبي ويعمل بعض أولئك المسؤولين كائنة في بيوت عظماء القوم وبعد إقامة تستمرّ لستين، يقومون باستثمار لصدقات التي جمعوها وذلك في شراء اسدع، ثم يعودون ومعهم رأس مال كبير إلى قليلاً جداً من الأشخاص الذين يتسعون تلك الموصفات لم يقوموا بجولة في تركيا، ولو لمرة واحدة فقد رأيت العديد منهم في القاهرة حيث كانوا يقيمون عند اساس الدين قد تعرفوا بهم في «الدينة» بشكل سطحي جداً ربانوا مرعجين إلى حد بعيد بسبب توشلاتهم ووقاحتهم رصينة هي المدن الكبيرة في سوريا والأناضول وتركيا الأوروبية، التي لا نجد فيها بعضاً من هؤلاء الأشخاص. ويقوم العديد منهم بتعلم شيء من اللغة التركية بسبب الوجبات الممنقة على عاتقهم كأدلاء في «المدينة»، وبسبب الأهداف التي يسعون وراءها عند سفرهم. كما أن إقناع المحتاج الأتراك بأنهم أتراك ويسوا عرباً هي مفعلة لديهم، مهما كانوا لا يحتسبون الأتراك

إنّ للمدينيين عامة مراحاً أقل بهجة وحيّة من المكين، فهم يُظهرون رزانة وصرامة أكبر في تصرفاتهم، لكن بدرجة أقل من تلك التي يُظهرها أتراك الشمال وهم يبدو ظاهرياً أكثر تدنياً من جيرانهم في الجنوب، كما أنّهم أكثر تشدداً في تأدية شعائرهم المقدسة، ويزاغي الميثاق العامة بدرجة أكبر منها في مكة غير أنّ أخلاق السكان تبدو على المستوى نفسه كذلك التي يتمتع بها المكين؛ ولم تتوصل صرامتهم الدينية إلى بد استرويات الكحولية التي يحضرها «روح» الذين يصنعون بيد الشمور عبر مكب الماء عليه وتركه ينحمر. وبشكل عام، أعتقد أنّ المدينيين عديمي القيعة تماماً كالمكين بل هم أكثر رياءً وبعافاً^(١) غير أنّهم يراعون في الاقتراب أكثر من شخصية أتراك الشمال، بذلك فهم يدعون حياءً انصرفت «حميدة القلبية» التي يكرّ أطراء المكين عنها ولاي في تقديمي لشخصية العامة التي ينسب بها المدينيون، لا أرتكر فقط على لتجربة القصيرة التي كانت لي معهم في مدينتهم، بل على المعلومات العديدة التي حصلت عليها من العديد من الأشخاص الذين هم من أصل مدينيي النقيض بهم في كل جزء

(١) يطيب للمؤلف دائماً أن يثر مثل هذه العبارات المزدبة احافده لأهل مكة والمدينة.

من الحجار ويبدو أنهم أثرياء كالمكيين وكان هناك فقط اثنان أو ثلاثة أشخاص في المدينة تُقدر ثروتهم بعشرة أو اثني عشر ألف بوند استرليي، سُثمَر نصفها في الأملاك المؤخرة والنصف الآخر في التجارة. وكانت عائلة عبد الشكور هي الأعلى، ولدى التجار الآخرين عامة رؤوس أموال صغيرة تتراوح بين أربع إلى خمس مئة بوند فقط؛ كما أنَّ معظم الناس الملحقين بالمسجد، أو الذين يكسبون رزقهم من الرواتب واحتجاج، يصرفون دخلهم اسوي حتى آخر برة، وهم يبدون ظهرياً أوفر ثراء من المكيين بكثير، لأنهم يتأنقون في ملابسهم أكثر من أمثلك؛ لكن ليس هناك أي وجه للمقارنة بين مجموع الأملاك في هذه المدينة وتلك التي في مكة.

يُقال أنَّ أهل المدينة يعيشون في منازلهم الخاصة بفقر وشح فيما يتعلق بالطعام؛ غير أنَّ منازلهم مجهزة بأثاث جيد وثمين، كما أنَّ مصروفهم على الثياب كبير جداً وليس عدد العبيد هنا كبيراً كما في مكة، غير أننا نجد لعديد من الأحرار، وقد استوصت بعض تجارباتها بعد أن تروّجن، ويعمل ساءاً امرءين وسكان الصوحي لدى عائلات أهل المدن كخدمات، وخاصة في طحن القمح وحرشه في لطحونة اليدوية وتنتصرّف المرأة المدينة بحشمة بالغة وسنح سمعة عامة هي أنَّها أكثر فصاة من ساء مكة وحدة.

تُنفق العائلات التي تدكُ حداثق مبالغ كبيرة في استضافة لأصدقاء في منازلها الريفية، كز بدورها؛ فيجتمع أفراد العائلات المدعوة كلها، رجالاً وساءً مع بعضهم بعضاً. ويُقال أنَّ هذه العادة تلح حتماً بعيداً في وقت الربيع، لأن السييين ينافسون مع بعضهم بعضاً في الهد المصنوع، بحيث يصبح ذلك مسألة تتعلق بشهره العام، وتدرج حول ما إذا كان فلان قد قام خلال موسم الحملات الريفية بأكثر أو أقل من جيرانه.

وعيسى السيل من العائلات ساء كلها في الحداثق، وكان هناك، من بين تلك العائلات، عائلة إمام كبيرة مستقرة في حديقة مبهجة صغيرة إلى الجنوب من المدينة ويديع صيث هد الرجل لطهرته وورعه ونقواه إلى حد أنَّ طوسون باش نفسه قتل يديه ذات مرة ركةلعديد من الاحتجاج الأحرار، قصت بريارة له في الأيام الأولى من وصولي، فوجدته جالساً في مُحطلى مُقسطراً أو محراب في محاداه سرل، لم يتحرك منه أبداً وكان مهذباً ولائقاً أكثر من أي إمام رأيته أبداً، ولم يُبد أي طور من تفككم في قصايا ومسائل دينية. وكثت قد سمعت أنه يملك بعض الكتب التاريخية التي قد يبيعها، لكن، وبعد البحث، أعلمني بأنه لم يكلف نفسه أبداً عناء كتساب أي علم باستثناء شرع والقرآن وعنه، وقد قدم لي مارحيلة لأدخّر وطيفاً من الثمر من محصول حديقته الخاصة وعندما هملت بالرحيل، وصعت دولاراً تحت السجادة

التي كنتُ أجلس عليها (وهو صلبٌ ممتدٌ كما يُقال في مثل هذه المناسبة)، ورافقي إلى بوابة الحديقة ورجائي بتكرار زيارتي.

إن تدخين الدارحينة أو العديون الفارسي هو أمرٌ عامٌ شائعٌ هنا كما هي مكة، وتُستعمل العلابيس العادية هنا أكثر منها في أجزاء أخرى من الحجاز، لأن المناخ أكثر برودةً، كما أن القهوة تستهلك بإسراف ويمكن شراء الكهنة من خدائق بالمال وبحبوب القهوة كذلك، فإن الشعب بالشاي في إنكشرا وهولدا لا يوارى شعف عرب شبه الجزيرة بالقهوة.

لا يحتفظ أهل المدينة بالحياة، فاستثناء حياد شيخ الحرم وبعض حاشيته، أعتقد أنه ليس هناك حوادث واحد في المدينة. وبشكل عام، يفتقر هذه الأجزاء من شبه الجزيرة إلى الحياة بسبب عدم وجود المراعي الجيدة بها وعلى العكس، فإن لدى البدوي في الشمال والشرق من المدينة، في الصحراء، سلاسل كبيرة من الحياة. وباستطاعة خدائق «المدينة» أن تؤمّن مراعي واهمة في السابق، عندما كان هناك في المدينة أشخاص موبعون بالحروب، كانوا يحتفظون بالحياة، وكانت توصف الحفظ للقيام بحملات على البدو الذين كانوا في حرب معهم. في الوقت الحاضر، تنقسم روح المدينتين بطابع أكثر مسمية؛ كما أن الحياة القليلة التي كانت موجودة حين استولى الوهابيون على المدينة، قام أصحابها ببيعها على الفور للفرار من التحديد الإداري الذي كان يحصص له اختيالة بشكل أساسي في الأراضي الخاصة بسيطرة الوهابيين. وكانت بعض العائلات الثرية تحتفظ بأعمال وإجمال العربية أيضاً. وأخيراً موجودة بكثرة حصّة بين امرأين الذين يُحصرّون عندها إلى المدينة محصوراً بحقولهم وهي من سبل أصغر حجماً من تلك التي في مكة والحجاز. وقد تسببت حاجة الجيش التركي بقصص كبير في عدد الإجمال التي كان المرارعون يحتفظون بها سابقاً، والذين يعودون خوفاً من مُصادرتها ويمكّن بدو الصحراء الشرقية التي تبعد عن المدينة مسافة ثلاثة أو أربعة أيام، الكثير من الإجمال. وخلال إقامتي، أرسلت مجموعة خيالة متحرّلة في جيش طوسون باشا سبعمائة منها إلى هناك، قد أحدها من محيّم واحد لقبيلة بني «حاتم».

تجدر الملاحظة أن «المدينة»، حسماً أعم، هي المدينة الوحيدة في الشرق التي بُدّت منها للكلاب؛ فلا يُسمح لها أبداً بالمرور من النّوّان إلى الداخل، بل يجب أن تبقى في الضواحي وقيل لي أن حراس اساطق مختلفين يجتمعون مرة في السنة لطرد أي من هذه الحيوانات التي قد تكون تسببت جعبة إلى المدينة. وقد يكون السبب في سد تلك الكلاب خارجاً هو الخوف من دخول أحدها إلى المسجد وتدنيس قدسيته، غير أنها تُقبل في مكة.

من بين النعاج في هذه المنطقة، يلاحظ وجود نوع بحد مرقع بالتّوبين الأبيض والنّسي،

ويُعرف المصنف نفسه في مكانه كدكت وهو صنف شديد بصغر، يشربه الأحباب ويحملونه معهم إلى الديار كأشياء نادرة من الأرض المقاسة ويتم الاحتفاظ به في أقداره في منازل النبلاء الذين يصنعونه بالحناء باللون الأحمر، ويعلقون صوفاً حول عنقه فيه أجراسٌ صغيرة تنسبة الأولاد

أعتقد أن ليس لأهل المدينة أوقات أخرى للاحتفال العام غير أيام لأعياد المدينة، باستثناء عيد مولد النبي في الثاني عشر من ربيع الثاني ويُعتبر هذا اليوم عيداً وطنياً فنقل ساجر جميعها خلال النهار ويدعو الجميع في أبيه خللهم.

وفي الصباح الباكر، يجتمع العلماء وعدد من أساتذة التدريس في مسجد حيث يقوم أحد الخطباء، بعد خطبة قصيرة، بقراءة مقاطع من إشارات محمد منذ ولادته وحتى مماته، يُقدم بعده عصير النعنع أو شراب السمسم، إلى الجماعة، أو على الأقل إلى لاس برينتين الحاضرين ثم يصي السمسم المنحتمون إليه التي يسودت ليوم في الصلاة وقد أتت امرأة محمد علي ناش إلى هذا بعد أن نُمتلح إلى مكة، لزيارة القبر ورؤية بيته طوسون ناش وأمصت معظم الليل في التعمد في المسجد؛ وحين عدت إلى منزل أجدته بذلك الهدف بالقرب من بوابة المسجد، قام ابنها بزيارة قصيرة بها ثم عادها لرباع يوم طلب هو نفسه سجدة له لئلا وسط شارع، ونام هادئ على عتبة مسكن والده، وهذا شهادة بالاحترام والتواضع للدين محب الشرف لاس ولشخصية الأتم التي أبحث له بمثل تلك المشاعر. إن روعة محمد علي هي امرأة محترمة جد ومحبسة إلى حد بعيد دون أي تباؤ أو تدحرج. كما أن ابنها طوسون ناش هو الوحيد في العائلة، كما أعتقد، الذي يحتوي صدره على أي مشاعر نبيلة حيث يتسم بالقول بالفساد من الرذائل العديدة التي تُلام عادة لئلا الأتراك، فقد أثبت في مناسبات عدة عناية المشاعر السامية، حتى أن أعداءه لا يستطيعون أن يكرروا سبانه وكرمه وحنه سوى وأحلافه الحميدة. ولا بد أن بأسف يكونه أدنى ذكاة ومطلة من والده وأخيه إبراهيم بقدر ما يعوقهم في الصرع الأخلاقية وقد ظهرت وندته هذا بكل الأبهة الخاصة بملكية شرقية، فقد عثرها لاس ملاك أرسل من السماء، من جزاء حياتها بالمسجد والفقراء وقد أحصرت لابنها هدايا بقيمة خمسة وعشرين ألف جنيه إسرائيلي يوحظ بيها اثنا عشر حلة كامد، بما فيها كثر قطعة ثياب، من أثمن شالات الكشمير برون إلى خفيفين؛ وحاتاً من الألباس يُقدر بحمسة آلاف باوند، وجارينين جورجيتين جمينتين وفي حاشيتها، كان هناك أيضاً حارية جورجيت بالغة الجمال وبادرة مقدرات؛ وقد تزوجها محمد علي مؤخراً في مكة؛ لكن، وبما أنها لم تُكر بعدد أن يُحيث أولاداً، فكانت تُعتبر أدنى مرتبة من وندة طوسون ناش، التي كان

لها ثلاثة أولاد من المشاوات^(١) كانت هذه الجارية منك نقاصي مكة الذي أنى بها من انقسططصية وبعد أن سمع محمد علي ساءه يتدخّل جمالها ويثني على إنجازاتها، أجبر الناصي رعم راديه، على التحنّي عنها فداء منع خمسين ألف درهم، وما لبث بعد ذلك أن عرض عليها الزواج

ليس لديّ الكثير لأقوله عن عادات المدينة المميّزة (والخاصة)، لأنني لم أحظَ بعرض عديدة لاحتلاط بهم غير أنني أستطيع القول بأنهم لا يسبحون مع بقواعد العامة المرافعة في الشرق، فيما يتعلّق بالتشريعات التي يحضون بها أموالهم وأنا أعتقد أنّ هذه المدينة هي الوحيدة في الشرق التي لا تؤوّل النساء فيها وبكي على موت أحد أفراد العائلة. فالعادة انعكسة التي تمارس عامة هي شائعة جداً بحيث لا ندعو الحاجة إلى تكرارها هنا؛ بل يتم، في أجراء أخرى من الشرق، استدعاء طفلة معينة من النساء في تلك المناسبة، ومهتّرة الوحدة هي تؤوّل الحبّ بأشدّ الثبرات تزيقاً للقلب، وذلك لقاء مبدع رديد يدع لهم في الساعة. وليس هناك مثل هذه الممارسات هنا (رغم أنّها معروفة في أجراء أخرى من الجحار)، وحتى أنّها تُعتبر مُشبهة. فقد توفيّ ربّ عائلة في منزل مجاور لذلك الذي كنت أسكن فيه وحدث وفاته في منتصف الليل، فاعجز وشه الوحيد باليك، مدفوعاً بمشاعره الطليعية، ثم سمعت والدته تقول «بحقّ الله، لا تلك، إنّها لعازّ كبيراً ستعصّبنا أمام الجيران كلّهم»، وقد وجدت بعد بعض الوقت وسيلة للإسكات ابها

وهناك أيضاً عادة وحيدة تُدرّس في الجارات، حيث يُحمل النعش عند الخروج من منزل المتوفى على أكتاف بعض أقاربه أو أصدقائه، ويتبعهم من تبقى في الخلف، لكن حين يتقدّم موكب الجارة في الشارع، يُسرّع كلّ واقف أو ماز لإراحة حامل النعش للحظة، فيقوم البعض بإفصاح الجار بالآخرين الذين يتقدّمون لأحد النعش بدورهم، وهذا ما يحصل بلا توقّف. فيتفرّد النعش بالتالي باستمرار من كتف الآخر إلى أن يوصع أخيراً بالقرب من القبر. وإذا ما افتحصنا للحظة أنّ هذه العادة السليطة ومؤثّرة كانت نتيجة المشاعر الصادقة الحقيقية، فإنّ ذلك سيظهر حساسية مرهقة أكثر ممّ بطهره الأوروبيون في موكب الجارة وهم يرافقون موتاهم إلى القبر. لكن، كلّ ما يقوم به الناس في الشرق يتم وفق العادات القديمة؛ فإنّ أصلها يعود بلا شك

(١) إسماعيل باشا هو الابن الأصغر من الأثني الآخرين اند كورين أعلاه. ويُنال أنّ إبراهيم باشا ليس من محمد علي، لكنه تبنّاه حين نزع من أمه التي كذب وقتها أرملته عا كدالا الواقعة في هينريست، وهي المدينة التي وُجد فيها باشا مصر لخالي.

إلى دفع الشاعر، أو التقوى والإحساس بالواجب لدى الأشخاص الذين «سقطوا» تلك العادات؛ غير أنها تحولت في هذه الأيام إلى مجرد مسألة شكليات

لا ترتدي ساء المدينة أنداً ثوب الحد فيحتفي في هذا لصدد عن ساء مصر. وقد قال بعض مسافرين أحياناً إن أهل الشرق لا يعرفون ثوب الحد، لكن ذلك خطأ ومفصل بلسية إلى مصر على لأهل وجرء من سوريا وصحيح أن الرجال لا يفعلون ذلك أنداً لأن الشريعة قد نهت عنه؛ لكن النساء دخلن السرب يرتدين ثياب الحداد في كل أنحاء مصر؛ وهن يقفن لهذا العرض بصبح يديهن أولاً باللون الأزرق الباس، ثم يصعن برفق أسود، أو حمراء، فيتبعن بالتالي الحمار في الطرقات؛ وقد ما «ستتغن»، فهن يرتدين عباءة سوداء وقميصاً تخياً أسود، ويسمرزن في ارتداء ثوب الحداد سبعة أو خمسة عشر يوماً، أو أحياناً أربعين.

أما هي ما يعتنق بالعلم، فتأصيف بأن لمدينتين هم علماء صليوب أكثر من المكين، على الرغم من وجود عدد قليل من المدارس، إن وحدث، كما ذكرت نقاً ويدرس العدد من الأشخاص العلوم الإسلامية في دمشق والقاهرة حيث يوجد في كنيستين مؤسست دينية أنشئت لهذا الغرض وكما هي الحال في مكة، فلس هناك أي سوق لمكتبة، ولكن برحيدته التي رأيتها ركبت معروضة للبيع، كانت في متجر تجرته للثياب قرب باب لسلام. ويقال أن هناك بعض مكتبات الخاصة المهمة الممتعة؛ وقد رأيت واحدة منها في منزل شيخ، كان فيها على الأقل ثلاثة آلاف من المجلدات المقدسة، لكنني لم أتمكن من معاينتها. وكما يحدث عياً في الشرق، فإن هذه المكتبات كلها هي وقف، أي أنها عرصب على أحد لمسجد من قبل مؤسسها أو أنها وُقيمت لإحدى العائلات كي لا يتة نقل ملكية هذه الكتب. ويُقال أن الوهابيين قد أخذوا الكثير الكثير من الكتب على لرعم من بحاثي وتحفاني لتكرهها، كما في مكة، فهي لا تخرج أنداً عن شخص واحد قام بتأليف، أو حتى بدوين ملاحظات قصيرة عن تاريخ أيامه أو أيام الوهابيين ويسو لي بشكل عام أن الأدب اردهر بالسنة البسيطة نفسها في «المدينة» كما في أخرى من الحجاز؛ وأن أهمه الوحيدة التي كان يدرسها الجميع هي كسب المال وإعاقه في مسراته جسدية جنسية

إن لغة المدينتين ليست نفية باعدر نفسه كلمة مكين فهي تقرب أكثر من لغة مصر؛ كما أن السوريين المستوطنين هم يستمرون لأجل عدده في الحفظ على مسحة أو أثر بسيط من لهجتهم الوطنية. ولأنه من السائد ساع من البلاد يتكلمون، أو على الأقل يتلفظون ببعض الكلمات من لغة التركية والنستيون والمزارعون في الحجاز بهم لهجة ولجس خاصة بهم، مما يشكل موضوع سخيرة لسكان المدينة.

حول حكومة المدينة،

كانت «المدينة» دائماً ومدد محر الإسلام تُعتبر ولايةً مستقلةً مفصصة. وعندما أصبح الحجار حاصباً لسلطة الخلفاء، كان هؤلاء يُعيّنون أشخاصاً ليحكموا «المدينة»، وهم مستقلّون عن حكم مكة. وحين حُفّت سلطة الخلفاء وانحسر نفوذهم، جعل رعماء «المدينة» أنفسهم مستقلّين، ومارسوا النفوذ نفسه في شمالي الحجار. كذلك الذي كان يمارسه رعماء مكة في الجنوب. وكان رعماء مكة يمحّضون أحياناً في بسطة سلطة مؤقتة على «المدينة». وفي القريب الخامس عشر والسادس عشر، بدا أن هذه السلطة قد ترسخت تماماً. لكنّها غالباً ما كانت تصبح متعلّقة بسلاطين مصر الأتقياء، كلّما كانوا يسيطرون سبابتهم على مكة. وحين اعتلى العثمانيون العرش التركي، كان الخليفة سليم الأول، وابنه سليمان (السلطان أوريا عامة عناية أكبر لخير الحجار أكثر من أيّ من ملعهم) يهكران في ضرورة الحصول على موطن، قدم ثابت ومبرة قوية في هذه المدينة التي هي مفتاح حجار. فأصبحت بالتالي تتمتع بأهمية بالغة لدى قواهل الحج. ثمّ إرسال فرقة من الجنود الأتراك إلى هنا، وكانت مؤلفة من لاشكاريين والتشاهيين (فارسي في جيش السلطان العثماني) تحت إمرة آغا يكون أمر المدينة العسكري، يسما وُضعت الحكومة المدنية في يد شيخ الحرم أو آغا الحرم، حاكم مسجّد الذي كان عليه مراسلة العاصمة باستمرار وياتنظم، والذي يتمتع بالمرّة نفسها التي يتمتع بها الباشا في مدن أخرى وباستثناء فترة قصيرة قرب نهاية القرن السابع عشر، حين وقع شيخ الحرم والمدينة بأكمها في يد شريف مكة وسلطانها، فقد استمرت هذه الطريقة في الحكم حتى فترة العزو الوهابي. وكان هناك آغا على رأس بضعة حدود، كان بعضهم يسيطر على بضعة؛ وكان آغا الحرم، الذي كان به كذلك مجموعة صغيرة من الحدود، دعم المدينة الاسمي لكن أسوء استعمال السلطة وعمّت المفاسد والتعشقات في القرن الأخير؛ فلم يُقد السلطان يعيّن الحاكم العسكري، لكن

تعيّنه جماعته الخاصة؛ ولم يعد هناك أيّ جود أثر في وقت فقط المتحدّرون من أولئك ندين أرسلوا إلى هـ في الأصل ولدين ترواحوا مع أهل البلاد وأصبح هذا الأعدا لسيّد فعلي لمعديه، وانتشرت جماعته على العائلات الأولى كلها ولم يكن يملك حدود سوى أهل مدينته نفسها، وكان يُعَبِّه أعلى الصدق في الفرقة الذين استمرّ متحدّرون من سبلهم بالاحتفاظ بوظائفهم كما كانت محدّدة في السابق برغم من أن القسم الأكبر منهم قد ترك الوظيفة العسكرية وتمّ توسيع هذه الفرقة من حدود التي تدعى «المرايض»، بشوية مرفه لاغا ومعريرها وامتدّت إلى العديد من سكّان مدينة الآخرين والأحباب الذين استوصوا هـ وكان يحقّ لهم المشاركة في لرواتب السوية التي يُحدّدها الشلطان أصلاً سنّة دفعها لفرقة، وكانت تُنقل من القسطنطينية بانتظام وإلى جانب ذلك، فقد اعتصبوا حصّة من الضريبة والرواتب التي كانت تُرسل إلى المسجد وإلى المدينة بأشهرها.

في ظلّ الظروف المذكورة أعلاه، فقد أصبح عدم احترام، إلى جانب لقاصي لذي كان يُرسل من القسطنطينية سوية، محرّك صيفيين لا شأن بهم. وكان الأول أحد الخصيان الذين لا يعرفون شيئاً من لغة العربية، ويحصل على تعيين في هذا مركز يدفع المني لا الترفية ولم يكن دحّه الذي يتلقاه على القسطنطينية يمكنه من وضع أيّ حرس عسكري يكفي بصله في مستوى حصصه، على المدينة، على الرغم من أن دحّه كان يُعتبر جيداً ومرعاه ما وجد نفسه متروكاً في عهدة المسجد فقط وامرة الخصيان والنزّشين. لكنّ اعا مدينة نفسه لم يكن سيّداً مُطلقاً، حيث كان للعديد من رعااء لأحياء المختلفة سلطة كبيرة وكان للأشراف الذين استوصوا هـ رعيّتهم الخاصّة ويُدعى شيخ السادات، وهو رجل ذو سلطة ونفوذ عظيمين؛ فعنّت بالتالي لقوصي المدمرة غالباً ما كان سكّان لصواحي وأهل مدينة وامررعون يتدعرون مع بعضهم لأشهر عدّة، فكانت تشبّ داخل المدينة نفسها صراعات دموية بين سكّان لأحياء المختلفة، فكانوا يستدعون بطرقات أحياناً للتدريس في مثل هذه الظروف، ويُضيقون أسرار على بعضهم بعضاً من على سطوح منازلهم وروى أحداث عن أناس قوما بإطلاق النار داخل المسجد حتى، على أعدائهم يسما كانوا يُصطنون.

خلال السنوات العشرية المنصرمة، تمّ تعيين اعا بقعة وهو رجل اسمه حسن ثمّ أعصده لقب حسن لعلمي إلى ما دفعه إلى هـ، انصب، رغم ولادته بين حثالة الناس، هو مهارته ومكره وبسائه وعزمه شديد. فقد كان رجلاً ذقن قصير جداً ومشية مرّاحة فرحة على الرغم من قوّه جسديّة وينقل أن صوته حين يكون ساخناً كان يشبّ لزغب في نفس أحرأ الناس. وبعد عدّة سنوات من الصراع العنيف، نجح هذا الرجل في أن يصبح سيّداً مُطلقاً وطاغية في المدينة وكان يحتفظ بحرس من أهل المدينة والبدو والمعاربة يصعبهم في خدمته، كما كان رعاع المدينة

إلى جاسه وكان محرماً يمارس أشدّ لأعمال إنمّا ومطاعة وصلماً، فكان يجمع الخجاج ويتبرع المال منهم ويستولي على أملاك كلّ الخجاج والأجانب الذين يموتون بها ويقوم بمصداقتها، ويوقف الضروة، فيجمع ثروة طائلة. وقد سُخِّلَتْ أُحْدِثَتْ عن الاستعداد والصبيان، العف التي سمعت اسمه بانعرا. فقد كانت أرملة مُسِنَّة ثرية قد وصلت مع ابنتها إلى «المدينة» من القسطنطينية لزيارة القبر، فقام بالنقص عليها وأرغمها على الزواج منه، وبعد يومين أُجْدِثَتْ ميتة فاسولي على أملاكها. وبعد وقت قصير، أُخْبِرَ لاية على خصوع والاستسلام بمعاقبته وقُدِّمَتْ العديد من الشكاوى في القسطنطينية على هذا الرجل، لكن لم تكن للسلطان السلطة لكافية لعزله، وكلّما كانت القامة تصل من سوريا، كان حسن القضي يُظهر مسلكاً جليلاً مُهيباً كي لا يحاول رعاؤها القيام بأي عمل صده. ولكنه كان يصنع العقبات والحواجز لكثيرة في طريقهم. ويُسَمَّى إليه عامةً بأنّه رَعِمَ القامة الأخيرة الآتية من دمشق، والتي حاولت أن تُكمل رحلتها بعد الاحتلال الوهابي، على العادة إلى سوريا.

حين بدأ الوهابيون شنّ غارب على حجار ونوجيه قوّاتهم نحو «المدينة»، أصبح سلوك حسن أكثر شتاءً، فلم يصحّ حدوداً لقمعه وظلمه خلال أيّومين أو الثلاثة أيام التي سبقت الاستيلاء على المدينة؛ كان أحياناً يحكم بأشدّ العقوبات على الأشخاص الذين يصادف أن يصحبوكوا بين أنفسهم خلال مروره، مُدَّعِياً أنّ مشيئة المترنحة العرجاء هي سبب ضحكهم وكان لعرب الذين يعملون في خدمته يهوب المتأخر بيلاً وهم يقومون بدوريات في لشوارع في مجموعات كبيرة، ولم يكن بالإمكان محاكمتهم. وحين رأى استحالة صمود اندية لمدّة أطول في وجه الوهابيين، بعد أن قام بدو ساطق المحيط، ومكّة نفسها كنهم بالاستسلام، سَمَّ المدينة إلى سعود بشرط أن يسمر في سيطرته؛ وقد وُعد بذلك وتمّ تنفيذ الوعد. ووُضِعَتْ حبيها فرقة حيد وهابية في القصر، فأجبر أعاء الحرة والأثراك المقيمون في «المدينة» كلهم على معادرتها، بعد أن كان أعاء الحرم لعدّة سنوات مجرّد ظلّ يسرّ إلّا. وبقي حسن القضي حاكماً في ظلّ الوهابيين وعما أنّه باتّ الآ عاخرّاً عن التصرف بلصم نفسه كالسابق، فقد أظهر حماسة شديدة مدسّ الجديد، وقمع السكّان بأن فرس عليهم بصرمية شديدة الدقة تعاليم العقيدة الوهابية وشعائرها وقد أظهر سعود احتراماً «للمدينة» أقلّ بكثير مما أظهره سابقاً لمكّة، لأنّ دحل تلك الأخيرة كان يُترك كما هو في يدي الشريف، وكان السكّان معفيين من الزكاة، التي كان يدفعها الوهابيون الآخرون للرعيّم سدي تدارلها عن حقّه بمصلحه غالب. ولم يكن النظام معه يُشجّع في «المدينة»؛ بأنّ السكّان مدسّ كانوا يحفلون ماهية الضريبة، يستثناء دفع رسم بسيط على الأراضي، وحدو أنفسهم وقد مرصو بلقمع والاستعداد الشديد؛ فرص حسن القضي مع جاني صرائب سعود، الصرائب بالصريفة الأشدّ قسوة وصرامة.

وتوفيت وفيها فاعل الخج؛ وكان القليل من المحتاج يصنون من طريق تشع؛ وما لبث سعود بعد ذلك أن سمع مرور المحتاج الأتراك كهم إلى المدينة، فتم بالتالي إيقاف الضربة أو الرواسب صعباً وقد شعر المدينيون في ظل هذه الظروف، شغل وصاة الأيام وباتوا ساحطين على الوهابيين. وتوجد بعض التفاصيل لإضافته حول هذا الموضوع في تقرير عن حملة محمد علي.

حين بدأ محمد علي بالتحضير لشن حملة على الخجار، تم وضع فرقة حشد قوية جداً في «المدينة»، تتألف بشكل أساسي من بدو محاربين من «بجد» و«مقاطعات الجوبه» بمرّة مصيان، الذي كان سعود قد عبثه شيخاً لفيلة حرب وأبدى حسن انقباضه حماسة شديدة بالاتحاد ضد العدو. وبعد الهزيمة الأولى التي مُني بها صوصون باشا في المدينة تعرر موقع حسن في «المدينة» لكن، حين عد صوصون مرّة ثانية بقوة أكبر، قام حسن، بعد أن توقع به الانتصار، بالدخول معه في مفاوضات سرية، وتلقى وعداً بإنقاذه في مركزه شرط أن يُسهل عملية الاستيلاء على المدينة من قبل العثمانيين وعهد وصولهم أمام بواباتها، انصم إليهم واستقبله أحمد بوبارت، الأمر لتركني، بشريعات مميّزة، وما لبثت مدينة أن هوجت وتم الاستيلاء عليها عن طريق الاستسلام لكن، بعد أن فُتحت البقرة الوهابية وهرمت كلياً في هذه الأجراء، ألقي القبض على مصيان الذي وعد بالأمان، وعلى حسن القضي، وقُبِدَا بالسلاسل وأُرسلوا إلى القسطنطينية عن طريق القاهرة حيث لبيا مصيراً اسحقاً الأخير على لأقل بحدرة، بالرغم من أن جرائمه لا يمكن أن تُبرّر الخيانة التي تعرض لها من بل من ألقى القبض عليه.

بعد هذه الأحداث المذكورة أعلاه بقبيل، أعاد السلطان سليم اعاد الحزم وكان مشرفاً على حريم سلطان سليم، فاستعاد الأغ جرت سلطته بكر احكم لفعلي كب الان في يد احكم التركي وعهد مهية السنة تقريباً، في ١٨١٤، أنى طومسون باشا إلى هنا كحاكم تحسباً بهجومه اسوتي القيام به على بجد، وقد وجدته هنا عند وصولي ولم تكن حكومته سيئة لأن واياها كتب سيمه، وقد أحته السكان لكرمه وإخلاصه بكر إجراءاته كانت متهورة جداً، فقد أحاف البدو وأبعدهم عبر الاستيلاء على جمالهم، مما أدى إلى قضيح المؤن عن ليديه وحلق حاجة عامة إلى أنواع المؤن والحاجات الأخرى كلها ثم ما لبث حوده أن بدأوا بمرسون تجاورت أهل قمعها ووقفها بالعباد وبعد رحيل صوصون، وصل والده محمد علي إلى هنا في شهر نيسان/ أبريل، سنة ١٨١٥، وقام على الفور باتخاذ الإجراءات المناسبة لإصلاح أخطاء ابنه معتمداً على حكمه المني على خبرة أعمق وتجربة أوسع.

تستمر «المدينة» الآن في ظل حكومة بر تركي؛ وهو مركز شعله رجل سكتندي لبصه

أشهر، ويدعى توماس كيث Thomas Keith، أو إبراهيم آغا، الذي ذكرت أنه كان أمين صندوق طوسون باشا. ويحتفظ آغا الحرم بحجوة سجن أو ثمانية جندياً وهم جماعة مسلحة متاعرة من الأتراك والعرب والمصريين وأهل «المدينة». كما كانت الأعمال الدينية والمالية التي تحضر المسجد كلها متروكة بين يديه ويؤاخره القاضي في الأهمية، وقد كان في زمن الوهابيين قد أكره على التقاعد والاستحاب. ويستمر شيخ لأشراف أو السادات بالتمتع بتقدير واحترام كبيرين، فضلاً عن عدة شيوخ آخرين في المدينة. وأعتقد أن كره المديين لأسيادهم الحاليين، الأتراك، أقل من كره أي طبقة أخرى من أهل الحجاز، على الرغم من أنهم لم يكونوا بعد قد تصالحوا معهم حتىئاً.

قبل العزو الوهابي، كان شريف مكة يحتفظ بها بموظف ذي مرتبة أدنى، ليقبض بعض الرسوم الزهيدة على الخصرات واللحوم والمؤن الأخرى التي تأتي إلى السوق؛ وهي الصرية الوحيدة من نوعها التي يدفعها الحدييون، وهي آخر أثر للسلطة التي كان يتمتع بها شريف مكة على «المدينة»، والتي زالت كلياً في الأوقات الأخيرة. ولا يتمتع الشريف عابها بأي سلطة كانت؛ ولكني أعتقد - وإن لم أكن واثقاً - أنه ما يزال يتمتع بالسيطرة الاسمية، أو بلقب رعيم المدينة، وأن «المدينة» كانت تشكل بالسيرة إلى الباب العالي جزءاً من الحجاز تحت قيادة شريف مكة.

ويؤكد العديد من الكتاب العرب المهيمن أن «المدينة» تشكل جزءاً من نجد وليس من الحجاز، في موقعها الحالي على الجهة الشرقية من السلسلة الكبيرة. ويبدو أن هذا الرأي مبني على أساس متين إذا ما أخذنا في الاعتبار الحدود الطبيعية؛ لكن من ناحية تقبل الكلمة على الساحل وفي مكة «المدينة»، فيحتمل أن تلك الأخيرة تشكل جزءاً من الحجاز، على الرغم من أن يبدو الداخل يعطون معنى مختلفاً جداً لهذه التسمية.

مَنَاحُ الْمَدِينَةِ، وَأَفْرَاضُهَا

لقد أَقْبَيْتُ سَاحَ فِي الْمَدِينَةِ حَلَالَ أَشْهُرِ الشِّتَاءِ، أَشَدَّ بَرُودَهُ مِنْهُ فِي مَكَّةَ وَلَا أَحَدٌ يَعْرِفُ
الْشِّتَاءَ هَذَا، بَارِعًا مِنْ أَبِي سَمْعَانَ بَعْضُ النَّاسِ الْمَسْتَبِينَ يَذْكُرُونَ رُؤْيَاهُ عَلَى أَجَالِ الْمَجَاوِرَةِ وَبِئْسَ
لِلْأَمْطَارِ فِتْرَةٌ مُحَدَّدَةٌ فِي الشِّتَاءِ، بَلْ تَهْطُلُ فِي فِتْرَتٍ مُتَقَطِّعَةٍ، وَبِعَرَارَةٍ عَمِيمَةٍ تَسْتَمُرُّ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ
عَادَةً أَوْ رِمَا لِيَوْمَيْنِ فَقَطْ وَيَبْزُ فَصْلُ شِتَاءٍ كَامِلٍ أَوْحِيَانًا سَيِّئًا يَهْطُلُ الْخَرُوفُ وَاحِدَةً لَا عَيْرَ،
بِاسْتِثْنَاءِ الْقَلِيلِ مِنَ الْأَمْطَارِ الْخَفِيفَةِ؛ فَيَسْتَحْ عَنِ ذَلِكَ مَجَاعَةٌ عَامَّةٌ. يَقُولُ الْمَدِينِيُّونَ إِنَّهُ لَرَيٌّ
بَرِّتَهُمَا، يَجِبُ أَنْ يَتَسَاقَفَ الْمَطَرُ ثَلَاثَ أَوْ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، فَتَعْمُرُ حَسْبَهَا السِّيُولُ أَجْرَاءُ عَدِيدَةٌ مِنَ
الْبِلَادِ وَحَاصِلُ مَرَامِي الْخَصَّةِ بِالْبَدْوِ وَلَا تُعْرَفُ هَذِهِ الْأَمْصَارُ الَّتِي تَتَسَاقَطُ لِأَسْبُوعٍ أَوْ أَكْثَرَ
وَيَشْكُرُ مُتَوَاصِلٌ كَمَا يَحْدُثُ عَادَةً فِي مِصْرَيا وَبَعْدَ كُلِّ فِتْرَةٍ مِنْ سَدْفِ الْأَمْطَارِ، الَّتِي يَدُومُ
أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَاعَةً، تَصْبِيحُ السَّمَاءِ صَافِيَةً وَيَسُودُ طَلْقُ الرِّيحِ الْجَمِيلِ لِبَصْعَةِ أَسَابِيحٍ. وَتَكُونُ
أَحْمَرُ مَوَاصِفٍ عَادَةً فِي شَهْرِ سَدَنٍ/أَبْرِيلٍ؛ لَكِنَّ هُنَاكَ أَمْطَارًا خَفِيفَةً عَرَضِيَّةً تَتَكَثَّرُ حَتَّى فِي
مُتَنَصِّفِ فَصْلِ الْخَرِيفِ.

وَيُزَكِّدُ الْمَدِينِيُّونَ وَبَعِيدٌ مِنْ أَجَابِ أَنْ حَرَارَةَ فَصْلِ خَرِيفٍ هَذَا أَشَدُّ وَحِدَةً مِنْهَا فِي أَيِّ
جَرَاءٍ خَرٍ مِنَ الْحَرِّ؛ عَيْرَ أَبِي سَمْعَانَ مِنْ أَحْكَامِ بَعْضِي لَعَدَ سَبَقٌ وَذَكَرْتُ أَنَّ طَبِيعَةَ أَمِيَاءِ
وَالْتَرَبَةَ طَالِحَةً، وَسَبْرُ الرِّكْدَةِ مِنَ مِيَاهِ الْأَمْطَارِ حَوْلَ «الْمَدِينَةِ»، وَرِمَا الرِّقِيرِ وَالْأَبْحَرَةِ الَّتِي بَيْنَهَا
سَنَاتِينَ الْمَحْبِلِ الْكَثْبَعَةِ فِي الْمَنَاطِقِ الْمَجَاوِرَةِ، كُلُّ ذَلِكَ يَجْعَلُ مِنَ هَوَاءِ «الْمَدِينَةِ» هَوَاءً غَيْرَ مَلَائِمٍ
لِبَصْعَتِهِ

وَالْحَقُّ هِيَ أَمْرٌ أَكْثَرُ شَوْعًا، وَيَتَعَرَّضُ لَهُ عَدِيدٌ مِنَ السَّكَّارِ أَنْفُسُهُمْ وَبَادِرًا مِنْ مَحْوٍ
مِنْهَا الْعَرَبَاءُ الْمَدِينِيِّينَ يَقُولُونَ هَذَا لَمَرَّةٍ، حَاصِلُهُ فِي فَصْلِ الرِّيحِ وَبَعْدَ أَكْثَرِ لِي يَحْبِي أَمْدِي، طَبِيبٌ
طُوسُونُ بَاشَا، حِينَ كُنْتُ مَرِيضًا، أَنَّهُ كَانَ يَرْعَى ثَمَانِينَ شَحْصًا مُصَابِينَ بِالْحَقْنِ، وَبَدَأَ أَنَّهُ كَانَ

محظوظ في علاجهم أكثر مما كان معي واحتسب كنفها تقريباً متقطعة، وتوافق الشفاء منها ومن وتراج تطبيع، وأكثر ما يُحسب حبيها الاتكاس من جديد. حين خرجت من المنزل بعد شفائي، وجدت الشوارع مكتظة بالناقهين الذين رأيت بوضوح من خلال مظهرهم العدد الكبير من الذين كانوا يشاركون في المعاناة في المدينة. وإذا لم يُشفِ المريض خلال وقت معين، تؤدي هذه الحتمية غالباً إلى استعانة مؤلة في المعدة والأرجل لا يروى إلا بصعوبة بالغة ولا يولي المدينيون عناية كبيرة لهذه الحتمية المتقطعة التي اعتادوا عليها والتي نادراً ما تكون مميتة؛ لكن الحال يختلف مع العرباء فهي تُشجّد طابعاً وبائياً في بعض المواسم، حين يُعلن عن وفاة ما يقدرُ بمائتين شخصاً في أسبوع واحد؛ غير أنه نادراً ما تحصل حوادث من هذا النوع

ويقال أن حالات الإسهال الحادة أو «الرُحارة» (لدينا نظارياً) نادرة هنا. أما الشكاوى من صفراء الكبد واليرقان فتشائعة جداً. وبشكل عام، يبدو أن نسبة الوفيات هنا تفوق النسبة في أي جزء آخر قد ررته من الشرق. ويقع مسكني بالقرب من إحدى البوابات الرئيسية للمسجد التي تمرر عبرها اجثث لأداء الصلوات عليها. وكنت أسمع من سريري ملاحظة «لا إله إلا الله» سي كانت تُرافق تلك المراسم وخلال لأشهر الثلاثة لمكوئي في المنزل، كانت تمر كل يوم تحت نافذتي جارة على الأقل وأحياناً اثنتان وإذا ما اعترفا بمعدل ثلاث اجثث في اليوم تُنقل إلى المسجد عبر هذه البوابة وعبر الأحويات أيضاً، إلى جانب العرب الفقراء الذين يموتون في الضواحي، والذين تؤدي الصلوات على أحسدهم في المسجد الواقع في «المناح»، فإنه سيكون لديها نحو ألف ومئتي حالة وفيات سنوياً في هذه المدينة الصغيرة، التي يبلغ عدد سكانها كنهم كما أعقد من ستة عشر إلى عشرين ألفاً على أكثر تقدير؛ وهي نسبة وفيات لا يمكن التعويض عنها عبر الولادات، وقد كان من شأنها أن تجرد المكان من السكان منذ زمن بعيد، لولا وصول لأجانب إليها باستمرار لسد هذا النقص. ومن السكان، هناك نحو عشرة آلاف أو اثنا عشر ألفاً يعيشون في المدينة نفسها، والباقي في الضواحي

الزُحَلَةُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى يَنْبُج

في الواحد والعشرين من شهر نيسان/أبريل، سنة ١٨١٥، تجمعت قافلنا لصعيرة في فترة بعد الظهر قرب بوابة الخريجة للمدينة. وبعد الساعة الخامسة من بعد الظهر، مرور عبر أبوابها نفسها التي دخلت منها عند وصولي مد ثلاثة أشهر. وكنتُ حينها في كامل صحتي وهي أعني معوياتي، مطلقاً العان للآمال العريضة التي أعقبتها على استكشاف أحرى مجهولة ومثيرة للاهتمام في الصحراء عند عودتي إلى مصر. أما الآن، وقد نهكتي مرضٌ مطوّل، وبثّ رهن العرعة مكتسباً لا نملكه، لا رعة عذمة في بلوغ مكانٍ يُدعى دافىء وصحتي حيث أتمكّر من استعادة عافيتي إن الأرض المؤدية إلى المدينة هي هذه الجهة، هي أرضٌ صحريّة وعنى مسافة نحو ثلاثة أرباع الساعة، سحدر الطريق شديداً لمسافة قصيرة، وقد صوّفتها الصحور، وعُدتُ لتسهيل مرور القوافل. وكنتُ تتجه جنوباً غرباً وجنوباً وهي ساعة واحدة، وصمنا إلى قاع سبيل يُدعى «وادي لعقيق» الذي تلقى في لفترة لأخيره كحمة عريضة واهرة من الأمطار من الجبال المجاورة، بحيث أصبح كنهٍ عميق وعريض لم تسطع جماعات حتى محاولة اجتيازها. وبما أنّ الطقس في النهار كان جيداً، فقد توقّعتنا رؤيته في الصباح لتألي وقد حَفَّ وانحفص لندك، حيثما عني صفاءه، في مكانٍ يدعى «الدرج» هذا تقع قرية صغيرة مهدّمة، كانت ماراها حجريّة متقنة البناء، وبالقرب منها تقع بركة صغيرة أو حزان وبئر متدّعة، ويرغ سكانها بعض الحقول عني صفّة وادي عميق، لكنّ عروات البدو أرعمتهم عني الاسحاب

يتعلّى الشعراء لعرب بوادي العقيق^(١) ويسمو عني صفاءه عدد من شجار لحور التي كانت

(١) يمرر اليهودي إن هذا السيل يصبّ في الأرض صحففة في تدعى «العابة» أو «عانة» إلى العرب من «مدينة» هي

لأن لمرهرة تماماً. وقد رافقنا إلى الآن عدد من الناس من «المدينة» لمحمية مُفس من مكة كان مرور المدينة، وكان الآن عائداً إلى دياره، وهو يوي ترك قافلتنا عند العفرة، وكان معه العديد من الحيم والنساء. أما زملائي من المسافرين الآخرين، فهم تجار صغار في «المدينة»، كانوا داهيين إلى جدة لانتظار وصول السفن الهندية؛ وكان يسهم تاجر ثري من مسقط، كنت قد رأيته في مكة حين كان يبيع، وكان يملك عشرة جمال لقل سائه وأطعاله وخدمه وأمنه؛ وكان يُفق عند كل محطة مبالغ كبيرة من المال للصدقات. وبدا أنه عربي كريم وفاضل من كل الوحي

في الثاني والعشرين من شهر نيسان/ أبريل، حُف حبة السيول، فاجتريها في فترة ما بعد الظهر. ومشينا لساعة في وادي صوّق يتبع السيل إلى أعلى وبعد مرور ساعة ونصف، عُدنا لسيل فتدّى لنا السهل إلى الشرق، وهو يُدعى «السلسلة»؛ وكانت طريقنا عليه تتجه نحو الغرب والجنوب الغربي. وكانت الصحور الكسيتية منتشرة على السهل. بعد مرور ثلاث ساعات ونصف، دخلنا جبل مجدداً وتابعنا في أودية رحى بهبط يبطئ طوال الليل وعند بلّاج النهار، مررنا بالسهل المدعو «العريش»، حيث كنت قد خيمت في اليوم الذي سبق وصولي إلى «المدينة». وترجلنا بعد مسيرة ستمت اثنتي عشرة ساعة ونصف في القسم العلوي من وادي الشهداء^(١).

في الثالث والعشرين من شهر نيسان/ أبريل، ما يشأ أن أودعنا أمتعتنا حتى انهمرت أمطار غزيرة يرافقه قصف الرعد الهائل المروع وومضات البرق وهي لحظة، عُمر الوادي بأسره، فتوقفاً ضرورة تمضية السهر كله هنا وقد أويتُ إلى حصة تاجر مسقط وتوقفت العاصفة بعد الظهر، فانطلقنا عند الساعة الثانية من بعد الظهر. وبعد مرور ساعة، مررنا بقبور الشهداء، أتباع محمّد - صلى الله عليه وسلم - الذين يرقدها أربعون واحداً منهم كما يُقال. وتابعنا طريقنا يبطئ هابطاً في الوادي في الاتجاه الجنوبي والجنوبي الغربي على الأرجح عند قطة وادي لشهداء، تبدأ صحور العرائيت، حيث إنّ الطبقات العليا من تلك «السلسلة» هي ذات طبيعة كلسية. وخرجنا من الوادي بعد مرور خمس ساعات. وفي الليل، عبرنا سهلي شب لهال

الجبل التي نصب فيها كل السيول في هذا الجود ويعرف أيضاً بأنه على صفا هذا السيل، باتجاه الشرق. يقع حصن الغربي الصغير المدعو «قصر المراجيل»، ويقطع السيل من هناك باتجاه «العاب» منطقة تُدعى «التبغ» وعلى مسافة نحو خمسة أميال من «المدينة»، كان هناك محطة تُدعى «الخطبة» ونقع على مصدر وادي العقيق. في قصر صغير وبكة أعيد بناؤها سنة ٨٦١هـ. وربما تكون هذه «الدرج» هي نفسها المعبر.

(١) إنّ المسافات في هذه الرحلة لا تتوافق تماماً مع تلك التي قدّمناها في أثناء مجيئنا إلى «المدينة» لكنني أفضل أن أنهي حديثنا كما وجدتها مدونة في دفاتري.

وبعد مسيرة استمرت ثلاث عشرة ساعة ونصف، حُتِمَ في الجبال، في الوادي المسيع المدعو «وادي مديق» الذي يقع على الطريق من بربه إلى الحديدة، على مسافة ساعتين من الأول الذي كما قد احترق في الليل في رحلتي السابقة وسمعتُ أنَّ في هذه الجبال، بين «المدينة» والبحر، على طول الطريق باتجاه الشمال، قد يلتقي ناعز الجبال، كما أنَّ اليهود يسبب ندرة كذلك

في الرابع والعشرين من شهر نيسان/أبريل لقد قام بعض لعرب من قبيلة بني سالم برزاعه بعض حقول هـ بالدرة، وهم يروونها بواسطة بيع من مياه الحاربه يتدفق من صُحْب في الصحور في اجس، حيث يشكل عدَّة برك صغيرة وشلالات جميلة كما أنَّ مياهه هي من أفضل الأنواع التي شربتها منذ مغادرة جبال الطائف.

انصف من هـ في فترة ما بعد الظهر وصادفُ مطراً أشدَّ غرارة استمرت من منتصف النهار إلى مغرب الشمس وكان في الغابة عدَّة مرصى وباهين، خاصة من اساء اللاتي كُرُ بتدُمُرًا وتملكشي حُتَّى قوَّة وعيفة خلال الليل، ثم عدتُ في السهار واستمرت بي أن وصلت بي يبع وما كان يُسبب بي الإحباط بشكل حاص هو ما رفق الحُتَّى من عزق عريز خلال تلبس تبعه بوبات ارتعاش مع طوع فحمر. وب أنَّ الغابة لا تستطيع التوقف لأحيي أنا، فلم نسح لي الفرصة لبيدين ملاسي الكتبتة. فضلاً عن ذلك، فقد كذا مصطربين إلى التحميم على أرض مبهمة، وب أنَّ عدد سائقي الجبل كان صغيراً جداً، نظراً إلى كمية الأمتعة، فلم أستطع تحبب تقديم يد العون في تحميل، إذ إنَّ لسوي الذي كان يرافقني كان من أكثر الأشخاص تكاشلاً وأسوأهم طبعاً ثمر التقيتهم من أهل مُتَبِه.

سره في الوادي المتعرج لساعتين ونصف الساعة إلى «السحيف»، وهو بداية «وادي حديدة» Djedyde، حيث هـ رعيم المركز لتركي المتمركز هـ بالاستعلام عن أخبار المركز الرئيسي. فقد كان هـ ما أربعة عشر يوماً دون سماع أي شيء عما كان يجري في «المدينة» وخلال خمسة اشركيه بأسرها في الحجار، لم يتم تأسيس أي بريد منتظم في أي مكان، وكان طوسوب ياشا بترك أحداً لأشهر في «المدينة» وهو يحفل وضع جيش الذي بأمره أبيه وحتى هذا الأخير كان يتنقى أباؤه من مكة وحدة عمر قراهن عادية. وبأدراً ما كان يتم إرسال ترفقات معجلة؛ كما كانت الحال أسوأ فيما يتعلق بالاتصالات المنتظمة عبر لزيين القاهرة ومكة ويست الحال كذلك فيما يتعلق بهذا الموضوع فقط، ولكن في تفاصيل عديدة أخرى تتعلق بالحرب، إذ إنَّ أفضل القادة الأتراك يعتقدون بشدة إلى الحيوية والحركة أو إلى الحكمة والصبر، مما يعرضهم للمعاينة حتى من قبل البدو وهم يعرضون عملياتهم خربة إلى الفصل كنما وجهوا سداً أكثر يقطعه وحدرًا من غير أب يكون هناك أي تباين أو تفاوت في القوى.

لقد عُمر معسكر الجحود في «الحيف» تماماً بالماء، وعُطِّي عرضُ الوادي بأسره بدقي صريع من الماء وبلا توقف في أي مكان. مرور «بحديده» بعد ثلاث ساعات ونصف، ثم «دار الحمراء» حيث قام السكان بإقامة عدة مزارع جديدة منذ أن مررت من هنا في شهر كانون الثاني/يناير. وكانت الأمطار بشيراً أكيداً بسنة مشمرة ووفرة؛ وكانت «المسئلة» التي تُطرح دائماً وتكراراً على أدلائنا من الناس المازين على الطريق، تدور حول ما إذا كانت منطقة ما أو أخرى في البلاد الشمالية مشبعة جيداً بالأمطار وبعنا الظهرة في سبع ساعات.

وقد انفصلت عنا هذه المجموعة التي كانت توافقنا والانية من مكة، لأنها كانت قد أُجرت جمالها إلى هذا الحد فقط، وكانت عارمة على أحد أحبار من هنا إلى مكة. وتبع أولئك الذين بقينهم إلى هذا الحد مجموعتنا إلى ينبع. إن تلك الجمال التي تُستخدم في النقل والتحميل بين الساحل و«المدينة» كلها ملك لقيبه حرب.

بقينا هنا بصبح دقائق فقط في منتصف الليل، في الظهرة لاجساء القهوة في أحد المتاجر، ثم تابعا طريقنا إلى العرب من الطريق التي وصفتُ منها إلى الظهرة عند مجيئي من مكة وتشكل مزارع السحيل الكثيفة خطاً متواصلاً على حاسبي الوادي الضيق الذي هبصا فيه ببطء. بعد مرور تسع ساعات ونصف، مررنا بقرية تُدعى «الواسط» وقد بُنيت بين بساتين السحيل وفيها حدائق ممتدة من أشجار لماكهة في بحومها. وكنا عند كل خطوة نجد امية في آبار أو يابيع وحديث سك القرية بقليل، عادر الوادي إلى اليمن، وبعنا طريقنا صعوداً إلى جبل شديد الانحدار، لأن هذه الطريق أقرب من تلك التي تمر عبر الوادي وكانت الطريق على الجبل صخرية ومحدرة، وقد أرعبنا أدلأنا على امشي، ووجدت صعوبة في استجماع ما يكفي من القوة لبلوغ القمة من هناك، هبطنا عبر منحدر قن قسوة. وبعد مسيرة استمرت اثنتي عشرة ساعة، رجعنا مرة ثانية إلى الطريق الوافعة في الوادي قرب قرية صجيرة تُدعى «جديدة» ويأخذ الوادي الذي عادرنا إلى يمينا استدارة غير مباشرة، وهو بصم عدة قرى أخرى، سمعتُ بعضاً منها تُذكر وهي الثانية: «الحسيه» قرب «الواسط»؛ ثم إلى الأسفل هناك «فار» و«بركة» في تحوم «جديدة» تحت «الواسط»، يصبح الوادي كأنه يحصر وادي «بئر»، وهو قها يحصر الظهرة. وفي «جديدة» القليل القليل من أشجار النخيل والحقول، وهي تقع على سهل يمر السيل عبره بعد أن يروي المزارع العلب من الوادي وابعنا السير على هذا لسهل لساعة واحدة باتجاه الجنوب والعرب بدرجة ٥٠. وبعد السير لمدة ثلاث عشرة ساعة، دخلنا سلسلة جبال تمتد غرباً، هي نفسها التي ذكرتها في رحلتي إلى «المدينة»، وتفرع عربي السلسلة الكبيرة قرب شر الشيخ. تقع طريقنا في وادي رملي عريض فيه تجمعات صغيرة، وقد أوصتنا بعد مسيرة مُصيبة استمرت أربع عشرة ساعة ونصف إلى «بئر».

في الخامس والعشرين من شهر نيسان/أبريل بَنَ بَذْرًا، أو كما تُدعى أيضاً، «بدر حُيَّي»، بلدة صغيرة، بُنيت مبارها بالحجر والطين، ونها مطهر، أفصل من تلك التي في انظفرة، رعم أنها أقلّ عدداً يحيط بها جدارٌ بئس فقير من لطين وقد تدعى في أماكن عدة. وتنفقُ ساقية عريضة عبر المدينة وترتفع في سلسلة الجبل التي بجوارها ستو، وقد جُزّت في قناة حجرية، وتروي بساتين واسعة من السحب، وحدائق وحقول في الجهة الجنوبية الغربية من المكان، وعلى الرغم من بُعدها عن مبعها، فهي لا تزال ماثرة بعض الشيء ويقول الأعمش، مؤرخ مكة، إن العوري، سلطان مصر، بنى حُرّاً حيداً في بذر لقواهل الحح، لكنني سمعته، زجهر ما بد كان موجوداً إلى الآن.

تقع بَذْر في سهل تحده من الشمال وشرق جبال شامقة، وبلاد صحريّة من الجنوب، ومن العرب تلال من الرمال المحركة، وتجعل منها عادة قوافل حجاج محطة وقد وجدنا لمكان الذي كانوا يحتمون فيه بالقرب من بوابة المدينة، منذ أربعة أشهر حدث، وكان لا يربو مليشاً يحجب الجمال والثياب البالية وبقياد أدوات مكسورة، إلح وبشر مشهورة في التاريخ العربي بسبب المعركة التي حاصها محمد هنا في السنة ثمانية للهجرة مع قوة متعوفة من عرب قريش أتت بمساعدة قافلة عتيبة كان يُنتظر مجيئها من سوريا، كان محمد يروي مهاجتها في هذا المكان. وعلى الرغم من مرضي الشديد، فقد خرجت مع حجاج من مسقط نعايه ساحة المعركة التي أرشدنا إليها رجل من بَذْر. إلى جنوب من المدينة، على مسافة نحو ميل واحد، تقع على سفح لتلال قبور أتباع النبي وأصحابه الثلاثة عشر الذين نقوا مصرعهم بحاحه. وهي مجرود كوميات من التراب يحيط بها صفٌّ من الحجارة غير المثبتة، وتقع كلها بالقرب من بعضها بعضاً وكما شرح لنا دليلنا، فإن قريش كانت متمركزة على ثلة حلف «قبور»، بينما قسم محمد قوته الصغيرة إلى قسمين، وتقدم بنفسه في السهل مع قسم منها مواجهة العدو، وعهد بالقسم الثاني إلى عتيبة بن أبي طالب بعد أن تلقى الأوامر بالتمركز على الثلة الرملية في الجهة الغربية ولم تكن المعركة لتحرر النصر دون التدخل السمووي؛ فقد أرسل ثلاثة آلاف من الملائكة وجبرائيل على رؤسهم لمساعدة محمد. وتم قتل الثلاثة عشر المذكورين أعلاه في الهجوم الأقرب. فقام النبي، بعد أن حُيِّر، بالاحتباء وراء صحرة كبيرة اشقت بأعجوبة لتسمح له بدحولها ومكنته من بلوع موقع القسم الثاني من قوته^(١)؛ ثم شن بعدها هجوماً ثانياً أحرر فيه بصرأ بمساعدة القوات السمووية، دون أن يحسر رجلاً واحداً بالرغم من أن سبعين من خصومه قد قُتلوا في

(١) لا يؤمن بأنفسه مؤلف في نقل الأحداث أو روايتها؛ لأنه لا يعتمد على مصدر موثوق به.

المكان فإن حفنة من الحجارة أو الغبار الندي رماها (أو حسب القرآن، رماها الله) باتجاه أعدائه، أدت إلى جعلهم يتلاشون. وبعد أن اقتحم موقعهم، ارتاح قليلاً على حجر اتخذ على انور شكل مقعد بعد أن أثر به هذا الشرف الكبير. ويتم عرص الصخرة والحجر وهما يخدمان في كل الظروف هدف واحد وهو إثارة رافة الزائر تجاه القراء في نذر، اندى يحتشدون فيها كلما وصلت قافلة ما.

إن موقع فرقة علي على التلة العيدة، وذلك الخاص بفريق محقق بالغرب من العدو، والسهل خلف تلك التلة، حيث تابعت القاعة القديمة من سور، طريقها خلال الحركة، تفسر المقطع الوارد في القرآن والذي يلحح إليها: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينِ وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَالزَّكَاةِ أَنْفَلَكُمْ مِنْكُمْ﴾ (سورة ٨، ٤٢) غير أنني لم أتمكن من فهم هذا المقطع جيداً، حسب التفسير العادي له. بل وأعتقد أن كلمة «زكبا» التي تعني ها قافلة، نفهم منها فرقة الحيلة التي كانت بقيادة علي، وكان موقعها محصياً، بالرغم من وجودها على تلة، حسب منطقة نذر، حيث تنحصر الأرض قليلاً. فقد دمر الوهابيون القصب الصغيرة العديدة التي شُيِّدت هنا. وبالعودة إلى القرية، مشيناً، عند طرفها الجنوبي، إلى داخل المسجد الذي يُدعى مسجد «العصمة»، وقد بُني على البقعة التي جلس عليها محمد ذات مرة تحت أشعة الشمس ودعا الله لتمر غيمة وتظله؛ وقد استجيب طلبه على الفور؛ وأحد المسجد اسمه من العيمة. وهو مسجد ثقتن الساء وفسيح أكثر مما يمكن توقعه في مثل هذا المكان الفقير.

تترؤد سون نذر بالسلم نفسها التي في الظهرة، وقد عُرض لبيع فيها البصيح الأحمر الذي تنسجه الحدائق. واشترى تاجر مسقط دون أن أدري خمسة باوندات من يلسم مكة كان يوي إهداءه لإمام مسقط. وكان هذا البسمل معشوشاً تماماً كذلك الذي في الظفرة وبالطريقة نفسها.

إن سكان نذرهم بدو بشكل أساسي، من قبيلة «صبيح» التي تنتمي إلى قبيلة حرب، وقد أصبح بعضهم مستوطنين هنا. وبملك الآخرون ها تاجر لبس إلا، فيعودون كل مساء إلى خيم عائلاتهم في الجبال المجاورة. ويكثر الطلب على المارل في نذر التي يربدها البدو والمسافرون كثيراً؛ ويبلغ إيجاد متجر صغير في السوق عشرين دولاراً في السنة كما نجد هنا بعض عائلات الأشراف التي استقرت هنا والتي تدفع لها قوافل الحج عند مروره رواتب ضخمة.

في المساء أتت عدة مئات من جمال البدو ليرنوي عند الساقية، ثرافتها النساء بشكل أساسي اللاتي تعادثن معنا بحربة. ويعطي بو حرب، المستوطنون في الجديدة والظفرة ونذر، بناتهم للزواج بغرباء ومن مستوطنين حتى. وقد استقر ها بعض الجنود الأتراك الذين جديهم

حملا، بعض البدويات اللاتي ترؤسوا بهن بل إن أحدهم، وكان يدعى الأرنب ووط كان يسي
البحاق بزوجته امتية إلى الجبل، وكان ينقش اللعة لعريته جباً وقد اعتاد مد صغره على حياه
الحياتين المحريرين البرية. هناك أعدت هائلة من السور (Rakham) في جبال المحورة، فكان ثبات
مها تخوم حولها باستمرار، وفهم بعضها بالانقصاص فعلاً إلى أسهل وحقل النجم من ضباقتا
في السادس والعشرين من شهر نيسان أبريل بعد يوم كنه أمس وهام البعض من
أهل بئر بحر سه فاعتك في الليل، وتفقو ذلك لإطراء بسيطاً يعطج هذا مكان بالنصوص، وبحر
كنا نحتج حرج بوابة لمدينة وعادونا بئر في المساء وأحدث لاتجاه شمالي لعريته بدرجة ٤٥
وبعد متابعة السير لثلاثة أرباع ساعة، وصلا إلى مسند لثلاث الرمسة المذكورة أعلاه، وتُدعى
أعلى قمة فيها «فور عني» نحدد لذكر المركز الذي شعله عني هناك خلال معركة بئر وقطعه
هذه للال بصعوبة في نصف ساعة لأن الرمال عميقة جداً، ثم رلنا إلى السهل العربي الكبير
الذي يمتد حتى البحر، والذي يسعه من بئر بعد ليلة واحدة من شير عدي مياه صغير إلى
الجوب من شيع ويدعى «بريكه» وتزناده تسير كثيراً ونمو الجبثات بكثافة في السهل الذي
دحسه في الاتجاه العربي الشمالي بدرجة ١ وهي أشد سيرا لبالاً، رأينا السرب التي أوقدت في
محيطات محبسه للبدو والتمتع بحاجز الحين نظيفا من سبع بعسهما وكان في حاحه مائه
إلى ماء، فندم لهما النجم والشرب ورؤسناهما إلى محضات البدو. بعد هؤلاء مسافرون
المعالمون طريقهم عبر صحاري من غير الاستعانة بأي بوصلة، فيستأول على أحده طريق
بعد الاطلاق ثم يتبعون في خط مستقيم لبالاً وبهراً إلى أن يصلوا إلى المكان المقصود وبعد
عشر ساعات من انطلاقا من بئر، حتم عند بزوع الفجر في حر من السهل نمت فيه شجار
الأقافيا المنخفضة وتُدعى «عصيه».

في السابع والعشرين من شهر نيسان أبريل لقد ألتفت نفسي هذا الصباح في حده من
الاكتئاب المطع والفقر العيب والتعوق الحرير حملا من ليلة الماصة إحدى سنوا الديني التي
أمصيتها في رحلاتي كما أن شجاراً وقع مع ديب حول أمواله قد ساهم في زيادة حدة الحقي
اليوم، وربما ساهم في ذلك الارتقاء في لأعصاب لدي كنت أعني منه مؤحراً جزءا من
الذي كتم بي. وتمتد مسنة من جبال الشفقة باتجاه البحر على مسافة ست ساعات إلى يمينا
باتجاه الشمال وعلى مسافة أقرب من نحد الاتجاه بعس سلسلة أخرى من الجبال لأقل
ارتفاعاً كما كان السهل ندي حيث عليه رمياً نعطيه الحصى، فاستبقا بعد بصر، وبعد مرور
أربع ساعات ونصف من السير في الاتجاه الشمالي والشمالي العربي، تعبنا لأشجار وحيات
عن رؤية، فلا تشير إلى اقتراب البحر سوى بضع شجيرات مألوفة وإلى الأمام لبالاً، تصح
الأرض معطاة بقشرة من الملح، في حين شررت الهواء نجرة البحر وبعد مرور سبع ساعات

ونصف، وجدا مجدداً بعض الأشجار في السهل وقد انتشرت عليها بقع من قشرة ماحة. وعند مرور أربع عشرة ساعة، رأينا يسبح عند شروق الشمس، بعد السفر طوال الليل على رص غير صالحة. وبها بؤة المدينة بعد خمس عشرة ساعة ونصف، وكنا نسير بخطى بطيئة. وقبل بؤة المدينة مباشرة، احترنا حوراً صغيراً في انبساط حيث كانت انبساط محفصة نكتها تمتد إلى مسافة كبيرة في مد داخل اليابسة

ينبع

بعد لاقيتُ بعض الصعوبة في إيجاد عربية في أحد حانات لمدينة نبي كاس ملأى بالجنود الذين حصلوا على إذن بالعودة إلى القاهرة بعد آخر حملة بهم على الوهابيين الجيوش، وقد أتوا إلى هنا من جدة، مكة، وكان هناك فصلاً عنهم، لعدد من الحجاج الذين عفدوا البية على الإبحار إلى السويس أو القصير، بعد عودتهم من «المدينة» من بين هؤلاء، كانت امرأة محمد عبي باشا التي كانت قد وصلت من «المدينة» وكان هناك أربع سنن تتحضر بقول حاشيتها ومرافقها وأمتعتها وبعد أن أودعت أمتعتي في غرفة مبهجة عبي سطح أحد الحانات، مشيت نحو ميناء، لأستمع عن السفر إلى مصر، وسرعت ما علمت أن ذلك كان أمراً مستحيلاً في الوقت الحاضر فقد أعصبت أو مر صرامة نبع أي كان من الإبحار، لأن الجنود الذين كانوا قد حجزوا ثلاث أو أربع سنن جاهرة بالانطلاق؛ وكان مهم من يهوق الألف وحسمها، عن فيهم لعدد من الحجاج لأنراك الذين ضرهم جنود لأنهم يحملون السلاح وقد ارتدوا ثياباً مماثلة لثيابهم، لا يرالون ينتظرون وسيلة تؤس نقمهم.

بما كنتُ جالساً في مقهى قرب ميناء، مرّت ثلاث حداد على فترات قصيرة ومتلاحقة، وعند التعبير عن دهشتي أمام هذا الأمر، علمت أن العديد من الناس قد ثوروا خلال تلك الأيام القليلة التي نشرت فيها الحتى، وقد سمعت، حين كنتُ في بذر، أن حتى حبيثة كانت سائدة في ينبع، تكفي سم أعر الخمر اهتماماً كبيراً. ثم أيت عدة حداد أخرى فيما نقي من النجا، إلا أنه سم نكر لدي أدنى فكرة عن اسبب الذي يكمن وراء ذلك العند كبير من الوفيات إلى أن جاء الليل وصعدت إلى عرقي التي كانت تُشرف على جزء كبير من المدينة، وسمعت حبيها أصواتاً لا تُعد ولا تُحصى تتعالى في كل اتجاه في صراخ يقطر القلب، وهو صراخ يرافق النفس الأخير الذي يتنقظ به صديق أو قريب، في أنحاء الشرق كلها. في

تلك النحضة، راودتني الفكرة باحتمال وجود الطاعون. وحاولت عبثاً طرد محارفي، أو عني الأقل إحصاءها عبر اليوم. لكن الصراح المروع أبقاني مستيقظاً طوال الليل. وعندما برئت في الصباح الباكر إلى الحان، حيث كان العديد من العرب يشربون قهونهم، عثرت لهم عن محارفي؛ لكنني ما لبثت أن تلعظت بكلمة طاعون حتى أرسوا في طيبي يسألوني عما إذا كنت أحسن أن الله قام ببدنك انصر وإلى الأبد من الأراضي المقدسة في احجار؟ إن سطقاً كهذا لا يقبل الجدال أو اجواب من مسلمين، لذلك فقد خرجت بحثاً عن بعض المسيحيين اليونانيين الذين رأيتهم في الشارع في اليوم السابق، وحصلت منهم عني تأكيد لمخاوفي.

فقد انتشر الطاعون منذ عشرة أيام، وقد كان لعدة أشهر يفتك في القاهرة بحدّة شديدة، وقد ماتت نسبة كبيرة من السكان في السويس. ونقلت، من ذلك المرء، سفيتان محمّلان بالأمشة القبطية حمولتهما إلى جدّة، ومنها إلى ينس. ولم يشهد أحد من قبل الطاعون في الحجار، أو على الأقل، ليس ما يمكن أن تسرجعه ذاكرة الإنسان. وكان من الصعب على السكان قاع أنفسهم بوقوع مثل هذا الحدث، خاصة في وقت تم فيه استرجاع المدن المقدسة من أيدي الوهابيين. ولم تكن علاقات التبادل مع مصر تمثل هذا الحجم كما هي الحال الآن، لذلك، فليس عرياً أن يتم نقل هذا الوباء إلى الحجار. وفي حين كان عشرة أو خمسة عشر شخصاً يموتون كل يوم، لم يستطع عرب المدينة التصديق بأن وباء كان هو الطاعون. بالرغم من أن مظهر لضفراء المعد على أجساد انصابين وتطور الوباء السريع الذي نادراً ما كان يستغرق أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام، كان من شأنه أن يشكّل أدلة مقنعة. وازدادت نسبة الوفيات بعد وصولي بحمسة أو ستة أيام، فكان أربعون أو خمسون شخصاً يموتون في يوم واحد. وهي، في شعب يُقدّر عدده بحمسة أو ستة آلاف، ستة فطيمة. وبدأ السكان الآن يشعرون بالذعر. وبما أنهم غير مهيبين للحصوع للخطر بصير وروية كما يفعل الأتراك في كل جزء آخر من الشرق، فقد تدفقت الأعيان الساقطة منهم إلى الطبيعة، ماتت المدينة مهجورة. لكن الوباء لحق بالمهجرين واللاحقين الذين حثّموا قرب بعضهم بعضاً، فعاد الكثير منهم بعد أن عجزوا عن إيجاد حل للمشكلة. وقد برّروا مذبذبهم بانقول: «إن الله يرسل هذا الوباء برحمته ليدعونا إليه، لكننا نعي حقارتنا ونسرك أننا نسد حديري بعنه وفصله، لذلك، نرى من الأفضل نجته وامرار منه». وهي حجة سمعتها تزدّد مراراً وتكراراً. ولو أنني كنت بصحة جيدة وأتمتع بكامل قواي، لكنت بلا شك حققت بهم إلى الصحراء، لكني شعرت بالوهن الشديد وعدم القدرة على بذل أي جهد. فصلاً عن ذلك، فقد فكرت في احتمال هروبي من الوباء بالانغلاق في غرفتي المعزلة، وبدأت أمتي العنق أكثر فأكثر بالأمال في الذهاب إلى مصر سريعاً غير أنني أصبحت بحيرة لأمل. ولعلني كنت تمكّنت من إيجاد وسيلة للإبحار على الفور غير تقديم بعض

المهدايا وقيل من الرشوة، لكن لم نسمع بجاهزة للإبحار كانت الآن مكتظة جداً ومليئة بالحدود المرسى، بحيث إن البقاء في أمسه الملوثة بالوباء كان أفضل من الرحيل في وسيلة النقل تلك وبعد بضعة أيام، علمت أن مركباً صغيراً مكشوراً وحالياً من الجسد كان جاهزاً للإبحار إلى القصير، فوفقت فوراً على الذهاب على متنه؛ لكن انطلاقه كان يؤجل من يوم إلى يوم حتى الخامس عشر من شهر أيار/ مايو، حين عذرت أخيراً بئس بعد إقامه دام ثمانية عشر يوماً وسط الطاعون

بما كانت حالتي الصحية المتدهورة والحقى الوضعية التي ربحت تحت وطأتها هي التي أثرت لي بخصمه. فصلاً عن كل رعيتي وحصي، كنت مفرصاً لمزاج عديدة لانتفاض العدوى فقد كان شارع شنع لكبير مرصوف بالمرضى ثم يارعون موت ويطلبون الصدقات وكان هناك عربي يعض أنفاسه لأخيره في فناء الحزن حيث كنت أقسم كما أن سيد الحزن فقد أحتأ به واه من عائلته، وروى لي حين جلس على سحادي، كيف مات منه في البينة لعائته بين درعيه. وقد عارضت قلّة حرص لدى حادمي كل الإحراجات لي اتحدتها بدافع الحبطة؛ بعد أن افتقدته لعدة أيام في صباح سكر، استعصمت عن سب عيانه، وأخبرني أنه ذهب لتفديم يد العون في غسل جثث الموتى. وبقراء الذين ماتوا خلال الليل، قد غرصبوا في الصباح الباكر على العروش، على شاطئ البحر بعية عسيهم من الصلاة على أجسادهم في المسجد واعتقد حادمي أن الأشرار في هذه المهنة هو عمل ثقت كان يقوم به عدة ربح محتاج صدف وحوادثهم لي ينسج وعترت به عن رعيتي في بقائه في سر من الآر فصعداً في تلك الساعة، ليقوم بتحصير عطور بي؛ غير أنني عجزت عن معه من الخروج في أوقات أخرى كما كنت أستطيع الاستعناء عن ذلك لو أحب؛ فادراً ما يستطيع أخذ المرور في السوق من غير أن يمس ناساً مصابين بالمرض أو عبي الأفل، أولئك يدين كانوا على اتصال مباشر معهم.

بالإحساس بالخطر الذي كان يهددي حبيبه هو أكبر بكثير مما كنت أشعر به في ذلك الوقت، الآن وقد ألفت نفسي بعداً عنه لقد يت معتاداً بعد الأيام الأربعة أو الخمسة الأولى، على فكرة الصدعون بشكل مرسوم، وفمت عقاراً لأعداد الضئيلة لذين ماتوا كل يوم بمحموع السكان لتتقير إن وجود حالات عديدة من أشخاص بقوا في صحة جيدة على الرغم من اتصانهم مباشر بالأموات، رشت إلى حد بعيد انصاهيم القائلة بانتقال مرض بالعدوى كما أن للأمثال تأثير كبيراً على الدهن، بحيث إنني حين رأيت عدة الأجانب الذين كانوا حسها في المدينة غير أكثرين بالمرض إطلاقاً وغير أنهيين له، بدأت بالشعور بالخص من نفسي بعدم متلاكي انقدر نفسه من الشجاعة التي كانوا يُدوونها. لكن لما كان يبدو أن الوباء من النوع الأشد حشاً إذ إن القليل جداً من المصابين تمكرو من البقاء منه، كما سادت الخلة

نفسها في حدة. ولم يكن العرب يستعملون أي نوع من الأدوية، فسمعت عن أناس استخدموا حمامة، وعن آخرين عولجوا غير وصع لرفع ساحة على عنقهم، غير أن هذه الحالات طلب ندرة، ولم يقم الناس كنهم باعتمادها وتقيدها. وكما هي العادة، يُدفن الميت بعد بضع ساعات من الوفاة؛ وقد حثرت حادثتان خلال إقامتي في يشع حين تم دفن شخصين وهما بعد على قيد الحياة، بعد أن ظنهما ميّتين، بسبب العيوبة التي وقعها عليهما حين اشتد المرض عليهما، والتي اعتبرت موتاً. وقد أعطى أحدهما إشارات تدل على أنه لا يزال حياً، وذلك في لحظة لني كانوا يصمونه فيها في قبر، فتم إنقاذه. أما جسد الآخر، فقد وجد ويدا تعطيهما اسماء وكذلك وجهه وقد مُرّق للكفر تماماً من حذاء الجهود والمحاولات غير مجدبة التي بذلها في محاولته سهو، وذلك حين تم فتح قبره بعد عدة أيام من دفن لوضع حثة قريب له. وعند رؤية ذلك، قال الناس إن الشيطان قام بتشويه جسده بعد أن عجز عن إبداء روحه.

لقد أولى حاكم يشع عناية وحرصاً كبيرين لإحصاء معدن الوفيات الصحيح في المدينة. نكرت هياكل لا إله إلا الله الدينية، التي تشير إلى حجارة أحد المسلمين، كانت تنهاى إلى الأدن من كل حي وجهه في المدينة وقد أحصيت بها بمسح اثنين وأربعين في يوم واحد. ويصيح الطاعون بالسبة إلى الفقير عيداً حقيقياً؛ حيث إن كل عائلة تدبج حروفاً عند وفاة أي واحد من أفرادها، إذا ما كانت قدره على تحمّل العقاب، وتقوم في اليوم التالي باستضافة النساء والرجال في الجوار كله في مربيها. فتدخل النساء إلى الشفق وتعاقد كل ساء العائلة وتؤاسيهن، فيعرضن أنفسهن للعدوى في كل لحظة. ويجب أن نمر الانتشار لسريع للطاعون في المدن الإسلامية إلى هذه العادة المتبعة أكثر من أي سبب آخر؛ فما إن يصرب الطاعون عائلة ما حتى ينتقل بضعاج إلى الجوار كله.

إنه لمعتقد شائع بين الأوروبيين، وحتى بين مسيحيي الشرق، أن الدين الإسلامي يجمع أو يحرم أي إجراءات وقائية ضد الطاعون؛ نكر ذلك أمر خاطئ. إن ذلك الدين يجمع أتباعه من نجس لمرض إذا ما دخل مدينة أو بلد، لكنه يحذرهم في الوقت نفسه من الدخول إلى أي مكان ينشر فيه الطاعون وهو يجمع الأمراء، على وفق ذلك، من الانعلاف في المنزل والانعطاف عن التوصل مع باقي المدينة المصابة، لأن ذلك يكون كانهروب من الطاعون. غير أنه يرحب بإجراءات الحجر الصحي لتعادي انتقال انوباء أو نقله لعرض حين وصولهم^(١) بيد أن الاعتقاد

(١) من حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «إذا وقع الطاعون بأرض فلا يدخوها وإذا كان بأرض وأنت فيها فلا تخرجوا فراراً منه»، أو بما معناه وهذا هو الحجر الصحي الذي تلجأ إليها الدول الآن

بالقضاء والقدر متجدد بعنق وشموية في أدهان الشعوب الشرقية، بحيث لا تتحد أي إجراءات وهائية في أي مكان. كما أن الحالات التي لا تخص عن المرض الذي لا ينتقل إلى أولئك الذين قاموا بالتصديق المباشر معه تؤكد لهم، في رأيهم، أنه ليس وبائياً فضلاً عن ذلك، فقد أعس لهم بيهم «أن الطاعون شبه هجوم شيطان العدائي على البشر»^(١)، وأن الذين يموتون بسببه هم شهداء. إن الرأي العام السائد بين المسلمين هو أن ملاكاً للموت حقاً ومسلحاً برمح يلسس به أصحاب الدين يقدرون لهم الطاعون، وأنه قادر على العثور عليهم حتى في الخبأ السري. وهناك، في أحد شوارع صنع، جدع لشجرة محل تمدد على الطريق، لوحظ أن العديد من الناس الذين مروا فوقه ما لبثوا أن أصبحوا بالطاعون؛ لذلك ساد الظن بأن الشيطان قد اتخذ هناك موقعه المفضل للإصابة بالمرضى. لذلك، عمد العرب إلى اتباع طريق فرعية غير مباشرة لتجنب عدوهم على الرغم من اقتناعهم بأنه رقيق حفيف الحركة وقادر على التقاطهم أي دهبوا!!

إن بحاة مسيحيين والأجانب من العرب عبر انغلاقيهم في المار، لا تقدم إلا دليلاً ضعيفاً على العكس فقلة الحجر والقصة والاعتماد المتأخر لهدد الإجراءات، كل ذلك يؤدي دائماً إلى نسبة صئيلة من الوفيات حتى يسهم هم. وتقدم مثل تلك الحالات بعد ذلك دليلاً على العباء في القيام بمحاولة لمعرضة حكم الخالق فضلاً عن ذلك، فهناك العديد من المسيحيين في الشرق الذين يتبعون المبادئ التركية وقد انطعت في دهبهم بعامهم بسبب عن انقضاء والقدر، فيعتبرون أن اتحاد أي خطوات لتأمين سلامهم هو أمر غير ضروري وبسخر الأتراك من العديد من الواحات المعرضة في دهبهم، بحيث إنه يس من الصعب مثلاً جعلهم يتبنون آراء منطقية، بل أكثر من ذلك، ي أن القرآن لا يذكر شيئاً عن هذا الموضوع، فإن يأ من الإجراءات الخاصة لا يمكن اتحدها وتطبيقها بصرامة طال أن كل فرد تقريباً مفتق في دهنه بشخبها وعدم فعاليتها. ولو لم تكن هذه الحالة عامة وشاملة، لكان الأتراك وحدوا مد رمر بعيد الوسائل لاستعمال الأدوات الوقائية بدل عقائدهم الدينية، كما فعل العرب الآن في الحجر، ولكان علماءهم رؤودهم بالفتاوى والشواهد من الشريعة لتعريف ما كان مطلقهم السليم قد فاذهم لتبنيه وفي الحديث، أو الأعراف المقدسة، سجن قول لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وهو: «ممن من المجدوم فرارك من الأسد».

تختلف الحالة بالسبب إلى وسائل الوقاية من انتقال الطاعون، أو إلى اعتماد الحجر الصحي

(١) من أين يأتي المؤلف بهذه الأقوال

هذا إجراء يرتبط كلياً بالحكومة. وقد تبنى هذا النظام المسلمون الأكثر عضياً والسنة من بلاد
العرب؛ وتقرر قوانين الحجر الصحي بشكل صارم في موائلهم، كما هي الحال في المراهي
الأوروبية على الشواطئ الشمالية لبحر المتوسط. وإن عدم انتهاج نظام كهذا في تركيا حتى
الآن هو أمر يدعو إلى القلق، ويمكن عرؤه إلى بواحد ودواع عاقبة جداً أكثر من التعصب
الأعمى. ولم أقم بمسعي بربرة القسطنطينية ومراهي لأرحيل؛ غير أنني أعلم أنه سيكون من
السهل على محكم مصر، استئصال سلطنتهم لإدخال نظام الحجر الصحي على الساحل، من غير
الخشية من نشوء معارضة شعبية. لكن يجب أن يتم توجيه حكومات سوريا في مثل تلك
المسائل من قبل الباب العالي، وستعتمد بصعوبة إلى انتهاج نظام الحجر الصحي من غير تدخل
سلطة عدلها. غير أنه عالياً ما تصرف محمد علي بعكس أوامر الباب العالي مباشرة حتى في
المسائل التي تحتصر مصالح العاهل المائلي. وقد يعتقد أن السبب الذي معه من الاستماع إلى
اصحاب المتكثرة التي قدمها له الأصدقاء والنظر في العروض التي قدمت له في هذا الموضوع
من السلطات الأوروبية، يعود فقط إلى الخوف من إثارة استياء سيئله في الوقت نفسه، من
مبادئه الديمقراطية المتحررة معروفة جداً بحيث لا يترص أن التعصب الأعمى هو الذي يبعه من
الاصباح إلى مطالباتهم.

في حين انتشر الطاعون في مصر للسنوات الأربع المتتالية، من سنة ١٨١٢ إلى ١٨١٦، في
كل فصل ربيع منها، قام محمد علي نفسه، مع عائلته وصباطه الرئيسيين بالانغلاق في
قصورهم مع رعاية دقيقة؛ فقدموا بالتالي إثارة فصيحة أمام الشعب أكثر مما كانوا يفعلوا باتّباع
أصمة الحجر الصحي ورعاية منه في أن ينظر إليه الأوروبيون كرجل لبرالي التفكير، مُحرّج من
الأذى والإححاف، قام فعلاً بإعطاء الأوامر سنة ١٨١٣ و ١٨١٤ بإنشاء نظام الحجر الصحي
في الإسكندرية بكر الطريقة المخزية التي أدير بها هذا النظام أثبتت وبوضوح عدم صدقه في
حماية شعبه من قصائع الإصابة بالمرض وسرعان ما وضعت هذه الخطه كلها جانباً بعد ذلك.
إن تحقيقاتي الشخصية، وآراء العديد من الأثراك أنفسهم، الذين يستطيعون الحكم على
إجراءات حكومتهم أفضل مما نوثقه عامة، جعلتني أعتقد أن الصدر الأعظم والباشا يتركان
الطاعون في أراضهم لأن الرغبات العديدة تملأ محفظاتهم. وما لا يقبل الجدال، أعتقد أن ذلك
هو السبب الخفي فيما يتعلق بمصر. فمدن القاهرة والإسكندرية ودمياط التجارية مكتظة بالتحار
الأجانب وعرباء آخرين من كل أنحاء الشرق الذين استوطنوا هناك. وحسب القانون، سم
بمصلحة بأملاك لأشخاص لتوفيق كنهم الذين لا ورث لهم، وتوضع في بيت المال، وهي
حرية، كانت سابقاً تهدف إلى مساعدة الشعب لكنها أصبحت الآن كلها في تصرف الحكام
ويؤدّي معدّل الوفيات المرتفع بالتالي إلى تدفق مبالغ طائلة إلى أيديهم. وعلى محتر كل حي

للاستجابة إلى لذاء الإنسانية فيعيد بالتالي مصر وسوريا والامتكات الإنكليزية في منطقة اسحر المتوسط

لقد كانت هجمات الطاعون في جدّه أكثر بعثاً على الأسى وأشدّ بؤساً منها في يَنبع. فقد بلغ عدد المتوفّين هناك يوماً مائتين وخمسين شخصاً. وتدفق عدد كبير من السكّان إلى مكّة طناً منهم أنّهم سيكفون في أمان في ذلك الحرم المقدّس. لكنّهم حموا المرحى معهم ومات عدد من المتكيين لكنّ يستهم كانت أقلّ منها في جدّه حتى أنّ القاصي في جدّه، وهو عربيّ، قد لاد بالمرار إلى مكّة مع كلّ عثمائه. لكنّ حسن باشا الذي كان آنذاك حاكماً للمدينة المقدّسة، أمره بالعودة إلى مركزه فوراً تحت طائلة الإعدام؛ لكنه مات على الطريق وكان شارع السوق الرئيسيّ في جدّه مهجوراً تماماً. وقد دُمّرت أعداد كبيرة من العائلات وأيدت بالكامل بما أن العديد من التجار لأحاب كانوا في جدّه نذاك، فقد رادت أملاكهم في نروة محقّد علي بشكل كبير. رسمت من شهود عيان أنّ العمل لوحيد الذي كان يتمّ في المدينة هو نقل الجثث إلى المقبرة، ونقل أملاك المتوفّي القِيمة إلى مرن الأمر وظلّت المدينة نظيفة وحالية من الصاعون كما كانت الأراضي مكشوفة بين يَنبع وحدّة.

سأذكر هه عادة مميزة عند العرب خاصةً فعندما بلغ الطاعون أشدّه في يَنبع، قام العرب بحرّ ناقة في موكب عبر المدينة وقد عطيّت تماماً بكلّ أنواع التربة والريش والأحراس، إلخ. وعندما بلغوا المقبرة بحروها ورموا بلحمها إلى السور والكلاب فقد أبلوا في أن يُسرّع الطاعون انتشار في المدينة ويأوي إلى جسد اجمل، وفي أنّهم، عبر بحر المضحية، ستخلصون من الوباء على الفور وقد سَجَر العديد من العرب لعاقليين من ذلك، غير أنّ هه الأمر كان نادياً نوعاً ما إذ إنه ألهم الطلقات الدنيا الشجاعة.

لقد بُنيت مدينة يَنبع على الجهة الشمالية لخليج عميق يؤمّن مكاناً ملائماً لرسو السفن، وتحميه من الرياح العنيفة جزيرة رافعة على مدخله ورسو السفن قريباً على لشاطئه، والمرأ مسيح مما يكفي لاحتواء أكبر أسطول. والمدينة مقشمة إلى قسمين بحور صغير ويُدعى القسم الأكبر «يَنبع» بشكل حصريّ، ويحده البحر، على الجهة الغربية، سم «نقعة»، ويسكه الملاّحون بشكل أساسيّ. ويواجه القسمان البحر، وقد أحاط بهما في الجهات الأخرى جدار مشترك مبنّى جداً، ثمّ بناؤه بإتقان أكبر من ذلك الذي في جدّه والعائف والمدينة، وتحميه بروخ عديدة. لقد تمّ تشييده بحهد السكّان وعمهم لمؤنّد ليشكل حماية من لوهيتين إذ إنّ جدار القديم كان مهتماً وبحيط بحريّ واحد فقط من المدينة. وبصمّ الجدار الجديد منطقة تلح تقريباً ضعف المساحة التي شغلها الماطن السكّية، ويبقى يسه وبين تلك الأخيرة مربعات كبيرة

مكتشفة، بنيت استعمالها كمقبر أو كأمكنة لتحجيم القوافل أو لتدريب الجنود، أو تُترك أرضاً مهجورة. ويتطلب مداد الحائط ومساحته مرفة كبيرة من الجيد لحماية عدد النقطة كلها؛ والأشخاص المستحون في يسع كلهم غير مأمسين لذلك. لا أن مهندسين مشرقين يقدرون دائماً قوة حصص من الحصون عبر حجمه؛ ومن إجهة النظر نفسها، ثم مؤخرًا بناء جدار سميت وحديق عميق على طول صوحي مدينة الإسكندرية القديمة، مما يتطلب على الأقل خمسة وعشرين ألفاً من الرجال لحمايته.

يتبع بوتا باتجاه شرق وشمال، باب «المدينة» وباب «الضري». وقد بُنيت مدرج المدينة بشكل أسوأ منه في أي مدينة أخرى في الحجر فُشَّه حشوة عيطه بحيث إن الغليل من الحجارة التي استعملت في بنائها قد صُقل سطحها والحجر كسبي مليء بالثقوب ودو لو أبصر ناصع ثم يحمر من منظر المدينة أمراً مرعياً للظر. ولأغلب المدارس طابق أرضي فقط وليس هناك أي صرح كبير في مكان باستثناء ثلاثة أو أربعة مساجد سيئة البناء وبضعه حانات عامة شبه مهتمة ومرب الخاكم على شاطئ البحر (وهو كذلك سيء ساء).

إن يتبع مدينة عربية كاملة، فالغليل من الأحاط قد ستوطن هذا ومن لهود يدين لهم مستعمرات عديدة في مكة و«المدينة»، نجد فقط شخصين أو ثلاثة، وهم أصحاب ساحر؛ إذ إن لنحار كنهم من العرب باستثناء بعض الأتراك الذين يقيمون هنا أحياناً بشكل مؤقت. ويسمي معظم السكان إلى قبيلة «الجهينة» بدوية في هذا الحوار (الذي يمتد شمالاً على طول شاطئ البحر)، وقد أصبح العديد منهم مستوطنين؛ واحتفظت بهم عدة عائلات من الشرفاء الذين هم أصلاً من مكة. ولا يزال المستوطنون في هذه المدينة، أو كما يُدعون البسماويين، يعيشون ويتربون كاندو وهم يعتمرون «الكهنة»، أو أسديل الخريزي، يربطونها على أحسادهم بحرم جلدي إن ماكنهم وطريقة عيشهم كنها كماكل وطريقة عيش البدو، كذلك سوكهم وعاداتهم ولكل من الفروع المختلفة لقبيلة «الجهينة» المستقرة هنا، شيخها. وهم يتعاركون مع بعضهم بعضاً كما يفعلون في كان يقيمون في الضبعة، فتعول القويين نفسها في عدائيتهم وثأرهم الدموي كالبندو.

إن المهنة الأساسية لأهل يسع هي التجارة وملاحة وتمتد المدينة نحو أربعين أو خمسين سفينة مرتبطة بصروع تجارة البحر الأحمر كلها، ويفودها ساء المدينة أو العبيد وتكثر باستمرار الرحلات بين يسع ومصر وقد استقر العديد من أهل يسع في السويس والقصور، وبعضهم استقر في القاهرة وقد في شمال مصر حيث يتاحرون مع بلدتهم الأصليين وتتاحر تحرون مع بدو الحجار وعلى شواطئ البحر الأحمر حتى «مؤنبح»، ويتبادلون في محيبتهم للمؤن التي تأتي

إلى يسع من مصر، لقاء الداشية والريدة والعسل، ثم يبيعونها محدداً عند عودتهم إلى المدينة وبربح كبير.

إن أهل يسع هم أقلّ تحضرًا من أهل حده أو مكة، ويتسم سلوكهم بالفظاظة والوحشية أحياناً. لكن، من جهة أخرى، فإن تصرفاتهم أكثر تنظيمًا كما أنهم أقلّ انجرافاً في الرذائل من الآخرين، وهم يتمتعون عامةً، في أنحاء الحجاز كلها، بكل الميراث التي يضيفها الاسم المحترم. وعنى الرعم من عدم وجود أفراد واسعٍ الثراء في المدينة، إلا أن الجميع يتمتعون بوفرة وبسر أكثر مما يتوقع حتى من في مكة. فالعائلات المحترمة كلها في يسع لها منزل ريفي في الوادي المشمر الخصب المدعو «يسع المحل» أو «فرا يسع»، أو «يسع البر»، الذي يقع على مسافة ست أو سبع ساعات من هنا، على سفح الجبال في الاتجاه الشمالي الشرقي وهو يشبه الأودية في جديدة^(١) والظفرة، حيث تنمو أشجار السحيل وتزرع الحبوب، وهو يمتد مسيرة سبع ساعات طولاً ويحتوي على ما يفوق الأثني عشرة قرية صغيرة منتشرة على جانب الجبل. إن القرية الأساسية هي «سويقه»، وهي المكان الذي تقام عليه لسوق، حيث يقيم شيخ قبيلة «جُهينة» الجليل والذي يعترف به بدو هذه القبيلة وأهل يسع كذلك.

يزرع أهل «جُهينة» وادي يسع دون غيرهم، وهم إما مستوطنون ويقفون هنا طوال السنة، وإما يُقيمون بعض المزارعين في مزارعهم يسما يطلّونهم محيئين في الجبل، فلا يُقيمون في الوادي إلا عند قطف الثمر. حيث يذهب كذلك أهل يسع كلهم الذين يملكون حدائق فيه ويقفون مدة شهر. وينتج هناك رزغ أنواع العاكة كلها التي تروّذ بها سوق يسع. وسمعت أن المارل قد بُني من الحجر وأن لها مظهر أفضل من نك التي في الجديدة. ويعتبر أهل يسع هذا الوادي كمقر إقامتهم الأصلي الذي يُشكّل به المدينة والمرح مستعمرة وتمتد قافلة الحج المصرية عبر يسع المحل حيث تذهب إلى نذر في رحلة تستمر ليلة واحدة. لذلك لا تمتد أبداً هذه القافلة من مرقا يسع بالرعم من أن العديد من الأفراد فيها، يأخذون من «المستورة» الطريق إلى يسع، عند عودتهم من مكة، وذلك للقيام ببعض المعاملات التجارية في المدينة، ثم يصتوون إلى القافلة شمال يسع على مسافة يوم واحد.

تتصالح تجار يسع بالموث بشكر رئيسي؛ ولا يجد محارن كبيرة للبصائع هنا، لكن تُعرض في لتاجر بعض السلع الهندية والمصرية من الألسة للبيع وليس ما يكو السمن تجاراً، كما هم في حدة، وبكسهم مجرد بائعين للبصائع، غير أنهم يستثمرون دائماً أرباحهم في بعض المضاربات

(١) هناك طريق صعبة تمتد من يسع المحل إلى الجديدة، وتؤدي على الجبال شمال الطريق الواسعة

التحيرية الصغيرة وتشعُّ بخارها سفل إلى «المدينة» العديد من الناس، ولتحارب هذه المدينة كلها عملاء بين عرب يبيع وفي زمن السهم، تنطبق نقابة إلى «المدينة» كل أسبوعين لكنها كتب مؤخرًا ترحل كل شهر فقط بسبب قلة الجمال وهناك أحيانًا عربات برية تسجى إلى جدة ومكة وأحيانًا إلى «سوحه» و«مؤيدج»، وهذا المختصان لنقابة المصرية على لبحر الأحمر من أهل يبع هم مهزوب بصنع جسورون؛ فلا تدخل أي سفينة بهم انرفاً من غير أن يتم إرسال حرة كبير من حمولتها على اشاطيء حنسة لتتهرب من لصرتب الكبيرة، ويذهب بهذا تعرض إلى المرفأ يلاً مجموعات من عشرين أو ثلاثين رجلاً وقد سلحو جيداً وهم يد ما تم اكتشافهم، يقاومون صياط الحمامك بالقوة عاباً.

إن صواحبي مدينة حرداء قاحلة تمام، فلا رى فيها أي شجار أو حصيرة، سواء أكل، داحن الجدران أم حارجها. وقد غصى السهم بالزمال حلف أرض الملح، بالقرب من البحر، ويعنى كذلك حتى يبع الجمال ويرى حيلاً شاهقاً إلى شمال شرقي حيث تأخذ السلسلة الكبيرة الجهد الميل أكثر إلى عرب باتجاه بدر. وأعتقد أنه جن «رضوى» الذي يذكره جغرافيون العرب أحياناً، والذي يصعبه اسمهمودي على مسافة يوم وحين من يبع وأربعة أيام من (مدينة) وعلى مائة نحو ساعة وحده شرقي المدينة، تقع مجموعة يار للميه العده، وتُدعى «عسنتة». وقد سيث رى بعض حمول لشقام أو الطيخ لأصغر) ويحيى لدو هك أحياناً وقد قامت في ذلك وقت فرقة من الحنلة الأثرات بصب الحيم قرب تلك الآبار.

في المدينة عدّة بار للمياه المالحة، لكنها تحو من الخزانات، ويتم استرؤد بالماء الصالحة للشرب من بعض الخزانات الكبيرة التي تقع على مسافة خمس دقائق سيراً من بوابة «المدينة»، حيث تجمع مياه الأمطار وقد حفرث ثقبه صغيره عبر السهول المحاورة لنحوين محرى جداول مياه الأمطار إلى هذه الخزانات. وهي مسحة ومرصوفة بصري حدة تحت الأرض، ويكفي بعضها لتزويد مدينة بأسرها بعدة أسابيع. وهي ملك لعائلات حصة باها أسلافها، وهم يبيعون المياه بأسعار معنه يحددها الحاكم الذي يأخذ كذلك من كل منهم صريئة وإياه ذات نوعيّة ممتازة وهي أفضل من أي مياه في أي مدينة أخرى في الحجاز حيث لا يجهد السكان بما يكمل إنشاء حرات بمائلة وحين تتخلل أمطار اشناء، يُعاني سكان يبع بشدة، ويُرغمون على ملء قربانهم من آبار «عسنتة» البعيدة

كانت يبع سابقاً منسقة بحكومة شريف مكة الذي قام حصاً بتقسيم محصول الصرائب مع نياشا لتركبي في جدة أما غالب، فكان يستولي عليه بالكمس لحريةته خاصة، وكان يحفظ هـ بورير، أو حاكم مع حرب من نحو حمسير أو ستين رجلاً ويبدو أنه كان يمنع

بسلطة صافية غير تلك التي تُحوّله جيي الصرائب، في حين تُرك عربُ المدينة لحكومة شيوخهم، فكانوا يتمتعون بحريّة أكبر بكثير من أهل مكّة وجنّة. ولم يكن الشريف ليستحقّ بقبيلة «جهينة» القويّة؛ وكان كلّما عصى أحدُ الرجال مر الاصطهاد في يتبع بعير عدلي، كان يُسرّع إلى أقاربه في الصحراء الذين كانوا يردّون بإخاف الأذى برجال الشريف أو قوافله، إلى أن تَنفُذ تسوية المسألة.

عندما قام سعود، الرعيم الوهابي، بمهاجمة الأحرار الشمالية من الأحجار، كانت محاولاته الأولى إصعاف قبيلتي بني «حرب» وبني «جهينة» البدويّين بما يكفل حصاعهم له، وقد ساعده على ذلك لعداؤه التي كانت بين الصليّين وبعد استسلام «جهينة»، وبعد أن دحبت إلى يسع التحل فرقة من الجود الوهابيّين، هاجم سعود يسع للمرّة الأولى سنة ١٨٠٢ مع قوّة كبيرة بقيت متمركزة أمامها لعدّه أسابيع في محاولات متكرّرة لاغتصابها ولاستيلاء عليها.

بعد انسحابه، بنى أهل يسع الجدار القويّ الجديد حول البندّة، بأمر من الشريف الذي جعلهم يتحمّلون نفقات هذا العمل كلها وبعد أن أدعى غالب نفسه نسلطة سعود المتفوّقة الذي استولى على مكّة، بقيت يسع صامدة لعدة أشهر وعندما تحضّر جيش حراّز قرويّ مهاجمتها وهرب لورير نفسه، قام حينها أهل يسع يرسل رسوب إلى سعود، فاستسلموا وبسوء عقيدته في الوقت نفسه. ولم يضع الرهايين حرفة ~~في المدينة~~ واستمر الشريف في إبقاء حاكمه هناك. لكن أتى جاة الصرائب الوهابيون، فمات السكّان الذين لم يتعرّصوا قلا لأيّ مصائب، باستثناء مركز الجمرك، يشعرون أن حكومة الرهايين تصعط عليهم بشدّة.

في حريف سنة ١٨١١ حين نفد الجيش التركي، بقيادة طومسون باشا، تمرّكه الأوّل قرب مدينة، كان أهل يسع راعيين في التحلّص من حكمه لشريف والوهابيين على حد سواء. وقد أسرع في الهرب صتاط عاب وسعود الذين كانوا امداك في المدينة؛ وبعد عرص نافه للمقاومة في اليومين الأوّيين، والذي قدّمه أمير جيش عاب الذي لم يكن معه سوى بضعة جود، رأى أن السكّان كانوا صدّ القتال تماماً، ففتحت امدسة أبوابها وتعرّصت لبعض الأصرار من الجود الأتراك غير المنظّمين منذ ذلك الوقت، كانت يسع مليئة بهم، وقد جعلوا منها محطّة للمؤصّية لتدريب لجيش لتركبي المتأقّب صدّ لعدوّ في حوار المدينة. وبما أن جود كانوا على مسافة من الباشا أو ابنه، فقد كانوا يتصرّفون بعوصيّة أكبر بكثير ممّا كانوا سيجرّون على فعله في جنّه أو مكّه وكان كلّ عماشى Bimbashy، أو أمير مجموعته يصل إلى هنا مع جوده، يأخذ على عاتقه حكومة المدينة خلال إقامته؛ في حين أن الحاكم المحلي، سليم آغا، الذي كان يملك بضعة جود فقط تحت إمرته، كان يُهتّش ويتحوّل إلى لا شيء. وقد نشبت عدّة براعات حين

إقامتي مما أثار سخط أنسكان. فقد قام ضبط تركي بقص شاب عربي في الشارع عسسه في منتصف النهار، وكان ذلك الصابط يقدم لشاب لفترة من بوقت عرصاً شائنة يراوده فيها عرسه وقد ارتكبت هذه جريمة رباطة حاشي عصيمة انتقاماً منه بعد رقصه، ثم حاشاً في مقر البباشي الذي دعا جنوده لحمايته من سخط الناس وحقنهم. وأسرع فأرب الشاب العربي إلى «المدينة» لطلب دم المعتدي من محمّد علي باشا؛ وقد عادت يسع قبل أن تتم تسوية المسألة.

وهن يسع كنهم مسلحون على الرعم من أنهم نادراً ما يظهرن ذلك علناً، وهم عادة يحسبون هراوة ثقيلة في يدهم ويحفظ القليل منهم بالجيد، إلا أن قبيلة جهينة المستمرة في يسع اسحل سلاله حيدة من حيد يحد، كن عددها قلل وتحتفظ كل عائلة بعمير لإحصار المياه إلى المدينة. كما أنما يحس ها بقية الخدم والعمال أكثر مما يحس به في مدن الحجار الأخرى فإن أي من هن يسع لن يشترك في أي عمل بدوي إذا ما كان لديه أمل ولو كان صبيلاً في تأمين نفقة عيشه بوسائل أخرى إن العلاحير المصريين الذين تم تركهم ها على حد الساحل بعد تأديتهم الحق والمرعمون على كسب المال لكي يتمكنوا من العودة إلى ديارهم يعملون حقال وعقل، فيحصرون الخشب والاء، إلخ وقد أبت أخذهم يدفع ليرة ونصف لأحد الرجال بحمل له ثقلاً مسافه حمسمة يردة من لشاطيء إلى أحد المال.

يسع هي الأرحص مكاناً في الحجار فيما يتعلق بالزوا، وتتوافر فيها المياه الجيدة التي تدر أكثر مفعة لنصحة مها في جذه. وكن يمكن أن تكون لإقامة فيها مقبولة بولا سلك الكمية غير لمقولة من الدياب الذي يكتظ به الساحل فلا يحرج أحد من مرله دون أن يحمل مروحة يدوية في يده حرد تلك الحشرت؛ كما أنه من استحيل تناول طعام دون تلاع بعضه التي تدحل إلى نعم فور فتحه ويرى شعاً مها تمز فوق المدينة، وهي توجد حتى على السمر التي تبحر مبتعدة عن برفاً وتبقى على منها حلال الرحلة كنهم

بن يتبع إلى القاهرة

أبحرث من يتبع مي صباح يوم الخامس عشر من شهر أيار/ مايو في «سمبوك» مكشوف، أو قارب كبير متجه إلى القُصير لتحميل الحنطة هناك. وكان الرئيس أو الرئان ابن المالبث، وهو من أهل يتبع. وقد اتفقت معه على عبوري من هنا إلى القُصير مع عبدي لقاء خمسة دولارات؛ حيث يدفع الحجاج عادةً دولارين ودولاراً واحداً يذمعه الفقراء وللخدم. وقد سمحت الحكومة للمالكي السمس بصرف دولار للشخص فقط لنقل الحبوب. وبما أنه كان لشريك أبر يتبع حصّة في هذا القارب، فقد شُخّ له بالانطلاق بلا حدود. وقال لي الرئيس إنّ هناك اثني عشر عربياً فقط مسافرين على متن قاربه. وبعد أن جعلني أدفع دولارين لإصافئين عن التعرف الملتادة، وافق عني مسحي مكاناً صغيراً خلف المكان المخصص للمسافرين لي وحدي. غير أنني حين صعدتُ عني متيه، وجدتُ نفسي وقد أصبحت بحية الأمل؛ حيث كان هناك ما يفوق الثلاثين راكباً، خاصةً من السوريين والمصريين وقد احتشدوا في القارب مع نحو عشرة بخارة. كما كان الرئيس وأخوه الأصغر متاً والقبطان والمضيف قد استقروا في المكان الواقع خلف الدفة والذي قد اتفقتُ على شحبه بنفسي. إن رياره يتبع من جديد، وهي موضع الموت، أمر لا يُصحّ به؛ وعندما لم أرُ أيّ مظاهر للطاعون عني متن القارب، أدعت لتبسمتي وصيبي من غير الخوص في جبال عقيم. فأبحرنا على العور على مسافة قريبة من الشاطئ. وفي المساء أُلقيتُ بعني وقد باتتْ حالتي أسوأ بكثير مما توقّعت حين أتيتُ إلى القارب؛ فكان هناك في المخبز ستة أشخاص من الرص، كان اثنان منهم في حالة من الهديان العيف. وقد مات أحدهم في اليوم التالي وتم رمي الجثمان في البحر ولم يعد هناك شك في وجود الطاعون فعلاً عني متن القارب عني الرعم من إصرار البحارة على العني قائلين إنّ ذلك كان مرضاً مختلفاً. في اليوم الثالث، شعر الصبي، أخو الرئيس، بألم فطبع في رأسه؛ وحوفاً من الطاعون، أصرّ عني إنراه إلى

الشاطئ. كنا حينذاك في خليج صغير، فأدعى الرئيس لتوسلاته وأتفق مع بدوي على الشاطئ
لحمده على طهر الحمل في طريق العودة إلى ينبع. وقد تم إمرأته إلى سر، وأرأه أهل مصيفه. إن
الوقاية الوحيدة التي استطعت أنساعها لتجنب العدوى كانت بوضع أمتعتي حوي، كأي شكل
بقعة معزلة حيث كان لي فيها مجال كاف للحدوس بطريقة مريحة، ليس إلا لكن، عسى
الرغم من ذلك، فقد كنت مضطراً كل لحظة للاحتكاك مع مجموعة القارب ولحسن حظ،
لم ينتشر الوباء؛ وقد حدثت وفاة واحدة أخرى في يوم الخامس من تطلقنا بالرغم من إصابة
عدة مسافرين بالمرض الذي أعجز عن إجماع بأنه الطاعون، حيث أنني لم أقم بفحص الجثث؛
غير أن كل ما كان يحيط بي قد دفعني إلى ذلك الاعتقاد. كما أن دور البحر المتواصل والتقيؤ
الذي عانى منه مسافرون كان بأسس إليهم عملته بقاد صبيته أم بسببه، فقد كنت في
صحة غير جيدة أبداً طول الرحلة وقد أصبني القشعريرة والبرداء التي تعاقبت من جراء لنقص
في وسائل الراحة على من القارب. وقد أشعنت نفسي من كل أصناف الطعام باستثناء
الحساء الخفيف فكنت، كلما دحنا في مياها، أشترى حروف من البه وبيعة تحصيل طيق من
الحساء. وعمر توزيع اللحم على مسافرين في القارب تمكنت من كسب مودتهم بحيث كانوا
يكرموني وهدوني في كل مناسبة، وكنت أستطيع طلب المساعدة منهم كلما احتجت إليها، إما
رفع البطانة كل صباح ومثل في قرب الماء حاضني على شاطئ

إن الملاحة هي نفسها التي سبق أن وصفتها في سفر من أسواق إلى حدة. فكنت
مدخل إلى مياها كل مساء ولا أبحر أبداً خلال الليل، لستطيع محدداً عند طلوع النهار. وإذا ما
علمت أنه لا يوجد أمما أي حور صغير أو مياها قريب بحيث سمع قبل عيب الشمس مع
الرياح التي تكون انداك. كنا نوقف أحياناً في مكان للإرساء بعد منتصف النهار بهليل ولسوء
الحظ، فقد جرفت بعيداً "مواضع اسحر العاتية قارب السفينة الصغير هي رحلة سابقة، لذلك نادر
ما كنت أستطيع الوصول إلى الشاطئ، إلا حين نجد سمناً أخرى بأحد قواربها، لأننا كما نرسمو
عادة في المياه العميقة. وقد أظهر البخارة ها نجساً عظيم الشب كأولئك في الأسواق في مناسبة
سابقة؛ فكانوا، كلما هتت ريح يزلون الأشعة؛ كما أن الحرف من هبوب عاصفة ما، كان
يجعلهم يأوون إلى أحد ارفاهي. فم نقيم بالتالي أبداً بالإبحار لمسافات تعدي خمسة وعشرين
إلى خمسة وثلاثين ميلاً في اليوم ولم يكر هناك عني من السفينة سوى برميل ماء واحد كبير
ومرئع، كان يحتوي على كمية تكفي ثلاثة أيام لاستعمار طاقم السفينة فقط. وكل من
المسافرين قرية ماء خاصة به، وكلما بلغنا مورد ماء، كان يأتي البدوي إلى الشاطئ ويبعونا
تحويه قرباتهم البنية. وكما كان يحدث أحياناً حين نتوقف لشمس في خليج بعيد عن أي آثار.

أو تجمع من تركه بسبب الرياح المعاكسة، كان الطاقم يتعرضُ لعناءٍ كبيرة جراء المعيشة إذ إنهم لا يملكون على متن السفينة أبداً إلا ما يكفي لثلاثة أو أربعة أيام.

لقد أبحرنا للأيام الثلاثة الأولى على طول شاطئ رسمي قاحل تماماً وغير مأهول؛ وكانت الجبال ممتدة إلى مسافات داخل الأرض. وعلى مسافة ثلاثة أيام يراً وبحراً من يسع، كما يتم إحصاؤها عادةً، يقع الجبل المدعو «جبل خصائي» الذي يصل إلى مسافة قريبة من الشاطئ. ومن هناك تقع شمالاً سلسلة الجبال المنخفضة في جوار الشاطئ التي يقطعها قليل من البدو. وتمتد محميات فينه «جيهيه» حتى هذه الجبال. وفي الشمال منها، وحتى محطة الحج التي تدعى «لوحه»، أو كما تُلغَط «الرش»، تقع مساكن بدو قبيلة «حطيم». وهناك العديد من الجزر في مقابل جبل «خصائي»، كما أن البحر هنا مليء بالصُّحل والصخور المرجانية بشكل خاص، والتي ترتفع قريباً من السطح، فتكتسب اساءة من ألوانها المشوّعة، إذا ما شوهدت من بعيد، كل أنوار فوس قُرح وبعد الأمطار، في فصل الربيع، يسكنُ بدو الساحل تلك الجزر الصغيرة حيث يرعون ماشيتهم هناك طالما توافر الكلأ وهم جميعاً صيادون شيطون ولديهم قوارب صغيرة وهم يقومون بتسليح السمك. ويحملونه في قواربهم إلى يسع والقصير أو يبيعونه إلى السفن انازة من هناك. وتحتضّر إحدى تلك الجزر قبيلة بني عيس، وهي تدعى «الخزة»؛ وقد كانت هذه القبيلة البدوية فيما مضى قوية نافذة، لآ أنها باتت الآن بصنع عائلات تعيش مع بني «حطيم»، ولم مثل هؤلاء، دور سمعة سيئة عند كل جيرانهم. وهناك، على جزيرة أخرى، قبر إمام يُدعى شيخ حسن المابط، وهو بصمٌ بعض اسامي المحفصة والأكواخ المحيطة به حيث تمرّرت عائلة بدوية من قبيلة «حطيم» التي تؤول إليها حراسة القبر إنْ خطَّ لإبحار السفن العربية يمرّ عادةً بالقرب من هذه الجزيرة، فيقوم الطاقم غالباً بإرسال قارب بكميات قبيلة من الحفظة لأولئك الناس، أو بعض الربدة واليسكويت والقهوة، لأنهم يعتبرون الشيخ حسناً سيّد هذه البحار. وحين أبحرنا بالقرب منها، صنع رئيساً رعييف حبر كبيراً أعده في الرماد وورّع قطعةً منه لكن شخص على متن السفينة يأكله نكرياً للإمام، ثم قدّم لنا بعدها مجدّ من القهوة

إنّ البحارة العرب بشكل عام يؤمنون بالخرافات، فيعتبرون بعض الممرّات مثيرةً للرعب الشديد، ليس لأنها أخطر من غيرها، بل لأنهم يعتقدون أن الأرواح الشريرة تسكنُ بين صحور المرجان، ويمكن أن تقوم بجذب السفينة باتجاه الصُّحل فتسبب لها الفرق. وهم يُحافظون لسبب نفسه، على العادة الثابتة والدائمة برمي حفنة من الطعام المعد إلى البحر عند كل رجعة قبل أن يجلسوا هم أنفسهم لتناوله. ويقولون إنه يجب أن يحصل مكان البحر أيضاً على

حضنتهم والأفهام سيمدون إلى عرقلة سير السفينة. وقد عمل رئيساً دت مرة عن القيام بذلك؛ لكنه حين قطن للأمر، أمر بإعداد حبر صارح ورمى به إلى بحر.

خلال هذه الرحلة، كما يلتقي كل يوم بسفن نديمة من مصر، وكث برسو أحياناً في الخليج نفسه مع ثلاثة أو أربعة منها في انساء. وتشت أحياناً في تلك الظروف المشجرات حول الماء، فترغم السفن في بعض الأحيان على الانتظار ليوم أو يومين حتى يأتي البدو مؤونة كافية إلى الساحل. ويتوهم الرتبة في كل مكان برارة فضلاً عن الخيل والجمال والماعز والسك المنيع وحشب الموقد وأعصان ربيعة من حنات «الأراك» التي يصنع منها العرب فرشاة أسنانهم والتي يجمعها البدو على هذا الساحل. وتتم عادة مقايضة تلك المواد بالحطة أو التبع. إن هؤلاء البدو لصوص جسورون، وهم يعومون أحياناً إلى أسس خلال الليل لانتظار فرصة مناسبة لسلب والنهب. والمياه على كل الساحل منه نوعية إلا عند «الوجه» و«صبا» إن «الوجه» التي تعرف عادةً ببعداها عن جبل «حصاني» بثلاثة أيام شتلاً هي عبارة عن حصن يقع على طريق الحج نحو ثلاثة أميال داخل الأراضي وهناك بالقرب منه سبع للمياه بمجرى، وهناك كذلك أبر عريضة من المياه المتوسطة النوعية التي تقع في تحوم خليج صغير هو عبارة عن مرفأ للحصن، ويدعى بالتالي «مرسى الوجه». ويحمي بعض الحدود المعريتين هذا الحصن الذي يقال إنه يعيص بالمؤن. ولد تزوج العديد منهم من بنات بدويات، وهم يمارسون تجارة بسيطة في المؤن مع السفن المارة من هناك.

يسكن الجبل المجاورة «للوجه» بدو قبيلة «البي» وإلى شمال من «الوجه»، على مسافة يومين جوبي «مؤنلج»، يقع «مرسى صبا» أشهر بباره امتارة. ويقع مكان امرسى في خليج واسع هو أحد أفضل الموانئ على هذا الساحل؛ وتقع الأبار على مسافة نصف ساعة داخل الأراضي في بستان محل تحت أشجار الخيل. وتقر طريق قذبة الحج المصرية من هنا، وتم بناء بركة أو حفرين لتأمين راحتها وتقف السفن التي تُحمر من القصير إلى ينبع في هذه النقطة عامة، ثم تتابع من هناك رحلتها الساحلية باتجاه الجنوب وإلى الشمال من «صبا»، على مسافة يومين منه، يقع حصن مؤنلج وقريته الصغيرة في أراضي بدو قبيلتي الحويطات وعمران. وقد مررنا بها على مسافة معينة، بكني تمكنت من رؤية مزارع كبيرة من أشجار الخيل قرب الشاطئ. إن ما يذعونه الحصن، يبدو كساء مربع يقع على السهل الكبير القريب من المياه. وموقع مؤنلج محيّر جداً بسبب الجبل الشاهق الذي يقع خلفها تماماً وله ثلاث قمم مستديرة الرأس ترتفع عن الأحريات بحيث تمكن رؤيتها من مسافة ستين إلى ثمانين ميلاً. وقيل لي أنه يمكن رؤيتها من القصير عند شروق الشمس في أيام الشتاء الصافية. ومؤنلج هي مركز الرئيسي على هذا الساحل من العقبة نزولاً حتى ينبع. ويدرس سكانها، وهم أنفسهم الأكبر من البدو

المستوصين، تجارة الماشية والسمك مع يتبع وطور، ويرتد سوقهم العديد من البدو من داخل البلاد وهي المكان الوحيد على هذا الساحل حيث تقدم سوق بشكل منتظم، وحيث تتوافر المؤن باستمرار، وبالتالي فإنها تؤمن الراحة الموقّعة للسمك التي تعوق مرورها الرياح المعاكسة وما أن المؤن عريضة جداً وبأدرة في الحجار وريحضة السمك في مصر، فلا تتوقف السفن أبداً أكثر مما هو ضروري، عند مغادرة مرافئ الحجار باتجاه القصير أو السويس؛ إلا أن مرورها الذي يتوقعه عادة أن يكون في عشرين يوماً، يسوم غالباً شهراً وأحياناً شهرين.

من مؤنّيح، تبدو شبه جزيرة سياء يومسوح، عبر النقطة التي تدعى رأس أبو شحمده وتأتحد السفن المتجهة من يبع إلى القصير هذا الرّص عامة، أو إحدى الجزر الواقعة خلفه، ومن ثمّ تبحر جنوباً إلى القصير. وهم يقومون بذلك بعبء الاستعانة من الرياح الشمالية التي تهبّ في تلك الأجزاء من البحر الأحمر لتسعة أشهر في السنة. وهم يفصلون طريقة السفر الساحلي البطيء المملّ لأنه الأكثر أماناً، ولأنهم يتمتعون خلاله عالياً بسمّة آنية من النّز؛ فيفصلونه على المخاطر والجهد المصبي الذي يتعرضون له عند الإبحار في عرض البحر ضدّ مجرى الرياح؛ أو على إسقاء في حطّ مستقيم من جدّة أو يبع إلى الساحل الإفريقي حيث لا يلتقون في مرافئ، جنوب القصير سوى بالقليل من سفن البحر الأحمر، كما أنهم يحشون جداً سكان البدو من تلك المنطقة.

عند بلوغ رأس محمّده، ينقون مرساتهم بالقرب من إحدى الجزر الصغيرة، أو يدخلون المرفأ للدعو «شرم» حيث ينتظرون هبوب ريح معتدلة تحملهم عادة إلى القصير في يوم أو يومين. أما فيما يتعلّق بقاء فلم يحدث معاً خلال الرحلة بأكملها أي نوع من الحوادث غير السارّة بالرغم من أن الريح، التي تدرأ ما كانت معتدلة، أرغمتنا ذات مرّة على البقاء في المرسى نفسه لثلاثة أيام. ونظالاً توقّعت أن تتحطّم السفينة عند رؤية الرّبان يُبحر بين الصّحل على الشاطئ. وهو عمل اكتسب فيه هؤلاء حيرة واسعة يُظهرون في أثنائه جسارّة بالقدر الذي يُظهرون فيه الجبن في عرض البحر.

بعد سفر دام عشرين يوماً، بقاء جوار رأس أبي محمّده في الرابع من شهر حزيران/ يونيو. وقد تمّ تأمين القارب بلاءً عبر كُلابات غُلّفت ببعض الصحور المرجانية من جهة الريح، في جزيرة صغيرة أمام الرّص؛ حيث يوي ارتكأ الإبحار عبرها في الصباح التالي.

عما آتني علمتُ أن البدو يكومون دائماً في مباء «الشرم» لنقل المسافرين عبر البرّ إلى صور أو السويس. فقد رغبتُ في إنزالني إلى الشاطئ هـ. وكانت الطريق من هنا إلى القاهرة أقصر بكثير من تلك التي تمرّ عبر القصير؛ كما أن حالتي الصحّة السيئة جعلت من الأفضل لي تركّ

السفينة حيث لم يكن متوقفاً لدى أي من أسباب الراحة، وحيث الخوف من الصاعون لم يكن قد رن بعد، بالرغم من أن أحداً لم يمتح على متن السفينة خلال الأسبوعين الأخيرين وكان الرئيس ولرثان من المظف بحيث خرجا عن مسارهما لقاء مينع أربعة دولارات أعطيتها للأول، ودولار للثاني. وفي صباح اليوم التالي، في الخامس عشر من شهر حزيران/يونيو، دُحبت مرفأ «شرم»

بعد «الشرم» مسافة أربع أو خمس ساعات عن نقطة استقاه «رأس أبو محمّد» وهو مرفأ مسيح جدد فيه مرسى سمى الكسرة، ويقع عند مدخل خليج العقبة، وهو أفضل مرفأ على الجهة الغربية من ذلك الخليج وتحت اسم «شرم»، أو «شروم» (في الجمع)، لكن يتم ارتداد المرفأ جنوبي أكثر من الآخر. وما أن هلك بشراً عزيزه تقع بالقرب منهما، فإن السفن القادمة من بحار و إليه تزور هذين المرفئين غالباً كما أن المسافرين الراغبين في توفير الوقت الذي يتطلبه السفر عبر خليج السويس (والذي يدوم طويلاً حين يسود لرياح الشمالية) ينزلون هن فينقلهم البندو على الجمال إلى طبر والسويس.

يرى هؤلاء البدو الذين يعيشون في جحر السفن من بعيد، وعد وصولها، يسرعون إلى الساحل لعرص خدماتهم في السابق، حين كان باشا مصر يتمتع بشططة اسمية على بدو الجوار، كان طاقم السفن يحشى عرب ضرر أكثر من غيرهم، لأنهم كانوا يتزعمون منهم صرائب منتظمة كلما دحسوا إلى مرفئهم كما كانوا يتصرفون بصريقة عدائية ووحشية جداً أما في الوقت الحاضر، فقد نجح محمّد علي في تهيب هؤلاء البدو، بالامر في (السويس) فأصبح سلوكهم الآن ودياً جداً ولسفر معهم أمراً جدياً. لكن، إذا ما صادف تحطم سفينة ما على سواحلهم أو على الجحر الغربية منهم (وهو أمر ليس نادر الحدوث)، فهم ما رلو، يدافعون عن حقهم القديم في سلب الحمولة وبها.

عند المساء، قدمت سفينة محملة بالجنود، كانت قد تركت ينع قبلما ستة أيام. وتمّ نزال امر الجنود وأربعة أو خمسة من مجموعته، على الشاطئ ليتبعوا رحلتهم برّاً إلى القاهرة. وتابعت السفينتان في الصباح التالي رحلتها إلى قنصير. ولم تلق صعوبة في الحصول على جمال، فأكثر من ثلاثين مها كانت جاهرة للاستئجار. وقد انطلقا في الليلة التي وصلت فيها في مجموعتين، وكانت المجموعة الأمامية مؤلفة من الجنود، ولأخرى التي كانت على بُعد ساعتين خلف الأولى، تألف مني أنا وعبدى ومسافرتين من دمشق قد سَرهما الحصول على فرصة لاحتصار رحتهما إلى الديار ومشياً ذلك مساءً نحو ساعة ونصف في وادٍ، ثم توقفا لرتاح ليلاً.

في السادس من شهر حزيران/يونيو، تابعا طريقا في أودية حرداء تقريبا تحت صحرة وافية
بانتة أمست لنا بعض الظلال. وذهب لجيتون لإحصاء الماء من مكان في الجبال العريضة ويدعى
«الحمر»، وقد تبثت حودة تلك المياه ونوعيتها المتارة وكانت تعيش في الوادي امرأة وحيدة
تماما وفقيرة مع ماعزين ويسود الأمن الكامل التام بين البدو أنفسهم في هذه المنطقة، فلا يحرقة
سوى سلوك الجود الأتراك المشين العاصح لذين يمزون من هنا. وقد عرفت هؤلاء الرجال حق
المعرفة من خلال تجربتي المتكررة، لذلك، فقد عدلت عن الانضمام إلى مجموعتهم وعندما
تابعا طريقا نحو المساء، التقينا على الطريق بأحد صتيّة البدو الذين يعملون كسائقي جمال مع
المجموعة أمامنا. ولم يكن جسمه الذي كان يركبه أحد الجود قادرا على متابعة الرحلة مع
الآخرين؛ فقام راحته، وهو عاصب من هذا التأخير، بشطب سيفه وجرح الحيوان حثه على
الشير بخطى أسرع. وحين احتج النصي وأمسك بأكبر سيف، تنقّى هو كذلك صرّة من سيف
على كتفه وبعد أن استمر في الحفاظ على موقفه، قام الوحشي بإطلاق النار عليه، ففر النصي
متعدا وانتظر وصولنا وسمعنا، وعلى بُعد بضعة أميال، انبعاث التي كان يطلقها الجدي
عاليا، ووحدها يسير خلف الجمل ولا ينفك توقفت شوب عراك فقد عثت نسدسي وبدقيتي.
وحين رأي أنركت في مقدمه المجموعة أسرع على انور بحوي وصرح عاليا في وجهي باللمه
البركة صالبا متي الترحل ومبادلة الجمل معه. سحرت من قائل باللمه العريضة بأني سكت ملاحا
لأحاطت مثل هذه الطريقة وبالأسلوب المعتاد لأولئك الجود الذين يحسبون أنه على كل
شخص غير جدي الإدعاء لأوامرهم ولاصياح لها، استدار نحو عيدي وأمره بالترحل عن
جمله مقسما بإطلاق النار على واحد منّا لم يستجب لأمره. عند سماع ذلك، أحدث
بدقيتي وأكدت له بأنها معتاه بالبارود الجيد النوعية وبأنها قادره على إرسال رصاصة إلى قلبه
أفضل مما تستطيع بدقيته أن تعمل بدقيتي وحلال هذه المشادة الكلامية، شرد جملة قبلا في
الوادي، وحوفا على أمتعته، ركض وراءه متابعا السير ولمحره عن اللحاق بنا في الرمال، أطلق
النار عني من بُعد، فأحيته على الفور، وهكذا انتهت المعركة إلى الأمام قليلا، وصلنا إلى رفاقه
الذين ترحلوا. فأخبرتهم أن رفيقهم في الخلف كان مرعجا من جسمه، فأرسلوا عنده أحد
اسدو للبحث عنه وإحضاره في حين نابت لنا الشير، وحيث تلك ليلة في واد جاسي حارح
انطريق حيث انصم إليا النصي البدوي ثابة غير راعب في أن يراه الجود الآخرون

ووجهنا متيز رحلتنا الآن بطريقة لا تؤذي بنا إلى المواجهة مجددا مع الجود لكن، بعد
يومين، التقيت بالرحل ثابة في طور. وكان حاكم السويس هناك هناك، وكان بإمكانني اتوجه
إليه بشكواي؛ وهذا ما كان هو يحشاه، لست مشى بحوي متسعا وقال لي بأسارى مفرجة
إنه يأمن ألا يكون الحقد باقيا يسا، وأن الرصاصة التي أطلقها كانت فقط لاستدعاء رفاقه كي

بمساعده مع حملة. وجوياً على ذلك، أُكِّدْتُ له أنَّ رصاصتي أنا كان لها هدفٌ محتفٌ تماماً وأنِّي آسفٌ لأنَّها أخطأت الهدف. فصحتُ عندها وذهب متعلداً. ليس هناك على وجه السبيطة أشخصٌ أكثر غطرسة وتعالياً، وأشدَّ جشنةً وحفارةً ووصاعةً في الوقت نفسه من الحدود الأتراك فهم يتصرفون بالطريقة الأكثر استبداديةً وطغياناً حين لا يترقَّعون أيَّ معارضة، فلا يأبهون بقتل شخصٍ أغرل مسالم عند أدنى موباتٍ ولاعمالٍ لكنَّهم حين يواجهون مقاومةً شديدةً، أو يحشون أيَّ عوقبٍ وحيمةٍ قد تنأى من سلوكهم، فليس هناك أيَّ حفارةٍ أو دابةٍ لا يحصرون لها على العور.

وقد حدثت مراتٍ عديدةً أنَّ التقيتُ بالحدود خلال رحلتي التي قمتُ بها عبر مصر براً من القاهرة إلى أسوان وعليَّ أن أصعب قاعدةً للمسافرين بأن يُعاملوا هؤلاء الأشخاص باستمرارٍ بعالٍ كبير، لأنَّهم يعتبرون أيَّ تدارلٍ خوفاً منهم فيصيح سلوكهم بالتالي لا يُطاق. وقد سهرنا هذا اليوم لنحو تسع ساعات

في اسابع من شهر حزيران/يونيو، تابعنا سيرنا في أوديةٍ نحو ساعتين ونصف الساعة حين وصلنا إلى جبلٍ شاهقٍ حيثُ أُرغمْتُ على التَّرجُّل ولأقيتُ صعوبةً بالغةً في الوصول إلى القمة لأنَّ قوتي كانت حائرةً وكثُ أُرْجِفُ من حُمِّي طولاً اللَّيلة الفائتة وقد نطَلْتُ ما احتيازُ الجبل نحو ساعتين ونصف للبرول إلى الوادي في الجهة الأخرى. وقد تجلَّى ما من على القمة منظرٌ رائعٌ لجميع العقبة يتألف آخره لعلويٍّ من هذا الجبل من صحر العرايب وتتألف السلاسل المُحمضة التابعة له من صخر عرويشاين Grünstein وخرجنا من هذه السلسلة بعد الظهر إلى سهل العربي الذي يحدهر بيطه نحو بحر السويس، وحيمت فيه بعد مسيرةٍ دمت نحو عشر ساعات

في الثامن من شهر حزيران/يونيو، بلغنا الطور بعد نحو ثلاث ساعات ونصف من المكان الذي اسرحنا فيه. هنا، رحدنا كل شيء في حالةٍ من الحيوة والاهتياج. فقبل بضعة أيام، وصلتُ إلى هنا من يتبع امرأةً معتمد عليَّ بأنا التي التقيتُ بها عند كلِّ محطةٍ تقريباً في هذه الرحلة، وكانت قد برلتُ إلى الشاطئ كي تُتابع برأً إلى السويس لأنَّ الرياح كانت تعصفُ بشدةٍ من لشمال وقد أتى للملاقاتها حاكمُ السويس وشقيقُها مصطفى بك وأحد صياده الباشا لرئيسيين. وكانت حينها مصوبةً قرب قرية الطور الصغيرة. وطُلب إحضار أربعين إلى خمسينة حملٍ لنقل حاشيتها وجودها إلى السويس؛ وكانت تنتظر هنا منذ أسبوعٍ كاملٍ حيث لم يتم توفير هذا العدد

عمدتُ العزم على التوقف عند الطور لبضعة أيام حتى أستعيد ما يكفي من القوة المتابعة

الرحنة إلى القاهرة لكنني حين علمت أن انطاغود كان لا يزال منتشراً في السويس، كما هي القاهرة، بدلتُ مُحطَّطي وصحمتُ على البقاء هه لبصعة أسابيع إلى أن يمرَّ موسم الوباء غير أنني ما لبثتُ أن وجدتُ الإقامة في الطور غير باعثة على السرور فقد بُنيتْ هذه القرية الصغيرة في سهل رملني بالقرب من الشاطئ بلا أي مأوى من الشمس، وكان هناك بضعة مزارع بحيل على مسافة معبئة خلفها ومارلها فقيرة بئسة، تسدُّ السبيل إليها مجموعات من الدباب والبرعش. بعيتُ في طور يلاً؛ وحين سمعتُ من البدو عن قرية صغيرة أخرى تبعد مسافة ساعة واحدة من هه، وفيها حدائق واهرة ومياه متارة، عرمتُ على إيجاد مسكني لي هناك.

يُحيط بهذه القرية جدارٌ شبه مهذَّم ونرى كذلك آثار حصن صغير بناءً، كما يُقال، السدسان سليم الأول الذي حصَّن المراكز الخارجية في امبراطوريته كلها. وقد بوى العرسيون إعادة بنائه لكنهم عادرو مصر قبل المباشرة بالعمل وهناك قريتان صغيرتان تبعدان بحرميل واحد على حاسبي الطور سكانهما من اليونانيين فقط، وهم قرابة العشرين عائلة، ومعهم كاهنٌ تابعٌ لرئيس لأماقية في جبل سيباء. وهم يكسبون رزقهم عبر بيع الخن إلى السفن التي ترسو هه لتتزوَّد بالمياه التي تنوء بها حرارة هه في لايار وانتي تتمتع ببوعدة جيّدة. والمؤن هه بادرة وعريّة أكثر منها في القاهرة ممزّتين. ويملك أهل الطور قوارب صغيرة خاصة يُبحرون فيها إلى السويس لأجل تلك المؤن ولولا مرور الجنود الأتراك، لكان هؤلاء السكّان أغنياء، لكنهم يعيشون في شحٍّ فائق، لأنَّ طمع هؤلاء الرجال وجشعهم عابٍ ما يجرّدهم في يوم واحد من الأرباح التي يخونها حلال سنة كاملة. ولا يحتفظ الباشا هه بأيّ فرقة من الجنود

في التاسع من شهر حزيران/ يونيو صباحاً، ذهبتُ على السهل إلى القرية المذكورة أعلاه والتي تُدعى «الوادي»، بعد أن تركتُ محروناً كاياً من المؤن في الصور. وقد وجدتُ مسكناً سهولاً، وشيّرتُ حين لم أضفتُ بحية، لأمل عند رؤية هذه القرية، إذ إنها تتألف من نحو ثلاثين منزلاً بُنيتْ في الحدائق وسط أشجار السجيل؛ فكان لكل منزل حديقته الصغيرة الخاصة وقد استأجرتُ مبنى صغيراً نصف مكشوف قمّتْ بتعطيله بسعف النخيل، ولقد سرّني وجود أرضٍ مظلمة مبهجة بالقرب مني حيث ينمو النخل وشجر البق والرمان والمشمش؛ وكنتُ أتروّد بامياه امتازة من شر كبيرة تقع وسطها؛ هم يبق لي ما أتمناه في الوقت الحاضر. ولم تُراود أهل هذه القرية، وأغلبهم من البدو المستوطنين، أي شكوك حول الدوافع التي أتت بي للإقامة هه بعد أن رأوني شبه عاجزٍ عن الوقوف على رجلي فقاموا بالتالي بمعاملي بظلم، كما أن الهدايا البسيطة التي ورّعتها عنهم من النخم والمؤن الأخرى، ما لبثتُ أن أمتتُ لي بحسن صياعتهم، فكنتُ أملك الأسباب كلها التي تُشعري بالراحة في سلوكهم وما لبثتُ أن

استعدت قواي وصحتي بعد أن أحدثت قسطاً كبيراً من الراحة التامة وبعد أن تمتعت بهواء الجبل الصحي في هذه القرية التي تقع على ارتفاع أكثر من قرية الطور

لم أأخذ نفسي للسماوات الأربع الأخيرة مراحلاً كما كنتُ هذا، وذلك منذ أن عاشرت صحبة صديقي السيد باركر والسيد Masseyk، وحدثني حلب المبهجة حتى إن اليوم الأول الذي أمضيته في هذا المختلي، أذى إلى تحش وإصبح وحيث في صحتي. وذهبت إلى حثام لاغتادي أن تمريراً بسيطاً قد يكون دافئاً بي؛ وهو حثام دافئ يقع حلف روية الجبل إلى الشمال من الطور، ويبعد عن «لوادي» سحر نصف ساعة هناك، تبتق عذة يبيع دقة من الجبل الكلسي؛ وإن لأحدها وهو «لأهم»، سقفاً ثيلاً، وبروره كثر بدو الجوار. وكان يؤمن راحة الرائين في السابق هناك بعض الأبنية شبه المتداعية التي قد تكون يقدم حصص الطور المهدم.

إن بالمياه حرة معتدلة، ويبدو أنها منشربة بالبترات بحق وتقع مزارع النجيل الشاسعة بالقرب من هذه البساتين سم أرقت في حياتي أشجار نجيل تنمو مثل هذا العبي والثرف كما هي في هذا المكان، حيث تشكل عادة كثيفة جداً يصعب على أحد ما أن يعثر على طريقه عرها. ونحضر هذه المزارع بدو شبه الجزيرة الذين يأتون إلى هنا مع عائلاتهم عند قطاف التمر غير أن البستان الأكبر يمكنه كهيئة حل سماء ابوانيتون، ويعيش أحدهم كدبيب في نرج معزلة يقع في وسطه، إذ إنه المقيم الوحيد لدائم في هذا النكب. ويبقى الخوف من البدو معلقاً في نرجه لأشهر عذة. ويتم الدحور إلى ذلك البرج غير سليم، والشخص الوحيد الذي يقترب منه هو رجل يؤمن به راداً من الماء كثر أسبوعاً ويوجد «كاهن» هنا كحارس لدير، لكن نتجربة قد أثبتت عدم فعالية المحاولات كنها لحماية الأشجار من النصوص البدو. بذلك، فقد أعطوا الماكهة لأول قادم إلى المكان بحيث أصبح هذا البستان، الذي تبلغ قيمة محصوله أحياناً أربعة أو خمسة آلاف ليرة، ملكاً عاماً.

وقد لاقيت بعض الصعوبة في تأمين اللحم لي في «وادي» لأن الحراف «درة» جداً في شبه الجزيرة كلها. كما أن أي عربي لا يرغب في بيع ما يملك وقد تم إرسال قطيع منها من السويس إلى الطور لتزويد امرأة محمّد علي وحاشيتها باللحم وكنتُ هنا مُرعماً على دفع اثني عشرة بيرة لقاء بخذي صغير

لقد ساهم الأسبوع الذي من إقامتي في «وادي» في تحسّين وصحي الصحي إلى حد بعيد ولم أكن قد شعيتُ تماماً، إلا أنني أبليتُ في الوقت الحاضر، فقط في استرجاع ما يمكن من القوة متابعة رحلتي إلى القاهرة حيث أتمكّن من العثور على وسائل الشفاء الكامل التام وكنتُ أمل جداً لتسريع رحلتي بعد أن علمتُ أن البدو الذين يمكنهم جماًلاً للإيجار ولم يقوموا

بتقدمها لنقل سماء الباشا، سيرحلون عتقا قريب من هذا الجور إلى القاهرة مع حمولة من المحم الباتي، مما قد يجعل من الصعب لي حينها تأمين حيوانات للنقل.

لقد مضى ثمانية عشر شهراً دون أن أتسم أي رسائل من أوروبا، وشعرت بقلة الصبر بلوع القاهرة حيث كنت أعلم أن العديد منها في انتظارى وعمت أن الطاعون يكون قد رال تقريباً عند وصولي لأنه يحسّر في نهاية شهر حزيران/ يوليو ويستسلم بسبب تأثير موسم الحار. ففقت لذلك بحجر جملين من هنا إلى القاهرة ودفعت لقاءهما اثني عشر دولاراً.

وقد وضع العرب في تلك الأعداء صرائب خاصة على النقل؛ فمن الذين يقطعون شبه الحرية هذه، كان لقبيلة «صوالخة» الحق في نصف النقل، وكانت قبيلتا مرش والعلعات تقاسمان النصف الآخر ولأني كنت بحاجة إلى حملين، كان على أحد أفراد «صوالخة» أن يؤم لي واحداً وكان على أحد أفراد قبيلة مرش وعيقات أن يؤم لي الآخر. وإذا صادف غياب أي أفراد من هذه القبائل الثلاث، تتم تسوية هذه المسألة مع أحدهم، فلا يكون للآخرين بعد ذلك أي حجة أو مطلب بكر إذا كان العديد منهم موجودين في المكان، فذلك يؤدي دائماً إلى شوب الصراع بينهم. فيكون على من يفود المسافر بنفسه، أن يعطي للآخرين ملعاً صغيراً من امل لإسكات مطالبهم. كما تُحدد الصرية نفسها، أو انعاون نفسه، حدوداً معينة حين يجتازها المسافر ودليله، لا يعود لمواطني هذا الأخير أي مطالب على النقل، وتقع تلك الحدود من الطور إلى الشمال، في منتصف الطريق بين الطور و«وادي»؛ وقد اجتاز البيدي الذي يقضي على هذه الطريق، الحدود هذه حسنة دون أن يقوم بإبلاغ أصحابه. وقد لحقوا بنا حين رأوا على الطريق، لكننا كنا قد اجتازنا الحدود قبل أن يتمكنوا من إدراكنا. فأت مصيري بالتالي مُعلقاً بهذا الدليل. وحين استعلمت في «وادي» عن دليل جديد يقضي إلى القاهرة، قيل لي أن أي شخص لا يستطيع التمسك بذلك دون عثم البيدي الذي اجتاز الحدود على جملة، والذي أتى بي من الطور إلى «وادي»، أو دون الحصول على إذن منه. فتم استدعاء الرجل، إلا أن جماله لم تكن جاهزة، فتنازل عن حقه لآخر لقاء دولارين؛ فابطنت مع هذا الأخير. إن هذه اشاحات التي تقع على النقل غريبة جداً، وتكون معقدة أحياناً بحيث يصعب معها اتحاد القرار؛ ويظن المسافر في هذه الأثناء مستسلماً لكنه لا يحسنى خطر تكبد عبء ثقيل لأن مبلغ الواجب دفعه هو معروف عامة. كما أن أكبر مبلغ قد يحسره يصل إلى دولار واحد.

عادت «وادي» في السابع عشر من شهر حزيران/ يوليو، وكانت طريفاً تقع أسفل من التلال المكسبة التي تعصر السهول عن البحر وتمتد نواراته لخمس أو ست ساعات ويُدعى هذا السهل القاحل ذو التربة الخصباء «القاع»، ولا يرغب فيه البدو لخلوه من الياييع واشتداد الحرارة

فيه إلى حد بعيد بسبب مرفعه. وهكذا، وجدته يعصي. وقد غابنا خلال هذا النهار بشدة من إحدى الرياح الحارة جداً أكثر مما حرته في حياتي. وتوقفاً في السهل المكشوف خلال ساعات الظهيرة من غير أن نجد أي شجرة تؤمن لنا الظل. وقد صنعنا حيمة من عباءة بدوية شتت من الجهات الأربع، فسهمت بالكاد في إيوائي من الشمس، في حين لبّ الدليل وعبيدي نفسيهما معاطفهما واستنقيا في لشمس مسترسلين بي اليوم. وبل أن يؤدّي إلى لتعرق، فإن هواء «السموم» الحارّ يحثّ المسامات كئها فيسدها. وفي مساء عُدْتُ لأشعر بالبرداء مجدداً والتي استمرت في موبات عبر مستطمة إلى أن وصلت إلى لقاهرة وحيت هذه الليلة في «نقاع»

في الثامن عشر من شهر حريران/يوليو، صباحاً، دخلت في وادي فيران، وتبعناه مروراً باتجاه البحر، ثم تابعنا بقيته النهار على طول الشاطئ إلى أن بلغنا حواد البحر التي تدعى «ميرحاه»، وتقع أمام الخليج الذي حمل اسم «بركة فرعون»

في التاسع عشر من شهر حريران/يوليو، تابعنا مجدداً السير من «الميرحاه» على طول الشاطئ، ثم دخلنا وادي طيبة، تاركين إلى يسارنا الجبال التي تصل إلى مسافة قرية من الشاطئ، والتي يقع في وسطها الحمام ويدعى «حمام سدا موسى». وصية هو وادي مليء بالأشجار الدبلة بسبب نقص الأمطار وبعد بلوغ قمته، تبعنا على سهل عالٍ واحترنا وادي «أسيط»، ونمنا في تلك الليلة في وادي «عربدل»

في العشرين من شهر حريران/يوليو، مروراً بالقرب من يسوع «حواره» المالح، احترنا سهلاً تاحلاً وبعنا وادي «وردان» عند منتصف النهار، وحيتنا في المساء في وادي «ميدرا» وكنت رحلتنا لنهارية طويلة جداً، وقد سافرنا لصبح ساعدي خلال الليل لكي نبلغ لسويس في وقت نصل فيه إلى القاهرة التي كانت هات تهيئاً لنقل مساء اليث إلى القاهرة. ولأني سأحدث عن هذه الطريق بالتفصيل في يوميات ريارتي جبل سيناء، فإني لن أدخل هنا في أي أمور محدّدة وخاصة. كما أن الملاحظات التي دوّتها في هذا الوقت كانت سطحية جداً

في الواحد والعشرين من شهر حريران، يوليو، صباحاً، احترنا «عيون موسى»، وبعنا لسويس بعد الظهر كنت القافلة تهبط بارحيل، فاطلمنا معها في المساء كانت الحراسة شديدة، وكنا نملك نحو ستمئة جمل وسافرنا طول الليل دون «قطع».

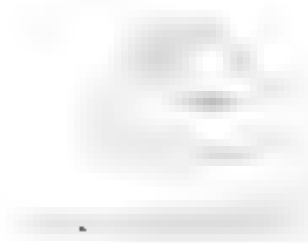
وفي صباح الثاني والعشرين من شهر حريران/يوليو، توقّف عند المكان المدعو «الحمر» وهو محطة الحج بين القاهرة و«أحرودة». فقد أحصرت ساء الباشا عربتين من الحجار سافرون بهما على طول الطريق من الضور إلى السويس، حيث كانت الطريق سهلة العبور في كل مكان. وتم إرسال عربتين مصافيتين لهن من القاهرة إلى السويس، وكان يحجز إحداهما أربعة أحصنة، وهي

بروشة إنكليزية أبيض (مركبة ذات أربع عجلات ومفعدتين متقابلتين وغطاء قابل للطي). فركبت في هذه في السويس، وكنت أحياناً يتركها ليركن في حفلات أو محفلات رائعة نجرها المال. في المساء، انطلقنا مجدداً وسافرنا صوال النيل إلى أن بلغنا «بركة الحج» في صباح يوم الثالث والعشرين؛ فقمنا بالتالي بالرحلة كنّها من الصور في سقة أيام؛ وهي مسيرة أنهكت قواي جداً جزاء الموسم الحار. عند «بركة الحج»، قام العديد من بلاء القاهرة بملاقاة القافلة؛ وكان في بيته ساء الباشا التحميم هالك بصعقة أيام بين سائين الحيل ولعجزي عن مواصلة الرحلة بنفسه. بسبب وهي الشديد، في اليوم نفسه (عنى الرعم من أن القاهرة لا تبعد سوى أربع ساعات)، فقد كنت هنا، ودخلت المدينة في صباح الرابع والعشرين من شهر حزيران/ يوبو. بعد عياب دام ستين ونصف السنة تقريباً. ووجدت أن الرسائل للتي كنت قد أرسلتها من المدينة لم تكونا بعد قد وصلت، فطر معارفي أي صلت. وكان الطاعون قد رال تقريباً، وحقت جدته، وأعاد المسيحيون فتح مارلهم؛ كنر اكتئاباً شديداً كان يبدو سائداً في المدينة بسبب الوباء التي حدثت فيها.

لقد تضاعفت الفرحة العامة التي شعرت بها لعودتي إلى القاهرة بسبب رسائل المديح المشجعة التي تلقيتها من إكلترا؛ إلا أن حالتي الصحية كنت ضعيفة جداً فلم أتمكن معها من الانحماص كلياً في ملذات السجاح.

إن طلاء القاهرة هم صف الدجالين والمشعوردين الأوروبيين نفسه الموجودين بكثرة في أجواء أخرى من الشرق؛ فقد جعلوني أبتلع كميات من الدواء، وزادوا بالتالي مرضي سوءاً. ولم أتمكن من استعادة عافيتي كاملة إلا بعد شهرين في الإسكندرية حيث ذهبت لزيارة الكونوبيل Misser البريصاني المقيم في مصر. والذي كان قبلاً قد أسرنني بكثير من الطاه؛ وأنا أدين بشفاثي لرعايته اللصيفة وعنى التمرين المنتظم على الحيل معه، أكثر من أي شيء آخر.

كما أن رحلة ممتعة فمت بها في أشهر الشتاء عبر شمال مصر وبحيره مرقة، قد أعانتي على استعادة صحتي وقوتي المعتادة التي يسرني القول إنها لم تشهد منذ ذلك الحين أي اضطرابات أخرى.



السلامة



بالتعاون مع

در تحقیق تکلیف و ارزش سودی

ملحق

رقم - ١ -

مخطات نانلة الحج، وتُدعى «حج الكبش»،
عبر الاراضي الجبلية بين مكة وصنعا إلى اليمن.

مكة

اليوم الأول: شداد، فيها بعض المناهي

٢. قرى، وهي قرية صغيرة على قمة جبل اسمعو بهذا الاسم

٣ لطائف

٤: عباسية، في مقاطعة عرب ثقيف.

٥: ملاوي جنداره، وهي مقاطعة عرب بني سعد.

٦ محرة، وهي مقاطعة عرب باصرة إن القرية الرئيسية بقبيلة بني سعد هي لعم، وبقبيلة

باصرة هي صور التي تبعد مسافة يوم واحد شمال أقصى حدود رهران في هذه المقاطعة أيضاً
لرية بحيلة الحصة

٧: السرا لعر ثقيف.

٨. برحرج، ونفع على الطرف الشمالي من رهران، وهي مقاطعة يسكنها عرب يحمود

لاسم نفسه ولرهران هذه هي إحدى البلاد الأكثر خصوبة في السلسلة الجبلية، على الرغم
من أن قرها تفصل عن بعضها بعضاً بصحور حرداء وتقطعها قبائل رهران من بني مالك وبني
عايد. إن رعيم رهران، بحرج، بعد أن قاوم محمد علي باشا بشجاعة، أخذ على حير عزة
بي آدار/ مارس، سنة ١٨١٥، وتم تقطيعه بوحشية بأمر من ذلك الجنرال التركي.

- ٩: وادي علي، في المقاطعة نفسها.
- ١٠: بشينة، رتقع على حدود زهران الجنوبية.
- ١١: رغدان، وهي سوق لعرب غامد.
- ١٢: قرن المفضل، لعرب عامد.
- ١٣: الزاهرة، للعرب منهم. تملك قبيلتا زهر وعامد الحجر والمقطعات اتحاداً في تهامة. أو السهل العربي باتجاه البحر، فضلاً عن السهل الشرقي لأعلى إن المركز الرئيسي بقسلة غامد، هو مخوع، وهي مدينة لا يجب الخلط بينها وبين مُحَا.
- ١٤: الرهيطه، لقبيلة شمراان القوية البائدة.
- ١٥: أدنه، لعرب شمراان.
- ١٦: تبانه، لعرب شمراان، وهي تمتد على طرفي جبال في السهل العربي والشرقي.
- ١٧: الخصبا، وهي سوق عرب شمراان.
- ١٨: العسائلي، وهي قرية لقبيلة عسائلي.
- ١٩: بو شفرة، وهي سوق لهذه القبيلة التي كانت سابقاً موحدة مع عسائلي، لكن الرعيم الوهاجي جعل منها قبيلة محتمة وبأثرة.
- ٢٠: شط ابن عريف.
- ٢١: بدوان، ويسكنه هذ المكان، وشط ابن عريف، عرب قبيلة تُدعى أهل العريف.
- ٢٢: المطب.
- ٢٣: ابن معان، وهي تحض مع المطب، عرب ابن قطلان.
- ٢٤: عسل، وتقع في أراضي قبيلة عسير القوية.
- ٢٥: ابن الشاير، لقبيلة عسير.
- ٢٦: دهان، لعرب محطان، وهي إحدى القبائل الأشد قوة وعموداً في الصحراء الشرقية.
- ٢٧: درب ابن العكيكة، وهو وادٍ تسكنه قبيلة ربيعة التي تنتمي إلى عسير، وهم حيالة أشداه.
- ٢٨: درب سمان، لقبيلة ربيعة.
- ٢٩: وكشف، لعرب عبيدة. في مقاطعة عبيدة، هناك مدينة عرس في أراضي شديدة

الخصوة. ومن عرب جنوباً، يحتفظ العرب ببعض الجمال على الجبال والعديد من الخراف والماعز وهم ما يدعويهم ابدو باسم شواوي، أو أهل شاه، أو أهل نل.

٣٠: وادي يهود، لعرب عبيدة.

٣١: حوض ابن زياد، لعرب عبيدة.

٣٢: ظهران، وهي مقاطعة وسوق لقبيلة وادعة.

٣٣: كراص، لقبيلة وادعة.

٣٤: رعاة، لعرب صخار.

٣٥: طحيان، لعرب صخار.

٣٦: صعدة، لقبيلة صخار. من صعدة تنطلق القافلة، أو حجّ الكيسي، وهي تدعى كذلك من الأمير أو رعيم الحج، المصنّف بالكسي. يجمع احتجاج كنهم من الأجراء انداخلية كلها في اليمن في صعدة، وهي مدينة كبيرة لكنها في حالة متداعية، وهي مشهورة في شبه الجزيرة العربية بأنها مكان مولد يحيى بن محسن، المتعهد الرئيسي للمذهب اليزيدي، الذي له موالون عديدون في تلك البلاد. وقد ظهر مؤخراً قديس حديد في صعدة ويدعى سيّد أحمد الذي يُخلّله اليزيديون جداً، أو المذهب اليزيدي، وهم يُلقّبونه بالولي أو القديس حتى خلال حياته. ويحكم العرب صعدة، وامتد النفوذ الوهابي إلى هذه الأنحاء. ويسكن العرب البلاد من صعدة باتجاه صنعاء، تحت رعاية إمام صنعاء.

٣٧: عاشميه، لقبيلة شعيان.

٣٨: سوق لعرب بكيل.

٣٩: سوق أخرى لقبيلة نفسها. يخدم عرب بكيل وحاشد في هذه المقاطعة في جيش إمام صنعاء؛ ويذهب العديد منهم إلى الهند، ويفضلهم هناك الأمر، على أيّ صفقة جود أخرى. ولدى الصاحب تيو عدة مئات منهم في خدمته. وهم يُبحرون عادةً عند شاهر في حصرموت، ووجهتهم الرئيسية في الوقت الحاضر هي عوريرات وكوتش.

٤٠: غولة عجيب، لعرب حاشد.

٤١: ريدة، لعرب عمران.

٤٢: عيال شراح، لقبيلة حمدان.

٤٣: صنعاء. من مكة إلى صنعاء، رحلة استمرت ثلاثة وأربعين يوماً حيث يقوم أغلب الحجاج بالرحلة سيراً على الأقدام.

رقم - ٢ -

حول البلاد التي يُضاف عبرها الحجاج «الكسبي»
 رحلت عادات بعض القبائل العربية الاستثنائية

نقع طريق الحُجج هذه كلها على طول حمال الخمار والبحر، ويمتد السهل الشرقي على حبه منها، وتهامة، أو ساحل البحر، على الجهة الأخرى وتمرُّ الطريق أحياناً عبر ممرات صعبة وشائكة على قمم الجبال، والمياه ووفرة في الآبار والسواقي، وأصقاع بلاد كنه مأهولة بكثافة، لكنّها غير مرروعة في كل مكان، حيث نجد الحقول المسوحة والأشجار في حوال الماء فقط. وهناك قرية عند كن محطّة للحجج، وقد بُني معصمها من الحجر وتقطبها قبائل عربية آتية أصلاً من هذه الجبال وانتشرت الآن على السهول المحاذية. وبعضها قبائل مهتة كزهران وشمران وعسير وعبيدة، وبإمكان كل منها أن تؤمّن من ستة إلى ثمانية آلاف بدقية قديمة (دات الرناد)، حيث تكسر قوتهم الأساسية في هذه السدقات والجياد قليلة في هذه الجبال، لكن قبائل قحطان ورفيصة وعبيدة انتشره كذلك على السهل، تلك سلالة كحج الجيدة. إن إنتاج هذه البلاد لا يكفي السكان محسب، بل يمكنهم من تصدير كميات كبيرة من القهوة والمخطة والمصوباء والعب واللوز والشمس الخفيف، إلخ.

يقال أن شجرة القهوة لا تنمو شمالاً حلب مشيتة، في بلاد زهران، إذ إن شجرة ينحصر نوعها باتجاه الجنوب، ويُحس أفضل أنواع القهوة في جوار صنعاء. وينمو العنب بفرارة في هذه الجبال، فالعنب يشكل صفاً شتاعاً من العدا لدى العرب، ويتم تصديره إلى المدل على ساحل البحر، وإلى جدة ومكة حيث يُصنع منه نوع من السيد. بالطريقة الثانية: يوضع العنب في حرار صحارية تملأ بالماء وتُدفع في الأرض وترك هناك لشهر كامل ثم حلاته عمليات التحمير وكما تُررغ في هذه الحس أصناف أخرى من العاكهة حيث تتوافر المياه بوفرة في الأوقات كلها وحيث اساح معتدل وقد تساقط الثلج أحياناً وتجمد المياه حتى صعدة. ويشتري لعرب ثيابهم القطنية في سوق تهامة أو على الساحل، كما يبيعهم الحجاج المازون بعض الأدوية والتوابل والإبر، ويندعوب طريقتهم في أمان تام، على الأقل مد أن أحصغ ابوهايتون البلاد كلها غير سيطرته والطعيات، بعد معارك دامية، على الشيوخ المعادين الذين كانوا مُرغمين على دفع ضريبة أو إتاوة مسوية.

تنتمي معظم القبائل العربية حبوب زهران إلى المذهب الريدي، وهم يعيشون في قرى، كما أنهم على الأحص من يدعوهم العرب باحصر، أو المستوطنين، وليسوا بدواً، لكن، بما أنهم يملكون قطعاً من الماشية كبيرة، فهم ينزلون في وقت المطر إلى السهل الشرقي الذي يؤمّن

مرعى وافرأ خصباً للأبقار والجوام والحراف ويحصبون على الثياب والأدوية والمعدات، إلخ، من المراهىء البحرية في اليمن حيث يسعون العاكمة المحقة والبلح والعسل والزبدة والقهوة، إلخ. وهم يقايصون الذرة بالماشية مع بدو السهل الشرقي. ويتم بينهم تداول الدولار الإسياني؛ لكن البضائع كلها في أسواقهم تشتت بمكائين الخطئة. ويتألف ربي هؤلاء البدو عامة من القماش القطني والجلد.

قل أن يقوم الوهابيون بتعليمهم أبادىء الإسلام الحقيقى، لم يكونوا يعرفون من دينهم أكثر من «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»؛ ولم يقوموا أبداً بأدوية الشعائر والعقوس المفروضة. وكانت قبيلة المريقة وهي فرع من قبيلة عسير الكبيرة، تمارس عادة آبائهم الأولين وأجدادهم القديمة عبر تقديم إحدى نساء العائلة إلى العريب الذي يرل في حبيهم أو ماريهم لتكون رقيقة له خلال الليل؛ وتكون عادة زوجة المصيف نفسه لكن هذا النوع من الصياغة البربرية لم يكن يطبق على العدري. وإن كان هذا العريب ساعاً مع شريكته، يُعامله مُصيفةً بعناية فائقة في الصباح التالي فيروده عند رحيله مؤن تكفي ما تبقى من رحلته لكنه. إذا لم تُرض السيدة، لسوء حظه، فإنه يجد عيائه في اليوم التالي مرققة كإشارة منها على استيائها وعدم رصدها وحين يعلم الخبر، يتم إبعاد المسافر ستيء الخط، وتُحق به نساء القرية وأولادها كلهم الحري والعار. ولم يكن من السهل على الوهابيين دفعهم إلى ترك هذه العادة جدياً. ولأن المظر كان نادراً في الستين الثاليتين، فقد اعتبر عرب مريقة أن هذه البلية كانت عقاباً لهم لتخليهم عن شعائر الصياغة الجديدة بالشاء وطفوسها، والتي مارسها أسلافهم خلال قرون عديدة.

لقد سمعتُ عن انتشار هذه العادة العرية في قبيلة مريقة خلال أسفاري بين البدو السوريين. غير أنني لم أستطع تصديق مثل ذلك الخبر الذي لا يسحجم، أو بالأحرى يتناقض مع معاهيمنا الثابتة تجاه الاحترام الذي يُرعى به شرف المرأة عند العرب. لكنني لم أجد قادراً على التشكيك في هذا امرصوع بعد أن حصلت في مكة والطائف على إثباتات لا تقبل الشك من أشخاص مختلفين شهدوا فعلياً هذا الأمر وأكدوا لي صحته.

قبل لاحتلال الوهابي، كانت العادة السائدة بين عرب عسير هي بأن يأخذوا فتيانهم اللاتي بمن س الروح إلى السوق العامة وهرن في أحلى حللهن وكانوا هناك يسيرون أمامهن ويادون عالياً من يشتري العنراء؟. ويتم الزواج المتفق عله من قبل أحياناً، في السوق دائماً، بحيث لم يكن يُسمح لأي فتاة بالزواج بطريقة أخرى.

وسمعتُ أن السور والذئاب تكثر في هذه الجبال، لكن ليس هناك أي نوع من الأسود وللعرب هنا نسل جيّد وأصيل من البغال والخمير.

رقم - ٣ -

الطريق من الطائف إلى صنعاء

لقد أطلعني علي هذه الوجهة رجلٌ فقير كان يسافر مع زوجته سنة ١٨١٤ من صنعاء إلى مكة وكان من أساء مكان ما يقع قرب صنعاء. وبما أن الحج، أو حج الكسبي، قد انقطع لبضع سنوات، ولم يكن بإمكانه تحمل نفقات الإبحار إلى جدة، فقد أخذ هذه الطريق العملية حداً، حتى في هذه الأيام العصيبة، لأولئك لفاديس على المرور كحجاج دون إثارة الشبهات وكانت تُكرّم وهديةً هد لرجل أيما كان وعند وصوله إلى قرية ما، يذهب إلى المسجد ويتلو سورة من القرآن، هناك تعرب حينها يسألون عن هويته وبرؤونه بالكثير من القمع وخيب والعب والسُحم، إلح ولم يعب من اللصوص طريقه أبداً إلى أن وصل إلى مراكز جيش محمد علي التركي المتقدمة، حيث تم سجنه وتجريده من كل مؤنثه بفعل بعض الجود وهو يعجز عن تحديد أي يوم لرحلته قديماً لأنه كان يتسكع من مركز إلى آخر مستطراً أحياناً بعدة أيام على يحصل على بعض الرفقة له على الطريق. وقد استغرقت رحلته كلها ثلاثة أشهر وكان يُعيل نفسه غير العناء خلال الليل أمام مزارع الحجاج لأثرياء، فيردُّ سوراً تكريماً ليسي الطريق وكانت طريقته كما يلي: -

الطائف، عرب بني سعد، عرب الناصرة، سوق بقية، أو بجيلة، سوق رباح، أمداق في بلاد زهران، اسقاع في بلاد زهران، رعدان في مقاطعة عرب عايد، ضنات ويقطعها عرب عايد وأولئك المدعوون «خشم»، وهي قبيلة قديمة جداً اردهرت في فجر الإسلام، عرب شمرا، بن قرا، ابن دهمان، وهي قبيلة تُدعى كذلك؛ ابن الأحمر، وهي قبيلة عربية أخرى، ابن الأسمر، قبيلة عربية - إن نلادها تُدعى «سم سكينها الذين لم يعمل عنهم هد البحر رعم أنه لم يسترحج دائماً أسماء القرى التي مر بها في مقاطعات كل قبيلة - عسير، إن هذه القبيلة الآن قد توحدت مع الثلاثة السابقة تحت قيادة واحدة، رعيم عسير، الطامي، وقد ثبت أنه خصم محمد علي الأكثر ثباتاً، وكان مقر إقامته الرئيسي في حصن الطور المبيع الواقع على مربع وتحيط به الجبال وكان له كذلك قصر آخر أصغر حجماً ويُدعى قصر الطيبد، في مدينة تبعد عن القعدة على ساحل البحر مسافة تتراوح بين أربعة إلى خمسة أيام

في مقاطعة عسير، مر الحجاج بالمدن التي تُدعى «شقرتين» و«الصحبية» و«شوهطة» و«الحوف» كانت الطريق حتى الآن تقع دائماً على قمة جبل. وتابع المسافر من ها إلى أمام على طول الأودية التي تؤلف سلسلة المستقيمة من التلال التي تقطع السهل الشرقي

عرب ربيعة؛ وعرب عبيدة؛ وحرجة؛ وهي مدينة في مقاطعة عرب سحان، وتحتوي أيضاً على الوادي الخصب الذي يُدعى «الراحة» ثم حمرة، وهو مكان يسكنه عرب سحان يقع على مسافة يوم واحد شرقي وادي بجران، وهو يحضر قبيلة زهران؛ ويم، وتسكنه قبيلة وداعة، ويقع على الجبل، لكن أهل وداعة يحتلون أيضاً الأودية السفلية؛ باقم، وهي قبيلة عربية، وتقيم إلى الشرق منها قبيلة عرب حول القوة؛ ضحيان، من قبيلة صخار؛ صعدة. والمخططات العادية من صعدة إلى صنعاء هي: بيب محاهد؛ جرف؛ خيوان وحوث، وهما مكانان يقعان في مقاطعة قبيلة حاشد؛ ديب؛ غمران، صنعاء - سبعة أيام من صعدة إلى صنعاء

رقم - ٤ -

ملاحظات تتعلق بالبلد الواقعة جنوب مكة

لقد سبق أن وصفت الطريق من مكة إلى لطائف. يقع «لية» على مسافة بعد أربع ساعات عن الطائف، في الاتجاه الجنوبي الشرقي؛ وهو وادٍ فيه ساقية وحدائق غناء ومارل عديدة على صفاف الجدران. وعلى مسافة نحو ساعتين جنوب لية، يقع قصر «بس» الشهير على الجبل، ولذي شئله رعيم عرب الحجار كلهم الأخير، عثمان المصايقة الذي سُجن بالقرب منه في شتاء سنة ١٨١٢. وهما، خاص محمد علي باشا معركة الحاسمة مع القوات الوهابية الموحدة، في شهر كانون الثاني/ يناير سنة ٨١٥. من لية، تمر الطريق على مسافة سبع أو ثمانية ساعات من وادي لية. والثني عشرة ساعة من الطائف وهما كنت مراكز الجيش التركي الرئيسية لأشهر عدة سنة ١٨١٤. وهو مكان مكشوف خالي من الأشجار أو أي مياح، وفيه العديد من حفر المياه؛ ويمتد من الطائف بالاتجاه الشرقي والجنوبي الشرقي. ويعيش عرب قبيلة أسامة حول لية وكلاح، وهم يشكلون جزءاً من قبيلة عنية الكبيرة. وتقع أينة بين كلاح وثره، خارج الطريق لمستقيمة، وكانت فيما مضى مقر إقامة الرعيم الكبير المصايقة. وتقر عبر كلاح، الطريق الأكثر ريباً من نجد إلى صهران، ومن هناك إلى المراهي البحرية في اليمن. وبالتقدم على انسهل من كلاح حيث يميل أكثر إلى الجنوب لمدة ثمانية عشرة ساعة تقريباً، نصل إلى مدينة ثرة كما يدعونها أهل الطائف ومكة، أو ثرة، حسب اللفظ الهندي وقال لي جسي يحمل ساعة إنه قد أحصى ثلاث ساعات سيراً بين لطائف وثره. وهي مدينة هائلة بحجم الطائف، وممثلة بمرارحها التي تزود البلدان المجاورة كلها بالتمر؛ كما يذبح صبيها للمقاومة التي أبداها ضد القوات التركية التابعة لمحمد علي، حتى شهر كانون الثاني/ يناير سنة ١٨١٥، حين أرغم سكانها على الاستسلام وتُحيط بثره بستائر السحر والحدائق ويرونها العديد من السواقي أو

الأبهار الصغيرة؛ وتنع بالقرب منها نلال غير ذات شأن يزرع العرب على سطحها الدرر والشعير وسكانها هم من قبيلة يقوم وشيخهم هو ابن قُرشان. وقد حدثت إحدى النساء وتُدعى عالية اسمها، وهي أرملة شيخ متوفى، وذلك عبر النصحية بملكاتها للدفاع عن المدينة وحمايتها، كما اضطعت بدور هام وفقال في مجلس الزعماء. ويقطن عرب عتية البلاد حول نربة ومن هناك إلى كُلاح، وهي القبيلة الأكثر عدداً في قبائل الحجار. وقام شعبُ البقوم بتسييح نربة بحذار ونباء بعض الأبراح وهناك في الوقت الحاضر فرقة جند تركية متمركزة، لأنه مركز رئيسي على الطريق العام الكبير بين نجد واليمن

ومنابع الطريق من نربة جنوباً، إلى الشرق من سلسلة الجبال الكبيرة، على أرض غير مستوية تقطعها عدة أودية، نصل بعد يومين من نربة إلى مدينة رنية التي تسكنها قبيلة سبيعة العربية، وشيخها هو ابن قطان، وهو شخصية تميّزت بالشجاعة في الحمة على حدود الباشا لأنراك وعليه مسافة ثلاثة أو أربعة أيام من رنية، تقع مدينة بيشة، وهي مساحة متوسطة تسكنها قبيلة بني أسب. إن بيشة هي المركز الأشد أهمية بين الطائف وصعاء، وهي مقاطعة شديدة خصوبة وعية جداً بأشجار النخيل. إن جيش محمد علي التركي وتباعه وحلفاءه البدو اندس إليهم عددهم عشرة أو اثني عشر ألفاً من الرجال قد وجدوا لها مؤناً كافية تتوقف دم أسبوعين، وراذ يكفيهم في مسيرتهم جنوباً لعدة أيام. ويُطلق العرب على بيشة اسم مفتاح اليمن؛ لأنها تقع على إحدى أكبر الطرق من نجد إلى اليمن؛ وقبل أن جبالاً تعبله الحمولة لم تستطع الحجيء من مكة إلى اليمن من أي صريق آخر؛ وإن هك ممراً سهلاً على شاطئ البحر حلف بيشة عرباً بمز عبّر سلسلة الجبال الكبيرة. وقد نشبت عدد بيشة معارك عديدة بين الشريف غالب وسعود الرعيم الوهابي الذي قام بعد انتصاره بتشديد قصرين في حجار وأوكهما إلى ابن سُكبان Shokban الذي جعل منه كدنت رعيم فينة بني سبم، وهُم سُكبان بيشة القادرون على تأمير نحو ثمانية إلى عشرة آلاف بسقية وقام بن سُكبان بعد ذلك بمعارضة الجيش التركي بلبابه والوقوف في وجهه. ويُعتقد أن سُروء مكة كانوا سابقاً يمدكون على الأقل سلطة اسمية على البلاد كلها من الطائف حتى بيشة. ويجد في تاريخ «الأعصمي» العديد من الأمثلة حيث سكن سُروء في بيشة مؤقتاً وكان في حبشهم متطوعون من قبيلة بني سالم

وبيشة هي وادٍ عريض مسيح يبلغ طوله مسيرة ست إلى سبع ساعات وتكثر فيه السواقي والآبار والحدائق والمارل هنا فصل منها في الطائف وهي متشعبة بغير انتظام على مساحة كلها والحصن الرئيسي متين وحصين ومسيح جد، وبه جدران ضخمة شامخة وقد أحاط به حديق وعلى مسافة ثلاثة أو أربعة أيام، إلى الشرق والجنوب شرقي من بيشة، تُغطي السهل محيتمات عديدة لعرب فحطان، وهم إحدى القبائل الأكثر قدماً التي ازدهرت قبل محمد

المزوح المسعودي كسكان أسوان. وقد لاقى الوهازيون صعوبة فائقة في إخضاع هذه القبيلة التي أصبحت، على الرغم من ذلك، مرتبطة بالمناخين الرافدين. ولا تزال كذلك. ويمتلك بنو قحطان مراعي خصبية حيث يرتبون العديد من الجياد الأصيلة. وقد أصبح العدد الكبير من الجمال التي يملكونها مصير مثل في شبه الجزيرة. والقبيلة منقسمة إلى فرعين أساسيين وهما الشهباء Es-Sahama والعاصي El Aasy في شهر كانون الأول/ ديسمبر، قام القحطانيون بعارة باتجاه حجة وأحدوا أمتعة بعض الخيالة الأتراك الذين كانوا متمركزين لحماية الطريق بين حجة ومكة؛ ويرعى العديد منهم ماشيتهم أحياناً في مقاطعة نجد.

من يشة إلى عرين، في بلاد عرب عبيدة، هناك مسافة خمسة أيام، حسب الطريقة البدوية في السفر، لكنها تسع ستة أو سبعة أيام حسب مسيرة حجاج الكسبي. ويشة نفسها تعد بحو يومين من الحبل العربي. وهناك عبي الأقل مسافة أربعة أيام من يشة إلى مقاطعة زهران. وكل العرب من تربة إلى يشة، ومن هناك غرباً، هم مرارعون؛ وأولئك في الجنوب والشرق هم بدو أو غجر متقلون.

ويعيش عرب الدواسر إلى الجنوب الشرقي من يشة، على مسافة أربعة أو خمسة أيام، وذلك خلال فصل الشتاء لكنهم ينتقلون في الصيف إلى أراض تتوافر فيها المراعي الأكثر خصوبة في نجد، وهي الحدود الأقرب التي تبعد فقط مسافة ثمانية أيام. وهم لا يملكون جياد لكنهم يزودون الوهازيين خلال حروبهم بحو ثلاثة آلاف من سائقي الجمال. ويقال أن الدواسر هم رحان فارعو القامة ودو لو أسود تقريباً وكانوا في السابق يبيعون ريش النعام في مكة إلى الحجاج الشماليين، فكان العديد من الباعة المتحولين يأتون من مكة إلى هنا في الشتاء لمقابلة الأقمشة القطبية بهذا الريش.

محاداة الدواسر، هناك بنو كسب، غير أنني لست قادراً على تحديد الاتجاه تماماً. وهم بدو يُروى عنهم العديد من الحرافات غير المطلقة في الحجاز فيقال أن الرجال لا يتكلمون العربية أبداً بل هم يسبحون كالكلاب؛ وهو مفهوم قد يكون خطأ من اسم «كلب». غير أنه من المضحك لساء التكلم بالعربية، والحقيقة هي أن الساء من اللاتني تُرْفَعُ عن العريب الذي يرل ضبعاً في خيمهم وليس الرجال.

على منتصف الطريق بين وادي دواسر، أو أرض المراعي الشتوية، أراضي عرب قبيلة (وداعة)، وعلى مسافة أربعة إلى خمسة أيام من مدينة صعدة، يقع وادي بحران على أول سلسلة من سلسلة الجبال الكبيرة. وهو وادٍ خصب بين الجبال التي يتعذر المرور فيها بسبب ضيق ممراتها إلى حد يصعب معه لجمالين أن يمرّاً جساً إلى جب. وتروي الأنهار الصغيرة الوادي الذي يكثر

فيه أشجار لحين ويُقيم هنا بويتم، وهم قبيلة قديمة تميزت مؤخرًا بمعاصمتها للوهابيين، وهي تتألف من مستوطنين ومن بدو، المستوطنون هم شيعة أو مشقون عن المذهب الفارسي، أتباع علي، في حين أن البدو هم في أغلبهم من أهل أسنة أو من المسلمين السنة وهؤلاء الأخيرون منقسمون إلى قبيلتي عقمال ولزعة، وهم أصعب من أتباع علي وعدلًا ما يكونون على خلاف ونزاع معهم على الرغم من أن الفريقين يتحدان كلًا هاجم بحران عدوًا غريب. ويمكر للمستوطنين جمع نحو ألف وخمسمائة مدقية. وقد قامو مرتين بإبعاد الرعيم الوهابي سعود الذي كان قد أحصى القبائل العربية الأخرى كلها باستثناء بني ضبح، من سهل بني حرب الذين يقطنون في الأجزاء الشمالية من الحجاز. وقد عقد بويتم نوعًا من اتفاقية أو معاهدة مع الوهابيين فسمح لهم بتدبير اختط سويد. ويرور بعضهم قبر علي عند «مشهد علي» لكن في ظروف صعبة جدًا لأنهم قد يدعون حياتهم نسًا لاندفاعهم وحسناتهم الدينية، ما تم اكتشافهم على الطريق، وهذا ما يحدث تكرارًا، فلهجتهم العربية بحوهم أحيانًا فتكشف هويتهم. وإن من يؤذي واحده عند قبر علي يُعتبر قدسًا في بحران

حين يقوم رجل من بني تم برحلة، فإنه يُرسل روجه إلى مرل صديق به من المعروف أن عليه الحصول مكان الروح في كل المحلات في أثناء عيابه، ثم يعيد له لستة عند عودته. وقد يُلاحظ هنا أن سم «بحران اليمس» مذكور في تعاليم الدرود؛ حيث يُطالب أحد الأسئل وهو «هل بحران اليمس مهتمة أم لا؟» كما أن اندابع في بحران مشهورة في أنحاء شبه الجزيرة كلها

لا يصل إلى المناطق النائية الحجاز، مذكوره هنا، جنوب مكة، إلا البدو أو التحا البدو. حتى في زمن السلم؛ وليس لها أي وسيلة اتصال منتظمة مع مكة عبر القوافل؛ باستثناء تربة التي ينقل سكانها تمرهم في قوافل إلى مكة وجذبه شهريًا (يمز أهل نجد باستمرار في هذه المصطفة بحثًا عن القهوة وحلّال سيطره الوهابيين، لم يكن هناك أي طريق أخرى بين اليمس والمقاطعات الشمالية في شبه الجزيرة. وبأدرا ما تعم هذه البلاد بالسلام، إذ إن حبيبين يُصمرون العداء بسكان الرعيين في المقاصعات السمي، وهم غائبًا في بوع وحلاف معهم. كما أنهم جميعًا شعورون بالحروب، إلا أن الوهابيين يحو في كتب عدواتهم الشخصية وصطفها.

إن البلاد من مكة باتجاه الجنوب إلى شاطئ البحر، عربي سلسلة الجبال، مسطحة تقطعها تلال تحتفي تدريجيًا عند الاقتراب من البحر، فيشكل الشاطئ سهلًا مبسطًا مستويًا في كل اتجاه تقريبًا على مسافة عدة ساعات. وترنأ القوافل الطريق البرية في زمن السلم، فإنه تتابع

سيرها بمحاذاة الساحل قريباً من المرفأ، وإثماً على سمح الجبال؛ ولا تؤمُّ الطريق الأولى إلا القليل من الماء.

أول مكان مأهول جنوب جدّة هو ليث الذي يقع على مسافة أربعة أيام منها. وهو مياء صغير يهجره الناس الآن خوفاً من الجليّين. وسكان ليث هم في معظمهم من قبيلة بني حرب، وهم عديدون وأقوياء في البلدان الواقعة بين مكّة والمدينة وهناك العديد من المحيّمات لعرب «هشم» على هذا الساحل وتستغرق الرحلة من ليث صعوداً في الجبال إلى مقاطعة زهران ثلاثة أيام ونصف. فس ليث إلى الشقّة، وهي بلدة صغيرة، يؤمُّ يوم واحد، ومن هناك إلى دوقه المسافة نفسها. وتقع دوقه قرب المنطقة الجبلية وهي سوق كبيرة وماتّة؛ إلا أن سارها وأكواحها قد بُيّت بالأحشاب والقصب فقط وليس من الحجارة وسكانها هم في أغلبهم شرفاء، مرتطون بالنسب مع عائلات شرفاء مكّة الذين أمّروا لهم المصطفى في الحروب المدينة الأخيرة. وتستغرق الرحلة من دوقه إلى مياء قلعة المشهور يوماً وحداً. ويقع مرفأ حني الصغير على مسافة يوم ونصف جنوبي القعدة؛ وهو كان يُقبل الحدود الجوية للأراضي الخاصة بشريف مكّة اندي كان يحتفظ بمركز لجمارك وموظفين في المرفئين. وقد استولى الرعيم الوهابي عثمان انصايعة من الشريف على القعدة سنة ١٨٠٥ أو ١٨٠٦؛ ووقع كل الساحل من هناك إلى جدّة في سيطرة الوهابيين. وسنة ١٨١٤، سمّت فرق جيش محمّد علي التركية جاهدة بتركيز نفسها هناك لكنّها ما لبثت أن طُرِدَتْ بعدما تكبّدت خسائر فادحة على يد طامي غير أن محمّد علي نفسه عاد واستولى على القعدة سنة ١٨١٥، بعد عودته من الحملة التي شنّها ضدّ طامي، شيخ قبيلة عسير.

تبلغ مسافة الرحلة في القافلة بين جدّة والقعدة سبعة أيام من السفر السهل المريح بمحاذاة الساحل ومن جدّة إلى ليث، هناك طريق أخرى تقع أكثر إلى الشرق، وهي جبلية نوعاً ما، وتقع على بُعد خمسة أيام. وتتوافر المياه فيها بعرارة؛ في حين أنها لا نجد على طريق الساحل سوى بئر واحدة بين المدينتين.

في زمن السّلم، يكثر ارتياد الطريق الأخرى من مكّة إلى اليمن بمحاذاة السفوح العربي للجبال الكبيرة. فتصل القوافل أسبوعياً، خاصة من مخواه التي بعد خمس عشرة ساعة عن دوقه، ويوماً وحداً عن مقاطعة زهران في الجبال ومخواه هي مدينة كبيرة تبعد عن مكّة مسافة تسعة أيام حين تسير القوافل ببطء. وفيها أسية حجرية؛ وهي السوق التي يبيع فيها تجار زهران والمناطق المحاذرة إنتاج عملهم إلى تجار مخواه الذين يرسلونه إلى مكّة وجدّة. والبلاد حول مخواه حصبة جداً وتسكنها قبائل بني سليم وبني سعيّدان وبني علي الثلاثة؛ وقد

حصعت القبيبات الأحيرتان اللوهابين وخكهنهما طامي، شيخ قبيلة عسير وهما أيضاً في محواه العديد من قبيلة بني عامر. إن التفاعل بين هذه لمدينة ومكة كبير جداً في زمن «سليم» ورمي ثروؤد مكة من هذا المكان شئت مؤبها من احسوب من مختلف الأنواع ونفع للطريق بين هاتين انديتين عبر الأودية بشكل أساسي، وتقطع اقليل فقط من التلال. كما تقع عليها بعض القرى التي يسكن في أكواحها البدو وامرارعون. ويحذر بي هنا أن أكرر استديد على عدم الخط بين محواه وقفا

ويمر البيرمان الأولان في اسمر في أراضي قبيلة جهادلة التي يحدها من الجنوب وادي للم، وهو وادٍ حصص فيه يبيع عديدة. ويعيش حلفاء يوفهم. وهي قبة قديمة قل عددها الآن حداً وقد اشتهروا عبر الحجار بمحافظتهم على نفاء لعتهم أكثر من القبائل الأخرى، إذ إن من يسمع أحد صنيتهم يتكلم سيفتنع بأنهم يستحقون هذا التقدير

تدعى البلاد الواقعة عربي لسلسلة الجببة الكبيرة، رولاً إلى البحر، تهامة. وهي تسمية لا تطلق على أي مطاعة خاصة، على الأقل في هذا الجزء من شبه «حريرة»، بل تطلق عامة على الأراضي اسحقصه باتجاه الساحل. ويشتمل البدو بهذه التسمية امصق الواقعة كذلك باتجاه الشمال حتى يسع إن شعت تهامة هو شعب فقير بسشاء من يتعاضى منهم التجارة، لأن في البلاد القليل من المناطق الخصبة، وفيها مراع أقل من الجبال حيث تهطل لأمطار بعراره أكبر وهماك «حيث» في تهامة «سمى» تهطل الأمطار ثلاثة أو أربعة أيام فقط. خلال سنة كاملة وقد تراجع بدو تهامة القاطنون جنوب مكة إلى الجبال. حين اجتاحت محمّد عدي الحجار، ليس خوف من الأتراك، لكن في مثل هذا الموضع غير مستقر، أصبح القبائل الضعيفة غير آمنة في الأراضي المكشوفة، فتحشى أن يعاجتها بدو المحاربون الذين يشمون إلى القبائل العدائية الأشد قوة، والذين لم يقامرو خلال حكم لوهابين في إظهار عداوتهم، ولكنهم «طلقوا» لأن لا يردعهم شيء. وبين بدر تهامة، هناك العديد من قبائل بني حطيم، وهي قبيلة منشرة أكثر من أي قبيلة أخرى في شبه الجزيرة العربية.

إن الصحراء الكبرى الواقعة شرق بيشة ووادي دواسر، وجوبي مقاطعة نجد، ولتي تمتد شرقاً إلى حدود عمان، يدعواها البدو «الربع الخالي»، أو المكان المنعم بالمحجر. وهي تصح مهجرة تماماً في فصل الصيف حيث لا يوجد فيها أي نمر وفي فصل الشتاء، بعد هطول الأمطار وحين يسو العشت في الزمال، تأتي قبائل نجد والحجار ونيس الكبيرة كلها لترعى ماشيتها في الأجزاء التي تقع على حدود بلادها في هذه الصحراء وترنأ التربة الرملية التعام التي يفتلها عرب دواسر وقد أكد العديد من البدو أن هناك في «الربع الخالي» أجزاء عديدة لم

يتم اكتشافها بعد، حيث إنها تحلو، باتجاه الشرق، من أي نوع من الخصرة، حتى في فصل الشتاء. والبقعة الوحيدة التي تصبح للسكن في هذا الامتداد الرملي انكيب الموحش هي وادي جبرين. وتترس من هناك الطريق التي يسافر عبرها عرب نجد في فصل الشتاء إلى حصر موت. وهي أرض مخصصة فيها أشجار النخيل والآبار؛ إلا أن المساح الوبائي الصار والمزعج الذي يسود فيها يحول دون إقامة الناس هناك. كما يجمع المسافرون المازوب الثمور من هناك

رقم - ٥ -

محطات الحج، أو قافلة الحج من القاهرة إلى مكة

يتعنّن التقرير التالي بطريق القافلة سنة ١٨١٦، حيث كانت المحطات في السابق محتلة في العديد من المراحل، كما علمت من بعض الكتاب العرب.

تجتمع القافلة لأيام عديدة في مكان يقع شرق الخدائق، قرب القاهرة، على مسافة ساعة وحدة منها، ويُدعى الحصوة، ثم تسير قداماً إلى بركة الحج على مسافة أربع ساعات حيث تبقى ليومين اثنين وتبدأ القافلة من هذا المكان في السابع والعشرين من شهر شوال. وهي تُسافر في الليل فقط، فتصق عامة في الساعة الرابعة من بعد الظهر، ثم تتوقف بعد شروق الشمس بقليل عند المحطة حيث يخيّمون حتى المساء.

من بركة الحج

الليلة الأولى: إلى دار الحمرة.

٢: إلى عجرود. تتوقف هنا طوال النهار واليلة التالية وتزوّد القافلة بالماء من السويس لأنّ المياه في عجرود سيّئة جداً.

٤: إلى روس الواطير، وهو سهل يقع في الجبل ويحلو من اناء تتوقف هنا بصبح ساعات فقط ثم تتابع طريقها.

٥ إلى وادي انيب، وهو المدخل إلى صحراء النيب تتوقف هنا بصبح ساعات وإذا لم تجد ماء تدع سيرها.

٦: إلى قصر محن حيث تسريح بعد مسيرة مُصيبة، النهار كله واليلة التالية وتزوّد بالماء وتطلق في المساء التالي.

٨ إلى العلياء، حيث تستريح بعد مسيرة مُصيبة، النهار كله والليلة اثنتا عشرة فتزود بالماء وتنطق في المساء التالي.

٩ إلى سطح العقبة، وهي بقعة سلسلة العقبة العربية تقع بها قرية صغيرة والطريق في الجبل صعوداً وبروياً صعبة جداً. تسير من هذه المحطة ليلة كمنه لتتجه في الممرات الصعبة إلى سهل العقبة وتنتهي.

١٠ تبقى هنا النهار والنس.

١٢ إلى ظهر الحمر، وهي أرض صحريّة فيها مياه سيّئة والعديد من أشجار الحيل.

١٣ إلى شرقه للاً، وهو وادٍ فحل ثمنه وظنن، ويحتمل من ٤٨

١٤ إلى معبر شعب حيث هناك العديد من نهر المياه بعده ومرارح السحيل وأشجار تحت بين الصخور تحمل من هذه المحطة أجمل محطات على هذه الطريق؛ غير أنها مؤثرة بالنصوص ١٥ إلى عيون القصب، وهي أرض ميسطة فيها أشجار الحيل والماء وهي تسحر صحر أراضي أهل مؤنح.

١٦ إلى مؤنح حيث هناك أرض جيّدة للرعي ومياه عذبة. تتوقف القافلة هنا الليل وتبقى حتى المساء التالي.

١٨: إلى سلما، وهو مكان تتوافر فيه المياه بعزّة.

١٩: إلى قلعة أزلّم

٢٠: إلى الإصطبل أو إصطبل عتر. إن المياه الوحيدة المتوافرة هنا موجودة في حفر فسلّة في رمال الوادي فقط.

٢١ إلى قلعة الوحه، حيث المياه عذبة تتوقف لليلة ثم تتابع سيرها في المساء التالي

٢٢. إلى عمرة؛ وهي مسيرة طويلة جداً، فتصل إلى عقرة في مساء. إن المياه هنا رائحة مؤذية ومرعبة جداً. تتوقف القافلة لساعة واحدة

٢٤ إلى الحورة، وتدعى كذلك «در العشرين»، لأنها محطة عشريين من القاهرة وبين عقرة وحورة يقع حنك. وهو وادٍ يحلو من الماء. وهناك العديد من الأشجار في الحورة، كذلك شجر «أراك» الذي يقصع منه الخبز الأعصاب يستعملونه كمرشاة أسنان. والمياه هنا سيّئة وذات نوعية مُسببة وميئة للمعدة.

٢٥: إلى البط.

٢٦ إلى الخضيرة، حيث تقف القافلة لساعة واحدة في الصباح، وتسير فيما تبقى من النهار والليل كله وليوم التالي حتى المساء.

٢٧ إلى يسع النخل، حيث تمضي الليل ثم تتابع سيرها.

٢٨ إلى ندر؛ حيث تبقى ذلك النهار والليل وتنطلق باكراً في الصباح التالي وتصل إلى القاع في فترة بعد الظهر حيث تتوقف إلى المساء ثم تتابع سيرها.

٣١ إلى رابع

٣٢ إلى حريات.

٣٣ إلى عقبة الشكر

٣٤ إلى خديص

٣٥ إلى عسفا.

٣٦ إلى وادي فاطمة.

٣٧ إلى مكة.

ثم يجعلها سبعة وثلاثين يوماً على الطريق، منها إحدى وثلاثون ليلة من الشير وسبعة أيام من التوقف

رقم - ٦ -

ملاحظات هفراتية حول البلدات شرال «الدينة» وشرنها

إن محطات القافلة بين دمشق والمدينة معروفة جيداً؛ وإن كان الأكثر أهمية على هذه الطريق، صمم حدود شبه الجزيرة العربية، هو «هجرة» على ما يبدو، أو كما يُدعى أحياناً، مائل صالح. وهو يبعد سبعة أيام شمال «المدينة»، كان يسكن هذا المكان، حسب آيات عديدة من القرآن (له فصل بعوان هاجر)، عرق بشري صحم يُدعى بوشمود، وقد دُمّرت منازلهم لأنهم أبوا الانصياع إلى نصيح النبي صالح وتحذيره ويمتد محيط بحر عدة أميال؛ وترتبه حصية تزويها نهار عدة وجدول متدفق من المياه الجاري وهذا أيضاً أقيمت محيّمات شاسعة للبدو وكان الزعيم الوهابي سعود يولي بناء مدينة على هذه البقعة لكن علماء معوه حين أعلنوا أن ذلك قد يكون عملاً غير نقي جزاء إعادة بناء مكان قد صبّ الخالق عليه جثم عصه وعقابه. ويحدّ هذا السهل الخصب من العرب جبل غير ذي شأن، ويقع على بُعد أربعة أميال من الأرض التي تحيّم عليها قافلة الحجّاج عادة.

في هذا الجبل، هناك كهوف كبيرة، أو مساكن لحفرت في الصخر فيها رسومات مقوشة لرحل وحيوانات متنوعة، ولها أعمدة صغيرة على الحائرين عند المدخل. وقد صدقت شهادة البدو، فإن هناك العديد من المخطوطات المقوشة على الأيوان؛ لكنني أعتقد بأن العرب ظلوا المقوشات تلك أحرافاً ولبصعور لون مائل إلى الأسود، وقد تكون إركابية لأن هناك بئر من المياه العذبة في الجوار. إن مرصني في المدينة، والوهس الذي تراه، حالاً دون يارتي بهذه البقعة التي تابعت منها إلى العقبة مباشرة على طرف الخليج الشرقي لبحر الأحمر

يدعو البدو لبلاد الواقعة بين هدية ودية كلها (وهي محطة لاحتجاج تقع أكثر إلى الشمال) مقاطعة شقة. وتدعى بلاد من هناك إلى عقبة الشام، أو العقبة السورية (وهي كذلك محطة للحج)، الصفا. إنها هذه العقبة التي يمكن أن توصف بدقة على أنها حدود شبه جزيرة باتجاه سوريا. ويمتد هذا جبل شديد الانحدار عرباً لعدة أيام باتجاه لبحر الأحمر، وشرقاً باتجاه داخل الصحراء إلى الشمال من ذلك الجبل، يدخل السهل الأعلى الذي يباع حتى دمشق وبين العقبة لسورية والعقبة المصرية هناك ممراً آخر عبر الجبل نفسه ويدعى باب السعد، أو بوابة السعد، لأن بدو سوريا الجنوبية (أو كما يدعوهم البدو العرب، أهل الشمال) يمزجون من هناك في طريقهم إلى نجد في هذه الممرات، يترك الوهابيون حراسة شديدة حين يقومون بحملات على بدو، وذلك كي يؤمنوا انسحابهم الخاص

لا يتم ارتياد طريق الحج من المدينة مباشرة إلى سوريا كثيراً، حتى في زمن السلم وأحياناً يهجم بعض التجار البدو بأحد حملات على الجمال من المهرة عبر هذه الطريق إلى دمشق؛ لكنهم مليئة بمجموعات متجولة من قبليتي بني عكران والمحيطات التي تعيش في الجبل العربي؛ وهم يربون مزاراً وتكراراً لسرقة مسافرين في السهل. إن الطريق الأكثر ارتياداً إلى الشمال من المدينة هي باتجاه بلاد قصيم التي تزود المدينة في زمن السلم، كما سبق وذكرت، بأنواع المؤن كلها وتقع الطريق إلى قصيم بين طريق الحج من جهة، وبين الطريق المباشرة إلى الدرعية (عاصمة الوهابيين) من الجهة الأخرى وكما في المدينة يدلوسي إلى اتجاه مطلقتي قصيم ونجد، وكثرت أجدها دائماً تقع

- شرقاً، ونصف شمالاً بالنسبة إلى قصيم/ من المدينة.

- شرقاً جنوباً بالنسبة إلى الدرعية/ من المدينة

وتقع طريق ثالثة بين طريق الحج والطريق المؤدية إلى قصيم؛ وهي تؤدّي مباشرة من المدينة إلى مقاطعة جبل سمر الذي يتم ارتياده كثيراً في زمن السلم. لكن الطريق الأكثر شيوعاً من

«المدينة» إلى جبل شتر، تمر عبر قصيم؛ وهي أصول يومين من تلك الأخيرة، يكتها أسهل للجمار وأقل مشقة لأن الماء يتوافر فيها بوفرة في حين أنه قليل في الطريق الأخرى. تزور القوافل المتجهة من «المدينة» إلى «نقصيم» المحطات التالية:

- «المدينة» - على مسافة ساعة من السير خلف حدائق (الطريق المازة شرق جبل أُنحد) هناك مساحة مكشوفة تُدعى العريص وفيها قبر شيخ تعلوه قبة. وبالقرب منه، هناك بئر تُدعى شر رشيد.

- على مسافة ثلاث ساعات من هناك، تقع الحفنا، وفيها قاع سبل من السيول.

- على مسافة تسع عشرة ساعة، هناك الصويدير. والطريق من حفنا إلى هذا المكان صحريّة، وترتفع مرتين، وهي صعبة للجمال وحالية تماماً من الماء. تقع صويدريين جبلين وفيها بعض آبار المياه المالحة وقد حُفرت في الأرض؛ وكذلك أشجار النخيل ويسكن الطريق من «المدينة» إلى هذا المكان «مريّة» (أو أمريّة)، وهم عرب من قبيلة بني حرب؛ وعرب حطيم؛ وبني صفر من القبيبة نفسها كذلك.

- على مسافة أربع ساعات، هناك وادي به آبار وأشجار نخيل.

- على مسافة سبع ساعات، تقع حكاكية في السهل وفيها العديد من البرك وآبار المياه العذبة المحصورة في الأرض. وتتوافر المياه هنا دائماً على عمق معين في الأرض. كما تظهر آثار قصر تديم دي معط عربي إسلامي، ونموها أشجار النخيل إنَّ هذا الموقع هام جداً وتزوره القبائل البدوية دائماً.

- بعد مرور ست ساعات، تقع أبو حشيب، وتمر الطريق من حكاكية إلى هذا المكان على سهل رملي. ويقع هذا الموقع بين جبسين، وفيه مياه آبار جيدة.

- بعد مرور اثنتي عشرة ساعة، هناك لهيمج، وهي محطة فيها مياه العذبة والمالحة.

- بعد ثماني ساعات، تقع الماوات، والطريق إليها من المحطة السابقة رمليّة مع جبال منخفضة خالية من الأشجار؛ كما يسمو بها العشب المدعو عحرف. تمتد أرض المراعي التابعة لقبيلة بني حرب حتى هيمج، ثم تبدأ مراعي عرب انطير وهي الماوات تتوافر أفضل مياه على الطريق كلها وهي عبارة عن بقعة رمليّة تقع عند مدخل صغير من الجبال.

بعد مرور ست عشرة ساعة، هناك البعجة، والطريق إليها من الماوات خالية من المياه وتقع على سهل رملي مع الجبال على الجاسير؛ وتُدعى السلسلة الواقعة إلى اليسار طاعية. وبعجة هي عبارة عن بقعة أرض ممتلئة مع أشجار وعشب وآبار من المياه العذبة والمالحة.

وعنى مسافة ثلاث ساعات، هناك معود، أو كما تُدعى بسب لربة «عرق الاسم» وهي سهل من الرمال العميقة يمتد مسافة أربع ساعات صولاً حيث تصبح الطريق بعده أقل رمنية وصعوبة، بل معصاة بحصى صغيرة.

- بعد أربع عشرة ساعة، تقع حرداوية، وهي سهل فيه «بر للمياه لعدبة. ومن هناك، بعد سبع ساعات، نصل إلى الدات، المدينة الأولى في منطقة قصيم؛ في المجموع، مائة ساعة.

- من الدات إلى الرض، وهي إحدى المدن الرئيسية في قصيم، تلع المسافة من أربع إلى خمس ساعات ومن الرض إلى مكان يُدعى حتره، هناك خمس ساعات. ومن حتره إلى شبيهه، أربع ساعات.

حسب الرحلات، القليلة التي يقوم بها البدو، فإن مئة ساعة تُعادل عشر أو إحدى عشرة مسيرة بهارته. وقد قام بالرحله هنا بالتفصيل جيش طوسون باشا لبلاد «استغرقت ثلاثة أيام من «المدينة» إلى حماكية، وثمانية أيام من هناك إلى الدات. وقام شخص يسمي إلى بلاط طوسون باشا بقياس المسافة عبر ساعاته ونسب لعمول المحطة بالخطوة لعشرة أو أحد عشر يوماً على الطريق بين «المدينة» والرض.

وقصيم، وهي المقاطعة الأوفر حصويه في منطقته نجد، بدأ عند الدات ويُطلق اسم نجد، الذي يعني الأرض المربعة أو العالية، على هذه البلاد؛ مقدس تهامة، أو «الأرض المحفصة»، التي تُطلق على ساحل اسحر. وهي تبعد عنها أرض مستطيلة تمتد بين ثلاثة إلى أربعة أيام من الشرق إلى الغرب، ورحلتان عرصاً من الجنوب إلى الشمال. وهناك حصن هذه المساحة ما يفوق الست وأربعين مدينة صغيرة أو قرية مأهولة بكثافة في منطقة مرروعة تُروى من مياه «بر عديده» والمدينة الرئيسية هي برنده حيث يقيم شيخ قصيم، وهو رجل كهل يُدعى الحجيلان، وقد كان فيما مضى عدواً للوهابيين لكنه الآن ارتد واعتنق عقيدتهم وتنتج المنطقة المخاورة للرض، كمكة الأكبر من الحطة. ويقع ذلك الجزء من قصيم حول الدات والرض. بالقرب من «المدينة» في رمل السُّلم، نصل قوافل بانتظام كل شهر إلى «المدينة» من الرض. وقد وجد جيش طوسون باشا الكثير من المؤن في قرى قصيم القليلة التي احتلها.

إن المكان الأكثر أهمية في قصيم هو عبيرة، ويُقدّر أنه يُصاغي من ناحية الخحم أسبوط في شمر مصر، التي كانت تحتوي على ثلاثة آلاف مرن، حسب الإحصاءات المصرية. ويسكن عبيرة تجار عرب محترمون، وفيها أسواق كثيرة. من المدن الأخرى والقرى، فإن الثانية هي الأكثر أهمية الشانه وسعد وحشاشيه، والهلاليه واليكيرييه وبطاح السهيلية والشبيهه وعيون وقوار ومدنب.

تحتيم قبائل صغيرة من عبيرة ولعبيسة (التي يقع مجلس رعييها على جبال الحجار التي يسكنها بنو حرب) والمطير وقبائل أخرى، خلال السنة كلها بين سهول قصيم والدرعية، عاصمة نجد، المقاطعة المتوسطة، وهي صحراء في أعلاها وتُدعى الوشم. وهناك، من الطريق الشرقي لمقاطعة قصيم إلى الدرعية، مسافة خمسة أيام. إن المكان الأخير في قصيم، من هذه الجهة، هو مذب ثم يبدأ وادي سر، وهو وادٍ عريض رملي فيه مراعي، ويمتد لعدة أيام باتجاه الدرعية عبر وشم.

وتحمل نجد، قرب الدرعية، اسم العارض، وكانت فيما مضى مقاطعة منفصلة عن نجد، لكنها تُعتبر ضمها الآن والعارض أقل حصوبة من قصيم التي تزودها بالمؤن بشكل جزئي في الواقع. ومدينتها الرئيسية هي لدرعية التي كانت دائماً مكاناً هاماً، وأصبح أكثر أهمية منذ أن تحوّث إلى عاصمة سُنة الوهابيين ومدهمهم. وقد تمّ أحياناً إرشادي إلى وُجْهتها، فوجدتها تقع شرقاً جنوباً من «المدينة» (دون إحصاء التبيين). كما أنّ اتجاه قصيم من «المدينة» يقع شرقاً ونصف شمالاً.

وتقع الدرعية في وادٍ ملاخلة صيقة جداً في الجهتين الشمالية والجنوبية، وتسمح فقط بمرور جمل واحد في آن. وتقع المنازل (بني العديد منها من الحجر) على منحدرات الجبلين، لأنّ الوادي نفسه صيّق جداً. ولم يتمّ تسييج المدينة بحداد. وبالإمكان تقدير عدد السكّان، بثلاثة آلاف رجل مسلّح بالسيفيات. وذلك حسب تقرير ابن در الدين يُصرّحون بأنّ المدينة قد رُوّدت الرعيم الوهابي بهذا العدد من الرجال. وهم يتألّفون من قبائل مختلفة، خاصة من «مقر» وهي فرع من قبيلة «السالم» التي هي جزء من عرق عبيرة العظيم ويسبّ سكان نجد كلهم جدورهم إلى قبيلة من القبائل البدوية؛ وهكذا، يدعى أهل الرصّ أنهم يتحدّثون من بني يمّ الدين يقيمون الآن في بجران، في اليمن. والقبيلة الأصغر عدداً وهي بو لثم (وهي مرتبطة بأولئك الذين يحملون الاسم نفسه على نهر الفرات، لكنهم ليسوا مثلهم من مذهب علي)، وقبيلة الشحوح الصغيرة، وتُسمى في العارض، وبأدراكاً من تحتيم خلف حدودها وتتزوّد الدرعية بالماء من الآبار. وقد كشف بن سعود، الرعيم الوهابي الأخير، ببوعاً خلف المنزل الذي بناه. ورعب في إقناع الناس بأنّ الله قد أوحى له في هذه المنطقة. ويقع منزل الرعيم الوهابي على الجبل، على مسافة عشر دقائق من المدينة، سيراً على الأقدام؛ وهو فسيح لكن ليس فيه أي شقق فاخرة أو فخمة؛ ولكنّ أعضاء العائلة الحاكمة المروّجين غرضهم الخاصة فيه؛ وهناك العديد من العرف للصيوف الذي يملأون المنزل باستمرار. فكلّ رعاء القبائل الذين يأتون إلى الدرعية من أجل الأعمال، يُدعّون إلى منزل الشيخ الكبير، أو قصره. وليس هناك أيّ خانات أو فنادق عامة، فيتحدّ كلّ غريب مسكناً له عند أحد سكّان. كما أنّ أهل الدرعية هم مصياعون

بشكل يُصرب به مثل. والمطقة المجاورة مباشرة، حرداء قاحلة وتنمو فيها بعض أشجار السحيل فقط. وتترؤد الدرعية بالمؤب بشكل رئيسي من صُرمة، وهي قرية كبيرة كثيفة السكان وتبعد مسافة يوم واحد في الاتجاه الشرقي أو الشمالي الشرقي؛ وفيها حدائق وبساتين تُروى من بار عريفة.

من لدرعية إلى مكة مسافة أحد عشر أو اثنا عشر يوماً من رحلات لقوافل الطويلة وعلى مسافة ثلاثة أيام حلف الدرعية، يقع من الأرض مروعة ومستوطنات صغيرة للعرب. ويؤ ما بقى من الطريق عبر أرض صحراء حتى وادي ريمة على مسافة يومين من مكة. وتُحسب المسافة من الرض (في انقصيم) إلى مكة بالثي عشر يوماً. ويعرُ انباه في هذه الطريق لأحيرة أكثر من الأولى، وتمرُ كذلك بوادي زيمة.

هناك طريق مسقبه من نجد إلى حبان الحجار (تستعمل هذه الكمة هنا بالمعى السوي، وأعي بها الحبان جنوب الطائف)، وإلى بلاد بيشة واسم، وهي تمرُ بقرية درية على لظرف الجنوبي من نجد، على الطريق الواسعة من النقصيم إلى مكة. وتقع الطريق من درية إلى بيشة على مسافة أربعة إلى خمسة أيام شرقي مكة. وبين درية ونزبه (الذكورة أعلاه) مرع فيها العديد من الآبار وتُدعى البقرة، وهي مكان للاستراحة معروف جداً من قبل بدو هذه البلاد كلهم؛ وهي تحضرُ قبيلة فريشات، فرع من عرب ضنة الذين يسكنون رنة.

وتشتهر نجد في أنحاء شبه الجزيرة كلها بمراعيها المستارة التي تكثر حتى في صحاريها بعد الأمطار ويرتاد سهولها عدد لا يُحصى من البدو الذين يقولون هناك معظم السنة ويشرون الحظلة والشعير من السكار خلال موسم الأمطار. يذهب هؤلاء البدو باتجاه قلب الصحراء حيث يقولون إلى أن تستهلك مواشيتهم مياه الأمطار التي تجتمعت في الأراضي الخوثة قبل الاستقرار الوهابي في المنطقة، كاسب مراعي نجد يحضرُ العيرة بشكل حصري، الذين ذكرهم سابقاً بأنهم أكبر القبائل البدوية في شبه الجزيرة العربية. وكانت أعداد كبيرة منهم ترتاد هذه الأراضي في فصل الربيع ويُعدون عنها القبائل الأخرى كلها باستثناء فسة البشير القوية التي تقيم في الصحراء بين قصيم والندية. وقد عزُر هؤلاء قوة لرفتهم عبر تحالفهم مع عرب قحطان، في حين أن العيرة كان يعاينهم بو شمان. وكان بين هذه القبائل كراهية وبغضاء متأصلة ومتواصلة كانت في كل ربيع كمن وراء الكثير من سبك الدماء، كما كانت تعترضُ معاملات التجارة مع الحجار وتوقفها. وكانت القبائل تفرص إتاوات قسرية على السكان المستوطنين في نجد. غير أن الوهابيين رانوا هذه العادة، وقام رعيمهم عوضاً عن ذلك بتنقي صرية أو رسم مستظم؛ وقام بمصاحبة الفريقين المتخاصمين وفتح مراعي جد أمام أي قبائل وهاية

تشاء ارتيادها. وقد أؤكد لي بسوي أنه بالإمكان رؤية عشرين محجماً لقبائل مختلفة هنا خلال مسيرة يوم واحد. هذا هو الأمر الذي حرصه الزعيم الوهايي الذي كان صلياً لا يرحم في معاقبة اللصوص.

وقد أنتجت مراعي نجد الحبيذة الوفرة سلاً من أجمل أصيلاً، ويكثر عددها هنا أكثر من أي مقاطعة أخرى في شبه الجزيرة. ويدعو العرب هذه البلاد «أم الإبل» أو أم الجمال، ويأتون إليها من المناطق كلها لتزويد قطعانهم وهي لا تروّد الحجار فقط بل سوريا واليمن أيضاً بالجمال التي يُباع لجمال العادي منها بسحو عشرة دولارات في نجد. وهناك أيضاً في هذه البلاد نسل جيد جداً من الجيد وممّر يُطلق على أحودها وأكثرها أصالة اسم «حمل بخادي» لكنّ النمود الوهايي قد تسبّب في إضعاف هذا النسل حيث باع العديد من العرب أجود حييهم في أجراء بعيدة. ولأنّ كانوا سيُرعمون على الثور أمام الزعيم الوهايي الذي كان يطلب دائماً عرقاً من الخيانة في أثناء حروبه.

غير أنّ نجداً تتعرض غالباً لندرة المؤن بسبب قلّة الأمطار التي تؤدي إلى ندرة المراعي وسرعان ما يؤثر ذلك في ماشية البدو الذين نادراً ما يتوقعون في هذه البلاد أكثر من ثلاث أو أربع سترات متتالية من الوفرة، على الرغم من أنّ الجمعية التامة لا تحدث أكثر من مرة كلّ عشر أو ثمان خمس عشرة سنة. وترافق ذلك عمة أمرض وبائية كالطاعون مثلاً، وهو عبارة عن حُمى عيفة (لكن دون الصّفاء أو الدّبر؛ ورمّ في عدة معاوية) تكون مميتة لدى أعداد كبيرة من الناس. وتسكن نجداً قبائل بدوية صغيرة لا تتركها أبداً، إلى جانب مستوطنين متزوجين معهم يسافرون غالباً كتنخّر إلى دمشق وبيداد و«المدية» ومكة واليمن. وهم يُصنّرون الجمال والعباءات الصوفية التي يصنع أفضلها في الحسا ويتلقون الأرز من بيداد (إنتاج صفاف نهر دجلة، والألبسة، خاصة «الكفّة»، أو اساديل المحطّطة بالسويين الأحصر والأصفر، ولقطن والصوف أو الحرير؛ ويعتمروها البدو فوق فلسوتهم. ويحصلون من مكة عبي القهوة والأدوية والعطور الشائعة الاستعمال بينهم، خاصة العطر المسّمى «أررا» الذي يأتي من محاب. وبشكل عام، تسود في نجد روح تجارية بشكل واسع، حيث يديع صيئ الحجار الأثرياء لصديقهم وبراهتهم أكثر من معظم التجار لشرقيين والمستوطنين هه مسلّحون بالسيفيات ويشكلون النسبة العظمى والكبرى من جود المشاة الوهايين، فهم عمة يتفوقون على البدو الذين يعرفون محاصيلهم ومراعيهم. وما أنّ الملح الصحريّ موجود في نجد، فكل عائلة تصنع مؤناتها الخاصة من البارود مسوياً.

وهناك في نجد العديد من الآبار القديمة مرسوفة بالحجارة، وينسبها السكّان إلى عرق بدائيّ

من العمالة ويبيع عمقها عامة من خمس وعشرين إلى ثلاثين قدماً وهي في معظمها ملك لأفراد يأخذون رسماً معيناً من القبائل التي ترزّد ماشيتها بأداء وهذا أيضاً العديد من آثار الأسبى القديمة ذات السبة الكثيفة لئسنة ولحجم الكبير، لكنها مهدّمة كلياً. وتُسبب هذه إلى قبلة عربية بدائية (أو ربما خرافية)، وهي مو تعمور، لي تظهر آثار أعمامها المرعومة أيضاً في الصحاري السورية شرقي سهل حوران.

إنما نجد من القبائل البدوية كلها الموجودة في شبه الجزيرة العربية. عائلات معدودة على الأقل في نجد، التي يسجأ إليها الهاربون ليأمنوا شرّ أعدائهم ويست هذه البلاد في الواقع موقع لحكومة الوهابية فقط، من تبدو المنطقة الأكثر أهمية بين المقاطعات الداخلية في شبه الجزيرة، بسبب حصونتها وكثافة سكّانها وموقعها المركزي وسهولة تواصلها مع المقاطعات الأخرى. ولاكتساب معرفة نفقة بالبدو، لا بد من مرفقتهم في نجد حيث تستمرّ عاداتهم دون تغيير بالغ عن الاحتلال الوهابي؛ وهم يُحافظون على كامل بقائهم لأصليّ، وكذلك لم يتمّ سوتهم بتدقّ عرب من الخارج، حيث لا عرباء بمزود غير نجد أبداً، باستثناء فاعلة الحج القادمة من بغداد. لهذا السبب، فإنني أعتبر نجد والحيد بين الطائف وصعده، الجزء الأكثر أهمية في شبه الجزيرة الذي تتوفر فيه موضوعات عديدة لبحث وسحقين لتي نهمّ أسامر، أكثر من أيّ جزء آخر فيها.

وتُدعى البلاد الواقعة من الدرعية شرقاً باتجاه الخليج الفارسي، وحتى حدود مقاطعة احسا التي تعد ستة أيام عن الدرعية، «درير»، منها ثلاثة أيام بلا ماء، إنّ مقاطعة احسا (أو كما تُكتب أحياناً «الأحساء») مشهورة بكثرة آبارها، وهي تمتد مسافة يومين بموااة ساحل البحر الذي تعد عنه مسافة خمسين أو ستين ميلاً؛ ويبلغ عرضها نحو خمسة وثلاثين ميلاً. وتُمكن حرارة المياه العرب من رعة الرسم الذي يُسهم في طعام، حود خبيثهم، فيقوم برعيم الوهابي بإرسال كلّ ما لديه من حيل كلّ موسم إلى هذا المكان.

إنّ مدينة «الحساء» (التي ساه القرامطة في العرون عاشر) كثيفه السكّان، ويقيم فيها بعض التجار الأثرياء، وتميطها جدران وأبراج؛ وقد صمدت بساح في وجه ناشا بعدد سنة ١٧٩٧م وهي أحد أهمّ حصون الوهابيّين الرئيسيّة ويحصل رعيمهم من هذه المقاطعة لخصبة على الجزء الأكبر من دخله. إنّ مرفأ البحر في الحساء هو «عقير»، وهي مدينة صغيرة على الخليج الفارسي يتنادى عرب مسقط كثيراً وقراصنة قليلة لقوامهم (أو الجواسم) ^(١) الذين يسكنون مرفأ رأس

(١) يسمى الإنكبير القواسم الذين وهو في وجه المستعمر الإنكبري - وبخاصة في البحر - بالقراصنة

الخيمة، ويكثر الطلب على العباءات الصوفية المصنوعة في الحسا، في أنحاء شبه الجزيرة العربية كلها وبلاد ما بين النهرين؛ ويبلغ ثمن الواحدة منها من عشرة إلى خمسة عشر دولاراً وتحتوي أراضي الحسا على نحو عشرين قرية، وأهم البدو الذين يقطنونها هم بنو خالد (وهي قبيلة تمتد على أجزاء عديدة من شبه الجزيرة)، وعرب بشر، وهي قبيلة من Benezes وقبيلة الزعبي. وهناك أيضاً، كما في نجد، بعض بني حسين، وهي قبيلة تنتمي إلى مذهب المذهب الإسلامي الشيعي.

تتوافر المياه بمرارة بين الحسا والبصرة. وتمتد الطريق من لدرعية إلى بغداد عبر مقاطعات القصيم وجبل شمر، فتتخذ اتجاهاً عربياً، إذ إننا لا نجد الماء في الصحراء في خط مستقيم بعد بلوغ قوار، وهي مدينة صغيرة على حدود قصيم، باتجاه جبل شمر (على مسافة ثمانية أيام من لدرعية) يتابع المسافر التقدم يوماً واحداً إلى «كهمة»، وهي قرية تقع ضمن أراضي جبل شمر وتتابع الطريق يومين اثنين في الأجزاء المروعة من هذه المقاطعة حتى نثر شبكة التي تتخذ شمر على هذه الجهة. من هناك إلى لسة يوم واحد، وهي مشهورة بآبارها العديدة والعيرة التي رُودت الجيش الوهابي كله بالماء ويرتاد هذا المكان عرب عيرة كثيراً. وهناك بحر بين نجد والفرات في الصحراء ترؤد مصانع البارود بي نجد بالكبريت

بعد ثلاثة أيام من لسة، في صحراء حالة من المياه، يصل المسافر إلى نثر شبكة، ومنها إلى مدينة مشهد علي، بعد يوم واحد وهذه هي الطريق الصيفية، ففي الشتاء، حين تجمع مياه الأمطار في برك على الطريق، يسافر العرب من نثر شبكة عبر الطريق المدعوة (درب يريسة)، وهي طريق الحج القديمة التي كان يسلكها الحجاج حين يذهبون إلى الحج. وهناك حرارات عديدة مرصوفة بالحجارة بها الحساء لترويد الحجاج بالماء وتمتد الطريق مباشرة من مشهد علي باتجاه جبل شمر، دون المرور ببينة وتبلغ المسافة من مشهد علي إلى حيان شمر ثمانية أيام، ويمر المسافر دائماً من بغداد إلى نجد بغير عبي. ويرتاد هذه الطريق كثيراً عرب عجيل خاصة، من بغداد، ومن بينهم عديدون من نجد، يقومون بزيارة كنخار متحويين غالباً. وتشمل تسمية «عجيل» كل بدو شبه الجزيرة المستوطنين في صواحي بغداد؛ وكانت هذه القبيلة فيما مضى قوية غير أنها ضعفت الآن كثيراً

عبر مقاطعة جبل شمر، أو كما يُدعى عامة «الحبل»، تقع أيضاً الطريق من نجد إلى دمشق وهي أرض جبلية تقع شمال شرقي مقاطعة قصيم، باتجاه المدينة إلى الشرق الشمالي. وسكانها هم بنو شمر الأقوياء، وهي قبيلة انتقل منها البعض إلى بلاد ما بين النهرين. وشيوخهم هو ابن علي، وهو أحد داعمي أو ماصري الحكومة الوهابية الرئيسيين. ويُقال أنهم قد درون على جمع

سعة آلاف بدقية وحم، مثل جبرهم في نجد، يررعون أشجار السحب مع مياه بحر ونبها من الآبار عبر قربات جديدة على الجمال إن حدى مدن الرئيسية في جبل شمر هي المسحدة؛ ويقال أن المدينة الأساسية هي حائل، والثانية حجماً هي كعد

من جبل شمر إلى دمشق، تمر الطريق بقاطعة الجوف التي تعد عنه خمسة أيام والطريق مليئة عميقة وحالية من مياه إلا ما تؤمه بئر شقيق التي تعد عن جبل شمر أربعة أيام، ويوماً واحداً من الجوف وأعتقد أنه ليس هناك أي محطة أخرى تعادها طولاً، وتحبو تماماً من المياه في أي جزء من شبه الجزيرة ترتاده القوافل، كما هي الحال خلال الأيام الأربعة بين «الجبل» وشقيق وتحصن بئر شقيق قبيلة عبيرة في لروالة ولا بد نكل من برعب في الذهب من جنوب سوريا إلى نجد، من المرور من هنا حتماً. ونعيب المياه كلياً من الجوف جنوباً، في خط مستقيم باتجاه خيبر والمدينة؛ لذلك لا يتم ارتياد هذه الطريق. ولا بد للعرب الداهيين من الجوف إلى «المدينة» من المرور عبر شقيق وشمار وقصيم متبعين طريقاً جانبية شديدة

إن إقامتي في «المدينة» في زمن الحرب، حين كان العداء ناشأ بين بدو الشرق وبدو شمالي الذين لم يأتوا إلى المدينة، حال دون حصوبي على معيومات كنت حصلت عليها لو أن السلام كان يعم حينها فحين تكون أخبار هكنا، نذهب فوافل صغيرة من حير وتيماء إلى «المدينة» باستمرار وخيبر مشهورة جداً في تاريخ شبه الجزيرة لأنها كانت مسرحاً لحروب إسلامية أولية في ظل محمد - صلى الله عليه وسلم - وعبي وحلفائهما. ويقال أنها تعد عن «المدينة» مسافة أربعة أو خمسة أيام (يقول البعض ثلاثة فقط)، على الطريق التي تمر بين طريق الحح إلى دمشق، والطريق المؤدية إلى قصيم ويأتي عرب حير في السلم بالتمر يسعون في «المدينة». ويقال أنهم دور بشرة دتمه داكسة أكثر من بدو الجوف؛ وقد يكون السبب في ذلك الحرارة المرمعة جداً التي تسيطر في هذه المنك المصحص. وتعد حير عن طريق الحح إلى سوريا مسافة ست ساعات تقريباً؛ وهي تقع، كما أعتقد، في الاتجاه الشمالي الشرقي من «المدينة» وبدواً كانا كانت تشكل في السابق جزءاً من أراضي شريف مكة. وحين استقر الشريف حس أبو اسم سنة ٩٦٦هـ، كانت أراضي مكة والطائف والقعدة وهالي ويشع و«المدينة» وحير، كما علمنا من الأعصمي وسكان حير الحياتون هم «ولد عبي»، وهي قبيلة من عبيرة، تجمع نحو ثلاثمائة من الخيالة وقد ميّر شيوخهم «عبدة» نفسه في الحرب الوهاية ويسكن فرع آخر من «ولد عبي» الصحاري قرب حور جنوب دمشق وهناك كذلك في حير محببات «الأولاد سليمان»، وهي قبيلة من عرب بيشة (كشعب عبيرة)، لكن «ولد علي» يذكور الأرض ومزارع السحيل.

وكان هناك سابقاً جالية يهودية مستوطنة في حبير، وقد احتضت تماماً. والاعتقاد الشائع في مكة وحدة يقول إن سلالاتهم لا تزال موجودة هناك وهم يمارسون شعائر دينهم بدقة. لكن، بعد التحقيق والبحث الدقيق في «المدينة»، علمت أن هذا الاعتقاد ليس مبنياً على أساس متين، وأنه لا يوجد أي يهود في الأجزاء الشمالية من الصحراء في شبه الجزيرة العربية. وينتمي اليهود الذين كانوا مستوطنين سابقاً في شبه الجزيرة، إلى قبيلة بني قريظة؛ وقد أتوا إلى «المدينة» بعد أن استولى يوحنا بن حنانيا على القدس؛ حين قدم «كرب بن حسان الحميري» (أحد مدرك تبع في اليمن الذين استولوا على مكة) بعبارة عن «المدينة» التي طوّقها؛ وحمل معه عدد عودته من هناك بعض بني قريظة إلى اليمن.

وكان هؤلاء أوّل يهود يستقروا في تلك البلاد، ولا يزال سلّهم في صعاء (راجع تاريخ السعدي عن «المدينة»)

تبعد مدينة تيماء الصغيرة مسافة ثلاثة أيام عن حبير، والمسافة نفسها عن حجر، في الاتجاه الشرقي ويسكنها عرب عبيرة، وتكثر فيها أشجار النخيل وهي لا تنتمي إلى نجد ولا إلى قصيم؛ وهي، مثل حبير، كانت مستوطنة بدوية مستقرة قبل زمن الوهابيين. وتشبه تلك المدن الصغيرة داخل شبه الجزيرة الواحات في الصحراء النائية؛ وتشكل نقاط التواصل بين البدو والبلاد المروعة المجاورة. وسكانها اندو مزارعون؛ وهم في أغلبهم تجار صغار يبيعون إخوانهم متجولين في الصحراء البساتين التي يشترونها من ساحل في المدن السورية أو في مدن شبه الجزيرة. وبإمكاننا رسم خط لهذه الواحات التي تشكل نقاط تقدم باتجاه الصحراء على طول الطريق جنوباً حتى «المدينة»، بدءاً ببند «بند» الصغيرة على الفرات. ويسكن البدو «الندري»^(١) والسحرة وتدمر والجوف ومعان وعلّا وحبير وتيماء. وهم يحثرون التربة ويشكلون طبقة متوسطة بين البدو والفلاحين. وقد تكون هذه المواقع بالغة الأهمية لمن يرعى في حصار البدو أو مُرافقتهم؛ وقد تصبح ذات أهمية هائلة عبر جعلها وسائل لإنهاء لشعب البدوي كله عشاعر أكثر ودية تجاه السوريين وسكان الحجاز

(١) هي «دير الزور» الحالية.

رقم - ٧ -

مُلَحَّنْ لرصف بيت الله أو مسجد مكة

تمنع الشريعة منك لدماء في مسجد مكة أو في المدينة نفسها، أو ضمن مساحة صغيرة حولها كما تحصر قطع الأشجار هناك أو قتل الحيوانات الذي يُعتبر أمراً مخالفاً للشريعة ويتم احترام هذه الخاصية للمسجد بشكل عام في الحالات الشائعة من ارتكاب الخُتْع. يباح العديد من الحُرْمين إلى بيت الله لهذا سبب؛ لأن ذلك يسم حرقه يُصاح فقد رُيْتُ بمسبي حدود محمَّد علي يمحضون بأحد الفارين من الجيش ويقصون عنه ويحزونه من عطء الكعبة يدي يعلّق به كما يقدّم تاريخ مكة أمثلة عديدة عن رجاء قُتِنوا في المسجد، من يسلم شريف مكة، جاران ابن بركات. حيث عتيل في أثناء تأدية الطواف حول الكعبة وقد شئت معارك داميه سنة ٨١٧هـ، ضمن حدودها المقدسة التي تمثل البقعة الأكثر اتساعاً وفتحاً في سبيله لساوشت وقد دخل أحياناً بعض الخيلة وأمصور، لليل بأكمله في انداحر هيكلاً بقول بالتالي إن هذه اميرة تصبح عديمة الفائدة عندما يكون الحاجة إليها ماسة جداً كحمية للأخمين مثلاً من المتسخط انطاعي مسست أما فيما يتعلق بقدسية الأرض. فليست سوى اسم، ويبدو أنه لا يتم احترامها إلا قليلاً حتى في العصور الأولى للإسلام^(١) إن مساحة لأراضي المقدسة وامتدادها تم تحديدها بشكل محتف من قبل المؤرخين الثلاثة الذين أمست كتبهم، والذين كانوا أنفسهم مكين كما يحتف الأئمة أو المؤسسون لأربعة للمذاهب الستة حول هذه الموضوع. ويبدو في الوقت احاصر أن امتياز الأرض المقدسة قد تم سببه تقريباً وقد مر بها في كل اتجاه، مسيحيون غير مؤمنين من جيش محمَّد علي أو طوسون باشا الذين راوا حل عرفات، رعم أنهم لم يدخلوا مكة. وخلافاً لعاليهم محمَّد - صلى الله عليه وسلم - يسم الآن فصع الأشجار في الجدر القريبة حلف مكة؛ كما لا يُجمع أحد من إصلاق الدر في الأودية المحورة ولا يُحترم لا سهل عرفات وحده، فلا تُقطع الأشجار هناك أبداً إن منطقة المقدسة، أو كما تُدعى «حدود الحرم» يُفترض أنها في الوقت احاصر، مُسيجةً بشك لمواقع لتي يوضع فيها الإحرام عند الأقتراب من مكة. وهي: النهدي إلى العرب وعسفان إلى لشمال روادِي مُحَرَّم إلى شرق وذات أرك إلى الجنوب وقد أشار علي بك العباسي إلى هذه المنطقة في خريطة كمقاطعه خاصة أو أراض مقدسة، وتُدعى «بلاد الحرمين». لكن الوقع أن مثل هذه المقاصعة لم تكن أبداً

(١) يلقى المؤلف كلامه على عواهنه، من غير دليل.

موجودة، ويُطلق اسم بلاد الحرمين على أراضي مكة والمدينة وليس على هذه المساحة المقدسة.

رقم - ٨ -

ملاحظات لغوية

إننا نسمع في محادثات الناس العامة والمادية في مكة العديد من الكلمات العربية التي باتت مهجورة في أماكن أخرى، والتي لا يستعملها سوى الكتاب القديرين، إلى جانب عبارات عديدة من القرآن أيضاً، التي لم تعد تُستعمل في مكان آخر. فهم ما زالوا يحافظون، ولو جزئياً، على لغة قريش الأصلية. ونستعمل بعض القبائل البدوية المجاورة خاصة منها قبيلة فهم وهذيل، لهجة أكثر نقاءً وتخلو من الاصطلاحات والتعبيرات العامة والأخطاء في قواعد اللغة. وقد حضرت أحياناً دروس أحد الشيوخ في المسجد، الذي أضاف إلى لغته العربية الممتازة، نتائج دراست في القاهرة؛ فلم أسمع في حياتي لغة عربية محكية بهذه البراعة والإتقان. وكان يتفاخر بترسيم كل حروف اللين، ليس فقط في أثناء القراءة بل أيضاً في حديثه؛ فكانت كل كلمة تفوه بها نقيّة تماماً.

لا بُد أن نعزو فساد اللهجة المحكية المكية إلى انتشار تجارتهم مع الغرباء، حين نقارنها مع لهجة بدو الجوار؛ رغم أنها لا تزال مثلاً للنعومة بالنسبة لأبناء سوريا ومصر. ويقلد المكيون في لفظهم نقاء اللهجة البدوية؛ إذ إن لكل حرف صوته ورنينه ونغمته المحددة والتميّزة. فهم يلفظون حرف الكاف (ك) مثل حرف (K) في اللغة الأجنبية، وحرف القاف (ق) مثل حرف (G) الرقيق (كما في كلمة Going الأجنبية)، رغم أنهم، في أثناء صلاتهم في المسجد، وفي أثناء قراءة القرآن، يلفظون هذا الحرف من الخنجرة بملء النفس الذي يلفظونه به في سوريا، وهو اللفظ الحقيقي له. ويُلفظ حرف الجيم (ج) (دجيم)، لكثته في الجبال إلى الجنوب وفي داخل اليمن، يُلفظ (غيم) كما في القاهرة. وإن لفظ ألف (أ) الخنجري تتم مراعاته هنا حيث يُهمل في أماكن أخرى غالباً.

إن الخطأ الوحيد في اللفظ المكي هو أنهم، إلى جانب البدو، يُشدّدون جداً على القسم الأخير من الكلمات المؤلفة من مقطعين لفظيين؛ فيقولون مثلاً: ذهب (مع التشديد على الفتحة الثانية)، وسفر (مع التشديد على الفتحة الثانية) وهكذا مع لحم ومطر وصبي وغيرها.

لقد كان أهل اليمن الذين رأيتهم في مكة يتكلمون العربية، فيلفظون هذه اللغة بالجدارة

والإتقان نفسيهما تقريباً كالمكيين. فكان أهل صنعاء يتكلمون بقاء لكن مع لهجة حادة؛ إلا أن اللفظ الحجازي، كاللهجة البدوية، هو بالعموم التي قبلها اللغة.

لقد قيل أن اللهجات العربية تختلف اختلافاً شاسعاً عن بعضها بعضاً؛ ويؤكد Michaelis، وهو أحد المستشرقين عميقي المعرفة، على أن اللهجة الحجازية تختلف عن المغربية اختلاف اللاتينية عن الإيطالية. كما يميز أحد المسافرين الشرفاء النبلاء تمييزاً دقيقاً بين لغة الموريتانيين واللغة العربية، زاعماً أنه يفهم الأخيرة وليس الأولى. وحتى Niebuhr الدقيق المجتهد، يبدو أنه كانت لديه بعض المفاهيم غير الصحيحة حول هذا الموضوع. لكن أبحاثي وتحقيقاتي الخاصة قادتني إلى تكوين رأي مغاير تماماً. فهناك بالتأكيد تنوع واسع في اللهجات العربية، ربما أكثر منها في لغات أخرى. لكن، على الرغم من الامتداد الشاسع للبلاد التي تسود فيها اللغة العربية، من أغادير إلى مسقط؛ فإن من تعلم لهجة سيفهم الآخرين كلها وبسهولة. أما فيما يتعلق باللفظ، فكل من بإمكانه التهجئة بشكل صحيح، لن يشعر إلا بقليل من الإحراج والانزعاج من تنوع الأصوات، لكنه سرعان ما يعتاد على ذلك. ويتم التعبير عن المعنى نفسه غالباً بكلمات مختلفة، لكن ذلك ينطبق على الأسماء المستقلة أكثر من الأفعال. كما أن العديد من الكلمات التي تستعمل في بلد ما لا تستعمل في آخر. فيقال في سوريا مثلاً: «خبز»، بينما يقال «عيش» في مصر؛ والكلمتان عربيتان أصليتان، فهي لغة غنية بالمفردات. غير أن اللهجة السورية ما زالت تحتفظ بما قد بات مهجوراً في مصر. وانطلاقاً من النموذج الذي قدمه Niebuhr عن اللهجتين المصرية والحجازية، أستطيع أن أظهر، كلمة كلمة، أنه ليس هناك أي كلمات أو عبارات رفيعة في المجموع. فإذا قال المصري «اقعد»، وقال ابن شبه الجزيرة «اجلس»، فالأثنان يستعملان الكلمات العربية الأصلية للتعبير عن الشيء نفسه، وإحداها شائعة أكثر في شبه الجزيرة، والأخرى في مصر؛ في حين أن كل من اخلط مع الحشود، أو تلقى ثقافة عادية، يستطيع فهم الكلمتين. وهناك ما يبرز استعمال الإنكليزي لكلمة "Steed"، وهي تعني الخواد (خاصةً المطهّم)، بدل حصان "Horse"؛ وهكذا، يدعو المغربي الحصان «عود»، والعربي الشرقي بدعوه «حصان»؛ غير أن العديد من الشعراء يستعملون كلمة «عود»، التي باتت في الوقت الحاضر مبهولة تماماً لدى العامة في مصر. ربما نشأ هذا الاختلاف أو التنوع في العبارات من استيطان قبائل مختلفة، لكل منها معجم خاص متميز. فمن المعروف أن «الفيروزآبادي» جمع المواد وصنّفها في معجمه الشهير «القاموس المحيط»، وذلك عبر التنقل من قبيلة إلى أخرى. وقد أخذ العرب المنتشرون في البلاد المختلفة، مصطلحاتهم ولهجاتهم معهم؛ إلا أن المخزون الموحد للغة بقي معروفاً لكل من يجيد القراءة والكتابة.

وقد يكون اللفظ قد تأثر بطبيعة البلدان المختلفة، حيث حافظ على نعومته في أودية مصر

الشفلى وبلاد ما بين النهرين، وأصبح فظاً غليظاً بين الجبال الثلجية في بلاد المغرب وسوريا. وكما أعلم، فإن الفارق الأكبر يظهر بين مغاربة المغرب وبدو الحجاز قرب مكة ولكن اختلاف اللهجتين ليس أكبر من الاختلاف بين ألمانية فلاح «سواي» وألمانية رجل سكسوني. وقد سمعتُ رجالاً متعلمين في سوريا يُعبرون عن جهلهم للعديد من العبارات البدوية التي تستعملها القبائل داخل الصحراء، خاصة «عنيزة» التي، من جهة ثانية، لا يفهم أفرادها بعض الكلمات في اللهجة المدينية السورية. لكن حاجات البدوي وعاداته تختلف إلى حد بعيد عن تلك الخاصة بأحد أبناء المدينة، إذ إن أحدهم لا يستطيع العثور على العبارات التي تعبر عن أفكار الآخر.

أما بالنسبة إلى اللفظ، فإن أفضله يعود لبدو شبه الجزيرة والمكيين وأهل الحجاز. ويليه في النقاء لفظ بغداد واليمن. إن اللفظ في القاهرة هو أسوأ منه في أي جزء آخر في مصر؛ وأضع بعده لغة أو لهجة العرب الليبيين الذين يملكون لكنة اللفظ المغربي المزوج بالمصري. ثم تأتي العربية المحكية في السهول الشرقية والغربية في سوريا (في دمشق وحلب وساحل البحر)؛ وتليها لهجة الجبلين السوريين والدروز والمسيحيين؛ وإلى جانبها لهجة ساحل بلاد المغرب، وطرابلس ونونس؛ وأخيراً اللكنة القاسية الفظة التي يتميز بها المغربي، وأهل فاس الذين لهم بعض الأصوات المختلفة عن أي نغمة أخرى، وهي تنقسم إلى عدة لهجات. غير أن العرب في الجانب الشرقي من جبل «أطلس»، يلفظون لهجتهم المغربية بفظاظة أخف بكثير من جيرانهم الغربيين. لكن لا بد لي من أن أعترف أنه من بين اللهجات العربية كلها، لا تبدو لي أي واحدة أكثر إزعاجاً وتشويهاً من لهجة الرجل الغندور الشاب المسيحي في القاهرة وحلب.

رقم - ٩ -

ملاحظات طوبوغرافية عن وادي مكة وجبالها (مقتطفة من تاريخ الازرقعي)
مع ذكر الاسماء التي تُطلق على كل جزء (*)

إن الجبال المختلفة التي تشكل السلسلة الجنوبية من وادي مكة هي:
- جبل فاضح، في الجزء الأسفل من جبل قبيس، بالقرب من المدينة - الخندمة، وهو كذلك

(٥) قد يلاحظ هنا أن بدو الزمن الحاضر لا يزالون يستعملون لكنة الصخرة أو الصخرة الثالثة أو السهل الصغير، اسماً خاصاً فريداً، وهو أمر يجعل من تاريخ شبه الجزيرة غامضاً أحياناً، لأن الأسماء تغيرت أحياناً مع مرور الزمن.

جزء من قُبَيْس - جبل الأبيض، ويدعوه العرب الوثنيون: مِشْشَزْرَة، وهو يسمي أيضاً إلى جبل قُبَيْس - مُزَازِم - قُرْن مصقلة، وهو السلسلة السفلى من شعب عامر - جبل بنهان، يقع في المكان نفسه - جبل يقيان، على طرف شعب عامر - جبل أعرج، قرب الأخير - جبل المطابخ، أو شعب عامر، وهو يُدعى كذلك لأن ملوك تُبَع في اليمن أسسوا هنا مطبخهم، حين اجتاحت مكة - شعب أبو دُب - شعب الصفا، أو جبل راحة، شعب بني كنعان - شعب الحور - شعب عثمن.

على الطرف الشمالي، هناك: - الحزورة، كانت هنا سابقاً سوق مكة - الجثمة - رُقَاق النار - بيت الأزلام - جبل زرزرة في الجاهلية التي تُدعى القيام - جبل عُمر، في الجاهلية التي تُدعى داء عسير - جبل الأدخر^(٥)، في زمن الجاهلية التي تُدعى المزهبات، أو العضاض - جبل الحزنة - شعب أرني - ثنية كذا - بطن ذي طوى - جبل المقتا - فاه، وهو وادٍ خلف بوابة جدّة - الممدرة - المغش، حيث اقتطعت قطع الرخام المستعمل في المسجد - الحرورة - جستير - مقبرة النصاري - جبل البرود - ثنية البيضة - الحصاص - داء المدور - جبل مُسلم - وادي ذي طوى - ثنية أم الحرث - جبل أبو القيط - فج - شعب أشرس - شعب المطلب - ذات خليلين - جبل كبش - جبل رحي - البغيغة - جبل كيد - الأرق - ذات الحنظل - العقلا - شعب العرنية - العلقا - شعب اللّبن - ملحّة الغربا - ملحّة الجروث - قبر العبد

على الطرف السفلي من مكة، هناك: الجياد أو جياذ - راس الإنسان، يقع بين جبل قُبَيْس والجياد - شعب الحتم، قرب الجياد - جبل خليفة - جبل غراب - جبل عُمر - غداف - المقبعة - اللحجة - القدفدة - ذات اللّعي - ذو مراح - السلفين - الضّخاضخ - ذو الشديد - ذات السليم - أضات النبط، وتُدعى كذلك من قبل بعض النبطيين الذين أقاموا هنا، وقد أرسلهم معاوية بن أبي سفيان لصنع الهاون في مكة - أم قردان.

على الطرف الشمالي من المعلا، هناك: جبل ديلامي - جبل شيب - جبل حبشي - شعب المقبرة - أبو دجانة - جبل ليام - الغراب - شعب الأخنس، ويدعى كذلك الخوارج، أو الغيشوم - القاعيد.

على الطريق باتجاه مكة، هناك: المفجر أو الحضر - شعب حوّا - الزّباب - ذو الأراكة - العنيرة، في الجاهلية تُدعى سميرة - السّدير.

(٥) الأدخر هي عثبة، يحلظها الكثير مع الملائع عند بناء منازلهم. والعضاض هي شجرة شائكة، سائدة في شبه الجزيرة.